حتى يُغيِّرك القرآن

رحلة القلب عبر ثلاثين جزءًا





حتى يُغيّرك القرآن...

رحلة القلب عبر ثلاثين جزءاً

الجزء الثاني – الأجزاء من ١١ إلى ٢٠

تأليف: دريد إبراهيم الموصلي (أبو مريم)

تنبيهٌ وإخلاءُ حقّ

كتبي كلّها صدقةٌ جاريةٌ عنّي وعن زوجتي وعن الأمة الإسلامية، أبتغي بها وجهَ الله وحده، ولا أرجو منها عوضاً ولا مقابلاً من أحد.... وعليه... فإني أُسقِطُ جميعَ الحقوقِ المادّية، وأجعلُ الانتفاعَ بها حقّاً مشاعاً لكلِّ مسلمٍ على وجهِ الأرض؛ فاطبعوا ما شئتم، وانشروا ما شئتم، واستنسخوا ما شئتم،

وتداولوا ما شئتم، ولكم في ذلك مطلقُ الحريّة... دون حاجةٍ إلى استئذانٍ منّي، ولا طلبِ إذنٍ سابق... أسألُ اللهَ أن يتقبّلها صدقةً جاريةً، وأن ينفع بها ما حييتُ وبعد مماتي، وأن يجعل حظّي منها الإخلاصَ والقبول.

٦٥٧ صفحة

١٧ × ٢٤ سم

تدارس القرآن الكريم،

رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة –

( ) لسنة

حتى يُغيّرك القرآن...

رحلة القلب عبر ثلاثين جزءاً

– دريد الموصلي –


بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الحادي عشر: حين تُفْضَحُ الأقنعةُ ويُختَبَرُ الصدقُ ويُبنى الدينُ على التقوى لا على الحِيَل

ميزان الصدق تحت سُلطان الرَّبِّ الواحد

المدخل الوجداني التأسيسي:

هذا الجزء ليس سرداً لأحداثٍ مضت... بل كشفٌ لطبيعة النفس حين تُنادى إلى الحق ثم تُؤثر السَّلامة على الصدق، وتطلب العذر لتبقى في الظل، وتستتر خلف ألف كلمةٍ من التبرير وهي في حقيقتها لا تريد أن تدفع ثمن الانتماء، فتأتي الآيات لتقول بوضوحٍ لا يُجامل: إن المشكلة ليست في نقص المعلومات... بل في قلبٍ رضِيَ بالدَّعَة، واطمأنّ إلى التَّخلُّف، ثم خُتِم عليه فصار لا يعلم؛ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فليس كل مُتخلّفٍ معذوراً، ولا كل مُبرّرٍ صادقاً، ولا كل كلمة "أعتذر" تُنقذ صاحبها إذا كان الاعتذار ستاراً لا توبة.

ثم يمضي الجزء ليهدم ثقافة "إرضاء الناس باليمين"؛ أيمانٌ تُرفع لا لتعظيم الله، بل لتوجيه القلوب نحو الرضا البشري، وكأن اليمين أداة علاقاتٍ عامة لا مقام تعظيمٍ وخوف، فيأتي القطع الحاسم: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾، ويأتي الميزان الذي لا يخدع: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾، ثم نهاية الطريق التي لا مهرب منها: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ فالدين هنا يُربّي على حقيقةٍ مركزية: أن السَّرائر ليست خارج الحساب، وأن الأيمان لا تُبدّل الحقائق، وأن رضا المؤمنين عنك ليس شهادة نجاة إذا كان الله لا يرضى عن فسقٍ تُصرّ عليه؛ ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

ثم يفتح الجزء نافذةً على بيئةٍ اجتماعية تصنع صورة التدين أو تُفسده: الأعراب نموذجٌ للغِلظة حين تفصلهم الخشونة عن فقه الحدود، لا لأنَّ الدِّماء والأنساب تحكم، بل لأن البعد عن مجالس الوحي يُنتج جفاءً في الفهم وغلظةً في السلوك؛ ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾، ثم لا يترك القرآن السَّامع أسير التعميم؛ فكما في كل بيئةٍ قسوةٌ وإيمان، كذلك هنا: من يجعل النفقة "مَغْرَماً" ويتربص الدوائر، ومن يجعلها "قُرُبَاتٍ" عند الله ويمدُّ قلبه إلى صلوات الرسول دعاءً وتزكية؛ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً...﴾ ثم ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾، وكأنَّ الرسالة: لا تحاكم الناس بالواجهات... بل بنية النفقة، وبصدق الانتماء، وبموقف القلب من الطاعة.

ثم يعلو سقف المثال إلى القمّة التي يُقاس عليها كلُّ من جاء بعدهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، ليُقال لك: إن الرضا ليس شعاراً يُلتقط، بل ثمرةُ سبقٍ وتضحيةٍ واتباعٍ بإحسان... ثم لا يتركك القرآن تتوهّم أن المدينة نقاءٌ مطلق؛ ففي المحيط منافقون، وفي الداخل نفوسٌ "مَرَدَت" على النفاق لا تُرى بالعين، لكن الله تعالى يراها ويعلمها؛ ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، كي لا يغترّ مؤمنٌ بقرب المكان، ولا يأمن على قلبه من فتنة السَّريرة.

ثم يفتح باب الرجاء لمن صدق في الاعتراف ولم يتزيّن بالكذب: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾، فيُربّي هذا الجزء على أدبٍ عظيم: أن النجاة لا تبدأ بادّعاء الكمال، بل بصدق الإقرار... ثم يأتي العلاج الذي يُطهّر ويُزكّي حين يُؤخذ بحقّه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، وتأتي الطمأنينة التي لا يصنعها بشرٌ ولا مديح: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾، ثم يُرسخ المعنى العقدي الذي يُعيد القلب إلى الله وحده: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ... وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾؛ فلا توبة تُقبل إلَّا منه، ولا صدقة تُرفع إلَّا إليه، ولا عمل يُوزن إلَّا بعلمه.

ثم يَستأنف الميزان العملي الذي يقطع طريق التلاعب: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ ليست رقابة بشرية تُنتج رياءً، بل شهادةٌ تُذكِّر أن العمل لا يعيش في الظلمة إلى الأبد، وأنه سيُرى، ثم سيُردّ صاحبه إلى من يعلم الغيب والشهادة؛ ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، ثم يترك القرآن باباً لمن تُؤجَّل قضيته لحكمةٍ ربانية: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾، لتتعلم أن أحكام الدنيا ليست نهاية المطاف، وأن الفصل الأخير بيد الله تعالى.

ثم يُفجّر الجزء قضيّة "البناء"؛ بناء المسجد لا يكفي إن كانت النِّيَّة فساداً، فها هم يتخذون مسجداً لا ليقربوا القلوب إلى الله بل ليصنعوا مركزَ ضرارٍ وكفرٍ وتفريقٍ وإرصادٍ، ثم يقسمون أنهم ما أرادوا إلا الحسنى، فيشهد الله عليهم بالكذب؛ ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، ويأتي الحكم الفاصل: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾، ثم يضع القرآن قاعدة العمر: أن البناء المقبول ما أُسِّس على التقوى من أول يوم، وأن معيار الطهارة معيار محبةٍ إلهية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾؛ فالدين ليس عمارةً تُرفع... بل أصلٌ يُغرس... والفرق بين مسجدٍ ومسجدٍ قد يكون في النِّيَّة لا في الجدار.

ثم يضرب المثال الذي يليق بهذا الجزء كله: بنيانٌ على تقوى ورضوان، وبنيانٌ على شفا جرفٍ هارٍ ينهار بصاحبه في النار؛ ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، ثم يُبيّن أن آثار النفاق ليست لحظة وتنتهي؛ بل ريبةٌ تبقى في القلب حتى تتقطع القلوب، لأن المرض إذا استقر صار جُرحاً داخلياً لا يلتئم بسهولة؛ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

ثم يرتفع الخطاب إلى ذروة الصدق: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، هنا تُكتب الهوية: لستَ مالكاً لنفسك على الحقيقة، بل أنت عبدٌ يبيع لله بيعاً يليق باليقين، ثم تُرسم ملامح هذا العبد: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ... وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾؛ فالتوبة عبودية، والعبادة شكر، والحمد هواء القلب، وحفظ الحدود سياج النجاة، لا شعاراتٍ بلا التزام.

ثم يأتي الفصل العقدي الحاسم في باب الولاء والبراء والرحمة المنضبطة: لا يُستغفر للمشركين بعد تبين مصيرهم، ولو كانوا أولي قربى؛ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾، ثم تُذكر قصة إبراهيم عليه السَّلام لتُفهم الرحمة على وجهها الصحيح: وعدٌ سابقٌ لا علمٌ بالحال، فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه؛ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾،

← ليعلم القلب أن الرَّحمة لا تُبنى على مخالفة الوحي،

← وأن البراءة ليست قسوةً بل انقيادٌ للحق.

ثم يضع الجزء قاعدةً تحرس العقول من الشبهات: أن الله لا يُضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم ما يتقون؛ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾، ثم يقرر ملك الله المطلق للحياة والموت والولاية والنُّصرة؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فلا وليّ ولا نصير من دونه؛ وهذه ليست عبارة وعظية، بل حقيقة تُنقذ القلب من التعلق بمن لا يملك.

ثم يعود بك إلى ساعة العُسرة؛ ساعةٍ يظهر فيها معدن الاتباع الحقيقي، فيتوب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فيها، لأن الاتباع في الضيق أعظم شهادة؛ ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، ثم تشرق قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا لتعلم أن التوبة قد تُربّى بالألم حتى تبلغ الصدق الكامل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ثم ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾، ثم

تنزل الرحمة: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾، فينتهي بك هذا المسار إلى وصيةٍ هي عنوان النجاة في زمن الأقنعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾؛ فالصدق ليس خياراً تجميلياً... بل طريق نجاة.

ثم يقرر الجزء أن التخلف عن رسول الله ليس تفويت عملٍ فحسب، بل خللٌ في المحبة والاتباع؛ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ... أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾، ويكشف أن كل عطشٍ ونصبٍ ومخمصةٍ وخطوةٍ تُغيظ الكفار، وكل نفقةٍ صغيرةٍ أو كبيرة، وكل وادٍ يقطعونه في سبيل الله... كلها تُكتب عملاً صالحاً لا يضيع؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ هنا تتعلم أن تفاصيل التعب ليست هدراً إذا كانت لله تعالى.

ثم يوازن القرآن توازناً يبني الأُمَّة: ليس كل المؤمنين ينفرون كافة، بل تنفر طائفة لتتفقه، ثم تعود لتنذر قومها؛ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ... طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾؛ فالدين لا يُحمل بالعاطفة وحدها ولا بالحماسة وحدها، بل بعلمٍ يُنذر، وبقلبٍ يتقي.

ثم يختم الجزء بميزانٍ فاضح: كل سورةٍ تنزل تزيد المؤمنين إيماناً وبشرى، وتزيد أصحاب المرض رجساً إلى رجسهم؛ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، ثم يعجب القرآن من تكرار الفتن عليهم وعدم توبتهم، ويكشف انصرافهم النفسي عن الحق: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ثم تُطلّ عليك رحمة الرسول ﷺ في أبهى صورةٍ لتفهم معنى القيادة النبوية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ثم يختم التوكل الذي تُسند إليه الأرواح: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

ثم تُفتح سورة يونس لتُعيد تأسيس اليقين من جديد: هذا كتابٌ حكيم، وهذه الرسالة ليست عجباً لمن يعرف سُنن الله، والعبادة لا تُؤخذ من أهواء البشر بل من ربٍ خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش يُدبّر الأمر، فلا شفاعة إلا بإذنه؛ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، ثم يقرر المرجع: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾، ويكشف سرّ الوجود: ابتداء الخلق ثم إعادته للجزاء بالقسط، ويُعلِّمك أن الكون آياتٌ لمن يتقي: اختلاف الليل والنهار، والشمس والقمر، وتقدير المنازل، وأن الغفلة عن الآيات ليست نقص معلومات بل مرض وجهة؛ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾.

ثم يفضح القرآن طبيعة الإنسان حين يمسُّه الضُّر فيدعو الله على أي حال، فإذا كشف الله ضُره مرَّ كأن لم يدعه، فتتربى النفس هنا على الوفاء لا على الاندفاع الموسمي؛ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا﴾، ثم يُذكرك بهلاك القرون بالظلم، وبالاستخلاف في الأرض ليُنظر كيف تعملون؛ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ... لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ثم يقف بك أمام جريمة اقتراح تبديل القرآن أو الإتيان بغيره، فتسمع الجواب الذي يقطع طريق الهوى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾، ثم يُعاد بناء العقل على أن الله لو شاء ما تلي عليهم، ثم يُذكّرهم القرآن بحقيقةٍ تُسقط كل دعوى: أن النبي ﷺ عاش بينهم سنين طويلة يعرفون صدقه وأمانته، فكيف يُتَّهَم الآن بالكذب؟؛ ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

في هذا الجزء تُوضع النفس أمام مرآةٍ لا ترحم، لا لأنها قاسيةٌ في خطابها، بل لأنها عادلةٌ في ميزانها؛ فالقرآن هنا لا يكتفي أن يُخبرك أن الشرك باطل، بل يعرّيك من جذره: كيف يلتجئ الإنسان إلى ما لا يملك نفعاً ولا ضراً ثم يعلّق قلبه عليه باسم "الشفاعة"، فيأتي السؤال الذي ينسف أصل الوهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ

أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ فكأنَّ الوحي يقول:

← أتجعلون لله علماً لم يعلمه؟

← أتثبتون شفعاء بغير إذنٍ ولا برهان؟

إنما هو افتراءٌ يلبس ثوب الدين، والله منزَّهٌ عن ذلك كله.

ثم يأخذك السياق إلى أصلٍ إنسانيّ قديم: الناس كانوا أُمةً واحدة ثم وقع الاختلاف، ولو شاء الله لقضى بينهم من أول لحظة، لكنه أجرى سُنَّته في الإمهال والابتلاء حتى تتم الحجة وتنكشف السرائر؛ ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، فتتعلم أن التأخر في الفصل ليس ضعفاً في العدل، بل حكمةٌ في الامتحان، وأن الوقت الذي يُترك لك ليس حقاً مكتسباً، بل فرصةٌ لتعود قبل أن يُغلق الباب.

ثم تظهر طبيعة المعترضين: لا يريدون هدايةً بقدر ما يريدون "آية" على مقاس أهوائهم، فإذا لم تُجبهم إلى مقترحاتهم اتهموا الرسالة، فيأتي الجواب الحاسم الذي يُربّي القلب على التسليم: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾؛ فالغيب ليس ملعباً للمزايدات، ولا ساحةً لإثبات الذات، بل ملكٌ لله وحده، ومن صدق انتظر حكمه، لا حكم مزاجه.

ثم يفضح القرآن مرضاً خفياً في النفس: أنها إذا ذاقت رحمةً بعد ضراء لم تُسارع إلى الشُّكر، بل قد تُسارع إلى المكر، وكأنها تستثمر الآيات لتكسب لا لتتوب؛ ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾؛ فتفهم أن الله لا تغيب عنه حيلة، وأن ما يُدبَّر في الخفاء مكتوبٌ محفوظ، وأن النجاة ليست في ذكاء التفلت، بل في صدق الرجوع.

ثم تأتي لوحة البحر لتعيد ترتيب معنى التوحيد في قلب الإنسان: يمشي في البر والبحر، ويغتر بالرِّيح الطيبة، فإذا جاءت الريح العاصف وهاج الموج وظن أنه أحيط به انقطع عن كل سببٍ وصرخ بالتوحيد خالصاً؛ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ... دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، ثم إذا نجا عاد كثيرٌ منهم إلى البغي في الأرض بغير الحق، فيُذكّرهم القرآن أن هذا البغي يرتد عليهم، وأنها متاعٌ قليل ثم مرجعٌ إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون؛ ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ... ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾،

← لتتعلم أن إخلاص الشِّدة لا يكفي إن لم يتبعه إخلاص الرَّخاء،

← وأن الإيمان الذي لا يصمد بعد النجاة مجرد انفعالٍ لا عبودية.

ثم يضع لك القرآن صورة الدنيا كما هي:

١. ماءٌ ينزل من السماء فتختلط به نباتات الأرض،

٢. ثم تزدهر وتزخرف وتُزيَّن،

٣. ويظن أهلها أنهم قادرون عليها،

٤. فإذا جاء أمر الله ليلاً أو نهاراً صارت حصيداً كأن لم تغن بالأمس؛

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾، وهذه ليست دعوةً لترك الدنيا، بل دعوةٌ لترك الغفلة عنها؛ أن تعمل فيها بقلبٍ يعلم أنها تمر، وأن يبني فيها ما يصلح للقاء الله لا ما ينهار عند أول عاصفة.

ثم يفتح الباب الذي يليق بمن فهم: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ دعوةٌ إلى سلامٍ حقيقيٍّ لا تصنعه المسكنات، ثم يضع جزاء المحسنين: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، ويضع جزاء المسيئين: ذلةٌ لا عاصم لهم من الله، كأنما أُغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً،

← فيتجلى الفرق بين من عاش مع الوحي فاهتدى،

← ومن عاش مع شهوته فتعثر.

ثم يرفع الستار عن مشهد الحشر الذي تنكشف فيه حقيقة كل رابطةٍ قامت على باطل: يُحشرون جميعاً، ويقال للمشركين وشركائهم اثبتوا مكانكم، ثم يُفصل بينهم فلا نصرة ولا اجتماع؛ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً... فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، وتتبرأ الشركاء: ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، ويشهد الله بين الفريقين، ثم تأتي الحقيقة التي لا يهرب منها أحد: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛

١. هناك تُختبر كل نفسٍ بما قدمت،
٢. وهناك تسقط كل خرافةٍ كانت تُزيّن لهم الباطل،
٣. وهناك لا يبقى في الولاية إلا "المولى الحق" سبحانه.

ثم يجيء سؤال البرهان الذي لا يملكه إلا التوحيد:

← من يرزقكم من السماء والأرض؟
← من يملك السَّمع والأبصار؟
← من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟
← من يدبر الأمر؟

فيقولون: الله... فيأتي التعقيب الذي يوقظ الضمير: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ثم تُقال القاعدة الفاصلة: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ أي كيف تُحوَّلون عن الحق بعد أن أقررتم به؟ وكيف تُتركون للضَّلال وقد عرفتم طريق الهدى؟ ثم يقرر أن الكلمة حقت على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون، لا لأن الحق غامض، بل لأن الفسق إذا أصرّ صاحبه عليه صار حجاباً يمنع النور.

ثم يستأنف البرهان في صورته الثانية:

← هل في شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾،

← وهل فيهم من يهدي إلى الحق؟ ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾،
← ثم يفضح ميزان الاتباع حين يصبح ظناً لا يقيناً: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً﴾..

فيتربى القارئ على أن الدين لا يقوم على تخمينٍ ولا مزاج، بل على وحيٍ وبيان.

ثم تأتي الخلاصة التي تحفظ للقرآن مقامه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فهو ليس صناعة بشرٍ تُجرَّب أو تُقترح لها بدائل، ومن ادعى الافتراء فليأت بسورةٍ مثله وليدع من استطاع من دون الله إن كان صادقاً؛

ثم يكشف أن تكذيبهم ليس عن علمٍ محيط، بل عن استعجالٍ وعمى عن التأويل؛ ثم يبيّن أن منهم من يؤمن ومنهم من لا يؤمن، وربك أعلم بالمفسدين، ثم يعلّم النبي ﷺ أدب المفاصلة حين يستحكم الجحود: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، ثم يعرض أحوال من يسمعون بلا عقل ومن ينظرون بلا بصيرة، ويختم قاعدة العدل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ثم يمرُّ بك على مشهد الحشر كأنهم ما لبثوا إلَّا ساعةً من النهار، يعرف بعضهم بعضاً ثم تنطفئ الألفة، ويثبت الخسران لمن كذَّبوا بلقاء الله، ثم يقرر أن مرجعهم إلى الله وأن الله شهيد على ما يفعلون، وأن لكل أُمَّةٍ رسولاً فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يُظلمون.

ومن هنا يشتد السؤال الاستعجالي: متى هذا الوعد؟ فيأتي الجواب الذي يقطع الاعتراض: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، ولكل أُمَّةٍ أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون، ثم يستمر الاستفهام: أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون؟ ثم إذا وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون؟ ثم يُعرض مشهد الافتداء المستحيل والندامة المكتومة حين يرون العذاب، ويقضي بينهم بالقسط وهم لا

يُظلمون، ثم تُقال الكلمة الجامعة: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، و﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، و﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ فلا معنى للجدل إذا كان المرجع واحداً، والحكم واحداً، والمُلك لله وحده.

ثم يلتفت الوحي إلى الناس جميعاً لا إلى المؤمنين وحدهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم يُضبط الفرح بضابطه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، ثم يُسأل من يحرّم ويحلّل بلا إذن: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، ثم يُقرر فضل الله العام مع غفلة كثيرٍ من الناس عن الشُّكر، ثم تأتي رقابة الله القريبة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ... إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾، فلا ذرة تغيب، ولا عملٌ يضيع، ثم تتلألأ بشارة الأولياء: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله، ثم يُعزّى قلب النبي ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ لأن العزة لله جميعاً وهو السّميع العليم، ثم يُعاد تفكيك الشرك: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، وأتباع الشركاء لا يتبعون إلا الظّن والخرص، ثم تُعرض آيات الليل والنهار للسكون والبصيرة، ثم تُردّ دعوى الولد عن الله تنزيهاً وتقديساً: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾، ثم يُعلن أن المفترين على الله لا يفلحون، وأن لهم متاعاً في الدنيا ثم إلى الله مرجعهم ثم يذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون.

ثم يبدأ خبر نوح ليُقال لك: إن طريق الدعوة ليس طريق استرضاء، بل طريق توكلٍ وثباتٍ وصبرٍ طويل، ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾، ثم يأتي الإنقاذ لأهل الإيمان والإغراق للمكذبين، ثم تتكرر سُنن إرسال الرُّسل بالبينات، ورفض المعاندين، حتى يُبعث موسى وهارون إلى فرعون وملئه، فيستكبرون ويجرمون، ويُرمى الحق بالسَّحر، ويؤتى بالسَّحرة، ثم يعلن موسى: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾، ويقرر الوعد: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون، ثم يظهر

إيمان الذرية على خوفٍ من فرعون وملئه، وتُربّي القلوب على التوكل: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾، ويكون الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ثم النَّجاة برحمة الله.

ثم تأتي توجيهات العبادة في البيوت وإقامة الصلاة والبشارة للمؤمنين، ثم دعاء موسى على فرعون وملئه حين صار المال زينةً تُصد عن سبيل الله، فيقال لهما: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾؛ فالإجابة لا تعني العجلة، بل تعني الاستقامة، ثم مشهد البحر والنجاة والغرق، ثم كلمة فرعون عند الغرق لا تنفعه: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾، ثم تكون آية البدن لمن خلفه، ثم يُبوَّأ بنو إسرائيل مبوّأ صدق ويرزقون من الطيبات ثم يختلفون بعد العلم، ويقضي الله بينهم يوم القيامة.

ثم يثبت اليقين: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فلا تكن من الممترين، ولا تكن من المكذبين، ثم تُقرر السُّنّة: من حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم، ثم تلمع استثناءات الرحمة: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزي ومتعهم إلى حين، ثم تُردّ دعوى الإكراه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾، وتُقرر أن الإيمان لا يقع إلَّا بإذن الله، وأن الرِّجس يُجعل على الذين لا يعقلون، ثم يدعوهم للنظر في السماوات والأرض، ويقرر أن الآيات والنذر لا تغني عن قومٍ لا يؤمنون، ثم ينتقل إلى سُنن الأيام التي خلت: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا﴾، ثم وعد النجاة: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم إعلان التوحيد والبراءة: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾، ثم النهي عن الشِّرك والدعاء لغير الله، ثم قاعدة قدر الله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، ثم ختم الرسالة: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، والرسول ليس وكيلاً على قلوبهم، وإنما عليه البلاغ واتباع الوحي والصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

وهنا تماماً يقع الربط الدقيق بين نهاية يونس وبداية هود: نهاية يونس تُثبّت قلب النبي ﷺ على منهج واحد لا يتغير: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾، ثم تأتي هود لتقول لك من أول آية: هذا الوحي ليس كلماتٍ متفرقة تُقرأ ثم تُنسى، بل كتابٌ مُحكمٌ مُفصّلٌ صادرٌ من حكيمٍ خبير، فمنهج الاتباع والصبر الذي خُتمت به يونس، هو نفسه باب الدخول إلى هود: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، ثم تُعلن الغاية التي لا تقبل لبساً ولا مزاحمة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، فالتوحيد هنا ليس عنواناً عاماً، بل أصلٌ تُبنى عليه الحياة كلها، ثم يأتي دواء الطريق: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، فتبدأ الرحلة لا من جلد الذات ولا من التبرير، بل من استغفارٍ يُنظّف الداخل، وتوبةٍ تُصلح الاتجاه، ووعدٍ بمتاعٍ حسنٍ إلى أجلٍ مسمى، وإيتاء كل ذي فضل فضله، ثم تحذيرٌ من الإعراض: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، ثم الحقيقة التي تجمع خاتمة يونس ومقدمة هود: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، فالمصير واحد، والحكم واحد، والعبرة ليست بما تُظهره للناس، بل بما يراه الله في الصدور.

ثم يُسدل الستار على آخر معنى في هذا المطلع: أن بعض الناس قد يثنون صدورهم ليستخفوا من الله، ويستغشون ثيابهم، ويتوهمون أن الستر ينفع مع العليم، فيأتي القطع الذي يُربّي الخشية بلا تهويل: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ فهذه هي خلاصة الجزء كله: لا تنفع الأقنعة مع الله سبحانه وتعالى، ولا يُنجي إلا توحيدٌ صادق، وتوبةٌ صادقة، واتباعٌ للوحي لا يُبدّل، وصبرٌ حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

الخريطة البنيوية لآيات هذا الجزء

- بدايةُ الجزء مرآةٌ لا تُجامل؛ سبيلُ المؤاخذة على من استأذن وهو غنيٌّ ثم رضي بالتخلّف، فصار الرضا بالدُّون خَتماً على القلب قبل أن يكون موقفاً في الخارج ﴿وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.
- الاعتذارُ حين تنكشف الحقيقة لا يصنع صدقاً؛ لأن الميزان ليس كلمات الرجوع بل شهادةُ الله على الأخبار والعمل، ثم الرجوعُ إليه للحساب ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.
- الأَيمانُ قد تتحوّل إلى أداةِ تهرّبٍ وابتزازٍ عاطفيٍّ لطلب الإعراض، لكن الطهارة ليست في تصديق اليمين بل في ثبات المعيار ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.
- أخطرُ الانحراف أن تُدار الحياةُ على رضا الناس لا على رضا الله؛ فالقبول الاجتماعي قد يجتمع مع سخط الله تعالى ﴿فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.
- البيئةُ لا تمنح حصانةً تلقائيّة؛ فالأعراب قد يكونون أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألّا يعلموا حدود الوحي، لأن العبرة بنور العلم لا بقرب المكان ﴿حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾.
- النفقةُ تفضح النِّيَّة؛ فريقٌ يراها مغرماً ويتربّص الدوائر، وفريقٌ يجعلها قرباتٍ عند الله، فالفارقُ في المعنى قبل المبلغ ﴿أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.
- النموذجُ الأعلى يُرفع لئلا يختلط الطريق؛ سابقون أولون ثم تابعون بإحسان، رضاً متبادلاً لا يُنال بالادّعاء بل بالصدق ﴿رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾.
- النفاقُ قد يجاورك وأنت لا تعلمه؛ لأن بعض القلوب مَرَدَت على النفاق حتى صار مهارةَ تزييفٍ لا يفضحها إلا علم الله ﴿لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾

- الاعترافُ الصادق يفتح باب الرجوع؛ خلطُ العمل لا يُبرَّر به، لكنه يُستقبل بتوبةٍ تُصلح المسار ﴿عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.
- التطهيرُ ليس شعاراً بل معالجة؛ صدقةٌ تُطهّر وتُزكّي، ودعاءُ الرسول سكنٌ للقلب حين يعود من الضلال إلى الاتزان ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.
- التوبةُ ليست مستحيلةً ولا عشوائية؛ الله يقبلها عن عباده ويأخذ الصدقات، فالمعنى أن الطريق إليه مفتوحٌ لمن صدق ﴿أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾
- العملُ هو البرهان النهائي؛ لأن ما يُخفى في المجالس سيظهر في الميزان، والله ورسوله والمؤمنون يرون أثره ثم يكون التقرير عند الله ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ﴾.
- في الناس من يُؤخَّر أمره لاستخراج الحقيقة؛ لأن الحكم ليس استعجالاً عاطفياً بل عدلٌ تحت علمٍ وحكمة ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ﴾.
- الدين قد يُستَخدم ضد الدين؛ مسجدٌ بالاسم وضرارٌ بالنِّيَّة، يُبنى للتفريق ويُغطّى بالحُسنى، والفضيحة شهادةُ الله ﴿وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.
- الميزانُ ليس شكل البُنيان بل أصلُه؛ مسجدٌ أُسِّس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، لأن الأساس هو الذي يرفع العمل أو يهدمه ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾.
- ثنائيةُ البناء تحسم كل مشروع؛ تقوى ورضوان أو شفا جرفٍ هار، والنهاية ليست رمزية بل مصيرٌ ينهار بصاحبه ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.
- البُنيانُ الفاسد لا يزول أثره سريعاً؛ يبقى ريبةً في القلب حتى يتقطّع، لأن الذنب إذا صار نظاماً صار جرحاً مقيماً ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

- إعلانُ الصفقة الكبرى يضع النهاية منذ الآن؛ الإيمان بيعٌ لا أمنية، نفسٌ ومالٌ مقابل جنّة ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾.
- ملامحُ أهل الصفقة ليست زخرفاً؛ توبةٌ وعبادةٌ وحمدٌ وسياحةٌ وركوعٌ وسجودٌ وأمرٌ ونهيٌ وحفظُ حدود ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾.
- الولاءُ العقدي لا تذيبه القرابة؛ حدٌّ يقف عنده القلب إذا تبيّن أن الطريق إلى الجحيم طريقُ شركٍ لا يُستغفر له ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.
- قصةُ إبراهيم تُعلّمك أن الحنان لا يُناقض البراءة؛ الوعد شيء، والتبيّن شيء، فإذا بان العداء لله كانت المفاصلة ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.
- الهدايةُ ليست لافتةً تُرفع؛ الله تعالى لا يُضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم ما يتقون، فالعلمُ حراسةُ الطريق ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.
- السيادةُ لله وحده؛ ملكُ السماوات والأرض، يُحيي ويُميت، فلا وليّ ولا نصير من دونه، وكل اعتمادٍ سواه نقصٌ في التوحيد ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.
- ساعةُ العُسرة تفضح الميل الخفي؛ توبةٌ تشمل النبي والمهاجرين والأنصار حين كاد يزيغ قلب فريقٍ منهم، لأن الثباتَ نعمةٌ تُستعاد بالتوبة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾.
- ضيقُ الأرض وضيقُ النفس يبلغ ذروته ليُخرجِ الحقيقة؛ لا ملجأ إلا الله، ثم توبةٌ تُعيد القدرة على السير ﴿لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾.
- الاصطفافُ ليس شعار مرحلةٍ بل قرار عمر؛ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين، لأن النجاة مع الصدق لا مع التبرير ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

- قيمةُ الطريق تُكتب في التفاصيل المنسيّة؛ ظمأٌ ونصبٌ ومخمصةٌ وموطئٌ يغيظ الكفار ونيلٌ من عدوّ... كلّه يتحوّل عملاً صالحاً مكتوباً ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- توازنُ الأُمَّة ضرورة؛ نفرٌ للثغور ونفرٌ للفقه والإنذار، لأن حفظ الدين حربان: حربُ حدودٍ وحربُ قلوب ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾.
- النصُّ واحدٌ لكن القلوب تتشقق تحته؛ آيةٌ تزيد قوماً إيماناً واستبشاراً، وتزيد آخرين رجساً إلى رجسهم ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾–﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً﴾.
- الفتنةُ تتكرر على المريض فلا يعود؛ لأن المشكلة ليست في قلة العلامات بل في رفض التوبة ﴿ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.
- انصرافُهم ليس حركة أقدام بل عقوبة قلوب؛ يُصرفون لأنهم قوم لا يفقهون، فالعقوبة تبدأ بفقدان الفهم ﴿صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم﴾.
- الختام في التوبة يردّك إلى رحمة الرسالة؛ رسولٌ من أنفسكم، رءوفٌ رحيم، ثم توكّلٌ خالص حين يُعرض المعرضون ﴿حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.
- مطلعُ يونس يرفعك من جزئيات السلوك إلى أصل اليقين؛ هذا كتابٌ حكيم ووحيٌ وإنذارٌ وبشارة، والقدم عند الرَّب للصدق لا للزينة ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.
- التوحيد الكوني يُبنى بلا غموض؛ خلقٌ وتدبيرٌ وعرشٌ واستواءٌ يليق بجلاله، ولا شفاعة إلا بإذنه، فاعبدوه وحده ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، والتوحيد الكوني معناه: أن ترى الكون كله يعمل بأمر الله وحده... فهذا توحيدٌ في "الكون"، أي في الخلق والتدبير، لا في العبادة فقط.
- الرجوعُ إليه وعدٌ حقّ؛ يبدأ الخلق ثم يعيده للجزاء بالقسط، فالدنيا ليست خاتمة المشهد ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً﴾.

- آياتُ الزمن والكون تربي التقوى؛ شمسٌ وقمرٌ ومنازل وحساب واختلاف ليل ونهار، لتتعلم أن الحياة ليست فوضى ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.
- مرضُ الدنيا حين تصير وطناً نهائياً؛ رضا بها واطمئنان وغفلة عن الآيات، فالمأوى نار لأن القلب أغلق باب اللقاء ﴿رَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾.
- الإيمان الحق يثمر هدايةً جارية؛ يهديهم ربهم بإيمانهم، فتجري تحتهم الأنهار، ويصير الختام حمداً ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾.
- طبيعة الإنسان تُعرّى؛ دعاءٌ في الضُّرّ ونسيانٌ في الرخاء، كأن لم يدع، فتُفضح عبودية الحاجة لا عبودية الرب ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾.
- سنّةُ الإهلاك لا تُروى للتاريخ بل للإنذار؛ ظلمٌ ثم بينات ثم نهاية المجرمين، ثم استخلافٌ ليرى الله تعالى كيف تعملون ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.
- طلبُ تبديل الوحي علامةُ ضيقٍ بالحق؛ والرسول لا يملك تغييره، إنما يتبع ما يوحى ويخاف العذاب إن عصى ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾.
- الشركُ لا يملك حجة؛ دعوى شفعاء بغير علم، وتنزيهٌ لله عن شركهم ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.
- المشاهد البحرية تعيد تعريف الإخلاص؛ عند الموج يُخلصون الدين، فإذا نجاهم عادوا للبغي، فتنكشف نوايا النجاة لا نوايا العبودية ﴿دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.
- الدنيا زينةٌ تخدع النظر؛ تتجمّل وتبلغ ذروة بهجتها، ثم يأتي أمرُ الله تعالى فجأة فيجعلها كأنها نباتٌ قُطع من أصله ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾، لتدرك كم كان تعلُّقك بها هشّاً.
- الدعوة الكبرى ليست إلى الهروب بل إلى السلام؛ الله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾.

- يوم القيامة تفترق الأوهام؛ شركاؤهم يتبرؤون، ويُردّ الجميع إلى المولى الحق، وتبلو كل نفس ما أسلفت ﴿وَرُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾.
- سؤالُ الفطرة يقطع كل التفاف؛ من يدبّر الأمر؟ سيقولون الله، فبعد الحق لا يبقى إلا الضلال إن انصرفوا ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلاَلُ﴾.
- الظنّ لا يصنع ديناً؛ أكثرهم يتبع الظّن، والظن لا يغني من الحق شيئاً، فالنجاة علمٌ ويقين ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾.
- القرآن شهادةُ صدقه في ذاته؛ لا يُفترى من دون الله، تصديقٌ وتفصيلٌ لا ريب فيه من رب العالمين ﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ﴾.
- السَّمعُ والبصرُ قد يتحولان إلى قشرة؛ يستمعون ولا يسمعون، ينظرون ولا يبصرون، لأن المشكلة في القلب لا في الحاسّة ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾.
- أصلُ العدل أن الله لا يظلم؛ لكن الإنسان يظلم نفسه حين يرفض الهدى، فالمأساة اختيارٌ لا قهر ﴿وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.
- الأجلُ حقيقةٌ لا تستأخر؛ لكل أُمَّة أجل، فإذا جاء لا يتقدمون ولا يتأخرون، فلا تغترّ بمهلةٍ ليست أماناً ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.
- الإيمان المتأخر لا يعيد الزَّمن؛ حين يقع العذاب يُقال: الآن؟ وقد كنتم به تستعجلون، فباب الاختيار له نهاية ﴿آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.
- الموعظة دواءٌ للصدر لا زينةٌ للسان؛ جاءت موعظة وشفاء وهدى ورحمة للمؤمنين، فالقرآن علاجُ الداخل ﴿وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾.
- الفرحُ الذي ينجّي هو بفضل الله ورحمته؛ لا بما يجمع الناس، لأن ما يجمع يُترك، وما عند الله يبقى ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾.
- التشريعُ ليس أهواء؛ تحريمٌ وتحليل بغير إذن افتراءٌ على الله، وأقسى العواقب يوم القيامة ﴿أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾.

- الرقابة الشاملة تطهّر الخلوات؛ ما تكون في شأن ولا تتلو من قرآن ولا تعمل من عمل إلا كان عليكم شهوداً، ولا يعزب مثقال ذرة ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾.
- ولايةُ الله أمنٌ عميق لا مظهرٌ عابر؛ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لأنهم آمنوا وكانوا يتقون ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.
- العزة تُستعاد حين تُردّ لله؛ لا يحزنك قولهم، فالعزة لله جميعاً، وهو السَّميع العليم ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾.
- تنزيهُ الله أصلٌ لا تفصيل؛ من قال اتخذ الله ولداً فقد قال على الله بغير علم، والله غنيٌّ له ما في السماوات والأرض ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾.
- سُننُ الرسالات تُثبّت قلب الداعية؛ توكل نوح، نجاة المؤمنين، هلاك المكذبين، لأن العاقبة ليست للمكر بل للحق ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾.
- ومشهدُ موسى عليه السَّلام أمام السِّحر يعلّم أن الحق لا يقوم على صخبٍ ولا على استعراضٍ؛ بل على ثقةٍ راسخةٍ بوعد الله، فالسِّحر مهما عَلا باطلٌ مآله الزوال، لأن الله هو الذي يُبطله ولا يُصلح عمل المفسدين، وهو الذي يُثبت الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴿إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾–﴿وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾.
- إيمانُ اللحظة الأخيرة عند نزول العذاب لا ينفع صاحبه؛ لأن الإيمان المقبول هو ما كان عن اختيارٍ قبل انكشاف الحق قهراً، أما إذا حضر الغرق وزال مجال الاختبار، فقيل لفرعون توبيخاً: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾.
- الاستثناء الذي يوقظ الرجاء: قومُ يونس نفعهم إيمانهم حين آمنوا، لأنهم رجعوا قبل الإغلاق ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾.

- حريةُ الإيمان تحت سلطان الله؛ لو شاء لآمن من في الأرض جميعاً، لكن جعل الاختيار مسؤولية، وجعل الرجس على من لا يعقل ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.
- البراءةُ من الشرك إعلانُ هوية؛ عبادةُ الله وحده، وإقامة الوجه للدين حنيفاً، وترك ما لا ينفع ولا يضر ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾.
- مفاتيحُ الطمأنينة في الضُّرّ والخير؛ لا كاشف للضُّر إلَّا هو، ولا رادّ لفضله إذا أراد خيراً، فالتعلق به نجاة ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.
- نهاية يونس قرارُ السير: اتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله، لأن الحكم الأخير ليس للبشر بل لله ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾.
- مطلع هود يُحكم البناء كله؛ كتابٌ أُحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير، وجوهره التوحيد والإنذار والبشارة ﴿أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللّهَ﴾.
- الطريق العملي لخاتمة الجزء: استغفارٌ ثم توبة، متاعٌ حسنٌ إلى أجل مسمى، ثم مرجعٌ إلى الله وهو على كل شيء قدير ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾.
- آخرُ خيطٍ يشدّ الرحلة من أولها لآخرها: لا اختفاء على الله؛ يعلم السرّ والعلن، ويعلم ما تُخفي الصدور تحت الثياب ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

المحورُ الإيمانيُّ المركزيُّ في هذا الجزء

يدور حول حقيقةٍ كبرى متكرّرةٍ في جميع مشاهده وتفصيلاته،

← وهي أنَّ الإيمان ليس دعوى تُقال، ولا انفعالاً عابراً، ولا موقفاً جزئياً في ظرفٍ معيّن، بل هو اصطفافٌ صريحٌ تحت سلطان الله الواحد، في السرّ قبل العلن، وفي العسرة قبل اليسر، وفي الرخاء قبل الشدّة،

← مع وعيٍ دائمٍ بأن الله مُطَّلعٌ على الصدور، مُحيطٌ بالأعمال، مُهيمنٌ على المصائر،

← وأن كلَّ بناءٍ لا يُؤسَّس على التقوى سينهار،

← وكلَّ صفقةٍ لا تقوم على الصدق ستنكشف،

← وكلَّ قلبٍ لا يحسم ولاءه سيبقى مُعرَّضاً للزَّيغ والرِّيبة.

فالجزء يفتح ستار القلوب لا ستار الوقائع؛

١. يُعرِّي الاعتذار الكاذب،

٢. ويُسقِط الأيمان المصطنعة،

٣. ويُبيِّن أن معيار القَبول ليس رضا الناس بل رضا الله،

٤. وأن النفاق قد يُجاور الصفَّ الصالح،

٥. وأن التوبة ليست شعاراً بل رجوعاً صادقاً يُترجَم عملاً وتزكيةً وتطهيراً،

ثم يرتفع بالمشهد إلى قضية البناء كله: أهو على تقوى ورضوان أم على شفا جرفٍ هار؟ ليُقرِّر أن أساس العمل أهمُّ من شكله، وأن النِّيَّة هي التي تمنح الفعل قيمته أو تُحوِّله إلى ريبةٍ مقيمةٍ في القلب.

ثم ينتقل إلى إعلان العقد الأعظم: أن الحياة ليست مُلكاً ذاتياً للإنسان، بل هي صفقةٌ مع الله سبحانه وتعالى، نفسٌ ومالٌ في مقابل الجنّة، وأن صفات أهل هذه الصفقة ليست زخارف روحية بل التزاماً عملياً يحفظ حدود الله، ويُقيم الصدق، ويُحسن الاصطفاف، ويضبط الولاء والبراءة وفق ميزان الوحي، لأن الإيمان لا يكتمل حتى تُحسم الهوية العقدية بوضوحٍ لا لبس فيه.

ويُعيد هذا المحور تثبيت القلب في مواجهة الفتن المتكررة؛

- ساعة العسرة،
- وضيق النفس،
- وكشف السرائر،
- وتقلّب القلوب عند نزول الآيات،

ليُظهر أن النَّصّ الواحد يزيد المؤمنين إيماناً ويزيد أصحاب المرض رجساً، وأن

الفتنة ليست غياب الدليل بل غياب الصدق، وأن النجاة ليست بكثرة العلامات بل بسرعة الرجوع قبل فوات الأوان.

ثم يتسع الأفق في سورة يونس ليُعاد تأسيس التوحيد على مشهد الكون كله؛

- خلقٌ وتدبيرٌ وملكٌ وإحياءٌ وإماتة،
- ومرجعٌ وجزاء،
- وامتحانٌ بالاستخلاف،
- وكشفٌ لتقلُّب الإنسان بين دعاءٍ في الضُّرّ ونسيانٍ في الرخاء،
- وضربُ مثل الدنيا بزخرفٍ يزول،

ليثبَّت في القلب أن الثبات على الحق لا ينبني على الظَّنِّ، ولا على تقليد الشركاء، ولا على استجابةٍ مؤقتةٍ تحت ضغط الخوف، بل على يقينٍ بأن الله هو الربُّ الحقُّ، وأن ما بعد الحق إلا الضلال.

ويُختم المسار بترسيخ المعنى نفسه في مطلع هود: كتابٌ أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيمٍ خبير، وجوهره ألَّا يُعبد إلا الله، مع استغفارٍ وتوبةٍ صادقة، ووعيٍ دائمٍ بأن الله يعلم السِّرَّ والعَلن، فلا مهرب من علمه ولا خروج عن سلطانه.

إذن فالمحور الإيماني الجامع لهذا الجزء هو:

١) ترسيخُ صدقِ العبودية تحت رقابة الله الشاملة،

٢) وبناءُ الحياة كلِّها على تقوى لا على مظهر، وعلى يقينٍ لا على ظنّ، وعلى صفقةٍ واضحةٍ مع الله لا على تديُّنٍ انتقائيٍّ أو عاطفةٍ عابرة،

حتى يستقرَّ القلب في مقامٍ واحدٍ:

أن الله هو الحق، وأن لقائه حق، وأن النجاة في أن تكون مع الصادقين، وأن تتبع ما يوحى إليك، وتصبر حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها هذا الجزء

← أولاً: الانحراف العقدي

أخطرُ ما يكشفه هذا الجزء هو الانحراف في أصل التوحيد؛

١) أن يُزاح الله سبحانه وتعالى من مركز الحياة دون تصريحٍ صريح، فيُستبدَل رضاه برضا الناس، ويُستبدَل حكمُه بحسابات الواقع، ويُستبدَل يقينُ اللقاء بالاطمئنان إلى الدنيا، فيتحوّل القلب من عبوديةٍ خالصة إلى عبوديةٍ مشروطة، ومن يقينٍ بالمرجع إلى الله إلى انشغالٍ بالنتائج العاجلة، ولذلك يُعيد النصّ مراراً تثبيت الحقيقة الكبرى ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

٢) ويُعرّي دعوى الشفاعة الباطلة ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٣) ويُغلق باب الافتراء في التحليل والتحريم ﴿أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

٤) ويُعلن أن ما بعد الحق إلا الضَّلال ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

٥) ويختم بقاعدةٍ فاصلةٍ لا لبس فيها ﴿أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللّهَ﴾،.

فكل انحرافٍ عقدي في هذا الجزء مردّه إلى إزاحة مركز السيادة الإلهية من القلب، ولو بقي اللسان يُردّد ألفاظ الإيمان.

← ثانياً: الانحراف الأخلاقي

الانحراف الأخلاقي هنا ليس فجوراً فجّاً فقط، بل تديُّناً مزيّفاً يُغلِّف الخلل؛

١) اعتذاراتٌ بعد انكشاف الحقيقة،

٢) وأيمانٌ تُستعمل للتخلّص من المؤاخذة،

٣) وطلبُ رضا الناس ولو بسخط الله ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

٤) ونفقةٌ تُؤدّى بروح المغرم لا بروح القربة،

٥) ودعاءٌ في الشدّة يعقبه نسيانٌ في الرخاء ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾.

٦) وبناءٌ دينيٌّ في الظاهر بينما هو ضرارٌ في الباطن ﴿وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾،

فالأخطر أخلاقياً أن ينفصل الظاهر عن الباطن، وأن تتحوّل الطاعة إلى غطاءٍ لمشروعٍ منحرف، وأن يُستبدَل الصدق بالمظهر، ولذلك يختم بنداءٍ جامعٍ يعيد الأخلاق إلى أصلها ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

← ثالثاً: الانحراف الاجتماعي

يحذّر الجزء من انحرافٍ يُفسد البنية الاجتماعية للأُمَّة من الداخل؛

١) التخلف عن الواجب العام مع القدرة،

٢) والتربص بالجماعة،

٣) واستعمال الدين لتفريق المؤمنين،

٤) وبناء كياناتٍ ظاهرها العبادة وباطنها التفريق والإرصاد ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥) كما يحذّر من اختلال التوازن بين الجهاد والتفقه ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ﴾.

٦) ومن تحويل الولاءات إلى روابط نسبٍ أو مصلحةٍ على حساب الحقيقة العقدية.

فالمجتمع لا ينهار فقط بهجومٍ خارجي، بل بانحرافٍ داخلي يُشوّه المفاهيم ويزرع الرّيبة في القلوب ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وأخطره أن يُدار الصفُّ بلا تقوى، فينهار كما ينهار البُنيان على شفا جرفٍ هار.

← رابعاً: الانحراف النفسي

أما الانحراف النفسي فهو أدقّها وأعمقها؛

١) رضا بالدُّون مع القدرة،

٢) واطمئنانٌ إلى الدنيا مع غفلةٍ عن اللقاء ﴿رَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾.

٣) وتكرارُ الفتنة دون توبة ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ﴾.

٤) وانصرافٌ عن الآيات لا لغياب الدليل بل لغياب الفقه ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾.

٥) وضيقُ نفسٍ يبلغ الذروة حين يُحاصَر الإنسان بنتائج اختياره حتى لا يجد ملجأً إلا الله ﴿لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾.

فالمعركة الحقيقية في هذا الجزء ليست في الساحة الخارجية فقط، بل في المسافة بين القلب وربه، بين يقينٍ يثبته الوحي، وهوىً يحاول أن يُزيح هذا اليقين خطوةً بعد خطوة.

وخلاصة التحذير أن أخطر الانحرافات في هذا الجزء ليست مجرد أخطاءٍ عملية، بل تحوّلاتٌ عميقة في مركز القلب،

← في معيار الرضا،

← في صدق الهوية،

← وفي وضوح الولاء،

حتى يُعاد تثبيت القاعدة الجامعة:

١) أن البناء لا يقوم إلّا على تقوى،

٢) وأن النجاة لا تكون إلا بصدق،

٣) وأن العاقبة بيد الله وحده،

٤) وأن كل انحرافٍ يبدأ من لحظةٍ صغيرةٍ حين يُقدَّم غيرُ الله على الله في قرارٍ داخليٍّ لا يراه الناس، لكن يراه من هو ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ملامح الشخصية التي يصنعها هذا الجزء..

الجزء الحادي عشر لا يقدّم تعاليم متناثرة، بل يصوغ ملامحَ شخصيةٍ متكاملة، متماسكة البنية، واضحة الهوية، ثابتة الاتجاه، تبدأ من الداخل قبل الخارج، ومن اليقين قبل الحركة، ومن الصدق قبل الشعارات.

- أول ملامحها:
  1. شخصيةٌ لا تُدار بالاعتذار بل بالمسؤولية،
  2. لا تختبئ خلف أعذارٍ مصطنعة،
  3. ولا تبحث عن مخارج تحفظ صورتها أمام الناس،

  لأنها تعيش تحت نظر الله تعالى ومراقبته لا تحت تصفيق الجمهور، وتعلم أن المعيار ليس رضا الخلق بل رضا الحق ﴿فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، فتنشأ فيها نزاهةٌ داخلية تجعلها ترفض التلوّن، وتكره الازدواج، وتخاف أن يكون ظاهرها غير باطنها.

- وثاني ملامحها: شخصيةٌ واعيةٌ بخطورة الأساس، لا تُغريها كثرةُ البناء ولا ضخامته، بل تسأل دائماً:
  1. على أيِّ أصلٍ يقوم؟ أتقوى ورضوان أم هوى ومصلحة؟ لأنها تشبّعت بالمشهد الحاسم بين بنيانٍ على تقوى، وبنيانٍ على شفا جرفٍ هار، فتتعلم أن النجاة ليست في كثرة المشاريع، بل في صحة النِّيَّة،
  2. وأن الله تعالى لا ينظر إلى الأشكال بل إلى القلوب، وأن الرِّيبة أخطر من الهدم الظاهر ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

- وثالث ملامحها: شخصيةٌ عاقدةٌ صفقتها بوعي، لا تعيش حياتها بوصفها ملكاً ذاتياً، بل ترى نفسها داخلةً في عهدٍ واضحٍ مع الله ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾، فتتحول قراراتها إلى وفاءٍ بالعهد، وتتحول

طاعاتها إلى تنفيذٍ لعقدٍ مُبرم، وتتحول تضحياتها إلى استثمارٍ في وعدٍ حقٍّ لا يتخلّف، فتسير في الدنيا وهي تعرف أن ثمن الجنّة ليس كلمةً عابرة، بل التزاماً مُستمراً.

- ورابع ملامحها: شخصيةٌ متوازنةٌ بين الجهاد والعلم، بين الحركة والبصيرة، لا تنفر كلُّها فتفرغ من الفقه، ولا تنغلق على الفقه فتترك الثغور، بل تؤمن أن قيام الأُمَّة يحتاج إلى من يُقاتل ومن يتفقه، وأن الوعي جزءٌ من العبادة ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ﴾، فتتربى على فقه الأولويات، وعلى إدراك أن العمل بلا علم اضطراب، والعلم بلا عمل جمود.
- وخامس ملامحها: شخصيةٌ تتأثر بالوحي زيادةً في الإيمان لا زيادةً في الجدل، إذا نزلت سورة ازداد قلبها يقيناً واستبشاراً ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، فلا تتعامل مع القرآن بوصفه نصاً للنقاش فقط، بل رسالةً للتغيير، فتُراجع نفسها عند كل خطاب، وتبحث عمّا يجب أن يتبدّل فيها لا عمّا يجب أن يُردّ على غيرها.
- وسادس ملامحها: شخصيةٌ كونيةُ النظر، توحيديةُ الرؤية، ترى في خلق السماوات والأرض، وفي الشمس والقمر، وفي اختلاف الليل والنهار، دلائلَ على ربوبيةٍ كاملة، فتستقرّ فيها عبوديةٌ واعيةٌ لله وحده ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، فلا تتعلّق بغيره، ولا ترجُ لقاءً إلا لقاءه، ولا تطمئن إلى الدنيا اطمئنان الغافلين ﴿رَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾، بل تعيش الدنيا مزرعةً لا مستقراً.
- وسابع ملامحها: شخصيةٌ صادقةٌ في الرخاء كما في الشدة، لا يكون إخلاصها طارئاً عند العاصفة ثم يزول بزوال الخطر، بل تستحي أن تكون من الذين دعوا الله مخلصين في البحر ثم بَغَوا في البر، فتتربى على ثبات الإخلاص لا على اضطراب المشاعر، وتعلم أن العبرة بخاتمة الطريق لا بلحظة الخوف.

- وثامن ملامحها: شخصيةٌ تعيش تحت رقابةٍ داخليةٍ دائمة، لأن علمها بأن الله شاهدٌ على كل شأنٍ وتلاوةٍ وعمل ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ يصنع فيها يقظةً لا تنام، فتستحي أن تُخفي في صدرها ما تخجل أن تُظهره، وتدرك أن الله تعالى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لا يُخادَع، فينشأ فيها صفاءُ السَّريرة قبل نظافة السلوك.
- وتاسع ملامحها: شخصيةٌ واثقةٌ بعزة الله، لا تُحزنها أقوال المعاندين، لأنها تعلم أن العزة ليست في تصفيقٍ عابرٍ بل في انتسابٍ ثابتٍ إلى الحق ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾، فتستمد قوتها من التوحيد لا من العدد، ومن اليقين لا من الضجيج.
- وعاشر ملامحها:
  ١. شخصيةٌ حنيفيةُ الاتجاه،
  ٢. واضحةُ البراءة من الشرك،
  ٣. لا تساوم في هويتها،
  ٤. ولا تخلط بين عبودية الله وعبودية ما سواه،
  ٥. تسمع النداء فتقيم وجهها للدين حنيفاً،
  ٦. وتعلم أن الضرّ والخير بيد الله وحده ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، فتتحرر من خوف الخلق، ومن تعلّق القلب بغير الخالق.

وفي ختام التشكيل تتجلى الشخصية التي يصنعها هذا الجزء:

قلبٌ صادق، عقلٌ واعٍ، نفسٌ متزكية، ولاءٌ واضح، عبوديةٌ خالصة، عملٌ مراقَب، توحيدٌ راسخ، وصبرٌ ممتدّ ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾، حتى يحكم الله، وهي تعرف أن رحلتها ليست نحو الناس بل نحو الله، وأن معيارها ليس الصورة بل الحقيقة، وأن أعظم أمانٍ لها أن تكون مع الصادقين، تحت سلطان ربٍّ واحد، يعلم السِّرَّ وأخفى.

أمراض القلوب التي يعالجها هذا الجزء..

هذا الجزء يعالج أمراضاً دقيقةً في القلوب، ليست كلها ظاهرةً على السطح، بل كثيرٌ منها يُدار في الخفاء، ويُبرَّر في الداخل، ويُزيَّن بأسماءٍ حسنة، حتى يأتي الوحي فيكشفها كشفاً لا يُبقي للإنسان مهرباً من مواجهة نفسه.

١) أول هذه الأمراض: مرض النفاق العملي؛ أن يُظهِر الإنسان التزاماً بينما قلبه يتهرّب من التكاليف، فيبحث عن إذنٍ يريحه وهو قادر، ويرضى أن يكون في الصَّفّ الخلفي مع الخوالف، فيتحول الرضا بالدُّون إلى ختمٍ على القلب ﴿وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، ويصير الاعتذار عادةً، والحلف وسيلةً لتخفيف المؤاخذة، ويغدو همُّه الأكبر أن يرضى عنه الناس لا أن يرضى عنه الله ﴿فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

٢) ويعالج كذلك مرض الازدواج بين الظاهر والباطن؛ أن يُشيَّد البناء الديني في العلن بينما الأساس فاسد، وأن يُتَّخذ المسجد وسيلةً للضرار والتفريق، فيفضح النصُّ هذا التزييف ويُعيد القلب إلى سؤال الأساس: أهو تقوى ورضوان أم هوى ومصلحة؟ لأن البناء إذا لم يكن على تقوى بقي ريبةً في الداخل ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٣) ومن أمراض القلوب التي يُعالجها: مرض التعلّق بالدنيا والاطمئنان إليها؛ أن يرضى القلب بالحياة الدنيا ويركن إليها ويغفل عن لقاء الله ﴿رَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾، فينسى أن المرجع إليه جميعاً، وأن الدنيا مثل ماءٍ اختلط به نبات الأرض حتى إذا أخذت زخرفها أتاها أمر الله فجعلها حصيداً، فيوقظ النصُّ القلب من غفلته قبل أن يُفاجأ بزوال ما تعلّق به.

٤) ويُعالج مرض الإخلاص الموسمي؛ ذلك القلب الذي لا يعرف الله تعالى إلا عند العاصفة، يدعوه مخلصاً في البحر، فإذا نجّاه بغى في الأرض كأن لم يدعُه إلى ضرٍّ مسّه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾، فيعيد

الجزء تربية القلب على ثبات العبودية في الرخاء كما في الشدّة.

٥) ومن أخطر ما يُعالجه: مرض الظَّنّ والاتباع بلا يقين؛ أن يُبنى الاعتقاد على توهّمٍ أو تقليدٍ أو شفاعةٍ موهومة، فيأتي الخطاب ليهدم هذا الأساس ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾، ويُقرّر أن الحق واحدٌ، وأن ما بعده إلَّا الضلال ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلاَلُ﴾، وأن الشِّرك لا يقوم على علمٍ ولا سلطان، بل على افتراءٍ يورث الخسران.

٦) ويُعالج كذلك مرض القسوة والجمود أمام الآيات؛ أن تنزل السورة فلا تزيد صاحبها إلَّا جدلاً أو ريبةً، بينما تزيد المؤمنين إيماناً واستبشاراً ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾، فتكشف الآيات أن المشكلة ليست في النَّصّ بل في القابلية الداخلية، وأن القلب المريض يزداد رجساً إلى رجسه لأنه لا يريد الشفاء.

٧) ومن الأمراض التي يفضحها هذا الجزء: مرض التسويف في التوبة؛ أن يرى الإنسان الفتن تتكرر عليه عاماً بعد عام ثم لا يتوب ولا يتذكر ﴿ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، حتى يفجأه الأجل أو يدركه الغرق فيقول: آمنت، فيقال له ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾، فيتبيّن أن باب الرجوع له زمن، وأن الإيمان المتأخر لا يمحو آثار العناد الطويل.

٨) ويُعالِج أيضاً مرض ضعف المراقبة؛ أن يظن القلب أن خفاياه لا تُرى، فيُذكّره الوحي بأن الله شهيدٌ على كل شأنٍ وتلاوةٍ وعمل ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾، وأنه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فيُعيد بناء الضمير على أساس الحياء من الله تعالى لا من الناس.

٩) كما يعالج مرض اختلال الولاء والبراءة؛ أن تُقدَّم الروابط البشرية على مقتضى التوحيد، فيُبيّن أن البراءة من الشِّرك أصلٌ لا يُساوَم عليه، وأن الإيمان عقدٌ واضحٌ لا يذوب تحت ضغط القرابة أو العاطفة.

١٠) ويُعالِج أخيراً مرض فقدان الهوية والاضطراب في الاتجاه؛ فيختتم بنداءٍ

جامعٍ يعيد القلب إلى نقطة الثبات ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، ويأمر بالاتباع والصبر حتى يحكم الله، ليُقيم في النفس ميزاناً ثابتاً لا يتبدّل بتبدّل الظروف.

فهذا الجزء ليس عرضاً لأحداثٍ تاريخيةٍ فحسب، بل عيادةٌ إيمانيةٌ مفتوحة،

- **تُشخِّص النفاق،**
- **والرياء،**
- **والتعلّق بالدنيا،**
- **والظنّ،**
- **والتسويف،**
- **وقسوة القلب،**
- **وضعف المراقبة،**
- **وتذبذب الولاء،**

ثم تردّ القلب إلى أصله:

← **توحيدٌ صريح،**

← **وصدقٌ ظاهر،**

← **وتوبةٌ عاجلة،**

← **ومراقبةٌ دائمة،**

← **ويقينٌ بأن الله هو الحق،**

← **وأن لقاءه حق،**

← **وأن من صلُح سرُّه صلح مصيره.**

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق... ليس لاكتساب معلومةٍ جديدة، بل لاكتشاف موقعك من الخطاب

هذا الجزء لا يُخاطب جماعةً بعينها في التاريخ، بل يفتح لك مرآةً كاملة، من النفاق إلى التوبة، ومن الرياء إلى الصفقة الصادقة، ومن الاطمئنان إلى الدنيا إلى اليقين بالآخرة، ومن اضطراب القلب عند الفتنة إلى الثبات مع الصادقين، ومن دعاء الشدّة إلى نسيان الرخاء، ومن الظنّ إلى اليقين، ومن البناء الظاهري إلى الأساس الخفي... فالسؤال ليس: عن مَن تتحدّث الآيات؟ بل: أين أنا بينها؟

❖ أولاً: هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

١) هل فيّ شيءٌ من الذين يستأذنون وهم أغنياء قادرون ثم يرضون بالدُّون لأنهم لا يريدون الكلفة؟... هل فيّ ميلٌ خفيٌّ إلى الراحة على حساب الواجب؟... هل أرتاح إذا أُعفيت من مسؤوليةٍ شرعية ولو كنت أستطيعها؟... فإن وجدتَ في قلبك هذا الميل فاقرأها بوجل: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

٢) هل أعيش قلق الصورة أكثر من قلق المصير؟... هل يهمّني أن يرضى عني الناس ولو سخط الله؟... هل أُحسن ترتيب كلماتي أكثر مما أُحسن ترتيب قلبي؟... فإن كان في داخلك شيءٌ من هذا فاعلم أن المعيار لا يتبدّل: ﴿فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

٣) هل أطمئن إلى الدنيا وأتعلّق بزخرفها كأنها نهاية الطريق؟... هل أتعامل مع الآخرة كفكرةٍ مؤجّلةٍ لا كمصيرٍ قريب؟... فإن شعرتَ بهذا الاطمئنان فاسمعها مواجهةً صريحة: ﴿رَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾.

❖ ثانياً: أين انكشف قلبي؟

١) انكشف حين سمعتُ الحديث عن مسجدٍ بُني ضراراً ففهمتُ أن المشكلة ليست في المبنى بل في النِّيَّة، وسألت نفسي: كم من عملٍ ظاهرٍ عندي

يُؤسَّس في الخفاء على ريبةٍ أو طلبِ ثناء؟... لأن البناء إذا لم يكن على تقوى يبقى قلقاً في الداخل ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٢) انكشف حين قرأتُ أن النصّ الواحد يزيد قوماً إيماناً ويزيد آخرين رجساً، وسألت نفسي بصدق: ماذا يفعل القرآن بي؟... هل أزداد يقيناً واستبشاراً ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ أم أزداد جدلاً وتهرّباً ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾؟

٣) انكشف حين تذكّرتُ أن الله شهيدٌ على كل شأنٍ وتلاوةٍ وعمل، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة، وأنه ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾، وأنه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فسألت نفسي: ماذا لو كُشف سِرّي اليوم؟... هل أستحيي من الناس أم أستحيي من الله تعالى؟.

❖ ثالثاً: أي آيةٍ أربكتني؟

١) أربكتني آية الصفقة الكبرى، لأنها لا تترك لي مساحة الرمادية بين الإيمان والهوى، بل تعلن بوضوح: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾؛ فإما أن أعيش حياتي بوصفها عهداً وبيعاً، أو أعيشها ملكاً ذاتياً بلا التزامٍ حقيقي.

٢) أربكتني آية الحقيقة الفاصلة التي تُغلق أبواب التبرير: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلاَلُ﴾؛ لأنها لا تسمح لي أن أسمّي التردّد حكمة، ولا أن أسمّي التنازل مرونة، ولا أن أسمّي الانحراف "اجتهاداً شخصياً".

٣) أربكتني لحظة الغرق حين قيل لفرعون: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾؛ لأنها كسرت في داخلي وهم "سأعود لاحقاً"، وذكّرتني أن باب التوبة له زمن، وأن الإيمان عند انكشاف الحقيقة لا يساوي الإيمان عند القدرة على الاختيار.

❖ رابعاً: ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) هل أؤجّل التوبة لأنني لم أُفضح بعد؟...

٢) هل أؤجّل ردّ الحقوق لأنني أستطيع أن أعيش بلا مواجهة؟...
٣) هل أؤجّل ترك علاقةٍ أو عادةٍ تُضعف قلبي لأن قطعها سيُكلّفني نفسياً؟...
٤) هل أؤجّل الانضباط في الصلاة، أو الصدقة التي تُطهّر، أو مصالحةً واجبة، أو تصحيح ولاءٍ مختلط، أو حسم هويةٍ مترددة؟... مع أن النداء واضحٌ لا يحتمل التأجيل: ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

هذا الاختبار ليس لإدخالك في حزنٍ ولا لإشعارك باليأس، بل ليضعك في مكانك الحقيقي من الرحلة؛ فإن وجدتَّ نفسك قد انكشفت، فهذه نعمة، وإن وجدتَّ أن فيك ميلاً يحتاج تصحيحاً، فهذه بداية الطريق، لأن الجزء كله يختمك على حقيقةٍ واحدة:

النجاة ليست في كثرة المعرفة، بل في سرعة الرجوع، وفي صدق الاصطفاف، وفي أن تبني حياتك على تقوى لا على صورة، وأن تجعل قرارك اليوم أوضح من أعذارك غداً.

خطة التغيير كطريقٍ قصيرٍ لكنه صريح

- احسم مركز حياتك من جديد... لا رضا فوق رضا الله... ولا ولاء يعلو على ولائه... ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.
- أوقف التبرير فوراً... واعترف قبل أن تُحاصَر... فالإيمان عند القدرة غير الإيمان عند الغرق... ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾.
- صحّح الأساس قبل تكثير الأعمال... لا تبنِ فوق ريبة... ابنِ على تقوى... ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾.
- حوّل إيمانك من انتماءٍ لفظي إلى عهدٍ عملي... أنت داخل صفقةٍ لا شعارٍ عابر... ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾.
- اقطع تعلّقك الخفي بالدنيا... عاملها مزرعةً لا مستقراً... ﴿رَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾.

- اجعل استجابتك للقرآن معيار صدقك... زيادةُ إيمانٍ لا زيادةُ جدل... ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾.
- أعد بناء مراقبتك الداخلية... عش تحت نظر الله لا تحت نظر الناس... ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾.
- بادر بالتوبة قبل أن تُغلَق أبواب الاختيار... لا تؤجّل ما تعرف وجوبه... ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾.
- اصطفَّ بوضوح... لا منطقة رمادية بين الحق والهوى... ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.
- الزم أهل الصدق... واهرب من بيئات التبرير... ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.
- وازن بين العمل والعلم... ثغرٌ تحرسه وسؤالٌ تتفقهه... ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ﴾.
- ثبّت يقينك بالمرجع... كل طريقٍ ينتهي إلى الله... ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾.
- اتبع الوحي بلا انتقائية... واصبر حتى يحكم الله... ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾.

خاتمة وجدانية مزلزلة

في نهاية هذا الجزء لا يبقى لك متّسعٌ للاختباء خلف الكلمات، ولا مساحةٌ للوقوف في المنطقة الرمادية، ولا عذرٌ بأن الطريق لم يكن واضحاً...

← فقد كُشف لك القلب قبل السلوك،

← والأساس قبل البناء،

← والنّيَّة قبل العمل،

← والمرجع قبل المصير،

وقيل لك بوضوحٍ لا لبس فيه:

١) إن الحياة ليست نزوةً عابرة،

٢) ولا انتماءً لفظيّاً،

٣) ولا صورةً اجتماعية،

بل عهدٌ وبيعٌ وموقفٌ صريحٌ تحت سلطان الله ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾.

وقيل لك:

١) إن البناء إن لم يُؤسَّس على تقوى بقي قلقاً في داخلك،

٢) وإن الازدواج لا يُخفيه طولُ السجود،

٣) وإن الله جلَّ جلاله لا يُخدع بالمسميات، ولا يُغرّه ظاهرٌ بلا أساس،

٤) وإن الرِّيبة إن سكنت القلب فلن تُزيلها زخارف العمل ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

وقيل لك:

١) إن الدنيا ليست نهاية المشهد،

٢) وإن الزخرف مهما ازدان فمصيره حصيد،

٣) وإن الاطمئنان إليها غفلةٌ عن لقاءٍ آتٍ لا محالة ﴿رَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾،

٤) وإن ما بعد الحق ليس مساحةَ تفاوضٍ ولا ساحةَ تأجيل، بل طريقان لا ثالث لهما ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلاَلُ﴾.

وقيل لك:

١) إن باب الرجوع مفتوح، لكن ليس إلى الأبد،

٢) وإن لحظة الغرق ليست لحظة اختيار،

٣) وإن من أخطر الأوهام أن تقول: سأعود حين أريد، ثم يُقال لك يوم لا ينفع الندم ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾.

فإمّا أن تخرج من هذا الجزء وقد حسمت موقعك، واخترت صفَّك، وبنيت

حياتك على تقوى لا على صورة، واصطففت بوضوحٍ مع أهل الصدق ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وإمّا أن تغلق المصحف وقلبك كما كان... والآيات تمرُّ عليك كما مرَّت على غيرك، لا تزيدك إلَّا عابر معرفة.

إنها ليست قصة توبة قومٍ مضوا، ولا سيرة نفاقٍ انقضى، ولا حكاية أُممٍ هلكت... إنها خريطةُ قلبك الآن، وموقفك اليوم، وقرارك الذي تُؤجّله أو تحسمه، لأن الله تعالى الذي كشف السَّرائر فيهم هو ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيك، ولأن المرجع إليه جميعاً، ولأن الصفقة قائمة، والوقت يمضي، والحق واضح، والطريق مستقيم، فاختر لنفسك قبل أن يُختار لك، وارجع قبل أن تُرجَع، واصدق قبل أن يُكشف سترُك، فإن النجاة ليست في كثرة ما عرفت، **بل في صدق ما التزمت، وفي جرأة القرار حين ناداك الوحي فلم تتردّد.**

الرسالة التربوية والعقدية والموجهة لكل مسلم من هذا الجزء

- هذا المقطعُ من سورة التوبة يُسقطُ ورقةَ التديّنِ المريح: فالعِبرةُ ليست ببلاغة العذر ولا بكثرة التبرير، بل بثبات الصدق عند لحظة الاختبار ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ... قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾.
- التخلّفُ مع القدرة علامةُ خللٍ في القلب قبل أن يكون خطأً في الخطوة؛ لأنَّ الرضا بالدَّعة والركون إلى الخلف يُطبعُ معه القلبُ على الغفلة ﴿رَضُوا أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.
- مراقبةُ الدين ليست "انطباع الناس" بل كشفُ العمل عند الله؛ فكل حركةٍ محفوظةٌ لا تمحوها الأيام ولا تزينها الكلمات ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ... ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.
- اليمينُ قد يتحول عند المراوغ إلى أداةِ تهرّبٍ لا شهادةِ صدق؛ يحلف ليشتري الإعراضَ عنه لا ليشتري رضا الله ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ... لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

- رضا الناس لا يصنع لك رضاً عند الله؛ فقد ترضى الجماعةُ عن إنسانٍ والله لا يرضى عن فسقه ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.
- البيئاتُ لا تُعطي حكماً واحداً؛ فليس كل "أعرابي" نسخةً واحدة: منهم من غلّظه الجهلُ فأبعده عن حدود الوحي ﴿أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، ومنهم مؤمنٌ جعل النفقة قُربةً لا مغرماً ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾.
- المالُ مرآةُ النِّيَّة: فمن الناس من يرى الإنفاقَ غرامةً ويتربصُ الدوائر، ومنهم من يراه طريقَ قربٍ ورحمة ﴿مَغْرَماً﴾ ﴿قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾.
- القدوةُ ليست ادعاءً بل سلوكٌ متصل؛ السابقون صدقوا فصار رضا الله عنهم نتيجةَ منهجٍ لا حكايةَ تاريخ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.
- قد يختبئ النفاقُ خلف الستار فلا يُعرف بالوجوه؛ فلا تغترّ بجهلك بالأسماء فالله يعلم السرائر ويقيم الحساب ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.
- بابُ الرجوع مفتوحٌ لمن صدق: قد تختلط صفحتك بحسنٍ وسيئ، لكن الاعتراف الصادق أول الطريق ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾.
- الصدقةُ ليست رقماً يُقال، بل تطهيرٌ من داخل النفس وتزكيةٌ للقلب قبل أن تكون نقلَ مال ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾.
- الدينُ ليس قسوةً جافة؛ دعاءُ النبي ﷺ للمؤمنين سكينةٌ تربويةٌ تُقيم القلب على الطاعة بحنانٍ منضبط ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾.
- لا يقطعك الشيطان عن الأمل: الله يقبل التوبة ويأخذ الصدقات؛ فارجع إليه بعملٍ لا بإنشاءٍ لفظي ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ... وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

- التوبةُ تُقاس بما بعدَها لا بما قيلَ معها؛ معيار الصدق أن يتحول الكلام إلى عملٍ يُرى أثره ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾.
- ليس كلُّ مصيرٍ يُحسم الآن؛ وبعضُ الناس مؤخرون لحكم الله، فإياك والعجلة في الحكم على نفسك أو غيرك ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾.
- أخطرُ الفساد أن يلبس الباطلُ ثوبَ العبادة؛ قد يُبنى "مسجد" ليكون أداةَ تفريقٍ لا تقوى ﴿مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً﴾.
- ميزانُ المشاريع: ليس الضجيج ولا العنوان، بل الأساس؛ ما بُني على التقوى ثابت، وما بُني على هوى ينهار ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾.
- الإيمانُ عقدُ بيعٍ لا مزاجُ لحظة: أنت لله نفساً ومالاً، فلا تُساوم على الطاعة حين تضيق عليك الدنيا ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾.
- شخصيةُ التائب ليست شعاراً بل منظومةُ حياةٍ تحرسها الحدود: عبادةٌ وتوبةٌ وأمرٌ ونهيٌ وحفظٌ لحدود الله ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾.
- الرحمةُ لا تلغي الحق: لا يُستغفر للمشرك بعد تبيُّن المصير، والولاءُ لله لا يُبنى على العاطفة وحدها ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ... أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾.
- هذا الدين دينُ بيانٍ وعدل؛ لا يُضل الله قوماً بعد هداية حتى يوضح لهم مواضع التقوى، فالجهل ليس عذراً دائماً ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾.
- مفتاحُ الطمأنينة: الملكُ لله وحده، والإحياء والإماتة بيده، فلا تتعلّق بوليٍّ أو ناصرٍ من دون الله ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.
- ساعةُ العُسرة تُظهر معدن الصادقين: الاتباعُ في الشدة سببُ توبةٍ ورحمةٍ وتثبيت ﴿اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾.
- إذا ضاقت الأرض فبابُ النجاة واحد: لا ملجأ من الله إلا إليه؛ يذيقك الله الفقرَ لتعود إلى الله لا إلى الحيل ﴿لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾.

- خاتمةُ المقطع وصيةُ عمرٍ كامل: احفظ دينك بالصِّدق، فالصِّدق روحُ الإيمان لا زينةٌ جانبية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.
- ثم تفتح سورة يونس بابَ اليقين بعد التَّعرية: هذا وحيٌ حكيمٌ لا سِحر، والرسالة ليست خداعاً بل إنذارٌ وبشارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾.
- التوحيدُ هنا بناءٌ معرفيٌّ عميق: ربٌّ خالقٌ مُدبرٌ على العرش يُدبّر الأمر، فلا شفاعة إلَّا بإذنه، فاعبدوه ولا تتعلق بغيره ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.
- الآخرةُ ليست فكرةً عامة بل مرجعٌ حتميٌّ وعدٌ حقٌّ وجزاءٌ بالقسط ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً﴾.
- غفلةُ الدنيا أصلُ الانهيار: من رضي بالحياة واطْمأن بها وغفل عن الآيات فمأواه النار ﴿رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾.
- ومن صدق الإيمان أورثه الله هدايةً جاريةً في الطريق: يهديهم ربهم بإيمانهم لا بكثرة الادعاء ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾.
- آفةُ الإنسان أنه يركض إلى الله عند الضُّر ثم ينساه عند العافية؛ فاحذر دينَ المواسم ﴿دَعَانَا... فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا﴾.
- ومعيار العدل الإلهي واضح: الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾.
- والمراقبة هنا أعمق من كل عين: أنتَ تحت شهود الله في شأنك وقرآنك وعملك، ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾.
- القرآن موعظةٌ وشفاءٌ وهُدى ورحمة؛ فلا تحوّله إلى جدلٍ باردٍ بلا أثر ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ... وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾.

- الكفاية الكبرى: إن مسّك ضُرّ فلا كاشف إلّا هو، وإن أراد بك خيراً فلا راد لفضله ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾.
- ثم يختم هذا المقطع بمنهج الثبات: اتبع الوحي واصبر حتى يحكم الله؛ فالدين مسارٌ لا اندفاعُ لحظة ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾.
- وتأتي هود لتضع عنوان الطريق من أوله: كتابٌ مُحكمٌ ثم مُفصّل صادرٌ عن حكيمٍ خبير، فلا تناقض فيه ولا عبث ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.
- غاية الرسالات واحدة: توحيدٌ واستغفارٌ وتوبةٌ قبل أن تأتي الحسرة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾.
- والله يكشف أخفى المداخل: قد يثني المرء صدره ليستخفي من الحق، لكن الله يعلم السِرّ وأخفى؛ فالنفاق لا ينجو بالتستر ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ... إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

الترابط بين الجزأين ١٠ – ١١

❖ أولاً: الترابط الموضوعي بين الجزأين (العاشر ↔ الحادي عشر)

١) الجزء العاشر يُنزلُ القارئ في "ساحة الواقع"؛ واقعِ معركةٍ تُدارُ فيها النفوس قبل السيوف: ثباتٌ عند اللقاء، وذكرٌ كثير، وطاعةٌ تُنتجُ تماسكاً، ونهيٌ عن التنازع الذي يَنسِفُ القوة من الداخل قبل أن يَمسّها العدو من الخارج ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛

ثم يفتح الجزء الحادي عشر "ساحة التفسير للواقع" عبر قصصِ الأُمم والرسل: لماذا تضعفُ الأمم؟ ولماذا تُنقَذ؟ وما معنى أن يكون الدينُ دينَ حقٍّ لا دينَ ردودِ أفعال.

٢) الجزء العاشر يُقدّم "قانون الجماعة" حين تتحرك تحت الوحي: وحدةُ الصف، وضبطُ الغنائم والمال، والوفاءُ بالعهود، والتهيؤُ للقوة، والجنحُ للسلم

عند جنوحِ العدو، ثم ينسفُ الغرورَ ويُعرّي الرياء ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾؛

والجزء الحادي عشر يُتمّ هذا القانون بدرسٍ أوسع: ليست العبرةُ باللافتة ولا بالكثرة، بل بتزكيةٍ تُثبّتُ أمام الفتنة، وبصدقٍ يُحفظُ عند الضيق، وبشعورِ "الشراء" الإلهي الذي يرفعُ سقفَ التضحية ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

٣) الجزء العاشر يُعرّفك على "عدوين" في آنٍ واحد: عدوٍّ ظاهرٍ يواجهك، وشيطانٍ يُزيّنُ ويغري ثم يخذل ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛

والجزء الحادي عشر يُعمّق المعنى: أخطرُ العداوات ليست في الخارج فقط، بل في نفاقٍ داخليٍّ يعتذرُ ويُحسنُ التلوّن، وفي مرضِ قلبٍ يزيده الوحيُ رجساً ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾.

٤) الجزء العاشر ينتهي بكشفِ "ميزان الولاء" الذي إن اختلّ تفككت الأرضُ بالفتنة والفساد ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾؛

والجزء الحادي عشر يبدأ برفعِ "ميزان الصدق والصفاء" ليحفظ الجماعة من الداخل: صُحبةُ الصادقين، وسقوطُ الاعتذار المزوّر، وتمييزُ من يثقل إلى الأرض ممن ينفر إلى الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

٥) الجزء العاشر يضع "خريطة الحركة" في زمن الشدة: إعدادُ قوةٍ، وثباتٌ، وتوكّلٌ، وتدبيرٌ يُعلّمك أن الأسباب لا تُثمر إلا بإذن الله ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ﴾ بالمعنى العام المستفاد من السياق؛

والجزء الحادي عشر يضع "خريطة الثبات" في زمن الامتحان الطويل: صبرٌ حتى يحكم الله، واستقامةٌ لا تُساوم، وتوحيدٌ يقطع علائق القلب بغير الله ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

❖ ثانياً: الترابط العقدي بين الجزأين (العاشر ↔ الحادي عشر)

١) في الجزء العاشر يظهر توحيدُ الربوبية عملياً: الله هو الذي يُدبّر الوقائع، ويُقلّل ويُكثر في العيون، ويصرفُ النتائج لتقوم الحجة وتظهر البينة ﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾؛

وفي الجزء الحادي عشر يتجلى نفس التوحيد بصورةٍ أوسع: خلقٌ ثم استواءٌ على العرش وتدبيرٌ للأمر بلا شريك، ونفيٌ لكل شفاعةٍ استقلالية ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.

٢) في الجزء العاشر يُربّي القلب على "التوكل الذي لا يُعطل الأسباب": ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مع أمر الإعداد ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾؛

وفي الجزء الحادي عشر يُنقّي التوكل من شوائب الوهم: لا نفع ولا ضُرّ إلّا بمشيئة الله، ولا كاشف للضُّر إلّا هو ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

٣) في الجزء العاشر تبرز أسماءُ الله التي تُقيم ميزان الخوف والرجاء: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ و﴿وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛

وفي الجزء الحادي عشر تُستكمل دائرةُ الأسماء في سياق تزكوي: التواب الرحيم الذي يقبل التوبة ويأخذ الصدقات ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾، والغفور الرَّحيم الذي يُدخِل في رحمته، والحكيم الخبير الذي يُحكم الآيات ثم يُفصّلها ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

٤) في الجزء العاشر يُرسِّخ أن الهداية ليست شعاراً بل برهاناً يقوم في ساحات الابتلاء ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾؛

وفي الجزء الحادي عشر تُبسط سُنّةُ الله في الهداية والضَّلال: ليست بذكاء

البشر ولا بقوة الحجة وحدها، بل بإذن الله مع قيام الحجة ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٥) في الجزء العاشر يظهر مفهوم "الولاية" على حقيقته: ولاءُ المؤمنين بعضهم لبعض، وأن التفريط في هذا يُنتج فتنةً وفساداً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا... أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾؛

وفي الجزء الحادي عشر يُهذِّب معنى الولاية: ليست عاطفةً ولا حزباً، بل تقوى وصدق وصحبة صالحة تحفظ القلب من الانهيار ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

❖ ثالثاً: الترابط البياني بين الجزأين (العاشر ↔ الحادي عشر)

١) الجزء العاشر يمتاز بنسق "حركيّ سريع": أوامرُ متتابعة تبني القرار في لحظة المواجهة: ﴿فَاثْبُتُوا﴾ ثم ﴿وَاذْكُرُوا﴾ ثم ﴿وَأَطِيعُوا﴾ ثم ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ ثم ﴿وَاصْبِرُوا﴾؛

والجزء الحادي عشر يُوسّع النسق إلى "مدٍّ طويل" يُنشئ اليقين عبر قصصٍ وحججٍ ومشاهد كونية ووجدانية: بدءُ الخلق وإعادته، ومشهد البحر والريح، وتعاقب الليل والنهار، لتستقر العقيدة في القلب لا في الهتاف.

٢) الجزء العاشر يُكثر من "لو/لولا" في سياق التربية على الحكمة الإلهية الخفية: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾، فيريك كيف تُدار النفوس بلطف الله؛

والجزء الحادي عشر يُكثر من "قل" في سياق إقامة الحجة وتثبيت الموقف: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ و﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، فيحوّل القارئ من انفعالٍ إلى بصيرة ومن ترددٍ إلى بيان.

٣) الجزء العاشر يرسم مشاهد "الرؤية" وتقليب الصورة في العين: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ...﴾ و﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ...﴾ لتُدرك أن الإدراك نفسه قد يُدار بقدر الله لحكمة؛

والجزء الحادي عشر يرسم مشاهد "الاختبار" وتقليب الحال في الوجدان: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ...﴾ ثم ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ ثم ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ...﴾ ليقول لك: ما أسرع تحوّل الإنسان إذا لم يُزكِّ قلبه.

٤) الجزء العاشر يوازن بين ألفاظ "القوة" و"الخوف" و"الخذلان" ليكشف آلية الفشل: التنازع، البطر، الرياء، خداع الشيطان، مرض القلوب؛

والجزء الحادي عشر يوازن بين ألفاظ "الهدى" و"الشفاء" و"الرحمة" ليكشف طريق الخلاص: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾، فتكتمل الصورة: القرآن لا يصف المعركة فقط؛ بل يصف الدواء الذي يمنع تكرار الهزيمة.

٥) نهاية التوبة في الجزء الحادي عشر تأتي بخاتمة "اعتصامٍ جامعة" ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ وهذه الخاتمة تُجيب بيانياً عن توتر الجزء العاشر: حين يكثر الضجيج وتتشابك الأسباب، يبقى البيان الأعلى: حسبي الله... لا إله إلا هو.

❖ رابعاً: الترابط الوجداني بين الجزأين (العاشر ↔ الحادي عشر)

١) الجزء العاشر يضغطُ على القلب ضغطَ "اللحظة الحرجة": خوفٌ مشروع، وتوترُ مواجهة، واحتمالُ فشلٍ داخليٍّ إن تنازعنا، ثم يسكبُ الله السكينة: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾؛

والجزء الحادي عشر يُحوّل هذا الضغط إلى "تربيةٍ مستمرة": يُعلّمك كيف ينهار الإنسان بعد العافية إذا لم يُربِّ قلبه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾، فيوقظ فيك خوفَ الغفلة لا خوفَ العدو فقط.

٢) الجزء العاشر يُعرّي "الزهو" الذي يقتلُ العمل: بطرٌ ورياءٌ وتفاخرٌ واستعراض، ثم يفضح خذلان الشيطان عند أول مواجهة ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛
والجزء الحادي عشر يفضح "زهو الدنيا" حين تُغري ثم تُحصد في لحظة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ... أَتَاهَا أَمْرُنَا... فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾، فيتولد في القلب زهدٌ واعٍ لا زهدُ شعار.
٣) الجزء العاشر يُعلّم وجدان "الانضباط": أن تذكر الله كثيراً لا لتُهدّئ أعصابك فقط، بل لتُصلح قرارك ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛
والجزء الحادي عشر يُعلّم وجدان "الرقابة": أنك تعمل، لكن هناك نظراً إلهياً لا يغيب، وتقريراً سيُقرأ يوماً ما ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾، فيتحول القلب من حبّ الأثر إلى خوف عدم القبول.
٤) الجزء العاشر يُنهيك عن أن تُهزم من "الداخل" قبل الخارج: ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛
والجزء الحادي عشر يفتح لك باب الرجاء الصافي: حتى لو اختلطت الأعمال، فباب التوبة قائم، وباب الإصلاح مفتوح، والله يقبل من عباده إذا رجعوا بصدق ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فيقوم الوجدان على توازنٍ صحيح:

← خوفٌ يمنع الجرأة على الذنب،

← ورجاءٌ يمنع القنوط.

٥) الجزء العاشر يجعلُك تشعر أن الدين "حقيقةٌ تُحمَل" لا فكرةٌ تُناقَش: هجرةٌ وجهادٌ ونصرةٌ وموالاةٌ وابتلاء؛
والجزء الحادي عشر يضع يدك على سرّ القوة الوجدانية لهذه الحقيقة: أنت لست مالكاً لنفسك على الإطلاق؛ أنت مبيعٌ لله إن صدقت البيعة ﴿إِنَّ

اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾.. ومن ذاق معنى الشراء تغيّر من الداخل:

←**يصبح الألمُ معنى،**

←**والخسارةُ ربحاً،**

←**والتعبُ طريقاً لا شكوى.**

الجزء الثاني عشر: حين يُمحَّص القلب بين رزقٍ مضمون وابتلاءٍ مقصود...

وتُصاغ النُّبوّة في ضيق الصدر... ثم تُكتَب «خريطة النجاة» على لسان يوسف عليه السَّلام من قاع الجُبّ إلى عرش التدبير

مدخلٌ وجدانيٌّ تأسيسيٌّ

يفتتح هذا الجزء قلبَك على حقيقةٍ تُريح من القلق وتُوقِظ من الغفلة في آنٍ واحد؛ حقيقة الرزق حين يُنزَع من يد الخلق ويُوضَع في ضمان الخالق لا بوعدٍ شاعريٍّ عائم، بل بخبرٍ يقينيٍّ يُمسك أنفاسك: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؛ كأنَّ القرآن يقول لك: لستَ تُدبِّر رزقك من عدم، بل تتحرّك في علمٍ محيط، وفي تقديرٍ سابق، وفي كتابٍ لا يضيع فيه شيء، ومع هذه الطمأنينة لا يتركك لتنام؛ لأن الاطمئنان إذا لم يصحبه عملٌ صالحٌ صار غفلةً مستورة، لذلك يرفع بصرك إلى مشهد الخلق الأوّل وسعة الملك: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾؛ فتأتي "غاية الوجود" صريحةً بلا التواء: ابتلاءٌ في جودة العمل لا في كثرة ادّعائه، ثم يفتح لك باباً آخر من أبواب غفلة البشر: كيف يُواجَه خبر البعث بالإنكار لا لضعف الدليل بل لمرض القلب، حتى إذا قيل للناس إنهم مبعوثون قالوا: ﴿إِنْ هَـذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ فليست المشكلة في الآخرة، المشكلة في النفس التي لا تريد أن تُحاسَب.

ومن هنا يبدأ الجزء في تفكيك "نفسيّة الإنسان" حين يتقلب بين الرخاء والشدّة؛ لا يصف الناس على هيئةٍ واحدة، بل يكشف النزعات التي تتكرر في داخلنا جميعاً إن لم نهذّبها؛ فإذا ذاق الإنسان رحمةً ثم نُزعت منه انقلب يأساً وكفراناً: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾، وإذا

عاد إليه النعيم بعد الضُّرّ لم يقل: هذا لطفٌ يستوجب شكراً واستقامة، بل قال بطراً: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ ثم انطلق فرحاً فخوراً: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾؛ وكأن القرآن يختصر لك عِلّة القلب: يعبد "الحال" لا ربّ الحال، ينهزم مع الألم، ويطغى مع العافية، ثم يضع الاستثناء المنقذ لا بوصفٍ متخيَّلٍ بل بمنهجٍ عمليّ صريح: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ فليس العبور من الفتنة بكثرة الكلام عن اليقين، بل بصبرٍ يثبت، وعملٍ صالحٍ يُثمر.

ثم ينتقل بك الجزء انتقالةً دقيقة من "ابتلاء الناس" إلى "ابتلاء البلاغ"؛ فصاحب الرسالة نفسه تُضيّق عليه صدور المكذبين، حتى يكاد يُخيَّل للإنسان أن البلاغ قد يُترك بعضه اتقاءً للضغط أو طلباً لتهدئة الخصومة، فيأتي العتاب والتثبيت: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾؛ لأنهم يريدون آياتٍ على مقاس أهوائهم: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ﴾، فيُعاد تعريف وظيفة الرسول بلا غلو ولا تقصير: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾، ثم تُغرس في القلب عقيدة التوكل من بابها الصحيح: ﴿وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ أي هو المتكفّل بإتمام دينه ونصرته وتصريف أمره على وجه الحكمة، لا أن العبد يُلقي الأمر ويترك السبب، بل يثبت على ما أُمِر ويستعين بربّه.

ثم تأتي لحظة "الفرز" الكبرى في قضية القرآن ذاته؛ ادعاء الافتراء لا يُجاب عليه بالصياح ولا بالتبرير، بل بالتحدي البياني الذي يهدم المكابرة من أصلها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾، فإن عجزوا ـ والعجز واقع ـ فليعلموا الحقيقة التي تُغلق أبواب الالتفاف: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾، ثم يُطرح السؤال الحاسم الذي لا يقبل أنصاف المواقف: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ لأن القضية ليست "إعجاباً نصّيّاً" بل خضوعاً لله وحده.

وبعد تثبيت المصدر، يضع الجزء أمامك امتحان النِّيَّة الذي ينسف التدين الاستهلاكي؛ من أراد الدنيا وزينتها قد يُعطى جزاء عمله الدنيوي فيها على وجه الاستدراج أو الإمهال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾، لكن النهاية التي تُنسى هي: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ فينقل قلبك من سؤال ‘‘كم ربحت؟’’ إلى سؤال ‘‘لِمَن عملت؟’’.

ثم يفتح القرآن نافذة النور المقابل: صاحب البينة من ربّه، وتتابع الشهادة، وامتداد الرحمة في كتاب موسى من قبل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً﴾؛ أولئك يؤمنون، ومن يكفر فموعده النار، ثم يأتي التثبيت الذي يحتاجه كل مؤمن إذا أحاطت به ضوضاء الشك: ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، ومع وضوح الحق يبقى الواقع مرّاً: ﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، فيتعلّم القلب أن قلّة السَّالكين ليست علامة بطلان، بل علامة ابتلاء.

ومن هنا يُفضَح جرمٌ بعينه: الافتراء على الله والكذب عليه، والصَّدّ عن سبيله وطلب اعوجاجه؛ جريمة ليست رأياً محايداً بل ظلمٌ مُركّب يُعرَض أصحابه على ربهم وتشهد عليهم الشهادة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾... ﴿أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ﴾، ثم يجيء توصيفهم الدقيق: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، ويُحسم الوهم: لا يعجزون الله، ولا يجدون من دونه أولياء، ويضاعف لهم العذاب؛ لأنهم عطّلوا أدوات الهداية في أنفسهم: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾، ثم تأتي الخسارة العظمى: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾... ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾.

ويقابل هذا فريقٌ آخر لا يعيش الإيمان كهويةٍ جامدة بل كخشوعٍ وانقيادٍ

وإخبات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ﴾؛ ثم يعطيك القرآن مِعياراً لا يُحتاج معه جدل طويل: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾؛ فالفرق ليس شعارات، بل إدراكٌ واستجابة.

ثم تبدأ ''مدرسة القصص'' في هذا الجزء لا كحكايات للعِبرة السريعة، بل كمسارٍ واحد يُري الإنسان كيف تتكرر سُنن التكذيب ونبرة الاستعلاء عبر التاريخ، وكيف يبقى خطاب الأنبياء واحداً: توحيدٌ واضح، وشفقةٌ صادقة، وبراءةٌ من طلب الدنيا، وثباتٌ أمام الاستهزاء.

يبدأ نوحٌ عليه السَّلام بنداءٍ يقطع جذور الشرك: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾... ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ﴾، فيردّ عليه الملأ بتقليلٍ وطبقيةٍ واستهانةٍ بأتباعه: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾... ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، فيجيب نوح بمنهج الرسالة لا بمنهج الخصومة: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾، ثم يُعلن نقاء المقصد: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾، ويرفض طرد المؤمنين طلباً لرضى المتكبرين: ﴿وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، ويؤكد بشرية الرسول وحدود علمه: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾، ثم يعود القوم إلى العناد: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، فيضع الحقيقة التي تُسقط التحدي: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء﴾، ويُفهمك أن النصيحة لا تخلق الهداية قسراً: ﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي﴾، ثم يأتي الوحي الفاصل: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾؛ فتبدأ مرحلة ''الصنعة تحت نظر الله'' لا تحت تصفيق الناس: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، ويسخرون وهو يعمل، فيثبت ميزان الزمن: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾... ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، ثم لحظة الانفجار الكوني: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، ثم النداء الذي يُعلِّمك أن النجاة ليست بالخشب والمسامير بل بالاسم والتسليم: ﴿ارْكَبُواْ

فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾، وتتابع أمواج الابتلاء حتى في قلب السفينة: نداء الأب لابنه، ووهم الاعتصام بالجبل، وكلمة الفصل التي تُسقط كل سندٍ غير رحمة الله: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، ثم انقضاء الأمر واستواء الفلك: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، ثم امتحان العاطفة البشرية حين قال نوح: ﴿إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي﴾، فجاءه التصحيح العقدي الدقيق الذي يزن القرابة بميزان العمل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾... ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، فيتعلّم النبي قبل غيره أدب التسليم: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾، ثم الهبوط بالسلام والبركات، مع سُنّة الامتحان في الأرض: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم ختام القصّة بتثبيتٍ يخاطب كل داعية وكل مبتلى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وتستمر السُّنن نفسها مع هودٍ عليه السَّلام: دعوةٌ إلى توحيدٍ صافٍ: ﴿اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾، ثم طلب الاستغفار والتوبة بوصفه طريق القوة والبركة: ﴿اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾، ثم المكابرة: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، ثم صفاء التوكل وشهود السيطرة الإلهية على كل حيّ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾، ثم يتكرر مشهد النجاة والهلاك: ﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ﴾، وتُذكر عاقبة عادٍ: ﴿جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾... ﴿وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، لتفهم أن الطغيان ليس حدثاً عابراً بل "اتباع" يترسخ.

ثم صالحٌ عليه السَّلام وثمود: بدايةٌ بالتوحيد، وتذكير بالعمارة والاستخلاف: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، ثم دعوة قريبة: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، ثم شكٌّ مريبٌ يلبس ثوب العقل: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، ثم آية الناقة، ثم العدوان، ثم إنذار الثلاثة أيام: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ﴾..

ثم النَّجاة والهلاك، لتتعلم أن الرحمة لا تُلغي عدل الله وأن الآيات لا تنفع من أغلق قلبه.

ثم تأتي لقطة إبراهيم عليه السَّلام مع الرُّسل لا لتسلية القارئ، بل لتثبيت معنى البشارة بعد الخوف، وأن وراء التدبير رحمةً واسعة: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾... ﴿لاَ تَخَفْ﴾، ثم بشرى إسحاق ويعقوب، وتعجّب الزوجة، فيأتي الميزان: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ﴾... ﴿رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، ثم يذهب الرَّوع ويبدأ إبراهيم يجادل في قوم لوط، فيأتي ضبط الشفقة بالوحي: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾... ﴿إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾؛ لتفهم أن الرَّحمة لا تعني نقض سُنن العدل.

ثم لوط عليه السَّلام ومشهد الانحراف حين يهرع القوم إلى الضيف، فيظهر ضيق النبي وعجز الأسباب: ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾، ثم نداء الطهر والاتقاء: ﴿هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، ثم العناد، ثم تمنّي الركن الشديد: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾، فتأتي الطمأنة: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾، وخطة النجاة وموعد الصبح: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، ثم انقلاب القرية والمطر من سجيل، مع التحذير القريب: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾؛ لتعرف أن سُنن الله ليست بعيدة عن واقع الناس إذا استقرّ الظلم.

ثم شعيب عليه السَّلام ومدين: هنا يظهر جانبٌ آخر من الفساد، فساد المال والمعاملات، لا يقل خطراً عن فساد العقائد؛ دعوةٌ إلى التوحيد، ثم إلى العدل في الميزان: ﴿وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾... ﴿أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، ثم كلمة جامعة تصحّح مفهوم "المكسب": ﴿بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فيسخرون بتهكّمٍ يكشف أنهم رأوا الصلاة شيئاً يخصّ الزاوية لا السوق: ﴿أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ...﴾، فيجيب شعيب بمنهج الإصلاح الواقعي الذي لا يبيع المبادئ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾، ثم يعلن أصل الطريق:

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾، ويغرس قاعدة التوفيق: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّهِ﴾، ويختم بدعوةٍ تُظهر اسم الله بلا إيحاءات: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾؛ رحيمٌ في شرعه وهداه، ودودٌ لأوليائه بطاعته وقربه، ثم مشهد الاستكبار والتهديد، ثم العذاب.

ثم موسى عليه السَّلام وفرعون: اتباع الملأ لأمر فرعون لا يوصل إلا إلى النار: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، ثم يصوّر القرآن قيادة الطغاة لأقوامهم يوم القيامة إلى موردٍ مهين: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾، وتتبّعهم اللعنة في الدنيا والآخرة، ثم يلتفت الخطاب إلى قاعدةٍ تقطع طريق الاعتراض على عدل الله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ وتأتي خلاصة السُّنن: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، ثم يرفعك إلى مشهد اليوم الآخر: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، يومٌ لا تتكلم فيه نفسٌ إلا بإذنه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ثم مفترق المصير: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، وزفيرٌ وشهيقٌ لأهل النار، وعطاءٌ غير مجذوذ لأهل الجنة؛ ليبقى القلب مستيقظاً على نهايةٍ لا نهاية بعدها.

ومن هذا الارتفاع يعود الجزء إلى "وصايا الطريق" التي إن ضاعت ضاع كل ما قبلها؛ فيثبّت أن صور الشِّرك تتكرر وأن التقليد ليس حجة: ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء﴾، ويذكّر باختلاف الناس في الكتب وامتداد الشَّك، ثم يضعك أمام معيار الاستقامة الذي لا يُجمَّل ولا يُؤجَّل: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، ومعها وصية الصُّحبة في الطريق: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، ثم التحذير من الطغيان ومن الميل إلى الظالمين ولو بقلبٍ يتكيّف: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، ثم يأتي جبر اليوم وتطهيره بالصلاة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾، والقاعدة المطمئنة التي لا تُستخدم ذريعةً للتساهل بل باباً للرجوع: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، ثم وصية الصبر التي تجمع الرحلة كلها: ﴿وَاصْبِرْ

فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ثم لفتة تُدين غياب الإصلاح في الأُمم: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ... أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾، وتقرير عدل الله في بقاء القرى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، ثم حقيقة الاختلاف وسعة الرحمة: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾... ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، ثم يختم تثبيت فؤاد النبي وكل مؤمن بأن القصص ليست ترفاً معرفيّاً بل تثبيتٌ وذكرى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، ثم إعلان المفاصلة الهادئة: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾... ﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، ثم خاتمة التوحيد الجامعة التي تُسلم فيها قيادة القلب لله وحده: ﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم يفتح الجزء باباً جديداً لكن بروح السُّنن نفسها: يوسف عليه السَّلام، لا بوصفها قصةً للدهشة، بل كمرآةٍ لسنّة "التدبير من وراء الستر"؛ يبدأ بإعلان مصدر هذا البيان: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، ثم يقرر حكمة اللسان العربي لا تعصّباً بل بياناً: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ثم يُعرّفك أنك أمام قصٍّ مقصود للتزكية: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وتبدأ الرؤيا التي تُشير إلى مستقبلٍ لا يُصنع بالعجلة: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾، فيأتي أدب يعقوب في حفظ النعمة من كيد البشر: ﴿لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾، ثم يبشّره بالاصطفاء والعلم وإتمام النعمة: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾... ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾... ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ثم يُصرّح بأن في يوسف وإخوته آياتاً للسائلين، لأن ما سيجري ليس صراع أفراد بل درس سُنن.

ثم تُكشف ظلمة الغيرة حين يختل ميزان الحب في نفوس الإخوة فينقلبون إلى

مشروع جريمة، وتُقال كلمة القتل أو الطرح بعيداً: ﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾، ويأتي "صوت يخفف الشر لا يقتلع أصله" فيقترح الجُبّ، ثم يبدأ مشهد الاستئذان الكاذب، وحزن الأب وخوفه، ثم يقع ما وقع، لكن في قلب الظلمة يرسل الله خيطاً من الوحي يربط المستقبل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا﴾، ثم يعودون على أبيهم بالبكاء وصناعة القميص الملطخ: ﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، فينطق يعقوب بكلمة ليست استسلاماً بل تفويضاً مع صبرٍ جميل: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾.

ثم يلتقطه الركب، ويُخفى كسلعة، ويباع بثمنٍ بخس، وكأنَّ الكرامة تُدفع إلى القاع قبل أن تُرفع إلى القمة؛ ثم يدخل بيت العزيز ويبدأ التمكين على مهل: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾، ومع التمكين يأتي التعليم: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾، ويُعلن الميزان الذي يطمئن به قلب كل مبتلى: ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، ثم يبلغ أشدّه ويؤتى حكماً وعلماً، ويبدأ امتحان الشَّهوة المغلَّفة بالسُّلطة حين غلّقت المرأة الأبواب وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فيخرج يوسف من داخله قبل أن يخرج من المكان: ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾، ويستحضر حق الإحسان: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، ثم يقرر قاعدة العدل: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، وتأتي لحظة الصِّراع، فيذكر القرآن صرف السُّوء والفحشاء عنه بإظهار برهان ربه، ويصفه بوصف العبودية الخالصة: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، ثم سباق الباب، والقدّ من دبر، ولقاء السيد، ومحاولة قلب الاتهام، فيقيم الله شاهداً من أهلها يُظهر الحق بميزان القميص، حتى يقول العزيز: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ويقال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا﴾، ويقال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾، ثم يمتد الابتلاء إلى مجتمعٍ يلوك القصة، فتدبّر المرأة مكيدة "الإبهار" والسِّكين، ويخرج يوسف فيُفتن النظر، ويظهر ضغط النساء، فتتحول المعصية إلى تهديد بالسجن، وهنا تُعرَض عليك

لحظة اختيارٍ تربوية صافية: يوسف لا يزعم عصمةً بشرية بغير معونة الله، بل يطلب العصمة صراحة: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، ويختار طريق السَّلامة ولو كان ظاهره قهراً: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، فتأتي الإجابة التي تربط آخر القصة بأول الجزء في اسمي الله السميع العليم: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ثم يسجن مع ظهور الآيات، لأن الابتلاء لا يزول لمجرد ظهور البراءة في أعين الناس، بل يمضي بقدر الله إلى حين.

ثم يدخل معه السجن فتيان، ويبدأ مشهد جديد من مشاهد ''التمكين في الضيق''؛ يأتي السؤال عن الرؤيا، فيستثمر يوسف فرصة القلوب المنكسرة لا ليُظهر علمه فقط، بل ليُقيم التوحيد في نفوسهم قبل تفسير الأحلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾، ويثبت انتماءه لملة الآباء الأنبياء: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ويقرر قاعدة الشرك: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ﴾، ثم يسأل سؤالاً يهدم تعدد الآلهة بأقرب طريق: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، ويكشف حقيقة الأسماء التي يعبدونها: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا﴾، ثم يضع أصل التشريع والطاعة: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّهِ﴾، ثم يؤوّل الرؤيا ويقضي الأمر، ثم يقول للناجي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، فيُنسيه الشيطان فيلبث بضع سنين؛ لتتعلم أن الأسباب قد تتعطل، وأن الفرج لا يأتي على توقيت النفس.

ثم يظهر الملك ورؤيا السبع بقرات والسُّنبلات، ويعجز أهل التأويل: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ﴾، فيتذكر الناجي يوسف بعد أُمَّة، ويذهب إليه، فيُقدّم يوسف خطة اقتصادٍ وأمنٍ غذائي لا تفسيراً مجرداً: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾... ثم سنوات الشّدة... ثم عام الغيث والعصر، فتدبيرٌ يخرج من قلب السِّجن ليحفظ أُمَّةً كاملة؛ ثم يطلب الملك إحضاره، لكن يوسف لا يرضى أن يخرج ومعه تهمةٌ معلقة في الهواء، فيقول للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ

النِّسْوَةِ﴾، ويقرر علم الله بكيدهن: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، فيظهر الحق على لسان النساء: ﴿حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾، وتقول امرأة العزيز كلمة الاعتراف: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، ثم تختم بما يبرئ يوسف ويثبت مبدأ الأمانة: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾؛ وهنا تكون قد فهمت لماذا لا تنفصل بداية الجزء عن نهايته: رزقٌ مضمون لا يعني طريقاً ناعماً، وابتلاءٌ مقصود لا يعني خذلاناً، وتوحيدٌ صحيح لا يعني غياب الضيق، بل يعني أن الضيق نفسه يصير مدرسة، وأن العبد إذا صدق في ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ صار كل مشهدٍ في حياته "جزءاً من التدبير" لا "انقطاعاً عن الله".

الخريطة البنيوية لآيات الجزء الثاني عشر

- الرِّزق بيدِ الله وحده، وهو سبحانه يعلم حالك كلَّه، ظاهرَه وباطنَه، ضعفَك وقوّتَك، سعيَك وتعثرَك، فلا تُعارض قضاءه وأنت تظن أنك تُحسن التخطيط، ولا تُخاصم قدَره وأنت تظن أن حساباتك أدقّ من حكمته؛ فإن قوله تعالى ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ليس آيةً تُتلى فحسب، بل طمأنينةٌ تُسكب في القلب، ومعناها أن كل مخلوقٍ يتحرّك على هذه الأرض، صغيراً كان أو كبيراً، خفيّاً أو ظاهراً، قد تكفّل الله برزقه، فلا يضيع في زحمة الخلق، ولا يُنسى في كثرة الأسماء، ولا يسقط من علم الله أو عنايته... فأنزِل من قلبك همَّ السؤال القَلِق: "من أين سيأتي رزقي؟" واجعل بدلَه سؤالاً أصدق وأعمق: "كيف أعمل عملاً يُرضي الله في رزقي؟ كيف أكون أميناً، صادقاً، مستقيماً، وأنا أطلب ما كتبه الله لي؟" لأن الذي ضمن لك وصول الرزق، هو نفسه الذي يختبرك في طريقة طلبه، وفي أخلاقك حين تقبضه، وفي قلبك حين يُزاد لك أو يُضيَّق عليك.

فلا تجعل كثرة المال دليل محبةٍ مطلقة، ولا تجعل قلته علامة سخطٍ حتمي، فإن الرزق ليس مقياس القرب، بل ميدان امتحان؛

١. قد يُعطيك ليختبر شكرك،
٢. وقد يمنع عنك ليحفظ قلبك،
٣. وقد يُؤخّر عنك شيئاً لتتعلّق به وحده، لا بالعطاء نفسه.

الرزق قد يكون اختباراً خفيّاً لا ينتبه له إلّا من راقب قلبه، والمنع قد يكون لطفاً مستتراً لا يدرك حكمته إلّا من وثق بربه، والأمر كلّه، في العطاء والمنع، في السَّعة والضيق، بيد الله الحكيم الذي لا يُقدّر لعبده إلّا ما يصلحه، ولو خالف ذلك رغباته العاجلة.

- ثم يرفعك النصّ من سؤال "كم؟ وكيف؟ ومتى؟" إلى سؤالٍ أصفى وأخطر: لماذا خُلقتَ أصلاً؟ ولماذا وُجدتَ في هذا العالم؟ فيأتي الجواب على هيئة ابتلاءٍ مقصودٍ لا عبث فيه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾... فليس الامتحان بكثرة الحركة، ولا بضجيج الإنجاز، ولا بتكديس العبادات بلا روح، بل بالـ"أحسن": أصدق، وأصفى، وأقوم، وأقرب إلى مرضاة الله، ومع هذه الحقيقة تُواجه فئةٌ لا تريد أن تُسلّم للبعث أصلاً، فتدفعها المكابرة إلى وصم الحقّ بما ليس فيه، لأن القلب إن لم يرد الهداية سخر من طريقها: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.
- إنكار البعث غالباً ليس نقص برهان... بل تمرّد نفس على الحساب ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ...﴾ يفضح عقلاً يتهرب من النهاية لأن النهاية تُلزمه؛ فالقرآن لا يكتفي بإثبات الآخرة، بل يكشف لماذا يكرهها المكذب: لأنها تردّ المظالم وتكشف المستور.

- استعجال العذاب سُخريةٌ من الحِلم... ثم يأتي اليوم الذي لا يُصرف ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ كلمة مستهزئ يظن الإمهال ضعفاً، بينما هو باب توبة؛ فإذا أُغلق باب الإمهال صار الجزاء واقعاً لا يُدفَع بحجة ولا بمكر.
- تقلبات النفس بين النعمة والضيق: اليأس عند النزع... والفخر عند العطاء ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ و﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ تُشخّصان داء القلب حين يربط يقينه بما في يده؛ فالمؤمن يُربّي نفسه أن يرى المنح والابتلاء رسائل تزكية لا مؤشرات قيمة ذاتية.
- الاستثناء المنقذ: صبرٌ يحبس اللسان... وعملٌ صالح يثبت الطريق ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ يضع لك باباً عملياً لا نفسياً: لا تُعالج ضعفك بالشعارات، بل بثباتٍ في الضيق، واستقامةٍ في الرخاء، وخيرٍ لا ينقطع إذا انقطع المزاج.
- ابتلاء البلاغ: ضيق الصدر لا يُبرّر ترك الوحي ولا مجاراة الضغط ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى...﴾ يُعلّمك أن الحق قد يثقّل الصدر حين يواجه الاستهزاء، لكن الحل ليس التخفيف من الدين، بل الاتكاء على الله مع القيام بالأمر كما أُمر العبد.
- وظيفة الرسول البلاغ والإنذار... ونتائج القلوب بيد الله وحده ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ تريح الداعية من عبء "لا بد أن يقتنعوا اليوم"؛ وتربي المؤمن أن يهتم بصدق السَّير لا بسلطة التأثير، فالهداية فضلٌ من الله يهبها لمن شاء بحكمة.
- برهان القرآن ليس انفعالاً... بل تحدٍّ قائمٌ يقطع طريق الافتراء ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ يثبت أن هذا كلام الله علماً وحجةً لا انطباعاً؛ فإذا ثبت المصدر سقطت أعذار المراوغة، وصار السؤال: هل تُسلم أم تُكابر؟.

- المنعطف العقدي الحاسم: لا إله إلا هو... فهل أنتم مسلمون؟ ﴿وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ليست جملة تُقال، بل راية تُحكم بها الطاعة والاتباع؛ فمن لم يسلّم لله في اختياراته بقيت "لا إله إلا الله" عنده لفظاً بلا أثر.
- فتنة النِّيَّة: أعمالٌ تُوفّ في الدنيا... ثم لا وزن لها في الآخرة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ تكشف أن بعض النجاحات ليست علامة نجاة؛ فقد يُعطى الإنسان ثمرات عمله الدنيوي، لكن قلبه يخسر وجهته إن لم يرد الله والدار الآخرة.
- التمييز بين أهل البينة وأهل الافتراء: الحق واضح... لكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ يجعل الإيمان قراراً واعياً لا موجة اجتماعية؛ فإذا ثبتت البينة فلا تجعل قلة المؤمنين تُضعف يقينك، فالحق حقّ ولو قلّ السَّالكون.
- جريمة الافتراء والصَّدّ: ليست خطأ رأي... بل ظلم يجرّ لعنة وشهادة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ يضعها في موضعها: اعتداء على مقام الرَّب، وإضلال للخلق؛ فاحذر أن تتكلم في الدين بغير علم، فإن الزَّلل هنا ليس بسيطاً.
- فريقان لا ثالث لهما: إخباتٌ يقود للجنة... أو عمى وصمم يقود للخسران ﴿وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ﴾ يعرّف الإيمان أنه خشوع وانقياد وسكينة؛ فالقلوب التي تسمع وتبصر هي التي تتذكر، لا التي تُجادل لتنتصر لنفسها.
- قوس سُنن الرسالات: نوح... ثم هود... ثم صالح... ثم لوط... ثم شعيب... ثم موسى، السياق لا يجمع قصصاً متفرقة، بلُ يمرّرك على "نَفَس واحد" يتكرر:
  - توحيد واضح،
  - تكذيب متكبر،

- استهزاء،
- ثم نجاة للآمنين وهلاك للمكذبين؛

لتوقن أن التاريخ يُعيد نفسه إذا أعاد الناس أخطاءه.

- نوح عليه السَّلام: الدعوة للتوحيد... وفتنة الاستعلاء الطبقي... ثم صناعة الفلك تحت عناية الله ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ تُربيك على أن العمل للحق قد يُسخَر منه طويلاً؛ لكن العبرة ليست بنظرة الناس، بل بثباتك على أمر الله حتى يأتي وعده.
- نوح عليه السَّلام وابنه: ألم القرابة حين تُوزن بميزان الإيمان والعمل لا بميزان الدم ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ درس قاطع: لا تُقدِّس الروابط على حساب الحق، ولا تظن أن القرب وحده يحمي؛ النجاة تكون برحمة الله ثم بصدق الإيمان والاستقامة.
- هود عليه السَّلام: التوكل الحقيقي يزيل رهبة الطغاة لأن النواصي بيد الله ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ يحرر القلب من خوف البشر؛ فإذا استقر هذا المعنى صار الثبات ممكناً حتى أمام "الجبار العنيد" لأن الله أقرب وأقوى.
- صالح عليه السَّلام: آية تُرى... ثم اعتداء... ثم مهلة أخيرة قبل السقوط ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ﴾ يُعلّمك أن الإمهال ليس غياب عدل؛ بل هو آخر باب قبل الإغلاق، فمن لم يرجع عند الإنذار فقد اختار الطريق بقدميه.
- إبراهيم مع الرسل: بشارة بعد خوف... لكن العدل إذا جاء لا يُرد ﴿إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ يوازن قلبك بين الرجاء والرهبة؛ فالله رحيم، لكنه لا يترك الظلم بلا نهاية إذا أصرّت القلوب على الفساد.
- لوط عليه السَّلام: حين تشتد الوحشة... يأتي نصر السماء في "الصبح

القريب" ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ يُعلّمك ألَّا تجعل الليل معيار الحقيقة؛ فكم من ضيق بدا أبديا، ثم انشقّ فجأة حين جاء أمر الله تعالى.

- شعيب عليه السَّلام: فساد المال ميزان دين... والإصلاح يبدأ من الصدق مع النفس ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يضع قاعدة المُربي: لا تنصح بشيء وتخالفه سراً؛ وأصل النجاح في الإصلاح أن يكون التوفيق من الله لا من مهارة الخطاب.
- موسى عليه السَّلام وفرعون: قيادة الطغيان تورد أتباعها النار... فلا تتبع غير رشيد ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ يُعلّمك أن الباطل قد يبدو قوياً ومنظماً، لكنه يُساق في النهاية إلى مورد الهلاك؛ فلا تُسلم عقلك وضميرك لمن يعادي الحق.
- مشهد الآخرة الجامع: يوم مشهود... لا كلمة إلَّا بإذنه... شقي وسعيد ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ يضع أمامك نهاية الطريق لتصحح بدايته؛ فحين تتذكر اليوم المشهود يصغر كل ضغط دنيوي، ويكبر سؤال النجاة.
- وصايا الاستقامة: لا ركون للظالمين... الصلاة تطهر... الصبر يحفظ الأجر ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ و﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تبني فيك عموداً فقهياً وقلبياً: لا تساوم على الحق طلباً للسَّلامة، وازن يومك بالصَّلاة، وثبّت قلبك بالصبر.
- سُنّة الإصلاح: بقاء الأمم مُرتبط بوجود من ينهى عن الفساد ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى... وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ تضعك في موقع المسؤولية: النجاة ليست فردية فقط؛ بل حضور "المصلحين" في المجتمع حائط صَدّ أمام الانهيار.

- خاتمة التوحيد العملي: الغيب لله... والأمر كله يرجع إليه... فاعبده وتوكل عليه ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يختم الرحلة بإغلاق باب الوسواس: ما غاب عنك لم يغب عن ربك، وما تأخر لم يفلت من حكمته؛ فامضِ في عبوديتك بيقينٍ هادئ وتوكلٍ صحيح.
- يوسف عليه السَّلام: القرآن يفتح "أحسن القصص" ليعلمك أن التدبير يشتغل من وراء الستار ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يُهيئك لرحلةٍ ستتألم فيها القلوب ثم تُشفى؛ لأن الله ينقل عبده من الجُبّ إلى التمكين عبر محطات لا يفهمها العبد ساعة وقوعها.
- الرؤيا والوصية تُعلّمانك أن النعمة تُحمى بالصمت الحكيم لا بعرضها على كل أحد؛ فقوله تعالى ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ يربّيك على فقه ستر النِّعم وصيانة البدايات، فليس كلُّ خيرٍ يُقال، وليس كلُّ مشروعٍ يُعلن، وبعض السَّلامة أن تحفظ سِرَّك حتى يُتمَّ الله أمرك ويُظهره في وقته الذي اختاره لك، بعيداً عن أعين الحسد وضجيج التعجُّل.
- الغيرة تُولّد جريمة... لكن الله يزرع وعداً خفياً في قلب يوسف ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ يطمئنك أن أشد لحظات الظلم قد تحمل "بذرة نهاية" لا تراها الآن؛ فالله تعالى يكتب المآلات قبل أن تُكتب الأخبار.
- يعقوب عليه السَّلام: الصبر الجميل ليس بلادة... بل تسليم مع استعانة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ يعلّم قلبك أن الصبر ليس إنكار الألم، بل ضبطه؛ وأن الشَّكوى الكبرى لا تكون للناس، بل لله مع حسن الأدب.
- من الجُبّ إلى البيت... ثم إلى السجن: الابتلاء يتبدّل شكله ليصنع الإنسان ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ تفسّر لك لماذا تتكرر المنعطفات؛ لأن الله لا يربّي عبده بالنتائج السَّريعة، بل بالثبات عبر التحولات حتى يستقيم القلب.

- فتنة الشَّهوة: النجاة ليست بقوة النفس وحدها... بل بمعاذ الله وطلب العصمة ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ و﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ يضعانك أمام حقيقة التزكية: لا تغترّ بصلابتك، استعن بالله، واهرب من مواطن الفتنة، واطلب العصمة قبل أن تطلب السلامة.
- السجن قد يكون أوسع من القصر إذا حفظ الإيمان ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ يُعلِّمك أن الحرية ليست مكاناً؛ الحرية أن لا تُستعبد لشهوة، وأن تختار رضا الله ولو كان ثمنه ضيقاً مؤقتاً.
- الدعوة في السِّجن: تحويل الألم إلى توحيد... لا إلى شكوى ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ تريك كيف يكون المؤمن داعيةً حتى وهو مقيّد؛ فهو لا يبيع رسالته لأجل ظرفه، بل يجعل الظرف منصة خير.
- تأخر الفرج لا يعني نسياناً... فقد يطول "بضع سنين" لحكمة ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ يُربّي قلبك على الصبر على توقيت الله؛ بعض التأخير تهيئةٌ لا حرمان، وإعدادٌ للتمكين لا إهمال.
- التمكين الحقيقي يبدأ من خطةٍ تنقذ الناس... لا من منصب يرفع الاسم ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ يكشف معنى القيادة في القرآن: علمٌ نافع، وتدبير رحيم، وحفظ لمصالح الأُمَّة، لا زينةُ صورة ولا تضخم ذات.
- طهارة السيرة قبل الخروج: لا تمكين مع شُبهة مُعلَّقة ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ يُعلِّمك أن المؤمن لا يهرب من الحقيقة؛ يطلب تبرئة الطريق ليكون تمكينه نقياً، وحتى لا تُبتزّ الدعوة بتهمةٍ قديمة.
- ختام المشهد: الله لا يهدي كيد الخائنين... والحق إذا حصحص يرفع أهله ﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ يثبت في قلبك قاعدة عدلٍ ورحمة: قد يطول الليل، لكن الخيانة لا تملك مستقبلاً عند الله، والصدق وإن تأخر ظهوره لا يضيع.

المحور الإيماني المركزي للجزء الثاني عشر

هذا الجزء كله – من أول سورة هود إلى قلب سورة يوسف – يدور حول حقيقةٍ واحدةٍ عميقةٍ تُعيد تشكيل نظرتك للحياة:

١) أن الأمر كلَّه لله علماً وتقديراً وحكماً،

٢) وأن وظيفة العبد ليست إدارة النتائج بل تحقيق العبودية تحت سلطان هذا العلم الشامل والتدبير الغالب،

٣) وأن النجاة ليست في تبديل الظروف بل في ثبات القلب على التوحيد والاستقامة مهما تبدّلت الظروف.

يفتتح المعنى بضمانٍ يُسقط خوف الرزق من القلب: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾، ثم يربط هذا الضمان بابتلاءٍ مقصود: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، ليُفهمك أن الرزق ليس دليل رضا، ولا الضيق دليل سخط، وإنما المعيار هو إحسان العمل في كل حال، ثم يكشف طبيعة النفس إذا انفصلت عن هذا المحور؛ نفسٌ تيأس عند النزع وتفخر عند العطاء، إلا من ثبّته الصبر والعمل الصالح.

ثم ينتقل إلى تثبيت مقام البلاغ؛ فالحق لا يُخفّف لإرضاء المعترضين، ولا يُعدَّل ليوافق الأهواء: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى﴾... ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾، فالمحور أن العبد مأمور بالاستقامة والبلاغ، أما الهداية والنتائج فبيد الله وحده، ولذلك كان التحدي بالقرآن دعوةً للتسليم: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ثم يُعرّي انحراف النِّيَّة حين يتحول العمل إلى طلب دنيا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، فيؤكد أن قيمة العمل ليست في ثماره العاجلة بل في وجهته القلبية، ويضع مقابل ذلك أهل البينة الذين آمنوا وأخبتوا إلى ربهم، لأنهم فهموا أن الأمر ليس جدلاً فكرياً بل خضوعاً صادقاً لله.

وتأتي قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام لتُجسّد

هذا المحور عملياً: دعوةٌ إلى توحيدٍ خالص، تكذيبٌ واستعلاء، إمهالٌ ثم أخذٌ عادل، ونجاةٌ لمن ثبت؛ فيتكرر المعنى أن السُّنن لا تتبدل، وأن الله لا يظلم أحداً: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾، وأن العاقبة للمتقين ولو طال الطريق.

ثم تختم سورة هود بأمرٍ جامعٍ يلخّص الطريق كله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾... ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾... ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾..

لتقرر أن وظيفة المؤمن أن يثبت على الأمر، ويجتنب الميل للباطل، ويصبر على تبعات الطريق، مطمئناً إلى عدل الله وإحاطته.

ثم تأتي سورة يوسف لتعرض نفس المحور ولكن بلغة الابتلاء الفردي؛ من الجبّ إلى بيت العزيز إلى السجن إلى التمكين، في كل مرحلة يتجلى أن التدبير ليس ظاهراً للعين، لكن الله غالب على أمره، وأن العبد إن قال بصدق: ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾ وثبت على العفة، وصبر على البلاء، واستثمر علمه في نفع الناس، فإن العاقبة تُبنى بهدوء تحت عين الله، حتى وإن تأخرت.

وهكذا يلتئم أول الجزء بآخره في قاعدةٍ واحدةٍ جامعة: ﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ فالغيب الذي يقلقك هو في علمه، والتدبير الذي يُحيرك هو في حكمته، والنتائج التي تستعجلها تُصاغ وفق مشيئته، لذلك كان قلب هذا الجزء كله دعوةً صريحةً إلى عبوديةٍ واعيةٍ مستقيمةٍ مطمئنة، تعبد الله على علم، وتصبر على قدر، وتثق أن من كان أمره كله لله فلن يضيع عند الله.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها الجزء الثاني عشر

❖ أولاً: انحراف عقدي

١) الاعتراض على البعث والاستهزاء بالآخرة: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس مجرد رأيٍ فكري، بل تمرّد على مقام الرَّبّ العادل؛ فمن أنكر الحساب هان عليه الظلم لأنه لا يرى نهايةً تردعه.

٢) الافتراء على الله والكلام في دينه بغير علم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً﴾ يضع هذا الذنب في أعلى درجات الظلم؛ لأنّه اعتداء على حق الله في التشريع والهداية، وإضلال للخلق باسم الدين.

٣) الشرك الخفي بتقديم الأهواء على حكم الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّهِ﴾ قاعدة قاطعة؛ فمن جعل الحكم لغير الله تشريعاً أو طاعةً مطلقةً فقد انحرف عن أصل التوحيد ولو زعم الإيمان.

٤) الركون إلى الظالمين طلباً للأمان أو المصلحة: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تحذير من ميل القلب قبل ميل الجسد؛ فالركون تآكلٌ تدريجيٌّ للعقيدة حتى يصبح الباطل مقبولاً.

٥) الاغترار بثمرات الدنيا واعتبارها علامة رضا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يفضح توهّم أن النجاح الدنيوي معيار الحق؛ فالميزان الحقيقي ما كان لله خالصاً.

❖ ثانياً: انحراف أخلاقي

١) اليأس عند البلاء والكفران عند النزع: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ يُبيّن خللاً في شكر المنعم؛ فالمؤمن لا يعبد النِّعمة بل يعبد رب النِّعمة، ولا يجعل سحب العطاء ذريعةً لسوء الظَّنِّ بالله تعالى.

٢) البطر والفخر عند الرخاء: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ يكشف أن النِّعمة قد تتحول إلى سبب كِبرٍ إن لم تُقيَّد بالشُّكر والتواضع.

٣) الاستعلاء الطبقي واحتقار أهل الإيمان: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ مرض أخلاقي قديم؛ يجعل معيار القيمة المكانة لا التقوى.

٤) الخيانة والكيد في الخفاء: ﴿وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ يُقرّر أن الغدر لا يبني مجداً، بل يؤسس لسقوطٍ مؤجلٍ تحت عدل الله تعالى.

٥) الانجرار وراء الشَّهوة ولو تحت ضغط الإغراء: ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾ كلمة يوسف تكشف أن العفة قرارٌ عقدي قبل أن تكون موقفاً أخلاقياً؛ فالنجاة تبدأ من استحضار مراقبة الله تعالى.

❖ ثالثاً: انحراف اجتماعي

١) الفساد الاقتصادي والتلاعب بالحقوق: ﴿وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ يربط الدين بعدل السُّوق؛ فالمجتمع الذي يفسد ميزانه يسقط أخلاقياً قبل أن يسقط مادياً.

٢) اتباع القيادات الطاغية بلا بصيرة: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ تحذير من الانقياد الأعمى؛ فاتباع الباطل يجرّ الأُمَّة إلى مورد النار ولو كان القائد قوياً.

٣) غياب أهل الإصلاح عن المشهد العام: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ... أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ﴾ يوضح أن انهيار المجتمعات يبدأ حين يصمت المُصلحون.

٤) التهكّم بالدِّين وتحويله إلى مادة سُخرية: ﴿أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ استخفافٌ يسبق السقوط؛ لأن المجتمع الذي يسخر من قيمه يهدم أساسه بنفسه.

❖ رابعاً: انحراف نفسي

١) القلق المَرضي من الرزق مع وضوح ضمان الله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ... إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا﴾ يعالج توتراً داخلياً يُضعف الثقة؛ فالخوف من الغد إذا تجاوز حدّ الأخذ بالأسباب صار سوء ظنٍّ برب العالمين.

٢) الاستعجال وطلب النتائج قبل اكتمال السُّنن: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ نفسية متعجلة لا تفهم أن الإمهال لحكمة؛ فالعجلة تفسد الصبر وتُربك الثبات.

٣) الانهيار أمام ضغط السُّخرية أو الضيق: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى﴾ يفضح خطر التأثر النفسي بالضغط الاجتماعي؛ والثبات هو الحصن أمام هذا الانكسار.

٤) الغيرة والحسد داخل الأُسرة الواحدة: قصة يوسف تُظهر كيف يتحول حبّ التفضيل في نظر النفس إلى مشروع أذى؛ فالحسد يفسد أقرب الروابط إذا لم يُضبط بالتقوى.

٥) الغفلة عن أن التدبير يعمل في الخفاء: ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يداوي نفساً ترى الظاهر فقط؛ فالمؤمن يتعلم أن وراء الأحداث ترتيباً إلهياً لا يُدرك فوراً لكنه لا يخرج عن الحكمة.

هذا الجزء لا يُحذّر من انحرافاتٍ نظريةٍ بعيدة، بل من انزلاقاتٍ تبدأ:

← فكرةً في القلب،

← ثم تتحول خلقاً،

← ثم تصير نظاماً اجتماعياً،

← ثم تنتهي بعاقبةٍ في الدنيا والآخرة؛

فمن وعى هذه المسارات مبكراً، نجا قبل أن تتراكم عليه آثارها.

ملامح الشخصية التي يصنعها الجزء الثاني عشر

هذا الجزء لا يقدّم معلوماتٍ إضافية بقدر ما يُعيد تشكيل الإنسان من الداخل؛ يصنع شخصيةً مطمئنةً في رزقها، مستقيمةً في تكليفها، واعيةً بسنن الله في التاريخ، عفيفةً في شهواتها، ثابتةً في ضغوطها، وواثقةً أن التدبير كله لله وإن بدا المشهد مضطرباً.

- يصنع شخصيةً لا تعيش قلق الرزق لأنها قرأت يقيناً ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾، فتأخذ بالأسباب دون أن تتعلّق بها، وتعمل في دنياها دون أن تجعلها مصدر أمانها، لأنها تعلم أن الضمان

من الله لا من الوظيفة ولا من السوق ولا من الناس.

- ويصنع شخصيةً تفهم أن الحياة ليست مسرح إنجازٍ بل ساحة ابتلاء، لذلك تتجه إلى جودة العمل لا إلى كثرته، لأنها تسمع النداء واضحاً: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، فتراقب نيتها كما تراقب عملها، وتزن إخلاصها كما تزن نتائجها.
- ويصنع شخصيةً متوازنةً في الرخاء والضيق؛ لا تنهار إذا سُحبت منها نعمة، ولا تنتفخ إذا عادت إليها، لأنها تعلّمت خطر أن تكون من ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ أو من ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، فاختارت طريق ﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾؛ صبرٌ يمنع الانكسار، وعملٌ يمنع البطالة الروحية.
- ويصنع شخصيةً ثابتةً في البلاغ والموقف؛ لا تُخفّف الحقّ لإرضاء جمهور، ولا تتنازل عن وحيٍ لتجنّب ضغط، لأنها فهمت التحذير: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى﴾، وعرفت أن دورها البلاغ والاستقامة لا صناعة القبول في القلوب، فالهداية بيد الله وحده.
- ويصنع شخصيةً واعيةً بخطر النِّيَّة؛ لا تعمل للدنيا وهي تظن نفسها تعمل لله، لأنها قرأت بوضوح: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، فعرفت أن العمل قد يُوفّ في الدنيا ويخسر صاحبه في الآخرة إن فسدت الوجهة، فصحّحت مقصدها قبل أن تُكثِر جهدها.
- ويصنع شخصيةً سُننيّةً؛ تقرأ التاريخ لتفهم الحاضر، ترى في قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام قانوناً متكرراً: دعوةٌ صادقة، استكبارٌ متكرر، إمهالٌ حكيم، ثم أخذٌ عادل، فلا تُخدع بزخرف قوةٍ آنية، ولا تيأس من قلةٍ مؤمنة، لأنها تعلم أن ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾، وأن العاقبة لا تُكتب بالضجيج بل بالتقوى.
- ويصنع شخصيةً مستقيمةً لا تميل إلى الظالمين ولو كان الميل خفيفاً، لأنها

سمعت بوضوح: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فصار ميزانها رضا الله لا رضا التيار، وثباتها على الحقّ ليس مشروطاً بمكاسب عاجلة.

- ثم في سورة يوسف، يصنع هذا الجزء شخصيةً تعرف أن الطريق إلى التمكين قد يمرّ عبر الجبّ والسجن، وأن العبرة ليست بالمكان بل بالموقف، فتتعلم من كلمة يوسف ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾ أن العفة تبدأ باستحضار مراقبة الله، ومن دعائه ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أن اختيار رضا الله قد يبدو خسارةً ظاهرةً لكنه فوزٌ باطن، ومن قوله في السجن ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّهِ﴾ أن التوحيد لا يُؤجَّل حتى تتحسن الظروف بل يُعاش في قلب الضيق.
- ويصنع شخصيةً صبورةً على تأخر النتائج؛ لا تنهار إذا طال الانتظار، لأن مشهد يوسف يُعلِّمها أن بضع سنين في السجن لا تُلغي وعد الله، وأن التدبير قد يعمل بصمتٍ طويل حتى تنضج اللحظة، وأن ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ حقيقةٌ تتكشف في وقتها لا في وقت استعجال البشر.
- ويصنع في النهاية شخصيةً مطمئنةً بالغيب، لا ترى كل التفاصيل لكنها تثق في صاحب التفاصيل، لأنها ختمت الرحلة على قاعدةٍ جامعة: ﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فتعبد ربّها بثبات، وتتوكل عليه بيقين، وتعيش في الدنيا عاملةً لا متوترة، صابرةً لا يائسة، مستقيمةً لا متلوّنة، واثقةً أن من كان أمره كله لله فلن يضيع عند الله.

أمراض القلوب التي يعالجها الجزء الثاني عشر

هذا الجزء لا يواجه انحرافات ظاهرة فحسب، بل يكشف أمراضاً دقيقة قد يعيشها المسلم وهو يظن نفسه مستقيماً، يصلي ويصوم ويتكلم بلغة الإيمان، بينما في داخله خللٌ يتآكل بصمت.

١) أول هذه الأمراض: قلق الرزق المقنَّع بصورة الحرص؛ قلبٌ يقرأ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا﴾، لكنه يعيش كأن الرزق بيد الوظيفة

والسوق والناس، فيتحول "الخوف المشروع" إلى توترٍ دائم، وتتحول العبادة إلى وسيلة أمان دنيوي، لا مقام عبودية، فيُفسد القلقُ النِّيَّة دون أن يشعر صاحبه.

٢) ثم يأتي مرضٌ أخطر: التديّن الذي يخاف الحساب في داخله؛ قد لا يُنكر البعث بلسانه، لكنه يهرب من فكرة الوقوف بين يدي الله، يزيحها عن وعيه، ويعيش وكأن النهاية بعيدة، لأن استحضار الحساب يقيّده، فيُفضّل نسيانه على مواجهته.

٣) ومن الأمراض الشائعة: اضطراب القلب بين الضيق والرخاء؛ ينهار إذا سُحبت منه نعمة، وينتفخ إذا عادت إليه، يعيش بين ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ و﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ دون أن ينتبه أن مشكلته ليست في الحدث، بل في تعلّقه به، وكأن قيمته تقاس بما يملك لا بمن يعبد.

٤) ويكشف الجزء مرضاً خطيراً في أهل الطاعة أنفسهم: العمل لله في الظاهر... وللدنيا في الباطن؛ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، مرض النِّيَّة الصامت، حيث يسعى الإنسان ويُنجز ويُؤثّر، لكن قلبه ينتظر المقابل العاجل، فإن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ فتر، وهو لا يدرك أن عمله قد يُستوفى هنا ويخلو هناك.

٥) ومن أخطر ما يفتك بالقلوب: التجرؤ على الكلام في دين الله بلا علم؛ ليس بدافع العناد دائماً، بل أحياناً بدافع الثقة الزائدة، أو حب الظهور، أو الرغبة في التأثير، فيقع تحت وعيد ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ وهو يظن أنه يخدم الدين.

٦) ويعالج الجزء مرضاً ناعماً يتسلل دون ضجيج: الميل الخفيف إلى الظالمين؛ ليس تأييداً صريحاً، بل تبريراً، أو صمتاً مريحاً، أو تقرّباً بدافع مصلحة، يبدأ بخفقة قلب، ثم يتحول إلى تطبيع، حتى يفقد القلب حساسيته تجاه الظلم.

٧) ومن أمراض القلوب التي تلبس ثوب "الغيرة": الحسد في دوائر القرب؛ داخل الأسرة، بين الإخوة، بين أهل الفضل، حيث لا يُنكر الإنسان فضل الله، لكنه يعترض ضمنياً على قسمته، كما فعل إخوة يوسف، فيتحول الضيق الداخلي إلى مشروع أذى.

٨) ويكشف كذلك مرضاً يتكرر في زمن الفتن: الثقة المفرطة بالنفس أمام الشَّهوة؛ يظن الإنسان أنه قوي حتى يُختبر، ثم يسقط لأنه اعتمد على إرادته لا على ربه، فجاءت كلمة يوسف ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ لتعلم أن النجاة ليست في صلابة الطبع، بل في الاحتماء بالله قبل المواجهة.

٩) ومن الأمراض المنتشرة بين المنتظرين للفرج: الاستعجال وضيق الصدر بطول الطريق؛ يريد النتائج سريعة، ويريد الوعد ظاهراً، فإذا تأخر التمكين داخله شكٌّ خفي في التدبير، بينما الحقيقة أن ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ تعمل ولو لم تُرَ.

١٠) ثم هناك مرضٌ أخطر من كل ما سبق: الغفلة عن سُنن الله في التاريخ؛ يقرأ قصص الهالكين، ويظن أنها أحداث بعيدة، لا قوانين حاضرة، فيكرر الأخطاء وهو مطمئن، حتى يفاجأ أن السُّنن لا تحابي أحداً.

١١) وأخيراً، يكشف الجزء أصلاً جامعاً لكثير من هذه العلل: نسيان الغيب والانشغال بالمشهد اللحظي؛ يرى الجُبّ فيظنه نهاية، ويرى السجن فيظنه خسارة، ويرى الفوضى فيظنها عبثاً، بينما الحقيقة التي تُعيد توازن القلب هي ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ ما لا تراه ليس خارج التدبير، وما تأخر ليس خارج الحكمة.

هذا الجزء لا يهاجم الكافرين بقدر ما يوقظ المؤمنين؛ لأنه يعالج أمراضاً قد تستقر في قلب مسلمٍ صالحٍ دون أن يشعر، فيأتي القرآن هنا لا ليخيفه فقط، بل ليعيد قلبه إلى مركزه الصحيح:

١) توحيدٌ صافٍ،

٢) ونيّةٌ خالصة،

٣) وتوكّلٌ واعٍ،

٤) وثباتٌ لا يتقلّب مع الظروف،

حتى لا يضيع بين الجبّ والسجن، ولا بين الرخاء والضيق، لأن النجاة ليست في تغيّر الأحداث، بل في ثبات القلب على ربّ الأحداث.

اختبار ذاتي عميق: أسئلة مواجهة لا معلومات

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

١) هل ما زال همُّ الرزق يضغطني رغم أني أقرأ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾؟ إن كانت الإجابة نعم، فأنا محتاج أن أتعلم التوكل الصحيح لا مجرد ترديد الآية.

٢) هل أعيش الدين كعاداتٍ متفرقة لا كابتلاءٍ يُختبر فيه "الإحسان"؟ إذا كنت لا أسأل نفسي عند كل عمل: هل هو أحسن عملاً كما في ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، فأنا داخل خطاب الجزء بقوة.

٣) هل أتغيّر مع النِّعمة والضِّيق: أنكمش يأساً أو أنتفخ فخراً؟ إن كنت أُشبه حال ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ أو ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، فالقلب يحتاج تزكية لا تبريراً.

٤) هل أخفف من الحق أو أساوم عليه إذا ضاق صدري بكلام الناس؟ إن كنت أهرب من ثقل البلاغ ومعنى ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى﴾، فأنا أتعلم الاستقامة لا "إدارة الصورة".

٥) هل أنشغل بالنتائج والقبول أكثر من صدق الوقوف مع الله؟ إن كنت أعيش كأن دوري "إقناع الجميع" لا البلاغ والعبودية، فآية ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ تعيدني لموقعي الحقيقي.

٦) هـل أفـرح بالـدنيا كأنها علامـة رضـاً، وأحـزن منهـا كأنها علامـة سـخط؟ إن كنت أقرأ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ ثم لا أراجع مقاصدي، فأنا من المخاطَبين بلا شك.

❖ أين انكشف قلبي؟

١) أيـن ينهـار قلبي أولاً: عنـد نقـص المال أم عنـد جرح الكرامة أم عنـد طول الانتظار؟ ضع يدك على موضع الانكشاف بصدق، فالجزء لا يعالج العموم بل يعالج "المكمن".

٢) هل انكشفت في قلبي قسوةٌ على الناس حين أخطأوا، وسهولةٌ على نفسي حين أخطأت؟ إن كان ميزاني مزدوجاً فهذه علامة مرض، لأن العدل يبدأ من الداخل قبل أن يُطلب من الخارج.

٣) هـل انكشـف في قلـبي ميـلٌ خفيـفٌ للظـالم أو تبريـرٌ لـه بحجـة الخـوف أو المصلحة؟ إن وجدت هذا، فآية ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لم تُقرأ بعد قراءة مواجهة.

٤) هـل انكشـف في قلـبي احتقـارٌ خفـي لمـن هـم "أقـل" علمـاً أو منزلـة؟ إن وُجدت هذه النبرة ولو في داخلي، فقد تسلّل مرض ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ إلى القلب دون أن أشعر.

٥) هل انكشف في قلبي تعلقٌ بالثناء والظهور حتى صار العمل لا يهدأ إلا إذا رآه الناس؟ إن كان هذا واقعاً فإني أخشى أن أُصاب بما يحذر منه قوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ على مستوى النِّيَّة لا الصورة.

٦) هل انكشف في قلبي اضطراب الشَّهوة عند الخلوة أكثر من اضطرابي عند العلن؟ إن كان هذا موضعي، فأنا محتاج لمعنى يوسف عليه السَّلام: ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾ قبل أي نصيحةٍ أخرى.

❖ أي آية أربكتني؟

١) هل أربكتني آية الرزق لأنها تصطدم بعادات القلق التي بنيتها سنين؟ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ تُحرج من تعلّق قلبه بالأسباب أكثر من المسبّب.

٢) هل أربكتني آية الإحسان لأنها نزعت منّي مخرج "أنا أفعل كثيراً"؟ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ تُخيف من تعوّد الكمّ وترك الجودة والصدق.

٣) هل أربكتني آية الركون لأنها تكشف أن المشكلة ليست في الظلم فقط بل في الميل إليه؟ ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تُربك من اعتاد التبرير قبل المواجهة.

٤) هل أربكتني آية "العمل للدنيا" لأنها تُسقط عني وهم أن كل نجاحٍ قبول؟ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ تضع السِّكين على موضع النِّيَّة.

٥) هل أربكتني كلمة يوسف لأنها تُطالبني بعفةٍ حقيقية لا تديّنٍ كلامي؟ ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ لا تسمح لك أن تقول: "أنا ضعيف" ثم تتساهل، بل تدفعك إلى الاحتماء بالله واتخاذ أسباب النجاة.

٦) هل أربكتني خاتمة هود لأنها حمّلتني مسؤولية الاستقامة لا مجرد التمنّي؟ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ تُربك من يريد طريقاً بلا كلفة، واستقامةً بلا مجاهدة.

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) ما عادة القلق التي أؤجل علاجها: كثرة الشكوى، أو لهاث الأمان، أو سوء الظن عند الضيق؟ ابدأ بخطوة واحدة: اجعل قلبك يردد معنى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ...﴾ ثم اجعل جوارحك تعمل بهدوء دون هلع.

٢) ما تساهل المال الذي أؤجل حسمه: ظلمٌ في حق، أو تلاعبٌ في ميزان، أو

تأخيرٌ في ردّ أمانة؟ لا تنتظر "فرصة مناسبة"، لأن خطاب شعيب واضح في تطهير المعاملة قبل تزيين العبادة.

٣) ما ركوني الصغير الذي أؤجل قطعه: مجاملة ظالم، أو صمت عن باطل، أو تبرير خوفٍ باسم الحكمة؟ اكتب اليوم قراراً واحداً يحميك من ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ ولو كان صغيراً؛ فالصغير إذا تكرر صار باباً.

٤) ما ذنب الخلوة الذي أؤجل حربه: نظرة، أو رسالة، أو عادة سرّية تُضعف هيبتي مع الله؟ أغلق الباب الذي تدخل منه الفتنة وقل بصدق: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ ثم خذ بالأسباب، فالعفة ليست نية فقط بل سدّ منافذ.

٥) ما إصلاح النِّيَّة الذي أؤجل صدقه: عملٌ أبحث به عن ثناء، أو منشورٌ أطلب به حضوراً، أو خدمةٌ أريد بها مكانة؟ ضع كل عملٍ على ميزان ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ثم اسأل: هل لو لم يرني أحد سأستمر؟

٦) ما الاستقامة التي أؤجلها بحجة "إذا هدأت الظروف"؟ الجزء لا يعترف بهذا العذر؛ لأن الأمر نزل واضحاً: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾... الاستقامة تبدأ في الزحام لا بعده.

خطة التغيير: طريقٌ قصيرٌ لكنه صريح من هذا الجزء

- أعد ضبط علاقتك بالرزق قبل أي إصلاحٍ آخر: اقطع جذور القلق المزمن من قلبك بتثبيت معنى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾؛ خذ بالأسباب بجدّ، لكن انزع منها صفة "الضَّمان"، واجعل الضَّمان لله وحده، فهدوء القلب هو أول أبواب الاستقامة.
- غيّر معيارك من "كم أفعل" إلى "كيف أفعل": اجعل كل عملٍ يمرّ عبر سؤالٍ واحد: هل هو أحسن عملاً كما في ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾؟ فالإحسان يبدأ بإصلاح النِّيَّة ثم إتقان الأداء، لا بكثرة المشاريع ولا بضجيج الإنجاز.

- ثبّت نفسك في الرخاء والضيق بقاعدةٍ واحدة: عالج تقلب مزاجك بين اليأس والفخر بتذكّر خطر ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ و﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾؛ درّب قلبك أن يرى النعمة ابتلاءً بالشُّكر، والضيق ابتلاءً بالصبر، لا علامةَ قيمةٍ ذاتية.
- اقطع أي ركونٍ خفيّ إلى باطل: فتّش عن ميلٍ صغيرٍ في قلبك للظالمين أو للباطل بحجة الخوف أو المصلحة، ثم واجهه بوضوح ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ فالانحراف يبدأ بخطوةٍ لطيفة لا تُرى ثم يتسع.
- طهّر نيتك قبل أن تُكثِر عملك: ضع كل عملٍ أمام مرآة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ واسأل نفسك بصدق: لو لم يرني أحد، هل سأستمر؟ فإن ترددتَ، فأصلح الدافع قبل أن تُضاعف الجهد.
- قل "معاذ الله" قبل أن تقول "أنا قوي": إذا واجهتك شهوة أو فتنة، فلا تعتمد على إرادتك وحدها، بل استحضر فوراً معنى ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾، واهرب من موضع الفتنة عملياً، لأن النجاة تبدأ بالاستعانة ثم بإغلاق الأبواب.
- اصبر على تأخر النتائج ولا تستعجل التمكين: تعلم من قصة يوسف أن الجُبّ والسِّجن لم يكونا نهاية، بل إعداداً؛ فإذا تأخر الفرج فلا تُفسد قلبك بالعجلة، بل رسّخ يقينك بأن ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ ولو خفيت التفاصيل.
- التزم الاستقامة في أصعب اللحظات لا أسهلها: لا تنتظر صفاء الظروف لتلتزم، بل طبّق فوراً معنى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾؛ الاستقامة ليست مشروع راحة بل قرار ثبات، يبدأ اليوم لا "حين تتحسن الأحوال".
- أصلح سريرتك قبل أن تطلب تمكيناً ظاهراً: لا تبحث عن دورٍ أكبر أو مكانةٍ أوسع حتى تُنقّي ما بينك وبين الله؛ فالتمكين في هذا الجزء لم يأتِ إلَّا بعد تربيةٍ طويلةٍ في الخفاء، وصدقٍ في الموقف، وصبرٍ في الابتلاء.

- اختم يومك بتسليم الغيب لله: كل ما أقلقك أو أربكك أو لم تفهم حكمته، ضعه تحت قاعدة ﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ لا يعني أنك لا تعمل، بل يعني أنك تعمل مطمئناً، لأن النتائج ليست إليك، بل إلى من بيده الأمر كله.

هذه الخطة قصيرة لأنها صريحة:

←توحيدٌ يصحّح القلب،

←ونيةٌ تُنقّى،

←وشهوةٌ تُقاوَم،

←وركونٌ يُقطَع،

←واستقامةٌ تُثبَّت،

←وصبرٌ يُصان،

←وتسليمٌ يُتمّ المسير؛

ومن بدأ بها اليوم، ولو بخطوةٍ واحدة، فقد دخل طريق التغيير حقاً لا شعاراً.

خاتمة وجدانية مزلزلة

وهنا... بعد أن تقرأ هذا الجزء كلَّه... لا يبقى السؤال: ماذا قال الله؟ بل السؤال الأخطر: ماذا فعلتَ أنتَ بما قال الله؟ لأن الآيات لم تنزل لتُزيّن المصاحف، بل لتُزلزل القلوب، ولم تُقصّ قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ويوسف عليهم السَّلام لتكون تاريخاً محفوظاً، بل لتكون مرآةً تكشف موضعك أنت الآن: مع أي صفٍّ أنت؟ ومع أي خُلُقٍ أنت؟ ومع أي نيّةٍ تسير؟

- إذا بقي قلبك يرتجف على رزقٍ ضمنه الله وهو يقول ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾، فاعلم أن المشكلة ليست في قلة الموارد، بل في قلة اليقين..

- وإذا كنت تعدّ أعمالك وتفخر بها ولم تسأل نفسك يوماً: هل كانت "أحسن عملاً" كما في ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، فاعلم أن الكثرة قد تخدعك، وأن النجاة ليست في الكمّ بل في الصدق.
- وإذا كنت تنهار عند ضيقٍ يسير، أو تنتفخ عند نعمةٍ عابرة، فتذكّر أنك قد تعيش بين حالتي ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ و﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ دون أن تشعر، وأن الإيمان الحقّ هو أن تثبت في الحالين لأن قلبك متعلّق بربّ الحال لا بالحال نفسها.
- وإذا خِفتَ من ضغط الناس فخفّفتَ من الحقّ، أو مِلتَ ميلاً خفيّاً إلى باطلٍ يريحك، فاستمع بارتجافٍ إلى قوله ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فإن الركون ليس خطوةً في الطريق، بل بدايةُ انزلاقٍ طويلٍ قد لا تشعر به إلّا حين تستيقظ على خسارةٍ عظيمة.
- وإذا استبطأتَ الفرج، أو ضاق صدرك بطول الطريق، فتذكّر أن يوسف عليه السَّلام لم يرَ صورة التمكين وهو في الجُبّ، ولم يفهم سرّ السِّجن وهو خلف الجدران، لكن الحقيقة التي كانت تعمل بصمتٍ فوق كل مشهدٍ هي ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾؛ فليس كل تأخيرٍ حرماناً، وليس كل ضيقٍ عقوبة، بل قد يكون إعداداً لا يراه إلا من سلّم قلبه لله.

ثم اسأل نفسك بصدقٍ لا يحتمل المجاملة:

لو ختم الله قصتك اليوم، مع أي آيةٍ ستُحشر؟

← مع آية الصبر أم مع آية اليأس؟ مع آية الإخبات أم مع آية الافتراء؟
← مع من قالوا ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾ فنجوا، أم مع من قالوا ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ استهزاءً ففوجئوا بالوعد حقاً؟.

هذا الجزء لا يترك لك عذر الغفلة، لأنه يختم المعنى كله بقاعدةٍ تهزّ القلب هزّاً: ﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ كل ما يقلقك، كل ما يؤلمك، كل ما

لا تفهم حكمته... هو في علمه، وتحت قدرته، وداخل حكمته، فإما أن تسلّم فتطمئن، وإما أن تُجادل فتتعب.

فاختر اليوم أن تعيش عبداً لا متحكّماً، واثقاً لا مرتاباً، مستقيماً لا متلوّناً، وقل لقلبك بصدق: إن كان الغيب لله، وإن كان الأمر كله بيده، فليس لي إلّا أن أعبده وأمضي، فإن ضاق الطريق فصبري له، وإن طال الانتظار فثقتي به، وإن خفيت الحكمة فإيماني بها... لأن النهاية ليست بيدي، لكنها بيد من لا يضيع عنده شيء.

روح الرسالة التربوية والعقدية الموجَّهة لكل مسلم في هذا الجزء

← هذا الجزء يردّك إلى أصلٍ يضيع من كثيرٍ من القلوب وهم يظنون أنهم يُحسنون الظن بالله: أن الرِّزق ليس لعبةَ بشرٍ ولا ثمرةَ ذكاءٍ محضٍ ولا ضمانَ وظيفةٍ ولا قوةَ سوق، بل هو كفالةُ ربٍّ لا ينسى ولا يَغفل، فإذا سكنت هذه الحقيقة في قلبك هدأ سؤالك المُرهِق "مِن أين؟" وارتفع سؤالٌ أنفع "كيف أُرضي الله فيما أعطاني؟" لأن الذي تكفّل بالقوت هو الذي يراك في الأخذ والترك، وفي الحلال والحرام، وفي الصدق والغش، فتصير العبادة توكّلاً واعياً لا تواكلاً، وسعياً مستقيماً لا هلعاً مُرعِباً، وتقرأها بقلبٍ حاضر: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

← وهو يخلع من ذهنك فكرةً منتشرةً بين الناس: أن الحياة "مسرح إنجاز"؛ ويزرع بدلها عقيدة الابتلاء: أنك خُلقت لتُختبر لا لتُصفَّق لك، وأن معيار النجاة ليس كمّ الأعمال ولا ضجيجها، بل صفاؤها وإحسانها وخلوصها، فتنتقل من "كم فعلتُ؟" إلى "كيف فعلتُ؟ ولِمَن فعلتُ؟" وتسمعها كأنها تُقال لك الآن لا لقومٍ مضوا: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

← ويضع أمامك مرضاً قلّ من ينتبه له: الاستهزاء بتأخير العقوبة، أو استبطاء وعد الله، أو قراءة الإمهال على أنه رضا؛ فيوقظك أن تأخير الحساب ليس

غياباً، وأن الإمهال ليس إهمالاً، وأن السَّاخر قد يضحك اليوم لأن العذاب لم يأتِه بعد، لكنه حين يأتي لا يقدر أن يصرفه عن نفسه، فتتأدّب مع الله عند كل تأخير، ولا تُترجم الصمت الإلهي على أنه غفلة: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾.

← ويكشف لك تقلّب النفس حين تربط إيمانها بالمزاج والظرف: فإذا سُحبت نعمةٌ انهارت وقالت "انتهيت"، وإذا عادت النعمة انتفخت وقالت "ذهب كل شيء"، فيُعلّمك القرآن أن هذا اضطرابٌ لا يليق بقلبٍ عرف ربَّه، وأن العلاج ليس في تثبيت الظروف بل في تثبيت القلب؛ فتتربّى على الصبر الذي يمنع السقوط، والعمل الصالح الذي يمنع الفراغ، لتكون من الاستثناء لا من القاعدة: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ و﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ ثم يفتح لك باب النجاة واضحاً بلا تجميل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

← ويعلّم الداعية والمبلّغ وكلَّ مسلمٍ يحمل حقّاً أن ضغط الناس قد يدفعه إلى تنازلاتٍ صغيرة يظنها "حكمة"، لكنها في حقيقتها نقصٌ في الثبات؛ فيربّيك أن وظيفتك البلاغ والاستقامة، لا صناعة الإعجاب، وأن رضا الناس ليس معيار الحق، وأن الله وكيلك فلا تتكئ على تصفيقهم ولا ترتجف من سخطهم: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾.

← ويثبّت في قلبك أن هذا القرآن ليس رأياً ولا تجربةً بشريةً قابلةً للتشكيك، بل وحيٌ نازل بعلم الله، وأن التحدي القائم فيه ليس زينةً بل برهاناً، لتعرف أن التسليم ليس انكساراً للعقل بل انقيادٌ للحق بعد قيام الحجة: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

← ويصدمك بآفةٍ منتشرةٍ بين المتدينين: أن تعمل عملاً كثيراً، وتُوفّى ثماره في

الدنيا، وتظن أن هذا دليل قبولٍ عند الله، بينما قلبك في الحقيقة كان يطلب الدنيا وزينتها؛ فينزع عنك وهم "النجاح" إن لم يكن لله، ويُعلّمك أن الجزاء الدنيوي قد يكون استيفاءً لا اصطفاءً، وأن الخسارة الكبرى ليست نقص الرصيد بل حبوط العمل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾.

← ويزرع في قلبك هيبة القول على الله؛ لأن أخطر الجرائم ليست خطأً علمياً فحسب، بل جرأةُ قلبٍ يتكلم في دين الله بلا علم، أو يلوّن الحق ليوافق الهوى، فيُفسد نفسه ويُفسد غيره وهو يظن أنه يُصلح، فيذكّرك أن مقام الرب ليس ساحةَ تجارب ولا مسرحَ مزايدات: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.

← ثم يفتح لك باب التاريخ لتقرأه كآيةٍ جارية لا كقصةٍ قديمة: قومٌ أعمتهم الطبقية فاحتقروا أهل الإيمان وقالوا إن أتباع الحق "أراذل"، وقومٌ غفلوا عن سُنن الله فهلكوا، لتفهم أن معيار الحق ليس الطبقة ولا العدد ولا الوجاهة، وأن الإيمان يرفع صاحبه ولو كان ضعيفاً في أعين الناس: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾.

← وفي قلب هذا الجزء يطلّ عليك مشهدٌ من أوجع مشاهد الابتلاء: أبٌ نبيٌّ وابنٌ يظن أن الجبل سينجيه؛ لتفهم أن النجاة ليست في "الركن الشديد" الذي تتخيله، بل في رحمة الله وحدها، وأن أخطر ما يُهلك الإنسان أن يظن أن الأسباب تعصمه بذاتها: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.

← ثم تدخل سورة يوسف فتعلّمك فقه ستر النِّعم وحماية البدايات؛ ليس خوفاً من الناس، بل صيانةً للنفس من التعلّق بالمدح، وحمايةً للمشروع من أعين الحسد، وتربيةً على أن بعض الخير ينمو في الخفاء أصفى وأثبت: ﴿لَا

تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾.

← وتفضح لك مرضاً لا يراه كثيرون: الحسد داخل البيت؛ لا يحتاج الحسد إلى كفرٍ صريح، يكفي قلبٌ لا يرضى بقسمة الله، فيتحول الضيق إلى مكرٍ ثم إلى أذى، فتتعلم أن أول شرارةٍ في الغيرة إن لم تُطفأ بالرضا قد تُحرق أسرةً كاملة: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾.

← وتضع أمامك درس العفة الأعظم: أن الشَّهوة لا تُهزم بالشعارات ولا بالثقة بالنفس، بل بملجأٍ عقديٍّ صادق اسمه الاستعاذة والاحتماء بالله، وأن أول كلمةٍ تُقال في مواجهة الفتنة هي كلمة التوحيد العملية لا كلمة القوة النفسية: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾.

← وتُربّيك على أن الطريق إلى التمكين قد يمرّ عبر "جبّ" لا تفهمه، أو "سجن" لا تختاره، وأن الله قد يُربّي عبده في الخفاء طويلاً قبل أن يرفعه في العلن، فلا تقرأ المراحل المؤلمة على أنها نهاية، بل على أنها تهيئة؛ لأن الحقيقة التي تُصلح قلبك عند اضطراب المشهد هي: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.

ويختم هذا الجزء بتاجٍ عقديٍّ يضمّ كل المحاور: أن الغيب كله لله، وأن ما لا تراه عينك ليس خارج سلطان ربك، وأن الأحداث مهما تشابكت فمآلها إلى حكمه وتدبيره، فيستقر قلبك في مقام التسليم دون جمود، والسَّعي دون هلع، والعبادة دون اضطراب: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

الترابط بين الجزأين ١١ – ١٢

❖ الترابط الموضوعي بين الجزأين (١١–١٢)

● الجزء الحادي عشر يفتح باب "تعرية الداخل" قبل أي حديث عن النتائج؛ يُعلّمك أن القضية ليست صورةً تُقدَّم للناس ولا أعذاراً تُقال، بل حقيقةٌ

تُوزن بالعمل والصدق، لذلك يُسقط الأقنعة بمعيارٍ واحد: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، ثم يضعك أمام ميزان البناء: بناءٌ يُرفع اسمُه لكنه مؤسَّس على ريبة، وبناءٌ يقوم على تقوى، ليقول لك عملياً: لا تنخدع بالعنوان... اسأل: على ماذا أُسِّس؟ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

- ثم يُصعِّد الجزء الحادي عشر الرسالة إلى قمّة "صناعة المصير": لحظة البيع الصادق لله، لا نصف التزام ولا تديّن مزاجي؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، ثم يختم بتوجيهٍ يختصر الطريق كلّه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.
- ويأتي الجزء الثاني عشر كأنه "ترجمة حيّة" لما قُرِّر؛ فإذا كان الجزء الحادي عشر يُربّيك على ألّا تُقاس الأمور بظاهرها، فإن سورة يوسف تُريك هذا في الواقع: حسدٌ ثم جبّ ثم بيعٌ ثم فتنةٌ ثم سجنٌ ثم تمكين... لتفهم أن الطريق ليس خطاً مستقيماً في أعين الناس، لكنه مستقيمٌ في تدبير الله، وأن ما تراه فوضى قد يكون إعداداً، وما تظنه ضياعاً قد يكون تمهيداً، حتى تسمع القاعدة التي تحمل روح الجسر بين الجزأين: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

❖ الترابط العقدي بين الجزأين (١١-١٢)

- الجزء الحادي عشر يُثبّت أصلاً عقديّاً لا يستقيم القلب بدونه: أن معيار القبول عند الله ليس الدعوى ولا الحلف ولا كثرة الكلام، بل الصدق الذي تترجمه الأعمال، ولذلك يربط التوبة بالله لا بالمظاهر: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾، فينقلك من "أُريد أن أبدو صالحاً" إلى "أُريد أن أكون صادقاً عند الله".

- ثم يضعك على أساس التوحيد العملي: الاستقامة والصبر وترك التعلّق بالنتائج؛ لأنك عبدٌ مأمورٌ بالفعل لا متحكّمٌ في المآل، فتأتي الوصية الجامعة التي يتكئ عليها القلب حين تضطرب الأحداث: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ و﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ثم يختم هود بتاج اليقين الذي يُطفئ وسواس "التحكّم" في قلب المسلم: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ أي أن الغيب ليس فراغاً، بل تدبيرٌ، وأن تأخر النتائج ليس غياباً، بل حكمةٌ تُدار من ربٍّ لا يغفل.
- وتأتي سورة يوسف فتُنزّل هذا اليقين من "مفهوم" إلى "مشهد": قلبٌ يواجه الفتنة لا بشعارٍ نفسي بل باحتماءٍ توحيدي: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾، ثم يثبت أن النجاة ليست بقوة الإرادة وحدها، بل بتوفيق الله وإخلاص العبودية له: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، ثم يوقّع على الحقيقة نفسها التي خُتمت بها هود لكن بلغة القصة: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.

❖ الترابط البياني بين الجزأين (١١–١٢)

- البيان في الجزء الحادي عشر يأتي بصيغة "موازين" و"مفارقات": ألسنةٌ تعتذر وأيمانٌ تُقسم، لكن الميزان ليس القول بل الحقيقة التي تُرى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾؛ وبناءٌ يلمع اسمه لكنه مؤسَّس على ريبة، يقابله بناءٌ مؤسَّس على تقوى، فيتعلّم القارئ أن البلاغ القرآني يجرّده من سحر الشعارات إلى سؤال الأساس: ماذا تحت العنوان؟ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.
- ثم ينتقل البيان في ختام هود من تقريرٍ إلى أمرٍ مباشرٍ يطرق القلب طرقاً: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، ثم يختم بمشهد الغيب والمرجع: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، كأن النص يضعك على عتبة بابٍ لا ترى ما خلفه،

لكنه يطالبك أن تمشي مطمئنّاً لأن الذي خلف الباب ربٌّ حكيم.

- وتأتي سورة يوسف بأسلوبٍ بيانيٍّ مُغاير لكنّه يُكمل المعنى نفسه: بدل أن يُحدّثك عن الغيب كقضيةٍ ذهنية، يجعلك ترى الغيب وهو يصنع الأحداث قطعةً قطعة؛ سلسلةُ انتقالاتٍ تبدو للعين البشرية هبوطاً، لكنها في ميزان الله صعودٌ متدرّج، ثم يضع على هذا كله "ختماً بيانياً" جامعاً: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾؛ فتصير خاتمة هود تقريراً، وسورة يوسف برهاناً حيّاً على ذلك التقرير.

❖ الترابط الوجداني بين الجزأين (١١–١٢)

- الجزء الحادي عشر يهزّك وجدانياً بعريّ الصدق: لا يريدك متديناً يُتقن الاعتذار، بل قلباً يُتقن الرجوع؛ يوقظ فيك خوفاً نافعاً من خداع النفس، ثم يفتح لك باب الرجاء الصحيح: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾، فيجمع القلب بين انكسارٍ يمنع الغرور، ورجاءٍ يمنع القنوط.
- ثم يُحمّلك وجدان "العهد": أنك إن أردت النجاة فلا بد من صفقةٍ صادقة لا تردد فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، ثم يترك في قلبك كلمةً تُلازمك في كل مفترق: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، كأنها رفيق الطريق حين تضعف وتتلون.
- ويأتي الجزء الثاني عشر ليُربّي وجدانك على "الصبر الجميل" بلا تكلّف، وعلى الثبات في الفتنة بلا ادعاء، وعلى أن العبد قد يُدفع إلى ضيقٍ شديد لا لأنه متروك، بل لأنه يُصاغ؛ فتقرأ الجبّ والسجن لا كمقابر للأمل، بل كمحطاتٍ لتربية القلب، ثم تذوق الطمأنينة التي لا تمنحها الظروف بل يمنحها اليقين: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾، فتهدأ داخلك الحاجةُ إلى تفسير كل تأخير، وتتعلم أن أعظم ما تملكه في زمن الفتن ليس وضوح المشهد، بل وضوح الوجهة: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

الجزء الثالث عشر: رحلةُ التمكينِ والابتلاءِ وتزكيةِ الباطن حتى يثبتَ القلبُ على بصيرةٍ ووعدٍ لا يَخلف

من "لا أبرِّئُ نفسي" إلى "قل هذه سبيلي"

مدخل وجداني تأسيسي

يبدأ هذا الجزء من موضعٍ يقطع على النفس طريقَ التزيّن والتبرير؛ فقبل أن يُفتح لك بابُ التمكين تُفتح عليك أولاً حقيقةُ الداخل: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وكأنَّ القرآن يضع القاعدة التي لا تُترك حتى النهاية: أن الطريق إلى الله ليس طريقَ ادّعاء الصفاء، بل طريقُ الاعتراف بالفقر، وأن النجاة ليست في "ثقتي بنفسي" بل في رحمة ربي، وأن التوبة ليست مزاجاً عابراً بل ميزانٌ ثابتٌ يراقب القلب وهو يقترب من السلطة والراحة والظهور.

ثم ينقلك من الداخل إلى الخارج؛ من خلوة الضمير إلى مشهد الدولة، ومن قسوة السِّجن إلى هيبة المجلس؛ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾، فإذا يوسف عليه السَّلام ينتقل انتقالاً يَفتن كثيرين: من مظلومٍ مُبتلى إلى مُقرَّبٍ مُمكَّن، لكن القرآن لا يجعل التمكين سُكْراً ولا يتركه دعوى؛ بل يثبت معيار "الأمانة" قبل المنصب: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، ثم يعلّمك فقه المبادرة حين يكون المرء أهلاً لها: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، لا تزكيةً متعالية ولا غروراً بالذات، بل إقراراً بالكفاءة في موضع واجبٍ تحفظ به الأُمَّة من الهلاك، ثم يضع الخلاصة التي تحرس قلبك من الانخداع بلمعان النتائج: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ... نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فليس التمكين "صناعة الإنسان" وحده، بل فضلٌ من الله ورحمة، ومع ذلك فالسُّنّة لا تتبدّل: إحسانٌ لا يضيع، ثم يرفع

بصرك فوق كل مكاسب الدنيا مهما عظمت: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وبعد أن يستقر يوسف في موضع القدرة يبدأ الامتحان الأعمق: امتحان القلب حين يملك أن ينتقم، وحين يصبح خصوم الأمس تحت يده اليوم دون أن يعرفوه: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾؛ هنا لا يختبر القرآن "عدالة النظام" فقط، بل يختبر عدالة النفس، ويُريك أن الصبر الذي أوصلك لا يكتمل إلَّا بصبرٍ آخر: صبر على القدرة لا صبر على العجز. ثم يمضي المشهد في نظامٍ دقيقٍ لا يختلط فيه الإحسان بالسذاجة؛ فهو يُحسن الضيافة ويُوفي الكيل: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾، لكنه يضع شرطاً يُعيد ترتيب الأُسرة ويوقظ الضمير: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، ثم يعلن موقفاً صريحاً بلا تردد: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾؛ فالإحسان لا يعني تعطيل الحزم، والحزم لا يعني قسوة القلب.

ثم يريك القرآن كيف تُدار النوايا داخل الإحسان؛ يوسف يأمر فتيانه بإرجاع بضاعتهم سراً: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فالإحسان هنا ليس استعراضاً بل خطةُ رحمةٍ تُعيدهم دون إهانةٍ ولا مِنّة.. ويعودون إلى يعقوب عليه السَّلام بلسان الحاجة، فتظهر ذاكرة الأب المكسور الذي لم ينسَ: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾، ثم يُعلّمك اليقين الواقعي الذي لا يلغي الحذر ولا يُسقط الأسباب: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ ليس معنى التوكل أن تُسلم الأمانة لمن خان، ولا معنى الحذر أن تُغلق باب الرجاء.

وحين يجدون بضاعتهم قد رُدّت إليهم يتكلمون بمنطق المكسب، لكن يعقوب عليه السَّلام يرفع القضية إلى مقام الميثاق، فلا يرسل إلا بعهدٍ يُستخرج من القلب قبل اليد: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ﴾، ثم يختمه

بإسنادٍ صحيح لا إلى البشر: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، وبعدها يأتي درس "الأسباب" الذي يخلط الناس فيه كثيراً بين التوكل والتهور؛ ﴿لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، ثم يقطع وهم الاعتماد على السبب: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ فتتعلم أن الأخذ بالأسباب طاعة، وأن تعليق القلب بالسبب فتنة، وأن الحكم لله وحده، فهو الذي يُجري المقادير لا الأبواب.

ويمضي القدر كما أراد الله تعالى لا كما أراد البشر، ويُصرّح القرآن بعبارةٍ جامعة تقتل الغرور في قلب المتحرك بالأسباب: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، ثم يكشف لك جانباً تربوياً دقيقاً: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾؛ أي أن السبب قد يكون راحةً نفسيةً مأذوناً بها ما دام القلب موحّداً لا يتأله السبب، ثم يرفع قيمة العلم الموهوب لا المتوهم: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم يبلغ المشهد موضعه الأكثر رقةً وقوة؛ لقاء الأخوين بعد سنوات القهر: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، كلمة "آوى" وحدها تعيد تعريف الحنان حين يكون العالم قاسياً، ثم يسكّنه بالهُوية قبل أي تفسير: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ فالقرآن يُعلّمك أن بعض الجراح لا تُعالج بالمحاسبة أولاً بل بالأمان.

ثم يأتي تدبير أخذ الأخ، لا على قانون الملك بل على مشيئة الله التي تفتح ما لا تفتحه الحسابات؛ ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ويُعلن المؤذن: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فتشتعل الاتهامات ويقف الإخوة يدفعون التهمة عن أنفسهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾، ثم يُحتكم إلى جزاءٍ من شريعتهم هم: ﴿جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾، وهنا يجيء البيان العميق الذي يُطهّر القلب من سوء الظّن بقدَر الله وتدبيره:

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، فلا تُنسب الهداية إلى ذكاء يوسف وحده، ولا تُنسب المآلات إلى المصادفة؛ إنما هو تدبير الله الذي يسوق الأمور إلى مقاصدها، ثم يصرّح بحدٍّ فقهيٍّ قدريٍّ يقطع الاعتراض: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاء اللّهُ﴾، ثم يُعلّمك أدب العلم: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ فلا يتكبر عالمٌ بعلمه ولا صاحب تجربة بتجربته.

وعندما تُفتضح القسوة القديمة يعود لسانهم إلى طعنٍ ظالم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾، لكن يوسف يمارس أرقى صور القوة: قوة كظم الحق مع القدرة على الفضح: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، ثم يقول كلمة وزنها ميزان عدلٍ وميزان توحيد: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ﴾؛ لا يُبرّئ نفسه ولا يسلّم لهم حكمهم، بل يردّ العلم إلى الله.

ثم يحاولون استدرار العاطفة: ﴿إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾، لكن يوسف يضع قاعدة العدل التي تمنع الظلم ولو لغايةٍ تبدو نبيلة: ﴿مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَّظَالِمُونَ﴾؛ فالدين لا يسمح أن تُصلح خطأً بخطأٍ أكبر، ولا أن تُرضي ألماً بظلم.

ثم يعودون نجيّاً، ويظهر "الكبير" وفيه بقايا ضمير، فيقول ما يفضح التاريخ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾، ثم موقفُ توبةٍ متأخرةٍ لكنها صادقة: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.. ويعودون إلى أبيهم بخبرٍ ظاهره حقيقة وباطنه فتنة، ثم يحتكمون إلى القرائن: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾، لكن يعقوب عليه السَّلام لا يُخدع بسهولة التجميعات؛ إنه يعرف من نفسه ومنهم ما لا يعرفون، فيقول كلمة القاضي الخبير بالقلوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾، ثم يرفع راية مدرسة الأنبياء:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ثم يفتح نافذة الرجاء على علمٍ بالله لا على وهمٍ بالنهاية: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

ويُريك القرآن أن الحُزن لا يناقض الإيمان إذا كان القلب مع الله تعالى لا عليه؛ يعقوب عليه السَّلام يتولى ويبكي حتى يبيضّ بصره: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ثم لما يلومه أبناؤه بجهل القلوب يقول الجملة التي تُصلح فهم كثيرين لمعنى الشكوى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ فالشكوى إلى الله عبادة، وليست اعتراضاً على حكمه، ثم يُعلن أصل الرجاء الذي لا يليق أن يُغلق ما دام الرب هو الرب: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

ثم يعودون مرةً أخرى تحت وطأة الضُّرّ وبضاعةٍ مزجاة، يطلبون الكيل والصدقة: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ... فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، وهنا تُفتح بوابة الحقيقة التي طال احتجابها: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾، ثم تقع الصاعقة الهادئة: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾، ويأتي الجواب الذي يردّ الفضل إلى الله لا إلى التجربة: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، ثم يضع القانون الذي يشرح "لماذا نجا يوسف": ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فيعترفون: ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، فيغلق باب التشفي إلى الأبد بكلمةٍ تُعلّم الدعاة والقادة معنى الصَّفح حين يقدرون: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ثم يشرع في إعادة البناء لا في استعراض النصر؛ يرسل قميصه بشارةً لا عقوبة: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾، ويأتي مشهد "ريح يوسف" الذي يكشف أن القلب إذا صدق مع الله شمَّ الفرج قبل وصوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، ثم يعود البصر: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾، وتتحول الأسرة من تاريخ الذنب إلى أفق الاستغفار: ﴿اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، ويجيب

يعقوب عليه السَّلام بباب رجاءٍ مفتوح: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ثم يدخلون مصر آمنين بإذن الله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، ويكتمل تأويل الرؤيا ويُعاد تفسير التاريخ كله بميزان العبودية: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾، ثم أدب الأنبياء في نسبة السلامة إلى توفيق الله مع الاعتراف بوجود وسوسة الشيطان بين الإخوة: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، ثم يضع يوسف خاتمة حياته في دعاءٍ يعلّم من فُتن بالمنصب معنى النهاية: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ... تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ فغاية القصة ليست أن تصل، بل أن تُختم لك بالإسلام والصُّحبة الصالحة.

ثم يأتي التعقيب القرآني الذي يضبط ميزان "مصدر المعرفة": ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، ويضع ألم الداعية في طريقه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، ويصف إخلاص الرسالة من شُبهة الأجر الدنيوي: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، ثم يواجه الغفلة الكبرى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ... يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، ويكشف نوعاً دقيقاً من الانحراف: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، ثم يفتح باب الخوف من الغاشية والساعة بغتة: ﴿أَفَأَمِنُوا...﴾، ثم يعلن هوية الطريق الذي يلخّص هذا الجزء كله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، ويقطع نسبته عن الشرك كلّه: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ثم يربط الدعوة بسُنّة الرسل قبله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾، ويجعل السَّير في الأرض مفتاح الاعتبار: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، ثم يثبت قمة المعنى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، حتى إذا بلغت القلوب منتهاها من ضيق الانتظار جاء قانون النصر الذي لا يتغير: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ... جَاءهُمْ نَصْرُنَا﴾، ثم يضع حدَّ البطش الإلهي: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، ويختم سورة يوسف بخاتمة "البرهان" لا "الحكاية": ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾، ثم يعلن طبيعة هذا

الوحي: ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى﴾، ثم يثبت أنه تصديقٌ وتفصيل وهدى ورحمة: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم يدخل بك إلى سورة الرعد وكأنها "ترجمة كونية" لما رأيت في قصة يوسف؛ فمَن دبّر يوسف في السجن والملك هو الذي رفع السماوات وسخر الشمس والقمر: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا... يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، ثم يريك الأرض في اتساعها وتنوّعها ووحدانية مدبّرها: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾... ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾... ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، ثم يضع المفارقة: نفس الماء يسقي ونفس الأرض تستقبل لكن النتائج تختلف، ليُعلّمك أن القلوب كذلك: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾.

ثم يواجه إنكار البعث: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ويذكر الأغلال والنار، ثم يريك سعة مغفرة الله مع ظلم الناس مع شدة عقابه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ثم يقرر أن دور النبي البلاغ والإنذار، وأن الهداية بيد الله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، ويثبت علم الله الدقيق: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾، ثم يعلن أسماء الجلال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾، ويستوي عنده السِّرُّ والجهر: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾.

ثم يضع قانون الإصلاح الذي لا يقبل التعلّل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، ويثبت أن إرادة الله إذا جاءت بسوءٍ فلا مرد لها، ثم يريك البرق خوفاً وطمعاً والسحاب الثقال، ثم يرفع الستار عن تسبيح الرعد والملائكة: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾، ثم يقطع جدل المجادلين: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾، ثم يثبت توحيد الدعاء: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾، ويكشف خواء دعاء من دون الله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، ثم

يعلن سجود الكون كله لله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾، ثم يواجه سؤال الولاية: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾... ﴿أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾، ثم يضرب المثل العظيم في الحق والباطل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ فلا تنخدع بضجيج الباطل، فإن له زبداً عالياً لكنه لا يبقى.

ثم يأخذك إلى صفات أهل الاستجابة لا بوصفٍ نظريٍّ مفصول، بل كأنها "ملامح الطريق" الذي سار عليه يوسف ويعقوب عليهما السَّلام ومن قبلهم الرسل؛ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾، ثم يفارقهم من لم يستجب، ثم يقرر أن التذكّر لأولي الألباب، ويصفهم بأنهم ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾، وبأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم، وبأنهم يصبرون ابتغاء وجه ربهم ويقيمون الصلاة وينفقون سراً وعلانية ويدفعون بالحسنة السيئة: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، ثم يفتح لهم أبواب الجنة وتحيّة الملائكة: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾، وفي المقابل يصف من ينقضون عهد الله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، ثم يضع ميزان الرزق والدنيا: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ﴾... ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾، ثم يعيدك إلى باب الإنابة والهداية: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، ثم يعطيك الآية التي تُصلح قلب الداعي والمبتلى معاً: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، ثم يبشرك: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾، ويثبت توحيد التوكل: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

ثم يشتد الخطاب في وجه طلبات "الخوارق" التي تتخذ ذريعة لترك الحق، حتى لو كان القرآن لو شاء الله لسيّر به الجبال أو قطّعت به الأرض أو كلّم به الموتى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾، ثم يردّ الأمر كله إلى الله: ﴿بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾، ويذكر القوارع التي تصيب الكافرين حتى يأتي وعد الله الذي لا

يخلف: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، ثم يُسلّي النبي ﷺ بسُنَّة الاستهزاء بالرُّسل قبله، ثم يثبت قيوميته على النفوس: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، ويكشف تزيين المكر وصد الناس عن السَّبيل، ثم يذكر عذاب الدنيا والآخرة، ثم يضرب مثل الجنة وعقبى المتقين، ثم يقرر موقف العبادة والتوحيد: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾، ويحذر من اتباع الأهواء بعد العلم، ثم يثبت أن الرسل بشر لهم أزواج وذرية، وأن الآيات بإذن الله، وأن لكل أجل كتاباً، ثم يقرر قضية عظيمة من قضايا القضاء والقدر والكتابة دون التباسٍ ولا غُلو: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، ثم يثبت أن البلاغ على الرسول والحساب على الله، وأن حكمه لا معقب له، ثم يقرر أن مكر السابقين مردُّه إلى الله تعالى الذي يعلم ما تكسب كل نفس، ثم يختم السورة بتثبيت الرسالة في وجه التكذيب: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

ثم تدخل سورة إبراهيم فتجدها كأنها "بيان وظيفة الرسالة" بعد عرض نماذجها وسننها؛ ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، فالدعوة ليست تحسيناً اجتماعياً عابراً ولا زخرفة ألفاظ، بل إخراج من الظلمات إلى النور بإذن الله، ثم يذكر مآل من يستحبون الدنيا ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، ثم يضع سنة البيان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، ثم يربط موسى عليه السَّلام بالآيات ومهمة الإخراج إلى النور وذكر أيام الله، ويعرض بلاء فرعون ونجاة الله، ثم يفتح قاعدة الشُّكر والزيادة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، ويثبت غنى الله وحمده، ثم يذكّر بنبأ الأُمم من نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، ويعرض جدل المكذبين وشكِّهم، ويأتي الجواب الفاصل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم يثبت بشرية الرُّسل مع منّة الله بالنبوة، وأن السلطان بإذن الله، ثم يقرر قاعدة

الصبر على الأذى والتوكل: ﴿وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، ثم وعيد الكافرين للرسل بالإخراج أو العودة إلى ملتهم، فتأتي بشارة الوحي: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾... ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ﴾، ثم يرسم مشهد الجبابرة والعناد وخيبة الاستفتاح، ثم يصف جهنم والصديد والموت الذي يأتي من كل مكان وما هو بميت، ثم يضرب مثل أعمال الكافرين بالرماد في يوم عاصف، ثم يقرر قدرة الله على إذهاب الناس والإتيان بخلق جديد، ثم مشهد البروز جميعاً لله وحوار الضعفاء مع المستكبرين: ﴿سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، ثم خطاب الشيطان الذي يفضح حقيقة التبعة: ﴿إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، ثم يدخل أهل الإيمان جنات تجري من تحتها الأنهار وتحيّتهم سلام، ثم يأتي مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، ويجيء تثبيت الله للذين آمنوا بالقول الثابت، ثم يذكر بدل نعمة الله كفراً وإحلال القوم دار البوار، ثم يأمر عباده بإقامة الصلاة والإنفاق قبل يومٍ لا بيع فيه ولا خلال، ثم يعرض نعم الخلق والتسخير، ثم يقرع قلب الإنسان: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

ثم يقف إبراهيم عليه السَّلام في مقام الدعاء الذي لا يُنشئ عقيدةً موهمة ولا يرفع إنساناً فوق منزلته، بل يضع الخوف من الشرك في قمة الدعاء: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، ويقرُّ بأن الأصنام أضللن كثيراً، ثم يفتح باب المغفرة لمن عصى دون أن يبرّر المعصية: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثم يذكر إسكان الذرية عند البيت المحرم لإقامة الصلاة، ودعاء الأفئدة والرزق للشُّكر، ويثبت علم الله بما نخفي وما نعلن، ثم يحمد الله على وهب إسماعيل وإسحاق ويقرر اسمه المناسب: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، ثم دعاء إقامة الصلاة وقبول الدعاء، ثم الاستغفار للوالدين والمؤمنين يوم يقوم الحساب.

ثم يختم الجزء بمشهد عدلٍ شديدٍ لا يترك موضعاً للغفلة: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، بل تأخير إلى يوم تشخص فيه الأبصار، ثم

وصف الهلع والقلوب هواء، ثم نداء النَّدم وطلب التأخير بلا جدوى، ثم ذكر مساكن الظالمين السابقين وضرب الأمثال، ثم تقرير أن مكرهم عند الله وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، ثم تثبيت الوعد: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾، ثم مشهد تبديل الأرض غير الأرض والسماوات وبروز الخلق لله الواحد القهار، ثم تقرين المجرمين في الأصفاد وسرابيل القطران وتغشي الوجوه النار، ثم الخاتمة التي تعيد كل ما سبق إلى الغاية: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ثم إعلان الرسالة للعالمين: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

وهكذا ينتهي الجزء كما بدأ:

←بدأ بتجريد النفس من ادّعاء العصمة: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾،

←وانتهى بتجريد العالم من تعدد الأرباب: ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾؛

وبين البدء والختام رحلةٌ واحدة تُربّي المؤمن على:

١) أن التمكين فتنة،

٢) وأن الصبر ليس مرحلةً واحدة،

٣) وأن التوكل لا يلغي الأسباب ولا يقدّسها،

٤) وأن الدعوة لا تكون إلَّا على بصيرة،

٥) وأن الحق يمكث وإن علا زبد الباطل،

٦) وأن الظلم مؤجلٌ لا مُهمل،

٧) وأن وعد الله لرسله حق،

٨) وأن النهاية التي تُطلب ليست نهاية القصة بل نهاية العبد: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

الخريطة البنيوية لآيات الجزء الثالث عشر

- تزكية البداية قبل أي نهاية: لا ثقةَ بالنفس بلا رحمة الله ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.. المعنى: أوّل الطريق أن تعرف عدوّك الأقرب: نفسك إذا تُركت بلا رحمةٍ ولا تربية.. والنجاة ليست في تلميع الداخل بل في رجوعٍ صادق إلى ربٍّ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يفتح باب الإصلاح كلما أُغلق.
- التمكين امتحانُ الأمانة لا نشوةُ المكانة ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.. المعنى: ليس كل صعودٍ رفعةً عند الله؛ الرفعة أن يُختبر قلبك في السلطة فيثبت على العدل. وحين تتقدم لأمرٍ عام فبميزان الكفاءة والأمانة لا بميزان الشهرة والهوى.
- سرّ النتائج: الرحمةُ هي التي تُجري التمكين، والإحسانُ هو الذي يحفظ الأجر ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.. المعنى: لا تظن أن النجاح يثبت لك الاستحقاق المطلق؛ هو رحمةٌ من الله يسوق بها الخير حيث يشاء.. ثم يبقى الميزان الأعلى: الآخرة؛ فهي التي تُنقّي نيتك من عبادة النتائج.
- عودة الخصوم تحت اليد: هنا يظهر معدِن القلب ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ... فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.. المعنى: قد تصبر وأنت ضعيف، لكن الامتحان الأشد أن تصبر وأنت قادر.. في لحظة القدرة تُولد العبودية الحقيقية: أأنت عبدٌ للحق أم عبدٌ للثأر؟.
- الإحسان لا يُلغي الحزم، والحزم لا يُسقط الرَّحمة ﴿أُوفِي الْكَيْلَ﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾.. المعنى: المؤمن يُحسن بلا سذاجة، ويَحزم بلا قسوة... يفتح الباب بكرمٍ منضبط، ويضع الحدود حتى لا تتحول الرحمة إلى تمكينٍ للظلم.

- إحسانٌ بلا منّة: ردّ البضاعة ليعودوا بوجهٍ مرفوع ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.. المعنى: من رقّة القلب أن تُعين الناس على الرجوع دون أن تجرح كرامتهم. بعض الصدقات الأجمل هي التي لا يشعر بها صاحبها أن أحداً "تفضّل" عليه.
- التوكل الواقعي: قلبٌ مع الله... وأخذٌ بالأسباب دون تعلّقٍ بها ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾ ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ﴿لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.. المعنى: اجمع بين "الحذر" و"التفويض" بلا تناقض؛ فالشرع يأمرك أن تتحرك، والإيمان يأمرك ألّا تتعلّق بحركتك.. السبب يُؤخذ... لكن القلب لا يُسلَّم إلا لله تعالى.
- قانونٌ كاسرٌ للغرور: الأسباب لا تمنع قدر الله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.. المعنى: قد تفعل كل ما تستطيع ثم يقع ما تكره؛ ليس لأنك فاشل، بل لأن الحكم لله، هذه الآية تُنهي الخصام مع أقدار الله تعالى وتُعيد القلب إلى السَّكينة.
- دفء الأُخُوّة بعد طول القسوة: تضميدُ الجرح قبل محاكمته ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾... المعنى: بعض القلوب لا تحتاج خطبةً طويلة؛ تحتاج مأوى، إذا عاد الأمان عاد العقل، وإذا عاد الحنان بدأ الشفاء.
- تدبير الله فوق قوانين البشر: الطريق يُفتح بمشيئة الله ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ... إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.. المعنى: قد تُغلق القوانين باباً، ويفتح الله تعالى باباً من حيث لا تحتسب دون ظلمٍ ولا عبث، وتتعلم أن علمك مهما بلغ يبقى فوقه علم الله المحيط.
- قوة الكظم: حين تقدر على الفضح فتختار ستر النفس والعدل ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾.. المعنى: ليس كل حقٍ تُظهره يكون خيراً؛

أحياناً يكون كظمك عبادةً أعلى لأن مقصدك الإصلاح لا الانتصار. وبقاء صلة الرحم والمودة في القرابة، القلب الكبير لا يعيش على فضائح الآخرين.

- لا عدلَ بلا مبدأ: لا نأخذ بريئاً بدل مذنب ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾... المعنى: الشفقة لا تبرر الظلم، ولا تُصلح مصيبةً بمصيبة، إذا ضاع العدل ضاع الدِّين من حيث يظن صاحبه أنه يُحسن.
- درس الأب المبتلى: سوء الظَّنِّ بالناس لا يُسقط حسن الظَّنِّ بالله ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.. المعنى: يعقوب لا يبتلع الحكاية، لكنه لا يبتلع اليأس أيضاً، يجمع بين فقه الواقع وعبودية الرجاء؛ فيبقى القلب نقياً وإن انكسر.
- البكاء ليس اعتراضاً إذا كان إلى الله: الشكوى عبادةٌ لا خصومة ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾.. المعنى: ليس مطلوباً أن تكون حجراً؛ المطلوب أن يكون حُزنك في الاتجاه الصحيح، إذا توجه الألم إلى الله صار قرباً، وإذا توجه إلى الاعتراض صار ظلمة.
- لا تيأسوا من روح الله: الرجاء فريضةٌ على القلب ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ المعنى: اليأس ليس "تعباً" فقط؛ هو خللٌ في باب الرجاء، ما دام الله هو الله جلَّ جلاله فبابه مفتوح، وما دام الرب رحيماً ففرجه أقرب مما تتصور.
- لحظة الاعتراف ثم لحظة الصفح: حين ينتصر الإيمان لا ينتصر التشفي ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.. المعنى: يوسف عليه السَّلام ينسب الفضل لله تعالى لا لتاريخه ولا لذكائه، ثم يغلق باب الإذلال رغم قدرته، الصفح هنا ليس ضعفاً؛ هو ثمرة تقوى وصبر طويلين.

- خاتمة القلب السليم: نهاية الصالح ليست منصباً بل حسن الخاتمة ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.. المعنى: بعد الملك كله يسأل النهاية التي تُرضي الله.. هذا هو ميزان العبد: أن يطلب سلامة الخاتمة أكثر من سلامة الصورة.
- تعقيب الرسالة: ليست قصة للتسلية بل هدى ورحمة وبصيرة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.. المعنى: الطريق ليس عاطفةً عمياء بل بصيرةٌ تهدي العقل والقلب معاً.. والقرآن لا يقصّ لتُعجب، بل ليُصلحك حتى إذا ضاقت الأسباب جاء نصر الله في وقته.

سورة الرعد: "ترجمة كونية" لمعاني القصة إلى يقينٍ وعملٍ وتوحيد

- الحق ثابت ولو كثر المعرضون ﴿وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.. المعنى: الحق لا يحتاج كثرةً ليكون حقاً، ثباتك على الوحي ليس متعلقاً بالتصفيق بل باليقين.
- عظمة التدبير: الكون كله يُربّي على لقاء الله ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.. المعنى: ليس الكون ديكوراً؛ هو درسٌ يومي في الإيمان.. من رأى التدبير في السماء والأرض سهل عليه أن يثق بتدبير الله في حياته.
- اختلاف الثمر من ماء واحد: القلوب كذلك ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا...﴾.. المعنى: نفس القرآن يسمعه اثنان؛ فيحيي قلباً ويزيد قلباً قسوة، الفرق ليس في "الماء" بل في "الأرض" التي تستقبله.
- لا تساوم على الآخرة: منكر البعث يبيع نفسه بوهم التراب ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً...﴾.. المعنى: من أطفأ يقين الآخرة انطفأ ضميره في الدنيا، والإيمان بالبعث ليس فكرةً عقلية فقط؛ هو وقود الاستقامة.

- رحمةٌ مع ظلم الناس... وعقابٌ شديد لمن أصرّ ﴿ذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.. المعنى: لا تغتر بسعة الحلم فتمضي في الخطأ، ولا تقنط من سعة المغفرة فتترك الرجوع، بين الخوف والرجاء تستقيم القلوب.
- دقيقة علم الله: لا شيء يضيع ولا شيء يختفي ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.. المعنى: ما تُخفيه في صدرك معلوم، وما تُعانيه محفوظ، وما تُصلحه مكتوب، هذه المعرفة تُطهّر النِّيَّة وتُسكن القلق.
- مفتاح التحول: التغيير يبدأ من الداخل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.. المعنى: لا تنتظر أن تتبدل الحياة وأنت كما أنت، أول الفرج أن تنقلب في داخلك: صدقاً، وتوبةً، وإصلاحاً.
- تسبيح الرعد والملائكة: الكون خاشع وأنت الغافل؟ ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ المعنى: حتى الأصوات التي تظنُّها مرعبة عندها عبودية، فإذا كانت المخلوقات تُسبّح فكيف يليق بقلبك أن ينام بعيداً؟.
- وحدة الدعاء: دعوة الحق لله وحده ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾.. المعنى: لا تفرّق قلبك في أبوابٍ كثيرة؛ اجمعه على الله، من جمع قلبه على ربه استقام لسانه في الدعاء والعمل.
- مثل الحق والباطل: الزبد صاخب لكنه لا يبقى ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ﴾.. المعنى: لا تنخدع بضجيج الفتنة؛ كثيرٌ منه رغوة، وما كان لله تعالى يبقى ولو بدا قليلاً.
- ملامح أهل الاستجابة: صبرٌ ووصلةٌ وإنفاقٌ ودفعٌ بالحسنة ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾.. المعنى: هؤلاء لم يصنعهم الكلام بل الصبر الطويل والعمل الخفي.. كل سلامٍ في الآخرة ثمنه صبرٌ في الدنيا.

- سكينة القلب: الذكر ليس ترفاً بل علاج ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ المعنى: بعض القلق سببه أن القلب بعيد عن غذائه، إذا عاد الذكر عاد الاتزان، ولو بقيت الظروف كما هي.
- الكتاب والقدر: محوٌ وإثباتٌ وفق علم الله المحيط ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.. المعنى: ادعُ وتُب واشتغل بالإصلاح؛ فالله يفتح أبواباً لم تكن في حسابك، ومع ذلك فكل شيء جارٍ على علمه وحكمته لا على فوضى.
- خاتمة الرعد: شهادة الله على الرسالة ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾.. المعنى: إذا كذّبك الناس فلا تنكسر؛ يكفيك أن الله يعلم صدقك، شهادة الله هي التي تُقيم قلب الداعية إذا اهتزّ العالم.

سورة إبراهيم: "وظيفة الوحي" ومشهد المصير والتمييز بين الكلمة الطيبة والخبيثة

- مهمة الرسالة: إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.. المعنى: القرآن ليس لتحسين المزاج بل لتغيير المصير، والهداية فضلٌ من الله، لذلك لا تغتر بالدعوة ولا تيأس من ضعفك.
- سنة الابتلاء: الرسل يُؤذَون... لكن العاقبة للمتقين ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.. المعنى: الطريق ليس مفروشاً بالقبول، لكنه مفروشٌ بالمعية، من صبر لله لم يضِع، وإن تأخر النَّصر.
- مآل الاستكبار: خيبة الجبار وصديد جهنم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ﴾.. المعنى: الاستعلاء في الدنيا له ثمنٌ فادح في الآخرة، لا تغتر بقوةٍ تظنها أبدية؛ فالمصير يكشف الحقيقة.

- خطبة إبليس يوم الحساب: لا سلطان إلا الدعوة والاستجابة ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.. المعنى: أعظم تحرير للنفس أن تتحمل مسؤولية اختيارها، الشيطان يوسوس، لكن القلب هو الذي يفتح الباب أو يغلقه.
- مثل الكلمة: طيبةٌ ثابتةٌ وخبيثةٌ منزوعة ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً... أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ... مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.. المعنى: الإيمان جذورٌ لا زينة، ما لم يثبت في القلب لا يثبت في المواقف، وما ثبت لله أثمر في كل حين.
- دعاء إبراهيم: خوفٌ من الشرك وإقامةٌ للصلاة وشكرٌ للنعم ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾.. المعنى: أعظم دعاءٍ يحفظ الأسرة ليس الرزق فقط بل التوحيد والصلاة، إذا صلح الأصل سهل على الله تعالى أن يصلح الفروع.
- العدل المؤجل لا المهمل: لا تحسبن الله غافلاً ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.. المعنى: قد يتأخر القصاص ليكتمل الميزان، لا لأن الحق ضاع، الصبر هنا ليس ضعفاً بل ثقةٌ في يومٍ لا يخطئ.
- الخاتمة الجامعة: إلهٌ واحد وبلاغٌ للناس وتذكيرٌ لأولي الألباب ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.. المعنى: نهاية الجزء ليست معلومةً جديدة بل يقينٌ أعمق: رب واحد تُرجى رحمته وتُخشى عدالته، فإذا استقر هذا اليقين استقام كل شيء بعده.

أيها الأحبة... هذا الجزء ليس "قصة يوسف" ثم "سورة الرعد" ثم "سورة إبراهيم" على طريقة التجزئة... بل هو رحلة واحدة تُعلّم القلب:

١. كيف ينجو من نفسه أولاً،
٢. ثم كيف يطمئن إلى ربّه ثانياً،
٣. ثم كيف يثبت على كلمة الحق ثالثاً؛

يبدأ بكسر غرور الداخل ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾، وينتهي بإغلاق المعنى على توحيدٍ صافٍ وعقلٍ متذكّر، كأنَّ القرآن يقول لك: لن تنجو من فتن الحياة حتى تُصلح الداخل، وتفهم سُنن الله، وتثبت على الكلمة.

ومن هنا افهموا الخيط الجامع...

← سورة يوسف تُعلّمك "كيف تُدار النفس عند القدرة"،

← وسورة الرعد تُعلّمك "كيف يدار القلب عند القلق"،

← وسورة إبراهيم تُعلّمك "كيف تُدار الكلمة عند الفتنة"...

ثلاث ساحات، لكن المربّي واحد، والهدف واحد: قلبٌ يعبد الله على بصيرة.

التمكين اختبار القلوب... لا تتويج الأسماء

ليس هذا الجزء قصةً تُروى ولا مشاهدَ تُستعاد لمجرد التأثر العابر، بل هو بناءٌ متدرّج لإنسانٍ يُعاد تشكيله من الداخل قبل أن يتغيّر موقعه في الحياة أو تتبدّل ظروفه أو تتّسع مساحته في الأرض،

١. هو رحلةٌ تنتقل بك من تزكية النفس قبل مواجهة الناس،
٢. ومن تهذيب القلب قبل اختبار القدرة،
٣. ومن إصلاح السَّريرة قبل حمل المسؤولية،
٤. ومن فهم سُنن الله في بيتٍ صغيرٍ تمزّقه الغيرة وتجمعه الرحمة... إلى فهم سننه في الكون كلّه حيث لا يجري شيءٌ عبثاً ولا يتحرّك قدرٌ بلا حكمة،

حتى يستقرّ المعنى في أعماقك على حقيقةٍ واحدة لا يثبت البناء إلا بها:

- أن التغيير الحقيقي يبدأ من الداخل لا من الضجيج الخارجي،
- وأن التمكين ليس مكافأةً تُعطى بل امتحانٌ يُكشف به المعدن،

- وأن الثبات لا تصنعه الظروف المريحة ولا المواقع المرتفعة، بل يصنعه إيمانٌ راسخٌ يعرف ربَّه في السجن كما يعرفه في القصر،

والمحاور القادمة ليست تفسيراً لأحداثٍ مضت، بل مرايا صادقة نضعها أمام قلوبنا لننظر بصدقٍ دون تجميل:

← أين نحن من هذا الطريق،

← وأيُّ موضعٍ في داخلنا لا يزال يحتاج إلى تغيير؟.

- المحور الأول: معركة النفس قبل معركة الناس: هذا المحور يفتتحه القرآن باعترافٍ يُسقط كل أقنعة التزكية الكاذبة: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾... لأن أول الهزائم أن يظن الإنسان أنه "طيبٌ بطبعه" وأن الشر في الخارج فقط؛ والقرآن يضع يدك على الحقيقة: إن تُركت النفس بلا رحمة الله ولا تربيةٍ صادقة قادت صاحبها باسم التدين إلى أخطر أبواب الكِبر والظلم، ثم يريك يوسف عليه السَّلام وهو ينتقل من السجن إلى التمكين دون أن ينتقل معه العُجب؛ فالمنصب لا يصنع القداسة، بل يفضح المعادن، ولذلك تأتي مفردات الأمانة والكفاءة لا مفردات الوجاهة: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ثم ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾... هنا تتعلمون أن "التمكين" ليس جائزة، بل اختبار... وأن العبد قد يُرفَع ليُمحَّص، وقد يُمكَّن ليُبتلى هل يثبت على العدل أم ينهار عند القدرة.
- المحور الثاني: الأخلاق عند القدرة... الامتحان الذي لا ينجو منه كثيرون ثم تأتي اللحظة التي تفضح القلوب: إخوة يوسف عليه السَّلام يدخلون عليه... هو يعرفهم وهم له منكرون ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾... وهنا يظهر السؤال الصامت الذي يُطارد كل واحدٍ منا: ماذا ستفعل حين يعود الذين آذوك إلى بابك؟ هل ستستثمر قوتك للانتقام أم للإصلاح؟ يوسف

عليه السَّلام لا يخلط الرحمة بالسذاجة؛ يُحسن ويَحزم، يفتح باب الكيل، ويضع شرطاً تربوياً يعيد بناء الأسرة من الداخل ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم﴾، ثم يعطيهم ما يُرجعهم دون كسر كرامتهم ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾... وبعد ذلك تتصاعد الأزمة: السقاية، النداء، الاتهام، الموقف المتوتر... ومع هذا لا يسقط يوسف عليه السَّلام في فوضى الانفعال ولا في ظلم "البديل"، ويثبت ميزان العدالة ولو توسّلوا به العاطفة ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾... ثم يضع القرآن ختمة تربوية في منتصف المشهد: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾... أي لا تغتر بفهمك للمشهد ولا بحسن تدبيرك؛ لأن الله تعالى يُجري من وراء الأسباب ما لا تُحيط به.

- المحور الثالث: فقه التوكل... قلبٌ يأخذ بالأسباب ولا يعبدها
وهنا ينتقل الجزء من مشهد يوسف إلى مشهد يعقوب عليهما السَّلام، لتكتمل التربية: يعقوب يُعلّم أبناءه "حسن الظن بالله مع الواقعية"، لا يبتلع الرواية، ولا يبتلع اليأس... يقول: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾، ثم يأخذ بالسبب ﴿لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾، ثم يغلق الباب العقدي الذي يقتل التعلق بالأسباب: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾... وبعدها يأتي الإغلاق المؤلم الجميل: الأسباب قد تُؤخذ ولا تُثمر؛ ليس لأن الله يعبث، بل لأن الحكم له ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾... ثم تبلغ التربية ذروتها في أصفى نصٍّ يداوي من ظنّ أن الدموع نقص يقين: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾... الشكوى إلى الله عبادة، والاعتراض على الله آفة؛ فرقٌ دقيق ينجو به القلب من الانهيار.

- المحور الرابع: لا تيأسوا من روح الله... ثم لا تثريب عليكم اليوم
ثم يأتي التحول الكبير... بعد طول الألم يقول يعقوب: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾... فيتحرك الأبناء، وتأتي لحظة الكشف، ويتكلم يوسف بكلمةٍ

تُقيم ميزان النصر في الإسلام: ليس النصر أن تُذل خصمك، بل أن تملك نفسك عند القدرة... ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ثم يضع قاعدة الطريق: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾... ثم يفتح باب التوبة للذين أساؤوا دون فضيحة ولا تصفية حساب: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾... هذا ليس تبريراً للماضي، بل تأسيسٌ لمستقبلٍ لا يعيش على الانتقام.

- المحور الخامس: سورة الرعد... تثبيت القلب بسُنن الكون وسُنن النفس بعد أن علّمك الجزء كيف تُدار الأزمات داخل الأسرة... ينقلك إلى الكون كله، لأن من لم يفهم سُنن الله في الكون لن يطمئن وهو يعبر سنن الله في الابتلاء... فيفتح الرعد بالحقيقة الكبرى: ﴿وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ ثم يريك مشاهد التدبير والقدر والعلم المحيط... ويضع في قلبك قانوناً صريحاً لا مجاملة فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾... فلا تشتكِ من "قدرٍ" وأنت لم تبذل "تغييراً"، ولا تنتظر "فتحاً" وأنت لم تُصلح "الداخل"... ثم يأخذك إلى المثل الذي يُسكت ضجيج الباطل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾... ويغلق على دواء القلق الذي لا يشيخ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾... ثم يُذكرك أن الأبواب بيد الله وأن الدعوة له وحده، وأن كل شيء في علمه وحكمه.
- المحور السادس: سورة إبراهيم... وظيفة الوحي وثبات الكلمة ومشهد المصير: ثم تأتي سورة إبراهيم كخاتمة وظيفية: لماذا أُنزِل الكتاب أصلاً؟ لتخرج من ظلمات النفس والهوى والفتنة إلى نور الحق بإذن الله ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾... ثم يريك سنة الرسل: صبرٌ وأذى وتوكل... لا طريق وردي ولا دعوة بلا ثمن، ثم يُعرّي الشيطان يوم القيامة

ليُغلق باب "التعلل": ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾... ثم يضع لك معيار الثبات كله في مثلٍ واحد: الكلمة الطيبة ثابتة الأصل عالية الفرع تُثمر بإذن ربها، والكلمة الخبيثة لا قرار لها ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾... ثم يختم بدعاء إبراهيم الذي يُعلّمك أن أعلى ما تُورّثه لأهلك ليس مالاً بل توحيداً وصلاة: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

الخاتمة الجامعة:

وبعد هذه الرحلة كلها... من كسر النفس، إلى تهذيب القدرة، إلى فقه التوكل، إلى تثبيت القلب بالسُّنن، إلى ثبات الكلمة... تُغلق السورة الأخيرة القفل الذي لا يبقى بعده تيهٌ ولا تشتت... ﴿هَـٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

الخريطة البنيوية لآيات هذا الجزء

الخريطة البنيوية لآيات سورة يوسف (٣٥- ١١١):

محورها المركزي: حين يُمكِّن الله لعبده... لا يُخرِجه التمكين من باب العبودية، بل يُدخله أعمق في باب الصدق، والرحمة، والحكمة، ووزن النفوس بميزان الآخرة..

- التأسيس القلبي قبل التمكين: أول نجاةٍ أن تتّهم نفسك لا أن تزكّيها تبدأ هذه المقاطع من القلب لا من القصر: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾... كأنَّ السورة تقول: قبل أن تُفتَح لك أبواب المناصب، افهم حقيقتك: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، ثم لا تُقنِطك الحقيقة، لأن باب الرحمة هو الذي يصنع التوازن: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾... فالإنسان لا ينجو بقوته بل برحمةٍ تُمسك قلبه وهو ضعيف، ثم يُغلَق باب اليأس بخاتمة الرجاء: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ

رَّحِيمٌ﴾، بابُ التمكين لا يُفتَح لمن يبرّئ نفسه، بل لمن يراها كما هي ويستغيث بربّه من شرّها، فالتزكية الصادقة تبدأ بهذا الاعترافِ الـمُزلزل ثم تُختم برجاءٍ صحيح: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: لا نجاة إلَّا برحمةٍ تُصلح الداخل قبل أن تُصلح الواقع.

- الاعتراف بالفضل من الخصم قبل الصديق: الله يُظهر براءتك ولو بعد حين ثم يتحول المشهد من محكمة الاتهام إلى منصة الثقة: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾... فليس كل تأخيرٍ حرماناً، بعض التأخير ترتيبُ رباني لصورةٍ كاملةٍ لا تُطعَن، حتى إذا كَلّمه قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾... "مكين" في الموقع، "أمين" في الجوهر، لأن التمكين الحقيقي ليس كُرسيّاً بل أمانة، بعد سنوات السِّجن؛ حين يرفع الله عبداً من قاع الابتلاء إلى صدر الدولة، يفهم العبد أن الرفعة اختبار لا مكافأة فقط، وأن المكانة لا تُنال بالشعارات بل بالأمانة التي تُستخرج من تحت الرماد: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾... ثم شهادةُ التمكين: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أي: قوةٌ تُحمى بالأمانة لا بالدهاء.
- فقه عرض الكفاءة بلا تزكية: حين يتحوّل المنصب من "مجد" إلى "إنقاذ" هنا تأتي الآية التي يُسيء كثيرون استعمالها: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾... أي: أمينٌ على المال، خبيرٌ بتدبيره، والغاية إنقاذ الناس من المجاعة لا صناعة مجدٍ شخصي، يوسف عليه السَّلام لم يقل: أنا الأفضل، ولم يقل: أنا الأَحق، ولم يفتح باب "التلميع"، بل ذكر وصفين مرتبطين بالمهمة لا بالذات: "حفيظ" أمانة تمنع الضياع، و"عليم" كفاءة تمنع الفساد؛ فالمقصود: إذا وُجدت ضرورةٌ عامةٌ، وغلب على الظَّن أن حقوق الناس ستضيع، ولم يوجد من يقوم مقامه، جاز بيان الأهلية بقدر الحاجة لا بقدر الهوى، لكن يبقى الفرق خطيراً: بيانُ الأهلية لإنقاذ الناس

عبودية لله تعالى، وتزكيةُ النفس لصناعة شعبيةٍ وثناءٍ عبوديةٌ للذات.

- التمكين ليس مكافأةً دنيوية... بل نفحةُ رحمةٍ للمحسنين: ثم يقطع القرآن الطريق على من يظن أن الذكاء وحده يصنع السلطان: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾... فالـمُمكِّن هو الله لا "السيرة الذاتية"، ثم يضع القاعدة الإيمانية: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾، ويطمئن أهل الإحسان: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾... ثم يُصحح زاوية النظر: أي أنَّ ميزانُ الآخرة فوق كل مكاسب الدنيا؛ حين تلمع الدنيا في عينك ذكِّر قلبك أن أجمل نهايات النجاح ليست لقباً ولا نفوذاً بل حسن العاقبة، فحتى أعظم تمكينٍ دنيوي لا يساوي شيئاً أمام أجر التقوى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: لا تجعل نجاح الدنيا هو النهاية، النهاية هي التقوى.
- عودة الابتلاء في صورةٍ جديدة: الإخوة يدخلون... والذاكرة لا تنسى... لكن القلب يتربّى ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾... هنا امتحان القدرة بعد امتحان السِّجن؛ لأن بعض الناس يصبرون على الظلم، لكنهم يفشلون حين يستطيعون الردّ، ويوسف يعرفهم: رجوعُ الماضي في هيئة "محتاجين"؛ الإخوة الذين أسقطوا يوسف عليه السَّلام في الجُبّ يعودون إلى بابه وهم لا يعرفونه، لتتعلم أن الله تعالى يُدوِّر الأقدار حتى يأتي الظالم إلى باب المظلوم ليُربّي قلبين: قلب المظلوم على العفو، وقلب الظالم على الانكسار: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.
- إدارة الأزمة بالعدل لا بالانتقام: الإحسان يظهر في التفاصيل: يوسف عليه السَّلام في مقام السُّلطة لا ينسى العدل: ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾... يبدأ بإتمام الكيل والضيافة، ليُعلّم أن الإحسان ليس مكافأة للطيب فقط بل عبودية لله مع كل الناس، أي: أنا أُحسن لأن ربي يحب

الإحسان، لا لأنكم تستحقون.. ثم يضع شرطاً ليس للتشفّي بل لإكمال الخطة التربوية: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، فإن لم يأتوا: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾... لأن القضية ليست طعاماً فقط، بل إعادة بناء بيتٍ تحطم بالخيانة.

- إحسانٌ ذكيٌّ لا إحسانٌ ساذج: ردّ البضاعة ليُوقظ الضمير ويسترجعهم ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾... كرمٌ في صورة سياسة، ورحمةٌ في صورة تدبير؛ لعلهم يعرفونها فيرجعون... فالإنقاذ أحياناً يحتاج "حكمة حركة" لا مجرد عاطفة، يوسف عليه السَّلام يردّ بضاعتهم في رحالهم ليوقظ ضمائرهم ويعيدهم دون إذلال، فالتربية الرفيقة تُحسن التخطيط دون فضيحة: أي: إصلاحٌ يحفظ كرامتهم ويقودهم للرجوع.
- يعقوب عليه السَّلام يُعلّم فقه الثقة المشروطة: لا يسلّم قلبه إلا بعهدٍ من الله ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾... الألم لا يُلغي الإيمان، لكنه يُعلّم الحذر، ثم يُسلّم الأمر لله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾... ويأخذ عليهم موثقاً: ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ﴾... ثم يعلن عقيدته العملية: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.
- الأسباب لا تناقض التوكل: توزّعوا من أبوابٍ متفرقة... ثم سلِّموا الحكم لله ﴿لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾... احتياطٌ مشروع، ثم يضع الحدّ الفاصل: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾... الأسباب تؤخذ، لكن القلب لا يعبدها: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، كان يأخذ بأسباب دفع الضَّرر، ثم قطع دابر التعلق فقال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾... ثم قرر عقيدة التوكل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: اعمل بالأسباب كأنها واجبك، وتبرأ منها كأنها لا تنفعك إلا بإذن ربك.
- لحظة التعرّف الخاصة: وسط الزحام... ربّك يدبّر "رحمة شخصية"

﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾... ثم يطمئنه بكلمةٍ تُغلق جرح السّنين: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾... لأن الله تعالى لا يُعوّضك فقط بالنهاية، بل يعوّضك أحياناً بلحظة دفءٍ في منتصف الطريق.

- الخطة الصعبة: إبقاء الأخ... لتأديب الإخوة وكشف معدنهم: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ثم النداء: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾... فتنفجر الأزمة، ويبدأ الامتحان: هل يعودون إلى خيانةٍ جديدة أم يتغيرون؟ ثم يأتي تقرير الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: هذا تدبيرٌ من الله داخل حدود الشرع والقدر، ثم قاعدة العلم: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾... فلا تغتر بحيلتك، فالله تعالى أعلم بتدبيره، أي: هذا تدبيرٌ من الله لنُصرة المظلوم وإتمام المقادير، لا ظلم فيه ولا خيانة.
- قُبح النفس القديمة يظهر: تهمةٌ جاهزة ليوسف... لكن يوسف يملك نفسه ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾... يرمون يوسف ليبرروا أنفسهم، ويوسف لا ينفجر ولا يفضح: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾... لأن من علامات التمكين: أن تملك ردّك لا أن تترك ردّك يملكك، أي: ليست البطولة أن تردّ، بل أن تضبط قلبك وأنت قادر.
- عدلٌ لا تحكمه العاطفة: لا نأخذ إلّا من وُجد المتاع عنده ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾... العدل لا يتبدل لأن السائل ضعيف، ولو كان يوسف قادراً على المجاملة، لكنه يعلم أن ترميم النفوس لا يكون بخرق الموازين.
- بداية التوبة: كبيرهم يتذكر "الموثق" ويتذكر "يوسف" ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً﴾... ثم الاعتراف: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾... هنا بدأ التحول؛ لأن أول توبةٍ أن تسمي ذنبك باسمه.

- يعقوب عليه السَّلام: صبرٌ جميل لا يعني قلباً بلا دموع ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾... ثم يلتفت عنهم ويبكي حتى يبيضّ بصره: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾... فالإيمان لا يمنع الحزن، لكنه يمنع السُّخط، ويمنع سوء الظن بالله تعالى.
- قمة الأدب في الألم: الشكوى إلى الله وحده... والرجاء لا يموت ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾... ثم كلمة اليقين التي لا يقولها إلا من عرف ربّه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾... الشكوى إلى الله تعالى ليست ضعفاً في اليقين؛ يعقوب لا يكبت حزنه حتى يهلك، ولا يفتحه للناس حتى يذل، بل يرفعه لربه وحده: أي: ابكِ بين يدي الله سبحانه وتعالى، فذلك من صدق التوحيد لا من نقصه.
- ثم وصيته الجامعة: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾: "رَوح الله" باب الأحياء لا اليائسين؛ يُربّي أبناءه على الرجاء حتى بعد كل ما حدث: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، ثم يقرر قاعدة كبرى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، أي: لا تُطفئ المصباح الأخير؛ فالله تعالى يفتح بعد الإغلاق، ويُحيي بعد الموت.
- عودة الإخوة بقلوبٍ مكسورة: حين تُسقط الحاجةُ الأقنعة ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾... ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾... لم يعودوا يتكلمون بعُلوّ، بل بانكسار، وهذه إحدى سُنن الله: أن الذُّلّ أحياناً يفتح باب الصدق.
- لحظة المواجهة: لا يفتح يوسف الجرح للتشفي... بل للعلاج ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾... ليس إذلالاً، بل إيقاظٌ للضمير قبل أن تُمنح نعمة الصفح.
- ذروة النبل: الاعتراف ثم العفو... "لا تثريب عليكم اليوم"، يعترفون: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾... فيقابلهم يوسف بما لا يقابله إلَّا عبدٌ ربّاه الله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾... ثم يردّ الفضل لله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾...

كأنه يقول: أنا لا أملك خزائن المغفرة، أنا عبدٌ يفتح بابها بالرَّحمة.

- إعادة الأب إلى النور: القميص سبب... والشفاء من الله ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾... ثم معجزة الرجوع: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾... لكن الأهم من رجوع العين رجوع البيت كله إلى معنى التوبة والاستغفار: ﴿اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.
- تحقق الرؤيا: السجود هنا سجود تحيةٍ في شريعتهم... والفضل كله لله ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾... ثم يربط يوسف النهاية بالبداية: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾، ويقرأ حياته قراءة توحيد: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾... ثم ينسب "النزغ" للشيطان لا ليستثمره في انتقامٍ من البشر: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾... ويختم باسمٍ يليق بسورة التدبير: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾.
- خاتمة يوسف الشخصية: الخوف من سوء الخاتمة بعد الملك... دعاء العارفين ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾... ثم لا يطلب المزيد من الدنيا، بل يطلب النهاية التي تُنجي: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾... كأنَّ العبرة: نجاحك الحقيقي ليس أن تصل، بل أن تُسلِّم.
- الخاتمة الدعوية للسورة: أكثر الناس لن يؤمنوا... والرسالة "ذكر للعالمين" ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾... ثم يُطهّر الداعية من طلب المقابل: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، ويكشف سبب العمى: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾... ثم يفضح "الشرك الخفي" في كثير من القلوب: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، ثم يوقظ من غفلة الأمن: ﴿أَفَأَمِنُوا...﴾، ويحدد منهج الداعية: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، ثم يُسلّي النَّبي بسُنن الطريق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ... جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، ويختم بحكمته الجامعة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي

﴿الْأَلْبَابِ﴾... ليس للتسلية، بل لصناعة قلبٍ يعرف الله تعالى حقّاً.

الخريطة البنيوية لسورة سورة الرعد

محورها المركزي: الحقُّ ثابتٌ وإن علا الضجيج... والباطلُ منتفخٌ وإن كثر الأتباع... والفيصلُ "تغيّر الداخل" قبل أن يتغيّر الخارج.

- مدخل السورة: الحق لا ينقصه دليل... لكن القلوب قد تنقصها إرادة الإيمان: تفتتح السورة بإعلانٍ حاسمٍ أن الوحي حقٌّ لا ريب فيه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ ثم تكشف الجرح الحقيقي: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: ليست الأزمة في ضعف البرهان، بل في قلوبٍ لا تريد تبعات الحق ولو كان واضحاً.
- سقف الكون لا يسقط عبثاً... لأن وراءه ربّاً يُدبّر لا طبيعةً عمياء ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾... هذا الكون ليس قائماً على المصادفة بل على تدبيرٍ محكم، ومن دلائل ذلك أن كل شيءٍ يسير لأجلٍ مسمى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ثم يأتي المقصود من هذا كله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، أي: آيات الكون ليست للتسلية العقلية، بل لصناعة يقين اللقاء.
- الأرض ليست كتلةً جامدة... بل درسٌ يوميٌّ في الحكمة والرحمة ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً﴾... ثم يلفت قلبك إلى توازنٍ عجيبٍ في الليل والنهار: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، أي: الذي يُقلّب الفصول ويُدير الأقدار قادرٌ أن يُقلّب حالك من ضيقٍ إلى فرج إذا صدقت.
- تجاور القطع وتفاوت الثمر: رسالةٌ ضدّ الاعتراض على الأقدار ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾... أرضٌ واحدة، وماءٌ واحد، وشمسٌ واحدة، ثم يختلف الطعم والبركة: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾، أي:

تفاوت الأرزاق والأحوال ليس ظلماً، بل تدبيرٌ حكيمٌ يُربي القلوب على الرضا والعمل لا على الحسد والاعتراض.

- المشكلة الكبرى: استبعاد البعث... ثم قيودٌ لا تُرى ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾... من أنكر الآخرة قُيّد في الدنيا بقيودٍ أخلاقيةٍ وروحيةٍ لا تنفك: ﴿أُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾، أي: قد يمشي حُرّاً بجسده لكنه أسيرٌ بمعناه.
- استعجال العذاب... ورحمة الله التي لا تفتح باب الأمن من مكره ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾... ومع ذلك يبقى باب الرحمة مفتوحاً: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، لكن لا يغترّ أحدٌ بالإمهال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: الرحمة ليست رُخصةً للتمادي، بل فرصةٌ للرجوع.
- طلب "آية جديدة" هروبٌ من الآية القائمة... لأن وظيفة الرسول إنذار لا استعراض ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾... وكأن المشكلة نقص الدليل، بينما المشكلة في الاستجابة، لذلك يُحسم الأمر: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، أي: عليك البلاغ، وعلى الله الهداية، وعلى الناس قرارهم.
- علم الله المحيط: لا شيء في رحمٍ ولا في قلبٍ خارج "المقدار":﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾... ثم يُحكم القاعدة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾، أي: ما يحدث لك ليس عبثاً ولا فوضى، بل تقديرٌ مضبوطٌ بحكمةٍ ورحمةٍ وعدل.
- الرقابة الشاملة: السِّر والعلن سواءٌ عند الكبير المتعال ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾... أي: لا تُراهن على الظلام، لأن رقابة الله لا تُحجب، ومن أعظم تزكية القلب أن يستقيم في الخفاء قبل العَلَن.

- قانون التحول: لا يتبدل واقع أُمَّةٍ حتى يتبدل باطنها هذه آية "المفصل": ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، أي: الدعاء وحده لا يكفي إن ظلّ الداخل على حاله، والوعي وحده لا يكفي إن لم يتحول إلى قرارٍ وعملٍ وتوبةٍ صادقة.
- البرق والرعد: الخوف والرجاء... تربيةٌ على التوازن ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾... فلا إفراط في الأمن ولا غرق في الرُّعب، ثم تتعظّم الهيبة حين تعلم أن الرعد يسبح: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾، أي: الكون كلّه في عبودية، فكيف يستكبر قلبٌ صغير؟.
- دعوة الحق وحدها تُسمع... وما سواها سرابٌ لا يروي ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾... وأما من دون الله فصورتهم مؤلمة: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾، أي: تتعب كثيراً في غير الله، ثم تعود عطشاناً كما بدأت.
- السجود الكوني: القهر والاختيار كلاهما تحت سلطان الله ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾... فمن لم يسجد اختياراً سجد اضطراراً يوم تزول الأقنعة، فاختر سجود المحبة قبل سجود القهر.
- التمييز الحاسم: الأعمى والبصير... الظلمات والنور ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾... القضية ليست رأياً، بل نورٌ وظلمة، توحيدٌ وشرك، بصيرةٌ وعمى، ومن سوّى بينهما فقد أطفأ المصباح في قلبه.
- مثل الزبد: الباطل ينتفخ... ثم يذهب جفاءً ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾... قد يعلو ضجيجه ويغطي سطح الماء، لكن الحقيقة تمكث: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لا تنخدع بالموجة، فالعبرة بالبقاء لا بالظهور.
- قسم المصير: الحسنى لمن استجاب... وسوء الحساب لمن أعرض ﴿لِلَّذِينَ

اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾... والاستجابة هنا ليست تصديقاً ذهنياً بل انقياداً عملياً، أما المعرض فلو امتلك الدنيا كلها ما افتدى بها: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾.

- صفات "أولو الألباب": دينُ الوفاء والصبر والإصلاح لا الشعارات ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾... ﴿وَيَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾... ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾... هؤلاء هم الذين يصنعون "عقبى الدار"، لا الذين يكثرون كلاماً ويقلّ أثرهم.
- التحية في الجنة: سلامٌ على ثباتٍ لا على ادّعاء ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾... فالصبر هو البرهان الذي لا يكذب، وهو الثمن الذي يشتري به المؤمن العاقبة.
- القطيعة والإفساد: دينٌ مكسورٌ ولو كثرت طقوسه ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾... فساد العلاقات وقطع الأرحام ونقض العهود ليس "تفاصيل اجتماعية"، بل علامة انهيار داخلي يُنذر بسوء الدَّار... القطيعةُ ليست سلوكاً عابراً يُبرَّر بانشغالٍ أو خلافٍ أو حساسيةِ نفسٍ، بل هي شقٌّ في جدار العبودية نفسه؛ لأن الذي يقطع ما أمر الله به أن يُوصل إنما يُعلن – من حيث لا يشعر – أن هواه مقدَّم على أمر ربه، وأن مزاجه أرجح من شريعته، وهذا كسرٌ في حقيقة الدين ولو كثرت الصلوات وتتابعت المواسم.

والإفسادُ في الأرض لا يبدأ بحريقٍ ظاهرٍ أو ظلمٍ صاخب، بل يبدأ من قلبٍ ضاق بالعفو، ولسانٍ اعتاد القسوة، وعهدٍ يُنقَض إذا تعارض مع مصلحةٍ شخصية؛ فحين تفسد العلاقات وتُهدم الأرحام وتُبتذل الثقة، تكون الروح قد تآكلت من الداخل وإن بقيت الطقوس قائمة.

وسوءُ الدار ليس مجرد خسارةٍ في الآخرة فحسب، بل هو مسارُ انهيارٍ

يتشكّل هنا قبل هناك؛ قلقٌ لا يهدأ، بركةٌ تُنزَع، أمانٌ يتبخر، وتحوّلُ البيت من سكنٍ إلى ساحة توترٍ صامت، لأن من قطع ما وصله الله قُطع عنه مددُ الطمأنينة ولو لم يُصرّح بذلك.

سوءُ الدار هو أن يُترك القلب لظلمته، وأن يُسلب نورُ البصيرة، وأن يعيش الإنسان محاطاً بالناس وهو في عزلةٍ روحيةٍ خانقة، يظن أنه انتصر في خصومةٍ أو حفظ كرامةً، بينما الحقيقة أنه خسر سلامه الداخلي وخسر معه وعد الله بالحسنى.

فالدينُ الذي لا يحفظ صِلاته ولا يصون عهوده ولا يُصلح بين الناس دينٌ مكسورٌ في جوهره، وسوءُ الدار هو خاتمةُ هذا الكسر: عاقبةٌ ثقيلةٌ في الآخرة، وحياةٌ منزوعةُ السكينة في الدنيا، حيث يتحوّل التفريط في الوصل إلى علامة سقوطٍ لا تُجدي معها كثرةُ الطقوس ولا ضجيجُ الشعارات.

- الطمأنينة ليست بإزالة السبب دائماً... بل بحضور القلب مع الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾... أي: قد يبقى الوجع، لكن يزول الهلع، وقد تبقى الأسباب، لكن يثبت القلب، لأن الذي يرى ويقدّر ويرحم هو الله سبحانه وتعالى.
- سياق الثبات: لا معجزات تُقهر بها النفوس... لأن الأمر لله جميعاً حتى لو كانت أعظم آيةٍ تتجاوز قوانين المادة: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ...﴾ فالقضية ليست نقص آية بل قرار هداية، لذلك تُختم بالقانون: ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾، أي: لا تملك القلوب إلَّا إذا ملكها الله، ولا يملكها الله إلا لمن صدق في الإنابة.
- الابتلاء سنة... والإمهال ليس أماناً: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾... ثم يأتي الأخذ بعد الإمهال، ليبقى القلب بين خوفٍ ورجاءٍ فلا يغترّ ولا يقنط.

- الله قائم على كل نفس... فلا تختبئ خلف اسمٍ ولا جماعة ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾... لا أحد يُنجيك من حصادك إلّا توبةٌ صادقة، فكل نفسٍ تُحاسَب بما كسبت لا بما ادّعت.
- الخاتمة: كفى بالله شهيداً... ومن عنده علم الكتاب ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾... فشهادة الحق لا تحتاج تصفيقاً من الناس، ومن عرف الحق من أهل العلم قامت عليه الحجة، وبقيت المسافة بين من استجاب ومن أعرض.

الخريطة البنيوية لسورة سورة إبراهيم

محورها المركزي: من نور الهداية... إلى ثبات الكلمة... إلى مآل العاقبة

- رسالة الوحي: إخراج لا إخبار: تفتتح السورة بوظيفة القرآن الحقيقية لا بوصفه نصاً يُتلى بل نوراً يُحوِّل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾... فالقضية ليست انتقالاً فكرياً فحسب، بل خروجاً وجودياً من ظلمة الهوى إلى نور العبودية، ومن عبودية الخلق إلى صراط العزيز الذي لا يُغلب، الحميد الذي يُحمد في قضائه وقدره.
- جذر الضلال: تفضيل الدنيا على الآخرة: تُعرّي السورة أصل الانحراف: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾... فالمشكلة ليست جهلاً محضاً بل ميلاً قلبياً، وحين يُفضّل العاجل على الأبقى يبدأ الإنسان في ليّ طريق الله وطلب عِوَجٍ فيه، فيصير الانحراف اختياراً لا عثرة.
- البلاغ بلسانٍ مفهوم... والهداية بيد الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾... البيان وظيفة الرسول، أما الهداية فمشيئةٌ حكيمة: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، فلا يُغترُّ بدور المبلِّغ ولا يُنسب الفضل لغير الله، فالعزيز الحكيم هو الذي يفتح القلوب أو يغلقها بعد قيام

الحجة.

- "أيام الله": التربية بالذاكرة الإيمانية: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾... لأن النسيان أول مدخلٍ للانحراف، واستحضار لحظات النجاة والابتلاء يوقظ في القلب صفة الصبر والشكر، وهما جناحا السير إلى الله.
- قانون الشُّكر: الزيادة ليست صدفة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾... الزيادة وعدٌ إلهيٌّ مشروط، ليست زيادة مالٍ فقط بل زيادة هداية وثبات وبركة، أما الكُفران فهو سحبٌ تدريجيٌّ للنور ولو بقيت المظاهر.
- غِنى الله المطلق... وفقر الإنسان الحقيقي: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾... الله تعالى لا يحتاج طاعتك، أنت الذي تحتاجها، فالدين ليس تفضّلاً منك على الله سبحانه وتعالى، بل نجاةٌ لك من نفسك.
- سُنَّة المواجهة: الاتهام قبل الفهم: حين تأتي الرسل يُجابَهُون بالتشكيك في أصل الرسالة: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾... ويُتَّهَمون بأنهم بشر مثل الناس، وكأن البشرية تنفي الاصطفاء، بينما الاصطفاء مِنحةٌ إلهية لا تناقض الطبيعة البشرية بل تهديها.
- التوكل والصبر... عدّة المؤمن في زمن الأذى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾... التوكل ليس هروباً من الواقع بل ثباتٌ داخليٌّ يمنح صاحبه القدرة على الصبر: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾، فالثبات هو أعظم انتصار قبل النصر.
- وعد الاستخلاف مشروط بالخوف من المقام: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾... التمكين ليس حقاً تاريخياً، بل ثمرة خشيةٍ حيّة، فمن خاف الله مكّنه، ومن أمن مكره أزاله.

- مشهد النهاية: سقوط الجبابرة: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾... فالعناد لا يصنع خلوداً، والجبروت لا يمنع جهنم، والإنسان مهما تجبّر يقف يوماً أمام القهار مجرداً من كل قوة.
- حوار يوم القيامة: تهاوي الأصنام البشرية: الضعفاء يلومون المستكبرين، والمستكبرون يتبرؤون، ثم يأتي الشيطان ليكشف الحقيقة الموجعة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾... فالمعركة لم تكن في قوة الشيطان بل في قرار القلب، ولا مهرب يومها من تحمّل المسؤولية.
- الكلمة الطيبة... شجرة العقيدة: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾... الإيمان ليس انفعالاً عابراً بل جذوراً ضاربةً في العمق، وثمراً يتجدد بإذن الله، وكل ما لا جذور له يقتلع مهما بدا صلباً.
- تثبيت الله لعباده... في الدنيا قبل الآخرة: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾... الثبات هبةٌ من الله لمن صدق، فلا تعتمد على قوتك النفسية بل على عون ربك.
- تبديل النعمة كفراً... بداية الانهيار: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً﴾... حين تُستعمل النِّعمة في معصية المنعِم تتحول من سلمٍ للترقي إلى سببٍ للسقوط.
- مظاهر القدرة... دعوة للشكر لا للغفلة: خلق السماوات، تسخير الشمس والقمر، إنزال الماء... ليست مشاهد طبيعية صامتة، بل رسائل ربانية توقظ القلب: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، ومع ذلك يبقى الإنسان ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إن لم يتداركه الله برحمته.
- دعاء إبراهيم عليه السَّلام: هندسة الإيمان في الأجيال: إبراهيم عليه السَّلام لا يسأل الملك ولا القوة بل يسأل الأمان والتوحيد: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾... فالأمن الحقيقي أمن العقيدة، والخطر الأكبر ليس الفقر بل الشِّرك.

- إقامة الصلاة... قلب المشروع الإبراهيمي: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾... ليست مجرد شعيرة بل عمود حياةٍ كاملة، ومن ضيّعها ضيّع المعنى الذي من أجله بُني البيت.
- لا يغفل الله... وإن تأخر الحساب: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً﴾... تأخير العقوبة ليس غفلة، بل إمهالٌ إلى يومٍ تشخص فيه الأبصار، ويظهر فيه ميزان العدل بلا حجاب.
- مشهد القيامة: انكشاف الحقيقة الكبرى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾... عالمٌ جديد، وساحة حساب، ووجوهٌ تغشاها النار، لتُجزى كلُّ نفسٍ ما كسبت، بلا ظلمٍ ولا محاباة.
- الخاتمة الجامعة: هذا بلاغ: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾... ليس قصة تاريخية ولا سرداً وعظياً، بل رسالة إنذارٍ وتوحيد، ليعلم الناس أن الإله واحد، وأن الكلمة الثابتة هي طريق النجاة، وأن العاقبة لمن وعى وتذكّر.

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ بين فقهِ الأمانة وفتنةِ التوظيف السياسي

ليست كلُّ آيةٍ تقرأ تُفهم، ولا كلُّ فهمٍ يُستدلُّ به يُحسن تنزيله، وبعضُ النصوص إذا أُخذت مجرّدةً من سياقها انقلبت من نورٍ يهدي إلى مطيّةٍ تُستعمل، وآيةُ يوسف عليه السَّلام ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ من هذا الباب الذي يحتاج إلى ميزانٍ دقيق، حتى لا ننقلب من فقهٍ نبويّ رفيع إلى تبريرٍ للنفس وهوى متزيّن بلباس الشَّرع.

هذه الآية في القرآن الكريم، في سورة يوسف، جاءت في سياقٍ استثنائيّ واضح؛ نبيٌّ مُبتلى خرج من سجنٍ ظالم، ورأى سنواتُ مجاعةٍ عامة مقبلةً على الناس، والبديل المحتمل فسادٌ اقتصاديٌّ وضياعُ أقواتِ أُمَّةٍ كاملة، فكان طلبه

ليس انتقالاً من ضعفٍ إلى جاه، بل انتقالاً من أمانةٍ في السجن إلى أمانةٍ في الدولة، ومن حفظٍ لعرضه إلى حفظٍ لأرزاق الناس.

الأصلُ الشرعيُّ في الولاية ليس هو الحرص عليها، ولا السَّعي المحموم لانتزاعها، بل إن السُّنة النبوية بيّنت أن من سأل الإمارة وُكِل إليها، ومن أُعطيها من غير مسألة أُعين عليها، فطلب المنصب ليس قاعدةً عامة، بل استثناءٌ تُبيحه الضرورة وتُقيّده الشروط، ولا يُفتح على مصراعيه لكل من رأى في نفسه قدرةً أو أحب في قلبه مكانة.

فمتى يكون الطلب مشروعاً؟

يكون كذلك إذا اجتمعت أمورٌ لا يُغني بعضها عن بعض؛

١. وجودُ مصلحةٍ راجحةٍ للناس يخشى عليها من الضياع،

٢. وعدمُ وجود من هو أكفأ وأصلح،

٣. وصدقُ النِّيَّة وخلوُّ القلب من طلب الجاه والسمعة،

٤. وأن يكون ذكرُ الصفات بقدر الحاجة دون توسّعٍ في مدح الذات أو تعظيمها،

ويوسف عليه السَّلام لم يقل: أنا الأفضل، ولا أنا الذي لا يُستغنى عنه، بل ذكر وصفين مرتبطين مباشرةً بطبيعة المهمة: ﴿حَفِيظٌ﴾ أمانةً على المال، ﴿عَلِيمٌ﴾ خبرةً في التدبير، فكان بياناً للأهلية لا تزكيةً مطلقة للنفس.

وهنا يظهر الفرق الدقيق بين بيان الكفاءة وتزكية الذات؛

تزكية النفس...

← أن يتكلم المرء بلسان الاستحقاق المطلق،

← وأن يشعر في داخله أنه الأجدر والأحق،

← وأن المنصب يزيده قيمة،

أما بيان الأهلية فهو..

← أن يرى المنصب تكليفاً ثقيلاً،

← وأن يقول: إن كانت فيّ هذه الصفات نفعٌ للناس فاختاروني،

← وإن وُجد من هو أصلح فأنا أول من يسلّم له الأمر، لأن المقصود إقامة العدل لا إقامة الذات.

لكن الخطر الذي نراه اليوم أن كثيرين يستدعون هذه الآية في غير موضعها، في سياقاتٍ انتخابيةٍ أو تنافساتٍ دنيوية، فيرفعون شعار ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ليستمِيلوا قلوب الناس ويستجلبوا أصواتهم، بينما واقعهم بعيدٌ عن الأمانة، وسيرتهم خاليةٌ من العلم الحقيقي، وإنما هي لغةٌ مُنمّقةٌ تُستعمل لتمرير طموحٍ شخصي، فيتحول النصّ من معيارٍ يُحاسَب به المرء إلى لافتةٍ يختبئ خلفها، ويُختزل فقه يوسف في دعايةٍ سياسيةٍ أو خطابٍ عاطفيّ يُحرّك الجماهير.

والميزان هنا شديد الحساسية؛ ليس كل من قال: "أنا أستطيع" يكون صادقاً، ولا كل من ذكر كفاءته يكون مخلصاً، ولذلك كان الامتحان الحقيقي في سؤالٍ داخليّ لا يراه الناس:

- لو لم يُختَرَ اسمي، هل أبقى ناصحاً؟
- هل أفرح أن وُجد من هو أصلح؟ أم يتبدل في قلبي شيءٌ لأن المنصب لم يكن خدمةً بل كان هويةً أبحث عنها؟

يوسف عليه السَّلام نبيٌّ معصوم، يعلم من الله ما لا نعلم، والسياق كان سياق إنقاذ أُمَّةٍ من هلاكٍ محقق، فلا يجوز أن نجعل الآية ذريعةً مفتوحة لكل طامح، ولا أن نلبس طموحاتنا لبوس الوحي، بل الواجب أن تُفهم الآية في إطارها: بيانُ أهليةٍ عند ضرورة، لا تسويقُ ذاتٍ عند منافسة.

فإن وُجدت الأمانة والعلم حقّاً، وغلب على الظَّن أن في التولي حفظاً لحقوق الناس، ولم يكن في القلب تعظيمٌ للذات، فلا حرج أن يُبيّن المرء كفاءته

بقدر الحاجة، أما أن تتحول الآية إلى جسرٍ يعبر به الطَّامحون إلى كراسيهم، ثم تُنسى الأمانة إذا استقروا فيها، فذلك قلبٌ للمعنى، وخيانةٌ للنص قبل أن تكون خيانةً للناس.

وهنا يظهر الفرق بين "يوسف" الذي طلب ليحفظ، و"هوى النفس" الذي يطلب ليُرى... وبين من يرى المنصب أمانةً يخافها، ومن يراه غنيمةً يحرص عليها، وبين من يقول ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وهو مستعدٌّ أن يُحاسَب على كل درهمٍ وكل قرار، ومن يقولها وهو يعلم في قرارة نفسه أنه يستعمل كلام الله ليُزيّن طموحه.

﴿ من الجُبِّ إلى التمكين... ومن الصاعقة إلى الطمأنينة ﴾

سرُّ اجتماع يوسف والرعد وإبراهيم في جزءٍ واحد

العامل المشترك:

هذا الجزء يُبنى على محورٍ واحد: سُنن الله في الصراع بين الحق والباطل، وكيف يتحوّل الابتلاء إلى تمكين حين يثبت القلب على التوحيد.

الخريطة المختصرة:

١. التوحيد قبل التمكين

٢. يوسف عليه السَّلام يثبت في السِّجن.

٣. سورة الرعد تُثبت أن الأمر كله لله.

٤. سورة إبراهيم تُعلن البراءة من الشرك.

الابتلاء طريق لا استثناء

١. جُبٌّ وسجن.

٢. تكذيب وصواعق.

٣. تهديد ونفي وإيذاء.

الحق قد يطول طريقه... لكنه لا يُهزم

١. يوسف عليه السَّلام يخرج مكرّماً.

٢. الرعد تؤكد أن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

٣. إبراهيم تُورّث التوحيد أُمَّةً باقية.

القلب هو ساحة المعركة الحقيقية

١. يوسف عليه السَّلام يحفظ قلبه قبل سمعته.

٢. الرعد تربط التغيير بالداخل لا بالخارج.

٣. سورة إبراهيم تبني العقيدة قبل أن تبني البيت.

التمكين ليس مكافأة دنيوية... بل نتيجة سننية

١. تمكين يوسف عليه السَّلام إدارةً وحكمة.

٢. وعد الرعد بالاستخلاف لمن استقام.

٣. دعاء إبراهيم لأُمَّةٍ قائمة على التوحيد.

الفرق بين الانفعال والثبات

١. إخوة يوسف عليه السَّلام استعجلوا فخسروا.

٢. الكُفار في الرعد يطلبون الآيات تعنتاً.

٣. إبراهيم صبر على المسار الطويل بلا مساومة.

الله تعالى مُدبرٌ لكل التفاصيل

١. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ (يوسف).

٢. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ (الرعد).

٣. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ (إبراهيم).

الرسالة الكبرى للجزء كله:

١. لا تنخدع بتأخر النصر.

٢. لا ترتبك أمام ضغط الواقع.
٣. لا تفصل التمكين عن التوحيد.

خلاصة الحكمة:

هذا الجزء يُعيد تشكيل يقينك:
الطريق قد يمرّ بجُبٍّ وسجنٍ وصاعقةٍ ونفي...
لكن من ثبت على التوحيد...
خرج مُمكَّناً ولو بعد حين.

المحور الإيماني المركزي لهذا الجزء كلِّه

هو توحيد القلب في جميع أطواره؛ في ضعفه وقوته، في حزنه وفرحه، في تدبيره وعجزه، في دعوته وانتظاره للنتائج؛ أي أن العبد لا ينجو من تقلبات الحياة إلا إذا استقر في داخله يقينٌ أن الله هو المتصرف وحده، العليم الحكيم، اللطيف الخبير، وأن دوره هو التقوى والصبر والعمل، لا التحكم في النتائج ولا الاعتراض على أقدار الله تعالى.

يبدأ هذا المحور بكسر وهم الثقة المطلقة بالنفس ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ليُعيد الإنسان إلى أصل العبودية: أنك محتاج إلى رحمة ربك في كل لحظة، ثم ينتقل إلى مشهد التمكين ليؤكد أن السلطان لا يُنسب إلى الذكاء ولا إلى التخطيط بل إلى مشيئة الله ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء﴾، وأن الفضل في النهاية لله وحده ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، فلا يتضخم القلب عند العطاء ولا ينكسر عند المنع.

ثم يُرسّخ هذا المحور في مشهد يعقوب عليه السَّلام حين يجمع بين الأخذ بالأسباب والتجرد من التعلق بها ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، ويبلغ ذروته في لحظة الشكوى الخالصة ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ حيث يتحول الألم إلى عبادة، ويُحاصر اليأس بقاعدة عقدية صارمة ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، فيتربى القلب على أن الرجاء فريضة، وأن اليأس خلل في

معرفة الرب... ثم تنتقل الآيات إلى تثبيت هذا التوحيد عبر دلائل الكون في سورة الرَّعد، ليُفهم العبد أن الذي دبّر قصة يوسف عليه السَّلام هو نفسه الذي يُدبّر السماوات والأرض ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾، وأن التغيير لا يُمنح لمن يكتفي بالتمني بل لمن يبدأ بإصلاح الداخل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وأن السكينة الحقيقية ليست في زوال الأحداث بل في حضور الذكر ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، وأن الحق باقٍ ولو علا الباطل لحظةً ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء﴾.

وتُختَم الرحلة في سورة إبراهيم ببيان وظيفة الوحي: إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله لا بقوة البشر ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، وتأكيد أن الثبات على الكلمة الطيبة هو أصل النجاة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، وأن النهاية ليست في تفاصيل الدنيا بل في لقاء الله والوقوف بين يديه ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

فالمحور الإيماني الجامع إذن هو: ترسيخ توحيدٍ عمليّ حيّ يجعل القلب متعلقاً بالله وحده في السَّراء والضَّراء، عاملاً بالأسباب دون تعلّقٍ بها، ثابتاً على الكلمة، راجياً غير يائس، خائفاً غير قانط، حتى يختم حياته وهو يقول بصدقٍ ويقين ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

أخطر الانحرافات التي يحذِّر منها هذا الجزء

❖ أولاً: انحراف عقدي

١) تزكية النفس والغفلة عن حاجتها إلى رحمة الله: أن يظن الإنسان أنه سالمٌ بطبعه وأن الشَّر بعيدٌ عنه، بينما القرآن يقرر ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؛ فالغفلة عن ضعف النفس أول بابٍ للانحراف.

٢) التعلق بالأسباب ونسيان أن الحكم لله وحده: اتخاذ التدبير البشري وكأنه المنقذ المطلق، مع أن الحقيقة ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، والأسباب لا تُغني إذا لم يُرد الله تعالى ذلك.

٣) اليأس من رحمة الله عند اشتداد البلاء: اعتقاد أن الأزمة تعني نهاية الطريق، بينما القاعدة العقدية الحاسمة ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾؛ فاليأس خلل في معرفة الرب.

٤) الإيمان المشوب بشركٍ خفيّ أو تعلّق بغير الله: أن يُقرّ الإنسان بالله قولاً لكن قلبه مُعلّق بغيره اعتماداً أو خوفاً أو رجاءً، وقد نبّه القرآن ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

٥) إنكار البعث أو التهوين من شأن الآخرة: الاستهزاء بسؤال المصير ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً﴾ يقود إلى انفلات الضمير؛ فضعف اليقين بالآخرة أصلُ كثيرٍ من الفساد.

٦) الأمن من مكر الله والغفلة عن عدله المؤجل: الاطمئنان إلى تأخر العقوبة، مع أن التحذير صريح ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

❖ ثانياً: انحراف أخلاقي

١) الانتقام عند القدرة بدل العفو المنضبط: استعمال القوة لتصفية الحسابات، بينما الكمال الأخلاقي ظهر في قوله ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

٢) الظلم باسم الشفقة أو المجاملة: التضحية بالعدل لإرضاء العاطفة، في حين أن المبدأ الثابت ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾.

٣) الخيانة أو التفريط في الأمانات: الاستخفاف بالمسؤوليات والعهود، بينما أهل الإيمان ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾.

٤) ردّ السَّيئة بالسَّيئة واستدامة دائرة الأذى: الانزلاق إلى منطق المعاملة بالمثل، مع أن المنهج الرباني ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

٥) كفر النِّعم والتقلب مع العطاء والمنع: نسيان فضل الله عند الرخاء أو السخط عند التضييق، بينما الميزان الإيماني ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

❖ ثالثاً: انحراف اجتماعي

١) تفكك الأُسرة بسبب الحسد والغيرة غير المنضبطة: بداية القصة كانت من غيرةٍ لم تُعالج، فصارت ظلماً؛ والشيطان هو الذي يُغري ويُفسد الروابط ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

٢) نقض المواثيق والاستهانة بالكلمة: الاستخفاف بالعهد الاجتماعي والديني، مع أن الله تعالى ذمَّ ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾.

٣) الإفساد في الأرض باسم المصلحة أو العصبية: تبرير الظلم بدعاوى الإصلاح، بينما العاقبة واضحة ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾.

٤) الاستعلاء والاستكبار الاجتماعي: احتقار الضعفاء أو التكبر بالقوة، ومآله كما صوّرته سورة إبراهيم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٥) اتباع القيادات الضَّالة دون بصيرة: الانسياق وراء أهل الاستكبار حتى الهلاك، ثم التنصل يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾؛ وهو انحراف في المسؤولية الجماعية.

❖ رابعاً: انحراف نفسي

١) الاستسلام للحزن حتى يبتلع الرجاء: تحول الألم إلى قنوط بدل أن يكون عبادة، بينما النموذج السَّليم ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾.

٢) القلق الوجودي وغياب السَّكينة: البحث عن الطمأنينة في الظروف لا في الذكر، مع أن الحقيقة الثابتة ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

٣) الغرور بالعلم أو المنصب: الشعور بالاكتفاء المعرفي أو السُّلطَوي، بينما التذكير القاطع ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

٤) تبديل النعم كفراً وانقلاب الامتنان إلى استحقاق: رؤية النعمة حقاً ذاتياً لا فضلاً إلهياً، وقد حذّرت الآيات ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً﴾.

٥) الركون إلى الدنيا ونسيان المآل: الفرح العابر الذي يُنسي الآخرة، مع التذكير بأنَّ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾.

هذا الجزء كلُّه يرسم خارطة تحذيرٍ متكاملة:

- يبدأ بانحراف القلب في خلوته،
- ثم يمتد إلى سلوكه وأسرته ومجتمعه،
- ثم يختم بمصيره بين يدي الله؛

- فمن صان توحيده وعدل أخلاقه واستقام قلبه نجا،
- ومن تساهل في هذه الانحرافات تراكبت عليه حتى يُصبح – والعياذ بالله – ممن يُقال فيهم ﴿لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾.

ملامح الشخصية التي يصنعها هذا الجزء..

- هذا الجزء يصنع شخصيةً تبدأ من الداخل لا من الصورة، تعترف بضعفها قبل أن تتحدث عن قوتها، وتبني يقينها على صدق المحاسبة لا على وهم الطهارة؛ شخصيةً تردد في سِرّها قبل جهرها ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ فتسير إلى الله تعالى بقلبٍ متواضعٍ يعلم أن النجاة رحمةٌ لا استحقاق، وأن الثبات توفيقٌ لا مهارة، فتطلب المعونة قبل أن تطلب المكانة، وتخشى الانحراف وهي في طريق الطاعة كما تخشاه وهي في موطن الفتنة.

- ويصنع شخصيةً أمينةً إذا مُكِّنت، لا تتغيّر أخلاقها بتغيّر موقعها، ولا تتضخم ذاتها إذا التفّت حولها الأسباب، لأنها تعي أن الفضل بيد الله ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾، وأن كل درجةٍ تُرفع إنما تُرفع بميزان الحكمة لا بميزان الاستحقاق، ولذلك إذا قيل لها ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ حملت الأمانة قبل أن تفرح بالتمكين، وجعلت الكفاءة خدمةً لا زهواً، ومسؤوليةً لا وجاهة.
- ويصنع شخصيةً عادلةً عند القدرة، قادرةً على أن تنتقم لكنها تختار أن تُصلح، تملك أن تُؤنب لكنها تميل إلى السَّتر، تعرف أن الكمال ليس في إظهار القوة بل في ضبطها، وأن العفو ليس تضييعاً للحق بل توجيهاً له نحو البناء، فتقول بقلبٍ صادق ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لا عن ضعفٍ ولا عن خوف، بل عن يقينٍ بأن الله هو الذي منَّ وهدى، وأن المقصود من النصر إصلاح القلوب لا إذلالها.
- ويصنع شخصيةً متوكلةً توكلاً واعياً، تأخذ بالأسباب دون أن تتعلق بها، تُخطط وتتحرك وتحتاط، لكنها تغلق قلبها عن عبادة الوسائل بقولها ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وتعلم أن الأسباب قد تُستوفى ثم لا تُثمر لأن الله قال ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، فتسلم قلبها لحكمةٍ أعلى من تدبيرها، ولا تنكسر إذا لم تجرِ الرياح كما تشتهي.
- ويصنع شخصيةً راجيةً لا تعرف اليأس طريقاً إلى روحها، مهما طال الانتظار أو تعقّد المشهد، لأن القاعدة العقدية مستقرةٌ في أعماقها ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، فتتحول الأحزان عندها إلى عبودية، والدموع إلى دعاء، وتفهم أن الشكوى لا تكون إلا إلى الله ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، فتخرج من البلاء بقلبٍ أنقى لا بقلبٍ أقسى.

- ويصنع شخصيةً مطمئنةً بذكر الله لا باضطراب الظروف، تعرف أن السَّكينة لا تُستورد من الخارج بل تُستدعى من الداخل، وأن موضعها القلب إذا امتلأ بذكر ربه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، فتثبت في الفتن لأنها مربوطةٌ بالوحي، لا بالأحداث المتغيرة، وتزن الضجيج بميزان الحقيقة لأن الحق يمكث والباطل يزول ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾.
- ويصنع شخصيةً ثابتةَ الكلمة، عميقةَ الجذر، تعرف أن الإيمان ليس انفعالاً عابراً بل أصلٌ ثابتٌ وفرعٌ ممتدٌّ في السماء ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، فلا تتبدل مع العواصف، ولا تُقلعها الشبهات، لأنها متصلةٌ بالله اتصالاً يجعلها ترى الدنيا معبراً لا مستقراً، والآخرة غايةً لا هامشاً.
- ويختم هذا الجزء بصناعة شخصيةٍ بصيرةٍ في دعوتها، لا تدعو بعاطفةٍ مجردة ولا بجدلٍ أجوف، بل على وعيٍ بمنهجها ومقصدها ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، تعلم أن الرسالة إخراجٌ من الظلمات إلى النور بإذن الله لا بقدرة البشر، وأن النهاية الحقيقية ليست في تفاصيل الطريق بل في حسن الخاتمة، فتجعل أمنيتها الكبرى ما جعله يوسف عليه السَّلام خاتمة دعائه ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، فتسير في الحياة بقلبٍ موحدٍ، وعقلٍ بصير، ونفسٍ مهذبة، وروحٍ معلّقةٍ بالله وحده.

أمراض القلوب التي يعالجها هذا الجزء..

- هذا الجزء يعالج قبل كل شيء مرضَ تزكية النفس والغفلة عن عيوبها؛ ذلك الداء الخفي الذي يجعل الإنسان يرى نفسه دائماً في موضع الصواب، ويُحمّل الآخرين وحدهم أسباب الخطأ، فيأتي البيان القرآني قاطعاً للوهم ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ليُعيد القلب إلى حقيقة ضعفه، ويُعلمه أن النفس إذا لم تُربَّ بالوحي صارت أمّارةً بالسُّوء، وأن النجاة ليست في الثقة العمياء

بالنفس بل في الالتجاء إلى رحمة الله، فتنكسر حدّة الغُرور، ويُفتح باب المحاسبة الصادقة.

- ويعالج مرضَ العُجب بالتمكين والاغترار بالمكانة؛ إذ قد يظن القلب أن المنصب دليل الرضا، أو أن النجاح شهادة استحقاق مطلق، فيُذكّره السياق أن التمكين فضلٌ ورحمة ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾، وأن كل علمٍ محدودٌ مهما اتسع ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، فيتعلّم العبد أن يبقى خائفاً من التقصير وهو في أعلى درجات النجاح، وأن ينسب الفضل إلى الله لا إلى ذاته، فيبرأ القلب من سُكر القوة وسُعار الأنا.
- ويعالج مرضَ الحقد والرغبة في الانتقام عند القدرة؛ ذلك الذي يختبئ في القلب سنواتٍ ينتظر فرصة الردّ، فيُقدّم نموذج العفو المنضبط ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، فيتربّى القلب على أن النصر الحقيقي ليس في إذلال الخصم بل في تطهير الداخل من الرَّغبة في التشفي، وأن من اتقى الله وصبر فإن الله لا يُضيع أجره، فيهدأ ثأر النفس وتعلو قيمة الإصلاح.
- ويعالج مرضَ التعلق بالأسباب والاعتماد عليها اعتماداً قلبياً؛ حين يتحول التخطيط والاحتياط إلى عبادةٍ خفية، فيُغلق القرآن هذا الباب بقوله ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، ويُرسّخ في القلب أن الحكم لله وحده ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فتتحرر النفس من عبودية الوسائل، وتأخذ بالأسباب دون أن تتوكل عليها، فيُشفى القلب من قلق النتائج ومن الخوف المرضي من المستقبل.
- ويعالج مرضَ اليأس والقنوط عند اشتداد البلاء؛ ذلك الذي يطفئ نور الرجاء ويُقنع صاحبه أن الأبواب أُغلقت، فيأتي النداء الحاسم ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، ويُعلّم القلب أن الشكوى تكون إلى الله لا اعتراضاً عليه ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، فيتحول الألم إلى عبودية، والحزن إلى رجاء،

ويُشفى القلب من القنوط الذي يُفسد العقيدة قبل أن يُفسد المزاج.

- ويعالج مرضَ القلق والاضطراب الداخلي.. الذي يجعل الإنسان رهينةً لتقلب الأحداث، فيُعيده إلى مصدر الطمأنينة الحقيقي ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، فيتعلّم أن السَّكينة ليست في زوال الابتلاء بل في حضور الذكر، وأن القلب إذا امتلأ ثقةً بالله لم تبتلعه العواصف، فيبرأ من التشتت ويستقر على يقين.
- ويعالج مرضَ الإيمان المشوب بتعلقات خفية أو شركٍ عمليٍّ في التوكل والمحبة والخوف؛ إذ يُنبّه إلى خطورة الإيمان الذي لا يصفو ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، فيُعيد القلب إلى التوحيد الخالص، فلا يجعل مع الله شريكاً في تعلقه ولا في رجائه ولا في خوفه، ويُطهر باطنه من الالتفات إلى غير الله.
- ويعالج مرضَ الاستغراق في الدنيا ونسيان الآخرة؛ ذلك الذي يُضعف الضَّمير ويُغري بالانحراف، فيُذكّر بأنَّ الدنيا متاعٌ عابر ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾، وأن المصير يوم يُجزي الله كل نفسٍ ما كسبت، فيستعيد القلب توازنه بين العمل للدنيا والاستعداد للقاء الله.

فهذا الجزء يعالج أمراض القلب الكُبرى:

الغرور، والعُجب، والحقد، والتعلق بالأسباب، واليأس، والقلق، والشرك الخفي، والاغترار بالدنيا؛ ليُخرج منها:

قلباً موحّداً، خاشعاً، متوكّلاً، راجياً، ثابتاً على الكلمة الطيبة، مستعداً أن يختم حياته بالدعاء الصادق ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق: أسئلةُ مواجهةٍ لا معلومات

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

١) هل أقرأ ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ وأشعر أنها تعنيني فعلاً، أم أظنُّ أن المشكلة دائماً في غيري؟

٢) هل أملك شجاعة الاعتراف بأن في داخلي نفساً تحتاج تربيةً مستمرة لا ثناءً دائماً؟

٣) حين أُعطى منصباً أو يُفتح لي باب نجاح، هل أتذكر ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾؟ أم أتعامل مع عطايا الله وكأنها شهادة استحقاقٍ نهائية لذاتي؟

٤) عندما تضيق عليّ الأسباب، هل أستحضر ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فيهدأ قلبي؟ أم أعيش حالة اعتراضٍ خفيّ لأن الأمور لم تجرِ كما أردت؟

٥) إذا طال البلاء، هل أسمع النداء ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ فأتمسك بالرجاء؟ أم أسمح لليأس أن يتسلل إلى قلبي باسم الواقعية والتجربة؟

٦) هل أبحث عن الطمأنينة في الذكر مصداقاً لقوله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾؟ أم أفتش عنها في تغيّر الظروف لا في تغيّر علاقتي بربي؟

❖ أين انكشف قلبي؟

١) انكشف قلبي حين ضاق صدري بفضل غيري ونجاحه، ولم أستحضر أن الفضل بيد الله.. لم أسلّم أن العطاء رحمةٌ يجريها الله حيث يشاء لا حيث أريد.

٢) انكشف قلبي عند القدرة، حين تذكرت الإساءة القديمة ولم أستطع أن أقول بصدق ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.. اكتشفت أن في داخلي بقايا رغبةٍ في الانتقام لم تُطهَّر بعد.

٣) انكشف قلبي حين تشبثتُ بالأسباب كأنها المنقذ الوحيد.. لم أُسلّم تسليماً

كاملاً بأن ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ حقيقةٌ تعلو فوق كل تخطيط.

٤) انكشف قلبي حين تسرّب إليه اليأس في لحظة انتظارٍ طويلة.. لم أُحسن الظن بالله كما ينبغي، ولم أستحضر سعة رحمته.

٥) انكشف قلبي حين اهتزّت سكينتي بسبب كلمةٍ أو موقف.. دلّ ذلك على أن قلبي لم يثبت تماماً على أصل الكلمة الطيبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾.

❖ أيُّ آيةٍ أربكتني؟

١) أربكتني ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.. جعلتني أتساءل: هل في قلبي تعلّقٌ خفيّ بغير الله في الخوف أو الرجاء أو الاعتماد؟

٢) أربكتني ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.. هل أنتظر تحسّن الخارج دون أن أبدأ بإصلاح الداخل؟

٣) أربكتني ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.. هل أغترّ بما أعلم وأغفل أن علمي محدودٌ أمام علم الله تعالى؟

٤) أربكتني ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.. هل أعيش مطمئناً إلى تأجيل الحساب وكأن التأجيل إهمال؟

٥) أربكتني ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾.. هل يأسي السابق كان تقصيراً في معرفة ربي أكثر منه ثقلاً في الواقع؟

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) أؤجّل محاسبة نفسي بصدق، وأكتفي بتبرير مواقفي بدل إصلاحها.. لم أبدأ بعد رحلة مواجهة النفس كما تقتضي ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾.

٢) أؤجّل العفو الصادق عمّن أساء، وأحتفظ بذاكرة الألم... لم أُدرّب قلبي عملياً على معنى ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

٣) أؤجّل تصحيح توكلي، فأكثر الحديث عن الثقة بالله وأقلّل من حضورها في قلبي... ما زلت أتعثر في معنى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عند أول اختبار.

٤) أؤجّل الانتظام في ذكرٍ يثبت قلبي.. أبحث عن الطمأنينة دون أن ألتزم بطريقها الذي رسمته الآية ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

٥) أؤجّل إعادة ترتيب أولوياتي بين الدنيا والآخرة.. أعيش كأن المتاع دائم، ولم أستحضر بعمق أن ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾.

هذا الاختبار ليس لزيادة المعلومات، بل لخلخلة القلب؛ لأن العبرة ليست أن نفهم القصة، بل أن نعرف أين نحن منها، وهل تغيّر فينا شيء بعد أن مرّت هذه الآيات على مسامعنا.

خطة التغيير: طريقٌ قصير... لكنه صريح

❖ ابدأ بكسر الوهم لا بكثرة الأعمال: اجلس مع نفسك جلسة صدق، وقلها كما قال القرآن ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؛ لا تُجمِّل عيوبك ولا تُبرِّر انفعالاتك، فالتغيير يبدأ باعترافٍ واضحٍ لا بشعورٍ عامٍّ بالتقصير.

❖ صحّح نيتك قبل أن تُصلح صورتك: اسأل نفسك: لمن أعمل؟ ولمن أغضب؟ ولمن أفرح؟ ثم أعد توجيه القلب ليكون قصده وجه الله وحده، فالثبات ثمرة إخلاصٍ لا ثمرة انضباطٍ شكلي.

❖ خفّف تعلُّقك بالأسباب... وزد تعلُّقك بالله: خطّط وخذ بالأسباب، لكن ذكّر قلبك دائماً ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ لا تجعل النتائج معيار رضاك عن نفسك ولا عن ربك، بل اجعل معيارك صدق السَّعي.

❖ أغلق باب اليأس إغلاقاً نهائياً: إذا تأخر الفرج أو طال البلاء، فلا تسمح لفكرة القنوط أن تستقر، وردّد بيقين ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾؛ الرجاء ليس شعوراً عاطفياً بل موقفٌ عقديٌّ ثابت.

❖ درِّب قلبك على العفو العملي لا النظري: اختر موقفاً واحداً تؤجل فيه الانتقام وتقدّم فيه الإحسان، مستحضراً معنى ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾؛ فالعفو تدريبٌ للنفس على التحرر من ثقل الماضي.

❖ ثبّت ورداً يومياً من الذكر لا تفاوض فيه: لا تبحث عن طمأنينةٍ بلا غذاء، واجعل لنفسك وقتاً ثابتاً تستحضر فيه قوله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾؛ القلوب تُشفى بالاستمرار لا بالاندفاع المؤقت.

❖ ابدأ التغيير من داخلك قبل مطالبة غيرك به: بدل أن تنشغل بتبديل الواقع الخارجي، طبّق قاعدة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ غيّر عادةً واحدة، أصلح خُلُقاً واحداً، ثبّت عبادةً واحدة.

❖ ذكّر نفسك يومياً بحقيقة الدنيا والآخرة: اقرأ آيات المصير، وتأمل أن الدنيا متاعٌ عابر ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾؛ حين يصغر المتاع يكبر الهدف، وحين يكبر الهدف تستقيم الخطوات.

❖ اختم يومك بدعاء الخاتمة لا بدعاء الإنجاز: اجعل أعظم أمنيتك أن تلقى الله سليم القلب، مردداً بصدق ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ فنجاح الطريق ليس في كثرة الخطوات، بل في حسن النهاية.

هذه الخطة قصيرة لأنها واضحة:

١. **اعترافٌ صادق،**
٢. **توحيدٌ مُصحَّح،**
٣. **رجاءٌ ثابت،**
٤. **ذكرٌ دائم،**

٥. عفوٌ عملي،

٦. وإصلاحٌ يبدأ من الداخل...

ومن سار فيها بصدقٍ تغيّر، ولو كانت خطواته قليلة.

خاتمة وجدانية مزلزلة

وفي نهاية هذه الرحلة... لا يبقى بينك وبين نفسك إلّا سؤالٌ واحدٌ لا مهرب منه: هل خرجتَ من هذه الآيات بقلبٍ آخر... أم بعينٍ امتلأت دموعاً ثم عادت كما كانت؟ لأن القرآن لا يريد لك إعجاباً بالقصة، بل انقلاباً في الداخل؛

١) يريدك أن تقف أمام نفسك كما وقفت بين يدي قوله تعالى ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ فتسقط عنك طبقات التزيين، وتكتشف أن أعظم معاركك لم تكن مع الناس، بل مع نفسك التي تحتاج كل يومٍ إلى رحمة ربها.

٢) ويريدك أن تفهم أن التمكين ليس نهاية الطريق بل بدايته، وأن الفضل إذا جاءك فقل كما قال الصالحون ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، فلا تنتفخ عند العطاء، ولا تنكسر عند المنع، لأن الحكم لله وحده ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وأن الأسباب مهما عظمت لا تُغني عن مشيئته ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، فتهدأ روحك من عبودية النتائج، وتتحرر من سجن القلق.

٣) ويريدك أن تتربى على الرجاء الذي لا ينطفئ، حتى في أشد اللحظات ظلمة، فتسمع النداء يخترق قلبك ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، فتعلم أن اليأس ليس قدراً بل اختيار، وأن الشكوى إذا كانت إلى الله صارت قرباً ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، وأن الطمأنينة ليست في زوال الألم بل في امتلاء القلب بذكره ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

هذا الجزء لا يتركك بين قصةٍ وعبرة، بل يضعك أمام مصيرٍ وموقف؛ يُذكّرك أن الكلمة التي في قلبك إما أن تكون طيبةً ثابتةً تؤتي أكلها، وإما أن تكون

خبيثةً لا قرار لها، وأن النهاية ليست في تفاصيل الطريق بل في لحظة الوقوف بين يدي الله ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، فكل خطوةٍ محسوبة، وكل نيةٍ مكشوفة، وكل دمعةٍ معلومة.

فإن أردت أن تلخّص الرحلة كلها في دعاءٍ واحد، فاجعله دعاء عبدٍ لا يغتر بعمله ولا يأمن مكره، ولا ييأس من رحمته، يرفع يديه بقلبٍ منكسرٍ لكنه ثابت، ويقول كما قال يوسف بعد الملك والاختبار والنجاة ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾... فهذه هي الغاية، وما سواها تفاصيل.

روح الرسالة التربوية والعقدية في هذا الجزء

١) ابدأ بإصلاح نفسك قبل أن تنشغل بإصلاح غيرك: الطريق لا يبدأ بتشخيص أخطاء الناس بل بالاعتراف الداخلي ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؛ فالقلب الذي لا يحاسب نفسه لن يثبت على الحق طويلاً.

٢) التمكين ليس دليلاً على الرِّضا بل اختبارٌ للعدالة: إذا فُتح لك بابٌ فاذكر أن الفضل رحمة ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾؛ النجاح امتحانُ أمانةٍ لا وسامُ تفوّقٍ دائم.

٣) العفو عند القدرة قمّة القوة لا علامة ضعف: النصر الحقيقي أن تقول بقلبٍ سليم ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾؛ لأن تحرير نفسك من الانتقام أعظم من الانتصار على خصمك.

٤) الأسباب تُؤخذ... لكن القلوب لا تتعلق إلا بالله: التخطيط واجب، لكن السكينة في قوله ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ فلا تجعل النتائج مقياس إيمانك.

٥) اليأس خللٌ عقدي لا مجرد حالة نفسية: حين تسمع ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ فافهم أن الرجاء عبادة، وأن القنوط إساءة ظنّ بربٍّ واسع الرحمة.

٦) الحزن لا ينافي الإيمان إذا وُجّه إلى الله: الدمعة إذا خرجت في ظل ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ صارت عبادة، لا اعتراضاً ولا سخطاً.

٧) الطمأنينة لا تُشترى بتغيّر الظروف بل بحضور الذكر: القاعدة المحكمة ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾؛ من فقد الذكر فقد السَّكينة ولو امتلك الدنيا.

٨) لا تغتر بعلمك ولا بمنصبك: تذكّر دائماً ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ فتواضعك يحفظك من السقوط الذي يصيب المغرورين.

٩) التغيير يبدأ من الداخل لا من الظروف: لن يتبدّل واقعك وأنت ثابتٌ على عاداتك؛ فالوعد صريح ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

١٠) الحق قد يعلو عليه الباطل لحظةً... لكنه لا يثبت: لا تنخدع بضجيج الفتن؛ فالميزان القرآني واضح ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾.

١١) الإيمان ليس كلمةً عابرة بل أصلٌ ثابت: القلب الذي ثبت على التوحيد يشبه ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾؛ ثباتٌ في الجذر وسموٌّ في الأثر.

١٢) الدنيا مرحلةٌ لا غاية: لا تجعل المتاع يحجبك عن المصير، فالحقيقة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾؛ والميزان النهائي يوم الحساب.

١٣) حقيقة التوحيد أن يكون الله وحده ملجأك ومآلك: أن تعمل وتدعو وتنتظر وأنت تقول بصدق ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾؛ فلا قلبٌ منقسم ولا رجاءٌ موزّع.

١٤) غاية الطريق ليست النجاح الدنيوي بل حسن الخاتمة: كل الدروس تنتهي بدعاءٍ جامعٍ يختصر الرحلة ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ فهذه هي الخلاصة التي تسبق كل إنجاز.

هذه هي روح الرسالة:

- **قلبٌ موحّد،**
- **نفسٌ مُهذَّبة،**
- **عقلٌ بصير،**
- **عملٌ منضبط،**

- **ورجاءٌ لا ينقطع...**

حتى يلقى العبد ربَّه وهو ثابتٌ على الكلمة الطيبة.

هذا الجزء لا يحدّثك عن يوسف عليه السَّلام بوصفه بطلاً نجح؛ بل يحدّثك عن "الإنسان" حين ينجو من أخطر سجنٍ في الوجود: سجن النفس... فقبل أن يفتح الله أبواب القصور يفتح باب الصدق في الداخل، وقبل أن يمنحك مقعداً في الأرض يختبرك:

١. هل تُبرّئ نفسك أم تعرفها؟
٢. وهل تفرح بالتمكين أم تخاف منه؟
٣. وهل تُحسن حين تقدر كما كنت تُحسن حين تُقهر؟

هنا ترى أن النجاة ليست أن تخرج من السِّجن الحديدي، بل أن تخرج من سجن الهوى، وأن التمكين الحقيقي ليس أن يهابك الناس، بل أن يثبت قلبك على الإحسان، وأن أعظم انتصار ليس أن تُسقِط خصومك، بل أن تقول وأنت قادر: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ثم ترفعهم إلى الله لا إليك: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

سؤالُ مواجهةٍ واحدٌ يهزّ القارئ قبل الانتقال للجزء التالي: ما سِجنُك الحقيقي اليوم؟

١. أهو سجنُ شهوةٍ تُدارِيه،
٢. أم سجنُ غضبٍ تُبرّره،
٣. أم سجنُ صورةٍ تُحافظ عليها،
٤. أم سجنُ ضغينةٍ تُطعمها سرّاً...

ثم اسأل نفسك بصدقٍ موجع:

لو مكّنني الله تعالى الليلة... هل سأكون "مكيناً أميناً" كما قال الملك

ليوسف ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾؟ أم سأُفتَضح لأنني لم أتهذّب إلا وأنا ضعيف؟

الترابط بين الجزأين ١٢ - ١٣

❖ الترابط الموضوعي بين الجزأين (١٢ – ١٣):

١) الجزء الثاني عشر يُجسّد سُنن الله تعالى في الواقع الإنساني من خلال قصة يوسف عليه السَّلام؛ فيُريك الابتلاء وهو يتدرّج من الجُبّ إلى السِّجن إلى التمكين..

بينما الجزء الثالث عشر يُحوِّل هذا المشهد القصصي إلى قواعد عامة تحكم الأفراد والأمم، فيصوغ قانون التحول بصيغةٍ شاملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فينتقل المعنى من قصة فرد إلى سنّة أمة.

٢) سورة يوسف تُعلّمك أن العاقبة تتشكّل عبر مراحل خفية لا تُفهم في بدايتها ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾، وسورتي الرعد وإبراهيم يوسّعان هذا الإدراك ليشمل الكون كلّه، حيث تجري المقادير ضمن سلطانٍ مطلق ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾، فلا يعود التمكين حدثاً استثنائياً بل تجلّياً لهيمنة الله على الأسباب.

٣) في يوسف يظهر الابتلاء بوصفه طريق اصطفاء لا علامة هجر، وفي إبراهيم يُبيِّن أن الغاية من الرسالات إخراج الناس من الظلمات إلى النور ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، فيكتمل المعنى: البلاء مرحلة، والهداية مقصد، والسنن طريق بينهما.

❖ الترابط العقدي بين الجزأين:

١) يوسف يُرسِّخ عقيدة التوحيد في لحظة الفتنة ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾، ويُظهر التوحيد توكّلاً واستعانةً وصبراً جميلاً ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾، ثم تأتي الرعد لتربط الطمأنينة بذات المصدر العقدي ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾،

فيتضح أن السكينة ثمرة توحيدٍ لا ظرفٍ خارجي.

٢) يوسف يُعلّمك أن الغلبة لله ولو بدا غير ذلك في ظاهر المشهد ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾، والرعد تُقرّر الهيمنة ذاتها على مستوى الكون والقدر ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، فتكتمل صورة القهر الإلهي علماً وقدراً وتدبيراً.

٣) في يوسف تتجلّى عقيدة الرجاء وعدم اليأس ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، وفي إبراهيم يثبّت الله أهل الإيمان بالكلمة الثابتة ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فيجتمع الرجاء والثبات ضمن إطار عقدي واحد: الثقة بوعد الله وعدم الارتهان للظاهر.

❖ الترابط البياني بين الجزأين:

١) يوسف تأتي بسردٍ قصصيٍّ متدرّج يُنضج المعنى عبر الأحداث والحوار، بينما الرعد وإبراهيم تنتقلان إلى البيان المكثّف الذي يصوغ القصة في قوانين عامة وآيات كونية؛ فالقصة تتحول إلى قاعدة، والمشهد الجزئي يصير خطاباً شاملاً.

٢) في يوسف تتكرّر ألفاظ الغلبة والتدبير والتمكين، وفي الرعد تتكرّر مفردات القدرة والتصريف والتقليب الكوني، ليبقى المعنى البياني واحداً: سلطان الله محيط، سواء في تدبير حياة عبدٍ واحد أو في تصريف الرعد والبرق والجبال.

٣) يوسف تُغلق بوعيٍ بحكمة الله في المآلات، والرعد تفتتح بتقرير علوّ القرآن وسموّ الحق ﴿المر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، فينتقل البيان من "قصة تثبّت القلب" إلى "وحيٍ يثبت القلوب" عبر آيات الكون والنفس.

❖ الترابط الوجداني بين الجزأين:

١) يوسف يداوي قلبك وأنت داخل الجُبّ، ويُعلّمك أن تشكو إلى الله لا إلى ما يسخطه: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، والرعد تعطيك العلاج

الدائم لهذا القلق ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، فيتحول الحزن إلى ذكر، والاضطراب إلى سكينة.

٢) يوسف يُربّي فيك الرجاء عند انسداد الأبواب، والرعد تُربّيك على تغيير الداخل قبل انتظار تغير الخارج ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، فينتقل الوجدان من انتظار الفرج إلى صناعة الاستقامة.

٣) يوسف يجعلك ترى النجاة تمشي على قدمين بعد سنواتٍ من الغياب، وإبراهيم يذكّرك أن النور ليس مرحلةً عابرة بل انتقالٌ دائم من ظلمةٍ إلى هداية ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، فيصير طريق يوسف قصتك أنت:

- **من خوفٍ إلى توكل،**
- **ومن ألمٍ إلى يقين،**
- **ومن اضطرابٍ إلى ثباتٍ في القول والعمل.**

نورُ الإحسان... حين يفيض القلب رغم تعبه

ليس الإحسان أن تُعطي حين يكون قلبك مرتاحاً، ويدك ممتلئة، وظروفك مهيّأة؛ فذلك أمرٌ يقدر عليه كثير من الناس، لكن الإحسان الحقيقي يظهر حين تُعطي وأنت متعب، وتُواسي غيرك وقلبك يحمل ألمه، وتُضيء درب الآخرين وفي داخلك شيءٌ من العتمة... هناك يبدأ نور الإحسان الحقيقي.

يوسف عليه السَّلام كان في السجن، بعيداً عن أهله، مظلوماً لا يعرف متى يخرج، ومع ذلك لم يمنعه ألمه من أن يكون نافعاً لمن حوله، حتى قال له من كانوا معه: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فكأنَّ القرآن يريد أن يقول لنا إن الإحسان لا ينتظر اكتمال الظروف، ولا يؤجَّل حتى يهدأ القلب وتستقيم الحياة، بل قد

يولد الإحسان في قلب المحنة نفسها... وهذا درسٌ عظيم لكل من يظن أن الخير لا يخرج إلّا من قلبٍ مرتاح؛ فقد تمرّ بك أيامٌ ثقيلة، وقد يحمل قلبك همّاً أو تعباً أو حيرة، لكن باب الإحسان لا يُغلق، لأن الإحسان في جوهره ليس وفرة حالٍ بل صفاء قلب، وليس فراغ وقتٍ بل صدق نية.

قد يكون الإحسان ابتسامةً تُخفف عن إنسانٍ أنهكه القلق، أو كلمة طمأنينةٍ لقلبٍ خائف، أو صدقةً يسيرةً تخرج من يدٍ لا تملك الكثير، أو دعاءً صادقاً لأخٍ بظهر الغيب؛ أعمالٌ صغيرة في ظاهرها، لكنها قد تكون نوراً كبيراً في حياة إنسانٍ آخر، وربما كانت سبباً في تغيير يومه كله.

والعجيب أن القلب الذي يُحسن إلى الناس كثيراً ما يجد في ذلك شفاءه هو؛ فكأنَّ الله تعالى يجعل الإحسان طريقاً مزدوجاً للنور: نوراً يصل إلى الآخرين، ونوراً يعود إلى القلب الذي أعطى.

لهذا لا تجعل الخير في حياتك مشروطاً براحتك أو فراغك أو اكتمال ظروفك، بل اجعل الإحسان خُلُقاً دائماً في طريقك؛ تُطعم من يحتاج، وتُعين من يطلب، وتجبر خاطراً منكسراً، وتُدخل سروراً على قلبٍ مثقل، لأن القلوب التي تُحسن للناس هي أقرب القلوب إلى رحمة الله.

وتذكّر دائماً أن أعظم الكرم ليس أن تعطي من فائضك فقط، بل أن تعطي أحياناً رغم تعبك، ورغم ما في نفسك من همّ، ثقةً بأن الله لا يضيع إحسان المحسنين، وأن كل خيرٍ تبذله – صغيراً كان أو كبيراً – محفوظٌ عند من قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الجزء الرابع عشر: حين يَثبُتُ الوحي... ويسقطُ الوهم

المدخل التأسيسي للجزء

ليس هذا الجزء صفحةً تُفتح لتُقرأ، بل بابٌ يُفتح على حقيقةٍ تُعيد ترتيب الداخل من جذره؛ حقيقةٍ واحدةٍ تتكرر بصورٍ متعددة حتى لا يبقى للقلب مخرجٌ يختبئ فيه:

١) أن الله هو المالكُ وحده،

٢) وأن الوحي حقٌّ ثابت لا تهزّه سُخريةُ السَّاخرين،

٣) وأن الدنيا مهما زُخرفتْ لا تُنجي من سُنن الله،

٤) وأن الإنسان إذا لم يتعلّق بالهدى صار خصيماً يُجادل لا ليهتدي بل ليهرب،

٥) وأن الذين يستهزئون بالذكر لا يملكون إلغاءه ولا تعطيل أثره، لأن الذي أنزله هو الذي تعهّد بحفظه، فليس القرآن في هذا الجزء "خبراً" تُجادله العقول، بل "ميزاناً" تُوزن به القلوب،

فمن ثقل فيه صدقُه نجا، ومن خفّ فيه يقينُه تلاعبت به الشُّبهات والأهواء، ثم ظنّ أنه يتقدّم وهو في الحقيقة يتآكل من الداخل.

تبدأ الحِجْر بإشارةٍ تمسك قلبك من أول خطوة: هذا كتابٌ وقرآنٌ مبين، لا غموض فيه لمن طلب الهدى، ولا التباس فيه لمن صدق مع ربه، ثم يفتح لك مشهداً موجعاً من مشاهد القيامة: لحظةُ ندمٍ متأخرٍ يتمنى فيها الكافر لو كان مسلماً، لا لأن الحق خفيٌّ ثم ظهر، بل لأن الهوى كان حاضراً فغطّى عليه، ولأن الأمل الطويل كان يخدّر صاحبه حتى جاءه العِلم الذي لا ينفع معه التمنّي، فالله يأمر نبيَّه أن يتركهم يأكلون ويتمتعون ويُلهِهم الأمل، لأنهم اختاروا أن يُسكّنوا خوفهم باللّذة لا باليقين، وأن يؤجلوا مواجهة الحق إلى "وقتٍ لاحق" لا يأتي، ثم يُقرّر الجزء قانوناً لا يُكسر: لا قرية تهلك عبثاً، ولا أُمَّة تُباد

صدفةً، لكل شيء كتابٌ معلوم، ولكل أجلٍ حدٌّ لا يُقدَّم ولا يُؤخَّر، فإذا جاء الوقت انتهى اللَّعب، وانطفأ التمويه، وسقطت الأعذار دفعةً واحدة.

ثم يريك كيف يتعامل قلبٌ مريض مع الوحي: لا يناقش الرسالة بما فيها، بل يطعن في حاملها، فيقولون: يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون، ثم يطالبون بآيةٍ على مقاس أهوائهم: لولا تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين، فيأتيهم الجواب صارماً بلا انفعال: الملائكة لا تنزل لهواك، إنما تنزل بالحق، ولو نزلت حينئذٍ لانتهت المهلة ولم يُنظروا، ثم تأتي الآية التي تُقيم في هذا الجزء كالعمود الفقري: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؛ فلا تظن أن السُّخرية تُسقط الوحي، ولا أن كثرة المستهزئين تُضعف الحق، ولا أن ضجيج الباطل يستطيع أن يخرق عهد الله، إنما هي سُنّة تتكرر: ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون، ثم تُوضع الحقيقة المؤلمة في موضعها: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي ليس الإشكال في الدليل وحده، بل في قلبٍ أصرّ على الإجرام حتى صار الكفر مسلكاً داخلياً، ولو فُتح لهم بابٌ من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سُكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون... لأن الذي قرر الهروب سيجد دائماً اسماً جديداً لهروبه.

ثم ينتقل الجزء من مشهد "الجدل" إلى مشهد "الآيات"؛ لا ليعرض معلوماتٍ كونية، بل ليُسقط من القلب وثنَ الغفلة، فترى السماء ببروجها وزينتها وحفظها من كل شيطان رجيم، ومن استرق السَّمع أتبعَه شهاب مبين، وكأنَّ الرسالة تُقال للقلب قبل الأذن: كما أن السماء محفوظة، فالدين محفوظ، وكما أن الشيطان يُطرَد بالشِّهاب، فالشُّبهة تُطرد بالنور إذا صدق صاحبه، ثم تُمدّ الأرض وتُلقى فيها الرواسي ويُنبَت فيها من كل شيء موزون، وتُجعل فيها المعايش ومَن لستم له برازقين، ثم يُقفل على الوهم بابُه الأخير: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾؛ فلا رزقَ بالقلق، ولا زيادةَ

بالتسخُّط، ولا حفظَ بالتعلّق بالأسباب وحدها، بل خزائنٌ عند الله، وتنزيلٌ بقدر معلوم، ثم يجيء المطر بإذن الله، تسقى به النفوس قبل الأرض: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾... لأنك مهما ملكت لا تملك أصل العطاء، ثم تُختم هذه اللوحة بجملةٍ تقصم ظهر الغرور: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾؛ كل شيءٍ إلى زوال، والوارث الحقيقي هو الله تعالى، فكيف يطمئن قلبٌ إلى ما لا يثبت ويترك ما لا يزول؟.

ثم يعود الجزء إلى أصل الداء: قصة الإنسان الأولى، لا لتُحكى، بل لتُفهم؛ خُلِق الإنسان من صلصال من حمإ مسنون، وخُلق الجانُّ من قبل من نار السَّموم، ثم جاء الأمر الإلهي بالسجود لآدم بعد تسويته ونفخ الروح فيه، فسجدت الملائكة كلهم أجمعون إلّا إبليس، هنا يُعرّي القرآن أول معركةٍ في التاريخ: ليست معركة "دليل" بل معركة "كبر"، إبليس لم يقل: الدليل ضعيف، بل قال: لم أكن لأسجد لبشر... فالعقدة ليست في نصٍّ يُناقَش بل في نفسٍ تتعالى، ثم يأتي الحكم: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، ثم يطلب إبليس الإمهال إلى يوم يُبعثون فيُمهَل إلى يوم الوقت المعلوم، ثم يعلن خطته: لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، لكن الله يقطع عليه الطريق قطعاً يزرع في قلب المؤمن معنى العزة والثبات: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، ثم يرسخ القانون: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾... فالشيطان لا يملك القهر، إنما يملك التزيين، ومن صدق مع الله لا تُستعبد روحه بزينةٍ عابرة، ثم يُرسم المصير بلا غبش: جهنم موعدهم أجمعين، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وفي المقابل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾... فليست الجنة نعيمَ مكانٍ فحسب، بل نعيمُ قلبٍ طُهّر، ولا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين.

ثم يأتي ميزانٌ دقيق لا يختلّ: لا إفراطَ في الرجاء حتى يأمن العبد، ولا إفراطَ في الخوف حتى يقنط، بل خبرٌ رباني يَسوق القلب إلى الطريق المستقيم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾؛ فالقلب الذي يتوازن بين هذين لا يُخدَّر بالأماني ولا يُحرقه اليأس، بل يسير وهو يرى الله تعالى كما أراد أن يُعرّف نفسه لعباده: رحمةٌ تُرجى وعدلٌ يُخشى.

ثم يفتح الجزء نافذةً على قصصٍ ليست للتسلية، بل لتثبيت السُّنن: ضيفُ إبراهيم عليه السَّلام وبشارة الغلام العليم، والملائكة تقول له: لا تَوْجَل، بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين، فيجيب إبراهيم عليه السَّلام بكلمةٍ تُصلح داخل المؤمن كلما قاربته ظلمة اليأس: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّآلُّونَ﴾، ثم يُكشف مقصدهم: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدّرنا إنها لمن الغابرين، ثم يأتي مشهد لوط مع قومٍ فقدوا حياءهم قبل أن يفقدوا عقولهم، ويستبشرون بالضيوف، فيقول: ﴿إِنَّ هَـؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ﴾... لكن الشَّهوة إذا صارت ديناً لا تسمع نصحاً، ثم يقع القضاء: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، ثم يُقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾... أي ليست بعيدة عن طريقك، فالعبرة ليست في خرائب الأُمم، بل في خرائب القلوب حين تعاند، ثم تذكر أصحاب الأيكة وانتقام الله تعالى منهم، ثم أصحاب الحجر الذين كذبوا المرسلين، كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين، فليس الأمن في الحجر ولا في الجبل، إنما الأمن في طاعة الله، فلما جاءهم أمره أخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون.

ثم يختم الحِجْر بخاتمةٍ تُعيد معنى الرحلة كلها إلى مركز واحد: ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، والساعة لآتية، فالعاقل لا يبني عمره على باطلٍ وهو يعلم أن اللقاء قريب، ثم يُؤمر النبي بالصفح الجميل لا بضعفٍ

ولا بذلٍ، بل بوعدٍ ثابت: إن ربك هو الخلاق العليم، ثم يُذكِّر بأعظم هدية: سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، ويُقال له: لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم، ولا تحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين، فالمعيار ليس كثرة المتاع بل سلامة الطريق، ثم يأتي الأمر الذي يُثبّت الداعية ويُقيم الديانة في قلب كل من يحمل حقّاً بين ضجيج الباطل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، ثم وعدٌ يقطع الخوف من ألسنة الساخرين: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، ثم يواسيه الله تعالى وهو يعلم ضيق صدره بما يقولون، فيدلّه على الدواء الذي لا يُخلف: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾... فالثبات ليس شعوراً عابراً، بل عبادةٌ ممتدة حتى آخر نفس.

ثم تبدأ سورة النَّحل كأنها تكملةٌ للمعنى نفسه ولكن بلسانٍ آخر: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فليس الدين ردّة فعل على الأحداث، بل يقينٌ بأن أمر الله آتٍ لا محالة، ثم ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾، ثم تتوالى أدلة الخلق والرزق والتسخير لا لتغرقك في التفاصيل، بل لتردّك إلى سؤالٍ واحدٍ يكرره القلب الصادق كلما رأى نعمةً: من أين جاءت؟ فتكون الإجابة في كل مرة: من الله، خلق السماوات والأرض بالحق، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وكأنها صفعةٌ لطيفة: هذا الذي كان عدماً ثم صار خصيماً، فكيف يتطاول على خالقه بالجدل والاعتراض؟ ثم الأنعام فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، ثم يُلخّص الطريق كله في عبارةٍ تُنقّي القلب من التيه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾... فالسبيل

يقصد إليه لا يُخترع، والحق يُتبع لا يُعاد تشكيله على هوى الناس.

ثم ينزل الماء من السماء فيكون منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تسيمون، وينبت به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، واختلاف الألوان في الأرض، وتسخير البحر للحم الطري والحلية والفلك، وإلقاء الرواسي وأنهاراً وسبلاً وعلاماتٍ وبالنجم هم يهتدون... ثم تُقال الكلمة التي تهدم الصنم الأخير: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾، ثم يجيء الاعتراف الذي لا يملكه إلا الصادقون: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾، ثم يُفتح باب السَّريرة: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، فليس الإيمان شعاراتٍ علنية، بل صدقُ باطنٍ تحت علم الله، ثم يُقال عن المعبودات الباطلة: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، ثم يثبت الحق: إلهكم إله واحد، لكن قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة منكرة وهم مستكبرون، فلا جرم أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين.

ثم تُعرض حيلة المكذبين المتجددة: أناسٌ يُسألون: ماذا أنزل ربكم؟ فلا يجيبون بحثاً عن الحق، بل فراراً منه، فيرمون الوحيَ بتهمةٍ رخيصةٍ تستريح لها نفوس المكابرين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ ومن هنا يضعك القرآن أمام أخطر صور الشَّر: أن لا تكتفي بإضاعة نفسك، بل تحمل معك غيرك إلى التِّيه، فتخرج من دائرة الذنب الفردي إلى جريمة الإضلال، ولذلك يأتي الوعيد شديداً يُري القلب حقيقة "الأثر" الذي يتركه المضلِّل خلفه: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ثم لا يتركك القرآن مع مجرد تهديدٍ آخروي، بل يُريك سُنّةً تتكرر في التاريخ: مكرٌ يُبنى كالبُنيان، لكنه قائمٌ على وهمٍ، فإذا جاء أمر الله انهدم من أساسه؛ ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ

السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾... ثم يأتي المشهد الذي يفضح كل ادعاءٍ كان يختبئ خلف ضجيج الدنيا: يوم القيامة يُخزيهم الله تعالى، ويُسأل الذين جعلوا لله شركاء: أين شركائي الذين كنتم تشاقّون فيهم؟ فلا يبقى إلّا حكم العلم والحق، ويصبح الخزيُ عنواناً ثابتاً على جبين الكفر؛ ثم تُستكمل الرحلة إلى لحظةٍ لا تنفع فيها المراوغة: ملائكةُ الوفاة تأتيهم وهم ظالمو أنفسهم، فيتظاهرون بالاستسلام، ويقولون: ما كنا نعمل من سوء! فيأتي الجواب القاطع: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم يُقال لهم بلا تلطيفٍ ولا تأجيل: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وعلى الجانب الآخر، يفتح القرآن نافذةً لا يشوبها التباس: نفس السؤال يُسأل للمتقين، لكن الجواب يخرج من قلبٍ سليمٍ يعرف أن الوحي "خيرٌ" قبل أن يكون "تكليفاً"، وأنه "رحمةٌ" قبل أن يكون "حَكَماً": ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾، ثم تُصاغ المعادلة التي لا تخون صاحبها: إحسانٌ هنا... وحسنةٌ هنا... وعاقبةٌ هناك؛ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، وتجيء صورة النهاية التي يتمنى القلب أن يكون منها: ملائكةٌ تتوفاهم طيبين، تستقبلهم بكلمةٍ هي أمانُ النهاية: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ ثم يعود القرآن ليوقظ الغافلين: هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك؟ إن التردد الطويل لا يُغيّر الحقيقة، وإنما يضاعف الحسرة، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، حتى إذا أحاطت بهم سيئات ما عملوا، انقلب ما كانوا يستهزئون به واقعاً يطوقهم.

ومن عمق هذا الاضطراب الوجودي يخرج اعتذارُ الشرك المكرور: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء... فيأتي القرآن ليعيد الميزان: وظيفة الرسل البلاغ المبين، وإقامة الحجة، وإخراج الناس من عبادة الطاغوت إلى عبادة الله، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ثم يُقال للناظر في

الأرض: انظر كيف كانت عاقبة المكذبين؛ لأن القصص هنا ليست للتسلية بل لتثبيت السُّنن، ومع ذلك لا يُكلِّف قلب النبي ولا قلب الداعية ما ليس له: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾، فالهداية هبةٌ من الله، والضَّلال اختيارٌ يحمل صاحبه تبعته.

ثم يطرق القرآن باباً آخر من أبواب الغفلة الكبرى: إنكار البعث مع كثرة الأيمان؛ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، فيأتي الرد الذي يرفع القضية من جدل البشر إلى وعد رب العالمين: ﴿بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾... والبعث ليس مجرد إعادة أجساد، بل بيانٌ للحقائق التي اختلفوا فيها، وكشفٌ لكذب من كفروا، ثم يُريك القرآن أن قدرة الله تعالى لا تحتاج إلى زمنٍ ولا إلى معالجةٍ ولا إلى تدرّج؛ فإذا أراد شيئاً أوجده بأمره:﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ ومن هنا يلتفت إلى سُنّةٍ من سُنن التمكين: الهجرة بعد الظلم ليست خسارةً عند الله، بل طريقُ حسنةٍ في الدنيا وأجرٍ أكبر في الآخرة، لمن جمع بين الصبر والتوكل: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ ثم يضع لك قاعدة العلم والاتباع: الرسالة جاءت على ألسنة رجالٍ يوحى إليهم، فإن جهلت فاسأل أهل الذكر، والوحي نزل لتبيين ما نُزِّل للناس لعلهم يتفكرون، لا ليُترك في حيز الشعارات.

وبين الفكرة والواقع يضع القرآن سؤال الأمان الكاذب: هل أمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون؟ أو يأخذهم في تقلبهم؟ أو يأخذهم على تخوف؟ ثم يفتح الباب الذي يحرر القلب من اليأس: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وبعد هذا التذكير بالمصير، يلفت القرآن نظرك إلى "توحيد الخضوع" في مشاهد الكون نفسها؛ الظلال تتفيأ عن اليمين والشمائل سُجّداً لله وهي داخرة، وكل ما في السماوات والأرض يسجد لله من دابةٍ والملائكة وهم لا يستكبرون، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا

يُـؤْمَرُونَ﴾؛ ثم يأتي النـداء الفاصـل الـذي لا يقبـل الشـراكة ولا التوزيـع: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، ومع هذا التوحيد يقرر القرآن أن الدين له وحده واصباً دائماً، وأن كل نعمةٍ في اليد والقلب من الله، فإذا مسَّ الضرّ فإليه تجأرون، ثم إذا كشف الضُّر إذا فريقٌ منكم بربه يشركون؛ إنها المشكلة المتكررة: رجوعٌ إلى الله وقت الكسر، ونسيانٌ له وقت العافية، ثم تمادٍ في التمتع يعقبه علمٌ يوقظ لكن بعد فوات.

ويُتابع القرآن تعرية الانحراف حين يجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقهم، ويُسألون عمّا يفترون، ثم يبلغ الانحراف ذروة القبح حين ينسبون إلى الله ما يكرهون لأنفسهم، ويجعلون له البنات سبحانه، فإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم... صورةٌ فاضحةٌ لتناقض الشرك وفساد حكمه، ثم يقرر القاعدة المحكمة: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾؛ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ ومع هذا الإمهال لا يتغير طبع الإنكار عند من أصرّ: يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها.

ومن هنا ينتقل القرآن بك إلى ساحة "الآيات" التي تُربّي العقل والقلب على رؤية المنعم لا مجرد النعمة؛ إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بعد موتها آيةٌ لقوم يسمعون، والأنعام فيها عبرةٌ: لبنٌ خالصٌ سائغٌ للشاربين يخرج من بين فرثٍ ودم، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً، ثم تأتي "آية النحل" التي تُشبه قصة الإنسان حين يهتدي: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾... سلوكُ السُّبل ذللاً، ثم يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للناس؛ وكأنَّ القرآن يقول: من أطاع وحي ربه سار ذللاً وخرج منه شفاءٌ ونفع للناس، ومن استكبر خرج منه فسادٌ وإضلال.

ثم يُذكّرك القرآن بدورة الحياة التي تكسر غرور القوة: خلقٌ ثم وفاة، ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً؛ ومع ذلك يختلف الناس في الرزق، فما الذين فُضلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء؛ وكأن التفاوت اختبارٌ لا امتيازٌ مطلق، ثم يُذكّرك بعطايا الاستقرار: الأزواج والبنون والحفدة والطيبات... ثم يسألك سؤال الإيمان الذي لا ينبغي أن يمرّ مرور العادة: أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون؟ وكيف يُعبد من دون الله ما لا يملك رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون؟ ثم يقرر ميزان الخطاب عن الله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾؛ لأن التشبيه بلا علمٍ بابُ انحرافٍ في الاعتقاد، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ثم يضرب القرآن مثلين يوقظان الفطرة ويعيدان ترتيب ميزان النظر في القلب، فيعرض أولاً صورة العجز المطلق في عبدٍ لا يملك من أمره شيئاً، ثم يقابلها بصورة إنسانٍ آتاه الله رزقاً حسناً فصار ينفق منه سراً وجهراً، فيضع السؤال الذي يهزّ الفطرة قبل أن يجيب عنه العقل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ﴾، ثم يأتي مثلٌ آخر يزيد الصورة وضوحاً حين يقارن بين إنسانٍ أبكم عاجزٍ لا يملك لنفسه نفعاً ولا لغيره خيراً، يثقُل على من يتولاه أينما وجّهه لا يأتي بخير، وبين رجلٍ مستقيمٍ يأمر بالعدل ويسير على صراطٍ مستقيم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ثم يرفع القرآن البصر من هذه المقارنات القريبة إلى الأفق الأعلى ليُذكّر بأن سلطان الله تعالى يحيط بكل شيء وأن الغيب كله بيده، وأن الساعة التي ينكرها المكذبون ليست بعيدة كما يتوهمون، بل هي عند الله أقرب مما يتصور الإنسان: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ

الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثم يعيد الإنسان إلى أول لحظةٍ في قصته حين خرج إلى الدنيا لا يعلم شيئاً، ليُذكّره أن العلم الذي يعتز به والقدرة التي يظنها من نفسه ليست إلَّا عطايا وهبها الله له: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ثم يلفت القرآن النظر إلى آيةٍ مُعلّقةٍ في السماء يراها الناس كل يوم لكنهم لا يتفكرون في سرّها، طيورٌ مسخّراتٌ في جو السماء لا يمسكها قانونٌ من قوانين البشر ولا قوةٌ من قواهم، وإنما يمسكها الله وحده: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ثم ينتقل بك القرآن من السماء إلى حياة الإنسان اليومية ليُذكّرك بنعمٍ أصبحت مألوفة حتى كأنها طبيعية لا تستحق التفكر، فيذكّر بنعمة السكن الذي يأوي إليه الإنسان ويستقر فيه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾، ثم يضيف إلى ذلك ما يقي الإنسان من الحرّ ومن الأخطار وما يهيئ له أسباب الحياة في الأرض: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، ثم تتجمع هذه الصور كلها في خلاصةٍ واحدة يريد القرآن أن يغرسها في القلب: أن هذه النعم المتتابعة ليست مجرد مظاهر للحياة، بل دلائل تقود الإنسان إلى معرفة المنعم، فإذا عرفه خضع له، وإذا خضع له استقام طريقه، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾؛ فإذا تولوا فليس على الرسول إلا البلاغ المبين.

ثم يفتح القرآن مشهد الحساب العام، مشهداً تهتزّ له القلوب قبل أن تتحرك فيه الأجساد، حين يُبعث من كل أُمَّةٍ شهيدٌ يشهد عليها بما كان منها، فلا يبقى لأحدٍ مجالُ إنكارٍ ولا موضعُ اعتذار، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ

أُمَّةٍ شَهِيداً﴾، ثم يُغلق باب الاعتذار على المكذبين: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، ويشتدّ المشهد حين يرى الظالمون العذاب ماثلاً أمامهم فلا يُخفف عنهم ولا يُمهلون: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، وحين يرى المشركون شركاءهم الذين عبدوهم من دون الله يتبرؤون منهم ويكذبون دعواهم: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَـؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وفي تلك اللحظة يسقط كلُّ ادّعاء، ويجد الجميع أنفسهم بين يدي الله خاضعين مستسلمين: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، ثم يُزاد العذاب على من جمعوا بين الكفر والإفساد: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، وفي مقابل هذا العدل الصارم يُذكّر القرآن بعظمة الكتاب الذي أنزله الله هدايةً ورحمةً وبياناً للناس، فيقول سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، ثم تأتي الآية الجامعة التي لخّصت ميزان الأخلاق في الشريعة كلّه في كلماتٍ قليلةٍ عظيمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ومن ميزان الأخلاق ينتقل القرآن إلى ميزان الوفاء، فيأمر بحفظ العهود وعدم العبث بالأيمان، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾، ثم يُحذّر من صورةٍ مؤلمةٍ تُبطل كل بناءٍ بدأه الإنسان، صورة امرأةٍ نقضت غزلها بعد أن أحكمته، فيقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً﴾، أي لا تجعلوا الأيمان وسيلةً للمكر والخداع واختبار الناس والعبث بثقتهم، ثم يقرر القرآن أن الاختلافات كلها ستعود في النهاية إلى يوم القيامة حيث يفصل الله فيها بالحق: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولهذا يُحذّر القرآن من جعل الأيمان مطيّةً للمكر فيقول: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ثم يضع الميزان الحقيقي للقيم والأعمال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾، ثم يقرر قاعدة الجزاء الإلهي التي لا تقوم على كثرة الحركة بل على جودة القصد والعمل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ومن هنا يجيء وعد الحياة الطيبة لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح، وعدٌ يتجاوز حدود الدنيا الضيقة إلى طمأنينة القلب وسكينة الروح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم يُعلّمك القرآن أدب التلقي نفسه قبل أن يُعلّمك المعاني، فيضع لك أول خطوةٍ في طريق القراءة: أن تدخل إلى القرآن مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم، لأن هذا الكتاب لا تُفتح أبوابه بقوة العقل وحدها، بل بصفاء القلب أيضاً، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، ثم يطمئن المؤمنين بأن الشيطان لا سلطان له على القلوب التي آمنت وتوكّلت على ربها، وإنما يمتد سلطانه إلى الذين فتحوا له باب التبعية والولاء، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، ثم يواجه القرآن شُبهة المتلاعبين الذين جعلوا من تبدُّل بعض الأحكام حجةً للطعن في الوحي فقالوا ساخرين إنما أنت مفتر، فيأتي الرد الإلهي الواضح بأن هذا القرآن منزلٌ من عند الله، وأن الذي جاء به هو روح القدس، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾، ثم يتكرر الاتهام السَّاذج فيقولون إنما يعلمه بشر، فيرد القرآن بأن اللغة نفسها تكشف كذب دعواهم،

لأن الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان، بينما هذا القرآن بلسانٍ عربيّ مبين: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾، ثم يقرر القرآن أن أصل المشكلة ليس في الدليل ولا في البيان، بل في القلوب التي أغلقت أبواب الهداية على نفسها، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، ثم يفتح القرآن باب العدل في موضع الإكراه فلا يسوي بين من نطق بالكفر مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان وبين من شرح بالكفر صدراً واطمأن إليه، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثم يبيّن سبب هذا الانحراف: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، ويكشف أثر هذا الاختيار في داخل الإنسان: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، ثم يختم هذا المشهد بالحقيقة التي لا مفرّ منها: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ومع ذلك لا يُغلق القرآن باب الرجاء، بل يفتح أفقاً من الرحمة لمن فُتن ثم عاد إلى الله فهاجر وجاهد وصبر، فيقول سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وتبلغ الرحلة ذروتها حين يُوضع كلُّ إنسانٍ أمام نفسه بلا وسائط ولا أعذار، يوم يقف المرء في ساحة الحساب لا يجادل عن أحدٍ ولا يحمل عن غيره شيئاً، وإنما ينشغل بنفسه وحدها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾، ثم يضرب القرآن مثلاً يهزُّ الغفلة ويكشف خطورة كُفر النِّعمة، فيُحدّث عن قريةٍ كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقها واسعاً رغداً من كل مكان، لا خوف يهددها ولا جوع يطاردها، ولكنها قابلت تلك النعم بالجحود والكفر،

فبدّل الله حالها وذاق أهلها مرارة الجوع والخوف جزاء ما صنعوا، قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، وقد جاءهم رسولٌ منهم يدعوهم إلى الله فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، ثم يعيد القرآن ضبط علاقة العبد بالنِّعم حتى لا تتحول إلى باب غفلةٍ أو طغيان، فيأمر بالأكل من الحلال الطَّيب مقروناً بالشُّكر، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، ثم يُبيّن المحرمات بوضوحٍ ويرفع الحرج عند الضرورة رحمةً بعباده من غير اعتداءٍ ولا تجاوز، ثم يأتي التحذير الذي يحمي الدين من عبث الألسنة وتلاعب البشر بالأحكام، فيقول سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، لأن هذا التلاعب ليس إلا متاعاً قليلاً يعقبه عذابٌ أليم، ومع ذلك يبقى باب الرحمة مفتوحاً لمن أخطأ بجهالة ثم رجع إلى الله وأصلح، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثم يُعرّفك القرآن بنموذجٍ فريدٍ جمع معاني الإيمان كلها في شخصٍ واحد حتى كأنه أُمَّةٌ كاملة، إنه إبراهيم عليه السَّلام الذي وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وكان شاكراً لأنعم الله، اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم: ﴿شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وآتاه الله في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ثم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملته الحنيفية الصافية، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾، ثم تُذكر قضية السَّبت لتبيّن أن التشديد إنما جُعل على الذين اختلفوا فيه، وأن الحكم الفصل في كل تلك الخلافات مؤجَّلٌ إلى يوم

القيامة حيث يقضي الله بينهم بالحق فيما كانوا فيه يختلفون... ثم يُختم هذا البناء القرآني بمنهج الدعوة وضبط النفس أمام الأذى، فيضع القرآن قاعدة الطريق لمن أراد أن يحمل رسالة الحق بين الناس، قاعدةً تقوم على الحكمة والرفق وحسن البيان، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فلا تكون الدعوة صِداماً أعمى ولا جدلاً قاسياً، بل بياناً هادئاً يقود العقول والقلوب إلى الحق؛ وإن وقع عدوانٌ من الآخرين فإن ميزان العدل حاضرٌ لا يضيع، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾، ولكن القرآن يفتح الباب الأعلى لمن ارتقى عن مجرد المقابلة بالمثل، فيدلُّ على طريقٍ أسمى وأكمل: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾، ثم يُعلّمك القرآن أن الصبر نفسه ليس قوةً نفسيةً مجردة يستخرجها الإنسان من ذاته، بل هو عطاءٌ يمدّ الله به عبده إذا صدق التوجه إليه، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، ولذلك يُطمئن الله نبيَّه فلا يحزن على إعراض المكذبين ولا يضيق صدره بما يمكرون، لأن خاتمة الطريق ليست مع الماكرين ولا مع المكذبين، وإنما مع أهل التقوى والإحسان، وهنا تأتي الجملة القرآنية التي تختصر رسالة هذا البناء كله في ميزانٍ واحدٍ يصلح أن يكون قاعدة حياة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

من العَدَمِ إلى الخُصومة... حينَ ينسى الإنسانُ أصلَه ويُخاصِمُ واهِبَه

يا لها من مفارقةٍ كبرى تُزلزلُ الكِبْرَ في جذورِه، وتكشِفُ هشاشةَ الادِّعاءِ في أعماقِه، وتعيدُ الإنسانَ من صخبِ ادِّعائه إلى صمتِ حقيقتِه الأولى...

هذا الذي كان عدماً محضاً لا اسمَ له في سجلِّ الوجود، ولا أثرَ له في صفحةِ الزمان، ولا حركةَ له في فضاءِ الحياة، لا سمعاً يلتقطُ الأصوات، ولا بصراً

يستقبلُ الصور، ولا عقلاً يُحلِّل، ولا إرادةً تختار... ثم شاء اللهُ جلَّ جلالُه فأوجده من نطفةٍ ضعيفةٍ مهينة، وسوَّاه، وعدَّله، وألبسه السَّمعَ والبصرَ والفؤاد، وأخرجه من ظلمةِ الرَّحم إلى نورِ الدنيا، وأجراه في سُلَّم الوجود درجةً درجةً، فإذا به يقف في ساحةِ الحياة قائماً بلسانٍ مُبين، وعقلٍ مُجادل، وحجّةٍ تُخاصم...

ويختصرُ القرآنُ الكريم هذه الصدمةَ الوجوديةَ في ومضةٍ واحدةٍ تهزُّ القلبَ هزّاً عميقاً: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾..

تأمَّل هذا الانتقالَ العجيب الممتدَّ بين نقطتين لا يجتمعان في ميزانِ الغرور... من نطفةٍ سائلةٍ لا تُرى إلا بمِجهرٍ دقيق... إلى خصيمٍ ظاهرٍ يُجادلُ ويُبين... من ضعفٍ ماديّ محضٍ لا يملك لنفسه دفعاً ولا نفعاً... إلى عقلٍ يقفُ في وجهِ الحقّ يُحاجج ويُعارض... من عدمٍ لا يُذكر في سجلّ الكائنات... إلى صوتٍ يرتفع بالحجّة وربما بالاعتراض على ربِّ الأرضِ والسماوات...

الفخامةُ هنا ليست في قوّةِ الإنسان، بل في فضحِ غرورِه... ليست في عظمةِ منطقه، بل في كشفِ تناقضِ موقفِه... كيف لمن لم يكن شيئاً مذكوراً أن يتكبّر على خالقِه؟ كيف لمن كان أثراً خفياً في ظلماتٍ ثلاث أن يقف في نورِ الحياةِ يُجادل في ربِّه وكأنه نِدٌّ في مقامِ الحُجّة؟.

إنها آيةٌ لا تصفُ مجرّد تحوّلٍ بيولوجي، بل تكشفُ انقلاباً نفسيّاً حين ينسى الإنسانُ أصلَه وهو يتكلّم، ويغفلُ بدايتَه وهو يحتجّ، ويتناسى ضعفه وهو يُخاصم، فالعقلُ في ذاته نعمة، والبيانُ في ذاته تكريم، والجدلُ في أصله أداةُ بحثٍ عن الحق، لكن حين ينفصلُ العقلُ عن الاعترافِ بالمبدأ، ويتحرّرُ البيانُ من عبوديةِ الحق، ويتحوّلُ الجدلُ من طلبِ هدايةٍ إلى طلبِ غلبة، ينقلبُ التكريمُ إلى خصومة، وتتحوّلُ النعمةُ إلى فتنة، ويصبحُ "الـمُكرَّم" خصيماً لِمَن كرَّمه...

وهنا تُبنى في القلب معانٍ ثلاثةٌ تُعيد ترتيبَ الداخل من جديد...

١) توحيدٌ خالصٌ يُقرّ بأن الذي نقلك من العدم إلى الوجود وحده يستحقُّ الطاعةَ لا المعارضة، والخضوعَ لا المزايدة، والتسليمَ لا المنازعة...

٢) وحياءٌ عميقٌ من الله، فمَن أنشأك من لا شيء، ويعلمُ سرَّك وعلانيتك، لا يليقُ بك أن تقف بين يديه في صفِّ الخصومة وأنت من آثارِ صنعِه...

٣) وتواضعٌ وجوديٌّ يُذكّرك أن أصلَك ضعف، ووسطَك ضعف، وآخِرَك ضعف، وبين الضعفين نفخةُ روحٍ هي أمانةٌ لا مِلك، وعطيّةٌ لا استحقاق...

الفخامةُ الحقيقيةُ إذن ليست أن تُحسنَ الجدل، بل أن تُحسنَ التذكّر، ليست أن تكون خصيماً مُبيناً، بل أن تكون عبداً مُنيباً ليست أن ترفعَ صوتَك بالحُجّة، بل أن تُخفضَ قلبَك بالاعتراف أن تقول في عمقِ يقينٍ وامتنان: أنا الذي لم أكن، فكوَّنتني، ولم أملك، فأعطيتني، ولم أهدِ نفسي، فهديتني، فكيف أكونُ خصيماً لمن كان سببَ وجودي وبقائي ومصيري؟

وحين يستيقظُ هذا المعنى في القلب، يتحوّل "الخصيم" إلى "شاكر"، ويتحوّل "الجدل" إلى "تسليم"، ويتحوّل الإنسانُ من خصومةِ الخالق إلى عبوديةِ الحق وهناك فقط، يعرفُ حجمه الحقيقي ويذوقُ معنى العزِّ في الانكسار، ومعنى القوّةِ في السجود، ومعنى الكرامةِ في أن يكون عبداً لمن أخرجه من العدم إلى الوجود.

الخريطة البنيوية للجزء الرابع عشر (الحِجْر – النحل)

بناءٌ يُثبّت يقين الوحي، ويهدم أوهام الهوى، ويُعيد ترتيب علاقة القلب بربه وبالدنيا وبالآخرة.

الخريطة البنيوية لآيات هذا المقطع من سورة الحجر

- إعلان مصدر النور في بداية الطريق: يبدأ المقطع بإعلان واضح أن هذا الكتاب ليس كلاماً بشرياً عابراً، بل وحيٌ إلهيٌّ مبين يهدي القلوب ويكشف الطريق: ﴿الَر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾... وكأن القرآن منذ اللحظة الأولى يقول للقارئ: إن أردت رؤية الحقيقة كما هي، فابدأ من هنا، من كلام الله لا من ظنون البشر.
- ندمٌ مؤجَّل لا ينفع صاحبه: الكافر اليوم قد يضحك ويجادل ويكابر، لكن القرآن يفتح نافذة على لحظةٍ قادمة حين ينهار هذا الغرور ويقول متحسراً: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾... إنها حسرة الحقيقة حين تُكشف، لكن بعد فوات الأوان.
- غفلة الدنيا حين يلهي الأمل القلب: الإنسان قد لا يُنكر الحق لأنه لم يره، بل لأنه أُغرق في الأمل الطويل ومتاع الحياة، حتى صار التأجيل أسلوب حياة: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾... فالخطر ليس في المتاع نفسه، بل في أملٍ يسرق من القلب يقظته.
- سُنّة الأجل في حياة الأُمم: التاريخ ليس فوضى، بل يسير وفق قدرٍ معلوم؛ فكل أُمَّة لها أجل لا تتقدمه ولا تتأخر عنه: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾... وكأن الآيات تقول: لا يغرّنكم تأخر العقوبة، فالتاريخ كله يسير بميزان الله تعالى.
- الاستهزاء بالوحي... مرضٌ قديم متكرر: ما واجهه النبي ﷺ من سُخرية واتهام ليس حادثة فريدة؛ فكل رسولٍ قبله مرَّ بالامتحان نفسه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾... إنها سُنّة الصراع بين الحق والباطل عبر العصور.
- إغلاق القلب يجعل المعجزة بلا أثر: المشكلة ليست في قلة الأدلة، بل في

قلوبٍ أغلقت أبوابها قبل أن ترى؛ فحتى لو فُتح لهم بابٌ في السماء وصعدوا فيه ورأوا المعجزة بأعينهم، لبقيت حجج الإنكار حاضرة: ﴿لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾... لأن القلب إذا أعرض، لم تنفعه الآيات.

- ضمان إلهيٌّ بحفظ الوحي: وسط هذا الصراع يعلن الله تعالى وعداً لا يتغير: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾... فالرسالة قد تُحارب، لكن القرآن باقٍ بحفظ الله، لا بحراسة البشر.
- الكون كلّه شاهدٌ على خالقه: ثم يرفع القرآن بصر الإنسان إلى السماء والأرض؛ إلى البروج والنجوم والجبال والنبات والرياح والمطر... ليقول إن الكون ليس صامتاً، بل مليء بآيات تشير إلى خالقه: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾... فكل شيء في الوجود موزون بميزان الحكمة.
- الرزق من خزائن الله وحده: الإنسان قد يظن أنه يملك أسباب العيش، لكن الحقيقة أن كل شيء في الكون بيد الله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾... فالرزق ليس في يد السُّوق ولا في يد البشر، بل في خزائن الرَّحمن.
- الحياة والموت... دائرة بيد الله: ثم يُذكِّر القرآن بحقيقة الوجود الكبرى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾... فالخلق يأتون ويذهبون، أما الله سبحانه وتعالى فهو الباقي بعد الجميع.
- بداية القصة الأولى: خلق الإنسان والامتحان الأول: ينتقل السياق إلى أصل الحكاية: خلق آدم من طين، وأمر الملائكة بالسجود له تكريماً لأمر الله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾... وهنا تبدأ قصة الامتحان التي ستتكرر في كل قلب.

- لحظة السقوط: استكبار إبليس: إبليس لم يُنكر الله، لكنه استكبر عن أمره؛ فكان أول معصية في التاريخ هي الكِبر: ﴿أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾... ومن هنا يبدأ طريق الغواية.
- وعد الشيطان بإغواء البشر: أعلن إبليس برنامجه بوضوح: تزيين المعصية في الأرض حتى ينخدع الإنسان: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾... لكنه يعترف بحقيقة مهمة: لا سلطان له على عباد الله الصادقين.
- خط الأمان الوحيد: النجاة ليست في قوة الإنسان، بل في صدق عبوديته لله؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾... فمن احتمى بالله تعالى، ضاقت على الشيطان طرق الإغواء.
- نهاية الطريقين: الجحيم أو الجنة: بعد الصراع يأتي الفصل الأخير؛ طريقٌ ينتهي إلى جهنم بأبوابها السَّبعة، وطريقٌ يقود إلى الجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾... حيث الأمن الكامل الذي لا يعرف تعباً ولا خروجاً.
- الجنة... نقاء القلب قبل نعيم المكان: أعظم نعيم فيها ليس القصور فقط، بل سلامة الصدور: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾... فالجنة دارٌ لا يسكنها إلَّا قلبٌ طهّره الله تعالى من الأحقاد.
- التوازن بين الرجاء والخوف: يأمر الله تعالى نبيه أن يبلّغ الناس الحقيقة كاملة: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ • وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾... فلا يُبنى الإيمان على خوفٍ وحده، ولا على رجاءٍ وحده، بل على توازن القلب بينهما.
- نماذج من التاريخ: نجاةٌ وعقوبة: ثم تأتي قصص إبراهيم ولوط وأصحاب الأيكة والحِجر لتؤكد أن سُنّة الله واحدة: النجاة لأهل الإيمان، والهلاك للمُكذبين... فالتاريخ ليس قصصاً، بل دروساً حيّة لمن يتأمل.

- الكون لم يُخلق عبثاً: كل هذا الوجود قائم على الحق والحكمة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾... والساعة آتية لا محالة، حيث ينكشف معنى هذا الوجود كله.
- رسالة للنبي ﷺ وللدعاة بعده: وسط الأذى والاستهزاء يأتي التوجيه الإلهي: لا تحزن على متاعهم، ولا تلتفت إلى زخارف الدنيا: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ﴾... فالقيمة الحقيقية في رسالة السماء لا في متاع الأرض.
- الصدع بالحق رغم الضجيج: الدعوة لا تنتظر رضا الناس، بل تمضي بأمر الله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾... فالحق يُعلَن ولو استهزأ المستهزئون.
- دواء ضيق الصدر في طريق الدعوة: حين يضيق صدر المؤمن بكلام الناس، يرشده القرآن إلى الملجأ الحقيقي: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾... فالسكينة لا تُطلب من الناس، بل تُستمد من السجود لله.
- الخاتمة التي تعيد كل شيء إلى الأصل: بعد كل هذه الرحلة من خلق الإنسان إلى مصير الأمم، يختصر القرآن الطريق كله في كلمة واحدة: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾... أي سر في طريق العبودية حتى نهاية حياتك، فهناك تبدأ الحقيقة التي لا تزول.

الخريطة البنيوية لآيات هذا المقطع من سورة النحل

- افتتاحٌ يهزُّ الغفلة: القيامة ليست خبراً بعيداً بل أمرٌ آتٍ لا يُستعجَل ولا يُدافَع.. يبدأ النداء بإسقاط وهم "الوقت الطويل" من القلب، فحين يقول الحق سبحانه: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فهو يُعلّمك أن ما وعد الله به واقعٌ لا محالة، وأن الاستعجال علامة غفلة لا علامة يقين، ثم يطهّر

التوحيد بتنزيهه جلّ وعلا عن الشرك كله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

- حقيقة الوحي: أصل الرسالة كلمة التوحيد.. الوحي الذي ينزل من عند الله ليس أفكاراً بشرية ولا فلسفاتٍ تتبدّل، بل رسالةٌ واضحة تحمل أصل الدين كله؛ أن يُنذر الناس ويُذكَّروا بالحقيقة الكبرى التي تقوم عليها حياتهم ونجاتهم: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾... أي أن الطريق إلى الله يبدأ بمعرفة توحيده، ثم بعبادته وحده، ثم بتقواه في السِّر والعَلن.
- آيات الكون: الخلق بالحق يفضح عبث الشِّرك ويُثبت معنى المقصد.. السَّماوات والأرض لم تُخلقا صدفة ولا لهواً، بل ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بحكمة وغاية وعدل، ومن هنا يسقط الشرك من أساسه؛ إذ كيف يُجعل لله شريكٌ والخلق كله قائم بأمره وحده: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.
- صدمة الإنسان: من نطفةٍ ضعيفة إلى خصومةٍ متكبرة... والمشكلة ليست في العقل بل في القلب.. تذكيرٌ جارح للكبر: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾... أي أن الإنسان قد يتحول من مخلوقٍ محتاج إلى مجادلٍ معاند، فإذا أردت نجاة قلبك فراقب:
  1. لحظة تحوّل النِّعمة إلى خصومة،
  2. والتواضع إلى جدال.
- النِّعَم القريبة: رزقٌ يوميٌّ يلمسه الجسد قبل أن يفهمه العقل.. ينزّل القرآن النظر من السماء إلى تفاصيل العيش: الأنعام دفءٌ ومنافع وغذاء، بل حتى "جمالٌ" يبهج النفس في مشاهد العودة والخروج: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾... ثم يوقظك لمعنى الرحمة في تسخيرها وحمل الأثقال حتى لا تنسى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

- باب المفاجأة: الله يخلق ما لا تعلمون... كي لا يغتر الإنسان بعلمه ولا بعصره.. بعد ذكر الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة، تُفتح جملة قصيرة تهزُّ "غرور الاكتمال": ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾... أي أن خزائن القُدرة لا تنتهي، وأنك مهما رأيت من تطور فهناك ما لم تره بعد، فكن متواضعاً مع علمك، مؤمناً بوسع قدرة ربك.
- خريطة الطريق: الهداية ليست مجرد معلومات بل "قصد السبيل" إلى الله الطريق المستقيم ليس اقتراحاً بشرياً، بل حقٌّ على الله بمعنى أنه هو الذي يبيّنه ويرشد إليه ويقيم حجته على الخلق: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، ومع ذلك فهناك طرقٌ جائرة، ولو شاء لهدى الناس جميعاً هداية إجبار، لكنه شاء أن يبتليك بالاختيار لتكون عبوديتك صدقاً لا قهراً.
- رزقٌ ينزل من أعلى: ماءٌ واحدٌ يخرج منه شرابٌ وشجرٌ وزرعٌ وثمرات... آية لمن يتفكر.. الماء ينزل، ثم تتحول القطرة إلى حياةٍ متعددة الأشكال؛ شرابٌ للإنسان، ومرعى للبهيمة، وزرعٌ وزيتونٌ ونخيلٌ وأعنابٌ وثمرات... ثم يختمها بكلمة تفتح عقل القلب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾... لأن التفكر هو مفتاح رؤية النِّعمة نعمةً لا عادةً.
- تسخير الزمن والسماء: الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم... جنودٌ تحت أمر الله.. حين ترى انتظام الكون تذكّر أن النظام عبودية، وأن النجوم ليست آلهة ولا مؤثرات مستقلة، بل ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾... فالكون كله يعبد، ومن العجيب أن يعصي الإنسان في كونٍ كلُّه طاعة.
- تنوع الأرض: اختلاف الألوان ليس زينةً فقط بل تذكيرٌ بأن المنعم واحدٌ وأن النعم لا تُحصى.. كل ما ذرأه الله لك في الأرض مختلف الألوان، كأنه يربّي في القلب حسّ الشُّكر والدهشة، ثم يقطع الطريق على وهم الإحاطة: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾... فلا تتحول نعم الله في عينك إلى

"حق مكتسب" بل إلى فضلٍ يستوجب خضوعاً.

- البحر والجبال والسُّبل والنجوم: وسائل هدايةٍ ورزقٍ وأمان.. البحر رزقٌ وحليةٌ وتجاراتٌ وسفنٌ تشق الماء، والجبال رواسي تحفظ الأرض، والأنهار والسُّبل علامات طريق، ثم حتى النجوم جعلها الله هدايةً في الظلمات: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾... وكأن الله تعالى يقول: لم أتركك في أرضك بلا دلائل، فلماذا تتيه عني في طريق قلبك؟.
- السؤال الفاصل: هل يستوي الخالق والمخلوق؟.. يأتي الاستفهام ليقطع أي جدلٍ بارد: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾... فإذا كان الجواب بديهياً في العقل، فكيف يضلُّ القلب في العبادة؟
- الشرك كذبةٌ أمام حقيقة الخلق: المدعوون من دون الله لا يخلقون شيئاً بل هم مخلوقون.. القرآن يسحب الغطاء عن قداسةٍ مزيفة: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾... حتى لو سمّوا بأسماء كبيرة أو تزيّنوا بهالات، فالحقيقة واحدة: لا خلق ولا رزق ولا تدبير.
- جذر الإنكار: قلبٌ منكرٌ مستكبر لا مشكلةَ دليل.. حين يقرر القرآن أن الإله واحد، يفضح سبب الرفض: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾... فالاستكبار هو الحجاب الأكبر الذي يمنع القلب من الانقياد، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.
- التشويه المتعمد: حين يُقال "أساطير الأولين" يصبح صاحبها حاملاً لوزره ووزر من أضلّ.. الكلمة ليست رأياً عابراً، بل قد تكون سلاح إضلال؛ لذلك قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ ثم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾... فاحذر أن تكون بوابة ضياعٍ لغيرك ولو بكلمة.
- انهيار المكر: البناء الذي يُقام على الباطل يسقط من حيث لا يشعر صاحبه المكر ليس قوةً مطلقة؛ قد يطول لكنه ينتهي بسقوطٍ من القواعد: ﴿فَأَتَى

اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾... وهي رسالة لكل متكبر: ما بنيته على معصية قد يسقط عليك وأنت تضحك.

- مشهد الوفاة: لحظة الاعتراف المتأخر... واحتضار الأعذار.. عند خروج الروح تنكشف الحقيقة ويُلقى السلم، لكن بلا جدوى لمن عاش على الظلم: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾... هنا تتساقط الأقنعة، ويصير الملف بيد العليم بما كانوا يعملون.
- مقابل ذلك: موتُ الطيبين سلامٌ وبشر.. المتقون لا يخرجون من الدنيا قسراً، بل يخرجون على سلام: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾... فالفارق ليس في "لحظة الموت" بل في "حال القلب قبل الموت".
- حجة المشركين: الاحتجاج بالمشيئة لتبرير المعصية... والرد: البلاغ وإقامة الحجة.. حين يقولون: لو شاء الله ما عبدنا... فهم يريدون تحويل القدر إلى عذر، والقرآن يرد بأن الرسل جاءوا بالأمر والنهي والبيان، وأن الحجة قائمة، وأن عليك أن ترى عاقبة المكذبين لتفهم معنى المسؤولية.
- إثبات البعث: وعدٌ حقٌّ والقدرة كلمة واحدة.. من ينكر البعث ينسى أن الذي خلق أول مرة قادر على الإعادة، بل إن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾... فهي ليست قضية "هل يستطيع؟" بل قضية "هل صدّقت ربك؟".
- تكريم المبتلين: هجرةٌ وصبرٌ وتوكل... ثم حسنة في الدنيا وأجر أكبر في الآخرة.. في وسط الصراع يرفع الله قدر من دفعوا الثمن: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ ثم وصفهم: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾... كأن الآيات تقول: الطريق إلى الله ليس نزهة، لكنه طريق رابح.

- منهج السؤال: عند الجهل ارجع إلى أهل الذكر.. الجهل لا يُعالج بالتخمين ولا بالجدل، بل بالسؤال الصادق: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾... وهذه تربية على التواضع العلمي قبل أن تكون فتوى معرفية.
- سجود الكون: الظلال، الدواب، الملائكة... كله خاضع.. مشهدٌ عجيب يلين له القلب: الظلال تتفيأ ساجدة، والملائكة لا يستكبرون، والدواب تسجد بمعنى الخضوع لأمر الله، وهم ﴿دَاخِرُونَ﴾... فإذا كان الكون كله في مقام العبودية، فكيف يليق بقلبك أن يتعالى؟.
- توحيدٌ يطلب رهبةً صادقة: إله واحد فإياي فارهبون.. الخوف الصحيح ليس رُعباً يقطع الرجاء، بل رهبةٌ تُصلح السلوك وتمنع الجرأة على الله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾... ومن خاف الله حقاً هان عليه خوف الناس.
- قاعدة الشكر: كل نعمة فمن الله... وعند الضُّر لا ملجأ إلا إليه تُختصر العلاقة كلها في حقيقة واحدة: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾... ثم إذا مس الضُّر، لا يصرخ القلب إلا إلى الله: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾... لكن الفتنة أن يكشف الضُّر ثم يعود القلب إلى الشرك أو الغفلة.
- فضيحة النسبة: يجعلون لله ما يكرهون ويصفون الكذب لأنفسهم الحسنى.. ينقض القرآن ظلماً أخلاقياً وعقدياً معاً: ينسبون إلى الله ما يكرهون لأنفسهم، ثم يدّعون لأنفسهم الفضل! وهذه قلبٌ مقلوب، وحكمٌ سيئ، ونهايته ﴿النَّارَ﴾.
- الكتاب هدى ورحمة: ليس لتغليب فريق بل لتبيين الحق المختلف فيه وظيفة الوحي أن يوضح، لا أن يترك الناس في دوامة الأهواء: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾... فالهداية رحمة، لا مجرد معلومات.
- آيات الحياة اليومية: اللبن، الثمرات، النحل... إشارات رحيمة لمن يعقل

ويتفكر.. يُذكّرك الله أن المعجزات ليست فقط في السماء، بل في كوب لبنٍ خالص، وفي ثمرٍ يخرج رزقاً حسناً، وفي نحلٍ يسلك سُبل ربه ذللاً ويخرج من بطونه شفاء: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾... كي لا تمرّ على النِّعم مرور الأعمى.

- امتحان العمر: علمٌ ثم نسيان... كي لا يتكبر العاقل على ضعفه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾... رسالة موجعة: لا تتكبر بعلمك اليوم، فقد تُسلب منك القدرة غداً، فاجعل علمك طريق شكرٍ لا طريق كِبر.
- فتنة التفاوت: فضل في الرزق ليُختبر الشكر والعدل لا ليُعبد المال.. التفاوت ليس دليل محبة ولا علامة كرامة مطلقة، بل ابتلاء: هل يرد الغني فضل رزقه؟ هل يعترف أن النِّعمة من الله؟ أم يجحد ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.
- نعمة الأُسرة والطيبات: لا تجعلوا النعمة ستاراً للكفر.. الأزواج والبنون والحفدة والرزق الطيب... كلها وسائل شكر وعبودية، ومن الفتنة أن يؤمن الإنسان بالباطل ثم يكفر بالنِّعمة عملياً حين يصرفها في معصية الله.
- تحطيم الأوهام: لا تضربوا لله الأمثال... الله يعلم وأنتم لا تعلمون.. حين يتجرأ القلب في قياس الله على الخلق تنحرف العقيدة، لذلك يقطعها القرآن: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾... فالله تعالى يُوصف بما وصف به نفسه وبما يليق بجلاله دون تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل ولا تشبيه.
- أمثالٌ تهدم الشرك: العاجز والمملوك لا يستوي مع الحر القادر المنفق.. يضرب القرآن أمثلةً عقلية بسيطة لكنها قاطعة: عبدٌ مملوك عاجز لا يقدر على شيء، ورجل رزقه الله رزقاً حسناً ينفق سراً وجهراً... هل يستوون؟ فإذا لم يستووا بين البشر، فكيف يستوي الخالق بالمخلوق؟.
- الساعة أقرب مما تتصور: كلمح البصر أو أقرب.. ليس المقصود قياس الزمن على الله، بل تهديد الغفلة في قلبك: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ

﴿هُوَ أَقْرَبُ﴾... أي أنها إذا جاءت لم تترك لك فرصة تهيؤ جديد، فتهيأ الآن.

- منحة الإدراك: السَّمع والبصر والفؤاد... أدوات شُكر لا أدوات لهو.. الله تعالى أخرجك لا تعلم شيئاً ثم أعطاك أدوات الفهم لتشكره، فكل جارحة ليست ملكك المطلق بل أمانة ستُسأل عنها.
- آية الطير: القوة الحافظة ليست جناح الطائر بل إمساك الله.. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾... آية تخلع وهم الاعتماد على الأسباب وحدها؛ الأسباب حقيقية لكن الممسك بها هو الله، فإذا أردت طمأنينة فاجعل قلبك متعلقاً بالمسبب لا بالسبب.
- إتمام النِّعمة ليُسلم القلب: مساكن، أثاث، ظلال، لباس يقي... وكلها تدعو إلى الاستسلام لله.. البيت سكن، والجلود بيوت خفيفة، والظلال أمان، والسرابيل وقاية... ثم يختم المعنى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾... أي لتكون النتيجة النهائية: قلباً مسلماً لا متعالياً.
- قاعدة الداعية: البلاغ المبين... والهداية بيد الله.. إذا تولوا فوظيفتك البيان لا السيطرة: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾... ومن أعظم الألم أن يعرفوا النِّعمة ثم ينكروها: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.
- مشاهد القيامة: سقوط الشركاء وافتضاح الكذب وإلقاء السَّلم لله.. حين يرون العذاب ينهار كل ادعاء، وحين يُنادون شركاءهم يُقال لهم: أنتم لكاذبون، ثم تنتهي المعركة كلها بهذه الحقيقة: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾... أي خضعوا اضطراراً بعد أن ضيّعوا خضوع الاختيار.
- قمة المقاصد: القرآن تبيان وهدى ورحمة... ثم ميزان المجتمع: العدل والإحسان.. بعد ترسيخ التوحيد والبعث والهداية، يُعطيك القرآن "قانون

الحياة": ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾... فالتوحيد الحقيقي يثمر عدلاً في السلوك وإحساناً في الخلق، لا مجرد شعارات.

- ميثاق الأخلاق: الوفاء بالعهد وخطورة الأيمان حين تُتخذ دخلاً وخديعة الإيمان ليس صلاة فقط، بل أمانةٌ ووفاء: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾... ثم يحذرك من خيانةٍ ناعمة: أيمانٌ تُستعمل لمصالح دنيوية، فتكون كمن نقضت غزلها بعد قوة أنكاثاً، فتزل قدم بعد ثبوتها.
- الخاتمة التحويلية: ما عندك ينفد وما عند الله باق... والحياة الطيبة ثمرة الإيمان والعمل.. يضعك القرآن أمام معيار الربح الحقيقي: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾... ثم يعد بالحياة الطيبة لمن جمع الإيمان والعمل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾... ليست حياة بلا ابتلاء، بل حياةٌ فيها طُمأنينة ومعنى وبركة.
- قفل الطريق على الشيطان: الاستعاذة ثم التوكل.. عند قراءة القرآن تبدأ الاستعاذة لأنها إعلان حرب على الوسوسة: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾... ثم يثبت أن سلطان الشيطان ليس على المؤمنين المتوكلين، إنما على من تولّاه ورضي وساوسه.
- شبهة التبديل والرد: القرآن تنزيل حقٍّ من روح القدس تثبيتاً وهدى وبشرى حين يطعنون في الوحي ويقولون مفترٍ، يأتي الرد العقدي المتين: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾... فالقرآن ليس نتاج بشر، ولسانه عربي مبين، وحجته قائمة.
- ابتلاء الإكراه: الفرق بين قلب مطمئن بالإيمان وصدر منشرح بالكفر.. يضع القرآن ميزاناً دقيقاً في الفتنة: من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان فليس كمن رضي بالكُفر وشرح به صدراً... هنا يظهر أن معيار الله هو حقيقة القلب لا مجرد الصوت.

- باب الرجعة: بعد الفتنة والهجرة والجهاد والصبر... مغفرة ورحمة.. لا يغلق الله الباب على من تاب ورجع، بل يفتح رحمةً واسعة: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾... فحتى بعد السقوط يمكن أن يولد الإنسان من جديد.
- مثل القرية: الأمن والرزق إذا كُفِر بهما انقلبا جوعاً وخوفاً.. يختم الله بمثل يوقظ المجتمعات: قرية آمنة مطمئنة رزقها رغد، فلما كفرت بأنعُم الله أذاقها لباس الجوع والخوف... لتفهم أن النِّعم ليست ضماناً دائماً، بل أمانةٌ تُحفظ بالشُّكر والطاعة.
- الخاتمة العملية: الحلال الطيب، شكر النعمة، وتحريم الافتراء على الله.. العبودية ليست مشاعر فقط، بل التزام: كلوا حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله، ثم احذر أن تتكلم في الحلال والحرام بغير علم فتفتري على الله الكذب، فذلك من أعظم أبواب الهلاك.
- خاتمة القدوة: إبراهيم أُمَّةٌ في نفسه... شكرٌ وتوحيدٌ واتباعٌ للحنيفية.. يُقدَّم إبراهيم عليه السَّلام نموذجاً حياً لإنسانٍ صار أُمَّةً بثباته وشكره وتوحيده: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً﴾... ثم يوجّه النبي ﷺ ومن بعده الأمة إلى اتباع ملته، لا مجرد الإعجاب به.
- آخر ميزان الدعوة: حكمةٌ وموعظةٌ وجدالٌ أحسن... وعدلٌ مع صبرٍ أعلى... وصبرٌ بالله وحده.. يُختم المنهج الدعوي بقواعد تُصلح القلب قبل اللسان: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾، ثم إن وقع أذى فميزان العدل حاضر: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾، لكن باب الرفعة أعلى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ ثم يضعك في مقام التوحيد العملي: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾... فالصَّبر الحقيقي ليس من "قوة الطبع" بل من مدد الله سبحانه وتعالى.

خلاصة البناء البنيوي للجزء

هذا الجزء يُعيد تأسيس القلب على ثلاث ركائز:

١) يقينٌ بأن الوحي محفوظ لا يُغلب،

٢) وتسليمٌ بأن الكون مُدار بقدرٍ حكيم لا يختلّ،

٣) وثباتٌ عمليٌّ على الطاعة مهما ضاق الطريق؛

فمن جمع هذه الثلاث خرج من الجزء إنساناً ثابتاً:

- لا تزعزعه السُّخرية،
- ولا تُغريه النِّعمة،
- ولا تُخيفه السُّنن،

لأنه عرف أن البداية من السُّجود... والنهاية عند اليقين.

المحور الإيماني المركزي للجزء الرابع عشر

المحور الذي ينتظم في هذا الجزء كله هو ترسيخ العبودية الواعية في قلبٍ يُوقن بأن الوحي حقٌّ محفوظ، وأن الكون مُدارٌ بقدرٍ حكيم، وأن النعمة ابتلاء، وأن الثبات لا يكون إلا بالرجوع الدائم إلى الله؛ فالحِجْر تبدأ بتثبيت أصل المرجعية ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ لتُغلق باب الشّك في المصدر، ثم تُسقط وهم الفوضى في التدبير ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ فتُعيد القلب إلى التسليم، ثم تكشف جذور الانحراف في كِبر إبليس لا في نقص البرهان، وتضع الحدّ الفاصل بين من تحميه عبوديته ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ومن ينساق خلف التزيين، ثم توازن بين الرجاء والخوف ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ • وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، وتختم بأمرٍ عمليّ يُثبّت هذا البناء ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ودوائه ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ حتى ﴿يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾؛ ثم تأتي سورة النحل لتُنزّل هذا اليقين في تفاصيل الحياة، فتقرر حتمية الأمر ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾،

وتربط الخلق بالعبادة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وتكشف أن كل نعمةٍ منه وحده ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، وأن الميزان الأخلاقي ليس اختيارياً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾، وأن البقاء لما عنده لا لما عند الناس ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾، وأن الحياة الطيبة ثمرة إيمانٍ عامل ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، وأن المعيَّة الخاصة ليست لكل أحد بل ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾؛ فالمعنى المركزي الذي يخرج به القلب من هذا الجزء هو أن النجاة ليست بكثرة الجدل ولا بكثرة المتاع، بل بثباتٍ على الوحي، وتسليمٍ للقدر، وشكرٍ للنعمة، وصبرٍ في الأذى، وعبادةٍ مستمرةٍ حتى يلقى العبد ربَّه وهو ثابتٌ على الصراط.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها الجزء الرابع عشر (الحِجْر – النحل)

سورة الحجر

❖ الانحرافات العقدية

١) إنكار الوحي واتهام الرسالة بالجنون: من أخطر الانحرافات أن يُواجَه الوحي بالاستهزاء والطعن في مصدره، كما قالوا للنبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ فحين يُطعن في أصل الوحي يسقط ميزان الهداية كله.

٢) طلب المعجزات تعنّتاً لا طلباً للحق: بعض القلوب لا تطلب الدليل لتؤمن بل لتجادل، ولذلك قالوا: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾؛ ولو جاءت الآيات لما آمنوا لأن المشكلة في القلب لا في البرهان.

٣) الغرور بمهلة الدنيا وتأجيل الحساب: الانحراف العقدي يظهر حين يظن الإنسان أن الإمهال دليل الرضا، فيعيش في الغفلة حتى يفاجئه الندم: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

٤) الاستكبار عن أمر الله كما فعل إبليس: أصل الضَّلال في التاريخ كان كِبراً

على أمر الله لا جهلاً به، حين قال إبليس: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾؛ فالكبر يُفسد العقيدة ولو كان صاحبه يعرف الحق.

٥) اتباع تزيين الشيطان والاغترار به: الشيطان لا يملك إجبار الإنسان لكنه يزيّن الباطل حتى يبدو جميلاً، وقد أعلن برنامجه بوضوح: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

❖ الانحرافات الأخلاقية

١) الاستهزاء بالحق وأهله: حين تتحول الدعوة إلى مادة للسُّخرية يفقد القلب هيبته أمام الله، وقد تكررت هذه الخطيئة عبر التاريخ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾.

٢) الاستغراق في الشهوات والغفلة عن المصير: حين يصبح الأكل والمتاع غاية الحياة يذبل الضمير ويضيع الهدف، ولذلك قال الله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ إشارة إلى حياة بلا رسالة.

٣) القنوط من رحمة الله: القنوط ليس تواضعاً بل سوء ظَنٍّ بالله، ولهذا صحح إبراهيم عليه السَّلام الفهم بقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

٤) الاعتداء على الفطرة وانحراف الشَّهوة: قصة قوم لوط تكشف انحرافاً أخلاقياً عميقاً حين تحولت الشَّهوة إلى فساد جماعي يهدد المجتمع كله حتى استحقوا العقوبة.

٥) الغرور بالقوة والإنجاز الدنيوي: بعض الأُمم اغترت بما صنعت من عمران وقوة كما قال عن أصحاب الحجر: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ فظنوا أن الحضارة تحميهم من العقوبة.

❖ الانحرافات الاجتماعية

١) تطبيع الفساد حتى يصبح سلوكاً عاماً: حين يتحول الانحراف إلى ثقافة جماعية يصبح إنكاره صعباً كما حدث في مجتمع قوم لوط الذي استبشر بالمنكر بدل أن يستنكره.

٢) مهاجمة المصلحين بدل مراجعة النفس: المجتمعات المنحرفة غالباً تواجه الناصحين بالعداء، وقد قالوا للوط عليه السَّلام: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا تتدخل في فسادنا.

٣) بناء الأمن الاجتماعي على الظلم والغفلة: بعض المجتمعات تعيش شعور الأمان الظاهري رغم انحرافها، كما فعلت أُمم سابقة حتى جاءها العذاب فجأة.

٤) تجزئة الدين وتحريف معانيه: من الانحرافات الاجتماعية أن يُتلاعب بالنصوص ويُؤخذ منها ما يوافق الأهواء فقط، كما وصف القرآن: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾.

❖ الانحرافات النفسية

١) الغفلة الطويلة بسبب الأمل الكاذب: النفس قد تخدع صاحبها بوعد المستقبل حتى ينسى الحقيقة الكبرى، ولهذا قال: ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي يسرق منهم يقظة القلب.

٢) ضيق الصدر من كلام الناس: طريق الدعوة مليء بالأذى النفسي، حتى إن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

٣) التأثر المفرط بالواقع بدل اللجوء إلى الله: علاج هذا الضيق ليس في الهروب بل في العودة إلى العبادة، ولذلك جاء التوجيه الإلهي: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾.

٤) نسيان الغاية النهائية للحياة: النفس إذا فقدت هدفها ضاعت في تفاصيل الدنيا، ولذلك يختم المقطع بتوجيه جامع يعيد ترتيب الأولويات: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

سورة النحل:

❖ الانحراف العقدي

١) الاستعجال والاعتراض على قدر الله ووعده: حين يتعامل القلب مع وعد الله كأنه بعيدٌ أو غير آتٍ يبدأ التفلّت الداخلي، لذلك افتتح المقطع بالقطع والحسم: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ فالذي يستعجل كأنه ينسى أن الأمر لله وحده وأن مواعيده حق لا تتخلّف.

٢) الشرك في العبادة أو في تعظيم غير الله: أصل الانحراف أن يُصرف شيء من حق الله لغيره، ولهذا تكرر التنزيه في أول المقطع: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ فالتوحيد ليس شعاراً بل ميزان حياةٍ يُصفّي النيّات ويعيد كل شيء إلى الله.

٣) تكذيب الوحي وردّ أصل الرسالة: من أخطر ما يفسد الدين أن يتحول الوحي إلى "حكاية" في نظر الناس، لذلك جاء جوهر الإنذار ثابتاً لا يتغير: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾؛ فمَن رفض هذا الأصل ضاع منه طريق النجاة مهما تزخرف فكره.

٤) الجبرية والاحتجاج بالمشيئة لتبرير الباطل: الانحراف العقدي حين تُتخذ مشيئة الله ذريعة للمعصية بدل أن تكون باباً للخضوع، كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ وهذا تحويلٌ للقدر إلى ستارٍ يهرب به الإنسان من مسؤوليته.

٥) القول على الله بغير علم وتشريع الحلال والحرام بالهوى: أخطر ما يعتدي به الإنسان على مقام الربوبية أن يشرّع باسم الدين وهو يتبع هواه، ولذلك

جاء التحذير الصريح: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾؛ فالكذب على الله تعالى ليس خطأً عابراً بل جريمة تُفسد الدين والضمير.

❖ الانحراف الأخلاقي

١) نكران النِّعمة بعد معرفتها: من أقسى الانحرافات أن يعرف الإنسان فضل الله تعالى ثم يدفنه بالجحود، وقد وصفهم القرآن بدقة: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾؛ فالمصيبة ليست في الجهل بالنِّعمة بل في قتل الاعتراف بها داخل القلب.

٢) الظلم للنفس ثم تزويق الأعذار: حين يظلم الإنسان نفسه بالمعصية ثم يتجمّل بالإنكار عند الموت يكون قد بلغ قمة الخداع، لذلك قال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾؛ أي استسلام متأخر لا ينفع بعد أن انتهت فرصة الاختيار.

٣) الفحشاء والمنكر والبغي كمنهج حياة: القرآن لم يكتفِ بوصف الانحراف بل وضع ميزاناً أخلاقياً جامعاً يهدم جذور الفساد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ... وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾؛ فكل مجتمع يترك هذا الميزان ينحدر ولو كثرت شعاراته.

٤) قسوة القلب على الضعفاء واحتقار البنات: انحراف الجاهلية ليس تاريخاً يُقرأ بل نفسية تتكرر حين يهان الضعيف، وقد فضح القرآن هذا السقوط: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ فالأخلاق تُقاس بموقفك من الضعيف لا بصورة كلامك.

٥) الوقوع في الكذب والافتراء لتجميل النفس: الكذب ليس مجرد خلق سيئ بل بابٌ يُنتج كذباً على الله وعلى الناس وعلى الذات، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا

﴿يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ فحين يضعف الإيمان يسهل تزييف الحقائق بلا وجل.

❖ الانحراف الاجتماعي

١) إضلال الناس وتحميلهم أوزاراً فوق أوزارهم: الانحراف الاجتماعي الأخطر حين لا يكتفي الإنسان بضلاله بل يصنع ضلالاً عاماً، ولذلك قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾؛ فالمضلّ لا يحمل خطأه فقط بل يحمل أثره في الآخرين.

٢) المكر بالحق وبأهل الحق ثم ادّعاء السَّلامة: المجتمعات قد تمكر بالدعوة وتظن أنها انتصرت حين تسكت الصوت، ثم يأتيها الهدم من حيث لا تحتسب: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾؛ فالظلم قد يتأخر لكنه لا يضيع.

٣) نقض العهود والتلاعب بالأيمان لمصالح دنيوية: حين تصبح الأيمان سلعةً للتجارة تسقط الثقة بين الناس ويتهدم المجتمع من الداخل، لذلك جاء النهي القاطع: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾؛ فصلاح المجتمع يبدأ من قداسة الكلمة.

٤) الانتهازية الاجتماعية والقياس بالمكاسب لا بالحق: من أخطر الانحرافات أن تُدار العلاقات بمنطق "الأكثر ربحاً" لا بمنطق الصدق، وقد ضرب القرآن مثالاً يهزّ الضمير: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾؛ أعمال تُبنى ثم تُهدم لأن النِّيَّة لم تكن لله تعالى.

٥) الصدّ عن سبيل الله بإفساد السلوك العام: قد لا يصدّ الناس بالكلام فقط بل بالسلوك الذي ينفّر ويشوّه، لذلك حذّر: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فزلّة القدوة قد تهدم قلوباً كثيرة في لحظة.

❖ الانحراف النفسي

١) الغرور بالنعم ونسيان المنعم: النفس حين تشبع قد تظن أن النعمة "حقٌّ مكتسب" فتقسو، لذلك أعاد القرآن أصل الحقيقة: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾؛ فدواء النفس المتكبرة أن تعود لفقه المنّة لا فقه الاستحقاق.

٢) اللجوء إلى الله وقت الضيق ثم نسيانه عند الفرج: من أعمق الانحرافات النفسية ازدواجية القلب؛ يصرخ في الشدة ثم يبرد في الرخاء: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ ثم ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ وهذا مرض "نسيان الله بعد الحاجة إليه".

٣) الاستكبار الداخلي ورفض الحق ولو كان واضحاً: قد يرى الإنسان آيات الله في الكون وفي نفسه ثم يرفض الخضوع بسبب الكبر، لذلك قال: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾؛ فالمشكلة ليست في الدليل بل في القلب المتعالي.

٤) الخوف والضيق أمام الأذى والمكر: الطريق إلى الله ليس مفروشاً بالتصفيق، ولذلك خُوطب النبي ﷺ بما يواسي كل داعية: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ فدواء الضيق ليس الاستسلام بل دوام الصلة بالله حتى يثبت القلب.

٥) الوسوسة عند القرآن والتعلّق بالشيطان في لحظة القراءة: الشيطان يعرف أن أعظم لحظة تغيير هي لحظة تلاوة القرآن، لذلك جاء الدواء العملي المباشر: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾؛ فالاستعاذة ليست لفظاً بل تحصينٌ للقلب حتى لا تُسرق لحظة النور.

الخلاصة

هذا الجزء يحذّر من انحرافٍ:

- يبدأ بفكرةٍ صغيرةٍ في القلب،

- ثم يتحوّل إلى موقفٍ أخلاقي،
- ثم إلى سلوكٍ اجتماعي،
- ثم إلى مصيرٍ آخروي؛
- ويؤكد أن الحماية من كل ذلك لا تكون إلا بثبات المرجعية ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾،
- وتسليم القلب للقدر،
- وشكر النعمة،
- ومجاهدة الهوى،
- والصبر حتى يأتي اليقين.

الملامح الشخصية التي يصنعها الجزء الرابع عشر

سورة الحجر:

- سورة الحجر لا تصنع "معلومة" في ذهن القارئ بقدر ما تصنع "شخصية" في داخله؛ شخصيةٌ تخرج من ضجيج الظاهر إلى يقين الباطن، ومن الافتتان بالمشهد إلى رؤية السُّنن، ومن الخوف من الناس إلى الثبات مع الله، ومن التشتت أمام الابتلاء إلى وضوح الطريق، لأن السورة تفتتح بتعظيم الوحي وبيان أنه نورٌ كاشف لا لبس فيه: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾، ثم تُريك كيف يتمنى الكافر يوماً لو كان مسلماً بعد فوات الفرصة: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، لتغرس فيك عقلاً لا يخدعه الأمل الكاذب ولا تؤخره الغفلة الطويلة.

١) شخصية "الموقن بالوحي" لا المتردد أمام الشبهات؛ لأنه يرى القرآن "مبيناً" في أصله ومنهجه، فإذا هاجت الضوضاء حوله لم يفتش عن شرعية الوحي في ألسنة الناس بل في يقين الله، ويستند إلى الوعد القاطع الذي يصنع أماناً داخلياً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فيخرج من

عقدة الخوف على الدين إلى عبودية العمل للدين.

٢) شخصية "الواعي بسُنَن التاريخ" لا السَّاذج الذي يندهش من تكرار الكفر؛ لأن المقطع يريك أن الاستهزاء بالرُّسل سُنّة تتكرر لا حادثة طارئة: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، فيتعلم القلب أن الطريق إلى الله لا يُقاس بكثرة المعارضين بل بثبات الحق، وأن الغربة ليست دليل خطأ بل قد تكون دليل صدق.

٣) شخصية "المنضبط أمام فتنة المتاع" لا المستهلك الذي تجرّه الشَّهوة والأماني؛ فالسورة تكشف خدعة الحياة حين تتحول إلى أكلٍ وتمتعٍ وأملٍ يلهي حتى تأتي الصدمة: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، فتصنع فيك نفساً تقف عند اللَّذة لتسأل: هل تقرّبني من الله أم تُبعدني عنه؟ وهل أملي يقودني للتوبة أم يُنوّمني عن الحساب؟

٤) شخصية "التي تؤمن بالقدر والكتاب والأجل" لا القلقة التي تظن الدنيا فوضى؛ يضع أمام عينيك قانون الله في الأمم والأفراد: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، فتنشأ فيك طمأنينةٌ عاقلة؛ لا تُسقِط الأخذ بالأسباب، ولا تُحوّل الأسباب إلى إله، بل تجعلها سعياً تحت سلطان الرَّب.

٥) شخصية "الموحِّد في رؤية الكون" لا المنبهر بالظاهر دون المنعم؛ إذ تتسع السورة لتريك أن السماء والأرض والنبات والرياح والماء ليست مشاهد حيادية، بل آيات تدل على تدبيرٍ محكم: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، فتتكوّن نفسٌ تشكر بعين البصيرة، وتفهم أن الرزق ليس حظاً أعمى بل تقديرٌ رحيمٌ وحكمة.

٦) شخصية "التي تعرف عدوها الحقيقي" لا التي تُسقط ضعفها على أقدار الله تعالى؛ لأن السورة تكشف جذور الشر في قصة إبليس: الاستكبار

والاعتراض على أمر الله، ثم تحويل الذنب إلى تبرير، ثم إعلان الحرب على بني آدم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فتربى فيك يقظةٌ لا تغتر بزينة المعصية ولا تصدّق تسويغها، وتتعلم أن المعركة الأولى في الداخل قبل الخارج.

٧) شخصية "المخلَص الذي يستمد الحماية من الله" لا من ثقته بنفسه؛ يرسّخ قاعدة النجاة: أن سلطان الشيطان ليس على عباد الله المخلصين، وأن النجاة ليست ذكاءً ولا خبرةً فقط بل توفيقٌ وإخلاص: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، فيولد فيك تواضعٌ يحرس الطاعة: "لا نجاة لي إلا بالله".

٨) شخصية "المتوازنة بين الرجاء والخوف" لا المائعة ولا القانطة؛ لأن السورة تفتح باب الرجاء الصافي ثم تضع بجواره هيبة الوعيد لتستقيم النفس: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، فتتربى شخصية لا تُسيء الظَّنَّ بالله فتقنط، ولا تأمن مكر الله فتفجر، بل تسير إلى الله تعالى بقلبين: قلب يرجو وقلب يخاف.

٩) شخصية "التي تقرأ الابتلاء بوصفه تربيةً لا انتقاماً"؛ فقصص إبراهيم ولوط وأصحاب الأيكة والحِجر ليست سرداً تاريخياً، بل إنذارٌ أن الإفساد له نهاية، وأن السُّنن لا تُحابي أحداً، وأن القرى التي تتجبر قد تُؤخذ فجأة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾، فتتشكل فيك رهبةٌ تمنعك من الاستطالة، وبصيرةٌ تُعيدك للتوبة قبل الصيحة.

١٠) شخصية "العفيفة عن المقارنات" لا التي ينهشها التطلع لما في أيدي الناس؛ لأن الله يُربي نبيَّه على ألَّا يمدّ عينيه إلى زخارف الدنيا، وأن رحمة الإيمان أغلى من متاعٍ يزول: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾...

فتخرج شخصية راضية لا تحسد، تعمل ولا تتحرق، تأخذ بالأسباب ولا تتعلق بالنتائج.

١١) شخصية "الجريئة بالحق" دون تهور، الثابتة دون استعداءٍ فارغ؛ لأن الأمر جاء واضحاً: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، ومعه وعد الكفاية: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، فتتكون نفسٌ تقول الحق بلا خوفٍ من السُّخرية، لكنها لا تجعل معركتها مع الناس بل تجعلها مع البلاغ والأمانة.

١٢) شخصية "التي تعالج ضيقها بالعبادة لا بالانسحاب"؛ لأن الله لم يقل: اعتزل حتى يهدأ الناس، بل قال دواء الصدر إذا ضاق: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، ثم ختمها بمنهج العمر كله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، فهي شخصية تردّ الألم إلى سجود، والاضطراب إلى تسبيح، والهمّ إلى عبادةٍ ممتدة لا تنقطع بتغير الظروف.

سورة النحل:

سورة النحل تصنع "شخصيةً توحيديةً" تتنفس اليقين بدل الهلع، وتقرأ الكون قراءةَ عبدٍ يعرف ربَّه لا قراءةَ سائحٍ يلتقط الصور؛ يبدأ بهزّةٍ توقظ القلب من عادة التسويف: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، كأن القرآن يربّيك على أن الساعة ليست فكرة بعيدة، وأن الحساب ليس احتمالاً، وأن من عاش يؤجّل التوبة سيُفاجَأ بقدر الله وهو لم يتهيّأ، ثم يثبت فيك أصلَ الأصول: أن الوحي ليس رأياً ولا فلسفة، بل إنذارُ توحيدٍ وتقوى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾، فتخرج من هذا الجزء ملامحُ إنسانٍ جديدٍ يعرف لماذا يعيش، ولمن يعمل، ومن أين يأخذ معنى الخير والشر.

١) ملمح اليقين مع الله بدل التوتر من المجهول؛ لأن أول ما يضربك به النص هو قرب أمر الله وحتميته، فيتعلم قلبك أن يشتغل بالاستعداد لا بالجدل،

وبالإنابة لا بالاعتراض، وبالعمل لا بالاستعجال على قضاء الله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، فتتكون شخصية لا تنهار عند الأخبار ولا ترتجف من الغد؛ لأنها تسند الغيب إلى رب الغيب.

٢) ملمح التوحيد الصافي الذي يقطع الاعتماد على غير الله؛ فالسورة تجعل التوحيد هو "الرسالة الأولى" التي تُوزن بها كل طرق الحياة، وتضع التقوى كترجمةٍ عملية لهذا التوحيد: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾، فتخرج شخصية لا تُعلّق قلبها بأسبابٍ منفصلة عن المسبب، ولا تتعبد لله بلسانها ثم تتوكل على الناس بقلبها.

٣) ملمح قراءة الكون كآيات لا كزينة؛ لأن السورة تفتح أمامك باباً واسعاً: خلقٌ بالحق، وتسخيرٌ بالحق، ونِعمٌ تُرى بالعين لكن معناها يُفهم بالقلب: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، فتتشكل فيك نفس لا تمرّ على الليل والنهار والشمس والقمر مرور الغافل، بل مرور من يرى "أمر الله" في كل شيء، فيزداد عقلاً وذكراً وشكراً.

٤) ملمح التواضع أمام حقيقة الإنسان؛ فالقرآن يفضح الغرور من جذره: هذا الخصيم الذي يرفع صوته بالحجة والجدال بدأ من نطفةٍ ضعيفة: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، فتتكون شخصية تعرف قدرها فلا تستكبر، وتحفظ لسانها فلا تجادل ربها عند البلاء، ولا تُخاصم الحق إذا خالف هواها.

٥) ملمح الامتنان العميق بدل التعامل الاستهلاكي مع النِّعم؛ لأن السورة لا تذكر المنافع فقط، بل تذكرك أن وراء الدفء والطعام والجمال والركوب والرزق "رؤوفاً رحيماً": ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فتخرج نفسٌ تشكر قبل أن تطلب المزيد، وتستحي أن تعصي بالنعمة من أنعم بها، ولا ترى النعم "مستحقة" بل "موهوبة".

٦) ملمح معرفة الطريق والاتجاه بدل التّيه؛ فالسورة تُشعرك أن الهداية ليست مجرد معلومات، بل "قصد سبيل" من الله وبيانٌ للطريق المستقيم من الطريق الجائر: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، فتتكون شخصية تحب الوضوح، وتخاف التلبيس، وتفتش عن "ما يقصد بها إلى الله" لا عن ما يرضي الناس أو يلمّع الصورة.

٧) ملمح التحرر من الأوثان القديمة والجديدة؛ فالسورة تقطع مادة الشِّرك من أصلها: من يُدعَون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم مخلوقون: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، فتتكون شخصية لا تقدّس بشراً، ولا تذوب أمام مؤثرٍ أو زعيمٍ أو "رأي عام"، ولا تجعل رزقها وكرامتها وخوفها ورجاءها عند غير الله.

٨) ملمح الصدق مع النفس في كشف الاستكبار الخفي؛ لأن السورة تصف قلوباً منكِرةً مستكبرةً، وتفضح حب الاستعلاء الذي يُغلق باب الحق ولو سمعه: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾، فتخرج شخصية تراقب بذرة الكِبر في نفسها قبل أن تتحول إلى عنادٍ وعمى.

٩) ملمح الأمانة العلمية والخوف من تضليل الناس؛ لأن السورة لا تخوفك من إثمك وحدك، بل من حمل أوزار غيرك إذا أضللتهم بكلمة أو ترويج أو قدوة سيئة: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فتتكون شخصية تحسب للكلمة حساباً، وللمنشور حساباً، وللتأثير حساباً؛ لأنك قد تُكتب عند الله "مضلّاً" وأنت تظن نفسك "ناصحاً".

١٠) ملمح الرجاء العامل لا الرجاء الكسول؛ فالمتقون عندهم معيار واضح حين يُسألون: ماذا أنزل ربكم؟ يقولون خيراً، لا لأنهم يجهلون الابتلاء، بل لأنهم يرون الوحي خيراً يقود إلى حسن الدنيا والآخرة: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا

مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾، فتخرج شخصية ترى في الشرع رحمةً وهداية لا ثِقَلاً، وتستقبل الأمر والنهي بوصفه "خيراً" وإن خالف الهوى.

١١) ملمح الثبات تحت الأذى مع توكلٍ راشد؛ لأن السورة تُظهر أن الهجرة بعد الظلم والصبر والتوكل ليست قصة تاريخ، بل سُنة تربية: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فتتكون شخصية لا تبيع دينها تحت الضغط، ولا تتكئ على قوتها، بل تعرف أن الثبات رزقٌ وأن التوكل عبودية.

١٢) ملمح الانضباط في مصادر التلقي؛ فلا يتكلم الإنسان في دين الله بجهل، بل يسأل أهل الذكر عند عدم العلم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فتخرج شخصية تعرف حدّها، وتقدّر العلم، وتخاف القول على الله بلا بصيرة، فلا تُفتي بمزاج ولا تنشر ديناً مُخففاً لإرضاء الناس.

١٣) ملمح الوفاء بالعهد وحراسة اليمين والالتزام الأخلاقي في التفاصيل؛ لأن السورة تنقلك من التوحيد الكوني إلى التوحيد السلوكي: عدلٌ وإحسانٌ ووفاءٌ بالعقود، وتحذيرٌ من نقض العهد بعد توكيده: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾، فتتكون شخصية لا تُجزّئ الدين: لا توحيد في المسجد ونقضٌ في السوق، ولا ذكرٌ على اللسان وغشٌّ في المعاملة.

١٤) ملمح الهمة الآخروية التي لا تُباع بثمن قليل؛ فالسورة تربيك أن ما عند الله باقٍ وما عند الناس ينفد، وأن البيع الرخيص للعهد خسارةٌ وإن ربح صاحبه لحظات: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾، فتخرج شخصية ترى "القيمة" حيث يراها الله، لا حيث يصفق الناس.

١٥) ملمح الأمل الواقعي في "الحياة الطيبة" لا الوعد المزيف بالراحة الدائمة؛ لأن السورة تعد حياة طيبة لمن جمع الإيمان والعمل الصالح، لكن لا تُحوّلها

إلى ضمان رفاهٍ مطلق، بل طمأنينةٌ ورشدٌ وبركةٌ وثبات: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، فتتشكل فيك نفسٌ لا تقيس رضا الله برفاه الجسد وحده، بل بسلامة القلب وصدق السير.

١٦) ملمح التحصّن عند العبادة والوعي بمعركة الوسوسة؛ لأن السورة تضع لك أدباً يسبق القراءة والعمل: الاستعاذة بالله من الشيطان، وفهم أن سلطانه إنما يكون على من تولاه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾، فتخرج شخصية لا تستسلم للخواطر، ولا تبرر الانحراف بأنه "طبع"، بل تعرف أنه بابٌ يُغلق بالذكر والتوكل والطاعة.

١٧) ملمح الصبر الجميل في الدعوة وضبط النفس عند الأذى؛ لأن الخطاب لا ينتهي عند الأمر بالبلاغ، بل يربيك على الحكمة والموعظة الحسنة، وعلى العدل عند المعاقبة، وعلى الصبر الذي لا يُستخرج من النفس وحدها بل من الله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، فتتكون شخصية داعيةٍ رحيمةٍ ثابتة؛ لا تنتقم لذاتها، ولا تتنازل عن حقها الشرعي، لكنها تجعل سقفها الأعلى هو الإحسان والتقوى.

فالشخصية التي يخرج بها القارئ من هذا الجزء هي شخصيةٌ ثابتةُ المرجع، متواضعةُ القلب، شاكرةُ النِّعمة، منضبطةُ الخلق، صابرةُ البلاغ، مطمئنةُ المصير؛ عرفت أن النجاة في صدق العبودية، وأن الثبات في لزوم الوحي، وأن الطريق يُسلك باليقين لا بالانفعال، حتى تلقى الله وقلبها مستقيمٌ على الصراط.

أمراض القلوب التي يعالجها الجزء الرابع عشر (الحِجْر – النحل)

❖ أولاً: أمراض العلاقة بالله (الخلل العقدي)

١) مرض الشك في الوحي والطعن في مصدره: القلب الذي يُواجه الذكر بالاستهزاء أو الاتهام يعيش خللاً في أصل التسليم، لذلك يُعالَج بيقينٍ قاطع أن المرجعية محفوظة بحفظ الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؛ فلا يكون الإيمان رهين قبول الناس بل ثابتاً بعهد الله.

٢) مرض الاعتراض على القدر وتحميل المشيئة مسؤولية المعصية: الاحتجاج بالمشيئة على الشرك أو الانحراف يفسد فهم العبودية، فيُصحّحه الجزء بإرجاع الأمر كله إلى تدبيرٍ حكيم ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ مع بقاء مسؤولية العبد عن اختياره.

٣) مرض الشرك الخفي في النعمة والتعلّق بالأسباب: القلب قد يعترف بوجود الله لكنه ينسب الفضل لغيره؛ فيُعاد توجيهه إلى أصل التوحيد العملي ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ ليعود الشُكر خالصاً للمنعم لا للمظاهر.

٤) مرض القول على الله بغير علم: التشريع بالرأي أو الهوى خللٌ في مقام الربوبية، فيُضبط بحدٍّ واضح ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾؛ فالدين توقيفٌ لا يُصاغ وفق الأهواء.

❖ ثانياً: أمراض النيّة والعبودية

١) مرض الكِبر الداخلي ورفض الخضوع: أصل الانحراف في قصة إبليس لم يكن نقص معرفة بل استعلاء نفس؛ فالجزء يُعالج هذا الداء بتثبيت معنى السجود والانقياد قبل الجدل.

٢) مرض القنوط أو الأمن الكاذب: القلب قد ييأس من رحمة الله أو يأمن مكره، فيُعاد توازنه بميزانٍ جامع ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ • وَأَنَّ

عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ليبقى بين رجاءٍ منضبطٍ وخوفٍ محمود.

٣) مرض الغفلة بطول الأمل: ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾؛ حين يطول الأمل يتأخر العمل، فيوقظ الجزء القلب بحقيقة الأجل وأن كل شيءٍ له كتابٌ معلوم.

٤) مرض ضعف الالتجاء عند ضيق الصدر: الانكماش أمام أذى الناس يُداوى بالعودة إلى العبادة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾؛ فالعلاج ليس في الانسحاب بل في تعميق الصلة بالله.

❖ ثالثاً: أمراض الموقف الأخلاقي

١) مرض الاستهزاء بالحق وأهله: السُّخرية من الرسالة تُميت الهيبة في القلب وتفتح باب الاستهانة بالمقدّس؛ فيُعالج ذلك بتثبيت مكانة الوحي وأنه فوق أهواء البشر.

٢) مرض نقض العهد بعد توكيده: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ الغدر ليس خطأً اجتماعياً فحسب بل خللٌ في صدق العبودية.

٣) مرض الجحود بعد النعمة: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾؛ حين تتحول النِّعمة إلى سبب طغيان يُنزع عنها بركتها، ويُستبدل الرخاء بخوفٍ وجوع.

٤) مرض الانسياق خلف الشهوة بلا ضابط: قصة قوم لوط تكشف أن الانحراف الأخلاقي يبدأ بتطبيع المنكر حتى يصير عادةً اجتماعية، فيسقط الحياء وتسقط الحماية الإيمانية.

❖ رابعاً: أمراض الثبات أمام الابتلاء

١) مرض استعجال النتائج: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ الاستعجال يربك القلب ويُضعف يقينه، بينما الثبات يولد من الثقة بحتمية وعد الله.

٢) مرض الاضطراب بعد الاستقامة: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾؛ أخطر السقوط ما يأتي بعد ثباتٍ طويل إذا تساهلت النفس في موضعٍ صغير.

٣) مرض الغرور بالأمن المادي: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾؛ الشعور الزائف بالأمان يُغفل القلب عن السُّنن الإلهية التي لا تُحابي أحداً.

٤) مرض ضعف الصبر عند الأذى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ الثبات ليس طاقةً ذاتيةً محضة بل معونةٌ ربانية تُطلب بالافتقار إليه.

الخلاصة

يعالج هذا الجزء جذور الانحراف قبل فروعه؛

← يُصلح علاقة القلب بربه توحيداً وتسليماً،

← ويُهذّب النِّيّة خضوعاً واتزاناً،

← ويُقوّم الأخلاق عهداً وعدلاً وشكراً،

← ويُثبّت النفس أمام الابتلاء صبراً ويقيناً؛

حتى يخرج القارئ بقلبٍ سليمٍ يعرف أن النجاة في صدق العبودية، وأن الثبات في لزوم الوحي، وأن كل شيءٍ بقدرٍ معلوم، وأن النهاية إلى الله وحده.

اختبار ذاتي عميق: أسئلة مواجهة لا معلومات

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

١) هل أتعامل مع القرآن على أنه مرجعيّةٌ نهائية في حياتي، أم أُخضعه أحياناً لميزان المزاج العام والقبول الاجتماعي، مع أن الله قال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؟.. إن كان ثباتي يتأثر بكثرة المستهزئين، فأنا معنيٌّ بهذا النداء قبل غيري.

٢) هل أعيش يقين ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ حين تضيق بي الأحوال، أم أتصرف وكأنَّ الأمور خرجت عن ميزان الحكمة الإلهية؟.. القلق المفرط قد

يكشف خللاً في تسليمي لأقدار الله سبحانه وتعالى لا في الظروف نفسها.

٣) هل أنا ممن يطول أملهم حتى يُلهيهم عن التوبة والعمل، كما وصف ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾؟.. تأجيل الإصلاح بحجة "الوقت لم يحن بعد" قد يكون علامة غفلة لا حكمة.

٤) هل أشعر أنني أقف بين رجاءٍ وخوفٍ متوازنين، أم أنني أميل إلى طرفٍ يُضعفني، مع أن الميزان الرَّباني قال ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ • وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾؟... اختلال هذا التوازن يكشف موضع علاجي الحقيقي.

❖ أين انكشف قلبي؟

١) هل في داخلي شيءٌ من كِبرٍ خفيٍّ يجعلني أجادل لأنتصر لا لأهتدي، شبيهاً بجذر امتناع إبليس عن السجود؟ رفض الحق بدافع داخلي أخطر من الجهل به.

٢) هل أنسب نجاحي وجهدي لنفسي وأغفل أن ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾؟.. ضعف الشُّكر قد يكشف تعلّقاً بالأسباب أكثر من المسبِّب.

٣) هل ألتزم بعهودي وأيماني، أم أبحث عن مخارج إذا تغيّرت المصلحة، مع التحذير ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؟.. انكشاف الصدق يظهر في المواقف التي لا يرانا فيها أحد.

٤) هل ضاق صدري يوماً بأذى الناس ولم أفرّ إلى التسبيح والسجود كما وُجِّه النبي ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾؟.. طريقة تعاملي مع الضِّيق تكشف حقيقة اتكالي.

❖ أي آية أربكتني؟

١) هل أربكتني ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لأنني أعيش استعجال النتائج وأضيق بتأخر الثمرات؟.. الارتباك قد يدل على تعلق قلبي بالعاجل أكثر من ثقتي بالآجل.

٢) هل أقلقتني ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ لأنني بنيت أمانيّ على ما يفنى؟.. الخوف من الفقد يكشف موضع التعلّق الحقيقي.

٣) هل شعرت بثقل عند ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ لأنني أدرك أن استقامتي تحتاج حراسةً دائمة لا ثقةً مفرطة؟..الثبات امتحانٌ مستمر لا شهادةٌ تُعلَّق.

٤) هل لامستني بعمق ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ فأدركت أن المعية ليست دعوى بل شرطها التقوى والإحسان؟.. الآية قد تُربك من يطلب المعيَّة بلا استحقاقها الشرعي.

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) هل أؤجّل عادةً أعلم أنها تُضعف علاقتي بالله بحجة أنني "سأتركها لاحقاً"، بينما الأجل بيد الله تعالى لا بيدي؟.. تسويف التوبة أخطر من الذنب نفسه.

٢) هل أُسوّف إصلاح خللٍ في أخلاقي أو في عهدي مع الناس، رغم أن العدل والإحسان أمرٌ إلهيٌّ واضح ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾؟ الإصلاح المؤجَّل قد يتحول إلى عادةٍ مستقرة يصعب اقتلاعها.

٣) هل أُؤجّل تعميق عبادتي لأنشغل بما هو أدنى، رغم أن الوصية كانت واضحة ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾؟.. الاستمرارية في العبادة هي صمّام الأمان أمام الانحراف.

٤) هل أؤخر خطوة البلاغ أو الموقف الحق خوفاً من ردود الأفعال، مع أن الأمر جاء صريحاً ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾؟.. التأجيل أحياناً ليس حكمة بل تردّدٌ يحتاج شجاعةً إيمانية.

خاتمة المواجهة

هذا الجزء لا يطلب منك معلوماتٍ جديدة بقدر ما يطلب صدقاً جديداً؛ صدقاً في التسليم للوحي، وصدقاً في الرضا بالقدر، وصدقاً في شُكر النِّعمة، وصدقاً في الثبات حتى يأتيك اليقين؛ فالسؤال الحقيقي ليس: **ماذا فهمتُ من الآيات؟ بل: ماذا غيّرتُ بها في قلبي وسلوكي؟.**

خطة التغيير: طريقٌ قصيرٌ لكنه صريح

١) ثبّت مرجعيتك قبل أي خطوة: اجعل القرآن هو الميزان الذي تُراجع به أفكارك وقراراتك، لا رأي الناس ولا ضغط الواقع؛ استحضر يقين الحفظ الإلهي ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقرّر أن لا تُعيد تعريف الحق تحت أي ظرف.

٢) صحّح فهمك لقدر الله حتى يهدأ قلبك: ذكّر نفسك كل يوم أن ما يجري عليك ليس فوضى بل تنزيلٌ بحكمة ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ واجمع بين الأخذ بالأسباب وتسليم النتائج لله دون اعتراضٍ أو استعجال.

٣) اقطع جذور الكِبر قبل أن يظهر أثره: فتّش في داخلك عن لحظة رفضٍ خفيٍّ للحق أو تعالٍ على النص، وعالجها بسجدة خضوعٍ صادقة؛ فالانحراف يبدأ من استعلاءٍ داخلي لا من نقص علم.

٤) أعد توجيه النِّعمة إلى الشُّكر لا الغفلة: كلما رأيت خيراً في حياتك رُدّه فوراً إلى مصدره ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾؛ درّب قلبك على الاعتراف قبل الاعتياد، وعلى الحمد قبل التفاخر.

٥) أغلق باب التسويف الآن لا غداً: لا تقل "سأصلح لاحقاً"، بل اختر عادةً واحدةً تعلم أنها تُضعفك وابدأ بإيقافها فوراً؛ تذكّر أن العبادة مستمرة ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، وأن الأجل لا ينتظر استعدادك.

٦) وازن بين الرجاء والخوف في قراراتك: إذا أخطأت فارجع بثقةٍ في رحمته، وإذا استقمت فابقَ خائفاً من الزَّلل؛ عش المعنى الجامع ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ • وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ دون إفراطٍ في أحد الطرفين.

٧) ثبّت قدمك بعد الاستقامة: احذر أن تعتبر ثباتك ضماناً دائماً؛ راقب مواضع الزَّلل الصغيرة حتى لا تتحقق فيك التحذير ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾، فالحراسة اليومية خيرٌ من ندمٍ متأخر.

٨) عالج ضيق صدرك بالعبادة لا بالانسحاب: إذا اشتد الضغط أو الأذى فارجع إلى التسبيح والسجود كما وُجّه النبي ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾؛ اجعل صلتك بالله أول ردّ فعلٍ لا آخره.

٩) لا تستعجل وعد الله: حين ترى الباطل ظاهراً أو الفرج متأخراً، ذكّر نفسك أن الأمر بيده وحده ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ واجعل ثباتك جزءاً من إيمانك بالوعد.

١٠) اختم كل خطوة بتجديد النِّيَّة: اسأل نفسك: هل أفعل هذا طلباً لرضا الله أم لرضا نفسي؟ واجعل معيارك في النهاية معية الله الخاصة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾؛ فالقرب منه هو الغاية، وما عداه وسيلة.

هذه الخطة ليست طويلة، لكنها صريحة؛ تبدأ بتصحيح المرجعية، وتهدئة القلب بالقدر، وكسر الكِبر، وتفعيل الشكر، وإيقاف التسويف، وحراسة الثبات، واللجوء إلى العبادة، وانتظار الوعد بيقين؛ ومن سلكها بصدقٍ تغيّر قلبه قبل أن تتغير ظروفه، واستقام طريقه قبل أن تتبدّل الدنيا من حوله.

خاتمة وجدانية مزلزلة

وفي نهاية هذا الجزء لا تبقى القضية قصةَ أُممٍ مضت، ولا جدلَ مكذبين، ولا عرضَ نعمٍ زالت؛ بل يبقى السؤال قائماً أمامك أنت:

١) أين يقف قلبك الآن بين وحيٍ محفوظٍ قال الله فيه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وبين نفسٍ قد تُلهيها الدنيا ويُضلّها الأمل،

٢) وأين تموضعك بين نعمةٍ أُسديت إليك ليُختبر بها شكرك، وقد قيل ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، وبين غفلةٍ تُحوّل العطية إلى استدراج، وبين وعدٍ لا يُخلفه الله ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وبين استعجالٍ يُربك يقينك ويكشف تعلّقك بالعاجل؟.

- هذا الجزء يهزُّك لا ليُخيفك من الظالمين وحدهم، بل ليُوقظك من وهم الأمان إن سكنتَ إلى نفسك،
- ويُذكّرك أن الاستقامة ليست لحظة حماس بل حراسةُ قدمٍ بعد ثبوتها حتى لا يتحقق فيك التحذير ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾..
- وأن العبادة ليست موسماً عابراً بل عهداً ممتداً ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾..
- وأن النجاة ليست بكثرة الدعوى بل بصدق الانقياد، وبقلبٍ إذا ضاق صدره لم يهرب إلى الضجيج بل رجع إلى السجود ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾.

فإن خرجتَ من هذا الجزء ولم يتغيّر في داخلك شيء، فاعلم أن الآيات مرَّت عليك كما تمرُّ الرِّيح على الصَّخر، وإن شعرتَ أن موضعاً في قلبك قد انكشف، فذلك أول الفتح؛ لأن الطريق لا يبدأ بكمالٍ موهوم، بل باعترافٍ صادقٍ وعودةٍ ثابتة، حتى تلقى الله تعالى بقلبٍ يعلم أن الأمر كله بيده، وأن الفضل كله منه، وأن العبد لا ينجو إلَّا إذا صدق في عبوديته، وأخلص في

توحيده، وثبت حتى النهاية، راجياً رحمته، خائفاً من عدله، موقناً أن ما عنده يفنى، وأن ما عند الله باقٍ.

روح الرسالة التربوية والعقدية الموجَّهة لكل مسلم في هذا الجزء

- مرجعيتك محفوظة فلا تساوم عليها: الدين ليس رأياً قابلاً للتطوير وفق الأهواء، بل وحيٌ تكفّل الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؛ فثباتك يبدأ من ثقتك بأن المصدر معصومٌ من العبث.
- الكون يجري بقدرٍ لا بارتجال: ما يصيبك ليس فوضى، بل تنزيلٌ محسوب ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ فالإيمان بالقدر يحررك من القلق ويُلزمك بالمسؤولية دون اعتراض.
- أصل السقوط كِبرٌ قبل أن يكون خطأً: قصة إبليس تعلّمك أن المعصية قد تبدأ باستعلاءٍ داخلي، وأن النجاة في خضوعٍ صادقٍ لا في جدلٍ طويل.
- النعمة اختبارٌ لا استحقاق: كل عطيةٍ في حياتك تُعيدك إلى أصلها ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾؛ فإن شكرتَ زادتك قرباً، وإن جحدتَ صارت عليك حجة.
- التوازن بين الرجاء والخوف هو طريق السلامة: لا تيأس من رحمته ولا تأمن عقابه؛ عش المعنى الجامع ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ • وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، فالتوحيد الصحيح يحفظ هذا الميزان.
- الاستقامة تحتاج حراسةً دائمة: الثبات ليس إنجازاً نهائياً بل عهداً متجدداً، وإلا تحقّق التحذير ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾؛ فالمؤمن يحرس قلبه كما يحرس جوارحه.
- علاج الضيق في العبادة لا في الهروب: إذا اشتد الأذى أو ضاق الصدر فالملجأ هو الذكر والسجود ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾؛ فالقلب يتقوّى بالقرب لا بالانعزال.

- لا تستعجل وعد الله ولا تستبطئ سُننه: الحق يمضي في طريقه ولو بدا الباطل ظاهراً؛ فالأمر بيد الله تعالى ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، والثبات على المبدأ جزءٌ من الإيمان بالوعد.
- الحياة الطيبة ثمرة الإيمان لا وفرة المتاع: الكرامة ليست في كثرة المال بل في صدق الصلة بالله تعالى ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾؛ فصلاح الداخل هو الذي يصنع طمأنينة الخارج.
- المعية الخاصة تُنال بالتقوى والإحسان: ليست المعيَّة شعاراً يُرفع، بل حقيقة تتحقق لمن استقام ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾؛ فالقُرب من الله ثمرة طريقٍ مستقيم لا ادعاءٍ لفظي.

الخلاصة المركَّزة

هذا الجزء يُعيد بناء المسلم من الداخل؛

- **يثبّت مرجعيته،**
- **ويصحّح توحيده،**
- **ويضبط توازنه النفسي،**
- **ويقوّي أخلاقه،**
- **ويُثبّته أمام الابتلاء،**
- **ويعلّمه أن النعمة أمانة،**
- **وأن الصبر عبودية، وأن الوحي حجة،**
- **وأن الطريق طويلٌ لكنه واضح؛**

فمن فهم هذه الروح وعاشها لم يعد يتقلّب مع الأحداث، بل صار قلبه ثابتاً على الصراط، متجهاً إلى الله وحده، يعلم أن كل شيءٍ بيده، وأن النجاة في صدق العبودية حتى الممات.

الترابط بين الجزأين ١٣ – ١٤

❖ الترابط الموضوعي بين الجزأين (١٣ ↔ ١٤)

١) الجزء الثالث عشر يُغلق لك "مشهد الابتلاء الطويل" في سورة يوسف على منطقٍ قرآنيّ واضح:

- تزكية الداخل قبل تزكية الظاهر،
- وأن الطريق إلى التمكين يمرّ من بوابة الصدق مع النفس،
- وأن العاقبة ليست قفزةَ حظٍّ بل ثمرةُ صبرٍ وتقوى،

ثم يوسّع المشهد من قصة يوسف إلى سُننٍ كونية في الرعد وإبراهيم: الحق ثابت، والباطل زبد، والناس أكثرهم معرضون، والآيات تمرُّ عليهم وهم لا يتفكّرون.

٢) الجزء الرابع عشر يستلم الخيط نفسه لكنه ينقله من "قصة تمكين فردٍ" إلى "معركة تثبيت أمة":

- حفظ الذكر،
- انكشاف طبيعة التكذيب،
- صراع النبوة مع الاستهزاء،
- ثم عرض جذور الانحراف: كُفر النعمة، اتباع الهوى، ثم فتح أبواب النحل على دلائل الربوبية والنعم والآيات في الخلق؛

ليصير القارئ أمام سؤال واحد ممتد: هل ستقرأ آيات الله لتتغير... أم لتتفرج؟.

٣) الجزء ١٣ يعلّمك أن الحياة تُدار بميزانين لا ينفصلان: ميزان الإحسان في الخفاء، وميزان السُّنن في الوجود؛ فتجد يوسف عليه السَّلام يُحسن فيُؤجر، ويعقوب عليه السَّلام يُفوِّض فيطمئن، ثم تُسمع قاعدته الكبرى في اليقين: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾...

بينما الرعد يُرسّخ معنى التدبير والتقدير والذكر والأنابة.

٤) الجزء ١٤ يكمل الفكرة نفسها لكن بصوتٍ أعلى: لا يكفي أن تعرف السُّنن؛ بل يجب أن تعرف "حفظ الدين" الذي يقيك من عبث البشر، فتأتي الحِجر بإعلانٍ قاطع: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ثم تأتي النحل لتقول: من لم يشكر النِّعمة ويعبد المنعِم انقلبت عليه النعم حُججاً لا زينة.

٥) نهاية الجزء ١٣ تُنهيك عند "سبيل الدعوة على بصيرة" بعد أن عرّفتك بالآيات والابتلاءات والتمكين: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، وبداية الجزء ١٤ تُشعرك أن هذه البصيرة ستُحارب بالاستهزاء والصدّ، وأنك إن لم تتربَّ على الصبر والثبات ستنهزم نفسيّاً قبل أن تُهزم حجّةً.

❖ **الترابط العقدي بين الجزأين (١٣ ↔ ١٤)**

١) الجزء ١٣ يُرسِّخ توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية عمليّاً لا نظريّاً: يعقوب عليه السَّلام يقطع التعلّق بالأسباب مع الأخذ بها، فيقول وهو يوصي أبناءه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، ثم الرعد يرفعك إلى شهود العلم والإحاطة والتقدير: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾، وأن الطمأنينة ليست "طاقة نفسية" بل عبودية ذكر: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

٢) الجزء ١٤ يثبت لك أن التوحيد لا يُصان بالعاطفة وحدها، بل بحفظ الوحي الذي يضبط التصورات والألفاظ والمفاهيم، فتأتي الحِجر بقضية عقدية جامعة: الله تكفّل بحفظ الذكر، فلا يجوز أن تُبنى العقيدة على ذوقٍ أو خواطر أو عباراتٍ سوقية، بل على وحيٍ محفوظٍ ومعانٍ منضبطة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

٣) في الجزء ١٣ ترى خطَّ الانحراف العقدي حين تمر الآيات على الناس ولا تغيّرهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، ثم يُعرّي نوعاً من الشِّرك العملي والمعنوي: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، فيأتي الجزء ١٤ ليكشف أحد منابع هذا الشرك: كُفر النِّعمة ونسبة الفضل لغير الله، وتحوّل النِّعمة إلى مادة غرور بدل أن تكون طريق شكر وعبادة.

٤) الجزء ١٣ يُعلّمك أن أسماء الله ليست مفردات تُقال، بل حقائق تُعاش: العلم، الحكمة، اللطف، الرحمة، الحفظ، الوكالة؛ فتعبر مع يعقوب قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ثم مع يوسف: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾، فيأتي الجزء ١٤ ليجعل هذه الأسماء تُقرأ في الكون كله: خلق، رزق، إمساك، تيسير، تسخير، تدبير؛ حتى لا يبقى الإيمان فكرةً بل شهوداً.

❖ الترابط البياني بين الجزأين (١٣ ↔ ١٤)

١) الجزء ١٣ ينتقل بيانيّاً من "قصٍّ محكم" في سورة يوسف يُربيك على قراءة السُّنن داخل الأحداث، إلى "نَفَسٍ كونيّ" في الرعد يرسم المعاني بالأمثال والصور: الحق كالماء النافع، والباطل كالزبد الزائل، فتخرج من الحكاية إلى القانون، ومن المشهد إلى الميزان.

٢) الجزء ١٤ يستلم هذا البناء البياني بطريقتين: الحِجر تُظهر أسلوب التحدي والقطع والحسم في مواجهة الاستهزاء، فتسمع جُملاً قصيرة قوية الإيقاع تُثبّت اليقين وتكسر الوهم، ثم النَّحل تُفصّل وتُعدد وتُفيض في ذكر النِّعم والآيات، كأنَّ القرآن ينقلك من "سوطٍ يوقظ الغافل" إلى "سِفرٍ يعلّم الشَّاكر كيف يرى".

٣) في الجزء ١٣ ترى كثافة الانتقال بين ضمائر الغيبة والخطاب في الرعد وإبراهيم لإحداث اليقظة: تقريرٌ ثم سؤالٌ ثم تعجيبٌ ثم تهديدٌ ثم تذكير؛ وهذا يُهيّئك لأسلوب الحِجر الذي يفتتح بصرخة اليقين أمام المكذبين ثم يثبت الحفظ ثم يعرض مشاهد الغيب والسُّنن.

٤) الجزء ١٣ يختم بيانيّاً على نغمة "البصيرة" و"السبيل" و"التسبيح" و"تنزيه الله عن الشرك" في خاتمة يوسف: ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، والجزء ١٤ يفتتح النحل بالصيغة نفسها تنزيهاً وتقديساً مع إعلان قرب أمر الله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وكأنَّ الخاتمة صارت مفتاحاً، والتسبيح صار جسراً بيانيّاً بين الجزأين.

❖ الترابط الوجداني بين الجزأين (١٣ ↔ ١٤)

١) الجزء ١٣ يُربّي القلب على "الصدق مع النفس" في لحظة اعترافٍ تخلع عنك قناع التبرير: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، ثم يربّيه على "عدم اليأس" في قاع الفقد: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾، ثم يرفعه إلى "سلام المغفرة" عند القدرة على المؤاخذة: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ فتخرج من الجزء وقد تعلّمت أن القلب قد يتكسر لكنه لا ينهزم إذا تعلّق بالله سبحانه وتعالى.

٢) الجزء ١٤ يستلم هذا القلب المرهف لكنه يضعه في ساحة الضجيج: استهزاء، تشكيك، اتهام، ضغط اجتماعي، إغراءات الدنيا، فتحتاج النفس إلى توازن جديد بين الرحمة والخوف، وبين لطف الله وشدة الحساب، وبين نعمة الأمن وخطر الغفلة؛ فتجيء الحِجر لتقول لك: لست وحدك، الوحي محفوظ، والحق لا يموت بسُخرية السَّاخرين.

٣) بعد أن ذاق قلبك في الجزء ١٣ طعم الطمأنينة بالذكر: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، يأتي الجزء ١٤ ليُعلِّمك كيف تحافظ على هذه الطمأنينة حين تتكاثر الأصوات من حولك؛ فتُربّي على عبادةٍ مستمرة لا موسمية: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، أي أن الطمأنينة ليست "لحظة وجدان" بل "عهد طريق".

٤) الجزء ١٣ يُسكن في قلبك معنى "اللُّطف بعد القسوة" ومعنى "الفرج بعد طول البلاء"، والجزء ١٤ يُعلِّمك ألَّا تُفسد هذا الفرج بالغفلة عن المنعِم؛

← فكم من قلبٍ نجا من محنةٍ ثم سقط في فتنة النِّعمة،

← وكم من عينٍ بكت في الضيق ثم ضحكت في الرخاء حتى نسيت من كشف الضرّ عنها،

وهنا تكون النَّحل مدرسة الشُّكر حتى لا تتحول النِّعمة إلى استدراج.

الجزء الخامس عشر: حين يُرَبِّي القرآن قلبك ليعبر زمن الفتن

المدخل التأسيسي سورة الإسراء:

يبدأ هذا المدخل من كلمةٍ واحدةٍ تضع القلب في موضعه الصحيح قبل أن تُحدِّثه عن الطريق كلّه؛ لأن من لم يتعلّم التنزيه أولاً ضلّ في فهم الأحداث ثانياً، ولهذا يُفتتح المشهد بباب التعظيم الخالص: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؛ فتدرك أن الذي يقود هذا الدين ليس "الظروف" ولا "الناس" ولا "التاريخ"، بل ربٌّ منزَّهٌ عن العبث، يُري عبدَه من آياته ليُقيم به حجته على العالمين، ثم يضع في أول السورة أصلاً هو عمود النجاة في كل فتنة: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلاً﴾، لأن القلب إذا اتخذ غير الله وكيلاً توزّع، وإذا جعل الله وكيله استقام ولو اضطربت الأرض من تحت قدميه، ثم يُذكّرك بنسب الإيمان الممتد من سفينة نوح إلى ذريةٍ تعرف معنى الشُّكر، كأن القرآن يقول لك: إن أعظم ما يحفظ النِّعمة أن تُرى نعمةً لا حقّاً مكتسباً، ولهذا يصف العبد الجامع لأصل الاستقامة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾.

ثم لا يتركك القرآن عند مشهد التكريم النبوي وحده، بل يفتح لك سجلّ الأُمم لتفهم سُنن الله في العُلوِّ والسُّقوط، فيُخبِرك أن الفساد إذا تكرر صار وعداً، وأن العُلُوَّ إذا تجبّر استدعى كاسراً، وأن تاريخ بني إسرائيل ليس حكايةً تُروى بل مرآةٌ تُقرأ؛ ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾، ثم يريك كيف يتحوّل الوعد إلى واقعٍ قاسٍ حين يبعث الله عباداً له أولي بأسٍ شديدٍ فيجوسون خلال الديار – أن الله يبعث قوماً شديدي القوة يدخلون البلاد ويجوبونها ويستولون عليها –، ثم كيف تتبدّل الأحوال فتعود "الكَرَّة" ويكثر المال والبنون والنفير، ليفهم القلب أن تقلّب الدنيا جزءٌ من الامتحان، وأن

بعض الناس إذا أُعطوا ظنّوا أن العطاء شهادةُ رضا لا ابتلاءُ استدراج، ولذلك يقطع القرآن عليك هذا الوهم بالقاعدة التي لا تخون صاحبها أبداً: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، ثم يُذكّرك أن "العودة" ليست شعاراً؛ فمن عاد للفساد عادت عليه السُّنن نفسها، ومع ذلك لا يُغلق باب الأمل على التائبين: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، ويُبيّن أن للباطل نهايةً مهما تمادى، وأن مصير الكفر حصارٌ لا مخرج منه: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيراً﴾.

ثم يلتفت إليك القرآن من قصص الأُمم إلى علاج الفرد: أين تمسك بيدك لتثبت؟ فيجيبك بجملةٍ هي قلب هذا الجزء كله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، فهو ليس مجرد تلاوةٍ تُحسِنها الألسن، بل هدايةٌ تُقيم ما اعوج في الداخل والخارج، ثم يفتح بشارة المؤمنين العاملين الصالحات بأجرٍ كبير، ويقابلها ببيان عاقبة من أعرض عن الآخرة: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾، ثم يُعرّفك بمرضٍ خفيّ يفسد الدعاء ويشوّه الرؤية: العجلة، أن يدعو الإنسان على نفسه وأهله كأنَّ الدعاء سلاحٌ ينفلت من يده، فيفضح القرآن هذا الاضطراب: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولاً﴾، ثم يربط علاج العجلة بفهم الزمن نفسه، فالليل والنهار آيتان، والرزق يُطلب في نور النهار، والعمر يُقاس بالحساب، وكل شيءٍ مفصّلٌ تفصيلاً لكي لا يعيش الإنسان سائباً بلا ميزان: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلاً﴾.

ثم يضغط القرآن على موضع الغفلة الأكبر: مسؤوليتك الشخصية، لا تبريرٌ ينفع ولا نقلٌ للذنب يُنجّي، فعملك ملازمٌ لك ملازمة الطوق للعنق: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، ثم يريك نهاية الطريق حين يخرج لك كتاباً منشوراً لا سر فيه ولا حذف: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾، ويقرر عدل الله في الهداية والضلال، وأن أحداً لا يحمل عن أحدٍ وزراً، وأن العذاب لا

يأتي على غفلةٍ من إقامة الحجة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾، ثم يريك كيف تهلك القرى حين تتصدرها طبقة المترفين فتفسق، فيحق عليها القول، فيكون التدمير نتيجةً لا مفاجأة، ويختم هذا المقطع بتقرير إحاطة الرب بالذنوب علماً وبصراً: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيراً بَصِيراً﴾.

ثم يضع القرآن أمامك مفترق الطريق الذي لا يتغير مهما تغيّرت العصور: من أراد العاجلة أعطي منها بقدر مشيئة الله ثم انتهى إلى خزي الآخرة، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن كان سعيه مشكوراً، ثم يُذكّرك أن العطاء الدنيوي ليس معيار اصطفاء، فكلٌّ يُمدّ من عطاء الرب، ولكن التفاضل الحقيقي هناك حيث الدرجات أكبر: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾.

ومن هنا يبدأ "ميثاق البناء" الذي يجعل الإيمان أخلاقاً ونظام حياة، فيعيدك القرآن إلى أصل الأصول: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ﴾، ثم يربط التوحيد مباشرةً بأقرب باب امتحانٍ يوميّ: برّ الوالدين، لئلا يظن أحد أن التوحيد فكرةٌ عالية منفصلة عن الحياة، فينهاك عن أدنى كلمة تضجر: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، ويأمرك بالقول الكريم، وخفض جناح الذل من الرحمة، والدعاء الصادق: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾، ثم يفتح باب المراقبة الدقيقة: ربكم أعلم بما في نفوسكم، فإن تكونوا صالحين فهو للأوابين غفوراً، كأن القلب يُقال له: إصلاح الداخل أصل قبول العمل.

ثم يمتد البناء إلى المجتمع: إعطاء ذي القربى حقه، والمسكين وابن السبيل، وحراسة المال من التبذير الذي يجعلك أخاً للشيطان لا من جهة النسب بل من جهة الخُلق، ثم يُعلِّمك كيف تعتذر إن عجزت عن العطاء دون قسوةٍ ولا إهانة: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾، وكيف تمسك ميزان الإنفاق بين الشُّح والإسراف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾.

ثم يربط كل ذلك باسمٍ يطهّر النيّة من الاتكال على الأسباب: ﴿إِنَّ رَبَّكَ

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ فالعبد يأخذ بالأسباب لكن قلبه لا يعبدها.

ثم يضع القرآن حدود الدم والعرض والمال، لا بوصفها "قوانين" مجردة، بل بوصفها سياجاً للإنسان من سقوطه في الهاوية؛ فينهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق ويقرر أن الرزق من الله، وينهى عن الاقتراب من الزنا لأنه فاحشة وساء سبيلاً، وينهى عن قتل النفس إلا بالحق، ويضع للولي سلطاناً مع النهي عن الإسراف في القتل، ثم يحمي مال اليتيم بأشد العبارات حراسة، ويأمر بالوفاء بالعهد لأنه مسؤول، ويأمر بإقامة العدل في الكيل والميزان، ثم يصل إلى ميزانٍ يعصم الناس من الفوضى المعرفية التي تلد فوضى أخلاقية: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، ويُذكّرك أن السّمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً، ثم يقطع مادة الكبر في سلوك الإنسان: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً﴾؛ لأنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً، ثم يختم هذا المقطع بأن هذا كله سيّئُه عند ربك مكروه، وأنه من الحكمة التي أوحاها ربك إليك، وأن الشرك آخر ما ينبغي أن ينتهي إليه صاحب الحكمة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ﴾.

ثم يواجه القرآن الانحراف العقدي الذي يلبس ثوب "الاعتراض على الله"، فيستنكر قولهم في الملائكة، ويقرر أن القرآن صُرِّف للناس ليذكروا لكن بعض القلوب لا يزيدها إلّا نفوراً، ثم يثبت تنزيه الله عُلوّاً كبيراً، ويكشف أن الكون كله في تسبيحٍ دائمٍ لله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، ولكن الإنسان قد يُحرم فهم هذا التسبيح إذا عاش غافلاً.

ثم يفضح القرآن حجاب الكراهية للحق عند من لا يؤمن بالآخرة: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾، ويجعل على القلوب أكنّةً وفي الآذان وقراً عندما يُعرضون، ثم يبين كيف يُلبسون على الناس فيقولون: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾، ويكثر إنكار البعث ويستبعدون إعادة العظام والرُّفات، فيأتيهم الرّدّ الذي يخلع جذور الاستبعاد: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً

۞ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾، ثم يُساق العقل إلى الحقيقة الأولى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ويأتي مشهد الدعوة الكبرى يوم القيامة حين يستجيب الناس بحمده ويظنون أن لبثهم كان قليلاً، كأنَّ القرآن يقتلع من القلب طول الأمل الذي يخدِّرُه.

ثم يعود إلى أدب الإصلاح الاجتماعي في لحظةٍ هي أحرج لحظات البشر: لحظة النزاع، فيأمرك أن يكون القول "أحسن" لأن الشيطان ينزغ، ثم يضع التوازن في النظر إلى الناس: ربكم أعلم بكم، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم، ويقرر حدود وظيفة الرسول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾، ويبيّن التفاضل بين النبيين، ثم يهدم أوهام الشرك هدماً عملياً: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾، ويقرر أن أولئك الذين يُدعون من دون الله هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويرجون رحمته ويخافون عذابه، ثم يفتح على القلب معنى الخوف من بأس الله الذي هو محذور.

ثم يريك اتساع سُنن الله في القرى والأُمم: إهلاكٌ أو عذابٌ قبل يوم القيامة مكتوبٌ مسطور، وأن الآيات الحسية ليست هي مفتاح الإيمان لمن أغلق قلبه، وأن الإرسال بالآيات إنما هو تخويف لا ترفيه، ثم يُذكّر بإحاطة الرَّب بالناس، وبأن الرؤيا فتنة، وبالشجرة الملعونة في القرآن، وأن التخويف قد يزيد الطغيان عند من لا يريد النجاة.

ثم يعود بك إلى أصل المعركة الكبرى: معركة إبليس، لحظة السجود لآدم، وحقد "الاستعلاء" حين يرفض السجود ويُصرّح بما في قلبه، ثم يبدأ برنامج الإغواء:

١) الاستفزاز بالصوت،

٢) والإجلاب بالخيل والرجل،

٣) والمشاركة في الأموال والأولاد،

٤) والوعد الكاذب،

لكن القرآن يضع حدّاً يطمئن المؤمن دون أن يغريه بالغرور: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، فالحفظ ليس ذاتياً، وإنما هو من الله لمن صدق العبودية.

ثم يفتح لك آيات الرحمة في البحر والبر، وكيف يزجي لكم الفلك لتبتغوا من فضله، وكيف إذا مسكم الضُّر ضَلَّ من تدعون إلَّا إياه، فإذا نجاكم إلى البر أعرضتم، ثم يوقظكم بهزات الأمن الكاذب: الخسف، والحاصب، والقاصف، والغرق، ليعود القلب إلى مقام الخشية لا مقام الاطمئنان إلى الغفلة، ثم يقرر تكريم بني آدم وحملهم في البر والبحر ورزقهم الطيبات وتفضيلهم، ويختم هذا المشهد بمنظر الآخرة: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾، فمن أوتي كتابه بيمينه قرأ كتابه ولم يُظلم فتيلاً، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

ثم يرفع القرآن الستار عن ضغط أهل الباطل على أهل الحق: محاولة الفتنة عن الوحي، ومحاولة الركون، لكن الثبات من الله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾، ويقرر أن الميل اليسير في باب الوحي عظيم الخطر، ثم يبيّن أن سُنَّة الله لا تتبدل، وأن الصراط في النهاية يُحفظ بالعبادة التي تُمسك القلب من الانهيار: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾، وأن من الليل تهجد به نافلة لك رجاء المقام المحمود، ثم دعاء العبد الذي يريد أن يكون وجوده كله صدقاً لا تزويقاً: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰناً نَّصِيراً﴾، ثم كلمة الفصل التي لا تُقال لتزيين منشور بل لتثبيت يقينٍ في القلب: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾.

ثم يُعرّفك القرآن بنفسه تعريفاً يحفظك من سوء الفهم: هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين، أما الظالمون فلا يزيدهم إلَّا خساراً، ثم يصف طبيعة الإنسان حين

تُفتح عليه النِّعمة فيعرض وينأى بجانبه، وإذا مسَّه الشَّر كان يئوساً، ليُعلّمك أن الإيمان ليس لحظة مزاج بل ثبات منهج، ثم يقرر أن كل إنسان يعمل على شاكلته وأن الله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً، ثم يضع حدّاً أدبياً مع أبواب الغيب التي تفتن العقول: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾، ويُذكّرك أن بقاء الوحي رحمةٌ من الله لا استحقاقٌ من البشر، وأن فضل الله على رسوله كبير، ثم يثبت عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثل هذا القرآن ولو تعاونوا، ومع كثرة التصريف في الأمثال يأبى أكثر الناس إلَّا كفوراً، وتُفتح عليهم أبواب الاقتراحات التعجيزية: تفجير الينبوع، والجنة، وإسقاط السماء، والإتيان بالله والملائكة قبيلاً، والبيت من زخرف، والارتقاء في السماء، حتى لو تحقق لهم بعض ذلك لما سلمت قلوبهم من المكابرة، فيأتي الرد الذي يضع الرسول في مقامه الحق بلا غلوّ ولا جفاء: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً﴾.

ثم يضع القرآن سبب الإعراض في كلمة: الاستبعاد، ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾، ويقرر أن سُنَّة الله لو كانت الأرض ملائكة مطمئنين لنزل عليهم ملك رسولاً، ثم يغلق باب التشغيب ببيّنة الشهادة: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيراً بَصِيراً﴾، ثم يُحكم الخاتمة بمشهد الهداية والضَّلال يوم القيامة، وحشر الضَّالين على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، والنار كلما خبت زيدت سعيراً، وسبب ذلك كفرهم بالآيات وإنكارهم البعث.

ثم يعود بك القرآن إلى دليل القدرة من أول صفحة في الوجود: الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً، ثم يكشف شُحَّ الإنسان لو مُلّك خزائن رحمة الله لأمسك خشية الإنفاق، ليعرف العبد أن الكرم الحقيقي من الله، ثم يُذكّر بآيات موسى التسع، وبعناد فرعون، وبغرقه، وبسكنى بني إسرائيل الأرض، وبوعد الآخرة حين

يجيء بهم لفيفاً، ثم يختم حقيقة الرسالة: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾، وأن القرآن نزل مُنجّماً لتقرأه على الناس على مُكث، وأن أهل العلم إذا تُلي عليهم خرّوا للأذقان سجداً وقالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾، ويبكون ويزدادون خشوعاً، ثم يُعلّمك أدب الدعاء بأسماء الله الحسنى، وأدب الصلاة بين الجهر والمخافتة، ثم يختم بالتوحيد الخالص الذي يُغلق أبواب الانحراف كلها: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾.

المدخل التأسيسي سورة الكهف

سورة الكهف لا تُشبه الإسراء في "طبيعة المدخل"، فالإسراء نَفَسها طويلٌ واحدٌ يمتدّ من التنزيه إلى سُنن الأُمم إلى بناء الوصايا إلى معركة الشُّبهات، أمّا الكهف فهي مدرسةُ فِتنٍ متتابعة، كل فتنةٍ فيها تُمسك بموضعٍ مختلف من القلب، ثم ترده إلى أصلٍ واحد: أن النجاة ليست ذكاءً ولا كثرة معلومات، بل هدايةٌ وصُحبةٌ وصدقُ توحيدٍ مع صبرٍ على الطريق... ولهذا؛ فالأقرب لسلامة البناء أن يكون لسورة الكهف مدخلٌ وحدها، لا يُخلط بنَفَس الإسراء، لأن مدخل الكهف يجب أن يتهيأ فيه القارئ لسلسلة "اختبارات" متدرجة، بينما مدخل الإسراء يهيئه لِمَشهد "السُّنن والوصايا" في سياق واحد، فإذا جمعتهما ضاع طابع كل سورة، وانكسر الإيقاع الذي تقصده أنت في "المدخل الوجداني التأسيسي" الذي يُمهّد للرحلة لا يُلخّصها.

يبدأ الكهف بحمدٍ يقطع أصل الاضطراب قبل أن يبدأ عرض الفتن؛ لأنك لن تفهم معنى الابتلاء ولا معنى النجاة حتى تعرف ما الذي أُنزل عليك أصلاً، ومن الذي أنزله، ولماذا أنزله، وكيف هو في ذاته مستقيم لا عوج فيه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجاً ۜ قَيِّماً﴾... فالمدخل هنا ليس افتتاحاً لفظياً، بل تأسيسٌ نفسيٌّ:

- هذا الكتاب لا يُعطيك "انطباعاً" بل يُقيمك،
- لا يُجاملك بل يُقوّمك،
- لا يتركك معوجّاً ثم يطلب منك الصلاح؛ بل ينزّل عليك ما يردّ اعوجاجك من جذره،

ثم يضع لك ميزان المصير دون مبالغة ولا تلطيف: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾؛ فالدين ليس فكرةً جميلة، بل إنذارٌ وبشارة، ومآلٌ لا يُساوَم عليه.

ثم يلتفت القرآن إلى أصل فتنةٍ عقديةٍ تُفسد صورة الإله في القلب فتفسد كل شيءٍ بعدها: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً﴾، ويقطع مادة الجرأة على الغيب: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾؛ وكأنَّ السورة تقول لك: أول فتنةٍ تُواجهها ليست في الخارج، بل في "تأليه الكلام" بلا علم... ثم تُربّي في قلب الداعية ميزاناً آخر: لا تهلك نفسك أسفاً على من أعرض، فالهداية بيد الله والبلاغ أمانة: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفاً﴾.

وبعد أن يثبت الكتاب ويثبت المنهج وتثبت النفس، يفتح لك باب الفتنة الكبرى التي تمرّ على كل إنسان ولو كان صالحاً: فتنة "زينة الأرض"، لا لأنها حرامٌ في ذاتها، بل لأنها امتحانٌ في القلب: هل تُحوّل الزينة إلى غايةٍ فتخسر، أم تجعلها ممرّاً فتنجو؟ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾؛ فكل ما يبهر العين سيصير يوماً ما أرضاً جرداء، ويبقى سؤال واحد: ماذا بقي في صحيفتك أنت؟

ثم تأتي القصة الأولى لا لتدهشك، بل لتعلّمك "خطة النَّجاة" حين تُحاصر: فتيةٌ مؤمنون، لم يملكوا أدوات القوة، فملكوا أعظم منها: صدق الالتجاء، ووضوح التوحيد، وجرأة المفاصلة، وحسن الطلب: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ

إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾، ثم ترى أن الحفظ إذا جاء من الله جاء بطرقٍ لا تخطر: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾، وأن البعث بعد السكون الطويل آيةٌ على البعث الأكبر، وأن القصص هنا "بالحق" لا للتسلية: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، وأن الإيمان يزيد، وأن الزيادة ليست قراراً نفسياً مجرداً بل هبةٌ من الله لمن صدق: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، وأن الثبات الحقيقي ليس صلابة طبع، بل ربطٌ من الله على القلب: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾.

وفي وسط هذا المشهد، تتعلم أن التوحيد ليس كلمةً تُقال في الرخاء، بل موقفٌ يُدفع ثمنه: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهاًۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطاً﴾، وتتعلّم أن الاحتجاجات بلا برهان ظلمٌ وافتراء: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً﴾، وأن الاعتزال أحياناً ليس هروباً من الدعوة، بل حفظٌ للدين حين تُسدّ السُّبل، بشرط أن يبقى القلب موصولاً بالله: ﴿فَأْوُوا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾.

ثم يريك القرآن أن العناية الإلهية لا تكون دائماً في "تغيير الواقع" بل في "تدبيره"؛

١. الشمس تتزاور وتقرض،
٢. وتقليب الأجساد،
٣. وصورة الكلب باسطٌ ذراعيه،
٤. والرَّهبة التي تُلقى في القلب لو اطلع عليهم أحد...

كل ذلك إشاراتٌ أن الله تعالى يُدبّر لك ما لا تُدبّره لنفسك، ثم يختم هذه اللقطة بقاعدة النجاة الجامعة: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾؛ فلا تغترّ بذكائك، ولا تأمن إلى نفسك.

ثم تأتي لحظة البعث ليتساءلوا بينهما، لا ليغرقوا في تقدير السِّنين بل ليردّوا

العلم إلى الله: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، ويخرج أحدهم لطلب الرزق بأدبٍ دقيق: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَاماً﴾، ثم ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾... فالنَّجاة لا تُبنى بالصراخ، بل بالتقوى واللطف والحذر، ومع ذلك يبقى التهديد قائماً: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾... ثم يجعل الله تعالى قصتهم دليلاً على الحق الأكبر: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

ثم يُربّي القرآن عقل المؤمن على ترك الفضول الذي لا يزيد هدى: جدل العدد، رجْماً بالغيب، ثم الميزان: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، ثم أدب التلقي: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِراً﴾... وبعدها مباشرةً يُعلّمك أخطر أدب في صناعة اليوم والغد: لا تُطلق الوعد منسوباً إلى نفسك، بل اربطه بمشيئة الله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ثم يجمع لك علاج النسيان، وعلاج الانقطاع، وعلاج الحيرة: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ و﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَداً﴾.

ثم يؤكد أن الغيب لله تعالى وحده، وأن الحكم له وحده، وأن كلمات الله لا تبديل لها، وأن العبد لا يجد ملجأً من دونه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَداً﴾، ثم يدخل بك إلى فتنة "الصُّحبة" وفتنة "المقاييس": اثبت مع الذين يدعون ربهم يريدون وجهه، ولا تصرف بصرك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه... فالسورة تريد أن تقول لك: قد تُهزم في أعظم فتن العصر لا لأنك كفرت، بل لأنك غيّرت مرآتك التي تنظر بها إلى الناس، فتُعجبك الزّينة ويَخِفُّ في عينك أهل الذكر: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

ثم يجيء إعلان الحق بلا مواربة: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾... لا تزييف ولا تمييع، ثم يترك للإنسان اختياره مع بيان العاقبة بياناً يخلع الغفلة: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾..

ثم يفتح على المؤمنين وعداً مؤكداً: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾.

ثم تنتقل السورة إلى فتنةٍ أخرى أكثر خفاءً: فتنة المال حين يُنبت الكبر في القلب، مثل رجلين وجنتين وثمرٍ ونهر، ثم كلمة الاستعلاء: ﴿أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾، ثم يدخل جنتَه وهو ظالم لنفسه، فينطق بوهم الخلود، ثم بوهم حسن المصير ولو قامت الساعة، فيأتيه الرَّدّ الذي يردّ الإنسان إلى أصله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلاً﴾، ثم يثبت التوحيد العملي: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَداً﴾، ثم يُعلِّمُك عبارة النجاة عند رؤية النعمة دون سُكرٍ بها: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، ثم يأتي الانقلاب حين يُحاط بالثمر فيقلب كفيه ندماً، ويعترف: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَداً﴾، ثم تُسقط السورة كل سندٍ سوى الله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾، وتعلن الحقيقة التي تُنتزع من بين أنياب الفتنة: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾.

ثم تضرب لك مثل الدنيا كلها في مشهد ماءٍ ينزل، ونباتٍ يختلط، ثم هشيمٍ تذروه الرياح: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾، وتضع الجملة التي تُعيد ترتيب الأولويات بلا صخب: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾، ثم تفتح القيامة كأنها تُسقِط كل ما كان يُغريك: تسيير الجبال، وبروز الأرض، والحشر صفّاً، والكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، والمجرمون مشفقون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾... وتُثبت أن ربك لا يظلم أحداً.

ثم تُذكّرك بأصل العداوة التي تتلوّن عبر الفتن: إبليس وذريته، وأن اتخاذهم أولياء بدلٌ سيّئ، وأن المضلين لا يُتخذون عضداً، ثم يأتي مشهد الشرك يوم القيامة حيث ينادي الناس شركاءهم فلا يستجيبون، ويجعل الله بينهم موبقاً، ويرى المجرمون النار ويوقنون مواقعوها ولا يجدون مصرفاً.

ثم تكشف السورة طبيعة الإنسان في باب الخصومة والجدل: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ

أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾، وتبين أن الذي يمنع الناس من الإيمان ليس فقدان الدليل دائماً، بل الإعراض ونسيان ما قدمت الأيدي حتى تُجعل الأكنة والوقر، ومع ذلك يبقى باب الرحمة قائماً: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، لكن هناك موعدٌ لا يُدفع، وقرى أُهلكت لما ظلمت، ولكل مهلك موعد.

ثم تفتح باب فتنةٍ من نوعٍ آخر: فتنة طلب العلم إذا دخلها العجب أو استعجلت فيها النفس، فتبدأ رحلة موسى عليه السَّلام في طلب الرشد: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً﴾، ثم يقع النسيان الذي يفتحه الشيطان، ثم يجدان عبداً آتاه الله رحمةً وعلمه من لدنه علماً، فيطلب موسى عليه السَّلام الاتباع للتعلم، فيأتي الشرط التربوي الذي يقطع آفة الاستعجال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْراً﴾، ثم يُعلن موسى عليه السَّلام أدب التواضع: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِراً وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْراً﴾، ويأتي شرط السُّكوت حتى يحدّث له منه ذكراً، ثم يبدأ أول اختبار عمليّ للصبر حين تُخرق السَّفينة فيعترض العقل العاجل، فيعاد تذكيره بالحدّ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً﴾، ثم يأتي الاعتذار الصادق: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْراً﴾، ثم يشتد الامتحان بقتل الغلام فيعترض مرةً أخرى، لتدرك أن العلم إذا لم يُزكِّ النفس بالصَّبر بقي صاحبه أسير ظاهرٍ لا يرى وراءه حكمةً ولا رحمة.

هذا كله يوضح لك لماذا ينبغي أن يكون مدخل الكهف وحدها:

١. لأنها تبدأ بتقويم العلاقة بالكتاب،
٢. ثم تُمرّرك على زينة الأرض،
٣. ثم على فتنة الدين تحت الاضطهاد،
٤. ثم على فتنة الجدل والفضول،
٥. ثم على فتنة الصُّحبة والمقاييس،

٦. ثم على فتنة المال والغرور،
٧. ثم على فتنة الشيطان،
٨. ثم على مشهد القيامة والكتاب،
٩. ثم على فتنة العلم والصبر...

وهذه السلسلة لا يصلح أن تُصبّ في مدخلٍ "مضموم" مع سورة أخرى؛ لأن السورة نفسها تُريد أن تُدخلك من بابٍ واحد إلى عدة أبواب فتن، وكل باب يُمسك بيدك ليدخلك إلى الذي بعده دون أن تشعر، فإذا خلطتها بغيرها فقدت خصوصية هذا النسق.

الخلاصة

"الإسراء تُقيم خارطة السُّنن والوصايا في طريقٍ واحد، أمّا الكهف فتُقيم خارطة النجاة من الفتن في طريقٍ متعدد الممرات... ولهذا أفردتُّ لكل سورة مدخلاً يليق بطبيعتها حتى لا يُظلم النَّفَس القرآني ولا يُكسر إيقاع الرحلة".

اجتماعُ الإسراء والكهف في الجزء الخامس عشر ليس اجتماعَ "سورتين متتابعتين" في المصحف فحسب، بل اجتماعُ مرحلتين في صناعة الإنسان: الإسراء تُقيم لك ميزانَ الحق في الداخل والخارج، ثم الكهف تُدرّبك عمليّاً على الثبات بهذا الميزان حين تأتي الفتن وتختلط المعايير... كأنَّ الجزء يقول: قبل أن تسأل "كيف أنجو؟" تعلّم أولاً "ما الذي يجب أن يبقى ثابتاً فيك"، ثم تعلّم بعد ذلك "كيف تحمي هذا الثبات من الانهيار".

الإسراء تفتح المشهد من أعلى نقطة: تنزيهٌ يليق بالله، وآيةٌ كبرى تُثبت مقام العبودية للنبي ﷺ: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً﴾، لتقول لك منذ البداية: الطريق إلى الله ليس "مواهب" ولا "إشراقات"، بل عبوديةٌ خالصة يُشرّفها الله بما يشاء من الكرامة... ثم تضعك الإسراء أمام سُنن الله في الأمم:

الإفسادُ يتكرر والجزاءُ يتكرر، والرحمة باب، والعودة إلى الفساد لها عودة في العقوبة: ﴿إِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، فتخرج من السورة وأنت تفهم أن التاريخ ليس حكاية، بل قانون، وأن الله لا يُحابِي أحداً إذا كسر ميزانه.

ثم تُنزل الإسراء هذا القانون من "ساحات الأمم" إلى "ساحة القلب" فتجعل القرآن نفسه معيار الاستقامة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، ثم تُواجهك بطبيعتك: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولاً﴾، وتربط العجلة بأصل آخر: أن الإنسان إذا أُنعِم عليه أعرض وإذا مسّه الضُّر يئس، فتُهذب فيك تصورك عن نفسك قبل أن تبدأ "معركة الفتن" في الكهف... ثم تأتي "وصايا الإسراء" كأنها عظامُ الأخلاق التي لا يقوم الدين بدونها:

- توحيدٌ لا يقبل الشرك،
- برٌّ بالوالدين،
- عدلٌ في المال،
- عفافٌ،
- حرمةُ الدم،
- حفظُ مال اليتيم،
- وفاءُ العهد،
- ميزانٌ في الكيل،
- أدبٌ في العلم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾،
- تواضعٌ يمنع المرح الكِبريائي...

ثم تكشف الإسراء أن أكبر "حجاب" عن القرآن ليس ضعف الفهم فقط، بل مرض القلب: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾، وأن خصومة أهل الباطل متكررة في كل زمان، وأن الحقّ باقٍ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

فإذا خرجت من الإسراء خرجتَ ومعك "الميزان": تعرف ما الذي لا يجوز أن يتبدّل مهما تغيّر الزمن...

وهنا تأتي الكهف في نفس الجزء لتقول لك: جميلٌ أن تعرف الميزان، لكن هل تستطيع أن تحمله حين تهبُّ الفتن؟ لأن أكثر الناس لا يسقطون لجهلهم بالحق، بل يسقطون لأن الفتنة تُربكهم فيتركون الحق وهم يعرفونه.

فتبدأ الكهف بتثبيت مرجعية الميزان ذاته: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجاً ۜ قَيِّماً﴾، ثم تُعطيك فلسفة الوجود التي لمّحت إليها الإسراء حين قالت: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾؛ فها هي الكهف تُصرّح: الدنيا زينة اختبار: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، ثم تُريك نماذج الفتن التي تُسقط الناس واحداً واحداً: فتنة الدين حين تُحاصر (أصحاب الكهف)، فتنة المال حين يُسكر (صاحب الجنتين)، فتنة العلم حين يستعجل العقل على الحكمة (موسى والخضر)، وكلها تُعيدك إلى أصلٍ واحد:

← لا نجاة بلا صبر،

← ولا صبر بلا توحيدٍ صحيح،

← ولا توحيد صحيح بلا تعظيمٍ للكتاب،

← ولا تعظيم للكتاب مع صحبة تُلهيك عنه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

فالحكمة العظيمة في جمعهما في جزء واحد:

- أن الإسراء تُعطيك "خريطة القيم"،
- والكهف تُعطيك "خريطة الفتن" التي تهدد هذه القيم...
- الإسراء تُصلح ميزانك قبل المعركة،
- والكهف تُدرّبك على الثبات بالميزان داخل المعركة...

- الإسراء تُحذّرك من العجلة ومن اتباع الظن ومن المشي مرحاً في الأرض،
- والكهف تُريك ثمرة العجلة والظن والمرح حين تتحول إلى هلاكٍ في الفتنة...
- الإسراء تقول لك: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾،
- والكهف تقول لك: كثير من الجدل "رجمٌ بالغيب" لا يزيدك إلّا تشتتاً...
- الإسراء تقول: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾،
- والكهف تُريك كيف يزول باطل المال والزينة في لحظة حين تُحاط الثمار ويقلب صاحبها كفيه.

ولهذا؛ فالجزء الخامس عشر كأنه "منهج نجاة متكامل" في سورتين:

←الأولى تُقيمك على الطريق: توحيدٌ ووصايا وميزانٌ ومعيار...

←والثانية تُمسك بيدك داخل الطريق حين تأتي الفتن لتسحبك:

١. فتنةٌ في الدين،
٢. فتنةٌ في الدنيا،
٣. فتنةٌ في العلم...

فمن دخل هذا الجزء كما يدخل فصولاً متفرقة فاتته حكمة البناء، ومن دخله كرحلة واحدة فهم الرسالة: لا يكفي أن تعرف الحق، بل لا بد أن تُربّي على حمله حين يُمتحن.

الخريطة البنيوية للجزء الخامس عشر

١) افتتاحٌ يرفعك من الأرض إلى السماء: مقام العبد الذي يُكرَّم إذا صدق:

البداية ليست "خبراً تاريخياً" عن رحلةٍ ليلية، بل إعلانٌ أن الله يرفع عبده إذا كان "عبداً" حقّاً لا أسيرَ شهوةٍ ولا شهرةٍ ولا هوى؛ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾، فالتشريف هنا في كلمة "بِعَبْدِهِ" قبل المكان والزمان والآيات..

ثم يضعك النص أمام حقيقةٍ تُسكّن قلبك: الذي قاد الرحلة هو الذي يسمع أنينك ويرى ضعفك؛ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فلا تتوهّم أن الله بعيدٌ عن التفاصيل.

٢) "لا تتخذوا من دوني وكيلاً": نفيُ الشِّرك الخفي قبل الشرك الصريح:

القرآن يقطع أصل التعلّق: لا تجعل قلبك يتكئ على غير الله؛ ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾، فكلُّ وكيلٍ من الخلق قد يضعف أو يتغيّر، أمّا الله سبحانه فوكالته كفايةٌ لا تنقطع، ومن اعتمد عليه كفاه.

ثم يُذكّرك أن الشُّكر ليس كلمة، بل حياة؛ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾، أي أن النجاة تُبنى على "عبدٍ يَشكر" لا على "لسانٍ يَمدح".

٣) سُنن الأُمم: حين يُعاد التاريخ لأن القلوب لم تتغير:

قصة بني إسرائيل ليست للتسلية، بل مرآةٌ لسُنّةٍ تتكرر: فسادٌ ثم عقوبةٌ ثم فرصةٌ ثم عودة؛ ﴿إِنْ عُدْتُّمْ عُدْنَا﴾، وكأنَّ الآية تقول: المشكلة ليست في قلة الأدلة... المشكلة في عودة القلب إلى مرضه.

المعيار يوجع النفس لأنه عادل: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾، فالإحسان لا يضيع... لكن ثمرته الأولى تعود عليك أنت قبل غيرك.

٤) القرآن لا "يزيد معلوماتك فحسب" بل "يقوّم طريقك":

ليس وعد القرآن أن يخفف تعبك دائماً، بل أن يُقوّم وجهتك ويهديك لأثبت مسارٍ في الحياة؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، أي للأعدل والأطهر والأبقى.

ثم يُذكّرك أن مشكلة كثيرٍ من البشر ليست في عدم السَّماع، بل في رفض الآخرة؛ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾، فالانحراف يبدأ حين تُمحى النهاية من الحساب.

٥) طبائع الإنسان: العجلةُ التي تُفسد الدعاء وتُعمي البصيرة

الإنسان قد يدعو على نفسه وهو يظن أنه يدعو لها، لأن العجلة تُشوّش القلب؛ ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾، فكم قرارٍ ظننته "خلاصاً" ثم كان "ندماً".

الليل والنهار ليسا تعاقباً آلياً، بل آيتان لتتعلم أن الزمن ليس فارغاً؛ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾، أي لا تعش بعشوائية ثم تطلب نتائج ربانية.

٦) الفرد أمام كتابه: لحظةٌ لا ينفع فيها اللوم ولا التبرير:

هنا يُسقط القرآن آخر حُجج النفس: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾، لن تحتاج شاهداً... أنت ستعرف نفسك بلا أقنعة.

ثم يقطع باب "تحميل الأوزار": ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فلا تتكئ على خطأ غيرك لتُبرر سقوطك أنت.

٧) الدنيا والآخرة: معيار الإرادة لا الشعارات:

ليست القضية أن "تريد" العاجلة أو الآخرة بالكلام، بل أن تُرتّب حياتك على ما تريد؛ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ...﴾ ثم ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فالإيمان هنا شرطٌ، والسّعي شرطٌ، لا أمنيات.

ثم يُوقظك القرآن: تفاوت الدنيا اختبارٌ لا شهادةُ تفضيلٍ عند الله؛ ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾، فلا تغترّ بظلٍ زائل.

٨) وصايا "الحكمة": بناءُ الإنسان من الداخل قبل أن يُصلح العالم:

يبدأ بالأصل الذي إن فسد سقطت كل الأخلاق: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾، لأن الشّرك ليس فقط صنماً... بل قد يكون هوىً مطاعاً.

ثم يأتي محور البرّ الذي يختبر صدق التوحيد في البيت لا على المنبر: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾، فالعبد الحقّ يُرى في نبرته لا في خطابه.

ويُنـزِّل الوصية إلى أدقّ شيء: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾، لأن الله تعالى يُربّي القلب على رِقّةٍ تمنع الانهيار الأخلاقي قبل أن يقع.

ثم يُعلّمك أن الدعاء ليس مجاملةً عاطفية، بل اعترافٌ بالفضل: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾، فمن نسي صِغره قسا قلبه.

ثم يفتح باب الرجاء لمن يريد الصَّلاح ولا يدّعي العصمة: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾، فاجعل حساب نيتك عند الله، لا في موازين الناس، فربُّك يعلم صدق التوبة ولو عجز اللسان عن تبريرها، ويعلم خفايا القلب ولو صفق لك الجمهور.

٩) المال والسلوك: إصلاح الإنفاق لأنه مرآةُ التوحيد:

التبذير ليس "حرية شخصية" بل انحرافٌ في العبودية؛ ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾، لأن الشيطان يبدأ بإفساد الشُّكر قبل إفساد الصلاة.

ثم يُعلّمك رفقاً حتى في العجز: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾، أي لا تزد فقيراً فقراً بكلمةٍ قاسية.

ويضع لك ميزان الخوف المادي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، فالرزق ليس بيدك كي تذبح الرحمة من أجله.

١٠) كرامة الإنسان: شرفٌ مشروطٌ بالأمانة لا بالادعاء:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ليست مجرد إشادةٍ بالإنسان، بل تذكيرٌ بواجبٍ عليه؛ فالتكريم يرفعك إلى مقام المسؤولية، ومن أُعطي العقل والاختيار لا يليق به أن يهبط بأخلاقه.

ثم تذكيرٌ مخيف: لكل إنسان إمامٌ يقوده يوم القيامة؛ ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، فاسأل نفسك الآن: من يقودني؟ القرآن أم الهوى؟.

١١) آداب اللسان: العلاج الحقيقي للنزاعات يبدأ بكلمةٍ أحسن:

هذه ليست نصيحة أخلاقية لطيفة، بل سلاح ضد فتنة الشيطان في البيوت

والمجتمعات: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، لأن الشيطان لا يحتاج ذنوباً كبيرة... يكفيه "نبرة".

١٢) ثم يختم السورة بتوحيدٍ مُصفّى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾... لتعلم أن كل إصلاحٍ أخلاقي لا يثبت إن لم يُبنَ على توحيدٍ صحيح.

خريطة بداية الكهف (إلى مشهد السفينة وما قاربه)

١٣) افتتاح الكهف: الكتاب "قَيِّم" ليقوم لا ليكون تلاوةً بلا تغيير:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً﴾، أي أنه يرفع اعوجاجك أنت، ويقيم قلبك قبل أن يقيم لسانك.

ثم يواجه أكبر كذبةٍ عقدية: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾، ليبقى التوحيد هو السَّقف الذي لا يُساوَم عليه مهما تغيّرت الأزمنة.

١٤) فتنة الدعوة: قلب النبي يذوب حزناً... والقرآن يُربّيه

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾، كأنَّ القرآن يقول للداعية: لا تحرق نفسك... الهداية بيد الله تعالى، وأنت عليك البلاغ والرحمة والثبات.

ثم يضع أصل الفتنة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾، أي أن الزينة ليست مكافأة... بل اختبار يفضح من يعبدها.

١٥) أصحاب الكهف: ثباتُ العقيدة حين ينهار المجتمع:

القصة ليست "أسطورة"، بل درسٌ في النجاة حين تصبح الطاعة غريبة: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، فالثبات هبةٌ من الله لمن صدق.

الدعاء هنا مدرسة: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾، أي ليس المطلوب أن تعرف كل شيء... بل أن يهيئ الله تعالى لك الرَّشد.

ثم يُعلّمك معنى "الاعتزال" الذي ليس هروباً من الحياة، بل حمايةٌ للإيمان حين يصبح الجو خانقاً.

١٦) مثل الجنتين: حين يفسد القلب بالنِّعمة فيكفر بباطنه

الغنى ليس المشكلة... المشكلة أن يدخل الغنى إلى القلب فيورثه أمناً كاذباً: "ما أظن أن تبيد" و"وما أظن الساعة قائمة"، فينقلب المال إلى فتنة.

ثم يأتي صوت الإيمان الحاسم الذي يعيد الإنسان إلى أصله: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، فلا تجعل نجاحك يسرق منك توحيدك.

والدواء المختصر الذي يُنقذ القلب من الكِبر: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، أي لا تملك شيئاً بنفسك... أنت فقط مُنِحت.

١٧) مشهد القيامة: الكتاب يفضح... والعدل يطمئن:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ ثم ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، لتفهم أن أخطر ما تستهين به قد يعود عليك كاملاً، لا ناقصاً.

ثم الكلمة التي تُصلح خوفك من الله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾، فالعدل الإلهي لا يحتاج محامياً ولا واسطة.

١٨) موسى والخضر: فتنة العلم... وفتنة الصبر على الحكمة:

موسى عليه السَّلام يعلّمنا أن طالب العلم لا يُولد مكتفياً؛ يسافر ويتعب ويعترف أنه يريد الرّشد، فالعلم عبوديةٌ لا استعراض.

ثم الصدمة التربوية: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾، لأن الصبر على الحكمة أصعب من الصبر على المصيبة؛ المصيبة تراها، أما الحكمة فقد تخفى.

ويأتي الامتحان الأول: خرق السَّفينة... فيُستفز ظاهرُ العدل داخل النفس قبل أن تكشف الأيام باطن الرحمة، فتتعلم أن ليس كل ما تراه شرّاً هو شرٌّ عند الله سبحانه وتعالى.

حين يُقوِّم القرآن الطريق... لا يكتفي بزيادة المعلومات

ليس القرآن كتاباً يملأ الذهن بمعلوماتٍ جديدة ثم يترك القلب على حاله، وليس وعده أن يجعل الطريق دائماً أسهل أو الحياة أخفَّ تعباً، بل وعده الأعظم أن يُقوِّم اتجاهك كله، وأن يضعك على المسار الذي لا يضيع في متاهات الدنيا؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، أي للطريق الأعدل ميزاناً، والأطهر مقصداً، والأثبت عاقبةً، والأبقى أثراً.

فالقرآن لا يعالج ظاهر السُّلوك فقط، بل يعيد ترتيب البوصلة في داخل الإنسان؛

١. يُعلِّمك كيف ترى الدنيا بحجمها الحقيقي،
٢. وكيف تفهم نفسك،
٣. وكيف تزن قراراتك بميزان الآخرة لا بميزان اللحظة العاجلة.

ولهذا يُذكِّرك القرآن بحقيقةٍ يغفل عنها كثير من الناس: أن المشكلة في الغالب ليست في قِلّة ما سمعوا من الحق، ولا في نقص ما وصلهم من الهدى، بل في أن النهاية قد غابت من حسابهم، وأن الآخرة لم تعد حاضرة في ميزان قراراتهم؛ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

فحين تُمحى الآخرة من الوعي، يبدأ الانحراف من أهدأ أبوابه؛ تتبدّل المعايير، ويُصبح العاجل أغلى من الأبقى، ويُقدَّم ما يريح اللحظة على ما ينجي المصير، ويظن الإنسان أنه يسير في طريقٍ مستقيم، بينما ميزانه كله قد مال.

لهذا كان أعظم ما يفعله القرآن في القلب أنه لا يكتفي بأن يُضيف لك فكرةً جديدة، بل يعيد بناء الطريق الذي تسير عليه؛ فإذا استقام الطريق... استقامت معه الخطوات، وإذا صَحَّت الوجهة... صار تعب المسير نفسه عبادةً تقود إلى النجاة.

القرآن لا "يزيد معلوماتك فحسب" بل "يقوّم طريقك"

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾... مفتاحُ الرجوع حين يضيع الطريق

في كلماتٍ قليلةٍ يضع القرآن قاعدةً عجيبة لإصلاح القلب كلما اضطرب أو تشتّت أو انقطع؛ ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، فليست الآية مجرّد توجيهٍ لفظي لذكرٍ يُقال باللسان، بل هي قاعدة رجوعٍ دائمة، تجعل الطريق إلى الله مفتوحاً حتى في لحظة النسيان نفسها.

فالإنسان ينسى... وهذه طبيعةٌ في خلقه، ينسى وعده، وينسى مقصده، وينسى ما كان يعلمه من الحق، فيتعثّر في الطريق، ويقف حائراً بين الخيارات، أو يشعر أن صلته بالله قد خفَتت أو ضعفت؛ وهنا يأتي القرآن بهذا المفتاح البسيط العميق: ارجع بالذكر.

فالذكر هنا علاجٌ للنسيان؛ لأن القلب حين يذكر ربَّه يستعيد المعنى الذي غاب عنه، ويعود إليه وعيه بحقيقة الحياة، وبالغاية التي خُلق لأجلها، فيستيقظ من غفلةٍ ربما طال أمدها دون أن يشعر.

وهو أيضاً علاجٌ للانقطاع؛ لأن العبد قد يبتعد، أو يفتر، أو تمرّ عليه أيامٌ يشعر فيها أن الطريق قد فاته، فيظن أن الرجوع يحتاج بدايةً جديدةً طويلة، بينما يخبره القرآن أن أول خطوةٍ في العودة ليست معقّدة: أن يذكر ربَّه الآن... في اللحظة التي انتبه فيها.

وهو كذلك علاجٌ للحيرة؛ لأن القلب إذا تردّد بين الطرق، وتزاحمت عليه الأفكار، وضاقت عليه الرؤية، فإن ذكر الله يعيد ترتيب الداخل، ويُرجع الميزان إلى موضعه، فيهدأ القلب ويصفو النظر ويقرب الصواب.

وهكذا تجمع هذه الآية القصيرة ثلاثة أبوابٍ من إصلاح القلب في كلمةٍ واحدة: إن نسيت فاذكر، وإن انقطعت فاذكر، وإن تحيّرت فاذكر... فذكر الله ليس زينة الطريق إلى الله، بل هو الطريق نفسه الذي تعود به القلوب كلما ابتعدت، وتستقيم به الخطوات كلما اضطرب المسير.

﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾... حين يُصبح الكلام صدقة

ليس العطاء في ميزان القرآن مالاً فقط، بل قد يكون كلمةً تُقال في وقتٍ كان يمكن أن تُقال فيه كلمةٌ أخرى تؤذي القلب وتكسره؛ ولهذا يُعلّمك القرآن أدباً رفيعاً حتى في لحظة العجز، حين لا تملك أن تعطي بيدك، فيقول: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾.

فقد يقف الإنسان أمام فقيرٍ لا يجد ما يقدّمه، أو يطرق بابه محتاجٌ فيجد يده خالية، وهنا لا يتركك القرآن بلا توجيه، بل يُذكّرك أن الفقير جاء يحمل حاجةً في يده، فلا تضع على قلبه حاجةً أخرى بكلمةٍ قاسية، ولا تزيد فقره فقراً بعبارةٍ تُشعره بالمهانة أو الضيق.

← إن لم تستطع أن تعطي مالاً... فاعطِ كرامة.

← وإن لم تملك ما تسدّ به الحاجة... فاحفظ على الأقل قلب السائل من الانكسار.

فالكلمة الميسورة هي كلمةٌ سهلةٌ لطيفة، تحمل اعتذاراً رفيقاً، أو دعاءً صادقاً، أو وعداً حسناً إن تيسّر الخير بعد ذلك، كلمةٌ يشعر معها المحتاج أن بابه لم يُغلق في وجهه، وأن كرامته بقيت محفوظة وإن لم يحصل على المال.

وهكذا يُربّي القرآن الإنسان على أن الرحمة ليست في حجم ما تعطيه فقط، بل في الطريقة التي تتعامل بها حين لا تستطيع أن تعطي؛ فقد تعجز اليد... لكن لا ينبغي أن يقسو القلب، وقد يضيق المال... لكن لا ينبغي أن تضيق الرَّحمة.

مَن إمامُك الذي سيُدعى بك يوم القيامة؟

ليست الحياة في ميزان القرآن حركةً عشوائية بلا قيادة، ولا سيراً بلا جهةٍ تقود القلب والعقل، بل لكلِّ إنسانٍ إمامٌ يتقدّمه ويصوغ مساره ويحدّد وجهته، حتى يأتي اليوم الذي يكشف فيه الله حقيقة هذا الاتّباع كله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾.

هناك يومٌ يُنادى فيه الناس لا بأسمائهم فقط، بل بما كانوا يتّبعونه في الدنيا، بما كان يقود قراراتهم، ويوجّه اختياراتهم، ويحدّد ميزان الحق والباطل في قلوبهم؛ يومٌ يظهر فيه بوضوحٍ:

←من كان إمامه كتابَ الله تعالى،

←ومن كان إمامه رأياً متقلّباً،

←أو شهوةً عابرة،

←أو هوىً يُزيّن لصاحبه طريقاً لا نهاية له إلا النَّدم.

فالإمام ليس مجرد قائدٍ ظاهر، بل هو:

١) المعيار الذي يرجع إليه القلب حين يختار،

٢) والمرجع الذي يُحكِّم الإنسانُ كلمته حين تتزاحم الخيارات،

٣) والميزان الذي يزن به ما يحب وما يكره، وما يقبل وما يرفض.

ولهذا فإن السؤال الحقيقي الذي يجب أن يُسأل قبل ذلك اليوم ليس:

- ماذا أفعل أحياناً؟ بل: من يقودني دائماً؟
- من الإمام الذي يتقدّم حياتي في قراراتي الكبرى والصغرى؟

- هل هو القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، ويعيد ترتيب الحياة على ميزان الآخرة...
- أم هو الهوى الذي يزيّن العاجل ويغيب عنه المصير؟

ذلك السؤال ليس مؤجّلاً إلى يوم القيامة... بل يبدأ جوابه الآن، في كل لحظةٍ يختار فيها الإنسان أيَّ صوتٍ يتقدّم قلبه، وأيَّ طريقٍ يضع قدمه عليه.

المحور الإيماني المركزي للجزء الخامس عشر هو:

أن العبودية التي يريدها القرآن تُقيم القلب بين التوحيد والمسؤولية والرحمة؛ فيتعلق القلب بالله وحده، ولا يهرب الإنسان من محاسبة نفسه، ولا يفسد حين تتسع له الدنيا.

ولا ينهار حين لا يفهم حكمة الله في الابتلاء... فهذا الجزء يبدأ بترقية العبد حين يصدق وصف "العبودية" ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾، ثم يثبت أصل الاعتماد الذي لا يقوم الدين بدونه ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾، ثم يُعرّي سُنن الانحراف في الأمم والأفراد: فسادٌ يعود إذا عادت القلوب ﴿إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾، وميزانٌ لا يظلم أحداً: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾... ثم يضعك أمام وظيفة القرآن في حياتك لا بوصفه نصّاً يُتلى فقط بل طريقاً يُقوّم كل اعوجاجٍ في الداخل ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، ويكشف مرض العجلة التي تُفسد القرار والدعاء معاً ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾، ثم يقطع حجج التبرير ويغلق باب تعليق الذنب على غيرك: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ و﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾... ثم ينقلك إلى ميدان الإرادة الكبرى: من يجعل قصده عاجلةً يُعجَّل له ثم يُترك، ومن أراد الآخرة بسعيها وهو مؤمن فذلك سعيٌ مشكور ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾... ثم يأتي قلب الوصايا ليقول لك إن التوحيد ليس فكرةً عالية فقط بل "أخلاقٌ مفصّلة" تبدأ من البيت: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ ثم تنزل إلى أدقّ مظاهر الرحمة ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ وتُتوّج بدعاء الاعتراف بالفضل ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾... ثم يُربّي هذا الجزء قلبك على أمانة السَّمع والبصر

والفؤاد، وعلى أن الكلمة قد تكون باب صلاح أو فتنة، وأن الشيطان يدخل من "العبارات" قبل الكبائر ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾...

ثم تُفتتح سورة الكهف لتعيد تثبيت معنى "الكتاب القيّم" الذي يُقيمك أنت لا يُجمّلك فقط ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً﴾، وتعلن أن زينة الدنيا ليست تكريماً بل ابتلاءً ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، ثم تعرض نماذج النجاة:

١) فتيةٌ ثبتوا فزادهم الله هدى،

٢) وغنيٌّ اغترّ فانهار لأن قلبه نسي ربه،

٣) وعبدٌ صالحٌ يُعلِّم موسى أن وراء الظاهر حكمةً لا تُنال إلّا بالصبر...

لتخرج من الجزء كله بهذه الحقيقة الواحدة:

- التوحيد الذي لا يغيّر السلوك توحيدٌ ناقص،
- والعبودية التي لا تُثمر رحمةً وعدلاً وضبطاً للنفس ليست عبوديةً مكتملة،
- وأن القرآن جاء ليُقيم الإنسان على طريق الله في السِّر والعلن،

١. في البيت والمجتمع،

٢. في النعمة والابتلاء،

حتى يلقى ربَّه بقلبٍ مستقيم.

حين يبدأ الشيطان من "الكلمات" قبل الكبائر

يُعلّمك القرآن أن أمانة الإنسان لا تبدأ عند الأفعال الكبيرة فقط، بل تبدأ قبل ذلك بكثير... عند السَّمع والبصر والفؤاد، وعند الكلمة التي تخرج من اللسان؛ فهذه الثلاثة هي أبواب القلب، ومنها يتشكّل الطريق كلّه.

فالسَّمع أمانة، لأن ما تسمعه يصنع أفكارك، والبصر أمانة، لأن ما تنظر إليه يغرس صوراً في قلبك، والفؤاد أمانة، لأنه الموضع الذي تتكوّن فيه النيات والاختيارات؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾.

لكن القرآن يلفت النظر إلى بابٍ قد يستهين به كثير من الناس: **باب الكلمة**... لأن الكلمة قد تكون مفتاح صلاحٍ عظيم، وقد تكون بداية فتنةٍ لا يُدرِك صاحبها أين تنتهي.

- فكم من خلافٍ كبير بدأ بعبارةٍ صغيرة،
- وكم من قطيعةٍ بدأت بجملةٍ قاسية،
- وكم من فتنةٍ اشتعلت من كلمةٍ لم يُلقِ صاحبها لها بالاً.

ولهذا جاء التوجيه القرآني دقيقاً ومباشراً: ﴿وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ ليس فقط "قولوا الحسن"، بل "التي هي أحسن"، أي اختاروا من الكلام أرفقه وأصفاه وأبعده عن إشعال الشَّر.

فالشيطان لا يبدأ غالباً بالكبائر مباشرة، بل يبدأ بخطوةٍ أخفّ:

١. كلمةٍ تُشعل غضباً،
٢. أو عبارةٍ تزرع سوء ظن،
٣. أو تعليقٍ يفتح باب الخصومة...
٤. ثم تتدحرج بعدها الأمور حتى تكبر.

ولهذا يُربّي القرآن المؤمن على يقظةٍ في لسانه قبل أفعاله، لأن كثيراً من الفتن العظيمة لم تبدأ بضربة سيف... بل بدأت بكلمة.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها الجزء ١٥

❖ أولاً: انحراف عقدي

١) الشرك بالله واتخاذ وكيلٍ غيره: حين يتعلّق القلب بغير الله اعتماداً وخوفاً ورجاءً، فيصبح التوحيد مجرد شعارٍ لا حقيقة، ولذلك جاء التحذير القاطع: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً﴾.

٢) الانحراف في تصور الله ونسبة الولد إليه: من أعظم الانحرافات العقدية أن يُقال على الله بغير علم، كما قال من زعم أن لله ولداً، فبيّن القرآن فداحة هذا القول: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾.

٣) الغرور بالدنيا ونسيان الآخرة: حين يُصبح همّ الإنسان العاجلة فقط، فيظن أن النجاح الدنيوي هو المعيار النهائي، مع أن القرآن حذّر: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ ثم تكون العاقبة خسارة الآخرة.

٤) الكفر بآيات الله أو الاستهزاء بها: الانحراف يبدأ حين تُقابل آيات الله بالتكذيب أو الاستهزاء، لا بالإنكار فقط بل بالاستخفاف، ولذلك قال: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً﴾.

٥) الاغترار بالعقل ورفض الوحي: حين يظن الإنسان أن عقله وحده كافٍ فيرفض رسالة الله بحجة أن الرسول بشر، كما قال المنكرون: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾.

❖ ثانياً: انحراف أخلاقي

١) عقوق الوالدين وقسوة القلب معهما: أخطر الانحرافات الأخلاقية أن يغلظ الإنسان مع من كان سبب وجوده، فجاء التحذير في أدق كلمة: ﴿فَلَا

تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ لأن فساد القلب يظهر أولاً في البيت.

٢) الفحش والاعتداء على الحرمات: حين ينهار خلق العفة ويقترب الإنسان من الفواحش التي تدمّر الفرد والمجتمع، ولذلك قال القرآن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾.

٣) الاعتداء على النفس التي حرّم الله: قتل النفس بغير حق من أعظم الجرائم الأخلاقية، لأنه اعتداء على حق الله في الحياة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

٤) الكذب والقول بغير علم: من أخطر فساد الأخلاق أن يتكلم الإنسان بلا علم أو يتحاكم إلى الظن والهوى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لأن السَّمع والبصر والقلب كلها مسؤولية.

٥) الكِبر والتعالي على الناس: حين يمشي الإنسان في الأرض متكبراً ينسى ضعفه وأصله، فذكّره القرآن بحقيقته: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾.

❖ ثالثاً: انحراف اجتماعي

١) قطع حقوق الأقارب والمحتاجين: المجتمع يفسد حين تضيع الرحمة والحقوق بين الناس، لذلك أمر الله بالعدل في العطاء: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.

٢) التبذير وإفساد المال: الإسراف ليس مجرد خلل اقتصادي بل انحراف أخلاقي واجتماعي، لأن المال أمانة: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾.

٣) الظلم في المعاملات والميزان: من أخطر ما يهدم المجتمع أن تُفسد العدالة الاقتصادية بين الناس، فجاء الأمر الصريح: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.

٤) الجدال بالباطل لإبطال الحق: حين يتحول النقاش إلى وسيلة لتشويه الحقيقة لا للوصول إليها، كما قال الله تعالى عن المنحرفين: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾.

٥) الانخداع بزينة الدنيا والتفاخر بها: حين يصبح المال والولد معيار القيمة الاجتماعية، مع أن القرآن يذكّر: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾.

❖ رابعاً: انحراف نفسي

١) العجلة والاندفاع في القرار والدعاء: من أمراض النفس أن تستعجل النتائج فتدعو بالشَّر لنفسها دون أن تشعر: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً﴾.

٢) اليأس عند الشِّدة والغُرور عند النِّعمة: نفسٌ مضطربة تتقلب بين الغرور واليأس، فإذا نُعّمت أعرضت وإذا ابتليت قنطت: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾.

٣) اتباع الهوى والغفلة عن الذكر: حين يصبح الهوى قائد القلب بدل الوحي، فيقود الإنسان إلى الضياع: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

٤) الاغترار بالقوة والمال: مثل صاحب الجنتين الذي ظن أن النعمة ضمانٌ للبقاء، فقال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً﴾ فكان غروره سبب سقوطه.

٥) الاضطراب أمام حكمة الله الخفية: حين يضيق الإنسان بما لا يفهمه من أقدار الله تعالى، كما في قصة موسى عليه السَّلام مع العبد الصالح حين قال: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ قبل أن تنكشف الحكمة.

وخلاصة التحذير في هذا الجزء أن الانحراف لا يبدأ فجأة، بل:

١) يبدأ بفكرةٍ فاسدة في العقيدة،

٢) ثم يتسلل إلى الأخلاق،

٣) ثم يفسد العلاقات الاجتماعية،

٤) ثم يستقر مرضاً في النفس...

ولذلك جاء القرآن الكريم في هذا الجزء ليُعيد بناء الإنسان من جذره:

- توحيداً صحيحاً،
- وقلباً خاشعاً،
- وسلوكاً مستقيماً،
- ومجتمعاً يقوم على الرَّحمة والعدل.

الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم لا يكتفي بتعليم أحكامٍ أو سرد قصص، بل:

١. يصنع نموذجاً إنسانياً متوازناً يجمع بين صفاء العقيدة،

٢. ورِقّة القلب،

٣. واستقامة السلوك،

٤. وثبات النفس أمام الفتن...

ومن يتتبع آياته يرى أن القرآن الكريم هنا يبني شخصية المؤمن الذي يعيش في الدنيا بقلبٍ مع الله تعالى وعقلٍ واعٍ ونفسٍ منضبطة.

البرّ عبوديةٌ لله... قبل أن يكون معاملةً للوالدين

ينبغي أن نفهم حقيقةً دقيقة في باب البرّ: ما نفعله مع والدينا ليس مجرّد تبادلٍ للمشاعر، ولا معاملةً بشريةً قائمة على مقدار ما يعطوننا أو يقدّمونه لنا، بل هو في الأصل عبوديةٌ لله قبل أن يكون علاقةً بينهم وبيننا.

فنحن لا نبرّهم لأنهم كاملون، ولا لأنهم دائماً يعاملوننا كما نحب، ولا لأنهم لا يخطئون، بل لأن الله أمرنا بذلك، وجعل هذا الباب من أعظم أبواب الطاعة بعد أصل الدين.

ولهذا جاء ترتيب الآية مهيباً واضحاً: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، فقرن الإحسان إلى الوالدين بتوحيده سبحانه مباشرة، ليُفهِم المؤمن أن هذا البرّ ليس مجاملةً اجتماعية، بل عبادةٌ يتقرّب بها العبد إلى ربّه.

ومن هنا تتغيّر زاوية النظر كلها؛ فالمؤمن لا يبرّ والديه لأنه ينتظر منهما الكمال، بل لأنه يريد أن يطيع الله، ولا يقيس إحسانه بميزان العدل البشري الدقيق، بل بميزان العبودية الذي يقول: هذا أمرٌ من الله، وأنا أرجو به رضاه.

وكثيرٌ من الآباء – خاصة في البيئات البسيطة أو القاسية في تربيتها – لا يُحسنون التعبير عن عاطفتهم بالكلمات أو المظاهر، فيظن الأبناء أحياناً أن المحبة قليلة أو غائبة، بينما الحقيقة أن الأمر في كثير من الأحيان ليس نقصاً في الحب، بل اختلافاً في طريقة التعبير عنه.

فلا تُقاس محبة الآباء دائماً بعباراتٍ تُقال أو مشاعر تُعلن، لأن بعض القلوب تحبّ بصدقٍ عميق لكنها لا تعرف كيف تُظهر ذلك؛ فليس كل حُبٍّ يُقال، وبعض الحُبِّ يُخفى في الصمت أكثر مما يظهر في الكلام.

حين تتحوّل الزِّينة إلى ميزانٍ زائف

من أخطر ما يُصيب القلب أن تتحوّل زينة الدنيا إلى معيارٍ للحكم على الناس، فيُقاس قدر الإنسان بما يملك لا بما يكون، وبما يظهر حوله لا بما يستقر في قلبه؛ فإذا كثر المال ارتفعت المنزلة، وإذا كثر الولد عَظُم القدر في أعين الناس، وكأنَّ القيمة الحقيقية تُصاغ بالأرقام والمظاهر.

لكن القرآن الكريم يوقظ القلب من هذا الانخداع الهادئ الذي يتسرّب إلى النفوس دون أن تشعر، فيقول بميزانٍ واضح: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾.

فلم ينكر القرآن أن المال والولد زينة؛ والزينة في أصلها شيءٌ جميل يزيّن الحياة ويجمّلها، لكنه يذكّر في الوقت نفسه أن الزينة ليست معيار القيمة، وليست ميزان التفاضل عند الله، لأنها عارضةٌ تزول، تتبدّل بتبدّل الأيام، وقد تُعطى لمن يحب الله ولمن لا يحب، ولمن يشكر ولمن يكفر.

أما الباقيات الصالحات فهي شيءٌ آخر تماماً؛ ليست زينةً عابرةً تبهت مع الأيام، بل رصيدٌ يبقى للعبد بعد أن تنطفئ كل أضواء الدنيا.

وقد فسّرها كثير من أهل العلم بما يبقى أجره من ذكر الله والأعمال الصالحة، ومن أشهر ما قيل فيها: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، وما يدخل في معناها من كل عملٍ صالحٍ خالصٍ لله تعالى... فهي ليست شيئاً يلمع لحظةً ثم يزول، بل عملٌ يبقى لصاحبه حين تسقط الزينات التي كانت تُبهر الأبصار في الدنيا، ويبقى أثره في ميزان الله يوم لا ينفع مالٌ ولا مظهر، وإنما ينفع ما بقي من العمل الصالح... وهكذا يعيد القرآن الكريم ترتيب الميزان في قلب المؤمن؛ فلا يكره زينة الدنيا، ولا يجعلها موضع ازدراء، لكنه لا يسمح لها أن تحتل مكان الحقيقة الكبرى: أن ما يبقى عند الله أعظم قدراً، وأبقى أثراً، وأصدق أملاً من كل ما يتفاخر به الناس في دنياهم.

الملامح الشخصية التي يصنعها الجزء ١٥

١. شخصية موحِّدة لا تتعلق إلَّا بالله: هذا الجزء يزرع في القلب أصل التوحيد الذي يحرّر الإنسان من كل اعتمادٍ زائف، فيتعلم أن لا يجعل قلبه معتمداً على غير الله مهما كانت الأسباب، ولذلك جاء التحذير الواضح: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً﴾، فالمؤمن الذي يصنعه هذا الجزء يعيش بقلبٍ معلّق بالله وحده، يعلم أن القوة والرزق والنصر كلها بيد الله سبحانه وتعالى.

٢. شخصية ترى الحياة بمنظار الآخرة لا بمنظار العاجلة: القرآن هنا يعيد ترتيب البوصلة الداخلية للإنسان، فيتعلم أن النجاح الحقيقي ليس في ما يحصل عليه الآن، بل في ما يبقى له عند الله، ولهذا يضع المعيار الحاسم: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾، فالمؤمن لا يرفض الدنيا لكنه لا يجعلها غايته.

٣. شخصية مسؤولة تحاسب نفسها قبل أن تُحاسَب: الإنسان الذي يصنعه هذا الجزء يعيش بوعيٍ عميق لمسؤوليته الفردية أمام الله، فلا يعلّق أخطاءه على الناس أو الظروف، بل يعرف أنه سيقف وحده يوم القيامة أمام كتاب أعماله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾، فينشأ في داخله ضميرٌ حيٌّ يراقب نفسه قبل أن يراقبه الناس.

٤. شخصية رحيمة بارّة بالوالدين: من أبرز ملامح المؤمن التي يؤسسها هذا الجزء رقّة القلب مع الوالدين، لأن الإيمان الحقيقي يظهر في الرحمة لا في الادعاء، ولذلك أمر الله بأدبٍ دقيق حتى في الكلمات الصغيرة: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾، فالمؤمن الحقيقي يحمل في قلبه امتناناً دائماً لمن ربّاه.

٥. شخصية عادلة مستقيمة في التعامل مع الناس: يبني هذا الجزء إنساناً يحترم الحقوق ولا يظلم أحداً، سواء في المال أو الكلام أو العلاقات، ولذلك جاء الأمر الواضح بالعدل في المعاملات: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾، فالمؤمن ليس صالحاً في عبادته فقط بل في معاملته أيضاً.

٦. شخصية متواضعة لا يغريها المال ولا المكانة: القرآن يربّي القلب على التواضع ويمنعه من الكبر الذي يُفسد النفس، فيُذكّر الإنسان بضعفه وحدوده: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾، فالمؤمن يرى نفسه عبداً لله تعالى مهما ارتفعت مكانته بين الناس.

٧. شخصية نقية اللسان تحسن الكلمة وتطفئ الفتن: يبني هذا الجزء إنساناً يدرك أن الكلمة قد تبني وقد تهدم، ولذلك يُوجّه المؤمن إلى اختيار أحسن العبارات حتى في الخلاف: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، لأن الكلمة الطيبة تحفظ القلوب من نزغ الشيطان.

٨. شخصية متزنة لا يغتر بالنِّعمة ولا ينهار عند الابتلاء: من أعظم ملامح المؤمن في هذا الجزء الاتزان النفسي، فلا يطغى حين يملك، ولا ييأس حين يُبتلى، وقد بيّنت قصة صاحب الجنتين كيف يُفسد الغرور القلب حين ينسى الإنسان ربه ويقول: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً﴾، بينما المؤمن يرى النِّعمة فضلاً من الله لا ضماناً دائماً.

٩. شخصية صابرة تثق بحكمة الله حتى حين لا تفهمها: في قصة موسى عليه السَّلام مع العبد الصالح يتعلم المؤمن درساً عميقاً: ليس كل ما نراه شراً يكون شراً في علم الله، ولذلك كان الامتحان الحقيقي هو الصبر: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾، فالمؤمن يسلّم لحكمة الله وإن خفيت عليه بعض التفاصيل.

١٠. شخصية واعية ترى الدنيا اختباراً لا استقراراً: القرآن في هذا الجزء يكشف حقيقة الحياة: ما فيها من جمال وزينة ليس غاية بل امتحان، ولذلك قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، فالمؤمن يعيش الدنيا بعين المسؤولية لا بعين الغفلة.

وخلاصة الملامح التي يصنعها هذا الجزء

أنه يبني إنساناً موحّد القلب، حيَّ الضمير، رحيماً في بيته، عادلاً في مجتمعه، متواضعاً في نفسه، صبوراً على أقدار الله تعالى، يرى الدنيا ممراً لا مقراً، ويجعل القرآن ميزان حياته حتى يلقى الله سبحانه بقلبٍ مستقيم.

أمراض القلوب التي يعالجها الجزء ١٥

❖ أولاً: أمراض العلاقة بالله (الخلل العقدي)

١) من أخطر أمراض القلب أن يختل تصور الإنسان عن الله، فيتعلق قلبه بغيره أو يظن أن القوى في الكون تعمل مستقلة عن إرادة الله، فيبدأ الشرك الخفي قبل الشِّرك الظاهر، ولذلك جاء التصحيح الحاسم في هذا الجزء: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً﴾، فالقلب الذي يتخذ مع الله وكيلاً أو سنداً مطلقاً من البشر يقع في ذلٍّ داخلي لأنه يضع ثقته في ما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

٢) ومن أمراض العقيدة أيضاً الانحراف في تصور الله والقول عليه بغير علم، كما فعل من نسبوا إليه الولد أو الشركاء، فجاء القرآن يصحح هذا الانحراف ويكشف فداحة هذا القول: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾، فالقلب السليم لا يبني إيمانه على الظنون ولا على الموروثات الباطلة بل على الوحي الصادق.

٣) كما يعالج هذا الجزء مرض إنكار الآخرة أو الغفلة عنها، وهو مرضٌ يجعل الإنسان يعيش للدنيا وحدها، فينسى الحساب والمصير، ولذلك يذكّر القرآن أن ميزان الأعمال مرتبط بالآخرة لا بالعاجلة: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾.

❖ ثانياً: أمراض النِّيَّة والعبودية

١) القلب قد يعمل الأعمال الصالحة لكنه يفسدها بنياتٍ مضطربة، ولذلك يعالج هذا الجزء مرض الانشغال بالعاجلة وطلب الدنيا وحدها، حين تصبح الطاعة وسيلة للمصلحة لا عبادة خالصة لله، وقد كشف القرآن هذا المرض بقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾، أي أن من جعل قصده الدنيا وحدها فقد حصر نفسه في أفقٍ ضيق.

٢) كما يعالج مرض العجلة الذي يفسد الدعاء والقرارات معاً، فالقلب المستعجل قد يطلب ما يضرّه دون أن يشعر، ولذلك قال الله: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً﴾، فالمؤمن يتعلم أن يسلم أمره لله ولا يندفع خلف رغبات لحظية.

٣) ومن أمراض النِّيَّة أيضاً ضعف الشعور بالمسؤولية أمام الله، حين يظن الإنسان أن أفعاله تضيع أو أن أحداً غيره سيتحمل نتائجها، فجاء العلاج بتذكير الإنسان بموقف الحساب: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾، فالمؤمن يعيش حياته وهو يعلم أن كل خطوة مكتوبة.

❖ ثالثاً: أمراض الموقف الأخلاقي

١) القرآن في هذا الجزء يعالج أمراض الأخلاق التي تنشأ حين يضعف الإيمان في القلب، ومن أخطرها قسوة القلب مع الوالدين أو التكبر عليهما،

فجاءت الوصية الدقيقة التي تعيد للإنسان إنسانيته: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾، لأن القلب الذي لا يرحم والديه يصعب أن يرحم غيرهما.

٢) كما يعالج القرآن مرض الكبر والتعالي على الناس، وهو مرض يفسد القلب حين يغتر الإنسان بنفسه أو بماله أو بمكانته، ولذلك جاء التذكير بضعف الإنسان وحدوده: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾.

٣) ومن أمراض الأخلاق أيضاً فساد اللسان والجدال السيئ الذي يفسد العلاقات بين الناس، ولذلك جاء العلاج القرآني المباشر: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾، لأن كثيراً من الفتن تبدأ بكلمة غير منضبطة.

٤) كما يعالج القرآن مرض الطمع والتبذير في المال، حين يفقد الإنسان التوازن في الإنفاق، فيُذكّر أن المال أمانة وليس مجالاً للفوضى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾.

❖ رابعاً: أمراض الثبات أمام الابتلاء

١) من أخطر أمراض القلب أن يضطرب أمام الابتلاء، فيفقد ثقته بحكمة الله أو يعترض على أقداره، ولذلك جاءت قصة موسى عليه السّلام مع العبد الصالح لتُعلّم المؤمن أن ما يبدو شراً قد يكون وراءه خير عظيم، ولذلك قال العبد الصالح لموسى عليه السّلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾.

٢) كما يعالج القرآن مرض الاغترار بالنِّعمة الذي يجعل الإنسان يظن أن ما يملكه دائم، كما في قصة صاحب الجنتين الذي قال مغتراً: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً﴾، فكان غروره سبب انهياره حين زالت النِّعمة.

٣) ويعالج كذلك مرض اليأس عند الشدة، وهو ضعف نفسي يجعل الإنسان ينسى رحمة الله عند البلاء، ولذلك وصف القرآن طبيعة الإنسان إذا لم يضبط قلبه بالإيمان: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾.

وخلاصة المعالجة القرآنية في هذا الجزء

أن القرآن يعيد بناء القلب من الداخل:

- يصحح عقيدته بالله،
- ويطهّر نيته في العبادة،
- ويهذب أخلاقه مع الناس،
- ويثبّت قلبه عند النِّعمة والابتلاء...

حتى يصبح المؤمن إنساناً متوازناً يرى الدنيا بعين الآخرة، ويعيش حياته في ظل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق: أسئلةُ مواجهةٍ لا معلومات...

❖ **هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟**

١) حين أسمع ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ هل أفهمها كآيةٍ تُتلى... أم كمرآةٍ تكشف من الذي يعتمد عليه قلبي فعلاً عند الخوف والضيق؟ وهل "وكيلُ قلبي" هو الله تعالى... أم الناس... أم المال... أم العلاقات؟

٢) حين أقرأ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ هل أقبل أن يقوّم اختياراتي التي أحبها أنا... أم أريد منه فقط أن يواسيني دون أن يغيّرني؟ وهل أستسلم للهداية... أم أجادلها؟

٣) حين تمرّ عليّ ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ هل أتذكر أنني سأقف وحدي أمام عملي... أم لا زلت أعيش بعقلية "الناس سببوا لي" و"الظروف أجبرتني"؟

٤) حين يفتح الله تعالى باب الوصايا ويقرن التوحيد بالوالدين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ هل أعرف أن صدق إيماني يُختبر في بيتي قبل كلامي؟ أم أنني أبحث عن التدين في الشعائر وأهرب من امتحان الأخلاق؟

٥) حين أسمع ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هل أنا ممن يطفئون الفتنة بكلمةٍ أحسن... أم ممن يوسّعونها بكلمةٍ أقسى ثم يعتذرون بعد خراب القلوب؟

❖ أين انكشف قلبي؟

١) أين يظهر ضيق قلبي حين يتكرر كلام والديّ أو يطول حديثهما؟ وهل يظهر هذا الضيق في النبرة والوجه قبل اللسان... ثم أسمّي نفسي "بارّاً"؟

٢) أين ينكشف تعلقي بالعاجلة حين أقرأ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾؟ هل صرت أقيّم أعمالي بما تجلبه لي من نتيجةٍ سريعة... لا بما ترفعه عند الله؟

٣) أين ينكشف كبريائي حين ينهاني القرآن ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾؟ هل في طريقة كلامي عن نفسي؟ في تلميحاتي؟ في شعوري أنني "أفضل" من غيري؟

٤) أين ينكشف ضعف يقيني حين لا أفهم تقديراً من أقدار الله؟ هل أتّهم الحكمة... أم أتّهم نفسي... أم أهرب إلى الشكوى التي تُفسد الرضا؟

٥) أين ينكشف سوء أدبي في الخلاف حين يوجّهني القرآن إلى الأحسن؟ هل أختار "الأحسن" فعلاً... أم أختار ما يرضي غضبي ثم أبحث عن تبريرٍ ديني بعد ذلك؟

❖ أي آية أربكتني؟

١) هل أربكتني آية المسؤولية الفردية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ لأنها تسحب مني حقَّ تعليق أخطائي على غيري، وتجبرني أن أرى نفسي كما هي بلا أعذار؟

٢) هل أربكتني دقة البرّ في كلمةٍ واحدة ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ لأنني اكتشفت أن العقوق ليس صراخاً فقط... بل تنهيدةٌ أو نظرةٌ أو ضجرٌ مكتوم؟

٣) هل أربكتني آية الكلمة ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لأنها أظهرت أن كثيراً من "دياناتي" تسقط في لحظة غضبٍ واحدة؟

٤) هل أربكتني آية الابتلاء في الزينة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ لأنني اكتشفت أن ما أفرح به قد يكون امتحاني الأكبر لا هديتي؟

٥) هل أربكتني آية الصبر على الحكمة ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ لأنها كشفت أن قلبي يريد "الفهم أولاً" قبل "التسليم"... مع أن العبودية تبدأ بالتسليم؟

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) ما الذي أؤجله في باب الاعتماد على الله؟ هل ما زلت أعيش بقلقٍ زائدٍ لأن قلبي لم يُسلّم الوكالة لله حقاً... مع أن القرآن قال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾؟

٢) ما الذي أؤجله في باب برّ الوالدين؟ هل أؤجل تغيير نبرتي... أو ردودي... أو حضوري معهم... ثم أكتفي بالدعاء العام وأترك التفاصيل التي تصنع البرّ؟

٣) ما الذي أؤجله في باب اللسان؟ هل أعرف أن كلمةً واحدة قد تهدم علاقةً كاملة... ثم أؤجل ضبط لساني بحجة أن طبعي حادّ أو أنني "صريح"؟

٤) ما الذي أؤجله في باب المال؟ هل أؤجل علاج الإسراف، وتأجيل الحقوق، والتساهل في الأمانة... ثم أتعجب لماذا تُنزَع البركة من يومي؟

٥) ما الذي أؤجله في باب التواضع؟ هل أؤجل كسر الكِبر لأنني لم أره كمرضٍ أصلاً... مع أن القرآن يهدمه بوضوح: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾؟

إذا خرجتَ من هذا الاختبار بجُرحٍ في النفس... فاحمد الله؛ لأن الجرح هنا ليس إهانةً... بل بداية علاجٍ صادق، والقرآن لا يفضحك ليكسرك... بل ليقيمك على الطريق الذي هو أقوم.

خطة التغيير: طريقٌ قصير... لكنه صريح

ليس المقصود بهذه الخطة كثرة الخطوات، بل وضوح الاتجاه؛ لأن القرآن في هذا الجزء لا يطلب منك أن تفعل كل شيء دفعةً واحدة، بل أن تُصلح الأصل الذي إن استقام استقامت بقية الحياة، ولهذا فهذه نقاط قليلة لكنها عميقة، تبدأ بالقلب ثم تنزل إلى السلوك.

١) أعد ترتيب قلبك: لا وكيل إلّا الله: ابدأ من الجذر: من الذي تعتمد عليه نفسيّاً حين أخاف أو أقلق؟ صحّح هذا الأصل حتى يصبح قلبك متكئاً على الله تعالى وحده كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾، فكل تغييرٍ حقيقي يبدأ من نقل الاعتماد من الخلق إلى الخالق.

٢) صحّح مقصدك: اجعل الآخرة هي البوصلة: اسأل نفسك قبل كل قرار: هل هذا يقربني إلى الله أم فقط يرضي رغبةً عاجلة؟ لأن القرآن يضع الميزان بوضوح: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فالإرادة هي بداية الطريق، والسَّعي هو برهان الصدق.

٣) ابدأ من البيت: أصلح علاقتك بوالديك: لا تبحث عن إصلاح العالم قبل أن يصلح قلبك مع أقرب الناس إليك، فاختبار الإيمان يبدأ هنا: في النبرة، في الصبر، في الاحترام، لأن الله قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، فالتغيير الصادق يبدأ من أدق التفاصيل.

٤) اضبط لسانك قبل أن تضبط الآخرين: كثير من الفتن تبدأ بكلمة، ولذلك فإن أول إصلاحٍ عملي هو أن تختار "الأحسن" لا "الأسرع" في الرد، كما وجّه القرآن: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فالكلمة الطيبة ليست مجاملة بل عبادة.

٥) حارب الكبر الخفي في قلبك: كلما شعرت أنك أفضل من غيرك، تذكّر حقيقة ضعفك، فالتواضع ليس تصنّعاً بل معرفةً بحجمك الحقيقي، وقد ذكّر القرآن الإنسان بحدوده: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾، فمن عرف قدر نفسه سلم قلبه من الغرور.

٦) تعلّم الصَّبر على ما لا تفهم حكمته: ليس كل ما يحدث في حياتك واضح الحكمة الآن، وقد علّم الله موسى عليه السَّلام هذا الدرس حين قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾، فالإيمان الحقيقي يظهر حين تثق بحكمة الله حتى قبل أن تفهمها.

٧) خفّف تعلُّقك بزينة الدنيا: انظر إلى المال والنجاح والراحة على أنها وسائل اختبار لا علامات تفوق، لأن الله قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾، فالمؤمن لا يرفض النعمة لكنه لا يجعلها مركز حياته.

٨) عش يومك وأنت تتذكر كتابك: أعظم دافع للتغيير أن تتذكر أن كل لحظة تُكتب، وأنك ستقرأها يوماً بنفسك: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾، فحين تعيش بهذه الذاكرة اليومية يصبح الإصلاح طبيعياً لا ثقيلاً.

خلاصة الطريق

التغيير الذي يصنعه القرآن ليس تغيّراً سريعاً في المظاهر، بل تحولاً عميقاً في القلب:

- **قلبٌ يثق بالله،**
- **ويقصد الآخرة،**
- **ويرحم الوالدين،**
- **ويضبط لسانه،**
- **ويتواضع،**
- **ويصبر على الحكمة،**
- **ويرى الدنيا اختباراً...**

فإذا استقامت هذه المعاني، بدأ الإنسان يمشي في الحياة بقلبٍ أقرب إلى الله تعالى وطريقٍ أقوم.

خاتمة وجدانية مزلزلة

في نهاية هذا الجزء... لا يبقى السؤال: هل فهمت المعاني؟ بل السؤال الذي يطرق القلب بصدق: هل تغيّر شيء في داخلي؟

هذا الجزء لم ينزل ليُثري معلوماتك، بل ليوقظ قلبك من غفلته؛ ليقول لك إن الحياة ليست طريقاً عشوائياً تمشي فيه بلا حساب، بل طريقٌ يُكتب فيه كلُّ شيء، حتى اللحظة التي تظنها صغيرة... لأنك ستقف يوماً أمام كتابك، لا أمام أعذارك، وسيسمع قلبك النداء الذي لا مهرب منه: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾.

إن هذا الجزء يهزّ الإنسان من الداخل، لأنه يُذكّره أن الإيمان ليس فكرةً جميلة في العقل، بل علاقةٌ حقيقية مع الله سبحانه وتعالى، تبدأ حين يسلّم القلب وكالته كلها لله، فلا يركن إلى قوةٍ غيره، ولا يطمئن إلى سندٍ سواه، ولا

يظن أن أحداً يستطيع أن يحفظه أو يرزقه أو ينصره إلا الله، ولذلك جاء النداء الصريح الذي يختصر طريق النجاة كله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾.

ثم يضعك القرآن الكريم أمام الحقيقة التي يهرب منها كثير من الناس: أن الحياة التي تراها حولك بكل ما فيها من زينةٍ ونجاحٍ ومتاع ليست دار استقرار، بل ميدان اختبارٍ دقيق، تُكشف فيه القلوب وتظهر فيه حقيقة النفوس، ولذلك قال الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، فليس السؤال: من أكثر مالاً؟ أو من أوسع شهرة؟ بل من كان عمله أحسن وأصدق عند الله تعالى.

وحين تمر في هذا الجزء بوصايا البرّ والرَّحمة والعدل والتواضع وضبط اللسان، تدرك أن الإيمان ليس كلمةً تقال، بل أخلاقٌ تُرى، وأن أعظم امتحان للإيمان قد لا يكون في ساحةٍ عظيمة ولا في موقفٍ كبير، بل في بيتك... في نبرة صوتك مع والديك... في كلمةٍ تختارها أو تكفّ عنها... في موقفٍ تستطيع فيه أن تظلم فتختار العدل.

ثم تأتي قصص هذا الجزء لتقول للقلب: لا تظن أنك سترى الحكمة دائماً، فكم من أمرٍ ظننته شراً ثم اكتشفت أنه رحمة، وكم من نعمةٍ ظننتها خيراً فإذا بها فتنة، ولهذا تُعلِّم المؤمن أن يمشي في الحياة بقلبٍ مطمئن إلى حكمة الله حتى قبل أن يفهمها، لأن الله تعالى أعلم بما يصلح عباده.

وفي النهاية يبقى النداء الأكبر في هذا الجزء... نداء القرآن نفسه: أن هذا الكتاب لم يُنزَّل ليُقرأ فقط، بل ليقود الحياة كلها، ليقيم العقل والقلب والسلوك، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

فإن خرجت من هذا الجزء بشيءٍ واحد فقط... فليكن هذا: أن تجعل القرآن ميزان قلبك، لا زينة لسانك.

وإن خرجت بسؤالٍ واحدٍ يرافقك بعد القراءة... فليكن هذا السؤال

الصادق: هل أنا أعيش مع القرآن... أم أن القرآن يمرّ بي دون أن يغيّرني؟
لأن القرآن لا يفتح هداياته وأنواره وأسراره لمن يقرأه بعينيه فقط... بل لمن يقرأه بقلبٍ يريد أن يتغير.

روح الرسالة التربوية والعقدية في الجزء الخامس عشر

ليست هذه الآيات مجرد سردٍ لأحداثٍ أو وصايا متفرقة، بل هي بناءٌ متكامل يُعيد ترتيب علاقة الإنسان بالله، وبنفسه، وبالناس، وبالدنيا، ولذلك يمكن تلخيص روح هذا الجزء في محاور قليلة لكنها عميقة، تشبه إشاراتٍ على الطريق تُذكِّر القلب باتجاهه الصحيح.

١) التوحيد ليس فكرة... بل اعتمادٌ كامل على الله: جوهر الإيمان أن يتحرر القلب من التعلّق بغير الله، فلا يرى في الكون وكيلاً حقيقياً إلا الله، ولذلك جاء النداء الحاسم: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾، أي لا تُسند قلبك ولا خوفك ولا رجاءك إلى أحدٍ سواه.

٢) الدنيا زينة اختبار... لا حقيقة استقرار: ما تراه من جمال الدنيا ومتاعها ليس علامة رضى ولا غضب بذاته، بل ميدان ابتلاءٍ يكشف صدق القلوب، ولهذا قال الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، فالقيمة الحقيقية ليست في كثرة ما تملك، بل في حسن ما تعمل.

٣) القرآن ليس كتاب معلومات... بل ميزان حياة: وظيفة القرآن أن يقيم الميزان الداخلي للإنسان، فيصحّح تصوّره عن الله وعن نفسه وعن الطريق، ولذلك قال الله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، أي إلى الطريق الأعدل والأثبت في الاعتقاد والسلوك.

٤) الإيمان الحقيقي يظهر في الأخلاق اليومية: الإيمان ليس شعوراً داخلياً فقط،

بل يظهر في تفاصيل الحياة: في برّ الوالدين، في الكلمة الطيبة، في العدل مع الناس، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، لأن صلاح القلب يظهر في صلاح المعاملة.

٥) الكلمة مسؤولية... وليست مجرد صوت: اللسان قد يبني قلوباً أو يهدمها، ولهذا علّم الله عباده ميزان الكلمة فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي اختر من الكلام أرقاه وأعدلَه، لأن الكلمة قد تكون عبادةً أو معصية.

٦) التواضع هو حقيقة معرفة الإنسان بنفسه: القرآن يُذكّر الإنسان بحدوده حتى لا يضخم نفسه، لأن من عرف ضعفه سلم من الكبر، ولهذا جاء التذكير القاطع: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾، فالتواضع ليس ضعفاً بل وعيٌ بحقيقة الإنسان.

٧) الصبر على ما لا نفهم حكمته جزء من الإيمان: ليس كل ما يحدث في حياتك واضح الحكمة الآن، ولذلك علَّم الله موسى عليه السَّلام هذا الدرس العظيم حين قال له الخضر: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾، فالإيمان الحقيقي يثق بحكمة الله تعالى حتى قبل أن تتكشف.

٨) القوة الحقيقية ليست في السُّلطة... بل في الإيمان: قصص هذا الجزء تبيّن أن القوة إذا انفصلت عن الإيمان تتحول إلى طغيان، وأن الملك الحقيقي هو الذي يُسخِّر قوته لإقامة العدل لا لتعظيم نفسه.

٩) العلم إذا لم يقترن بالتواضع يصبح فتنة: العلم نعمة عظيمة، لكنه قد يتحول إلى غُرورٍ إذا نُسي أن مصدره من الله، ولذلك يُذكّر القرآن أن الإنسان مهما علم يبقى محتاجاً إلى هداية الله.

١٠) الإنسان مسؤول عن نفسه قبل أن يحاسب غيره: أخطر ما ينساه الإنسان أن كل خطوةٍ في حياته مكتوبة، وأنه سيقرأها يوم القيامة بنفسه، كما قال

الله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾، فلا ينجو أحدٌ يومئذٍ بالأعذار بل بالصدق مع الله.

الخلاصة العميقة لروح الجزء:

أن يعيش الإنسان في الدنيا بقلبٍ موصول بالله، وعقلٍ منضبط بالقرآن، وأخلاقٍ تُترجم الإيمان إلى رحمةٍ وعدلٍ وتواضع... فإذا اجتمعت هذه الثلاثة صار الإنسان أقرب إلى الطريق الذي وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

الترابط بين الجزأين ١٤ – ١٥

❖ الترابط الموضوعي بين الجزأين ١٤ – ١٥

١) الجزء الرابع عشر يضعك في "ميدان السُّنن":

- سُنّة حفظ الوحي من العبث ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾،
- وسُنّة إمهال الغافلين حتى يُلهيهم الأمل ثم يفجؤهم اليقين،
- وسُنّة الرزق الموزون المقدَّر ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾،

ثم يفتح أمامك مشهد الصراع الأول: قصة إبليس، وكيف يبدأ الطريق من كبرياءٍ صغير ثم يصير لعنةً ممتدةً إلى يوم الدين.

٢) ثم يأتي الجزء الخامس عشر ليحوّل "السُّنن" إلى "منهج حياة":

- لا تكتفِ بأن تعلم أن القرآن محفوظ، بل ادخل تحت هدايته التي تقوّم المسار ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾،
- ولا تكتفِ بأن تسمع عن الوعيد، بل افهم أن غياب الآخرة هو أصل كثير من الانحرافات ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾،
- ثم ينزل بك إلى تفاصيل "التقويم العملي": برّ الوالدين، حقوق الضعفاء،

ضبط الشهوة، ضبط اللسان، أمانة السمع والبصر والفؤاد ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾، كأنَّ الجزء ١٤ يُعرّفك بنظام الطريق، والجزء ١٥ يُمسك بيدك لتسير عليه خطوةً خطوة.

٣) **في الجزء ١٤ ترى "مصير الأقوام" وخراب القرى** حين يكتمل الإعراض وتتحقق السنن، وفي الجزء ١٥ ترى "مصير الفرد" وهو يحمل كتابه في عنقه ثم يقرأه يوم القيامة ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾، فالانتقال مقصود: من عبرة الأمم إلى محاسبة النفس، ومن تاريخ الهلاك إلى مسؤولية القرار اليومي.

❖ الترابط العقدي بين الجزأين ١٤ – ١٥

١) **الجزء ١٤ يُرسّخ اليقين أن الله هو المتصرّف الحق في الكون**: خلقاً وتقديراً ورزقاً وإحياءً وإماتةً ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾، ويثبت أصلاً عقدياً حاكماً: الوحي من عند الله محفوظٌ بحفظه لا بحفظ البشر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ثم يكشف أصل الداء العقدي الذي يفتح باب المعصية: الكِبر الذي أسقط إبليس، والتزيين الذي يقود الغاوين، وأن النجاة لأهل الإخلاص ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

٢) **ثم يأتي الجزء ١٥ ليُحكم هذا المعنى في القلب بصياغةٍ أوضح**: قطع التعلّق بغير الله ورفض كل "وكالة قلبية" لغيره ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾، لأن من عرف أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت في الجزء ١٤، لا يليق به أن يُسند قلبه إلى غيره في الجزء ١٥، فالعقيدة هنا تتحول من "معلومة" إلى "اعتماد" ومن "تصديق" إلى "توكّل".

٣) **الجزء ١٤ يضعك أمام حقيقة الجزاء والوعيد والجنة والنار** بشكلٍ يقطع الغفلة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، والجزء ١٥ يشرح لك لماذا يسقط الناس في هذا المصير: لأنهم يريدون

العاجلة ويقدمونها على الآخرة ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾، فيصير الإيمان بالآخرة هو الميزان الذي يفسّر السلوك، لا مجرد قضية مؤجلة للخطاب.

٤) **في الجزء ١٤ يظهر الصراع بين الحق والاستهزاء بالرسل**، وفي الجزء ١٥ يُثبّت الله نبيّه ويكفيه المستهزئين ويجعل القرآن شفاءً ورحمةً للمؤمنين ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فكأنَّ العقيدة تنتقل من "مهابة الوحي وحفظه" إلى "ثمرته العلاجية في القلب" لمن صدق واستجاب.

❖ الترابط البياني بين الجزأين ١٤ – ١٥

٥) **الجزء ١٤ يبدأ بإيقاعٍ صارم يوقظ الغافل**: تهديدٌ، سننٌ، توقيتٌ مقدّر، واستهزاءٌ بالوحي يقابله إعلان الهيبة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾، ثم ينتقل إلى عرضٍ كونيٍّ متدرّج:

- بروج السماء،
- حفظها من الشياطين،
- الأرض الممدودة،
- الرزق الموزون،
- الخزائن والقدر،

في بناءٍ بياني يربط القلب بعظمة الرَّبِّ سبحانه قبل الدخول في قصة إبليس وأصل الصراع.

٦) **ثم يأتي الجزء ١٥ بنفس الإيقاع لكن على مستوى "الخطاب الشخصي"**: يبدأ بالتسبيح والمعراج، ثم يضرب الوتر العقدي فوراً ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾، ثم يعلن وظيفة القرآن في سطرٍ جامع ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، وبعدها ينزل إلى تشريعاتٍ موجزة متتابعة تشبه "مقاطع التقويم" واحدةً تجرُّ أخرى، كأنَّ البيان انتقل من "مشاهد

كونية تقطع الغفلة" إلى "مقاطع هداية تقطع الانحراف".

٧) **في الجزء ١٤ تتكرر معاني "الحفظ" و"القدر" و"السنة" و"المآل"**، وفي الجزء ١٥ تتكرر معاني "الهداية" و"المسؤولية" و"الكتاب المنشور" و"القول الأحسن"، وهذا التكرار ليس تكرار ألفاظ، بل تكرار وظائف: حفظ الوحي في الجزء ١٤ يقابله حفظ الإنسان من نفسه في الجزء ١٥ حين يلتزم هدي الوحي.

٨) **خاتمة الجزء ١٤ قوية في تسلية النبي ﷺ** وإقامة الدواء العملي لضيق الصدر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ثم ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، وكأنّها تمهيد بياني مباشر للجزء ١٥ الذي سيُفصّل معنى العبادة في الحياة، ويضع "منهج القول والفعل" الذي يحفظك من نزغات الشيطان ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

❖ **الترابط الوجداني بين الجزأين ١٤ – ١٥**

٩) **الجزء ١٤ يهزّ القلب من جهة "الوقت" و"الأمل" و"الغفلة"**: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾، فيشعرك أن الخطر ليس في المعصية الصريحة فقط، بل في طول أملٍ يُخدّر القلب حتى يفجؤه العلم الحقيقي متأخراً، ثم يرفعك إلى الطمأنينة الكبرى: أن هذا الدين لا يضيع لأن الله تكفّل بحفظ ذكره ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فتهدأ روحك لأنك تتعلّق بحبلٍ لا ينقطع.

١٠) **ثم يأتي الجزء ١٥ ليحوّل هذه الطمأنينة إلى "قرار قلبي"**: إذا كان الذكر محفوظاً فاجعل قلبك محفوظاً من التعلّق بالخلق ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾، وإذا كان الطريق الأقوى موجوداً فاسلكه بلا تردد ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، فينتقل الوجدان من الاطمئنان إلى الالتزام، ومن الإعجاب بالحق إلى الانقياد له.

١١) الجزء ١٤ يضعك وجهاً لوجه أمام "أصل السقوط" في قصة إبليس: الكبر، ثم يُذكرك أن الشيطان لا يملِك على المخلصين سلطاناً، فتشعر أن النجاة ليست قوةً نفسية بل صدقُ عبودية، والجزء ١٥ يترجم هذا المعنى عملياً حين يُعلّمك أين يبدأ تسلّط الشيطان في يومك: في النزغ بين الناس، وفي الكلمة، وفي اتباع الهوى، ثم يضع لك الدواء الرفيق ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

١٢) في الجزء ١٤ تُواسى حين يضيق الصدر بكلام الناس وتُدلّ على باب الخلاص: تسبيح وسجود وعبادة حتى اليقين ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، وفي الجزء ١٥ يُقال لك بلهجةٍ أعمق: ستُدعى بإمامك يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، فيتحول الوجدان من "تسكين الألم" إلى "تصحيح القيادة"، ومن تهدئة الضيق إلى سؤال المصير: من الذي يقودني فعلاً في حياتي؟..

الجزء السادس عشر: بين حكمة القدر... ورحمة الوحي... وميزان المصير

المدخل التأسيسي للجزء ١٦

يمضي الجزء السادس عشر من القرآن كرحلةٍ متصلةٍ في تربية القلب والعقل معاً؛ رحلةٌ تبدأ بكشف جانبٍ خفي من حكمة الله في الأقدار، ثم تنتقل إلى صورة التمكين في الأرض حين يفهم الإنسان علاقته بربه فهماً صحيحاً، ثم تقف بالقلب أمام الميزان الحقيقي للأعمال يوم القيامة، قبل أن تفتح أبواب الرَّحمة في قصص الأنبياء، وتعيد بناء المعنى الأول الذي نزل من أجله القرآن: الهداية التي ترفع الشقاء عن الإنسان إذا صدق في اتباعها.

وقبل أن يبدأ الجزء السادس عشر... يتركنا القرآن عند مشهدٍ يربك العقل ويهزّ التسليم: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً﴾... هنا يبلغ الامتحان ذروته؛ فليس كل ما يجري في أقدار الله تدركه العقول فوراً، وليس كل ما يراه الإنسان شرّاً يكون شرّاً في ميزان الله... ومن هذا الموضع يبدأ الجزء السادس عشر ليكمل بناء القلب على التسليم لحكمة الله وإن خفيت، والثقة بتدبيره وإن حيَّر الظاهر.

يمضي هذا المقطع من سورة الكهف كرحلةٍ تُهذِّب عينَك قبل قلبك؛ لأن أكبر ما يضلّ به الإنسان ليس ضعفَ العمل، بل غرورَ الفهم... أن يظنّ أن ما تراه العين هو الحقيقة كلّها، وأن ما يضيق عنه صدرك هو الشرُّ كلّه، وأن ما يلمع في يديك هو الخيرُ كلّه.. من هنا تأتي لحظةُ العتاب الرقيق الحازم لموسى عليه السَّلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾؛ كأنَّ القرآن يضع أمام قلبك مرآةً تقول:

- ليس كلُّ ما تعجز عن فهمه عبثاً،

- وليس كلُّ ما لا تطيقه نفسك ظلماً، ولكن بينك وبين الحكمة مسافةٌ اسمها الصَّبر، وبينك وبين الرضا بوابةٌ اسمها التسليم.

ثم يكتمل المشهدُ إنسانياً حين يعترف موسى عليه السَّلام بحدّه ويضع شرطَ الانتهاء من الصُّحبة إن عاد السؤال بعد البيان: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾؛ فيتعلّم القارئ أن الاعتراف بالحدود أدبٌ إيماني، وأن الصدق مع النفس أول طريق التزكية، وأن العذر الحقيقي ليس في كثرة التبرير بل في صدق التوبة عن الاستعجال والاعتراض.

ثم يسير بك السياق إلى قريةٍ تُظهر لك قسوة البشر حين تُغلق أبوابها في وجه الغريبين، ويُفاجئك فعلُ العبد الصالح وهو يقيم جداراً آيلاً للسقوط لقومٍ بخلاء، فتتحرك داخل موسى عليه السَّلام دهشةُ العدل الدنيوي: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾؛ وكأنَّ القرآن يختبرك:

١. هل تقيس الخير بما يعطيك الناس أم بما يريده الله منك؟
٢. وهل تُحسن حين تُكافأ فقط أم تُحسن لأنك عبدٌ لله لا أسيرٌ لردود أفعال البشر؟

ثم تأتي لحظة الفصل التي تُنهي صُحبة التعليم بعد أن أدّى الامتحان وظيفته: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾؛ لتثبت قاعدةً تربوية عميقة: أن بعض الدروس لا تُؤخذ بالمرافقة الطويلة، بل بصدمةِ المعنى حين تنكشف الحقيقة.

وعند التأويل تُرفع الستارة عن حكمة قدر الله تعالى في ثلاثة مشاهد، لا لتُروى كحكاية، بل لتُزرع كمنهجٍ في فهم الحياة.

تُعاب السَّفينة لتنجو من اغتصابِ ملكٍ لا يرحم، فيتعلّم القلب أن بعض النقص حمايةٌ من نقصٍ أكبر: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ

فَأَرَدْتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾؛ ثم يُقبض الغلام لا انتقاماً ولا عبثاً، بل دفعاً لفتنةٍ قد تُرهق قلبين مؤمنين حتى ينكسر الإيمان تحت وطأة البلاء، فيتعلّم الإنسان أن الله قد يمنع الشرَّ قبل أن يولد في الواقع: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾، ثم لا يترك القرآن قلبك في قسوة الفقد بل يفتح باب الرجاء في التعويض الرَّباني: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾؛ ثم يعود إلى الجدار الذي بدا بلا مقابل، فإذا تحته كنزٌ ليتيمين، وإذا وراء حفظه صلاحُ أبٍ غائبٍ حاضرٍ بأثره، فيتعلّم القارئ أن الاستقامة ليست عبادةً فردية فحسب، بل أمانٌ يمتدّ أثره إلى الذُّريَّة: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

ثم تُغلق هذه المدرسة القدرية بعبارةٍ تقطع جذور الوهم من أصلها: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾؛ فلا استقلال لأحدٍ بتدبير شيء، ولا عشوائية في الكون، ولا طغيان للسَّبب على المسبِّب، بل الأمر كلّه لله، ورحمة الله أوسع من إدراكك، وعلمه أكمل من تصورك.

ومن تربية القلب على التسليم ينتقل القرآن إلى تربية الواقع على العدل، فيُسأل النبي ﷺ عن رجلٍ مُكِّن في الأرض، فيأتي الخبر كأنه إعلانٌ أن القوة يمكن أن تكون عبودية لا طغياناً: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾، ثم تُذكر الحقيقة الأولى في التمكين:

١. أنه منحةٌ لا استحقاقٌ ذاتيّ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾؛ فيسير لا بهوىً ولا بفوضى، بل بأسبابٍ مسخَّرة تُستعمل في موضعها: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾...
٢. ثم مرةً أخرى ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾...
٣. ثم ثالثةً ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾؛

ليُفهم أن الإيمان ليس تركاً للأسباب، وأن التوكل ليس تعطيلاً للعمران، بل هو سيرٌ في الأرض بالسَّبب مع استحضار مراقبة الله والاعتماد عليه.

ويصل إلى مغرب الشمس حيث يرى الظاهر من الطبيعة والناس ويُختبر في العدل، فيخيَّر بين العقوبة والإحسان: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾؛ فيضع ميزاناً لا يتأثر بالشعارات: ظلمٌ يقابله جزاءٌ ثم حسابٌ عند الله: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً﴾، وإيمانٌ وعمل صالح يقابله تكريمٌ وتيسير: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾.

ثم يواصل السير إلى مطلع الشمس فيرى أقواماً بلا ستر، فيتعلّم المؤمن أن اختلاف أحوال الناس آية، وأن العبد مهما رأى من غرابة المشاهد يبقى تحت علم الله المحيط: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾، ثم يقطع القرآن كل ظنٍّ بأن هذه الرحلة محكومة بعلم الإنسان وحده: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾.

ثم يصل إلى منطقةٍ بين السَّدَّين حيث قومٌ يكادون لا يفقهون قولاً، ويواجه فساداً كونياً اسمه يأجوج ومأجوج، فيعرضون المال ليصنع حاجزاً، وهنا يتجلى نقاء القلب حين تكون القوة لله لا للسوق: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً﴾، فيردّ ردّ العابد لا التاجر: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾؛ ثم يبدأ العمل واقعياً لا شعارياً: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾... ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾... ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾، حتى يصير البناء مانعاً يعجز عنه المفسدون: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾، ثم يكتمل الدرس العقدي مرةً أخرى: النجاح لا يُنسب للذات بل لله:

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾، ومعه يقين النهاية: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾؛ فكلُّ حصنٍ في الدنيا مهما اشتدّ يبقى مؤقتاً، وكلُّ أمنٍ أرضيٍّ مهما اتسع يبقى تحت سلطان الوعد الإلهي.

ثم لا يتركك القرآن في نشوة البناء ولا في رهبة التمكين، بل يقذف بك مباشرةً إلى مشهد القيامة لتعلم أن التاريخ كلّه يسير إلى تلك الساعة التي تُسقط الأقنعة. يبدأ الموج البشري في الدنيا كأنه إنذارٌ لما بعدها: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، ثم تُفصل النهاية الكبرى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾؛ هنا لا ينفع سلطانٌ ولا سببٌ ولا سدٌّ ولا مُلك. وتُعرض جهنم عرضاً يقطع الغفلة: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾، ويُقال سبب السقوط بلا مواربة: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾؛ لم تكن مشكلتهم نقصَ الأدلة، بل غطاءَ القلب عن الذكر، وصممَ الإرادة عن الحق.

ثم يفضح القرآن أوهام الولاية الباطلة: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾، ويعلن المصير: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾.

ثم تأتي الصدمة الأخطر: ليس أخسر الناس من لم يعمل، بل من عمل وظنّ أنه يحسن وهو في الضّلال؛ لأن هذا يعيش مطمئناً إلى السّراب: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾؛ ثم يُبيّن العلة العقدية الكبرى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، فتسقط الأوزان لأن الأصل فاسد: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾، ثم يُذكر الجزاء وسببُه بوضوح: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾.. وفي المقابل لا يُترك القلب بلا رجاء؛ فطريق النجاة بيّن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾.

ثم يختم هذا المقطع بإجلالٍ يُذكّر القلب بعظمة الكلام الذي بين يديه؛ كلمات الله لا تنفد، ومعانيها أوسع من بحار الدنيا: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾؛

ثم تُغلق السورة بمفتاح القبول الذي يُنقّي العمل من كل شُبهة رياء أو شرك: النبي ﷺ بشرٌ رسول، والغاية توحيدٌ وإخلاص، والعمل الصالح لا ينجو صاحبه حتى يصفو قلبه لله وحده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، ثم يأتي المعيار الذي تُوزن به الحياة كلُّها: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾؛ وكأن هذه الآية الأخيرة تُلخّص لك ما سبق:

١. صبرٌ على القدر حين يَخفى،
٢. وعدلٌ في التمكين حين يُعطى،
٣. ويقظةٌ في الحساب حين يُعرض،
٤. وإخلاصٌ يُحرّر العمل من كل ما سوى الله تعالى.

ثم تمضي سورةُ مريم في هذا الجزء كأنها نافذةُ رحمةٍ تُفتح بعد مشاهدِ الميزان والحساب؛ فإذا القلب الذي كان يتعلّم في الكهف كيف يسلّم لحكمة الله في الأقدار، وكيف يزن عمله يوم القيامة، يدخل هنا إلى مدرسةٍ أخرى: مدرسةِ الرَّحمة التي تُحيي الرجاء دون أن تُرخّص في الحق، وتؤسّس التوحيد دون أن تُقسي القلب، وتُريك أن الطريق إلى الله لا يبدأ من اكتمال الأسباب بل من صدق الافتقار... وأن العبد لا يُقبَل عند الله بكثرة ما يملك، بل بصدق ما يطرق به باب ربه.

تفتتح السورة بحروفٍ تُشعرك أن الوحي له جلالٌ لا يُستنفد بالشَّرح، ثم يجيء العنوان الحقيقي للمشهد كله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾؛ فالقصة ليست عن شيخٍ كبيرٍ يريد ولداً فحسب، بل عن عبدٍ عرف ربَّه "رحيماً"،

فدعاه دعاءً خفياً لا يُراد به سماعُ الناس بل أن يسمعه الله تعالى وحده، وفي الخفاء تُصنع أعظم التحولات: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾.

ثم يفتح زكريا قلبه بلا تجميل: ضعفُ جسدٍ، واشتعالُ شيبٍ، وانكسارُ سنين، لكنه لا يحمل هذا الضعف كاعتراضٍ على قدر الله، بل كحجةٍ للافتقار، وكأنَّ لسان حاله يقول: يا رب، أنا أضعفُ مما أستحقُّ به... وأقربُ مما أُردّ عنه؛ لذلك يخرج الدعاء نقياً من المرارة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾؛ فهو لا يقول "لم تُعطني"، بل يقول "لم تردّني خائباً"... لأن قلبه تعلّم أن خزائن الله لا تُقاس بواقع الأسباب.

ثم لا يطلب الولد ترفاً ولا تفاخراً، بل خوفاً على رسالةٍ بعده، وخوفاً على الدين من فراغٍ يتركه الغياب: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾، ثم يُحدِّد مقصداً شريفاً: ميراثَ النبوة والهداية لا ميراثَ الدُّنيا، وسؤالَ الرضا لا سؤالَ الاسم: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾.

وتأتي البشارة كأنها جوابٌ على كل قلبٍ ظَنَّ أن باب الله يُغلق حين تُغلق الأبواب: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾؛ فيتعلّم القارئ أن الله لا يعطي فقط "ولداً"، بل قد يعطيك "نموذجاً" لم يُعرف قبل، هبةً ومعنى ورسالة.

ثم يُظهر القرآن بشرية زكريا في سؤال التعجب لا سؤال الاعتراض: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾؛ فيجيء الجواب الذي ينبغي أن يستقر في قلب المؤمن كلما ضاقت به الأسباب: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾؛ أي إن الذي أخرجك من العدم لا يعجزه أن يخرج لك فرجاً من العُقم، ولا عطاءً من شيخوخة.

ثم يطلب آيةً تُسكّن القلب وتطمئنه إلى أن الوعد قد بدأ يتحقق: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾؛ فتكون الآية عجيبة: القدرة قائمة، لكن اللسان يُحبس؛ كأنَّ الله تعالى يقول له: حين أفتح لك باب العطاء، علِّق قلبك بالذِّكر لا بالحديث... ولذلك يخرج زكريا من محرابه لا يصنع ضجيج بشرى، بل يصنع ضجيج تسبيح: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾.

ثم يُقدَّم يحي لا بوصفه "ابن نبي" بل بوصفه عبداً حمل أمانة الكتاب مبكراً: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾؛ فالدين لا يقوم على التَّمنيات، بل على قوة الاستجابة.

ويؤتى الحكم صبياً ليفهم الناس أن النضج الحقيقي ليس عدد السِّنين بل صفاء القلب: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾، ثم تُذكر أصول صفاته التي توازن بين الداخل والخارج: رحمةٌ في القلب، وطهارةٌ في النفس، وتقوى في السِّر، وبرٌّ في البيت: ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً﴾ ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾؛ وكأنَّ القرآن يربط صلاح العبد بعلاقته بالله وبأقرب الناس إليه، فلا يرفعك علمٌ وأنت قاسٍ في بيتك، ولا تنفعك عبادةٌ وأنت جبارٌ على والديك.

ثم يطوي الله سبحانه وتعالى الصفحة بسلامٍ يحيط العبد في أشد ثلاثة مواطن فزعٍ للإنسان: الميلاد، والموت، والبعث: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾؛ لتعلم أن السَّلام الحقيقي ليس في رخاء الدنيا، بل في أمان المصير.

ثم ينتقل السياق انتقالاً واسعاً إلى مريم عليها السَّلام، لا بوصفها "حكاية عجيبة"، بل بوصفها ابتلاءَ طُهرٍ يمرُّ من العُزلة إلى الصَّدمة ثم إلى الفرج؛

تبدأ بالعفة والاحتجاب والاختيار الواعي لمكانٍ بعيدٍ عن الضجيج: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾،

ثم تزيد الاحتياط فتتخذ حجاباً: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾؛ وكأنَّ القرآن يقرر أن الطُّهر لا يُترك للعشوائية.

المقصود بعبارة "الطُّهر لا يُترك للعشوائية" أن العفّة والبعد عن الفتنة لا تتحقق بمجرد النِّيَّة الطيبة أو صفاء القلب فقط، بل تحتاج إلى أسبابٍ عملية وحدودٍ واضحة يتخذها الإنسان لحماية نفسه.

فالآية تتحدث عن مريم عليها السلام حين أرادت الخلوة للعبادة، فلم تكتفِ بنيتها الطاهرة، بل اتخذت سبباً يحفظ هذا الطهر: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾... أي أنها جعلت بينها وبين الناس ساتراً يحفظ خصوصيتها وعبادتها.

فالمعنى إذن: أن الطُّهر الحقيقي لا يعتمد على القول: قلبي نظيف أو أنا واثق من نفسي، بل يقوم على سدِّ الأبواب التي قد تقود إلى الفتنة.

بعبارة أوضح: العفة ليست مجرد شعور في القلب... بل منهج وقايةٍ وأخذٍ بالأسباب يحفظ القلب قبل أن يتعرض للانحراف.

ثم تأتي المفاجأة الكبرى حين يُرسل الله إليها روحه جبريل في صورة بشر: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾، فترد مريم بردّ المؤمن الذي يعرف أن أول حصون النجاة هو الاستعاذة: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾.. ثم تُرفع الرِّيبة ويُعلن الخبر: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾؛ فتسأل سؤال العفيفة التي تعرف نفسها وتستعظم التهمة: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾، فيجيء الجواب نفسه الذي يتكرر في السورة ليغرس أصل اليقين: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ فالمعجزة هنا ليست لإثارة الدهشة، بل لتكون آيةً ورحمةً وتدبيراً مقضياً: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾.

ثم تسير مريم في وادي الألم وحدها، فتُحمل على الانفراد لا لأن الله تركها، بل لأن الابتلاء أحياناً يُصنع في خلوةٍ لا يفهمها الناس؛ تحمل وتنتبذ، ثم يأتي

المخاض عند جذع نخلة، وتخرج من القلب أمنية الموت لا كفراً ولا سوء ظنّ، بل من هول المواجهة الاجتماعية والبُهتان المتوقع: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾ ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾.. لكن رحمة الله لا تترك الصادقين في قاع الانكسار؛ يأتي النداء بالطمأنينة وبالأسباب معاً: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾، ثم يأمرها بحركةٍ صغيرةٍ لتشهد أن الكرامة لا تلغي الأخذ بالسَّبب: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾؛ كأن الله يقول: لو شئتُ أسقطته دون هزٍّ، ولكنني أُعلّم قلبك أن السَّعي شرفٌ حتى في لحظة المعجزة.

ثم يكتمل لُطف الله بتسكين الجسد والنفس: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾، ويُعطى لها منهج التعامل مع الناس: لا تجادل، لا تُبرّر، لا تُهدر طهرك في خصومات الشارع، بل سلِّم الأمر لله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾.

ثم تأتي اللحظة التي يخافها كل بريء: مواجهة المجتمع؛ تُقبل مريم بطفلها، فتنهال الاتهامات الثقيلة: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾، ثم يواجهونها بسمعة بيتها الطاهر: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، أي يا من تُنسبين إلى بيتٍ عُرف بالصلاح والطهر، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾؛ وهنا لا تُدافع مريم بكلماتٍ قد لا تُصدق، بل تشير إلى الحقيقة التي يتكفّل الله ببيانها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، فيزداد استغرابهم: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾.

فإذا بالطفل يتكلم لا ليُبهر الناس، بل ليحسم أصل العقيدة ويقطع الطريق على الغُلو: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾؛ أول كلمةٍ في حياته تعلن عبوديته لله لا ألوهيته، ثم يذكر بركة الرسالة وأصلها العملي: ﴿وَجَعَلَنِي

مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾، ثم يختم صفاء الشخصية ببرِّ الوالدة ونفي الجبروت: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾؛ فكأنَّ القرآن يقول: البر ليس تفصيلاً أخلاقياً، بل علامةُ نورٍ في النبوة نفسها. ثم يقرر السَّلام الذي يحيط به في المواطن الثلاثة كما قيل عن يحيى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾، ثم يضع الخلاصة: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ فلا مجال للتردد في الحق بعد هذا البيان.

ثم تأتي القاعدة العقدية المحكمة التي تُنظّف القلب من كل شُبهة: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾، ويُبيّن القرآن أن الإيجاد ليس معركة أسباب بل كلمةُ أمرٍ من ربٍّ قادر: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، ثم يُعلن عيسى نفسه طريق التوحيد الذي عليه كل الأنبياء: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، لكن الناس يختلفون لا لأن الحق غامض، بل لأن الأهواء تتنازع: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، فيجيء التحذير من مشهد القيامة الذي يذيب الاستكبار: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ويُقال لهم ما يقطع الغفلة: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، لكن الحقيقة المؤلمة أنهم في الدنيا يعيشون في ضلال مبين: ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، ثم يأتي الإنذار الجامع الذي يجعل كل لذة دنيوية صغيرة أمام لحظة النَّدم الكبرى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، ويُختم هذا الباب بحقيقة الملك النهائي: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾؛ فلا يبقى لغير الله شيء، ولا يُغني نسبٌ ولا قوة ولا تاريخ.

ثم تُساق مشاهد الأنبياء لتُثبت أن رحمة الله ليست قصةً واحدة، بل سُنّة ممتدة؛ يُذكر إبراهيم عليه السَّلام وهو صِدّيقٌ نبيّ، ويبدأ دعوته من أقرب نقطةٍ مؤلمة: الأب، لا بفظاظة ولا كِبر، بل بسؤالٍ يوقظ العقل ويحنو على القلب:

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾، ثم يضع نفسه في مقام الرِّفق لا مقام الإدانة: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾، ويعرض الهداية كهدية لا كإذلال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾، ثم يُحذِّر من عبادة الشيطان لأنها تمردٌ على الرحمن: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيّاً﴾، ويُصرّح بخوفه عليه لا بحقدٍ منه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾.

لكن الأب يرد بالتهديد: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾، فيكون أدب الأنبياء: لا سباب ولا انتقام، بل سلامٌ واستغفارٌ ودعاء: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾، ثم يعتزل لا هروباً من الدعوة بل حفظاً للدين: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ويظل قلبه معلّقاً برجاء القبول: ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾.

ثم يجيء التعويض الرَّباني: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ويُعطى الذكر الحسن: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾؛ لتعلم أن من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه، وقد يكون التعويض أجيالاً لا لحظة.

ثم يمر بك القرآن على موسى عليه السَّلام بوصف "الإخلاص" و"القرب": ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً﴾، ويذكّر بمشهد المناجاة: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾، ثم يربط الرَّحمة بالأهل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾؛ كأنَّ الله يُعلّمك أن القرب منه لا يقطعك عن الناس بل يصلح بهم حالك.. ثم يذكر إسماعيل عليه السَّلام بصفة "صدق الوعد"، لأن الأخلاق ليست هامشاً في الإيمان: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾، ويجعل بيته ميدان العبادة لا مجرد مكان سكن: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾، ويختم بمقام الرضا: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾. ثم يذكر إدريس عليه السَّلام ويرفع مقامه ليقول لك: رفعة السماء ثمرة صدق الأرض: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾.

ثم يجمعهم كلهم في وصفٍ واحدٍ يكشف سرّ النبوة في القلب لا في الاسم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾؛ فهم لا يمرون على آيات الرَّحمن مَرّاً، بل يسقطون له سجوداً وبكاءً، لأن الآيات عندهم ليست معلومات بل حضورٌ بين يدي الله تعالى.

لكن السورة لا تتركك في جو القدوة دون تحذير؛ فتخبرك أن بعد الصالحين قد يأتي خلفٌ يهدم البناء من الداخل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾؛ فالضياع يبدأ من الصلاة ثم يجرُّ الشَّهوة، ثم لا يبقى للقلب حارس.. ومع ذلك لا تُغلق السورة باب النَّجاة، بل تفتحه بميزانٍ واضحٍ لا مجاملات فيه: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾؛

١. توبةٌ تصحح الماضي،
٢. وإيمانٌ يصحح الاتجاه،
٣. وعملٌ صالحٌ يثبت الصدق.

ثم تُرسم الجنة لا بوصفها "أملاً ضبابياً" بل وعداً له موعد: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً﴾، ويُذكر صفاءُ المجلس: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً﴾، وتكريم الرزق الدائم: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾، ثم تُحسم حقيقة الإرث: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً﴾؛ فالتقوى هي المفتاح، لا الادعاء.

ثم يُعلّمك القرآن أن عالم الغيب لا يتحرك إلّا بأمر الله، حتى الملائكة لا تنزل إلا بإذن ربها، ليبقى القلب معلقاً بالحاكم لا بالمخلوق: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، ثم تُذكر شمولية ملكه وعلمه: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، ويُقطع عن قلبك وهم النسيان الإلهي: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾؛ فلو تأخر الفرج فليس لأن الله نسيك، بل لأن الحكمة لها موعد.

ثم يثبت أصل الربوبية الجامعة: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ

﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾؛ كأنَّ السورة تقول: الرحمة لا تلغي الصبر، والرجاء لا يلغي الاصطبار، ومن عرف ربَّه ربّاً للكون كله هانت عليه مشقة الثبات.

ثم يختم هذا المسار بتحدٍّ عقديٍّ يهدم أصل الشرك من جذوره: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾؛ لا شبيه له في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ثم تعود السورة فتوقظ غفلة الإنسان الذي يستبعد البعث، وتعيده إلى نقطة البداية: من أين جئت؟ وإلى أين تمضي؟ ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً﴾، ثم يُوبّخ نسيان الأصل: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾؛ فإذا تذكرت العدم زال الاستبعاد.

ثم تُرسم القيامة بأشد مشاهدها رهبةً: حشر الشياطين والناس، إحاطة جهنم، استخراج رؤوس العتو: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً﴾ ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيّاً﴾، ثم يؤكد أن العلم الحقيقي بمن يستحق النار ليس للبشر: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيّاً﴾. ثم تأتي الآية التي لا تترك للقلب مساحة للهروب: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؛ مرورٌ وحتمٌ مكتوب: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾، ثم يجيء الرجاء الذي لا يُنال بالأماني بل بالتقوى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾.

ثم يكشف القرآن عن مرض المقارنة الدنيوية حين يفتخر أهل الكفر بالمقام والنَّدِيّ، ويظنون أن المعيار في الدنيا هو المعيار عند الله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾، **المقام**: المنزلة والمكان الذي يقيم فيه الإنسان وما يدلُّ على جاهه ورفاهه في الدنيا، **والنَّدِيّ**: مجلس القوم الذي يجتمعون فيه ويتفاخرون فيه بالمكانة والهيبة بين الناس.

فيرد عليهم بتاريخ الهالكين الذين كانوا أحسن أثاثاً ورئياً ثم ذهبوا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾، **أَثَاثاً**: متاع البيت وما فيه من

مالٍ وزينةٍ وأثاث، **وَرِئْياً**: منظراً وهيئةً حسنةً تُرى وتُعجب الناس... ثم يضع سُنّة الاستدراج لمن أحب الضّلالة؛ مدٌّ في الظاهر حتى يأتي الوعد: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدّاً﴾ أي يتركه الله ويُمهله ويزيد له في الإمهال والتمكين زمناً، استدراجاً له حتى يبلغ الأجل الذي قدّره الله، ثم حين يقع العذاب أو تقوم الساعة ينكشف ميزان القوة الحقيقي: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾.. وفي المقابل يقرر القرآن أن الهداية ليست حالة ثابتة، بل زيادةٌ من الله لمن صدق: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾، وأن الباقيات الصالحات هي الرصيد الذي لا ينهار: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾.

ثم يواجه السورة نموذج الإنسان الذي يتكلم عن الغيب كأنه يملكه، يتمنى مالاً وولداً، ويظن أن الله سيمنحه لأن الدنيا منحته، فيُسأل سؤالاً يسقط الكبر من أصله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾، ثم يُكتب قوله ويُمد له من العذاب ويأتي فرداً: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾؛ فلا مالٌ يبقى، ولا ولدٌ يثبت، ولا أحدٌ يحمل عن أحد.

ثم ينتقل القرآن إلى أوثانٍ تُتخذ للعِز، فإذا هي في الآخرة ضدٌّ على عابدها: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾؛ فيسقط وهم الاعتماد على غير الله.

ثم يبيّن أن الشياطين تؤزّ أهل الكفر أزّاً، وأن استعجال العقوبة ليس من شأن المؤمن: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ أي تُحرّكهم الشياطين وتدفعهم بقوةٍ إلى المعاصي والكفر إغراءً وإزعاجاً مستمرّاً، ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾.

ثم تُختم المقاطع بمشهدين متقابلين يهزان القلب:

١. المتقون وفدٌ مكرّمون إلى الرّحمن،

٢. والمجرمون وِردٌ يساقون إلى جهنم؛

كأن الحياة كلها تُختصر في هذين الطريقين: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْداً﴾ أي يُحشر المتقون يوم القيامة إلى الله مكرَّمين، كوفدٍ كريمٍ يُستقبل بالعزة والكرامة، ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ أي يُساق المجرمون إلى جهنم سوقاً شديداً كما تُساق الدواب العطشى إلى الماء، ثم يُقطع أمل الشفاعة عن كل من لم يأتِ بعهد الإيمان: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾ أي إلَّا من آمن بالله ووحّده وعمل بطاعته، فذلك هو العهد الذي يكون سبباً للنجاة والشفاعة.

ثم يعود أصل الانحراف الأكبر: نسبة الولد للرَّحمن، ويعرض القرآن فظاعة هذا القول حتى تكاد السماوات تتفطر والأرض تنشق والجبال تخرّ هدّاً: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ أي أمراً عظيماً شديداً منكَراً في الباطل والجرأة على الله... ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾... ثم يحسمها مرةً أخرى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾، ويقرر أن الجميع عبيدٌ آتون فرداً: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْداً﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ أي يأتي كل إنسان يوم القيامة إلى الله وحده منفرداً، بلا مالٍ ولا ولدٍ ولا ناصر؛ فلا يبقى إلا عبوديتك وحقيقتك.

ثم يضع الله للمؤمنين علامةً من علامات الرَّحمة في الدنيا قبل الآخرة: محبةٌ تُلقى في القلوب ليست صناعة بشر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدّاً﴾ أي يجعل الله للمؤمنين الصَّالحين محبةً وقبولاً في قلوب عباده.

ثم يُخفّف الله على نبيه ﷺ ويبيّن مقصد التيسير: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾؛ ليست الهداية محجوبة بل ميسرة، بشرى للمتقين وإنذار للقوم اللد: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ أي قوماً شديدي الخصومة والجدال في الباطل،

مائلين عن الحق، ثم يُذكّرك بنهاية الأمم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾... حتى لا يبقى لهم أثرٌ ولا رِكز: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ أي هل تجد منهم أحداً حيّاً أو تسمع لهم صوتاً خفيّاً بعد أن أهلكهم الله؛ وكأنَّ آخر كلمة في هذا الطريق: سيذهب كل شيء... ويبقى وجهُ الله، ويبقى العمل الذي صُنع لله، ويبقى القلب الذي عاش في رحمة الرَّحمن لا في غفلة الشيطان.

تنتهي سورة مريم بتذكيرٍ بهلاك أممٍ كثيرةٍ كانت قوية ثم زالت حتى لم يبقَ لها أثر: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾، لتُسقِط وهمَ القوة الدنيوية وتُذكِّر بأن البقاء لله وحده.

ثم تبدأ سورة طه بتطمين النبي ﷺ بأن هذا القرآن لم يُنزَّل ليكون عبئاً عليه: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، وكأنَّ الرسالة بعد سقوط أهل الباطل هي تثبيت قلب صاحب الحق ليواصل طريق الدعوة بثقةٍ بالله.

ثم تمضي سورةُ طه في هذا الجزء كأنها تُنقذك من سوء الفهم الكبير الذي يورث الشقاء: أن تظنّ أن الدين عبءٌ أضيف إلى حياتك، أو أن الوحي جاء ليزيدك ضغطاً فوق ضغط، بينما القرآن يفتتح السورة بنزع هذا الوهم من جذوره: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾؛ فليست الرسالة أن تُحمَّل فوق طاقتك، بل أن تُنقَذ من شقاءٍ كان سيبتلع قلبك لو تُركتَ لهواك، إنها تذكرةٌ تُوقظ الخشية لا خطابٌ يُلغي إنسانيتك: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾، ثم يرفعك القرآن من تفاصيل التعب إلى عظمة المصدر، حتى تستحي أن تتعامل مع هذا الكلام ككلام بشر: ﴿تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾، ويؤسّس الهيبة والطمأنينة معاً في القلب: ربٌّ رحمنٌ مدبّرٌ، لا يُنازع مُلكه أحد، ولا يغيب عن علمه شيء: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾، ثم يبين لك أنه قريبٌ منك قُرباً يقطع وحشة السِّرّ: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، ويُحكم السورة من

أولها بحقيقة التوحيد الجامعة التي تُنهي كل فوضى داخلية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

ثم يأخذك القرآن إلى موسى عليه السَّلام لا كحكاية تاريخٍ، بل كخريطة نجاةٍ لمن يحمل رسالةً أو يُبتلى بطغيانٍ أو يُداهمه الخوف؛ يبدأ المشهد إنسانيّاً جداً: رجلٌ في ليلٍ ووحشةٍ يبحث عن دفءٍ لأهله، يرى ناراً فيقول لهم: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾، يبحث عن قبسٍ أو عن هدى: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾، فإذا هو لا يقترب من نارٍ بل يقترب من نداء الله تعالى، نداءٌ يغيّر المصير كله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾؛ ثم أول درسٍ في مقام القُرب: تعظيمُ الموضع وتعظيمُ الأمر، فالمسألة ليست تجربةً روحيةً عابرة، بل اختيارٌ وتكليفٌ ووحي: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾، ثم تُلقى الحقيقة الكبرى في قلب موسى عليه السَّلام كما تُلقى في قلب كل عبدٍ يريد النجاة: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، ثم تُربط العبادة بأوثق ما يمسك الروح: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾؛ كأنَّ الصلاة ليست حركةً تؤديها، بل بابُ ذكرٍ يُعيد ترتيب قلبك كلما اضطرب.

ثم يُذكّره الله بالساعة لا ليُرعبه، بل ليجعل الدعوة على ميزانٍ واضحٍ لا يتبدّل بتبدّل الأيام: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، وكل ذلك له حكمة عدلٍ تامة: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾، ثم يضع التحذير الذي يفتك بالناس في كل زمان: لا تجعل الذين لا يؤمنون بالآخرة يسرقون منك يقينك باسم "الواقعية" و"المصلحة"؛ فاتباع الهوى هو الذي يُردي: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾.

ثم يأتي اللطف العجيب في الحوار الإلهي: سؤالٌ عن عصا موسى، لا لأن الله يجهل – حاشاه –، بل ليُعلِّمه أن الله يفتح لعبده أبواب القرب من تفاصيله

الصغيرة، ثم يصنع منها آيةً كبرى؛ يسأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾، فيجيب بصدق العادة: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾، ولم يذكر موسى عليه السَّلام هذه المنافع تفصيلاً، لكن المفسرين ذكروا أمثلة لما كان يستعمل العصا فيه، منها:

١. سَوق الغنم وقيادتها.
٢. الدفاع عن الغنم من السِّباع.
٣. حمل الزاد والمتاع عليها عند السَّفر.
٤. الاستناد عليها عند التعب أو الوقوف.
٥. ضرب الشجر بها ليسقط الورق لتأكله الغنم (وقد ذكره قبلها في الآية).
٦. معرفة الطريق أو تحسس الأرض بها في السير.

لكن القرآن لم يفصل هذه المآرب؛ لأن المقصود ليس تعداد المنافع، بل إظهار بُعدٍ تربوي جميل: أن موسى عليه السَّلام كان يتكلم بعفوية عن عصاه التي يعرفها جيداً، قبل أن تتحول في اللحظة التالية إلى معجزة عظيمة بقدرة الله.

فإذا الشَّيء العادي يتحول بأمر الله إلى آية تُسقط غرور الطغيان: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾، ثم لا يُترك موسى للرَّهبة وحدها، بل يُقابل الخوف بوعدٍ مباشر: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾، ويُعطى آيةً أخرى في يده: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾، ثم تُكشف الغاية: ليست ألعاباً خارقة، بل ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾؛ لتثبت حين تُرسل إلى الطغاة.

ويأتي التكليف الذي يختصر معنى الرسالة في الأرض: مواجهة الطغيان لا مجاملته: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾؛ وهنا لا يُجمّل القرآن مقام الدعوة، بل يعترف بما في قلب الداعية من حاجةٍ إلى عونٍ إلهي، فتخرج دعوات موسى عليه السَّلام كأنها مفاتيح لكل من خاف مهمة الحق: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾،

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾، ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾، ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، ثم يطلب سنداً من أهله لا ليعتمد عليهم بدل الله، بل ليكتمل السبب في طاعة الله: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَارُونَ أَخِي﴾، وتظهر غاية الصُّحبة الصالحة: ذكرٌ وتسبيحٌ لا مجدٌ شخصي: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾، ثم يختمها باليقين في نظر الله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾، فيجيء جواب الفضل: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾.

ثم يُذكّره الله أن موسى لم يُصنع فجأةً، بل صُنع عبر أقدارٍ دقيقة؛

- من تابوتٍ في اليمّ إلى بيت العدوّ..
- إلى محبةٍ يلقيها الله عليه..
- إلى تربيةٍ على عين الله:

﴿أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾... ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾، ثم كلمة تُطمئن كل من يخاف على أولاده وعلى مستقبله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾؛ فالله تعالى قد يُربّيك في أماكن لا تتوقعها، ويُخرجك من محنٍ ظننتَها نهايةً لتكون بدايات، ثم يقول لك في النهاية: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ أي جئتَ إلى هذا الموقف والرسالة في الوقت الذي قدَّره الله وهيَّأك له بعد مراحل من التربية والابتلاء، ويضع الخلاصة التي لا تُمحى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي اخترتك وربّيتك وهيّأتك بعنايتي لتكون رسولاً لي وتقوم بأمر دعوتي؛ أي إن الابتلاء لم يكن عبثاً، بل إعداداً لعبوديةٍ ورسالة.

ثم يأتي تكليف المواجهة مرة أخرى مع شرطٍ يحفظ الطريق من الانهيار: لا تضعفان في الذكر، لأن من انقطع عن الذكر انقطع عن المعونة: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾... اختيار كلمة ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ دقيق جداً في اللغة والمعنى: تَنِيَا من الفعل وَنَى يَنِي، أي يضعف أو يفتر أو يتباطأ.

فالمعنى: لا تضعفا ولا تفترا ولا تتباطآ في ذكري.

ولم يقل: ولا تتركا ذكري، لأن المطلوب ليس مجرد الذكر، بل الاستمرار فيه بلا فتور ولا ضعف؛ فكأنَّ الله يهيئ موسى وهارون عليهما السَّلام لمواجهة فرعون، ويبين أن القوة الحقيقية في هذا الطريق هي دوام الذكر الذي يمنع القلب من الفتور.

ثم يؤسس القرآن منهج الدعوة حتى مع أعتى الطغاة: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾؛ لينٌ لا يعني تمييع الحق، بل يعني أسلوباً يفتح باب الرجوع.. ثم يظهر خوف الدعاة، فيأتيهم جواب الصُّحبة الإلهية التي تُسقط خوف البشر: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، ثم رسالة واضحة: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وميزان الدعوة: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾، وتحذير ثابت: ﴿إِنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

وحين يسأل فرعون سؤال المكابرة: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾، يجيب موسى بجوابٍ يربي العقل على معرفة الرَّب من آثاره ورحمته وهدايته: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ فهو ربٌّ خلق فسوّى وهدى، لا ربٌّ يُعبد بالخوف من السلطة.. ثم يقطع موسى العبث بالجدال التاريخي حين يُسأل عن القرون الأولى، فيرد بأن علم ذلك عند الله: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾، ثم يطمئن قلبك بصفةٍ عظيمة: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾؛ فلا يضيع حق، ولا يغيب حساب، ولا يُنسى مظلوم.. ثم يذكّر الناس بنعمٍ يرونها كل يوم لعلهم يعقلون: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، ثم يعيدك إلى أصل المصير: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾؛ لتسقط غفلة "الخلود" التي تفسد الإنسان.

ثم يَعرض القرآن مواجهة السِّحر، لا ليُشغلك بالتفاصيل، بل ليقيم في قلبك أصلاً: الباطل قد يزيّن نفسه ويخيل للناس، لكنه لا يثبت أمام الحق؛ موسى

يخاف لحظةً لأن القلب بشر، ثم يأتيه التثبيت: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾، ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾، ثم يقع الحكم الذي ينبغي أن يبقى في الوعي: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

وتأتي المفاجأة: السَّحرة أنفسهم يسجدون؛ لأن من رأى الحق بعينٍ صادقة لا يحتاج إلى جدال طويل: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾، ثم يثبتون على الإيمان أمام تهديد التقطيع والصلب، ويعلنون قاعدة التحرر من سلطان الدنيا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، ويختمونها بما يزن الدنيا والآخرة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، ثم يضع القرآن مصير الطريقين بوضوحٍ يقطع التردد: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾، ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾؛ فالقضية في النهاية تزكية قلبٍ قبل أن تكون صراع قوة.

ثم يُذكّرك القرآن بنعمة النجاة لبني إسرائيل، وبأنها لا تعصم وحدها من الانحراف إن لم تُصن بالذكر والطاعة؛ يُنجيهم الله ويعدهم ويُنزل عليهم المنَّ والسلوى، ثم يحذرهم من الطغيان في النعمة: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾، ومع ذلك يفتح باب المغفرة بميزانٍ محكم لا غموض فيه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾؛ توبةٌ، ثم إيمانٌ، ثم عملٌ، ثم ثباتُ هدى... ثم تأتي فتنة العجل لتقول لك إن الشّرك قد يعود من باب "العادة" و"التقليد" و"اللّمعان"، وأن القلب إذا لم يُمحص قد يستبدل إله الحقّ بعجلٍ لا يملك نفعاً ولا ضرّاً: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾، ويُسمعهم هارون كلمة التوحيد الواضحة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾، ثم يُحسم الأمر بالعقيدة الجامعة التي لا تقوم حياة قلبٍ إلا بها: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

ثم يعود القرآن إلى الغاية الكبرى: هذا ذكرٌ من عند الله، فمن أعرض عنه

حمل وزراً لا يطيقه يوم القيامة: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً﴾، ثم مشاهد النفخ في الصور، وزرقة المجرمين، ونسف الجبال، وخشوع الأصوات للرحمن؛ لتدرك أن كل صخب الدنيا يصير همساً أمام الملك الحق: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾، وأن الشفاعة ليست ملكاً لأحد: ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾، وأن علم الله محيط والخلق لا يحيطون به: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾، ثم يثبت القرآن عدل الله: من حمل ظلماً خاب، ومن عمل صالحاً وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾.

ثم يردّ القرآن على استعجال القلوب، ويؤدّب طالب العلم والداعية: لا تعجل بالقرآن قبل تمام الوحي، واطلب الزيادة من العلم لا الانتصار للنفس: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي لا تبادر بتلاوة القرآن قبل أن يتمّ جبريل إبلاغه إليك، بل انتظر حتى يكتمل الوحي وتستقرّ الآية في قلبك... ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾، ثم يعيدك إلى أصل القصة الإنسانية: آدم عليه السَّلام نسي وضعف عزمه، وإبليس أبى، ثم كانت الوسوسة التي تُعاد في كل جيل: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾، ثم المعصية، ثم الاجتباء، ثم التوبة والهداية: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، ثم القاعدة التي تختصر الشقاء والسعادة: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، وفي المقابل قانون الضَّنك والعمى لمن أعرض عن الذكر: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾، ثم جواب العدل: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾؛ فمن اختار النسيان في الدنيا ذاق النسيان في الآخرة، وعذاب الآخرة أشد وأبقى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾.

وتختم السورة توجيه القلب إلى ما يحفظه في الطريق:

١. صبرٌ على أذى الناس،
٢. وتسبيحٌ يملأ اليوم،
٣. وعدمُ مدّ العين إلى زهرة الدنيا،
٤. وإصلاحُ البيت بالصلاة،
٥. وطمأنةُ السَّاعي أن الرزق ليس همه بل همّ ربّه،
٦. وأن العاقبة للتقوى لا للمتاع:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾؛ ثم يتركك القرآن على حقيقة الانتظار الذي لا يطول: كلٌّ مترقب، لكن الذي سيظهر في النهاية هو صاحب الصراط السَّوي ومن اهتدى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ أي أهل الطريق المستقيم الصحيح، وهم الذين اهتدوا إلى الحق واتبعوا هدى الله..

الخيط القرآني الذي يربط نهاية الكهف بسورتي مريم وطه

نهايةُ سورةِ الكهف تُغلقُ "بابَ الوهم" الذي يفسد الدين من حيث لا يشعر صاحبه: وهمُ أن الإنسان يملك تفسير كل شيء، وأنه إذا كثرت حركته فقد ضمن القبول، وأن ما يراه ميزاناً في الدنيا هو الميزان عند الله؛ فتأتي الخاتمة لتقول لك بهدوءٍ حاسم: ليس السؤال كم فعلتَ، بل لمن فعلتَ، وعلى أي أصلٍ قمتَ، وهل بقي التوحيد خالصاً أم تسلل الشِّرك الخفي إلى نيتك وأملك؛ لذلك تُعرّي الخسارة الكبرى ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾، ثم تُسقط "الوزن المزيّف" يوم القيامة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾، ثم تُلخّص الطريق الذي لا يلتبس: رجاء لقاء الله يَستلزم عملاً صالحاً مع توحيدٍ صافٍ لا تشوبه مزاحمةٌ في العبادة ولا في المقصد ﴿فَمَنْ كَانَ

يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾؛ ثم كأنَّ السورة تُضيف: وحتى لا تظن أن هذا كله محصور في حدود ما نراه ونقيسه، تُعلّمك أن كلمات ربك أوسع من بحار الدنيا ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾، وأن الرسول نفسه بشرٌ يوحى إليه لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً من الربوبية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ فالمشهد كله في خاتمة الكهف هو "تصحيح الميزان":

- ميزانُ النِّيَّة،
- وميزانُ التوحيد،
- وميزانُ العمل عند الله لا عند الناس.

ثم تأتي سورةُ مريم كأنها "تفتح بابَ الرجاء" بعد أن أُغلق بابُ الوهم؛ لأن الإنسان إذا سمع ميزان الخسارة والوزن والقبول قد ييأس أو ينكسر انكساراً سلبياً، فتجيء مريم لتقول: الطريق الذي خُتمت به الكهف ليس طريق نخبةٍ خارقة، بل طريق عبدٍ ضعيفٍ إذا صدق فتح الله له أبواباً لا تُفتح بالأسباب وحدها؛ فتبدأ بـ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ وكأنها تعمّد لفظ "العبد" لتذكّرك بخاتمة الكهف: لا نجاة إلا بالعبودية؛ ثم تريك كيف تكون العبودية في أضعف اللحظات: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾؛ دعاءٌ بلا استعراض ولا طلب وزنٍ عند الناس، فيأتي الجواب الذي يهدم قانون اليأس البشري: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ ثم تبلغ السورة ذروة تصحيح التوحيد في قصة عيسى عليه السَّلام، لتقول لك: إن أعظم ما يفسد "صفاء العبادة" الذي ختمت به الكهف هو أن يُرفع بشرٌ فوق مقام العبودية؛ لذلك يصدح عيسى من المهد بالحقيقة التي تحفظ قلب المؤمن من الغلو: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، ثم يُقطع أصل الدعوى التي تنازع الله كماله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾، ثم تُحسم جهة الطريق: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾؛ فمريم ليست مجرد قصص، بل "ترميمٌ للميزان": إذا كان

ختام الكهف قال لك "لا تشرك"، فمريم تُريك أين يولد الشرك في التاريخ: حين تغلو في الصالحين والأنبياء، وحين تُستبدل العبودية بتقديسٍ يرفع البشر فوق قدرهم.

ثم تأتي سورةُ طه كأنها "تشرح كيف تسير بهذا الميزان في الحياة دون شقاء"؛ لأن سؤال القلب بعد الكهف ومريم سيكون: جميل... التوحيد صافٍ، والرجاء حاضر... لكن كيف أعيش بهذا في ضغط الدنيا والرسالة والفتن؟ فتبدأ طه بالجواب المباشر: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾؛ أي إن هذا التوحيد الذي ختمت به الكهف، وهذه العبودية التي صدحت بها مريم، ليست مشروع إرهاقٍ نفسي ولا عبادة كئيبة، بل طريق نجاةٍ من الشقاء أصلاً؛ ثم تُفصّل طه "منهج الاستقامة":

١. عبادةٌ وذكرٌ وصلاة ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾،
٢. وصبرٌ وتسبيحٌ وضبطُ نظرٍ عن فتنة المتاع ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾،
٣. وبناءُ البيت على الصلاة ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾،
٤. وتحرير القلب من وهم الرزق والضغط ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛
٥. ثم تضع القاعدة التي تُغلق الدائرة كلها: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾؛

وهي ترجمة عملية لخاتمة الكهف: من أراد لقاء الله فليعمل صالحاً بلا شرك، ومن سار على هدى الله لا يضل ولا يشقى.

فالربط الحكيم بين الثلاثة واضحٌ كخيطٍ واحد:

← الكهف تُنهي "وهمَ الوزن" وتُثبت "وزنَ التوحيد والإخلاص"،
← ومريم تُنهي "وهمَ الغُلو" وتُثبت "عبوديةَ الأنبياء وصفاءَ العقيدة"،
← وطه تُنهي "وهمَ الشقاء" وتُثبت أن طريق التوحيد والعبودية ليس ضيقاً بل هدى ورحمة وسكينة؛

وكأنَّ ترتيب السُّور يقول لك: صَحِّح مقصدك أولاً ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾، ثم صَحِّح تصورك عن الله وعن رسله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾، ثم امشِ بهذا التصحيح في واقعك اليومي بلا شقاء ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، حتى تبلغ وعد الخاتمة: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

من الذي يُحبك حقّاً؟

ليس من يطمئنك دائماً... بل من يخاف عليك من عذاب الله.

حين يقرأ القلب قول إبراهيم عليه السّلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ يقف أمام مشهدٍ عجيب في ميزان الحبّ الحقيقي؛ فإبراهيم لا يتكلم بلهجة الخصومة، ولا بروح المنتصر في جدالٍ عقدي، بل يتكلم بقلب الابن الذي يخاف على أحبّ الناس إليه، فهو لا يقول: أنت مخطئ، ولا يكتفي بأن يقول: أنت على باطل، بل يخرج الكلام من قلبٍ مشفق فيقول: أنا أخاف عليك.

تأمّل الكلمة جيداً: أخاف عليك... ليست خوفاً على نفسه، ولا دفاعاً عن رأيه، بل خوفٌ صادق على مصير أبيه يوم يقف بين يدي الله، خوفٌ على النهاية التي قد تؤول إليها حياة الإنسان إذا بقي بعيداً عن الحق.

وهنا يكشف القرآن معياراً عظيماً في فهم الحب؛

- فليس كل من يجاملك محبّاً،
- وليس كل من يوافقك ناصحاً،
- وليس كل من يتركك تمضي إلى ما تهوى صادق الودّ لك،

فالمحبة الحقيقية ليست في الكلمات التي تُريحك دائماً، بل في الحرص الذي يحميك ولو أزعجك.

المحبّ الحقيقي هو:

١. الذي يخاف على آخرتك قبل أن يخاف على راحتك،
٢. والذي يقلقه أن يراك بعيداً عن الله أكثر مما يقلقه أن تغضب منه،
٣. والذي يُذكّرك بالله حتى لو ضاق صدرك أحياناً، لأن قلبه لا يحتمل أن يراك يوم القيامة في موضع الخُسران.

ولهذا لم يقل إبراهيم: أخاف أن يصيبك عذاب... بل قال: ﴿أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾، حتى المسّ اليسير يخشاه لأبيه، لأن القلب الذي يحب لا يطيق أن يرى من يحب في أدنى درجات الألم، فكيف بعذابٍ عظيم؟.

فإذا وجدتَّ في حياتك من يُذكّرك بالله، ويخاف عليك من الذنب، ويقلق على مصيرك في الآخرة... فلا تُفرّط فيه، فقد يزعجك أحياناً، وقد يثقل عليك كلامه، لكن اعلم أن قلباً يفكر في نجاتك الأبدية ليس قلباً عابراً في حياتك، بل قلبٌ صادق الودّ لك.

إن الذي يخاف عليك من عذاب الله... لا يريد أن يُقيّدك، بل يريد أن ينقذك.

الخريطة البنيوية لآيات الجزء السادس عشر

١. حدود الفهم البشري أمام حكمة قدر الله: يبدأ هذا الجزء بتعليم القلب درساً عظيماً في التواضع أمام علم الله؛ فالعين ترى ظاهر الحوادث بينما تحيط حكمة الله ببواطنها ومآلاتها، ولذلك بدت الأفعال التي شهدها موسى مع العبد الصالح غير محتملةٍ في ظاهرها، حتى جاء البيان الإلهي الذي يذكّر الإنسان بأن ضيق فهمه لا يعني غياب الحكمة، وأن مساحة علمه محدودة بموضعه في اللحظة، ولهذا قيل له ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ

﴿تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ ليبقى القلب متأدباً أمام حكمة الله حين تضيق عليه دائرة الفهم.

٢. رحمة الله قد تأتي في صورة نقصٍ ظاهر: حين أُصيبت السَّفينة بعيبٍ يسير ظنّ الناظر أن ذلك ظلمٌ لأصحابها، لكن البيان كشف أن هذا النقص الظاهر كان حمايةً لهم من خسارةٍ أعظم، إذ كان وراءهم ملكٌ يأخذ كل سفينةٍ صالحةٍ غصباً، ولذلك قال العبد الصالح ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ فتتعلم القلوب أن بعض ما تراه خسارةً قد يكون في ميزان الله رحمةً تدفع شراً أكبر.

٣. الأقدار المؤلمة قد تكون وقايةً من فتنةٍ أعظم: قصة الغلام تكشف بوضوح أن الله قد يدفع عن عباده شروراً مستقبلية لا يدركها البشر في لحظتهم، فموت الغلام في صغره لم يكن قسوةً بلا معنى بل وقايةً لأبويه المؤمنين من فتنةٍ عظيمة قد تقودهما إلى الطغيان والكفر، كما جاء في البيان ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾، فيتعلم القلب أن بعض الآلام قد تحمل في باطنها رحمةً لا تظهر إلا بعد حين.

٤. بركة الصلاح تمتد إلى الأبناء بعد الموت: حين أقام العبد الصالح الجدار حفظاً لمال يتيمين كان تحته كنزٌ لهما بسبب صلاح أبيهما، جاء التنبيه القرآني العميق ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ ليُذكّر الإنسان بأن الطاعة لا تقف آثارها عند صاحبها فقط، بل قد تمتد بركتها إلى ذريته ومستقبله، وأن صلاح الإنسان قد يكون ستراً وحفظاً لأبنائه بعد رحيله.

٥. كل ما يجري في الكون تحت أمر الله لا استقلال للبشر به: ويختم العبد الصالح تفسير تلك الأحداث بكلمةٍ تقطع وهم الاستقلال البشري في تدبير الأمور حين يقول ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، ليقرر القرآن أصلاً عقدياً عظيماً وهو أن تدبير الكون في النهاية بيد الله، وأن البشر مهما بلغ علمهم

فإنهم يتحركون داخل دائرة الحكمة الإلهية التي تحيط بكل شيء.

٦. التمكين الحقيقي يبدأ من الله لا من القوة الذاتية: ثم ينتقل السياق إلى قصة ذي القرنين ليُبيّن أن القوة في الأرض ليست نابعةً من الإنسان وحده بل منحةٌ من الله يختبر بها عباده، ولذلك جاء التذكير في أول القصة ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ ليبقى القلب متعلقاً بالمنعم لا مفتوناً بالنِّعمة.

٧. الحركة في الأرض ينبغي أن تكون مرتبطة بالغاية لا بالهوى: تكرار العبارة القرآنية ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ يكشف أن السير في الحياة ينبغي أن يكون وعياً بالأسباب التي سخرها الله لتحقيق الخير، لا اندفاعاً عشوائياً وراء الهوى، فالحياة في ميزان القرآن حركةٌ واعية مرتبطة بالغاية.

٨. العدل أساس الحكم في ميزان القرآن: وحين واجه ذو القرنين الناس لم يجعل القوة وسيلة للبطش، بل أقام ميزان العدل الذي يميز بين الظالم والمؤمن، فقال ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ ثم قال ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾، فالقوة حين ترتبط بالإيمان تتحول إلى أداة عدلٍ لا وسيلة استبداد.

٩. القوة الصادقة لا تستغل حاجة الناس بل تخدمهم: وحين طلب القوم بناء السَّد بينهم وبين يأجوج ومأجوج رفض أن يحول حاجتهم إلى مكسبٍ شخصي، وأعاد الفضل إلى الله قائلاً ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، ليظهر أن القائد الصالح يرى ما عند الله أعظم من متاع الدنيا.

١٠. العمل الجماعي من سُنن العمران في الأرض: ولم يبنِ السَّد وحده بل أشرك القوم في العمل حين قال ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، فيتعلم الناس أن عمارة الأرض لا تقوم على فردٍ واحد بل على تعاونٍ مشترك.

١١. كل إنجاز دنيوي يبقى مؤقتاً أمام وعد الله: ومع أن السَّد كان إنجازاً عظيماً يمنع الفساد، إلا أن ذو القرنين لم ينسبه إلى نفسه بل قال ﴿هَـذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ ثم ذكر حقيقته المؤقتة أمام سنن الله بقوله ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء﴾.

١٢. التاريخ كله يتجه إلى لحظة الحساب الكبرى: بعد مشهد القوة في الأرض ينتقل القرآن إلى المشهد الأعظم حيث تجتمع البشرية كلها يوم القيامة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ ليُذكّر الإنسان أن نهاية الطريق ليست في الدنيا بل في موقف الحساب.

١٣. الغفلة عن ذكر الله سبب العمى يوم القيامة: فالكافرون لم يُعرضوا عن الحق لأن الأدلة غابت، بل لأن قلوبهم كانت في غطاءٍ عن ذكر الله ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾.

١٤. أخطر الخسارة أن يضل العمل وصاحبه يظن أنه يُحسن: ويكشف القرآن مأساةً أعظم من الفشل الظاهر، وهي أن يضل العمل بينما صاحبه يظن أنه على صواب، كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾.

١٥. النجاة في الجمع بين الإيمان والعمل الصالح: أما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح فجزاؤهم جنات الفردوس خالدين فيها ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾.

١٦. الإخلاص أصل قبول العمل: وتختم سورة الكهف بقاعدةٍ جامعة تضبط مسار الحياة كلها ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾.

١٧. رحمة الله تفتح أبواب الرجاء حتى في لحظات الضعف: ثم تبدأ سورة مريم بنداءٍ خفي من قلبٍ ضعيف لكنه موقن بربه ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾ فيستجيب الله دعاء زكريا رغم الكبر والعقم.

١٨. قدرة الله لا تقيدها قوانين البشر: وحين تعجب زكريا من البشارة جاءه الجواب الحاسم ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ ليُذكّر أن قدرة الله لا تحدها الأسباب.

١٩. النبوة مقرونة بالطهارة والبر: ويصف القرآن يحيى بأنه ﴿بَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ ليبين أن الرسالة لا تنفصل عن الأخلاق.

٢٠. المعجزة في قصة مريم إعلان لقدرة الله وتوحيده: ولادة عيسى من غير أب كانت آيةً عظيمة ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾.

٢١. عيسى يعلن عبوديته لله منذ اللحظة الأولى: فيتكلم في المهد قائلاً ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ ليُقرر القرآن أن مقامه النبوة لا الألوهية.

٢٢. التوحيد أصل دعوة الأنبياء جميعاً: ويأتي البيان الجامع ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

٢٣. الاختلاف في الأنبياء جاء من البشر لا من الرسالة: فبعد وضوح الحق وقع الاختلاف بين الناس ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾.

٢٤. دعوة إبراهيم نموذج للحوار بالحكمة: إذ يخاطب أباه بلطفٍ متكرر ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾.

٢٥. الأنبياء يجتمعون على صفة الخشوع لله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾.

٢٦. الانحراف يبدأ بإضاعة الصلاة واتباع الشَّهوات: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾.

٢٧. باب التوبة يبقى مفتوحاً رغم الانحراف: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾.

٢٨. مصير الناس ينقسم بين وفدٍ إلى الرحمن وورِدٍ إلى النار: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾.

٢٩. نفي الولد عن الله أصل عقدي عظيم: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾.

٣٠. القرآن لم ينزل ليزيد الشقاء بل ليهدي القلوب: وتبدأ سورة طه بالخطاب المطمئن ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

٣١. الله محيط بكل شيء علماً وسلطاناً: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

٣٢. الوحي أساس الرسالة وعبادة الله غايتها: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

٣٣. الدعوة تبدأ بالاستعانة بالله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

٣٤. الدعوة إلى الطغاة تكون بالحكمة واللِّين: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾.

٣٥. الحق يغلب الباطل مهما بدا قوياً: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾.

٣٦. الإيمان قد يولد في لحظة صدق: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾.

٣٧. النجاة من الظلم لا تمنع وقوع الفتنة إن ضعف الإيمان: فتنة العجل بعد النجاة من فرعون.

٣٨. الإنسان يعيد في حياته قصة آدم الأولى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾.

٣٩. قاعدة النجاة الكبرى في الحياة كلها: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

٤٠. الإعراض عن ذكر الله يورث ضيق الحياة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾.

٤١. النجاة تحتاج صبراً وذكراً وعدم الانخداع بالدنيا: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ و﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾.
٤٢. إصلاح الأسرة يبدأ بإقامة الصلاة فيها: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.
٤٣. الرزق بيد الله والعاقبة للمتقين: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

المحور الإيماني المركزي للجزء السادس عشر

يبني هذا الجزء في قلب المؤمن يقيناً واحداً يجمع آياته كلها: أن الإنسان يعيش بين حكمة الله في أقداره، وعدل الله في المصير، ورحمة الله في الهداية؛ وأن النجاة لا تكون إلا حين يُسلم القلب لله في هذه الثلاثة جميعاً.

فالبداية تعلّم الإنسان أن ما يراه في لحظته ليس كل الحقيقة؛ فكم من حدثٍ بدا قاسياً أو غير مفهوم ثم انكشف أنه جزء من رحمةٍ خفية، كما ظهر في قصة موسى مع العبد الصالح حين تبيّن أن وراء كل حادثةٍ حكمةً لم تكن العين تدركها، حتى قيل في ختام البيان ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، فيتربّى القلب على التسليم لله حين تضيق عليه دائرة الفهم.

ثم ينتقل الجزء ليُعلّم أن القوة والتمكين في الأرض ليست غايةً بذاتها، بل امتحانٌ لطريقة استعمالها، كما ظهر في قصة ذي القرنين الذي نسب الفضل إلى الله وقال ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾، فأقام العدل بين الناس، وبنى ما يحفظهم من الفساد، ومع ذلك بقي قلبه متعلقاً بوعد الله الذي يعلو على كل بناءٍ دنيوي ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء﴾.

ثم يرفع القرآن بصر الإنسان إلى المشهد الذي تنكشف فيه الحقائق كلها، يوم الحساب، حيث لا تكون العبرة بكثرة العمل بل بصحة وجهته، فيقال ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، بينما النجاة لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح والإخلاص لله ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ

رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾.

وبعد ميزان المصير يفتح الجزء أبواب الرجاء في قصص الأنبياء، ليبيّن أن قدرة الله لا تقف عند حدود الأسباب، وأن رحمته تحيط بعباده مهما ضاقت بهم الأحوال، كما في دعاء زكريا واستجابة الله له، وفي قصة مريم حين قيل لها ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ثم يقرر القرآن أصل التوحيد الذي اتفقت عليه الرسالات كلها ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

ويختتم الجزء بتثبيت القلب على طريق الهداية التي نزل القرآن من أجلها ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، ثم يُقرر القاعدة التي تختصر مصير الإنسان كله ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، بينما يقود الإعراض عن ذكر الله إلى ضيق الحياة في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾.

وهكذا يجتمع في هذا الجزء محورٌ إيماني واحد:

١. أن القلب لا يستقيم في الحياة إلا إذا سلَّم لحكمة الله في أقداره،
٢. واستعمل ما آتاه الله في العدل والإصلاح،
٣. واستعدّ ليوم الحساب بالإيمان والعمل الصالح،
٤. وتمسّك بهداية الله التي بها وحدها ينجو الإنسان من الضَّلال والشقاء.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها الجزء ١٦

سأعرض أخطر الانحرافات التي يحذّر منها الجزء السادس عشر من القرآن من خلال ما تطرحه سورة الكهف في خاتمتها وسورة مريم في بنيتها الكبرى وسورة طه في مسارها التربوي، لا بوصفها أحداثاً تاريخية بل بوصفها أمراضاً دائمة تتكرر في كل زمان، ولهذا سيظهر التحذير القرآني في أربعة مجالات: عقدية وأخلاقية واجتماعية ونفسية، لأن القرآن لا يعالج جانباً واحداً من الإنسان بل يعيد بناء الإنسان كله.

❖ أولاً: انحرافات عقدية

١) الشرك الخفي في العبادة والعمل: أن يعمل الإنسان أعمالاً كثيرة ويظن أنه يحسن صنعاً، لكن قلبه لم يُصفِّ التوحيد، فيقع في أخطر خسارة حين يكتشف أن الميزان الحقيقي ليس كثرة العمل بل صفاء القصد، كما يحذّر القرآن بقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾.

٢) الغُلُو في الأنبياء والصالحين حتى يُرفعوا فوق مقام العبودية: وهذا الانحراف ظهر في التاريخ حين تحوّل احترام الأنبياء إلى تأليهٍ لهم، فجاء التصحيح الحاسم في القرآن: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾.

٣) نسبة الولد إلى الله أو تصور الإله تصوراً بشرياً: وهو من أخطر الانحرافات العقدية التي تُفسد أصل التوحيد، ولذلك جاء الرد القرآني القاطع: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾.

٤) عبادة المظاهر أو الرموز الدينية بدل عبادة الله: كما وقع لبني إسرائيل حين تحوّل العجل إلى مركز عبادة، مع أنه لا يملك نفعاً ولا ضراً، وقد كشف القرآن سخافة هذا الانحراف بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾.

٥) الانخداع بالقدرات البشرية أو القوة الدنيوية ونسيان مصدرها: بينما يُذكّر القرآن أن التمكين الحقيقي من الله وحده، كما في قصة ذي القرنين الذي قال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾.

❖ ثانياً: انحرافات أخلاقية

١) الغرور بالعمل والاعتقاد أن الإنسان دائماً على صواب: وهو مرض خطير يجعل الإنسان يغلق باب المراجعة والتوبة لأنه يظن أنه محسن، وقد كشف القرآن هذا الوهم بقوله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾.

٢) القسوة في الدعوة والتعامل مع الناس بدل اللِّين والحكمة: بينما يعلّم الله موسى وهارون أن مواجهة أعظم طاغية في الأرض لا تكون بالفظاظة بل بالرِّفق: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾.

٣) الطغيان حين يمتلك الإنسان قوة أو سلطة: فالقوة حين تنفصل عن مراقبة الله تتحول إلى ظلم واستبداد، كما وصف القرآن حال فرعون بقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

٤) الكذب على الله وتزييف الحقائق الدينية: وهو من أخطر الانحرافات الأخلاقية لأن أثره لا يقف عند صاحبه بل يضل به الناس، ولذلك جاء التحذير: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.

٥) اتباع الهوى بدل اتباع الوحي: فالهوى حين يقود الإنسان يعمي بصيرته ويبعده عن الحق، ولهذا جاء التحذير الصريح: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾.

❖ ثالثاً: انحرافات اجتماعية

١) الاستسلام لتيار المجتمع حتى لو كان باطلاً: كما حدث مع قوم السَّامري حين تبعوا العجل لأن الأغلبية فعلت ذلك، مع أن العقل السليم يرفض عبادة شيء لا يملك نفعاً ولا ضراً.

٢) تحويل الخلاف إلى صراع يفرق الجماعة: وهو خطر كبير في المجتمعات حين يصبح الخلاف سبباً للتفكك لا للحوار، ولهذا خشي هارون من تمزق بني إسرائيل فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

٣) الاستبداد السياسي الذي يفسد حياة الناس: حيث تتحول السلطة إلى أداة قمع واستعباد كما فعل فرعون حين جعل نفسه مصدر الحكم والهيمنة.

٤) تضليل الجماهير بالدعاية والخداع الإعلامي: كما فعل السَّحرة وقوم فرعون

حين حاولوا قلب الحقائق أمام الناس وإظهار الحق على أنه سحر.

٥) نسيان أن قوة المجتمعات تقوم على العدل لا على القوة المجردة: ولهذا يُظهر القرآن نموذج الحاكم العادل في قصة ذي القرنين الذي استخدم القوة لإقامة العدل لا لفرض الهيمنة.

❖ رابعاً: انحرافات نفسية

١) الخوف الذي يشل الإنسان عن أداء رسالته: وقد ظهر ذلك في لحظة بشرية مر بها موسى عليه السَّلام، فطمأنه الله بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.

٢) الانخداع ببريق الدنيا وزهرتها: حين يصبح الإنسان أسير المقارنات والحرص على ما عند الناس، فجاء التوجيه القرآني الحاسم: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣) النسيان الروحي الذي يجعل الإنسان يبتعد عن ذكر الله: فإذا أعرض القلب عن الذكر ضاقت الحياة عليه ولو ملك أسباب الراحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾.

٤) الاستعجال في الأمور الدينية قبل اكتمال الفهم: ولهذا جاء التوجيه للنبي ﷺ نفسه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾.

٥) الغفلة عن المصير النهائي للإنسان: فالانشغال بالدنيا قد يجعل الإنسان ينسى لحظة الوقوف بين يدي الله، ولذلك يُذكّر القرآن بمشهد القيامة حين يُحشر الناس ويُعرضون للحساب.

الخلاصة التربوية للجزء السادس عشر

أن أخطر ما يهدد الإنسان ليس عدواً خارجياً فقط، بل الانحراف الذي يبدأ داخل القلب ثم يمتد إلى السلوك ثم إلى المجتمع؛ ولذلك يعيد القرآن ترتيب

الإنسان من الداخل، فيصحح التوحيد أولاً، ثم الأخلاق، ثم العلاقات الاجتماعية، ثم التوازن النفسي، حتى يتحقق الوعد العظيم: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

الملامح الشخصية التي يصنعها الجزء السادس عشر من القرآن

الجزء السادس عشر لا يكتفي بسرد قصصٍ أو عرض مشاهد من التاريخ، بل يعمل على تشكيل إنسانٍ جديدٍ في الداخل قبل الخارج؛ إنسانٍ يتربى على صفاء التوحيد، وصدق العبودية، واتزان القلب أمام الفتن، حتى يصبح ثابتاً حين تتبدل الأحوال، واعياً حين تختلط الأصوات، وقريباً من الله حين تضيق الطرق.

١) أول هذه الملامح شخصيةٌ موحِّدة صافية القلب، لا تتعلق بغير الله ولا ترفع بشراً فوق مقام العبودية، لأنها أدركت أن أعظم الانحراف يبدأ حين يختل ميزان التوحيد؛ ولذلك يربّيها القرآن على هذا الأصل العظيم: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾، فتعيش بقلبٍ يعرف أن كل قوة في الكون تحت سلطان الله، وأن النجاة كلها في صدق العبودية له وحده.

٢) ثم تتشكل فيها شخصيةٌ واعية بالآخرة لا تنخدع بزينة الدنيا، لأنها تعلّمت أن متاع الدنيا قد يلمع لكنه ليس الميزان الحقيقي للقيمة، وأن ما يبقى عند الله خيرٌ وأبقى؛ ولهذا يوجّه القرآن قلبها توجيهاً حاسماً: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فتتحرر من أسر المقارنات ومن قلق التنافس الدنيوي، وتصبح نظرتها للحياة أعمق وأهدأ.

٣) ويصنع هذا الجزء أيضاً شخصيةً ثابتة أمام الطغيان والضغط الاجتماعي، لا ترتجف أمام قوة الباطل ولا تخضع للهيمنة النفسية للجماهير؛ لأن القلب الذي تعلّق بالله يعرف أن سلطان البشر محدود مهما بدا عظيماً، كما قيل

لموسى في لحظة المواجهة الكبرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾، فيتربى الإنسان على شجاعة الإيمان لا على تهور النفس، وعلى الثبات الذي يولده اليقين لا مجرد الحماسة.

٤) ومن ملامح هذه الشخصية كذلك الرفق والحكمة في التعامل مع الناس، لأن القرآن يُربّي الإنسان على أن القوة الحقيقية ليست في القسوة بل في القدرة على الجمع بين الحق والرحمة، حتى في مواجهة الظالمين؛ ولذلك جاء التوجيه الرَّباني العجيب: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾، فتتعلم هذه الشخصية أن الدعوة إلى الله ليست صراعاً صوتياً بل خطاب قلبٍ لقلب.

٥) كما ينشئ هذا الجزء شخصيةً تعيش على الذكر والصلاة لا على التشتت والغفلة، لأن القلب إذا انقطع عن الذكر ضاق وإن اتسعت الدنيا حوله، وإذا اتصل بالله اتسع وإن ضاقت عليه الأسباب؛ ولهذا يُربّي القرآن المؤمن على أن تكون الصلاة محور حياته وذكر الله غذاء روحه: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

٦) ويغرس أيضاً شخصيةً صابرة طويلة النفس في الطريق إلى الله، لا تستعجل النتائج ولا تضطرب أمام كلام الناس أو ضغوط الواقع؛ لأنها تعلم أن طريق الاستقامة يحتاج إلى صبرٍ وثبات، ولذلك يأتي التوجيه الهادئ العميق: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾، فيتعلم القلب أن الثبات ليس لحظة حماس بل منهج حياة.

٧) ومن الملامح التي يصنعها هذا الجزء كذلك شخصيةٌ علمية متواضعة أمام الوحي، لا تتكبر على التعلم ولا تظن أنها أحاطت بالحقيقة كلها، بل تعيش دائماً في مقام الطلب والازدياد من العلم، كما علّم الله نبيه ﷺ أن يقول: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾، فينشأ المؤمن بقلبٍ متعطش للمعرفة لكنه متواضع أمام عظمة الوحي.

٨) وفي النهاية تتكوّن من كل هذه المعاني شخصيةٌ متوازنة مطمئنة، تعرف طريقها في الحياة، وتدرك غاية وجودها، وتعيش بين الخوف والرجاء، وبين العمل واليقين، حتى تصل إلى الوعد القرآني الجامع الذي يُلخّص ثمار هذا البناء كله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

أمراض القلوب التي يعالجها الجزء السادس عشر من القرآن

❖ أولاً: أمراض العلاقة بالله (الخلل العقدي)

١) أخطر ما يكشفه القرآن في هذا الجزء هو خلل التوحيد حين يختلط تعظيم الله بتعظيم البشر أو الرموز، فالقلب قد يبدأ بمحبة الصالحين أو الأنبياء ثم يتحول ذلك إلى غُلوٍّ يرفعهم فوق مقام العبودية، فيأتي التصحيح القرآني الحاسم بأن أعظم الخلق مقاماً هم عبادٌ لله لا شركاء له، كما أعلن عيسى عليه السَّلام بوضوح: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾، ليبقى ميزان العقيدة ثابتاً على أن العبودية لله وحده.

٢) ومن أمراض هذا الباب أيضاً التصور البشري لله تعالى حين يتخيل الإنسان الإله وفق مقاييس البشر أو ينسب إليه ما لا يليق بجلاله، فجاء القرآن ليهدم هذا الانحراف العقدي من جذوره ويؤكد تنزيه الله المطلق: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾، لأن توحيد الله ليس مجرد اعتقاد نظري بل أصلٌ يحفظ القلب من الانحراف في التصور والعبادة معاً.

٣) ويعالج هذا الجزء كذلك مرض نسيان عظمة الله وسعة علمه حين يظن الإنسان أن الكون يسير بلا إحاطةٍ إلهية أو أن الأحداث تقع خارج تدبير الله، فيعيد القرآن تثبيت القلب على حقيقة الإحاطة الرَّبانية الكاملة: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

❖ ثانياً: أمراض النِّيَّة والعبودية

١) من أخطر أمراض القلب التي يكشفها هذا الجزء الانشغال بصورة العمل عن حقيقة الإخلاص؛ فقد يعمل الإنسان أعمالاً كثيرة ويظن أنه على خير، لكنه لم يُصفِّ قصده لله، فيأتي التحذير القرآني الذي يوقظ القلب من هذا الوهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾، لأن ضياع النِّيَّة قد يحوّل العمل الظاهر إلى خسارةٍ يوم القيامة.

٢) كما يعالج القرآن مرض الغفلة عن ذكر الله الذي يترك القلب فارغاً مهما امتلأت الحياة بالحركة، فالقلب الذي لا يعيش على الذكر والصلاة يفقد مركز توازنه الروحي، ولهذا جاء التوجيه التربوي الواضح: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾، ليبقى الذكر هو النبض الدائم للحياة الإيمانية.

٣) ويكشف هذا الجزء أيضاً مرض الانشغال بزينة الدنيا حتى تتحول إلى محور القلب، فيقارن الإنسان نفسه بالناس ويقيس نجاحه بما عندهم من متاع، فجاء التصحيح القرآني الذي يحرر القلب من هذا الأسر النفسي: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

❖ ثالثاً: أمراض الموقف الأخلاقي

١) يعالج هذا الجزء مرض الطغيان الأخلاقي حين تتحول القوة إلى ظلمٍ واستعلاء، كما تجلّى في نموذج فرعون الذي جعل السُّلطة طريقاً للاستعباد والقهر، فجاء الوحي ليكشف أن القوة بلا تقوى تتحول إلى فسادٍ في الأرض.

٢) كما يكشف القرآن مرض القسوة والفظاظة في الدعوة والتعامل مع الناس، فيُربّي المؤمن على أن الحق لا يحتاج إلى غلظةٍ في عرضه بل إلى حكمةٍ ورحمة، ولذلك جاء التوجيه الرَّباني في مواجهة أعتى طغاة الأرض: ﴿فَقُولَا

لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾.

٣) ومن الأمراض الأخلاقية كذلك الكذب على الله وتحريف الحقائق الدينية، وهو انحراف خطير لأن أثره لا يفسد صاحبه وحده بل يضل به الآخرين، ولهذا جاء التحذير الشديد: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.

❖ رابعاً: أمراض الثبات أمام الابتلاء

١) يعالج هذا الجزء مرض الخوف الذي يضعف القلب أمام التحديات والضغوط، وهو شعور بشري قد يمر به حتى الأنبياء، لكن القرآن يُعلّم المؤمن كيف يعالجه بالثقة بالله، كما قيل لموسى في لحظة المواجهة الكبرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.

٢) كما يكشف مرض الاضطراب أمام الفتن الجماعية حين ينساق الإنسان وراء التيار الاجتماعي ولو كان باطلاً، كما حدث مع بني إسرائيل حين تبعوا السَّامري، فيُذكّر القرآن أن الحق لا يُعرف بالكثرة بل بالوحي.

٣) ويعالج كذلك مرض اليأس أو ضيق الصَّدر في طريق الدعوة والإيمان، فيُربّي القلب على الصبر الطويل والثبات الهادئ مهما اشتدت الضغوط، كما جاء التوجيه الإلهي: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾.

٤) وفي النهاية يضع القرآن القاعدة التي تشفي القلب من كل هذه الأمراض مجتمعة، حين يربط النَّجاة بالاتباع الصادق للوحي، في وعدٍ جامعٍ مطمئن: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق: أسئلةُ مواجهةٍ لا معلومات للجزء السادس عشر

❖ **هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟**

١) هل ما زلتُ أتعامل مع أقدار الله تعالى بعين الاعتراض الصامت أكثر من عين التسليم، كأن قلبي يقول: لماذا حدث هذا لي؟ لا: ماذا يريد الله أن يُصلح فيَّ بهذا؟ وهل أتذكر أن وراء ما أكره حكمةً قد لا أراها الآن، وأن العبد الصالح ختم الدرس بقوله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾؟.

٢) هل أظن أن القوة والنجاح دليل رضاٍ مطلق، فأفرح بما في يدي وأنسى أن التمكين قد يكون فتنةً لا كرامة، وأن ذا القرنين لم يَرَ الإنجاز لنفسه بل قال ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾؟ وهل أستحي أن أقول في قلبي: "ما عند الله خير" حين تُعرض عليّ مكاسب الدنيا باسم الخدمة والعمل؟.

٣) هل أخاف أن أكون ممن يعمل كثيراً ثم يفاجأ أن عمله لا وزن له، لأن وجهته كانت للناس أو للذات لا لله، فأرتجف عند قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾؟ وهل أراجع نفسي بصدقٍ أمام آخر السورة: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾؟.

٤) هل يوقظني هذا الجزء من وهم "أنا أفهم كل شيء" حين أُطالِب الحياة أن تشرح لي قبل أن أؤمن، بينما القرآن يضعني في مقعد العبد المحدود الفهم؟ وهل أشعر أنني قريبٌ من موسى حين قيل له ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾؟.

٥) هل أنا ممن يلين قلبه للرَّحمن عند آيات الرحمة في مريم، ثم يشتد قسوةً حين يُطلب منه توبةٌ عملية وترك شهوةٍ أو إصلاح صلاةٍ؟ وهل أسمح للقرآن أن يُقيم داخلي ميزاناً واحداً: رحمةٌ تفتح الباب، وإنذارٌ يمنع التلاعب؟.

❖ أين انكشف قلبي؟

١) أيـن انكشـف قلـبي حـين رأيـت "نقصـاً" أو "خسـارةً" فجزعـت، ولم أستحضر أن بعض النقص هو عين الحفظ، وأن السفينة أُعيبت رحمةً لا إهلاكاً؟ وهل إذا تأخر رزقٌ أو تعثّر أمرٌ قلت فوراً: "انتهى كل شيء" بدل أن أقول: لعلها حمايةٌ من شرٍ أكبر؟.

٢) أين انكشف قلبي في موضوع الدنيا: هل يفتنني بريقها حتى أمدّ عيني لما عند الناس، ثم أبرر لنفسي بأن هذا مجرد "طموح" بينما هو شهوة مقارنة؟ وهل أنا ممن يحتاج أن يُوقَف عند قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾؟.

٣) أيـن انكشـف قلـبي في باب العبـادة: هـل صـلاتي في بيـتي وأسـرتي "وصـية مؤجلة" دائماً، وكأنها خيار ثانوي لا محور نجاة؟ وهل أقرأ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ ثم أمضي كأن الآية لا تخصني؟.

٤) أين انكشف قلبي في باب التوحيد: هل يستثقل قلبي الصفاء العقدي حين يواجه الغُلو والتحريف، فأحب التعميم وأكره الحسم؟ وهل أرتجف حقاً عند جلال التنزيه: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ أم تمرّ على قلبي باردة؟

٥) أين انكشف قلبي في باب الثبات: هل أطلب من القرآن أن يريحني دون أن يغيّرني، وأن يطمئنني دون أن يحاسبني؟ وهل أعيش معنى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُـرْآنَ لِتَشْـقَى﴾ علـى أنـه "لا تكليـف" لا علـى أنـه "هدايـةٌ رحيمـةٌ تُصلحك"؟.

❖ أي آية أربكتني؟

١) هـل أربكتـني آيـة الغـلام لأن قلـبي يريـد فهـم قـدر الله قبـل التسـليم، ويطلـب تفسير الألم قبل الإيمان بحكمة الله؟ وهل حين أربكني المشهد تذكرت أن الله

يرى ما لا أرى، وأن الابتلاء قد يكون وقايةً من فتنةٍ أعظم؟.

٢) هل أربكتني آية "الخاسرين أعمالاً" لأن فيها تهديداً مخيفاً لصورة "أنا جيد"، فهي تزلزل الغرور الذي يلبس ثوب التدين؟ وهل توقفت عند قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ لأفتش عن مواضع خداعي لنفسي؟

٣) هل أربكتني آية التوحيد في أول طه لأنها تقطع كل اعتمادٍ على النفس: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾؟ وهل شعرت أن العبادة ليست عادةً أُؤديها، بل عهدٌ يُطالبني به ربي كل يوم؟.

٤) هل أربكتني آية الضَّنك لأنني أخاف أن يكون ضيق صدري سببه ابتعادي عن الذكر لا ضغط الظروف فقط؟ وهل تجرأت أن أواجه نفسي عند قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾؟

٥) هل أربكتني آية ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ لأنها تضعني أمام سؤالٍ حاسم: هل أنا متّبعٌ حقاً أم متذوقٌ للنصوص فقط؟ وهل أربكني معنى أن الشقاء ليس قلة مال، بل ضياع هدى؟.

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) ما السلوك الذي أؤجله في باب الإخلاص: هل ما زلتُ أعمل وفي داخلي عينٌ على الناس، على الإعجاب، على السُّمعة، على الأثر، ثم أطلب القبول؟ وهل أملك شجاعة أن أجعل آخر الكهف ميزاني اليومي: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾؟.

٢) ما السلوك الذي أؤجله في باب الصلاة: هل صرت أؤديها "لإسقاط الفرض" لا "لذكر الله"، فأجد فيها جسداً قائماً وقلباً غائباً؟ وهل أحتاج أن أرجع للمعنى الأول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قبل أن أبحث عن لذتها؟.

٣) ما السلوك الذي أؤجله في بيتي: هل تركتُ أمر الأسرة بالصلاة والتربية الإيمانية لأنني مشغول بالرزق، وكأن الرزق بيدي لا بيد الله؟ وهل أستوعب انقلاب الموازين في قوله تعالى ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؟.

٤) ما السلوك الذي أؤجله في علاقتي بالدنيا: هل ما زلت أمدُّ عيني وأُقارن وأتضجر من قسمة الله، ثم أتعجب لماذا لا يهدأ قلبي؟ وهل أجرؤ أن أقطع عادة المقارنة عند أصلها بدل تزيينها بمسميات "واقعية" و"تخطيط"؟.

٥) ما السلوك الذي أؤجله في باب الصبر: هل أعطي نفسي حق التذمر عند أول ضغط، ثم أريد من الله أن يفتح لي أبواب التيسير بلا ثباتٍ ولا ذكر؟ وهل أتربى عملياً على الوصية الأخيرة: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾، لا كتلاوةٍ بل كسلوكٍ يوميٍّ يتهذب به لساني وقلبي؟.

خطة التغيير: طريقٌ قصيرٌ لكنه صريح

١) ابدأ بتصحيح ميزانك قبل زيادة أعمالك: لا تنشغل بكثرة ما تفعل قبل أن تسأل لمن تفعل، فالقلب قد يعمل كثيراً وهو بعيد عن الله؛ لذلك اجعل أول خطوة أن تُراجع نيتك بصدق، وأن تجعل مقصدك لقاء الله وحده كما يذكّرك القرآن: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾.

٢) سلّم لله فيما لا تفهمه قبل أن تطلب تفسيره: ليست كل أقدار الله واضحة فور وقوعها، وقد يكون ما تكرهه اليوم باب رحمةٍ لا تدركه الآن؛ لذلك ربِّ قلبك على التسليم لحكمة الله حتى حين تعجز عن الفهم، وتذكّر أن كثيراً من أفعال الله وراءها حكمة خفية كما قيل: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

٣) طهّر قلبك من عبودية الدنيا قبل أن تطلب سكينة القلب: لن يهدأ القلب ما دام يقارن نفسه بالناس ويطارد ما في أيديهم؛ لذلك حرّر نظرك من فتنة

المقارنة، وردّد في قلبك التوجيه القرآني الذي يقطع أصل التعلق: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٤) اجعل الصلاة مركز يومك لا هامشه: القلب لا يتوازن بكثرة التفكير بل بكثرة الاتصال بالله، والصلاة هي الباب اليومي لهذا الاتصال؛ لذلك لا تؤدها كعادةٍ متكررة بل كعودةٍ متجددة إلى الله، مستحضراً المعنى الذي من أجله شُرعت: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

٥) واجه الخوف باليقين لا بالهرب: الخوف شعور بشري طبيعي، لكنه يصبح مرضاً حين يمنعك من الحق أو يعطّل رسالتك؛ لذلك تذكّر أن القوة ليست في غياب الخوف بل في الثقة بالله، كما قيل لموسى في لحظة المواجهة: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى﴾.

٦) اضبط لسانك بالرِّفق قبل أن تنشغل بالانتصار في الجدل: القوة الحقيقية في الدعوة ليست في غلبة الخصم بل في هداية القلب؛ لذلك تعلّم أن يكون خطابك رفيقاً حتى مع المخالفين، كما علّم الله أنبياءه في مواجهة أعظم طغاة الأرض: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً﴾.

٧) ابنِ بيتك على الصلاة قبل أن تبنيه على الرزق: الرزق ليس ما يحفظ البيت بل ما يعين عليه، أما الذي يحفظ القلوب فهو الذكر والصلاة؛ لذلك اجعل إصلاح بيتك يبدأ من هذه الوصية الواضحة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

٨) لا تطلب الطمأنينة بعيداً عن الذكر: كثير من ضيق الصدر ليس سببه ضيق الظروف بل غياب الاتصال بالله؛ ولذلك يضع القرآن قاعدة واضحة لا تحتمل الالتباس: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾.

٩) اطلب العلم بتواضعٍ دائم ولا تتوقف عن التعلم: القلب الحي لا يكتفي بما يعرف، بل يبقى في مقام الطلب والازدياد من الفهم؛ ولهذا علَّم الله نبيه ﷺ أن يقول دائماً: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

١٠) تمسّك بهُدى الله مهما تغيّرت الظروف: النجاة الحقيقية ليست في كثرة الوسائل ولا في ذكاء التخطيط، بل في السَّير على هدى الله مهما تبدلت الأحوال؛ لأن الوعد القُرآني واضح لا يتغير: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

خاتمةٌ وجدانية مزلزلة للجزء السادس عشر

بعد هذه الرحلة الطويلة في هذا الجزء، لا يبقى السؤال: ماذا قرأت؟ بل السؤال الحقيقي: ماذا تغيّر في قلبي؟ لأن هذا الجزء لم يكن حكاياتٍ عن أنبياء أو أممٍ مضت، بل كان مرآةً وضعت أمام القلب ليكتشف مواضع ضعفه وغفلته ووهمه؛ فقد كشف لنا كيف يضيق فهم الإنسان أمام حكمة الله، وكيف يعترض القلب أحياناً على قدرٍ لا يرى سره، حتى يتعلم في النهاية أن وراء الأحداث تدبيراً لا تدركه العيون، وأن العبد قد يرى ظاهر الألم بينما الحقيقة رحمةٌ خفية، كما ختم العبد الصالح درسه بقوله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

ثم أَخَذَنا القرآن إلى ميزانٍ آخر أخطر: ميزان العمل نفسه، لأن الإنسان قد يمضي عمره وهو يظن أنه يحسن، بينما قلبه لم يُصفِّ توحيده ولم يُخلص قصده؛ فتأتي الصدمة التي تهز الغرور وتعيد ترتيب القلب: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾، ليكتشف العبد أن الخسارة ليست قلة العمل بل ضياع الوجهة، وأن النجاة ليست بكثرة الحركة بل بصدق العبودية، ولهذا جاءت الخلاصة التي تختصر الطريق كله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾.

ثم يفتح القرآن باب الرجاء بعد هذا الميزان الصارم، فيريك أن طريق العبودية

ليس طريق قسوةٍ أو يأس، بل طريق رحمةٍ واسعة؛ فالرحمن الذي بيده الملك كله، والذي ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾، هو نفسه الذي يفتح لعباده باب التوبة والهداية مهما طال الطريق ومهما تعثر القلب، حتى لا يظن أحد أن البعد قد أغلق أبواب العودة.

ثم يأخذك هذا الجزء إلى مواجهة الحياة بطمأنينةٍ مختلفة؛ لأن القرآن لم يُنزَل ليزيد الإنسان تعباً فوق تعبه، بل ليخرجه من شقاء الضياع إلى سكينة الهداية، كما جاء الوعد الذي يبدد الوهم كله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾؛ فالشقاء الحقيقي ليس في قلة المال ولا في كثرة الابتلاء، بل في البعد عن طريق الله، أما القلب الذي يمشي على هدى الله فإنه قد يتعب لكنه لا يضيع، وقد يحزن لكنه لا ينهار.

وهكذا ينتهي هذا الجزء وهو يضع في يدك وعداً عظيماً لا يتغير مع الزمان ولا يتبدل بتقلب الأحوال: أن الطريق واضح، وأن النجاة ليست لغزاً معقداً، بل عهدٌ بين العبد وربه؛ فمن صدق في اتباع هدى الله، واستقام قلبه على التوحيد، وأخلص عمله لله، فله وعدٌ لا يخلفه الله أبداً: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

فالسؤال الآن ليس ماذا ختمت من القرآن، بل ماذا ختم القرآن فيك... هل خرج قلبك من هذا الجزء أكثر توحيداً، أكثر صدقاً، أكثر تسليماً لله؟ أم ما زلت تقرأ الآيات وكأنها تخاطب غيرك؟.

فالقرآن لا يريد قارئاً يمرّ عليه، بل يريد قلباً يتغير به... ومن لم يتغير قلبه بعد هذه الرحلة، فليعلم أن الطريق لم ينته بعد، بل بدأ الآن.

روح الرسالة التربوية والعقدية في الجزء السادس عشر

- التسليم لحكمة الله حين تضيق العقول عن الفهم: ليس كل ما يحدث في حياتك مفهوماً في لحظته، وقد يكون ما تكرهه حمايةً من شرٍ أعظم لا تراه الآن، لذلك يربّي القرآن القلب على الثقة بحكمة الله حتى حين تختفي الأسباب، كما انكشف في نهاية قصة موسى مع العبد الصالح حين قال ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، فليس كل ما يبدو خسارةً في الظاهر إلا باب رحمةٍ في علم الله تعالى.
- تصحيح ميزان العمل قبل الاغترار بكثرته: القرآن يوقظ القلب من أخطر خداعٍ للنفس: أن يعمل الإنسان كثيراً ويظن أنه ناجٍ، بينما قلبه لم يُخلص لله؛ لذلك يضع هذا الجزء ميزاناً صارماً يهز الغرور: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾، لأن القضية ليست كم فعلت، بل لمن فعلت، وهل بقي التوحيد خالصاً في قلبك.
- أن النَّجاة ليست في القوة بل في التوحيد: قد يملك الإنسان سلطاناً أو علماً أو قدرةً عظيمة، لكن العبرة ليست بما في اليد بل بما في القلب، ولهذا حين بلغ ذو القرنين قمة التمكين لم ينسب الفضل لنفسه بل قال ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾، ليبقى القلب موصولاً بمصدر القوة الحقيقي.
- تنزيه الله عن كل تصورٍ بشري: القلب لا يستقيم حتى يصفو توحيده، ولذلك يواجه القرآن أخطر الانحرافات العقدية حين يُرفع البشر فوق مقام العبودية أو يُنسب إلى الله ما لا يليق بجلاله، فيأتي البيان الحاسم: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾، لأن العقيدة الصافية هي أساس كل صلاحٍ بعد ذلك.

- أن القرآن جاء رحمةً لا عبئاً: العبادة في الإسلام ليست طريق شقاءٍ ولا صراعاً مع الفطرة، بل طريق هدايةٍ ورحمةٍ يعيد ترتيب القلب والحياة، ولهذا يعلن القرآن الحقيقة التي قد يغفل عنها كثير من الناس: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.
- أن القوة الحقيقية تبدأ من الثقة بالله: حين يقف المؤمن أمام الطغيان أو الفتن قد يشعر بالخوف كأي إنسان، لكن اليقين بالله يعيد ترتيب القلب، ولذلك جاء التثبيت الإلهي لموسى في لحظة المواجهة الكبرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى﴾، لأن القلب إذا اتصل بالله لا تهزّه قوة البشر.
- أن الدعوة إلى الله تقوم على الحكمة لا القسوة: الحق لا يحتاج إلى غلظةٍ ليظهر، بل إلى خطابٍ يفتح القلوب، ولذلك علّم الله موسى وهارون كيف يواجهان أعظم طاغية في الأرض فقال ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾، ليبقى الرفق منهجاً ثابتاً في الدعوة.
- أن الصلاة هي مركز توازن الحياة: حين يضطرب القلب أو تتكاثر الضغوط لا يكون العلاج بالهروب ولا بكثرة التفكير، بل بالرجوع إلى الله، ولذلك جاء التوجيه الواضح الذي يجعل الصلاة محور الاتصال بالله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.
- أن الانشغال بالدنيا يسرق سكينة القلب: القلب الذي يطارد ما في أيدي الناس لن يعرف الطمأنينة، لأن المقارنة لا تنتهي أبداً، ولذلك جاء التحذير القرآني الذي يحرر الإنسان من هذا الأسر النفسي: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾.
- أن النجاة الحقيقية في اتباع هدى الله: بعد كل هذه الدروس يضع القرآن القاعدة الجامعة التي تختصر الطريق كله: ليس النجاح الحقيقي في الذكاء ولا في الحيلة ولا في كثرة الوسائل، بل في السَّير على هدى الله بثباتٍ وإخلاص،

لأن الوعد الإلهي واضح لا يتبدل: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

حين يخسر الإنسان وهو يظن أنه يربح... مأساة العمل بلا توحيد

يضع القرآن في نهاية سورة الكهف سؤالاً يهزّ القلب قبل أن يجيب عنه، سؤالاً لا يتحدث عن الخسارة العادية التي يعرفها الناس في تجارتهم وأعمالهم، بل عن خسارةٍ أعمق وأخطر، خسارةٍ تقع في ميزان الآخرة حين يكتشف الإنسان أن العمر الذي أنفقه في العمل لم يكن كما ظنّه عند الله، فيقول سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾.

ليس السؤال هنا عن الخاسرين الذين لم يعملوا شيئاً، ولا عن الذين عاشوا في الغفلة ولم يبذلوا جهداً، بل عن صنفٍ آخر أشدّ مأساة؛ أناسٍ بذلوا جهداً، وتعبوا، وساروا في طريقٍ طويل من العمل والسَّعي، وربما ظنّوا أنهم يقتربون كل يومٍ من النجاح، ثم تأتي لحظة الحقيقة فيكتشفون أن كل ذلك لم يكن شيئاً في ميزان الله تعالى.

ثم يأتي الجواب القُرآني الصادم الذي يكشف المأساة كلها في جملةٍ واحدة: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾، فتأمل هذا المشهد المؤلم الذي يرسمه القرآن بدقةٍ عجيبة: إنسانٌ يعمل ويتعب ويجتهد ويظن أنه يحسن العمل، وربما يراه الناس كذلك، وربما يمدحونه ويثنون عليه، لكنه في الحقيقة يسير في طريقٍ ضائع، لأن أساس العمل الذي يقوم عليه كل شيء لم يكن صحيحاً.

ليس سعيه ضائعاً لأنه لم يعمل، بل لأن العمل قام على أساسٍ مختل، أساسٍ لم يُبنَ على التوحيد الخالص لله، ثم يكشف القرآن السبب الحقيقي لهذا الضياع

فيقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، فالقضية هنا ليست مجرد أخطاءٍ في العمل أو نقصٍ في الجهد، بل خللٌ في العلاقة مع الله نفسها، خللٌ في التوحيد، في معرفة من يُعبد، ولمن يُقصد العمل، ولمن يُبذل هذا الجهد كله.

ولهذا يأتي الحكم الحاسم بعد ذلك: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾، أي أن هذه الأعمال التي كانت تبدو عظيمة في أعين الناس في الدنيا، والتي ربما ملأت حياة صاحبها تعباً وسعياً وإنجازاً، لا يكون لها وزنٌ عند الله يوم القيامة، لا لأن الأعمال قليلة، بل لأن القلب الذي وقف خلفها لم يكن خالصاً لله، فلم يكن العمل قائماً على التوحيد الذي يقبله الله.

وهنا تأتي خاتمة السورة لتضع الميزان الصحيح الذي ينقذ العمل من الضياع كله، فيقول تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾، وكأنَّ القرآن بعد أن كشف مأساة العمل الضائع يضع القاعدة الذهبية التي تحفظ العمل من الحبوط: عملٌ صالح في الظاهر، وتوحيدٌ خالص في الباطن.

فالعمل الصالح وحده لا يكفي إن لم يكن خلفه قلبٌ موحِّدٌ لله، فقد يكون العمل جميلاً في أعين الناس، وقد يكون نافعاً، وقد يكون عظيماً في الظاهر، لكن إن دخل الشِّرك إلى القلب، أو تسلل الرياء إلى النِّيَّة، أو صار العمل لأجل النفس أو لأجل نظر الناس، فإن البناء كله يفقد أساسه، لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً.

ولهذا فإن أخطر ما تكشفه هذه الآيات ليس مجرد فساد بعض الأعمال، بل الوهم الذي قد يعيش فيه الإنسان سنواتٍ طويلة وهو يظن أنه على خير؛ يعمل ويتعب ويجتهد ويظن أنه يقترب من الله، لكنه لم يقف يوماً ليسأل نفسه السؤال الأهم: لمن أفعل هذا كله؟.

لأن القضية في النهاية ليست كم عملت، بل لمن عملت، وليس كم بذلت من الجهد، بل لأي وجهةٍ وجّهت قلبك.

وهنا يفهم القلب لماذا خُتمت سورة الكهف بهذه الآية العظيمة؛ لأنها تعيد ترتيب الطريق كله من جديد، فتجعل العمل الصالح في ظاهره، والتوحيد الخالص في باطنه، هما الأساس الذي يقوم عليه قبول العمل كله.

هناك فقط ينجو العمل من الحبوط، وهناك فقط لا يكون الإنسان من الأخسرين أعمالاً، بل يكون من الذين رجوا لقاء ربهم فساروا إليه بعملٍ صالحٍ وقلبٍ لا يشرك بعبادة ربه أحداً.

التوحيد... الخيط الخفي الذي يجمع الجزء السادس عشر كله

حين يتأمل القلب آيات الجزء السادس عشر بصدقٍ وهدوء، يكتشف أن هناك خيطاً واحداً دقيقاً يشدُّ هذه السور جميعاً إلى معنى واحد لا يتغير: **التوحيد...** وكأنَّ القرآن في هذا الجزء لا يكتفي أن يذكر التوحيد، بل يعيد بناءه في القلب من زوايا متعددة حتى لا يبقى فيه موضعٌ يختلط فيه تعظيم الله بشيءٍ من تعظيم الخلق.

فانظر كيف يُختم هذا المعنى في نهاية سورة الكهف بخاتمةٍ كأنها الميزان الأخير لكل العمل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾... ليعلن القرآن بوضوحٍ أن القضية ليست كثرة الأعمال وحدها، بل نقاء التوحيد الذي يقف خلف هذه الأعمال؛ فعملٌ كثيرٌ مع شركٍ خفيّ لا يرفع صاحبه، وعملٌ صادقٌ خالصٌ لله يرفع القلب ولو كان قليلاً، لأن الله تعالى لا ينظر إلى صور الأعمال بقدر ما ينظر إلى صدق التوحيد الذي يسكن خلفها.

ثم ينتقل هذا المعنى نفسه إلى سورة مريم، لكن من زاويةٍ أخرى تهدم أعظم الانحرافات العقدية في التاريخ، حين يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾... ثم يأتي البيان الواضح الذي لا يترك مساحةً للالتباس: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾... وكأنَّ القرآن هنا يعيد ترتيب العلاقة كلها بين الإنسان وربه؛ فلا نسبٌ يقربك من الله، ولا رموزٌ تشارك الله مقامه، ولا مكانةٌ بشرية تُرفع إلى منزلة الألوهية، بل ربوبيةٌ واحدة لله، وعبوديةٌ واحدة للخلق، وطريقٌ مستقيم يبدأ بكلمةٍ واحدة: فاعبدوه.

ثم تأتي سورة طه لتضع هذا المعنى في صورته الأكثر مباشرةً حين يخاطب الله موسى عليه السَّلام في لحظةٍ فريدة من أعظم لحظات الوحي في التاريخ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾... هنا يتجرد الخطاب من كل شيءٍ إلا الحقيقة الكبرى التي تقوم عليها الرسالات كلها: الله واحد، والعبادة له وحده، وكل ما في الحياة بعد ذلك تفاصيلٌ تدور حول هذه الحقيقة.

ثم يعود هذا الصوت مرةً أخرى في نهاية السورة ليقرر القاعدة نفسها بصيغةٍ تجمع العقيدة كلها في جملةٍ واحدة: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾... وكأنَّ القرآن بعد كل القصص والأحداث والحوارات يعيد القلب إلى الحقيقة الأولى: لا معبود بحق إلا الله، ولا ربَّ يُرجى ولا يُخاف ولا يُتوكّل عليه إلا الله.

وهنا يبدأ القلب يكتشف سرّ هذا التناغم العجيب في هذا الجزء؛ فالسور ليست مجرد نصوصٍ متجاورة، بل بناءٌ متكامل يعيد صياغة التوحيد في النفس مرةً بعد مرة، حتى لا يبقى في القلب موضعٌ يلتبس فيه المقام بين الخالق والمخلوق.

فالجزء السادس عشر يُعلِّمك أن التوحيد ليس كلمةً تُقال... بل ميزاناً تُوزن به الحياة كلها.

- أن تعمل لله... لا لنفسك.
- أن تخاف الله... لا الناس
- أن ترجو الله... لا ما في أيدي البشر.

فإذا استقر هذا المعنى في القلب، صار الطريق واضحاً، وصارت العبادة سهلة، وصار الإنسان يعرف لماذا يعيش... ولمن يعمل... وإلى من يسير.

وهنا فقط يفهم القلب أن أعظم ما يغيّره القرآن في الإنسان ليس معلوماتٍ جديدة... بل مركز القلب نفسه؛ إذ ينقل تعظيمه من كل ما سواه... إلى الله وحده.

الترابط بين الجزأين (١٥ ↔ ١٦)

❖ الترابط الموضوعي بين الجزأين (١٥ ↔ ١٦)

١) الجزء الخامس عشر يفتتح مشهد "التوحيد والميزان" في سورة الإسراء؛ من تسبيح الله وتعظيم آياته إلى تأسيس قاعدة الوكيل الواحد: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾، ثم ينزل بك إلى تفاصيل "منهاج الحياة" في الأخلاق والحقوق والحدود والآداب،

والجزء السادس عشر يأخذ هذه القواعد من مستوى "الأوامر" إلى مستوى "الابتلاءات" التي تكشف صدقها في الواقع عبر قصص الكهف ومريم وموسى.

٢) الجزء الخامس عشر يضع لك "دستور السلوك" في آيات جامعة تبدأ من برّ الوالدين إلى حفظ العهد واللسان والبصر والفؤاد: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾،

والجزء السادس عشر يريك كيف يُترجم هذا الدستور عملياً حين تتزاحم الفتن والمخاوف والضغوط، فيتحول القرآن من قائمة تكاليف إلى "بناء إنسان" آتون الابتلاء.

٣) الجزء الخامس عشر يكرّر لك القانون الحاسم: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾..

والجزء السادس عشر يُريك كيف تكون الإحسانات الحقيقية غالباً مخفية تحت ستار مؤلم أو موقف غامض حتى تنكشف الحكمة، كما في تأويل أفعال العبد الصالح: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

٤) الجزء الخامس عشر يفتح ملف "الفتنة" في الدنيا: زينتها، غرورها، التنافس عليها، ثم يحذّر من البطر والعُلو،..

والجزء السادس عشر يجعل الفتنة قصصاً حيّة: فتنة الدين في أصحاب الكهف، وفتنة المال في صاحب الجنتين، وفتنة العلم في رحلة موسى، وفتنة السلطان في ذو القرنين؛ لتفهم أن الفتنة ليست فكرة بل واقع يتكرر بأسماء مختلفة.

٥) الجزء الخامس عشر يصرّح بأن القرآن "أقوم" منهجاً: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾،

والجزء السادس عشر يبيّن "كيف يقوّمك" فعلاً: يخلع عنك غرور الفهم، ويكسر وثنية الأسباب، ويُعيدك إلى الله وحده بوصفه المفسِّر الأعلى للأقدار والمآلات.

❖ الترابط العقدي بين الجزأين (١٥ ↔ ١٦)

١) الجزء الخامس عشر يؤسس التوحيد بصيغته العملية: لا وكيل إلا الله، ولا ملجأ إلا إليه، ولا اعتماد إلا عليه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

والجزء السادس عشر يغلق منافذ الشرك الخفي حين يفضح "الاغترار بالعمل" و"الاعتماد على النفس" و"عبادة السُّمعة" في ميزان مخيف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾.

٢) الجزء الخامس عشر يعلّم المؤمن كيف يفهم الوحي والرسالة؛ أن القرآن وحيٌ من عند الله ينزل كما يشاء الله، وليس شيئاً يفرضه الناس على النبي أو يمليه المكذبون بشروطهم.

والجزء السادس عشر يكمل هذا الضبط بإعلان بشرية الرسول مع حفظ مقام الوحي والتوحيد: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

٣) الجزء الخامس عشر يعلن تنزيه الله عن الولد والشريك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾..

والجزء السادس عشر يجعل هذا التنزيه "زلزالاً كونياً" في سورة مريم: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾، ليبقى التوحيد ليس مسألة معلومات بل مهابةً تُقيم القلب.

٤) الجزء الخامس عشر يُقرر مسؤولية الإنسان الفردية أمام الله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾..

والجزء السادس عشر يُرسّخ معنى الوقوف منفرداً يوم القيامة: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾، حتى لا يتعلّق القلب بقبيلة ولا شهرة ولا جمهور.

٥) الجزء الخامس عشر يثبت أن الهداية والضلال بيد الله مع قيام الحجة وإرسال الرسل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾،

والجزء السادس عشر يحسم أن القرآن نزل رحمة وتذكرة لا شقاء: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾، ليجتمع في قلب القارئ العدل والرَّحمة معاً.

❖ الترابط البياني بين الجزأين (١٥ ↔ ١٦)

١) نهاية الإسراء تختم بالتسبيح والتنزيه والحمد والتكبير: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾، وبداية الكهف تفتتح بالحمد على إنزال الكتاب واستقامته: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً﴾؛ فكأنَّ ختاماً يعلِّمك

"كيف تُحلِّل قلبك بالله" ثم افتتاحاً يريك "من أين يأتي هذا الجلال: من الكتاب القيم".

٢) في الإسراء سيلٌ من الأوامر والنواهي يربّي الانضباط ويصنع ميزاناً دقيقاً، وفي الكهف ومريم وطه ينتقل البيان إلى القصص؛ لا لتبديل الموضوع بل لتثبيت المعنى بالتصوير الحيّ، فتفهم أن القرآن يبدّل الأسلوب ليحفظ الرسالة من الملل وليخاطب العقل والقلب معاً.

٣) الإسراء يستخدم أسلوب "الموازين العامة" و"القواعد الكلية" مثل قاعدة المسؤولية وقاعدة الإحسان وقاعدة عدم اتباع ما لا علم به، والجزء السادس عشر يستخدم أسلوب "التجسيد"؛ فقاعدة الصبر على الغيب تُصوَّر في تكرار العتاب لموسى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾، لتتحول القاعدة إلى مشهد يُعلّمك بلا خطابة.

٤) في الإسراء جدل المكذبين يتكرر بطلبات مستحيلة واعتراضات متتابعة، وفي الكهف يبرز وصف الإنسان بأنه كثير الجدل: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾، ثم تأتي سورة طه لتوازن هذا الجدل بطمأنةٍ وتزكيةٍ وتذكيرٍ وخطابٍ ليّن، فتكتمل لوحة البيان: القرآن يفضح الجدل ثم يُعلّمك كيف تخرج منه.

٥) الإسراء يربط بين الوحي والواقع الاجتماعي: القول الأحسن، بر الوالدين، العدل، الوفاء، الكفّ عن التكبر، والجزء السادس عشر يربط بين الوحي ومشاهد الوجود الكبرى: الجبال، القيامة، السماء، الأرض، فتنة الدنيا، ليُفهمك أن القرآن لا يُربّي الفرد بمعزل عن الكون بل يربطه بالمصير والآخرة.

❖ الترابط الوجداني بين الجزأين (١٥ ↔ ١٦)

١) الجزء الخامس عشر يهزُّك بصرامة التكاليف ثم يفتح لك باب الرجاء والرحمة: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾..

والجزء السادس عشر يأخذ هذا الرجاء ويحوّله إلى "قصة رحمة" تمشي على

الأرض؛ رحمةٌ بفتيةٍ هاربين بدينهم، ورحمةٌ بوالدين مؤمنين يُصرف عنهما البلاء، ورحمةٌ بيتيمين يُؤخَّر كنزهما حفظاً لهما، حتى ترى الرَّحمة لا تسمعها فقط.

٢) الجزء الخامس عشر يضعك أمام قسوة الحساب الفردي: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾، والجزء السادس عشر يزيد الأثر الوجداني حين يريك مشهد المجرمين والكتاب والنار والخسارة الحقيقية: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ ثم ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، ليصير الخوف واعظاً يمنع الغفلة لا رعباً يشلّ القلب.

٣) الجزء الخامس عشر يوقظك من غفلة الدنيا بآيةٍ بعد آية، والجزء السادس عشر يصفعك بقاعدة مؤلمة: قد تظن نفسك محسِناً وأنت أخسر الناس: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾، فيُخرجك من خداع النفس إلى صدق المراجعة.

٤) الجزء الخامس عشر يعلّمك "القول الكريم" و"القول الميسور" و"التي هي أحسن"، والجزء السادس عشر يضع هذا الخلق في امتحان حيّ:

- كيف تتعامل مع سوء الضيافة وأنت عابرٌ محتاج؟
- وكيف تُقيم جداراً لمن منعك حقك؟

هنا يتربّى القلب على الإحسان الذي لا ينتظر شكراً ولا مقابلاً.

٥) الجزء الخامس عشر يُلمّح إلى أن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والجزء السادس عشر يعلنها بوضوحٍ مريحٍ للنفس القلقة: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، فكأنَّ الروح بعد ثقل الموازين تُسقَى ماء الطمأنينة: القرآن ليس عبئاً على قلبك، بل دواء قلبك.

الجزء السابع عشر: حين يقترب الحساب... لا يبقى إلا التوحيد

المدخل التأسيسي للجزء ١٧

سورة الأنبياء

تفتتح سورة الأنبياء هذا الجزء لا بنداءٍ هادئٍ يترك القلب في منطقة الراحة، بل بجرسٍ يهزُّ الغفلة من أصلها: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، وكأن السورة منذ أول لحظةٍ تريد أن تُسقط الوهم الأكبر الذي يعيش فيه الإنسان حين يظن أن الزمن واسع، وأن الحساب بعيد، وأن تأجيل التوبة وتأجيل الفهم وتأجيل الانقياد لا يكلّفه شيئاً، بينما الحقيقة أن الخطر ليس فقط في اقتراب الحساب، بل في أن يقترب والناس ما زالوا في غفلةٍ وإعراض، يسمعون الذكر ولا يدخل إلى موضعه من القلب، تُتلى عليهم آيات ربهم فتقع على آذانٍ مشغولة ولذا قال سبحانه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، فلا تكون المشكلة في وصول الوحي، بل في طريقة الاستقبال، ولا في ضعف البرهان، بل في لهو القلوب: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، ثم يبلغ الانحراف حدَّه حين يتحول الإعراض إلى نجوى متآمرة، وإلى تسخيفٍ للرسول نفسه: ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، فيأتي الرد من مقام العلم الإلهي المحيط الذي لا تخفى عليه سرائر المعترضين ولا علانية أقوالهم: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

ثم تكشف السورة طبيعة القلب المكابر حين لا يطلب الحق أصلاً، وإنما ينتقل من شبهةٍ إلى شبهةٍ ومن دعوى إلى دعوى لا ليتثبت، بل ليفر من التسليم، فقالوا مرةً: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾، وقالوا مرة: ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾، وقالوا مرة: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾، ثم طلبوا الآية على وجه التعنت لا على وجه الطلب

الصادق: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، فيجيء الجواب الذي يردهم إلى سنن الله لا إلى أهوائهم: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾، فليست المشكلة نقصَ آية، بل فسادَ قلب، ثم تصحح السورة تصور الرسالة نفسها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾، فلا ملائكيةَ في صورة الرسل، ولا خرقاً لبشرية المرسلين في طعامهم وحياتهم وموتهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾، لكنهم مع بشريتهم كانوا موصولين بالوحي، محروسين بالوعد، منصورين حين يشاء الله، مهلكاً بهم المسرفين: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

ثم يلتفت الخطاب إلى هذه الأمة التفاتاً يحمل التذكير والتشريف معاً: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فهذا القرآن ليس كتاباً على هامش الحياة، بل فيه شرفكم، وهدايتكم، وبيان حقيقتكم، ومصيركم، ومن هنا تفتح السورة سجل القرى الظالمة التي لم تغنِ عنها قوتها ولا مساكنها ولا ترفها حين جاء البأس: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾، فإذا أحسوا العذاب لم يجدوا إلا الركض، فإذا قيل لهم على وجه التهكم الذي يفضح وهم الترف: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ انكشف الغطاء أخيراً وقالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، ولكنها يقظةٌ بعد فوات الأوان، ولذلك لم ينتهِ الأمر باعترافٍ يرفعهم، بل بحصادٍ يُخمد أثرهم: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾.

وبعد أن تهز السورة القلوب بمشهد الهلاك، ترفع البصر إلى أفق الوجود كله لتقرر أن هذا الكون ليس عبثاً، وأن حركة الحياة ليست لعباً، وأن الحق ليس تفصيلاً طارئاً في عالمٍ متروك، بل هو قانون الخلق كله، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾، ولو شاء سبحانه شيئاً يليق بجلاله لاتخذه من لدنه لا من عالم المخلوقين: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا

إن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، لكن السنّة الجارية في هذا الوجود هي سنة الصدام بين الحق والباطل لا على معنى تكافؤهما، بل على معنى أن الحق يعلو ويقذف على الباطل فيدمغه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾، فمن فهم هذه الحقيقة لم يستوحش من كثرة الباطل، لأن الزهوق كامنٌ في طبيعته.

ومن هذا المعنى تنتقل السورة إلى ترسيخ مقام الربوبية والعبودية، فكل من في السماوات والأرض ملكه، ومن عنده من الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يتعبون منها: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، وفي ظل هذا المشهد تأتي أسئلة التوحيد التي لا تترك للشرك موضعاً يختبئ فيه: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، ثم تُختم القضية بأصل الرسالات جميعاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، فالتوحيد هنا ليس فرعاً من فروع الرسالة، بل لبُّها الذي تتكرر لأجله الرسالات جيلاً بعد جيل.

ثم تعالج السورة انحرافاً آخر في التصور الإلهي حين قالوا: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً﴾، فترد عليهم بما يليق بجلال الله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، ثم تُعرّف الملائكة تعريفاً يخلع عنهم أوهام التأليه والبنوة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، لا يسبقونه بالقول، ولا يعملون إلا بأمره، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون، فكيف يُصرف لمن هذا حاله شيءٌ من خصائص الألوهية؟ بل لو ادعى أحدٌ منهم ذلك لكان جزاؤه جهنم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

ثم تمضي السورة تُري القلب آيات الله في الخلق المشهود، لا ليُعجب فحسب، بل ليؤمن، فالسماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقهما الله، وجعل من الماء كل شيء حي، وجعل في الأرض رواسي لئلا تميد بالناس، وجعل فيها فجاجاً سبلاً، وجعل السماء سقفاً محفوظاً، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر كلٌّ في

فلك يسبحون، لكن المأساة أن الآيات ليست مفقودة، إنما الإعراض هو الموجود: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، وكأن السورة تقول: من لم توقظه هذه الآيات في الكون، فلن ينفعه أن تُكدّس له الأدلة وهو مصرٌّ على الغفلة.

ثم ترد السورة الإنسان إلى مصيره الشخصي الذي لا مهرب منه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، والحياة نفسها ليست استقراراً بل ابتلاء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، ثم إلى الله المرجع، ومن هنا تُفهم سخرية المكذبين من الرسول ﷺ على حقيقتها، فهم يسخرون ممن يذكر آلهتهم بسوء، وهم في الوقت نفسه كافرون بذكر الرحمن، يعجلون بالوعيد استهزاءً مع أن الإنسان خُلق من عجل، ولكن آيات الله لا تُستعجل: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، ولو علموا ما ينتظرهم حين لا يكفون النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم لما تجرؤوا على هذا العناد، فهي تأتيهم بغتة فتبهتهم، وقد وقع مثل هذا الاستهزاء برسلٍ قبل النبي ﷺ، ثم حاق بالساخرين ما كانوا به يستهزئون.

ثم تواجه السورة الإنسان بالسؤال الذي يفضح عجزه المستمر واعتماده التام على حفظ الله ولو لم يعترف: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾، وتكشف أن متاع العمر الطويل لا يعني غلبةً ولا نجاة، وأن نقصان الأرض من أطرافها آيةٌ على تقلب الممالك والأحوال، وأن الإنذار بالوحي وحده هو الطريق، لكن الصم لا يسمعون إذا ما يُنذرون، فإذا مسّت الكافرين نفحةٌ من عذاب الله قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، ثم يُنقل القلب إلى يوم الموازين القسط حيث لا تُظلم نفسٌ شيئاً ولو كان مثقال حبة من خردل، وحيث يكفي الله حسيباً، فلا تذهب خافية، ولا تضيع ذرة.

وبعد هذا التأسيس تعود السورة إلى خط النبوة من جديد، فتذكر موسى وهارون والفرقان والضياء والذكر للمتقين، أولئك الذين يخشون ربهم بالغيب وهم

من الساعة مشفقون، ثم تعطف على القرآن فتقول: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾، ليُفهم أن موكب الوحي واحد، وأن الغاية واحدة، وأن الموقف من هذا الذكر يكشف حقيقة القلب.

ومن هنا تبدأ رحلة إبراهيم عليه السَّلام، لا كقصة تاريخية، بل كنموذجٍ قرآنيّ لكيف يشتبك التوحيد مع واقع الشرك، وكيف يبدأ الرشد من سؤالٍ صادم: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾، فلما اعتصم القوم بتقليد الآباء أعلن إبراهيم الضلال بصراحة، وحين سُئل هل جاء بالحق أم هو من اللاعبين، قرر أصل القضية: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾، ثم كسر الأصنام ليقودهم إلى لحظة مواجهةٍ مع عقولهم المعطلة، حتى رجعوا إلى أنفسهم لحظةً وقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، لكنهم بعد ومضة الحقيقة نُكسوا على رؤوسهم، فعادوا إلى العناد، وهنا بلغ التوحيد قمته في العبارة التي تفضح كل معبودٍ باطل: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾، ثم وقع الابتلاء بالنار، فإذا القدرة الإلهية تجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وإذا كيد المشركين ينقلب عليهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾، وكأن السورة تقول: من صدق مع التوحيد نجّاه الله ولو اجتمعت عليه النار والناس.

ثم تنفتح أمام القلب صفحةُ العطاء بعد الثبات، فينجّي الله إبراهيم ولوطاً إلى الأرض المباركة، ويهب له إسحاق ويعقوب نافلة، ويجعلهم أئمةً يهدون بأمره، ويوحي إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم يصفهم بالوصف الجامع: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾، فيُفهم أن الإمامة والنجاة والهبة والذكر الحسن ليست ثماراً منفصلة، بل فروعٌ تخرج من أصل العبودية.

ثم تتوالى نماذج الأنبياء لتؤكد أن الطريق إلى الله واحد وإن اختلفت صور الابتلاء؛ فهذا لوط يُنجَّى من قرية الخبائث ويُدخل في رحمة الله، وهذا نوح يُستجاب له ويُنصر ويُغرق المكذبون، وهذا داود وسليمان يُؤتيان حكماً وعلماً،

ويخص الله سليمان بفهمٍ في قضية الحرث مع إثبات الفضل لكليهما، ويسخر لداود الجبال والطير، ويعلّمه صنعة اللبوس، ويسخر لسليمان الريح والشياطين مع حفظ الله لهم، وكأن السورة توسّع مفهوم العبادة ليشمل الحكم، والعلم، والتسخير، والصنعة، والقوة، لا على أنها ميادين دنيا منفصلة عن الدين، بل لأنها كلها حين تُربط بالله تصير من آثار العبودية والمنة.

ثم تأتي صفحة أيوب التي تُعلّم القلب أن البلاء لا يناقض القرب، وأن الدعاء المختصر الصادق قد يحمل من الأدب والتوحيد ما يفتح أبواب الإجابة: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، فتجيء الاستجابة والكشف والعوض والرحمة والذكرى للعابدين، ثم يمرّ إسماعيل وإدريس وذو الكفل بعنوانٍ جامع: ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾، ويدخلهم الله في رحمته لأنهم من الصالحين، ثم تبلغ السورة ذروة الانكسار والتوحيد في نداء ذي النون في الظلمات: ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فتجعل من استجابته قاعدةً تتجاوز شخصه إلى كل مؤمن: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم زكريا الذي دعا ربه ألا يذره فرداً، فأصلح الله له زوجه ووهب له يحيى، لا لأن الدعاء وحده قيل، بل لأنهم: ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، ثم مريم التي أحصنت فرجها فجعلها الله وابنها آيةً للعالمين، لتجتمع القصص كلها في خيطٍ واحد: عبوديةٌ، وصبرٌ، ودعاءٌ، وخشوعٌ، ونجاةٌ، وتمكينٌ، ورحمةٌ، كلها تحت سيادة الرب الواحد.

ومن هنا تأتي الخلاصة الجامعة التي تُذيب تفرّق المذاهب والأهواء والنِّحَل أمام أصل الرسالة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، لكن الناس تقطعوا أمرهم بينهم، وكلٌّ إلى الله راجعون، فلا يضيع عنده سعي من عمل الصالحات وهو مؤمن، بل لا كفران لسعيه وهو له كاتب، ثم تفتح السورة مشهد النهاية مرةً أخرى؛ قرى أهلكها الله لا ترجع، ويأجوج ومأجوج ينسلون

من كل حدب، والوعد الحق يقترب حتى تشخص أبصار الذين كفروا ويعترفون متأخرين: ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، وهناك يُقال لأهل الشرك وما عبدوا من دون الله إنهم حصب جهنم، ولو كانت هذه المعبودات آلهةً ما وردوها، ولهم فيها زفير، في مقابل الذين سبقت لهم الحسنى فهم عنها مبعدون، لا يسمعون حسيسها، ولا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة بالبشارة: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

ثم تطوي السورة صفحة الدنيا كلها في مشهدٍ كوني مهيب: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، كما بدأ الخلق يعيده الله وعداً عليه، ثم تعود لتثبت وعداً آخر في مسار التاريخ لا في نهاية العالم فقط: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وكأن السورة بعد أن عرضت الصراع كله تقول إن العاقبة في الدنيا والآخرة ليست للباطل الضاجّ، بل للعباد الصالحين، ثم تصف هذا كله بأنه بلاغٌ لقومٍ عابدين، وتختم مقام الرسالة ببيانٍ جليل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، ثم ترد الدين كله إلى أصله مرةً أخيرة: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، فإن تولّوا فالإنذار على سواء، والله يعلم الجهر وما يكتمون، وقد يكون الإمهال فتنةً ومتاعاً إلى حين، ثم لا يبقى في نهاية المطاف إلا الالتجاء إلى الله: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

فهذه السورة في حقيقتها ليست مجرد عرضٍ لافتتاح الحساب، ولا مجرد موكبٍ للأنبياء، ولا مجرد تقريرٍ للتوحيد والبعث، بل هي بناءٌ تأسيسيٌّ كامل يُخرج القلب من غفلة اللعب إلى جدِّ المصير، ومن التعلل بالشبهات إلى مواجهة البرهان، ومن التقليد الأعمى إلى رشد إبراهيم، ومن رؤية التاريخ كأخبارٍ منتهية إلى فهمه كسننٍ حية، ومن النظر إلى الحياة كمتاعٍ ممتد إلى رؤيتها كابتلاءٍ ينتهي إلى الموازين، ومن التفرق في الأديان والأهواء إلى الأمة الواحدة التي ربها واحد،

ومن سؤال النجاة في لحظة الخوف إلى إدراك أن النجاة طريقٌ عنوانه الدائم:
﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ﴾ و﴿فَاعْبُدُونِ﴾ و﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

سورة الحج

تبدأ سورة الحج لا بنداءٍ خاصٍّ بالمؤمنين وحدهم، بل بنداءٍ عامٍّ للبشر جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وكأن السورة من أولها تريد أن تردّ الإنسان إلى القضية التي تسبق كل انتماءٍ وكل جدلٍ وكل اختلاف، وهي أن له ربّاً ينبغي أن يتقيه قبل أن يداهمه اليوم الذي لا يثبت فيه شيءٌ على حاله، لأن ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، لا عظيماً في اللفظ فقط، بل في أثره حين يخلع الإنسان من أوهام التماسك التي كان يعيش بها؛ يوم تذهل المرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حملٍ حملها، ويُرى الناس كأنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، فتُفتتح السورة من هذا الباب لتعلّم القلب أن الدين لا يُبنى على الغفلة عن المصير، وأن من لم يهتزّ قلبه بهذه البداية فالمشكلة ليست في البيان بل في القابلية للانتفاع به.

ثم تكشف السورة أن هذا الاضطراب في المصير لا يمنع بعض الناس من أن يجادلوا في الله بغير علم، وأن يتبعوا كل شيطانٍ مريد، فيجتمع في القلب جهلٌ واستكبارٌ وتبعيةٌ مضلّة، ولذلك كان من تولّى الشيطان فإن مآله أن يُضلَّه ويهديه إلى عذاب السعير، ثم إذا انتقل الخطاب إلى من في ريبٍ من البعث لم يُجبهم القرآن بمجرد أمرٍ بالإيمان، بل ساقهم في رحلة الخلق نفسها؛ من ترابٍ إلى نطفةٍ إلى علقةٍ إلى مضغةٍ مخلّقةٍ وغير مخلّقة، ثم قرارٍ في الأرحام إلى أجلٍ مسمّى، ثم خروجٍ طفلاً، ثم بلوغ الأشُد، ثم تفاوت الأعمار، ثم الردّ إلى أرذل العمر، ليرى الإنسان أن الذي نقله هذه النقلات العجيبة قادرٌ على بعثه، وأن الأرض الهامدة نفسها إذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج، فليست قضية البعث دعوى منفصلة عن واقع الخلق، بل هي جاريةٌ على

السُّنن التي يشهدها الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله، ولذلك جاءت الخلاصة حاسمة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

ثم تعود السورة إلى نموذجٍ آخر من الجدل، لكنه هذه المرة ليس شبهةً تبحث عن جواب، بل كِبراً يُعرض عن كل علمٍ وهدًى وكتابٍ منير، يثني عطفه ليضل عن سبيل الله، فتنكشف طبيعة هذا الجدل الذي لا يراد به الوصول، بل الصدّ والإفساد، وله في الدنيا خزي، ويوم القيامة عذاب الحريق، وليس ذلك ظلماً من الله بل بما قدمت يداه، لأن الله ليس بظلامٍ للعبيد، ثم تُظهر السورة وجهاً آخر من أوجه الاضطراب العقدي، ليس في صورة مجادلٍ صريح، بل في صورة عابدٍ مضطرب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، يطمئن إن أصابه خير، وينقلب على وجهه إن أصابته فتنة، وكأن علاقته بالله مشروطةٌ بالعطاء العاجل لا بالتسليم الصادق، فإذا كشفت الفتنة باطنه خسر الدنيا والآخرة، ثم لم يجد إلا أن يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه، بل ما ضرّه أقرب من نفعه، فكان ذلك هو الضلال البعيد، بينما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح يدخلهم الله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، لأن الله يفعل ما يريد، فلا يملك حاسدٌ أن يمنع نصره، ولا مكيدٌ أن يغيّر سنته: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾، ثم يقرر أن هذه الآيات بيّنات، وأن الهداية ليست انتزاعاً من العبد عنوةً، بل فضلٌ من الله يؤتيه من يشاء بحكمته.

ومن هنا يتسع المشهد ليشمل أهل الملل كلهم؛ المؤمنين واليهود والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، لا ليضيع الحق بينهم، بل ليُردَّ الأمر إلى يوم الفصل الذي يشهد الله فيه على كل شيء، ثم يُرينا القرآن أن سجود الكون كله لله حقيقةٌ كبرى لا يتخلف عنها من في السماوات ومن في الأرض، والشمس

والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، وكثيرٌ من الناس، وكثيرٌ حق عليه العذاب، فليس كل من كان في عالم الله منسجماً مع غاية وجوده، ومن يُهِن الله فما له من مكرم، لأن الله يفعل ما يشاء، ثم يُفتح مشهد الخصومة الكبرى بين الإيمان والكفر في ربهم، فيُرى عذاب الكافرين عياناً؛ ثيابٌ من نار، وحميمٌ يصبّ من فوق الرؤوس، يصهر ما في البطون والجلود، ومقامع من حديد، وكلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أُعيدوا فيها، في مقابل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يدخلهم الله جنات النعيم، يحلَّون فيها من أساور من ذهبٍ ولؤلؤ، ولباسهم فيها حرير، لأنهم هُدوا إلى الطيب من القول وهُدوا إلى صراط الحميد.

ثم تنتقل السورة إلى موضع البيت الحرام، لتبيّن أن الصدَّ عن سبيل الله ليس جريمةً مجردة، بل جريمةٌ تمسّ موضعاً جعله الله للناس سواءً العاكف فيه والباد، وأن إرادة الإلحاد فيه بظلم توجب العذاب الأليم، ومن هذا الموضع ذاته تعود الذاكرة القرآنية إلى إبراهيم عليه السَّلام، لا من جهة القصة فقط، بل من جهة التأسيس: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾، فقبل الطواف، وقبل الأذان في الناس بالحج، وقبل المنافع والشعائر، جاءت القاعدة التي لا يقوم البيت إلا عليها: نفي الشرك عن هذا المقام العظيم، ثم تطهير البيت للطائفين والقائمين والركع السجود، ثم النداء العام الذي تتقاطر له القلوب والأبدان من كل فجٍّ عميق، ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيامٍ معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فتأكل الأبدان، ويُطعم البائس الفقير، ويقضي الناس تفثهم، ويوفوا نذورهم، ويطوفوا بالبيت العتيق، لكن السورة لا تترك الشعيرة تُفهم على أنها حركةُ جسدٍ مجردة، بل تردّها إلى تعظيم حرمات الله، وإلى اجتناب الرجس من الأوثان وقول الزور، وإلى الحنيفية الخالصة لله غير المشركة به، ثم تضرب لذلك مثلاً مزلزلاً في تصوير حال المشرك: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ

سَحِيقٍ﴾، لتعلم أن الشرك ليس خطأً فكرياً بارداً، بل سقوطاً وجودياً مروّعاً.

ثم تُستأنف المعاني في شأن الشعائر والبدن والمناسك، لتقرر أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، وأن ما فيها من المنافع مؤقتٌ إلى أجلٍ مسمّى، ثم محلها إلى البيت العتيق، وأن لكل أمةٍ جعل الله منسكاً ليذكروا اسمه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، لكن الهدف الجامع فوق كل الخصوصيات الشعائرية هو هذا: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾، ومن هنا جاء وصف المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، والصابرين على ما أصابهم، والمقيمي الصلاة، والمنفقين مما رزقهم الله، ثم جاءت البدن من شعائر الله، فيها خير، وعليها يذكر اسم الله صوافّ، فإذا وجبت جنوبها أُكل منها وأُطعم القانع والمعتر، لكن السورة تحسم المقصد حتى لا تتحول الذبائح إلى طقسٍ ماديٍّ معزول: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، فالقيمة عند الله ليست في الصورة الظاهرة ما لم تحملها تقوى صادقة وتكبيرٌ لله على ما هدى، ولذلك ختمت هذه الصفحة ببشارة المحسنين.

ومن مقام الشعائر تنتقل السورة إلى مقام الحماية والتمكين، لتقرر أن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأنه لا يحب كل خوّانٍ كفور، ثم تأذن للمظلومين بالقتال لأنهم ظُلموا، ولأن الله على نصرهم لقدير، ولأنهم أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربنا الله، فيرتفع القتال هنا من كونه حركةَ انتقامٍ بشري إلى كونه دفعاً ربانيّاً يحفظ مواضع ذكر الله في الصوامع والبيع والصلوات والمساجد، ويحقق وعد الله بأن ينصر من ينصره، فالله لقوي عزيز، ثم تعطي السورة الميزان الذي يُعرف به صدق التمكين إذا وقع: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾، فلا يكون التمكين في ميزان القرآن مظلةَ نفوذٍ فارغة، بل عبوديةً ظاهرةً وعدلاً وإصلاحاً.

ثم تسلّي السورة قلب النبي ﷺ بسنة التكذيب الماضية؛ فقد كذبت قبلهم قوم نوحٍ وعادٌ وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوطٍ وأصحاب مدين، وكُذّب موسى، لكن الإملاء للكافرين لا يعني نجاتهم، بل هو تأخيرٌ يعقبه أخذٌ شديد، وتبقى آثار القرى الخاوية والآبار المعطلة والقصور المشيدة شاهدةً على مصير الظالمين، ولذلك تدعو السورة إلى السير في الأرض لا للسياحة المجردة، بل لتنشأ من هذا السير قلوبٌ تعقل بها وآذانٌ تسمع بها، لأن العمى الحقيقي ليس عمى الأبصار، ولكن عمى القلوب التي في الصدور، ثم ترد على استعجالهم بالعذاب بأن الله لا يخلف وعده، وأن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون، وأن كثيراً من القرى أُمهلت وهي ظالمة ثم أُخذت، وإلى الله المصير، ثم يأمر الله نبيه أن يعلن للناس وظيفته بوضوح: ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فمن آمن وعمل الصالحات فله مغفرةٌ ورزقٌ كريم، ومن سعى في آيات الله معاجزاً فأولئك أصحاب الجحيم.

ثم تدخل السورة إلى بابٍ دقيقٍ في سنن الابتلاء، فتقرر أن الشيطان قد يلقي في أمنيّة الرسول أو النبي ما يجعل الله ذلك فتنةً للذين في قلوبهم مرضٌ والقاسية قلوبهم، ثم ينسخ الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته، ليظهر الفرق بين قلبٍ مريضٍ أو قاسٍ يزداد شقاقاً، وبين قلبٍ أوتي العلم فيعلم أنه الحق من ربه فيؤمن به فتخبت له القلوب، وهنا يُفهم أن الفتن نفسها ليست دائماً ضدّاً للحق، بل قد تكون ميداناً يكشف الله به أمراض القلوب ورسوخ أهل العلم معاً، ولذلك لا يزال الذين كفروا في مريةٍ منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يومٍ عقيم، وحينئذٍ يكون الملك لله وحده يحكم بينهم، فيكون المؤمنون العاملون في جنات النعيم، ويكون المكذبون في العذاب المهين، ثم تبشر السورة الذين هاجروا في سبيل الله ثم قُتلوا أو ماتوا بأن الله يرزقهم رزقاً حسناً ويدخلهم مدخلاً يرضونه، لأن الله عليم حليم.

ومن هذا السياق تأتي قاعدة العدل والنصر: من عاقب بمثل ما عوقب به ثم

بُغي عليه لينصرنه الله، لا لأن القوة المجردة تُنتج النصر، بل لأن ذلك مرتبطٌ بحقيقة كبرى هي أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وأن الله سميع بصير، وأنه هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير، ثم تُعرض آيات الرأفة والربوبية في نزول الماء وخضرة الأرض، وفي ملك ما في السماوات وما في الأرض، وفي تسخير ما في الأرض والفلك التي تجري في البحر بأمره، وفي إمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وفي إحيائنا ثم إماتتنا ثم إحيائنا، ومع هذا يبقى الإنسان لكفوراً إن لم يُزكَّ قلبه بالوحي.

ثم تعود السورة إلى شأن المناسك والاختلاف فيها، فتقرر أن لكل أمةٍ منسكاً هم ناسكوه، فلا ينازعنك المشركون في الأمر، وادعُ إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم، وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون، فالفصل النهائي ليس في ضجيج الجدل بل عند الله يوم القيامة، وهو الذي يعلم ما في السماء والأرض، وكل ذلك في كتاب، وهو عليه يسير، ومع هذا يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم، فإذا تُتلى عليهم الآيات البيّنات ترى في وجوه الذين كفروا المنكر، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آيات الله، فيأتيهم الجواب الذي يقطع هذا التهديد: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

ثم تضرب السورة مثلاً بالغَ الإحكام في بيان عجز المعبودات الباطلة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، فتسقط هيبة الشرك من أصلها، ويأتي التعقيب الذي يضع العلّة في موضعها: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، فكل انحرافٍ في العبادة أصله خللٌ في تقدير الله، ثم تبيّن السورة أن الاصطفاء لله من الملائكة رسلاً ومن الناس، وأنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإليه ترجع الأمور، ومن هنا تختم النداء للمؤمنين بما يشبه الوصية الجامعة بعد كل هذه الرحلة: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ثم تدعوهم إلى الجهاد في الله حق جهاده، مع تذكيرهم بأنه اجتباهم، وما جعل عليهم في الدين من حرج، وأنهم على ملة أبيهم إبراهيم، وأن الله سماهم المسلمين من قبل وفي هذا، ليكون الرسول شهيداً عليهم ويكونوا شهداء على الناس، ثم تعيدهم إلى أركان الثبات العملي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والاعتصام بالله، لأنه هو مولاهم، فنعم المولى ونعم النصير.

فهذه السورة في هذا المقطع ليست مجرد انتقالٍ من مشاهد الساعة إلى أحكام الحج، ولا من براهين البعث إلى الحديث عن القتال والتمكين، بل هي بناءٌ متصل يعيد تشكيل القلب على أساسٍ واحد: أن هذا الوجود كله ماضٍ إلى الله، وأن العبودية الصادقة لا تقوم على خوفٍ موسمي من القيامة فقط، ولا على شعائرَ مجرّدة من التوحيد، ولا على جدلٍ عقيمٍ بلا علم، بل على يقينٍ بأن الله هو الحق، وأن ما سواه باطل، وعلى خضوعٍ يترجم نفسه في التوحيد، والمخبتين، والشعائر، والدعاء، والصبر، والإنفاق، والهجرة، والدفع عن الدين، والثبات على الوحي، حتى تنتهي الرحلة كلها إلى هذا الأصل الجامع الذي لا يقوم الدين إلا به: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾، ثم إلى هذا الاعتماد الذي لا يثبت القلب بدونه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

الخيط القرآني المحكم الذي يربط بين سورتي الأنبياء والحج

بين سورتي الأنبياء والحج خيطٌ قرآنيٌّ محكمٌ شديد التماسك، وليس انتقالاً من موضوعٍ إلى موضوعٍ بلا رابط؛ بل كأن سورة الأنبياء توقظ القلب وتبني أصول الرؤية، ثم تأتي سورة الحج لتُنزل هذه الرؤية إلى ميدان الامتحان والعبودية العملية.

يمكن صياغة هذا الخيط بهذا المعنى:

سورة الأنبياء تفتح الجزء السابع عشر بإنذار الغافلين باقتراب الحساب،

وبتقرير التوحيد، وفضح الباطل، وعرض موكب الأنبياء بوصفهم نماذج للعبودية والثبات والنجاة، ثم تختم بأن الإله إلهٌ واحد وأن البلاغ إنما ينفع قوماً عابدين؛ ثم تأتي سورة الحج لتأخذ هذه الأصول نفسها وتضعها في ميدان الزلزلة والبعث والفتنة والشعائر والجهاد والتمكين، فتُريك كيف يتحول التوحيد من حقيقةٍ تُعلَم إلى عبوديةٍ تُعاش، وكيف يصير الإنذار بالحساب بناءً للعبد المخبت الذي يُسلم لله، ويعظم شعائره، ويثبت عند الابتلاء، ويعتصم به وحده.

ولو أردته في عبارةٍ أشد إحكاماً وأقرب لأسلوبك:

سورة الأنبياء تبني في القلب اليقين بأن الحساب قريب، وأن الحق يدمغ الباطل، وأن الرسالات كلها خرجت من مشكاة التوحيد، وأن النجاة كانت دائماً لأهل العبودية؛ ثم تأتي سورة الحج لتختبر هذا اليقين في الواقع: في هول الساعة، وفي فتنة الإيمان، وفي شعائر التوحيد، وفي الصبر والهجرة والجهاد والاعتصام بالله، فكأن الأنبياء تؤسِّس الرؤية، والحج تُنزِلها إلى ميدان السلوك والابتلاء.

الخيط الرابط بين السورتين هو: الانتقال من تقرير أن الحق واحدٌ والحساب قريبٌ والأنبياء جميعاً دعوا إلى عبادة الله وحده، إلى بناء الإنسان الذي يثبت لهذا الحق عند الزلزلة والفتنة، ويُترجمه عبادةً وشعيرةً وجهاداً واعتصاماً حتى يلقى الله تعالى.

الخريطة البنيوية للجزء ١٧

الخريطة البنيوية لسورة الأنبياء في هذا المقطع: من غفلةٍ عن الحساب... إلى عبوديةٍ تُنجي عند قيام الساعة

- صدمة البداية: الحساب يقترب والقلوب ما زالت غافلة: تبدأ السورة بهزِّ القلب من أول لحظة: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾،

فالمشكلة ليست في بُعد الآخرة، بل في أن القلب يؤخِّر الاستعداد وهو يظن أن الوقت ما زال واسعاً.

- أزمة التلقّي: يسمعون الذكر... لكن بلا حضور قلب: الوحي يصل، والآيات تُتلى، لكن القلوب لاهية، فتتحول نعمة السماع إلى حجةٍ على صاحبها لا إلى نورٍ له، لأن المشكلة لم تعد في غياب الدليل بل في فساد الاستقبال.
- من اللهو إلى المكابرة: حين لا يُطلب الحق بل يُدفع: تارةً يقولون: أحلام، وتارةً: افتراء، وتارةً: شعر، وهذا يكشف أن القلب إذا لم يُرد الحق فلن تقنعه صيغةٌ من صيغ البيان، لأنه يهرب من التسليم لا من الجهل فقط.
- تصحيح صورة الرسالة: الرسل بشرٌ يوحى إليهم لا كائناتٌ خارجة عن سنن الحياة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾، فبشرية الرسول لا تنقض رسالته، بل تؤكد أن هذا الدين قابلٌ لأن يُعاش في واقع البشر لا في عالمٍ متخيَّل.
- الوعد الإلهي لا يُخلف: نجاةُ الرسل وهلاكُ المسرفين سنةٌ ماضية: حين يصدق الله رسله وعده، يفهم القلب أن طريق الحق قد يطول، لكنه لا يضيع، وأن الإمهال ليس نسياناً، بل تأخيرٌ يجري بحكمة الله.
- القرآن شرف الأمة وموضع ذكرها: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، أي فيه عزّكم، وهدايتكم، وتعريفكم بحقيقتكم، فمن أعرض عنه أضاع موضع رفعته بيده.
- مشهد سقوط القرى الظالمة: حين لا ينفع الرجوع بعد نزول البأس: الركض عند العذاب لا ينجي، والاعتراف بالظلم بعد حلول العقوبة لا يردّ المهلة، وهذا يعلّم القلب أن التوبة النافعة هي التي تسبق الأخذ لا التي تأتي بعده.
- الكون ليس عبثاً: الوجود مبنيٌّ على الحق لا على اللعب: ﴿وَمَا خَلَقْنَا

السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾، فالحياة ليست ساحةَ تسلية، بل ميدانُ ابتلاءٍ ومعنى، ومن فهم هذا تبدلت نظرته إلى نفسه وإلى الدنيا كلها.

- قانون الصراع: الحق لا يساكن الباطل بل يدمغه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾، فوظيفة الحق ليست التعايش مع الزيف على أنه ندٌّ له، بل كشفه وإزهاقه متى حضر الحق على وجهه.
- الملائكة أنفسهم في مقام العبودية الدائمة: الذين عند الله لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، وهذا يربي القلب على أن العبودية ليست منزلةً دنيا، بل هي شرفُ المقربين.
- تصفية التوحيد بالعقل والبرهان: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، فالسورة لا تكتفي بالأمر بالإيمان، بل تُري القلب أن التوحيد هو مقتضى العقل السليم ونظام الكون المستقيم.
- وحدة الرسالات: الكلمة التي لم تتغير: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، فكل الرسالات تعود إلى أصلٍ واحد: توحيد الله وإفراده بالعبادة.
- نقض أوهام البنوة والشفاعة المنفلتة: الملائكة عبادٌ مكرمون لا يسبقونه بالقول ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، فالسورة تهدم كل وساطةٍ ترفع المخلوق فوق مقامه الذي وضعه الله فيه.
- آيات الكون شاهدةٌ على الرب الواحد: فتق السماوات والأرض، والماء، والرواسي، والسماء المحفوظة، والليل والنهار، والشمس والقمر... كلها ليست مشاهد للفرجة فقط، بل شواهد تقود إلى الإيمان إن كان القلب حاضراً.

- الموت والابتلاء: الحقيقة التي تردّ الإنسان إلى حجمه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، فلا خير الدنيا علامةُ رضا دائم، ولا شرها علامةُ هوان دائم، بل الجميع امتحان.
- السُّخرية من الحق لا تُسقطه بل تكشف أصحابها: حين يُتخذ الرسول ﷺ هزواً، فإن المشكلة ليست في الرسالة، بل في القلوب التي كفرت بذكر الرحمن ثم استعلت على الحق بالسخرية.
- العجلة من طبع الإنسان... لكن مواعيد الله لا تُستعجل: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، والسورة تعلّم القلب أن استعجال الوعيد أو النصر أو الفرج لا يغيّر توقيت الله، وإنما الواجب هو الثبات لا الاستعجال.
- الإنذار الحقيقي بالوحي لا بالهوى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾، فمصدر النجاة ليس الانطباع، ولا الذوق، ولا ضغط الواقع، بل ما أنزله الله من هدى وبيان.
- موازين القيامة: لا تضيع عند الله ذرة: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾، وهذا يطمئن القلب أن العدل الكامل مؤجلٌ إلى يومٍ لا يظلم الله فيه أحداً، وأن أصغر الأعمال محفوظة.
- امتداد موكب الوحي: الفرقان والذكر المبارك: ما أُعطي لموسى وهارون من فرقانٍ وضياءٍ وذكر، وهذا القرآن الذكر المبارك، كله يؤكد أن الهداية نورٌ واحد تعددت صوره وتنزل من ربٍّ واحد.
- إبراهيم عليه السَّلام: التوحيد يبدأ بسؤالٍ يهزّ المألوف: سؤاله عن التماثيل لم يكن سؤال معرفة، بل سؤال إيقاظ، ليخرج القوم من أسر الاعتياد إلى محاكمة ما يعبدون.

- تقليد الآباء ليس برهاناً: حين قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين، كشف القرآن أن كثيراً من الباطل يعيش لأنه قديم، لا لأنه صحيح، وأن الرشد يبدأ حين يُوزن الموروث بالحق.
- مناظرة الأصنام: إسقاط المعبود الباطل من داخله: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾، فإبراهيم لم يكتفِ بالإنكار، بل قادهم إلى رؤية عجز معبوداتهم بأعينهم.
- لحظة رجوع النفس إلى الحق قد تومض... ثم يُنكس صاحبها: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ ثم ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، وفي هذا تحذيرٌ من أن معرفة الحق وحدها لا تكفي إذا لم يصحبها خضوعٌ يثبتها.
- التوحيد يكلّف: النار قد تكون ثمناً للصدق: لما قال إبراهيم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ﴾ لم يكن يواجه فكرةً فقط، بل نظاماً كاملاً من الشرك، ولذلك جاء الابتلاء.
- النجاة بيد الله وحده لا بسنن الأسباب فقط: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، فحين يشاء الله تتغير خصائص الأشياء، ليعلم القلب أن الأسباب لا تستقل أبداً عن أمر ربها.
- بعد الثبات تأتي الإمامة والعطاء: جعل الله لإبراهيم وذريته الهداية والخيرات والصلاة والزكاة والعبادة، وكأن السورة تقول: من ثبت في أصل التوحيد استحق أن يكون موضع اقتداء.
- تنوّع البلاءات ووحدة الطريق: لوط في مواجهة الفاحشة، ونوح في الكرب العظيم، وداود وسليمان في الحكم والملك، وأيوب في الضر، ويونس في الظلمات، وزكريا في الدعاء، ومريم في الاصطفاء... لكن الجامع بينهم جميعاً هو الصلة بالله.

- الدعاء الصادق يفتح أبواب النجاة: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً﴾... كلها تعلّم أن الانكسار بين يدي الله من أعظم مفاتيح الفرج.
- النجاة ليست خاصةً بالأنبياء وحدهم بل بمن سار على نهجهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، فالقصة ليست للتأمل المجرد، بل لفتح باب الرجاء لكل مؤمنٍ صادق.
- الأمة الواحدة: الأصل الذي مزقته الأهواء: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، فالأصل الجامع هو عبادة الله، وكل تقطعٍ بعد ذلك إنما هو انحراف عن هذا الأصل.
- لا يضيع سعي المؤمن عند الله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾، فالإيمان مع العمل الصالح يضمن أن الجهد محفوظٌ عند الله، وإن لم يره الناس أو يقدروه.
- عودة مشهد النهاية: الغفلة التي كانت تُؤجِّل... تنقلب حسرة: عند اقتراب الوعد الحق يقول الكافرون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، فكل تأجيلٍ للرجوع إلى الله يحمل في داخله بذرة هذه الحسرة.
- مصير الشرك ومعبوداته واحد: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فالسورة تقطع الطريق على كل وهمٍ يربط النجاة بمعبودٍ باطل أو تعلقٍ بغير الله.
- طمأنينة أهل الحسنى: الأمن عند الفزع الأكبر: الذين سبقت لهم الحسنى لا يسمعون حسيس النار ولا يحزنهم الفزع الأكبر، لأن من عاش لله في الدنيا تولاه الله في أعظم أهوال الآخرة.
- القيامة ليست خيالاً بل وعداً إلهيّاً محكماً: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ

﴿السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، فكما بدأ الخلق يعيده الله، ليعيش القلب على يقين المعاد لا على غفلة الامتداد.

- العاقبة للصالحين: وعدٌ في مسار التاريخ وفي نهاية الطريق: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، فالبقاء الحقيقي ليس لصوت الباطل الأعلى، بل لمن استقام على عبودية الله.
- الرسالة رحمة... لكن جوهرها توحيدٌ يطلب الاستسلام: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ثم ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، فالرحمة هنا ليست تمييع الحق، بل هداية الخلق إلى ربهم الواحد.
- الخاتمة: الالتجاء إلى حكم الله والاستعانة به: تنتهي السورة بروح العبد الذي لا يتكئ على نفسه ولا على وصف الناس، بل يقول: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وهي خاتمةٌ ترد القلب إلى مقام العبودية والثقة بالله بعد رحلة السورة كلها.
- الخلاصة البنيوية الجامعة لسورة الأنبياء: هذه الآيات تبني القلب على مسارٍ متكامل: توقظه من الغفلة، وتصحح تلقّيه للوحي، وتغرس فيه التوحيد بالبرهان، وتعرّفه سنن التاريخ، وتريه نماذج الثبات من الأنبياء، ثم تردّه إلى حقيقة المصير، حتى لا يبقى له بعد هذا البيان إلا أن يختار: أهو من أهل ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ أم من أهل ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾؟

الخريطة البنيوية لسورة الحج في هذا المقطع: من هول الساعة... إلى تمام الاستسلام لله

- الرجفة الأولى: البداية من زلزلةٍ تهزّ وهم الاستقرار: تفتتح السورة القلب بنداء التقوى لأن المصير ليس مؤجلاً كما يتوهم الناس، فـ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، والإنسان الذي لا يستيقظ على ذكر الآخرة يبني حياته فوق أرضٍ ستضطرب به يوماً لا محالة.

- انكشاف الهول: يومٌ تسقط فيه أقوى روابط الدنيا من شدته: ذهول المرضعة، ووضع الحامل حملها، ورؤية الناس كأنهم سكارى، كل ذلك يعلّم القلب أن الآخرة ليست فكرةً ذهنية، بل حقيقةٌ تخلع الإنسان من غروره وتكشف ضعفه الكامل أمام عذاب الله.
- جدالٌ بلا علم: حين يتحول العقل من أداة هداية إلى تابعٍ للشيطان بعض الناس لا يطلب الحقيقة، بل يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطانٍ مريد، فيكون الجهل هنا ليس فراغاً فقط، بل انقياداً واعياً لمصدر الضلال.
- برهان البعث من داخل الإنسان نفسه: انتقال الخلق من ترابٍ إلى نطفةٍ إلى علقةٍ إلى مضغة، ثم الطفولة، ثم القوة، ثم الضعف، مع مشهد الأرض الهامدة إذا أحياها الماء، كل ذلك يقول للقلب: الذي أوجدك أول مرة ويحيي الأرض بعد موتها قادرٌ على بعثك بلا ريب.
- أصل اليقين: لأن الله هو الحق: لا يقوم الإيمان بالبعث على مجرد الخوف، بل على معرفةٍ راسخة أن ﴿اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.
- الاستكبار المعاند: جدالٌ يُراد به الإضلال لا الفهم: حين يجادل الإنسان بغير علمٍ ولا هدى ولا كتابٍ منير، وهو ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾، فإن مشكلته لم تعد نقصَ الأدلة، بل كِبراً يمنعه من الخضوع للحق ويجعله يصدّ غيره عنه.
- العدل الإلهي: العذاب ثمرة العمل لا ظلمٌ من الله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ قاعدةٌ تردّ القلب إلى مسؤوليته؛ فالله لا يظلم أحداً، وإنما يجازي على ما كسب الإنسان واختار.
- العبادة الهشّة: أخطر ما يكشفه الابتلاء: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، أي على طرفٍ غير ثابت؛ يطمئن إذا أصابه خير، وينقلب إذا أصابته فتنة، فينكشف أن علاقته بالله كانت معلقة بالمصلحة لا بالتسليم.

- سقوط التعلّق بغير الله: من يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، لأن القلب إذا لم يعتصم بالقوي الحق تعلّق بالباطل العاجز، ثم خسر الدنيا والآخرة.
- الأمان الحقيقي لأهل الإيمان والعمل: في مقابل الاضطراب العقدي والعبادة المتقلّبة، يجيء وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجنات، ليقرر أن الطمأنينة الكبرى لا تُنال بالتردد، بل بثبات الإيمان والعمل.
- نصر الله لا يُعطّله كيد الحاسدين: من ظن أن الله لن ينصر رسوله أو دينه فليجرب كل ما يشاء من الحيلة، فلن يغيّر شيئاً؛ لأن ما يجري في الكون خاضعٌ لمشيئة الله لا لغيظ البشر.
- الآيات البيّنات والهداية من الله: الوحي واضح، لكن وضوح الآيات وحده لا يكفي من غير توفيق الله، ولذلك اجتمع البيان الإلهي مع تقرير أن الله يهدي من يريد.
- الفصل المؤجل بين الملل ليس ضياعاً للحق: اختلاف الناس في الأديان لا يعني أن الحقيقة تاهت، بل يعني أن الفصل الكامل مؤجلٌ إلى يوم القيامة حيث يشهد الله على كل شيء ويحكم بين الجميع.
- السجود قانون الكون... والمخالفة شذوذ الإنسان: كل ما في السماوات والأرض في عبوديةٍ لله على ما أراد، وكثيرٌ من الناس أيضاً، لكن كثيراً حق عليه العذاب، فكأن السورة تقول: المشكلة ليست في الكون، بل في قلب الإنسان حين يخرج عن نظام العبودية.
- الخصومة الكبرى: الإيمان والكفر ليسا رأيين متجاورين بل مصيران متقابلان منازعة الناس في ربهم تنتهي إلى انقسامٍ واضح بين أهل النار وأهل الجنة، فلا تمييع هنا للفارق بين من آمن ومن كفر.
- تفصيل العذاب: حتى لا يبقى للغافل خيالٌ مريح: الثياب من نار، والحميم،

وصهر البطون والجلود، والمقامع من حديد، والردّ إلى العذاب كلما أرادوا الخروج؛ تصويرٌ مقصوده أن يفيق القلب قبل أن يصير الخبر عياناً.

- تفصيل النعيم: هدايةٌ في الدنيا وثمرةٌ في الآخرة: الجنان، والحلي، والحرير، ثم قبل ذلك وبعده ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾، فكأن الجنة ثمرةُ هدايةٍ سابقة لا مفاجأةٌ بلا مقدمات.
- حرمة البيت: الصدّ عنه جريمةٌ في أصل الطريق إلى الله: لأن المسجد الحرام جعله الله للناس سواء، كان الصدّ عنه والإلحاد فيه ظلماً باباً من أبواب العذاب الأليم.
- إبراهيم والبيت: أول قاعدة في هذا المقام هي التوحيد: قبل كل شعيرةٍ جاء الأمر: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾، ليُفهم أن البيت لا يُبنى على الحركة الظاهرة وحدها، بل على صفاء التوحيد أولاً.
- الحج نداءٌ جامعٌ للأبدان والقلوب: يأتون من كل فجٍّ عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله، فالحج ليس رحلة انتقالٍ مكاني فقط، بل استجابةٌ لنداء التوحيد عبر الزمان.
- المناسك ليست طقوساً صامتة بل عبوديةٌ حيّة: قضاء التفث، والوفاء بالنذور، والطواف بالبيت العتيق، كلها أعمالٌ تُقرأ في ضوء تعظيم حرمات الله لا في ضوء العادة أو المظهر.
- اجتناب الأوثان والزور: حمايةٌ لباطن العبادة: لا يكفي أن تؤدى الشعائر، بل لا بد أن يصان القلب واللسان من الرجس ومن قول الزور، لأن العبادة الظاهرة تفسد إذا تلوث أصلها في الداخل.
- الشرك سقوطٌ لا مجرد خطأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾، تصويرٌ يرسم أن الشرك ليس انحرافاً بسيطاً، بل انهيارٌ كامل يفقد معه القلب موضعه ومركزه وأمانه.

- تعظيم الشعائر عنوانُ حياة القلب: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، فالقيمة ليست في كثرة الحركة، بل في القلب الذي يعظّم ما عظّمه الله لأنه يعرف مَن هو الله.
- وحدة المناسك عبر الأمم وأصلها الواحد: تعددت المناسك، لكن الغاية واحدة: ذكر اسم الله، ولذلك جاءت القاعدة الجامعة: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾.
- المخبتون: الصورة الداخلية للعبد المستسلم: وجَلُ القلب عند ذكر الله، والصبر على ما أصاب، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزق الله؛ هذه ليست أعمالاً متفرقة، بل ملامح قلبٍ خاشعٍ ثابت.
- البدن والذبائح: الله يريد التقوى لا الصور: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، فجوهر الشعيرة ما تحمله من تعظيمٍ وامتثالٍ وشكر، لا مجرد مادتها الظاهرة.
- دفاع الله عن المؤمنين: الطمأنينة قبل الإذن بالقتال: قبل أن تتكلم السورة عن القتال، قررت أن الله يدافع عن الذين آمنوا، ليبقى أصل الاعتماد على الله لا على القوة وحدها.
- الإذن بالقتال: ليس عدواناً بل رفعاً للظلم وحفظاً للدين: أُذن للذين يُقاتَلون لأنهم ظُلموا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، فالمعركة هنا معركةُ حرية العبادة وصيانة مواضع ذكر الله.
- التمكين الصادق له علاماتُ عبودية لا مظاهرُ سيطرة: إذا مكّن الله قوماً حقاً أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر؛ فالتسلط ليس تمكيناً في منطق القرآن.
- سنة التكذيب: طريق الحق ليس جديداً في الابتلاء: تكذيب قوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم إبراهيم ولوط وأصحاب مدين وموسى يعلّم القلب أن مقاومة

الرسالة سنة قديمة، فلا يغترّ بقِدم الباطل ولا يستوحش من كثرة المكذبين.

- آثار الهلاك في الأرض مواعظُ قائمة: القرى الخاوية، والآبار المعطلة، والقصور المشيدة، كلها تقول إن القوة العمرانية بلا استقامة لا تمنع السقوط إذا جاء أمر الله.
- العبرة في القلب لا في العين: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، وهذه من أعظم قواعد السورة؛ فالمشكلة ليست نقص المشاهد، بل غياب البصيرة التي تفسرها.
- استعجال العذاب جهلٌ بسنن الله: لأن الله لا يخلف وعده، لكن توقيت الأخذ ليس تابعاً لاستفزاز المكذبين، بل لحكمته سبحانه، ويوم عنده كألف سنة مما نعدّ.
- وظيفة الرسول: النذارة الواضحة لا التحكم في المصائر: ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فالمطلوب من الرسول البلاغ، ومن الخلق الاستجابة، أما الحكم النهائي فإلى الله.
- الفتنة تكشف نوعين من القلوب: ما يلقيه الشيطان يكون فتنةً للمرضى والقاسية قلوبهم، بينما يكون سبباً لرسوخ الذين أوتوا العلم فيزدادوا إيماناً وتخبت قلوبهم، فليس كل اضطرابٍ خارجي شرّاً خالصاً؛ قد يكون كاشفاً لما في الداخل.
- المرية الممتدة تنتهي فجأة: يبقى الكافرون في شكهم حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يومٍ عقيم، ليعلم القلب أن الإمهال لا يساوي الأمان.
- الملك يومئذٍ لله: انكشاف الحقيقة التي كانت تحجبها الدنيا حين يسقط كل سلطانٍ موهوم يظهر أن الحكم كله لله، وهناك يتبين الفرق الكامل بين جنات النعيم والعذاب المهين.
- الهجرة والموت في سبيل الله لا يضيعان: من هاجر في سبيل الله ثم قُتل أو

مات فله رزقٌ حسن ومدخلٌ يرضاه، لأن الله لا ينظر إلى ظاهر النهاية فقط، بل إلى جهة السير والنِّيَّة والصبر.

- النصر مع العدل لا مع الفوضى: من عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغي عليه فلينتظر نصر الله، فالسورة تربط النصرة بالحق والانضباط لا بالانتقام المنفلت.
- ربوبية الله في الكون دليلٌ على استحقاقه للعبادة وحده: إيلاج الليل في النهار، ونزول الماء، وإخضرار الأرض، وتسخير ما في الأرض، والفلك، وإمساك السماء، والإحياء والإماتة والإحياء بعد الموت... كلها شواهد متتابعة على أن الله هو الحق وما يدعون من دونه هو الباطل.
- النعم لا تكفي وحدها إذا بقي القلب كفوراً: مع هذا التسخير كله يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾، لأن المشكلة ليست في قلة الإحسان الإلهي، بل في قلة الشكر البشري.
- لا تنازع في أصل الدعوة: ادعُ إلى ربك: تعدد المناسك لا يبرر منازعة أهل الباطل في أصل الهدى، فالرسول على هدى مستقيم، والاختلاف النهائي يحسمه الله يوم القيامة.
- العبادة بلا سلطانٍ من الله هي ظلمٌ محض: من عبد ما لم ينزل الله به سلطاناً وما ليس له به علم فقد جمع بين الجهل والظلم، ولذلك لا ناصر للظالمين.
- وجوه المنكر: رفض الحق قد يبلغ حدَّ العنف: حين تتلى الآيات البيّنات تكاد وجوه الكافرين تسطو على أهل الإيمان، وهذا يكشف أن الباطل إذا عجز عن الحجة كثيراً ما ينتقل إلى البطش.
- مثل الذباب: انهيار هيبة المعبودات الباطلة: إذا كانت هذه المعبودات لا تخلق ذباباً، ولا تستنقذ ما سلبه الذباب منها، فكيف تُعبد؟ ولهذا جاء الحكم الجامع: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

- أصل الانحراف كلّه: سوء تقدير الله: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، فمن لم يعرف عظمة الله، ولا كمال قوته، ولا عزته، لم يستقم له توحيدٌ ولا خضوعٌ ولا تعظيم.
- الاصطفاء والرجوع إلى الله: مركزية الأمر الإلهي: الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، وهو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وإليه ترجع الأمور، فكل حركة الرسالة والخلق تعود إلى تدبيره وعلمه.
- النداء الأخير للمؤمنين: ترجمة العقيدة إلى هيئة حياة: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾، فالإيمان لا يبقى نظرية، بل ينزل في الصلاة والعبادة وفعل الخير.
- الجهاد الحق: شرف الاجتباء مع رفع الحرج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾، فالتكليف هنا ليس إعناتاً، بل اصطفاءٌ في دينٍ ما جعل الله فيه من حرج، وعلى ملة إبراهيم.
- هوية الأمة: المسلمون الشهداء على الناس: سمّاكم الله المسلمين لتكونوا أمةَ شهادة، يشهد عليكم الرسول، وتشهدون على الناس، فلا يليق بهذه الهوية أن تُفرغ من معناها العملي.
- خاتمة الطريق: الاعتصام بالله وحده: بعد كل مشاهد الساعة، والبعث، والجدل، والمناسك، والقتال، والتمكين، تعود السورة إلى الأصل الجامع: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، فهذه هي الخلاصة التي يثبت بها القلب ويصح بها السير.
- الخلاصة البنيوية الجامعة لسورة الحج: هذه الآيات تبني الإنسان على طريقٍ كامل: توقظه من غفلة الدنيا بهول الساعة، وتثبّت يقينه بالبعث من خلقه وخلق الأرض، وتكشف اضطراب الجدل والعبادة الهشّة، ثم تردّه إلى التوحيد في البيت والشعائر والمناسك، ثم تبني فيه التقوى والإخبات والصبر،

ثم تعلّمه أن الدفاع عن الدين والتمكين فيه جزءٌ من العبودية لا منفصلٌ عنها، ثم تريه سنن الهلاك والفتنة والاصطفاء، حتى تنتهي الرحلة كلّها إلى عبدٍ يعرف أن ﴿اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، وأن ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾، وأن النجاة كل النجاة في أن يُسلِم لله، ويعتصم به، ويجاهد في سبيله، ويثبت حتى يلقى مولاه.

المحور الإيماني المركزي للجزء السابع عشر هو...

أن القلب لا يثبت عند اقتراب الحساب، ولا ينجو عند الفتنة، ولا يحسن السير في الدنيا والآخرة، إلا إذا استقر فيه توحيد الله استقراراً يورث العبودية الصادقة، والخضوع العملي، والثبات تحت الابتلاء.

فهذا الجزء يفتح عليك الباب من جهة المصير القريب: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، ثم يهزك من جهة هول الآخرة: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، ليقول لك من أول الطريق: لا مجال للهو ولا للغفلة ولا للعبادة الهشة في عالمٍ يتجه كله إلى الله.

ثم يبني هذا المعنى على أصل الرسالات كلها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، ويعيد تقريره في الحج بصيغةٍ عملية جامعة: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾، ثم يختمه في الأنبياء بخلاصة الرسالة كلها: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

فالقضية في هذا الجزء ليست مجرد معرفةٍ نظرية أن الله واحد، بل أن يصير هذا التوحيد ميزاناً يفضح الباطل، ويهدم الشرك، ويكشف زيف الآلهة، ويعلّم القلب ألا يتعلق إلا بالله، وألا يخاف إلا منه، وألا يرجو على الحقيقة سواه؛ ولذلك جاءت براهين الخلق، والبعث، وتسخير الكون، وسجود المخلوقات، وهلاك الأمم، ونجاة الأنبياء، لتصب كلها في نهرٍ واحد :أن الله هو الحق، وأن ما يُعبد من دونه هو الباطل، وأن العاقبة لعباده الصالحين.

ثم ينقلك الجزء من مقام التقرير إلى مقام الامتحان، فيريك أن التوحيد الصادق لا يظهر فقط في الجدل والبيان، بل يظهر حين يُفتن العبد في الخير والشر، وحين يواجه الأذى، وحين يدخل إلى شعائر الله، وحين يهاجر، وحين يجاهد، وحين يصبر، وحين يعتصم بالله وحده؛ فليس الإيمان هنا خاطراً عابراً، بل بناءٌ كامل لإنسانٍ يعرف ربه، ويثبت لأمره، ويخبت له قلبه، ويعبده في السراء والضراء، حتى يبلغ خاتمة الجزء وهو موقن أن النجاة كل النجاة في هذا الأصل الجامع: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

أخطر الانحرافات التي يحذِّر منها الجزء السابع عشر

❖ الانحراف العقدي

١) الشرك بالله واتخاذ آلهة من دونه: أخطر ما يفسد الدين أن يختل توحيد القلب فيُجعل مع الله معبود أو ملجأ أو رجاء، ولهذا يقرر القرآن قاعدة الوجود: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ليهدم كل تصور يجعل للكون ربّاً غير الله.

٢) القول على الله بغير علم واتهام الوحي: حين يواجه الناس الحق قد يفرّون إلى التشكيك في الوحي واتهامه بأنه حلم أو شعر أو افتراء كما قالوا: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وهذا الانحراف يهدم أصل الهداية لأنه يقطع الطريق بين الإنسان وكلام ربه.

٣) الاعتقاد الباطل في الملائكة ونسبة الولد إلى الله: من الانحراف العقدي نسبة البنوة إلى الله أو رفع المخلوقين إلى مقام الألوهية، فجاء التصحيح الحاسم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ليعيد المخلوق إلى مقام العبودية.

٤) إنكار البعث والحساب: القرآن في هذا الجزء يهدم وهم الذين يشكون في القيامة، ويعيدهم إلى أصل الخلق الأول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ

مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ لأن إنكار الآخرة يفتح باب الفساد كله.

❖ الانحراف الأخلاقي

١) الاستهزاء بالدين وأهله: من أخطر الانحرافات الأخلاقية أن يتحول الحق إلى مادة سخرية في أعين الناس، كما وقع للمكذبين: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ لأن السخرية تغلق القلب أمام الهداية.

٢) قول الزور والباطل: اللسان قد يكون باب الانحراف الكبير إذا امتلأ بالكذب والباطل، ولذلك جاء الأمر الحاسم: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ليطهّر اللسان كما يُطهَّر الاعتقاد.

٣) الخيانة والكفران لنعم الله: القلب الذي ينسى فضل الله ويقابل النعم بالجحود يسقط أخلاقياً قبل أن يسقط عقدياً، ولهذا جاء التحذير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ لأن الخيانة تبدأ في القلب قبل أن تظهر في السلوك.

٤) القسوة التي تقتل الرحمة: القلب إذا قسا لم يعد ينتفع بالآيات ولا بالمواعظ، فيصبح الحق ثقيلاً عليه، ولهذا كشف القرآن أصل البلاء: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

❖ الانحراف الاجتماعي

١) اتباع التقليد الأعمى للآباء: المجتمع قد يستمر في الباطل فقط لأنه موروث، كما قال قوم إبراهيم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ فتصبح العادة أقوى من الحقيقة.

٢) الظلم الذي يهلك الأمم: حين يتحول الظلم إلى نظام حياة فإن النهاية

تكون حتمية، ولذلك يعرض القرآن مصير القرى الظالمة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ ليبين أن الظلم الاجتماعي طريق السقوط الحضاري.

٣) الصد عن سبيل الله وإفساد بيوت العبادة: من أخطر الانحرافات أن يمنع الناس من طريق الله أو من بيوت عبادته، فجاء التحذير الشديد: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لأن ذلك عدوان على الهداية نفسها.

٤) تمزيق الأمة وتفريق الدين: حين تتحول الأمة إلى جماعات متنازعة تضيع الرسالة التي جمعتها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾.

❖ الانحراف النفسي

١) الغفلة عن المصير: أخطر انحراف نفسي أن يعيش الإنسان وكأن الحساب بعيد، ولذلك افتتح الجزء بالإنذار: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

٢) التدين الهش المرتبط بالمصالح: بعض الناس يعبد الله ما دام الخير حاضراً فإذا جاءت الفتنة انقلب، وهذه صورة الانحراف النفسي الخطير: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾.

٣) الاستعجال وقلة الصبر: الإنسان بطبعه عجول يريد النتائج فوراً، لكن هذا العجل قد يقوده إلى الاعتراض أو الشك، ولهذا قال: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

٤) العمى القلبي رغم وضوح الحق: قد ترى العين الآيات لكن القلب لا يبصرها، لأن المشكلة ليست في البصر بل في الداخل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

الملامح الشخصية التي يصنعها الجزء السابع عشر

- يصنع هذا الجزء في القلب إنساناً يقظاً يعيش على وعيٍ دائمٍ بقرب الحساب، فلا يسمح للغفلة أن تستقر في روحه، ولا للهو أن يسرق عمره؛ لأن أول ما يهزه القرآن أن الزمن ليس مفتوحاً كما يتوهم الناس، بل هو طريق قصير يسير إلى وقفة عظيمة بين يدي الله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، فينشأ في داخله شعور المراقبة والاستعداد، ويصبح قلبه أصدق حضوراً مع الله وأبعد عن حياة اللعب واللهو التي تبتلع أعمار الغافلين.
- ويصنع فيه أيضاً إنسان التوحيد الصافي الذي يرى الكون كله قائماً على ربوبية الله ووحدانيته، فلا يتعلق قلبه بغيره، ولا يخضع لغير سلطانه، ولا يرى النجاة إلا في عبوديته وحده؛ لأن الرسالات كلها جاءت بهذا الأصل الجامع: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، فيتربى القلب على أن العبادة ليست طقوساً منفصلة عن الحياة، بل هي الاتجاه الكامل لله في الاعتقاد والخوف والرجاء والطاعة.
- ويصنع فيه إنسان اليقين الذي ينظر إلى الكون فيراه آيةً مفتوحة على عظمة الله وقدرته، فيرى خلق السماوات والأرض، وتسخير الليل والنهار، وإحياء الأرض بعد موتها، فيزداد يقينه أن الله هو الحق وأن وعده لا يتخلف، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، فيتحول الإيمان عنده من فكرة عقلية إلى يقين حيٍّ يسكن القلب ويوجه الحياة.
- ويصنع كذلك إنسان الثبات أمام الفتن والابتلاءات؛ لأن هذا الجزء يعرض نماذج الأنبياء الذين ثبتوا في أشد المواقف: إبراهيم حين واجه قومه وأصنامهم، ونوح حين صبر على تكذيب قومه، وأيوب حين نزل به البلاء، ويونس حين رجع إلى ربه في ظلمات الكرب، فيتربى القلب على أن الطريق

إلى الله لا يخلو من امتحان، وأن النجاة فيه ليست لمن لم يبتلَ، بل لمن ثبت ولجأ إلى ربه.

- ويصنع فيه إنسان العبودية الخاشعة الذي يعيش مع الله قلباً وسلوكاً، فتتحول العبادة عنده إلى حياة كاملة من الخضوع والخشية والرجاء، كما وصف القرآن عباد الله الصادقين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، فيصبح العمل الصالح عنده تعبيراً عن محبة الله وتعظيمه لا مجرد أداء واجب.
- ويصنع فيه أيضاً إنسان الشعائر والتقوى الذي يفهم أن العبادة الظاهرة لا قيمة لها إذا لم تثمر تقوى في القلب، ولذلك يقرر القرآن قاعدة عظيمة في ميزان القرب من الله: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾، فيتعلم المؤمن أن المقصود من كل شعيرة هو إصلاح القلب وتعظيم الله.
- ويصنع فيه إنسان الصبر والجهاد في سبيل الحق الذي لا ينهزم أمام الظلم ولا يتراجع أمام الأذى، لأنه يعلم أن الله يدافع عن عباده وأن العاقبة للمتقين، وأن التمكين الحقيقي ليس سلطةً دنيوية بل قيامٌ بالعبودية وإصلاحٌ للأرض كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾.
- وفي النهاية يصنع هذا الجزء إنسان الاعتصام بالله الذي يعرف أن طريق النجاة كله في الالتجاء إلى الله وحده، فلا يتكل على قوةٍ ولا على الناس، بل يجعل ثقته كلها بالله الذي بيده الملك كله، حتى يصل القلب إلى خاتمة المعنى الذي يجمع الرسالة كلها: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

أمراض القلوب التي يعالجها الجزء السابع عشر

❖ أولاً: أمراض العلاقة بالله (الخلل العقدي)

١) داء الشرك وتعلّق القلب بغير الله: حين يضعف التوحيد في القلب يبدأ الإنسان في البحث عن ملجأٍ أو قوةٍ أو نفعٍ عند غير الله، فيعيد القرآن بناء العقيدة من أصلها ويهدم كل شريكٍ مزعوم بقاعدة كونية حاسمة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، ليعود القلب إلى يقين أن الرب واحد وأن العبادة لا تكون إلا له.

٢) إنكار البعث أو الشك في الآخرة: القلوب حين تنسى المصير يسهل عليها الظلم والغفلة، ولذلك يوقظ القرآن هذا المرض بإحياء اليقين بالقيامة من خلال أصل الخلق الأول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾، فيربط القلب بالبداية ليؤمن بالنهاية.

٣) سوء تقدير الله وضعف تعظيمه: من أمراض القلوب أن يعيش الإنسان في الكون دون أن يعرف قدر خالقه، فيرى النعم والآيات ولا يخشع قلبه، ولذلك يفضح القرآن هذا المرض بكلمة جامعة تهز الوعي: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، ليعيد للقلب هيبة الرب وعظمة الألوهية.

❖ ثانياً: أمراض النِّيَّة والعبودية

١) التدين الهش المرتبط بالمصلحة: قد يعبد الإنسان الله ما دام الخير حاضراً، فإذا جاءت الشدة انقلب على عقبيه، وهذا مرض عميق في صدق العبودية يكشفه القرآن بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾، فيعيد بناء القلب ليعبد الله في السراء والضراء.

٢) الانشغال بالظاهر دون إصلاح القلب: قد يؤدي الإنسان الشعائر ويظن أنه بلغ غاية العبادة بينما قلبه خالٍ من التقوى، فيصحح القرآن هذا الخلل

ويبين أن الله لا ينظر إلى المظاهر بل إلى القلوب: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾.

٣) الانقطاع عن روح العبادة والخشوع: القلب إذا فقد الخشوع تحولت العبادة إلى عادة جافة، ولذلك يعرض القرآن نموذج العبودية الحية في أنبيائه وأوليائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

❖ ثالثاً: أمراض الموقف الأخلاقي

١) الاستهزاء بالحق وأهله: حين يفسد القلب قد يتحول الدين في عينيه إلى مادة سخرية، فيكشف القرآن هذا الانحراف الأخلاقي الذي يطفئ نور الهداية: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾، لأن السخرية من الحق باب الانغلاق عن الحق.

٢) اتباع التقليد الأعمى: من أمراض القلوب أن يترك الإنسان عقله ووحي ربه ليتبع ما وجد عليه الناس، كما فعل قوم إبراهيم حين قالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، فيعيد القرآن بناء العقل على أساس الحجة لا العادة.

٣) الظلم الذي يهدم المجتمعات: حين ينتشر الظلم يتحول المجتمع كله إلى بيئة للفساد، ولهذا يعرض القرآن مصير الأمم الظالمة ليكون ذلك دواءً للغرور البشري: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾.

❖ رابعاً: أمراض الثبات أمام الابتلاء

١) الغفلة عن حقيقة الامتحان في الحياة: الإنسان قد يظن أن الحياة طريق راحة لا اختبار، فيصحح القرآن هذا الوهم ويقرر أن الخير والشر كلاهما امتحان: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، ليبني في القلب فقه الابتلاء.

٢) الجزع عند الشدة وفقدان الصبر: حين ينزل البلاء قد يضعف القلب ويظن أن الله تركه، فيعرض القرآن نماذج الأنبياء الذين ثبتوا حتى جاءت النجاة، مثل دعاء يونس في الظلمات: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ليعلّم القلب طريق العودة إلى الله.

٣) العجلة وقلة الصبر على سنن الله: كثير من القلوب تريد النتائج قبل أن تتم سنن الله في الكون، فيذكّر القرآن بطبيعة الإنسان العجولة: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، ليعلم المؤمن أن الثبات طريق النصر.

وهكذا يعالج هذا الجزء أمراض القلب من جذورها: فيصحح العلاقة بالله بالتوحيد، ويطهّر النِّيَّة والعبودية بالتقوى، ويقوّم الموقف الأخلاقي بالحق والعدل، ويبني الثبات عند الابتلاء باليقين والصبر؛ حتى يخرج من بين آياته إنسانٌ موحِّدٌ خاشعٌ ثابتٌ يعرف ربه ويثبت على طريقه حتى يلقاه.

اختبارٌ ذاتيٌّ عميق: أسئلةُ مواجهةٍ لا معلومات للجزء السابع عشر

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

١) هل أقرأ افتتاح الجزء: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فأشعر أن الآية تخاطبني أنا، أم ما زلت أتعامل مع الحساب كأنه خبرٌ يخصّ الآخرين أكثر مما يخصّني؟ وهل في يومي ما يدل على أنني أعيش على وعيٍ بالمصير، أم أن نمط حياتي يكشف أن الغفلة ما زالت أقوى من الاستعداد؟

٢) هل إذا سُمعت آيات الله عليّ كنت من أهل التلقي والخشوع، أم أن فيّ شيئاً من وصف: ﴿اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؟ وهل صرت أستهلك القرآن سماعاً ومطالعةً دون أن أسمح له أن يراجعني ويكسر أوهامي ويعيد ترتيب قلبي؟

٣) هل أنا من الذين وحّدوا الله حقّاً في خوفهم ورجائهم وتعلّقهم، أم أن في قلبي بقية اعتمادٍ على الأسباب والناس والصور والمكانات؟ وهل أقول

بلساني إن الله واحد، ثم أرتب قلبي عمليّاً على أن النجاة والرفع والستر بيد غيره؟.

٤) هل أنا من الذين يعبدون الله على ثباتٍ وتسليم، أم أن إيماني يتحسن حين تأتي النعمة ويضطرب حين تأتي الفتنة؟ وهل ينطبق عليّ شيءٌ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ فأكون مستقيماً ما دامت الحياة تمشي كما أحب؟

٥) هل أنا من المخبتين الذين قال الله فيهم: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، أم أن في داخلي اعتراضاً خفيّاً على بعض أقداره وأحكامه؟ وهل يظهر على قلبي إذا ذُكر الله وجَلٌ وخضوع، أم يغلب عليه الاعتياد والبرود وتبلّد الاستجابة؟

٦) هل أنا من الذين يحملون أمانة الشهادة على الناس كما ختمت السورة: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؟ وهل في سلوكي ما يشرّف هذه النسبة إلى الإسلام، أم أنني أطلب من الدين أن ينجيني فرداً دون أن أعيش مسؤوليته في الأرض؟

❖ أين انكشف قلبي؟

١) انكشف قلبي عند آيات الغفلة إن كنت أؤجل التوبة والمراجعة وأتصرف كأن العمر طويل، مع أن الجزء كله يطرق بابي من جهة اقتراب الحساب وهول الساعة... فإن كنت أؤخّر الحق الواضح لأن الوقت ما زال مفتوحاً في ظني، فقد انكشف فيّ داء التسويف لا داء الجهل فقط.

٢) انكشف قلبي عند آيات التوحيد إن كنت أرفض الشرك النظري، لكني أرتب مشاعري ومخاوفي وقراراتي على رضا الناس أو على أسباب الدنيا أكثر من اعتمادي على الله... فالتوحيد لا يُكشف في الكلمات الكبيرة فقط،

بل في لحظة الخوف، ولحظة الاحتياج، ولحظة الضعف: إلى من يفزع القلب أولاً؟

٣) انكشف قلبي عند قصة إبراهيم عليه السَّلام إن كنت أعرف ضعف الباطل، لكنني ما زلت أهابه، وأعرف وهن الأصنام المعاصرة، لكنني لا أملك شجاعة خلعها من حياتي... فربّ صنمٍ اليوم ليس حجراً، بل عادة، أو صورة، أو مكانة، أو خوفٌ من خسارة الناس، أو تعلّقٌ بما لا ينفع ولا يضر.

٤) انكشف قلبي عند قصص الأنبياء إن كنت أُعجب بصبرهم وثباتهم، ثم أجزع من أول تأخرٍ في الفرج أو أول ابتلاءٍ في الطريق... فمن السهل أن نمجّد أيوب ويونس وزكريا بألسنتنا، لكن السؤال: هل فينا شيء من طريقتهم في اللجوء إلى الله حين تضيق الأسباب؟

٥) انكشف قلبي عند آيات الحج والشعائر إن كنت أعتني بصورة العبادة أكثر من حقيقتها، وأهتم بالظاهر أكثر من التقوى التي وراءه.. فالآية التي تقول: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ تفضح كل قلبٍ انشغل بالشكل وترك الجوهر.

٦) انكشف قلبي عند آيات القتال والتمكين إن كنت أحب النصر من حيث صورته، ولا أحب تكاليفه من حيث العبادة والإصلاح والاستقامة... فالتمكين في القرآن ليس توسعاً ولا نفوذاً مجرداً، بل: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

❖ أي آية أربكتني؟

١) هل أربكتني آية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ لأنني كنت أظن أن البلاء في الشر فقط، ولم أكن أرى أن النعمة نفسها

امتحان؟.. وهل راجعت نفسي في الخير الذي عندي: هل قرّبني من الله أم جعلني أكثر غفلةً واعتماداً على الدنيا؟.

٢) هل أربكتني آية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ لأنني رأيت فيها نفسي حين تتحسن عبادتي في الرخاء وتضطرب في الضيق؟.. وهل أملك شجاعة الاعتراف أن ثباتي مع الله لم يصل بعد إلى درجة العبودية الراسخة التي لا تقف على حافة المصلحة؟

٣) هل أربكتني آية: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ لأنني اكتشفت أن كثرة القراءة والسماع لا تعني بالضرورة أن القلب يبصر؟.. وهل صرت أخشى من العمى الداخلي أكثر من خوفي من قلة المعرفة الخارجية؟.

٤) هل أربكتني آية: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ لأنها لا تتكلم عن الكافرين وحدهم من جهة الأصل، بل تضع ميزاناً أراجع به قدر تعظيمي لله؟ فهل فعلاً أقدّر الله حق قدره حين أعصيه من أجل شهوة، أو أخاف المخلوق أكثر من الخالق، أو أقدّم هوى النفس على أمره؟

٥) هل أربكتني آية: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ لأنني رأيت كم صرنا بعيدين عن هذا الأصل، أفراداً وجماعات؟ وهل وحدتي الشخصية مع هذا الأصل محفوظة أصلاً، أم أنني أنا نفسي متقطع القلب بين ولاءاتٍ وشهواتٍ ومخاوف متفرقة؟

٦) هل أربكتني خاتمة الجزء: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ لأنني أدركت أن كثيراً من اضطرابي سببه أنني لم أعتصم بالله كما ينبغي؟ وهل تعلقي بالأسباب أخذ من قلبي مساحة الاعتصام، حتى صرت أرتب طمأنينتي على ما أملك لا على من أعبد؟

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) هل ما زلت أؤجل الخروج من الغفلة العملية؛ غفلة الهاتف، والانشغال، والتسويف، والتشاغل بما لا يبني الآخرة، مع أن مطلع الجزء ومفاصله كلها يوقظني إلى قرب المصير؟ فالتغيير المؤجل هنا ليس أمراً ثانوياً، بل قد يكون الفارق بين قلبٍ استيقظ وقلبٍ باغتته النهاية وهو ما يزال منشغلاً باللعب.

٢) هل أؤجل تصحيح توحيدي العملي؛ فأترك في قلبي مساحة لتعظيم غير الله، أو لتعلّقٍ يزاحم الاعتماد عليه، أو لخوفٍ من الخلق يضعف استقامتي؟ فهذا الجزء لا يطلب مني أن أقول التوحيد فقط، بل أن أعيشه حتى في قراراتي الدقيقة ومواطن ضعفي.

٣) هل أؤجل كسر صنمٍ معاصرٍ في حياتي أعرف أنه يستهلك قلبي، لكنه ما زال قائماً لأنني لم أحسم أمري معه بعد؟ وقد يكون هذا الصنم عادةً سرية، أو إدماناً على القبول، أو تعلقاً بصورةٍ عن نفسي، أو انبهاراً بالدنيا يسرق من قلبي مقام العبودية.

٤) هل أؤجل الانتقال من العبادة الموسمية إلى العبادة الثابتة؛ فأُقبل إذا جاءت الأجواء، وأفتر إذا غابت، وأتحمس إذا وجدت ما يوافق مزاجي، وأضعف إذا حضرت الكلفة؟ فهنا يعالجني الجزء من مرض ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ إلى مقام الإسلام والاستسلام والثبات.

٥) هل أؤجل إصلاح لساني من الزور أو المبالغة أو التلوّن أو ما لا يليق، مع أن الجزء جمع بين اجتناب الأوثان واجتناب قول الزور في سياقٍ واحد؟ وهذا يعلمني أن فساد اللسان ليس تفصيلاً أخلاقياً صغيراً، بل قرينُ فسادٍ أعمق إذا تُرك دون مجاهدة.

٦) هل أؤجل الاعتصام الحقيقي بالله، فأعيش القلق والاضطراب وكأن الوعد الأخير في الجزء لم يُخاطبني بعد: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾؟ فربما كان أكثر ما أؤجله هو أبسط ما أحتاجه: أن أرجع إلى الله رجوعاً صادقاً، لا رجوع فكرةٍ جميلة بل رجوع تسليمٍ واعتمادٍ وصدق.

خطة التغيير: طريقٌ قصير... لكنه صريح من هدي الجزء السابع عشر

١) ابدأ بإيقاظ القلب من الغفلة: لا تغيير حقيقي يبدأ ما لم يستيقظ القلب أولاً من وهم طول الأمل، فذكّر نفسك كل يوم بأن المصير قريب وأن الحياة ليست ساحة لعبٍ طويلة بل طريق قصير إلى لقاء الله، واستحضر دائماً إنذار القرآن: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

٢) صحّح التوحيد قبل إصلاح التفاصيل: لا تنشغل بتزيين الأعمال قبل تثبيت أصلها؛ فالقلب الذي لم يستقر فيه توحيد الله سيبقى مضطرباً مهما كثرت طاعاته، لذلك ارجع دائماً إلى هذا الأصل الذي قامت عليه الرسالات كلها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

٣) اقطع التعلّق بغير الله: راجع خوفك ورجاءك واعتمادك؛ فإن وجدت قلبك يتكئ على الناس أو الأسباب أكثر مما يتكئ على الله فاعلم أن في التوحيد خللاً يحتاج إصلاحاً، فالقلب لا يستقيم حتى يسلم كله لله وحده كما قال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾.

٤) انتقل من معرفة الحق إلى الشجاعة في اتباعه: المعرفة وحدها لا تغيّر الإنسان؛ فقد يعرف المرء ضعف الباطل لكنه يهابه، ويعرف وضوح الحق لكنه يؤجله، فكن كإبراهيم حين واجه الأصنام ولم يرض أن يبقى الحق فكرةً في عقله دون أن يصبح موقفاً في حياته.

٥) تعلّم فقه الابتلاء مبكراً: لا تنتظر الشدة حتى تتعلم الصبر؛ فالحياة في أصلها

امتحان، والقرآن يضع القاعدة بوضوح: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، فدرّب قلبك على رؤية البلاء كجزء من طريق العبودية لا كحادثة طارئة خارجة عن المسار.

٦) ثبّت العبودية في الرخاء قبل الشدة: الإيمان الذي لا يعيش إلا في أوقات الراحة إيمان هش، ولذلك حذّر القرآن من التدين الذي يقف على الحافة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، فاجعل علاقتك بالله ثابتة في الرخاء حتى تقوى عند البلاء.

٧) أصلح القلب قبل أن تكثر من الشعائر: الشعائر عظيمة لكنها تفقد روحها إذا لم يسكنها قلبٌ متقٍ، ولذلك يضع القرآن الميزان الصادق للعبادة: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، فابدأ بإصلاح الداخل ليحيا الخارج.

٨) اربط حياتك بميراث الأنبياء: اقرأ قصصهم لا بوصفها تاريخاً بل بوصفها خريطة طريق؛ فنوح يعلّمك الصبر، وإبراهيم يعلّمك كسر الأصنام، وأيوب يعلّمك الثبات في البلاء، ويونس يعلّمك الرجوع إلى الله حين تضيق الدنيا.

٩) اجعل العبادة حركة حياة لا لحظة عبادة: القرآن يصف الصالحين بأنهم يعيشون العبادة في كل تفاصيل حياتهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، فاجعل الصلاة والذكر والعمل الصالح نسيج يومك كله لا لحظات متقطعة فيه.

١٠) أعد ترتيب مفهوم النصر في قلبك: النصر في القرآن ليس مجرد غلبةٍ ظاهرة، بل قيامٌ بالعبودية وإصلاحٌ للأرض؛ فالله يصف أهل التمكين بأنهم: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾، فابدأ بإصلاح نفسك قبل انتظار إصلاح العالم.

١١) تدرّب على الاعتصام بالله في كل شيء: كل طريق التغيير في النهاية يعود

إلى هذه الحقيقة الجامعة: أن القلب إذا اعتصم بالله هداه وثبّته وأعانه، ولذلك يختم القرآن الطريق بهذه الكلمة التي تختصر النجاة كلها: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

خاتمة وجدانية مزلزلة ــــ الجزء السابع عشر

هكذا ينتهي هذا الجزء وقد أخذ بيد القلب في رحلةٍ لا تتركه كما كان... بدأ بإنذارٍ يهزُّ الغافلين: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، وكأن القرآن يريد أن يكسر الوهم الأكبر الذي يعيش فيه الإنسان؛ وهم أن الوقت طويل، وأن الطريق ما زال واسعاً، وأن الحياة يمكن أن تستمر في اللهو والغفلة دون مراجعةٍ صادقة... ثم يمضي بك عبر آيات الكون، وقصص الأنبياء، ومشاهد القيامة، حتى تشعر أن الحياة كلها ليست إلا امتحاناً قصيراً في طريقٍ ينتهي بلقاء الله.

وفي أثناء هذه الرحلة يكشف لك القرآن أن القضية في النهاية ليست كثرة الأعمال، ولا وفرة المعرفة، ولا زخرف الشعائر... بل حقيقة القلب الذي يقف خلف كل ذلك؛ قلبٌ عرف ربَّه فوحده، وأدرك ضعفه فخضع له، وعلم أن النجاة ليست في الهروب من البلاء بل في الثبات مع الله حين يشتد الطريق.

ولهذا يعرض لك موكب الأنبياء لا ليقص عليك تاريخاً قديماً، بل ليقول لك إن الطريق الذي تسير فيه اليوم قد سار فيه قبلَك رجالٌ عرفوا ربهم، فثبتوا حين كذبهم الناس، وصبروا حين اشتد الأذى، ورجعوا إلى الله حين ضاقت بهم الأسباب... حتى صاروا أئمةً في العبودية لا لأنهم عاشوا حياة سهلة، بل لأنهم عاشوا حياةً صادقة مع الله.

ثم يفتح لك القرآن باب الحقيقة الكبرى: أن التوحيد ليس فكرةً تُقال، بل حياةٌ تُعاش... وأن العبودية ليست لحظة خشوع عابرة، بل اتجاه قلبٍ كاملٍ لله وحده؛ ولهذا يعود الجزء مراراً ليقرر الأصل الذي قامت عليه الرسالات كلها: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، وكأنه يقول للقلب:

إنَّ أصل الطريق كله يبدأ هنا... من هذه الكلمة التي تغيّر ميزان الحياة كلها.

ثم إذا ظن الإنسان أن الطريق قد استقام له، يضعه القرآن أمام الحقيقة التي لا مهرب منها: أن الحياة نفسها اختبار دائم، وأن الخير والشر كلاهما امتحان، وأن القلب لا يُعرف صدقه إلا حين تتبدل الأحوال وتضيق الأسباب: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾... فهناك فقط يظهر معدن الإيمان، وهناك فقط يتمايز الصادقون من المترددين.

وحين يصل القلب إلى نهاية هذا الجزء يكون قد تعلّم درساً لا يُنسى: أن أعظم ما يملكه الإنسان في هذه الحياة ليس قوته، ولا علمه، ولا مكانته... بل صلته بربه واعتصامه به؛ لأن الطريق مليء بالفتن، والقلوب ضعيفة، والدنيا متقلبة... فلا يثبت في هذا الطريق إلا من احتمى بالله واعتمد عليه.

ولهذا يختم القرآن الرحلة بكلمةٍ تجمع الطريق كله وتضع النجاة في عبارةٍ واحدة لا تحتمل التأويل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾... فإذا فهم القلب هذه الحقيقة، وعاشها، وسار بها في حياته... أدرك أن كل ما في الدنيا يتبدل ويزول، وأن الشيء الوحيد الذي لا يخذل صاحبه أبداً هو هذا الاعتصام الصادق بالله.

وهنا تنتهي آيات الجزء... لكن السؤال الحقيقي يبدأ الآن: هل خرج قلبك من هذه الرحلة كما دخلها؟ أم أن شيئاً في داخلك قد انكسر... وشيئاً آخر قد استيقظ... وبدأ طريق العودة إلى الله؟

روح الرسالة التربوية والعقدية في الجزء السابع عشر

١) استيقظ قبل أن يفاجئك الحساب: القرآن يبدأ هذا الجزء بصدمةٍ توقظ القلب من وهم طول الأمل؛ فالحياة ليست رحلة مفتوحة بل طريق قصير إلى وقفةٍ عظيمة بين يدي الله، ولذلك يأتي الإنذار الصريح: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ

﴿حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، ليعلّم المؤمن أن أخطر ما يفسد العمر ليس الذنب فقط بل الغفلة التي تؤجل التوبة وتؤخر الرجوع.

٢) أصل الطريق كله توحيد الله: كل قصص الأنبياء وكل الحجج الكونية في هذا الجزء تعود إلى أصلٍ واحد لا يتغير عبر الزمن: أن الله واحد وأن العبادة لا تكون إلا له، ولهذا جاءت القاعدة الجامعة للرسالات كلها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

٣) الباطل مهما بدا قوياً فهو هشّ: يعرض القرآن مواجهة إبراهيم للأصنام ليعلمك أن قوة الباطل ليست في حقيقته بل في خوف الناس منه؛ فإذا كُسر حاجز الوهم ظهر ضعفه سريعاً، ولهذا يهدم القرآن أساس الشرك بقاعدة عقلية واضحة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

٤) الكون كله شاهد على قدرة الله: لا يتركك القرآن مع الجدل النظري في العقيدة، بل يأخذك إلى آيات الخلق في السماء والأرض والحياة والماء ليقول للقلب: إن الذي خلق هذا كله قادر على بعثك ومحاسبتك، ولهذا يأتي التذكير بأصل الخلق ليقود إلى يقين البعث: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾.

٥) الحياة امتحان دائم لا استراحة طويلة: من أعظم الدروس التي يضعها الجزء أمام القلب أن الخير والشر كلاهما اختبار، وأن العبد لا يُعرف صدقه إلا حين تتبدل الأحوال، ولذلك يقرر القرآن قاعدة الابتلاء بوضوح: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

٦) الإيمان الحقيقي يظهر في الشدة لا في الكلام: قد يتكلم الإنسان كثيراً عن الإيمان لكنه يسقط عند أول فتنة، ولهذا يحذر القرآن من التدين الهش الذي يقف على حافة المصلحة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، ليعلّم القلب أن العبودية الصادقة ثابتة في الرخاء والبلاء.

٧) قصص الأنبياء خريطة طريق للمؤمنين: نوح يعلّمك الصبر الطويل، وإبراهيم يعلِّمك كسر الباطل، وأيوب يعلِّمك الثبات في البلاء، ويونس يعلّمك الرجوع إلى الله عند الضيق... فهذه القصص ليست تاريخاً يُروى بل مدرسة إيمانية تبني القلب ليعيش مع الله في كل حال.

٨) الشعائر ليست مظاهر بل طريق تقوى: يعلمك القرآن في سياق الحج أن العبادة ليست في صورتها الظاهرة بل في حقيقتها القلبية، ولذلك يضع الميزان الذي يصحح فهم العبادة: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

٩) التمكين الحقيقي هو إقامة الدين: حين يتحدث القرآن عن النصر والتمكين لا يربطه بالسيطرة الدنيوية وحدها، بل بظهور العبودية وإصلاح المجتمع، ولذلك يصف أهل التمكين بقوله: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

١٠) الاعتصام بالله هو طريق النجاة كله: بعد كل هذه الرحلة بين التوحيد والابتلاء والعبودية والشعائر يختم القرآن الطريق بحقيقة واحدة تختصر النجاة كلها: أن القلب إذا اعتصم بالله هداه وثبته وكفاه، ولذلك تأتي الخاتمة الجامعة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

الترابط بين الجزأين السادس عشر والسابع عشر

❖ الترابط الموضوعي بين الجزأين

الجزء السادس عشر يبني ميزان الفهم... والجزء السابع عشر يختبر هذا الميزان في ميدان الحياة..

١) في الجزء السادس عشر يتعلم القلب ألا يحكم على الأشياء بظاهرها فقط، كما في قصة موسى مع الخضر، وألا يُفتن بالتمكين والقوة كما في قصة ذي القرنين، وألا يغتر بالعمل إذا فسد أصله كما في خاتمة الكهف: ﴿فَمَن

كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾، ثم يأتي الجزء السابع عشر ليضع هذا كله في ساحة الامتحان العملي: اقتراب الحساب، هول الساعة، فتنة الشرك، ثبات الأنبياء، تعظيم الشعائر، والجهاد والاعتصام بالله.

٢) الجزء السادس عشر يعرّفك كيف يرى المؤمن الأقدار... والجزء السابع عشر يعلّمك كيف يعيش المؤمن داخل الفتن.. هناك تتربى على أن وراء الوقائع حكمةً إلهيةً قد تخفى، وأن ما تراه نقصاً قد يكون رحمة، وأن ما يبدو قسوة قد يكون لطفاً مستوراً، ثم هنا في الجزء السابع عشر تُنقل من فهم الحكمة إلى حمل التكليف؛ فتُطالَب أن تثبت للتوحيد، وأن تصبر عند البلاء، وأن تتحول من متأمل في سنن الله إلى عبدٍ يسير بها ويصبر عليها.

٣) الجزء السادس عشر ينتهي بالتحذير من حبوط العمل... والجزء السابع عشر يبدأ بفضح الغفلة التي تُفسد أصل العمل.. في الكهف يأتي السؤال المزلزل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾، ثم يقرر أن العمل قد يضيع إذا فسد التوحيد، ويأتي الجزء السابع عشر فيفتتح بمرضٍ أسبق من ذلك وأعمق: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، فكأن الجزء السابع عشر يضع يده على التربة التي ينبت فيها العمل الفاسد أصلاً: الغفلة، واللهو، والإعراض.

٤) الجزء السادس عشر يكثر فيه عرض النماذج الفردية المصطفاة... والجزء السابع عشر يوسّع الدائرة إلى بناء الأمة الشاهدة.. في مريم وطه والكهف ترى زكريا، ومريم، وإبراهيم، وموسى، وآدم، وذي القرنين، وكلهم نماذج فردية أو أسرية أو قيادية، ثم يأتي الجزء السابع عشر ليجمعها في رؤية أوسع: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، ثم يختم الحج بتكليف الأمة كلها: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

٥) الجزء السادس عشر يربط النجاة بالهداية والذكر والصلاة... والجزء السابع عشر ينقل ذلك إلى نظام حياة كامل.. في طه تتكرر معاني الذكر والصلاة وعدم الإعراض عن الذكر: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾، وفي مريم تُذم أمة أضاعت الصلاة واتّبعت الشهوات، ثم يأتي الجزء السابع عشر ليبني على هذا الأساس حياةً كاملة من الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعظيم الشعائر والجهاد والاعتصام بالله.

❖ الترابط العقدي بين الجزأين

التوحيد هو العمود الفقري في الجزأين معاً

١) الجزء السادس عشر يختم الكهف بقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، ويصرح في مريم: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، ويؤكد في طه: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، ثم يأتي الجزء السابع عشر ليكرّر المعنى نفسه في الأنبياء والحج: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، و﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾، فكأنَّ الجزأين ينسجان قلب المؤمن على كلمة التوحيد من جهات شتى.

٢) الجزء السادس عشر يهدم الشرك من جهة فساد القلب والعمل... والجزء السابع عشر يهدمه من جهة فساد الكون والعبادة والمصير.. في الكهف يظهر أن الشرك يُحبط العمل ولو بدا صالحاً في الظاهر، وفي مريم يُفضح كذب نسبة الولد إلى الرحمن، وفي طه يُسقط القرآن عبادة العجل، ثم يأتي الجزء السابع عشر ليضيف بعداً آخر: أن الشرك ليس فقط فساد عبادة، بل فساد تصور للوجود نفسه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

٣) الإيمان بالآخرة حاضر في الجزأين بوصفه ميزان التصحيح الأكبر الجزء السادس عشر مليء بمشاهد الحشر، والجزاء، وجهنم، والنجاة، وورود

النار، وبيان أن الساعة آتية لتجزى كل نفس بما تسعى، ثم يفتح الجزء السابع عشر على قرب الحساب وزلزلة الساعة وموازين القيامة والفزع الأكبر والملك يومئذ لله، فكأن الجزأين معاً يقطعان على القلب طريق التدين الأرضي الذي لا يصله بالآخرة.

٤) الرحمن في الجزأين ليس اسماً عاطفيّاً مجرداً... بل اسمٌ يجمع الرحمة والحق والهيبة.. في مريم يتكرر اسم الرحمن كثيراً في سياقات الرحمة والهداية والإنكار على من قال اتخذ الرحمن ولداً، وفي طه يأتي: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، ثم في الأنبياء والحج يستمر هذا التوازن؛ فالله رحمن رحيم، لكنه أيضاً رب الحساب، ورب الزلزلة، ورب العقوبة، ورب الفصل بين العباد، فتستقيم في القلب صورة الأسماء والصفات بلا انحرافٍ إلى تميعٍ ولا إلى قسوة.

٥) الوحي في الجزأين هو مصدر النجاة الوحيد... في طه: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، وفي الكهف ومريم يظهر إنكار المكذبين للآيات والرسل، ثم يأتي الجزء السابع عشر ليؤكد: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾، فالعقيدة في الجزأين قائمة على أن الهداية لا تُنال بالهوى، ولا بالتقليد، ولا بالجدل المجرد، بل بما ينزله الله من ذكر وهدى.

❖ الترابط البياني بين الجزأين

١) الجزء السادس عشر يختم بمشاهد فردية عميقة التأثير... والجزء السابع عشر يفتتح بمشاهد كونية جماعية مزلزلة

في آخر طه ترى مشهد آدم، والذكر، والمعيشة الضنك، والصلاة، والنظر إلى زهرة الدنيا، وفي مريم ترى مشاهد الحشر والورود والوفد، ثم يفتح الجزء السابع عشر مباشرة على مشهدٍ عام شامل: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾

و﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فكأن البيان ينتقل من معالجة القلب من الداخل إلى صدمه بمشهد القيامة من الخارج.

٢) في الجزأين تصعيدٌ بياني من الستر إلى الكشف.. في قصة الخضر كان ظاهر الحدث يستر باطن الحكمة، ثم كشف الله التأويل، وفي مريم وطه تُكشف حقائق عيسى وموسى وآدم والتوحيد، ثم في الجزء السابع عشر يبلغ البيان ذروة الكشف حين يُقال للناس: هذا حق الكون، وهذا مصير الباطل، وهذا مآل الشرك، وهذا هول الساعة، وكأن الأسلوب القرآني ينتقل من تعليمك ألّا تتعجل الحكم إلى كشف الحكم النهائي على الوجود كله.

٣) التكرار المقصود في النداءات والحقائق يربط الجزأين رباط تثبيتٍ لا مجرد إعادة.. في الجزء السادس عشر تتكرر معاني: الذكر، الهداية، العبادة، الساعة، الصبر، التوحيد، وفي الجزء السابع عشر تتكرر: الحساب، التوحيد، العبادة، البعث، الحق والباطل، فليس هذا تكرار ألفاظ، بل تثبيت معانٍ مركزية حتى تستقر في القلب وتتحول من فكرةٍ عابرة إلى يقينٍ راسخ.

٤) البيان في الجزأين يجمع بين البرهان العقلي والمشهد الحسي.. في السادس عشر ترى حججاً عقلية في التوحيد والبعث، وتجد في الوقت نفسه مشاهد حسية كالسفينة والجدار والعجل والسحرة، وفي السابع عشر تجد مثل ذلك: برهان فساد تعدد الآلهة، وبرهان الخلق والبعث، مع مشاهد النار، والجنات، والحج، والذبائح، والقتال، والزلزلة؛ فكأن القرآن يربي القلب والعقل معاً في نسيج واحد.

٥) خاتمة السادس عشر تمهّد لنبرة السابع عشر.. الجزء السادس عشر ينتهي بتحذيرٍ من الإعراض عن الذكر، وبأمرٍ بالصبر والتسبيح، ثم يُفتح الجزء السابع عشر بفضح الغفلة واللعب واللهو، فالنبرة البيانية واحدة: إن لم تستجب الآن للذكر الذي بين يديك، فسيأتيك يوم لا ينفع فيه الندم.

❖ الترابط الوجداني بين الجزأين

١) الجزء السادس عشر يربّي القلب على الثقة بالله في الغيب... والجزء السابع عشر يطالبه أن يثبت بهذه الثقة عند هول الواقع... هناك تتعلم من زكريا ومريم وموسى وآدم والخضر أن وراء أمر الله رحمة وحكمة وهداية، ثم هنا يقال لك: إذا كان ذلك قد استقر في قلبك، فاثبت الآن عند اقتراب الحساب، وعند الزلزلة، وعند الفتن، وعند الصدام مع الباطل.

٢) الجزء السادس عشر يواسي القلب المنكسر... والجزء السابع عشر يشحن القلب المجاهد.. في مريم تجد النداء الخفي، والوهن، والشيخوخة، والعقم، والمخاض، والغربة، والضعف، وفي طه تجد الخوف، والدعاء، وطلب الشرح والتيسير، ثم في الجزء السابع عشر ينتقل الوجدان من طور المواساة والتثبيت إلى طور الاستنفار: لا مجال للغفلة، لا مجال للتردد، الحساب قريب، والحق يجب أن يُعاش ويُحمل ويُثبت له.

٣) الجزء السادس عشر يوقظ الحياء من الله... والجزء السابع عشر يوقظ الخوف من الوقوف بين يديه.. في السادس عشر تشعر بقرب الله، وعلمه، ورحمته، وتوبته، وفضله على أنبيائه وأوليائه، وفي السابع عشر يشتد الشعور بالمهابة: الموازين، الحساب، النار، الزلزلة، الفزع الأكبر، والملك يومئذ لله، فتتوازن في القلب الرحمة والهيبة، والقرب والخشية.

٤) الجزء السادس عشر يعلّمك أن لا تُخدع بالمظاهر... والجزء السابع عشر يعلّمك أن لا تُخدع بالواقع المؤقت.. هناك لا تحكم على السفينة، والغلام، والجدار من ظاهرها، ولا تغتر بقول الكافرين في المقام والندي، ولا بمالهم وولدهم، ثم هنا لا تغتر بامتداد العمر، ولا بتمتع الأمم، ولا بهيبة الشرك، ولا بقوة الباطل، لأن القرآن في الجزأين جميعاً يدرّب وجدان المؤمن على رؤية الحقيقة لا السطح.

٥) الجزء السادس عشر ينتهي بنداءٍ ضمني إلى الصدق الفردي... والجزء السابع عشر يفتحه على المسؤولية الجماعية... في السادس عشر يكثر سؤال القلب: هل أنا صادق؟ هل عملي خالص؟ هل أنا مع الذكر أم مع الإعراض؟ ثم في السابع عشر يتوسع الوجدان: هل أنا مع أمةٍ واحدة تعبد رباً واحداً؟ هل أنا من الشهداء على الناس؟ هل أنا ممن يعظم شعائر الله؟ هل أنا ممن يعتصمون بالله؟ فكأن الانتقال الوجداني من تهذيب النفس إلى حمل الرسالة.

٦) كلا الجزأين يصنعان قلباً لا يعيش بين الخوف والرجاء نظرياً... بل واقعياً في السادس عشر ترى الخوف في نداءات الأنبياء، والرجاء في الإجابة والتوبة والهداية، وفي السابع عشر ترى الخوف من الحساب والزلزلة، والرجاء في جنات الفردوس، ووفد المتقين، والفزع الأكبر الذي لا يحزن أولياء الله، فيكتمل في وجدان المؤمن ميزان السير إلى الله: خوفٌ يمنعه من الغفلة، ورجاءٌ يمنعه من القنوط.

الخلاصة الجامعة

الجزء السادس عشر يربّي القلب على أن يفهم الله، ووحيه، وسننه، وحقائق الهداية والضلال، وأن ينقى توحيده، ويصحح نظرته إلى العمل والذكر والآخرة، ثم يأتي الجزء السابع عشر ليقول لذلك القلب الذي تعلّم: الآن ادخل الميدان؛ ميدان الحساب القريب، والحق الذي يدمغ الباطل، والعبادة التي تُترجم إلى شعائر وجهاد واعتصام، فالعلاقة بين الجزأين ليست علاقة انتقالٍ بين موضوعين، بل علاقة تأسيسٍ ثم اختبار، وبناءٍ ثم تفعيل، وتصحيحِ قلبٍ ثم تكليفِ أمة.

الجزء الثامن عشر: ليس في هذا الدين شيءٌ عابر... إما نورٌ يحفظ الفطرة، أو عبثٌ يُسقط الإنسان

المدخل التأسيسي للجزء ١٨

سورة المؤمنون:

تفتتح سورة المؤمنون هذا المقطع لا بوصفٍ عابرٍ لأهل الإيمان، بل بإعلان النتيجة التي من أجلها خُلق السائرون إلى الله أصلاً: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وكأنَّ السورة ترفع منذ أول كلمة الميزان الذي ستُوزن به الحياة كلها؛ فليست القضية هنا: من عاش أكثر، ولا من جمع أكثر، ولا من ظهر أكثر، بل من أفلح عند الله تعالى.

ثم لا تتركك الآيات أمام هذا الفلاح على جهة الإجمال، بل تفكك لك بنيته الباطنة والظاهرة تفكيكاً دقيقاً، فتبدأ من الصلاة لأنها أول موضع يُختبر فيه صدق العبودية، لكن السورة لا تقول: الذين يصلون، بل تقول: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، لتقرر أن قيمة الصلاة ليست في هيئتها المجردة، بل في حضور القلب فيها، ثم تنتقل من هذا الخشوع إلى أثره خارج المحراب، فالقلب الذي خشع لله لا يليق به أن يبدد عمره في سفاسف القول والحركة والانشغال، ولذلك جاء: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، ثم لا يُترك الإيمان في دائرة الشعور، بل يُترجم إلى تطهير المال والنفس معاً: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾، ثم يُحرس باب الشَّهوة الذي إن انفلت أفسد القلب والبيت والمجتمع: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، وتأتي الآيات لتقرر أن الفطرة لا تُترك هَمَلاً ولا تُكبت في غير هدى، بل تُضبط في الطريق الذي أباحه الله: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، ثم يُغلق كل باب وراء ذلك بعبارة فاصلة لا تقبل التمييع: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

ثم تمضي السورة فتجعل من حفظ الإيمان حفظاً للحقوق أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، فلا عبودية صادقة مع خيانة الأمانة، ولا صلاح قلب مع التلاعب بالعهود، ثم تعود إلى الصلاة مرةً أخرى، لكن لا من جهة الخشوع هذه المرة، بل من جهة الثبات والمواظبة والحراسة المستمرة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فكأنَّ السورة بدأت الصلاة قلباً وختمتها حفظاً، بدأت باطناً وختمتها ظاهراً، ثم أعلنت الثمرة التي تليق بهذا البناء الكامل: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ فالفردوس ليس أمنيةً باردة، بل ميراث من استقام ظاهره وباطنه لله.

ثم تنقلك السورة من بيان منازل الفلاح إلى أصل الإنسان نفسه، كأنها تقول: هذا الذي يطمع في الفردوس أو يزهد في الطريق إليه، هل تذكر من أين جئت؟ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾، لا من علوٍّ ذاتي ولا من قوةٍ مستقلة، ثم لم يُترك هذا الأصل في غيب العموم، بل فُصلت رحلة التكوين تفصيلاً يهز الغفلة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، ثم ﴿خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، ثم ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، ثم ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً﴾، ثم ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً﴾، ثم تبلغ الرحلة ذروتها بقول الله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾، فيقف القلب أمام هذا التحول العجيب من ماءٍ مهين إلى إنسانٍ يسمع ويبصر ويجادل ويعصي ويطيع، فلا يملك إلا أن يسبح مع النص: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.. لكن السورة لا تسمح لهذا الإنسان أن يغتر بمرحلة الوجود الحاضر، فتقطع عليه سكرة البقاء: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾، ثم لا تترك الموت نهايةً صمَّاء، بل تربطه بالحقيقة التي لأجلها ذُكرت الرحلة أصلاً: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾، فالذي أنشأ أول مرة ليس بعاجز عن الإعادة.

ومن الإنسان تنتقل السورة إلى الكون من فوقه وتحته وحوله، لترد القلب إلى الإحاطة الرَّبانية التي لا يغيب عنها شيء: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا

كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾، فكأنَّ الآية تقول: لست متروكاً في كونٍ مهمل، ولا في خلقٍ غافلٍ عنه خالقه، ثم يأتي رزق السماء بميزان الحكمة لا بالفوضى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾، لا يزيد فيفسد، ولا ينقص فيهلك، ثم ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾، فالماء ليس مجرد نزولٍ عابر، بل إيداعٌ وتدبير، ومع ذلك لا ينبغي أن يغتر الناس بثبات النِّعمة: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾، ثم تكشف الآيات ما يخرج من هذه القطرة المقدرة من أبواب الحياة: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ثم تخص شجرةً بعينها فيها غذاءٌ وإدام: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾، ثم تنقلك إلى عالم الأنعام: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾، ليس مجرد انتفاع، بل عبرة، ثم تفصل بعض هذا الانتفاع: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ثم تذكرك أن الحمل في البر والبحر أيضاً من تدبير الله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.. وكأنَّ السورة تبني في القلب هذا المعنى المتكرر: من كان هذا خلقه ورزقه وتدبيره، فكيف يُعرض عنه؟ وكيف يُنسى لقاؤه؟.

ثم تنفتح السورة على مسار الرسالات لتبين أن هذه الحقائق الكونية والوجودية لم تترك الناس بلا دعوةٍ تذكرهم، فتبدأ بنوح عليه السَّلام، أول رسول إلى قومٍ عاندوا هذا الأصل الكبير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾، وكانت رسالته في غاية الوضوح: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، لكن الاعتراض القديم يتكرر: بشرية الرسول تُتخذ حجةً لرد الوحي، لا لأن الحجة ضعيفة، بل لأن الكبر يأنف من الانقياد، فقال الملأ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، ثم أضافوا شُبهة طلب الملكية الملائكية: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾، ثم استندوا إلى سلطان الموروث الجاهلي: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، ثم لما لم يملكوا حجةً صريحة هبطوا إلى اتهام الدعوة

بالجنون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾، وفي المقابل لم يُطِل نوح الجدل في لحظة اليأس من استجابة المعاندين، بل رد الأمر إلى ربه: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فجاء الوحي بالنجاة والهلاك معاً: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، وفي التعبير ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ تثبيتٌ وحفظ، ثم إذا جاء أمر الله وفار التنور لم تعد ساعة المجاملة ولا المساومة، بل وقت التنفيذ: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾، ثم يقطع رب العالمين باب التعلق العاطفي على حساب عدله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

ثم بعد النجاة يُعلِّم نوح أدب الشكر والافتقار: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فلا تنسب النجاة إلى السفينة، بل إلى الله، ثم لا يركن إلى اللحظة الحاضرة، بل يدعو للمستقبل كله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾، ثم تختم القصة بقاعدةٍ تتجاوز نوحاً إلى كل قارئ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، فالقضية ليست مجرد خبرٍ تاريخي، بل سننٌ وابتلاءات.

ثم يتكرر المشهد مع قرنٍ آخر: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾، وجاءهم رسول من أنفسهم يحمل الرسالة نفسها: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، لكن شبهة الملأ هنا تتوسع، فيظهر أثر الترف في رد الحق: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فالترف إذا لم يضبطه الإيمان قد يصير حجاباً عن الآخرة، ثم يكررون ذات الاعتراض على بشرية الرسول: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾، كأن الحق لا يليق في ظنهم إلا إن نزل على غير طبيعة البشر، ثم يجعلون الانقياد للوحي خسارة: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾، ثم تظهر العقدة الكبرى: عقدة البعث، ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾، ثم يسخرون سُخرية اليائس من

الحساب: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، ويعلنون فلسفة الدنيا المغلقة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ثم يضيفون الافتراء: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.

ومرةً أخرى لا يملك الرسول إلا أن يستنصر بالله: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فيجيء الوعد القريب: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾، ثم يقع الحكم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾، فتنتهي الحضارات المتكبرة كما ينتهي زَبَد السَّيل، ثم يأتي التقرير: ﴿فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم تمضي السُّنن دون مجاملة لأحد: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ ۝ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، فلا استعجال يقدّم، ولا استمهال يؤخر، ثم تترى الرُّسل رسولاً بعد رسول: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾، لكن المأساة تتكرر: ﴿كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾، والنتيجة: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾، يصيرون قصصاً بعدما كانوا قوى وجموعاً، ثم ﴿فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾... وبعدها يُذكر موسى وهارون عليهما السَّلام: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، لكن فرعون وملأه لم يكونوا حالةً مختلفة، بل تكراراً لطغيانٍ قديم: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾، ثم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾، فلم تمنعهم الآيات ولا السلطان المبين من التكذيب، فكانت النهاية: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾، ومع ذلك لا تنقطع الرحمة بالهداية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

ثم يذكر عيسى وأُمَّه عليهما السَّلام: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾، فليسا موضع ألوهية، وإنما موضع آية، ثم يذكر الإيواء والرزق: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

ثم تجمع السورة خيط الرسالات كلها في كلمة واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، فالطيب والعمل الصالح

والرقابة الإلهية قواعد مشتركة، ثم تعلن وحدة الأصل: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، لكن البشر يخرجون من وحدة الوحي إلى تفرق الأهواء: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، فيأتي الأمر بتركهم في غمرتهم إلى حين، لا رضاً بحالهم، بل استدراجاً وابتلاءً: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾... ثم تصحح السورة ميزاناً ينخدع به كثير من الناس: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، كلا، ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ فليس كل إمداد إكراماً، ولا كل سعة رضاً.

وفي المقابل تصف المؤمنين الحقيقيين لا من جهة كثرة دعاواهم، بل من جهة حال قلوبهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، فهم لا يأمنون مكر الله، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، إيمان تصديق وخضوع، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾، توحيداً خالصاً، ثم تأتي العبارة التي تكشف سرَّ صلاحهم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾، يعملون ولا يغترون، ويعطون ولا يتكلون على أعمالهم، ثم تعلن السورة ثمرة هذا الوجل الصادق: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

ثم يجيء ميزان العدل والرحمة معاً: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فلا حجة لأحد بأن الطريق فوق طاقته، ومع هذا التخفيف لا يضيع شيء من العمل: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾... لكن الطرف الآخر له وصفٌ آخر: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، أي في غفلة كثيفة عن هذا الحق كله، ومع هذه الغمرة لا يقفون، بل ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾، أي ماضون في باطلهم.. فإذا جاء الأخذ الإلهي صاحوا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾، أي: حتّى إذا أنزلنا العذاب بأهل الترف والنعيم منهم، صرخوا واستغاثوا ورفعوا أصواتهم جزعاً بعدما كانوا في غفلةٍ وكِبر... لكن الجؤار هنا لا ينفع، فيقال لهم: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا

﴿تُنصَرُونَ﴾.. ولماذا؟ لأن القضية لم تكن نقص دليل، بل إعراضاً متكبراً: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ۝ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾، ليلكم سمرٌ بالباطل وهجرٌ للحق.. كانت آيات الله تُتلى عليكم واضحة، فكنتم تعرضون عنها وترجعون القهقرى استكباراً، وتجتمعون ليلاً في مجالس السَّمر تتحدثون عنها بالسُّخرية وتهجرون سماعها والعمل بها، ثم تستنكر السورة عليهم وجوه الإعراض كلها: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾، فالخلل قد يكون في تعطيل التدبر، ﴿أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، فليست الرسالة بدعاً من الرسالات، ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾، وهم يعرفون صدقه وأمانته، ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾، ثم يأتي الحكم الفصل: ﴿بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.. وهذه الجملة تكشف جوهر المشكلة: ليست قلة وضوح الحق، بل كراهية الانقياد له.. ثم تأتي القاعدة العظمى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، فالحق لا ينزل على مقاس الأهواء، بل الأهواء هي التي يجب أن تخضع للحق، ثم يقول: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾، أي جاءهم ما فيه شرفهم ونجاتهم وهدايتهم، ولكنهم أعرضوا.. ثم تنفي السورة كل شبهة نفعٍ دنيوي للدعوة: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً﴾، لا، ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، ثم تؤكد طبيعة الطريق: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ولكن ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾، لأن إنكار الآخرة يفسد ميزان الاستقامة من أصله.

ثم تكشف السورة وجهاً آخر من تمرد القلوب: أن الضُّر لا يردها دائماً إلى الله إذا استحكمت الغفلة، بل قد يزيدها عُتواً: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، بل حتى حين أُخذوا بالعذاب الأدنى لم تنكسر قلوبهم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾،

حتى إذا فتح عليهم باب العذاب الشديد لم يبق إلا الإبلاس: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.. ثم تعود السورة إلى تذكيرهم بآيات الله في أنفسهم: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، ومع ذلك ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾، ثم تذكرهم بأصل وجودهم في الأرض ومصير جمعهم: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، ثم بيده الحياة والموت وتعاقب الزمان: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.. لكنهم ما زالوا يعيدون مقالة الأولين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾، ثم صرحوا بإنكارهم للبعث: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.. وهنا يحتج القرآن عليهم من إقرارهم الذي لا يستطيعون إنكاره، فيسألهم: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وسيقولون: لله، فيأتي التوبيخ: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم ﴿مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، وسيقولون: لله، فيأتي: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ثم ﴿مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، وسيقولون: لله، فكيف بعد هذا الاعتراف يُصرفون عن الحق؟ ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾... ثم يضع النص الأمر على حقيقته: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثم تقيم السورة برهان التوحيد الخالص وتنزه الرَّب عما يصفه به المشركون: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾، ثم تبين فساد التعدد لو كان: ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، فهذا الكون المنتظم شاهد وحدانية لا شاهد تعدد، ثم يأتي التنزيه: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ثم تأكيد الإحاطة: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.. وبعد تقرير التوحيد تُعلِّم السورة نبيها ﷺ وربما من وراءه كل مؤمن كيف يستمسك بالله إذا نزل البلاء أو أحاط الفساد: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝ رَبِّ فَلَا

تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ثم يُطَمْئِن الرب نبيه بقدرته: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾، ثم يضع له منهج التعامل مع أذى الناس: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، لا بالضَّعف، بل بالحكمة التي تضبط النفس، لأن الله أعلم بحقيقة ما يصفون: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، ثم ينتقل إلى أذى الباطن: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، فالمؤمن لا يطلب فقط السَّلامة من بطش الخلق، بل من وسوسة الشيطان وحضوره.

ثم يفتح القرآن فجأةً ستار النهاية الفردية: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾، فينكسر كل عناد ويقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾، لكنه طلب متأخر لا يغيّر حكم الله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾، ثم تبدأ مرحلة البرزخ: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.. ثم تنتقل السورة من موت الواحد إلى هول اليوم العام: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، وهناك تسقط كل روابط الدنيا التي كانوا يعظمونها: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ﴾، ولا يبقى إلا الميزان: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ويأتي الجواب الأخير عن سؤال الافتتاح: من هم المفلحون؟ هم أهل الميزان الثقيل يوم القيامة، لا أهل الدعوى في الدنيا، وأما الطرف الآخر: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾، ثم يصور النص بعض عذابهم: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾.. ويُوبَّخون بأصل الجناية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، فيعترفون اعترافاً لا ينفع: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾، ثم يطلبون الخروج على جهة التجربة الثانية: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، لكن يأتي الرد الذي لا رجعة بعده: ﴿قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

ثم تكشف السورة سبباً خفياً من أسباب هلاكهم، ليس مجرد الكفر المجرد،

بل احتقار أهل الإيمان والاستهزاء بهم: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، لكنكم لم تنظروا إلى تواضعهم وصدقهم، بل ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾، فانشغلتم بالاستهزاء بأولياء الله حتى نسيتم الله نفسه، ثم تأتي المفارقة العادلة: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، فالفوز الذي استُهلت به السورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يكتمل هنا ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

ثم يُسأل أهل الخسارة عن مدة الدنيا التي أضاعوا فيها الأعمار: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾، فيجيبون: ﴿لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فإذا بالدنيا كلها تتلاشى في شعورهم حين يقفون أمام الخلود، فيقال لهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم تأتي الآية التي كأنَّ السورة كلها كانت تتجه إليها من أولها إلى آخرها، الآية التي تلخص معنى الخلق والبعث والرسالة والجزاء في سؤالٍ واحد يهدم جذور الغفلة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، فهذه ليست مجرد آية ختامية، بل المفتاح الذي يفسر كل ما سبق:

١. لماذا كانت صفات المؤمنين؟ لأن الخلق ليس عبثاً،
٢. لماذا ذُكرت مراحل الجنين؟ لأن الخالق حكيم لا لاعب –حاشاه–،
٣. لماذا ذكرت السماء والماء والأنعام؟ لأن الكون مخلوق بالحق لا سدى،
٤. لماذا أُرسلت الرُّسل؟ لأن الإنسان لم يُخلق ليُترك،
٥. لماذا هلك المكذبون ونجا المؤمنون؟ لأن للحياة غاية،
٦. لماذا ذُكر الموت والبرزخ والنفخ في الصور والميزان والنار والفوز؟ لأن الرجوع إلى الله حق.

ثم يأتي التنزيه الذي يليق بهذا المقام: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، ثم يقطع كل تعلقٍ بغيره: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا

بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾؛ فافتتاح السورة كان فلاح المؤمنين، وختام هذا المسار نفي الفلاح عن الكافرين، وبينهما تتحدد الطريق.. ثم تنتهي السورة لا بمشهد قوةٍ بشرية، بل بدعاء العبد الذي عرف ربه وعرف نفسه وعرف حاجته: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ وكأنَّ الرحلة كلها بعد أن كشفت الفلاح والخسران، والخلق والبعث، والآيات والرسل، والحق والهوى، والنهاية والخلود، لا تترك للعبد إلَّا أن ينكسر بين يدي ربه سائلاً مغفرته ورحمته، لأنه لا نجاة لأحد إلَّا برحمة الله، ولا تمام لعبوديته إلَّا بأن يرجع إليه وهو يعلم أنه لم يُخلق عبثاً، ولم يُدع سدى، وأن مصيره إليه وحده.

سورة النور:

تبدأ سورة النور بما يشبه الإعلان الجليل عن طبيعة هذا الخطاب قبل الدخول في تفصيل أحكامه، فلا تفتتح بمشهدٍ قصصي، ولا بنداءٍ عاطفي، بل بتقريرٍ يحمّل السورة من أولها هيبتها التشريعية والتربوية: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وكأنها تقول من أول خطوة: ما سيأتي ليس آداباً اختيارية تُؤخذ حين توافق المزاج وتُترك حين تثقل على النفس، بل هو تنزيلٌ من الله، وفرضٌ من الله، وبيانٌ من الله، وما كان من عند الله فلا يُقابل بالتَّحايل، بل بالتذكر والخضوع.

ثم تباشر السورة بناء المجتمع الطاهر من أخطر مواضع الانهيار فيه، فتضع الحد الفاصل في جريمة الزّنا، لا لأن الشريعة قاسية، بل لأن الله يريد للمجتمع أن يبقى طاهر الأصل، مصون الأعراض، واضح الحدود: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾، ثم تمنع أن تتحول الرأفة المنفلتة إلى تمييع للحدود: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، لأن الرأفة إذا صادمت شرع الله لم تعد رحمةً بل صارت إفساداً، ثم تجعل تنفيذ الحكم في مشهدٍ تشهده الجماعة: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، حتى يبقى المجتمع كله

شريكاً في صيانة حدوده، ثم تبين أن الفاحشة ليست فعلاً معزولاً عن آثارها، بل تُنشئ بيئةً خبيثة إذا تُركت بلا ردع، ولهذا جاء: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، ليُفهم أن الإيمان لا ينسجم مع التساهل في هذا المستنقع، وأن الطهارة ليست عنواناً لُغوياً، بل سياجٌ يحكم العلاقات من أصلها.

ثم تنتقل السورة من حماية الأجساد إلى حماية السُّمعة والأعراض، لأن المجتمع لا يفسده الفعل الحرام فقط، بل يفسده كذلك اللسان الفاجر الذي يقذف بلا بينة، ولهذا جاء الحد الشديد فيمن يرمي المحصنات: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، فلا يكفي أن يعتذر الإنسان بأنه ظن أو سمع أو توهم، بل لا بد من بينةٍ مكتملة، ثم لا يقف الأمر عند الجلد، بل تمتد العقوبة إلى إسقاط العدالة الاجتماعية: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، لأن من استهان بأعراض الناس استهان بمقومات الثقة كلها، ثم تفتح السورة باب التوبة حتى لا يُغلق على العبد طريق الرجوع: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم تعالج حالةً أكثر تعقيداً وأشد خصوصية، وهي حين يكون الاتهام داخل بيت الزوجية حيث الشهود غير متيسرين، فيُشرع اللِّعان تشريعاً دقيقاً يوازن بين حفظ حق الزوج وصيانة الزوجة من الظلم، فيشهد الزوج أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، ثم الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وتدفع المرأة عنها العذاب بأربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، ثم الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، فتدل الآيات على أن الشريعة لا تهمل الواقع، لكنها لا تفرط في الأعراض أيضاً، ثم يجيء التذكير الجامع: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، وكأنك كلما مررت بحكمٍ من أحكام السورة ظننت في ظاهره شدةً، فتردك الآية إلى باطنه:

هذا من فضل الله ورحمته، لأن المجتمع الذي لا تُصان فيه الأعراض ليس رحيماً بأحد.

ثم تأتي حادثة الإفك لا بوصفها قصةً تاريخية مضت، بل مدرسةً قرآنية كاملة في تطهير اللسان، وتهذيب الظَّن، وكشف خطر الكلمة حين تخرج بلا ميزان، فتقول السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾، فهم ليسوا غرباء عن المجتمع، بل خرجوا من داخله، وهذا أدعى للحذر، ثم تقول: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لا لأن الإفك في نفسه خير، بل لأن ما ترتب عليه من كشف المنافقين، وتعليم المؤمنين، ووضع موازين التعامل مع الشائعات، خيرٌ باقٍ للأُمَّة، ثم تقرر عدل الله تعالى في المسؤولية الفردية: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾، فلا تضيع كلمة، ولا يذوب الفرد في الجماعة، ثم تخص رأس الفتنة بوعيدٍ أعظم: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم تعلم المجتمع المؤمن كيف كان ينبغي أن يكون موقفه من أول لحظة، لا بعد أن تتضح الحقيقة: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً﴾، فسوء الظَّنِّ بالمؤمنين ليس فطنة، بل خلل في بناء الأُخُوة، ولهذا جاء في الآية: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾، لأن المؤمنين كالنفس الواحدة، ثم الواجب الثاني: ﴿وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، لا أن يقف الإنسان موقف المتردد المتلذذ بسماع الفضيحة. ثم تعود السورة إلى ميزان البينات: ﴿لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءِ﴾، فإن لم يأتوا بهم ﴿فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

ثم تُذكّر أن الذي أنقذ المجتمع من عقوبةٍ عاجلة هو فضل الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثم تفضح آلية الشائعة حين تنفلت من الضمير: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، تعبيرٌ عجيب كأن اللسان صار يلتقط قبل أن يعقل القلب، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾، فلا علم، ولا تحقق، ولا تقوى، ثم الجناية التي تقع في كل

زمان: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.. ثم تُعلم السورة أدب المؤمن لحظة السماع: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾، فليس كل ما يمكن أن يقال يجوز أن يقال، ثم يأتي الوعظ الإلهي المباشر: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ثم يقرر أن هذه الأحكام كلها ليست تفاصيل متفرقة، بل آيات يبينها الله بعلمه وحكمته: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم تكشف السورة بعد ذلك أن القضية ليست فقط فيمن تكلم، بل حتى فيمن أحب شيوع الفاحشة في المجتمع المؤمن، ولو لم يكن هو صانعها الأول، فتقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فمحبة الانتشار نفسها مرض، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، لأن المجتمع لا يفسده الفعل وحده، بل يفسده أيضاً التطبيع معه، والتلذذ بنشره، والتسويق له، ثم تُعيدك السورة مرةً أخرى إلى أصل النجاة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.. ثم تفتح باباً أعمق من مجرد حادثة الإفك، فتقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، فلا تبدأ الشياطين غالباً بإسقاط الإنسان في الهاوية دفعةً واحدة، بل بخطوات، ولهذا قال: خطوات، ثم بيّن أن مسارها معروف: ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، ثم تقرر حقيقةً عظيمة في باب التزكية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، فلا يطهر القلب بجهده المجرد، بل بفضل الله، ومع ذلك فهو فضلٌ لا ينزل على غافلٍ معرض، بل على من طلب التزكية وصدق فيها، والله تعالى يسمع ويعلم... ثم تنتقل الآيات إلى مداواة الجرح الاجتماعي بعد الفتنة، فتمنع أهل الفضل والسعة أن يجعلوا إساءة المسيء سبباً لقطع الإحسان: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ثم ترفع المؤمن إلى المقام الأعلى: ﴿وَلْيَعْفُوا

﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾، ثم توقظه بالسؤال الذي يرد النفس إلى حاجتها الأعظم: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، فكأنَّ من ضاقت نفسه عن العفو نُقل إلى فقره الأكبر إلى مغفرة الله، ثم ختمت: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وبعد ذلك تعود السورة إلى وعيد القذفة، لكن هذه المرة بزيادة وصف المظلومين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، فهن عفيفات، غافلات عما رُمين به، مؤمنات، ولهذا كان الوعيد شديداً: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، ثم تفتح مشهد القيامة حيث الشهادة لا تعود للألسنة الناطقة فقط، بل للجوارح كلها: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ثم يُوفَّون جزاءهم كاملاً: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾، وعندها يعلمون علماً لا ينفع: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

ثم تأتي الآية الجامعة في التمييز بين الخبيث والطيب: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾، ثم تنزّه الأطهار عما قيل فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾، وتعدهم بما يناسب طيبهم: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ثم تنتقل السورة من طهارة العرض إلى طهارة الفضاء الذي يعيش فيه الناس، فتؤسس أدب الدخول إلى البيوت، لأن البيت في الإسلام ليس مكاناً مباحاً لكل عينٍ وخطوة، بل حرماً له ستره وخصوصيته، ولهذا قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾، فحتى الاستئذان لم يُجعل طلب إذنٍ مجرد، بل استئناساً يرفع الوحشة ويصون الكرامة، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم بينت السورة حال عدم وجود أحد أو عدم الإذن: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، ثم أدباً أرقى وأصفى للنفس: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، فلا غضب، ولا تجسس، ولا كسر لخواطر

الناس لأنهم لم يفتحوا الباب، ثم استثنت البيوت غير المسكونة التي فيها متاعٌ لكم، لتدل على أن الشريعة منضبطة، لا متشددة بلا تفريق، والله يعلم المعلن والمضمر.. ومن حرمة البيوت تنتقل السورة إلى حرمة النظر نفسه، لأن كل شيء يبدأ من منفذٍ صغير إن لم يُحرس أفسد القلب والبيت والمجتمع، فتقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾، فغضُّ البصر ليس أدباً هامشياً، بل وسيلة حفظ الفرج، ثم تقول: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾، فالمسألة مسألة زكاة قلب لا مجرد هيئة ظاهر، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

ثم تقول للمؤمنات: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، فالأمر مشترك في أصل العفة، ثم تفصل أحكام الزينة والستر والخمار على الجيوب، ودوائر المحارم، والنهي عن إظهار الزينة بوسائل الإشارة والإثارة: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، ثم تختم هذا الباب كله لا بالتفاخر بالطهارة، بل بالتوبة: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، لأن المجتمع مهما علت أحكامه لا يقوم إلَّا على قلوبٍ تائبة راجعة.

ثم تنتقل السورة إلى بناء الطريق المشروع للعفة، فلا تكتفي بالنَّهي عن الحرام، بل تفتح أبواب الحلال، فتقول: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾، وكأنها تقول: لا تتركوا العُزاب فريسة الحاجة والفتنة، ثم تطمئن القلوب من جهة الرزق: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، فالفقر ليس عذراً دائماً لصد باب النكاح، والله واسع عليم.

ثم من لم يجد طريق الزواج أُمر بالعفاف والصبر: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، فالعفة هنا عبادة انتظار، لا مجرد حرمان.. ثم تنتقل إلى نظام المكاتبة والتحرير لمن في الرِّق، لتدل على أن السورة تبني مجتمعاً أرحب من مجرد الضبط الجنسي، تبني مجتمعاً ينزع إلى الكرامة

والتحرر والإعانة: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾... ثم تبلغ السورة ذروة الإنصاف في النهي عن استغلال الضعف لأجل شهوة المال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فليس كل فسادٍ يصنعه الشَّهوات، بل بعضه تصنعه الأطماع، ثم حتى المكرهات لا يضيعهن الله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم يقرر بعد كل ذلك أن هذا الذي سبق ليس تشديداً مشتتاً، بل منهجٌ مبين وموعظة: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم تفتح السورة سرَّها الأكبر على آية النور، وكأنَّ كل ما سبق من أحكام الستر والعفاف والآداب والطهارة كان تمهيداً لهذه الحقيقة: أن هذا الدين كله ليس مجرد منعٍ وردع، بل هو نورٌ من الله ينزل على القلوب والبيوت والمجتمعات، فتقول: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم تضرب مثل النور الذي يهدي به الله عباده: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، ثم تمضي في الصورة من المشكاة إلى الزجاجة، ومن الزجاجة إلى الكوكب الدُّري، ومن الشجرة المباركة التي لا شرقية ولا غربية، إلى الزيت الذي يكاد يُضيء ولو لم تمسسه نار، حتى تبلغ الذروة: ﴿نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾، فالهداية ليست ضوءاً واحداً عابراً، بل تراكم من صفاء الفطرة، ووضوح الوحي، واستعداد القلب، وبركة المصدر، ثم تقول: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، فلا يُنال هذا النور بالذكاء المجرد، بل بهداية الله، ثم يُضرب المثل للناس والله بكل شيء عليم.

ثم تنزل السورة بهذا النور من الفضاء المعنوي إلى البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، فالبيت الذي يعمره ذكر الله بيت نور، ثم تصف أهله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ

﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾، فلا يضيعهم السوق عن الصلاة والزكاة، ﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، ثم الجزاء: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، لأن الله لا يجازيهم فقط بالعدل، بل يزيدهم من فضله.. ثم تقابل السورة هذا النور بظلمات الكفر، فتقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾، يظنه الظَّمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، فالكفر قد يعطي صاحبه وهم الإنجاز، لكنه عند الحقيقة سراب.. ثم تزيد الصورة عمقاً: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾، ظلمات فوق ظلمات، حتى إذا أخرج يده لم يكد يراها، ثم القاعدة الحاسمة: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

ثم توسع السورة أفق النور من هداية الإنسان إلى تسبيح الكون كله، فتقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾، فليس في الكون شيء خارج عن عبوديته، ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، والله عليم بما يفعلون، ثم ترد الملك كله إليه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.. ثم تريك بعض مظاهر تدبيره في السَّحاب والمطر والبرد والبرق وتقليب الليل والنهار وخلق الدواب من ماء، فمنها من يمشي على بطنه، ومنها من يمشي على رجلين، ومنها من يمشي على أربع، وكل ذلك تحت قوله: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثم تعود لتقرر: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فالنور الكوني والوحي البياني يلتقيان في هداية من شاء الله له الهداية.

ثم تنقل السورة الحديث إلى نوعٍ آخر من الظلمة، وهي ظلمة النفاق العملي، حين يدعي المرء الإيمان والطاعة لكنه يُعرض إذا دُعي إلى حكم الله ورسوله إلَّا إذا كان الحق له، فتقول: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، ثم تكشف الحقيقة: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم تشرح

المعيار: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أمَّا إذا كان الحق لهم أتوا إليه مُذعنين، فهي طاعة المصلحة لا طاعة العبودية، ثم تسأل الآية أسئلةً تكشف علل القلوب: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾، ثم تحسم: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وفي المقابل تضع السورة صورة المؤمن الصادق في عبارة واحدة لو استقرت في القلب لاستقام الدين كله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ثم تعلن الفلاح والفوز لمن أطاع الله ورسوله وخشي الله واتقاه.. ثم تفضح الأيمان الكاذبة التي تغني بها المنافقون، فتقول: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، ثم يأتي الرد: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، فالمطلوب صدق الطاعة لا حرارة القسم، والله خبير بما تعملون.

ثم تلخص الهداية كلها في طاعة الله والرسول، وتبين أن البلاغ على الرسول، والاستجابة على الأُمَّة، ثم يأتي الوعد العظيم بالاستخلاف والتمكين والأمن، لكن ليس وعداً قوميّاً مجرداً، بل مشروط بجوهر العبودية: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾، فالاستخلاف ليس غاية مستقلة، بل ثمرة توحيد واستقامة.

ثم ترد السورة مرةً أخرى الأمر إلى أصوله العملية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وتطمئن أن الكافرين لا يُعجزون الله في الأرض، وأن مأواهم النار.

ثم تعود السورة إلى داخل البيوت مرةً أخرى، وكأنها تؤكد أن النور الذي تتحدث عنه لا يكون في الشوارع وحدها ولا في المساجد وحدها، بل في تفاصيل البيت اليومية، فتأمر العبيد والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم أن يستأذنوا في ثلاث عورات: قبل صلاة الفجر، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، لأن البيت المسلم ليس فوضى، بل تُحترم فيه الخصوصيات، وتُصان فيه الأبصار منذ الصِّغر، ثم بعد البلوغ ينتقل الأطفال إلى حكم

الاستئذان الكامل: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.. ثم تذكر حكم القواعد من النساء اللّاتي لا يرجون نكاحاً، مع التقييد بعدم التبرج، ثم ترجح الاستعفاف مع أنه أرفع وأكمل.

ثم تنتقل إلى رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض، وعن بعض أحوال الأكل من بيوت الأقارب والأصدقاء، لتُبيّن أن الشريعة التي شددت في مواضع الستر والخصوصية لا تنسى التيسير والرحمة ورفع الحرج، ثم تختم هذا الباب بأدب السلام: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾، فيصير الدخول نفسه عبادةً، لا مجرد حركة اعتيادية.

ثم تختم السورة برسم صورة الانضباط الإيماني مع رسول الله ﷺ في الأمر الجامع، فلا يذهبون حتى يستأذنوه، لأن المؤمن لا يتصرف في الجماعة المسلمة كفردٍ مفصول عن سياقها، بل يعرف مقام الرّسول وحق القيادة الشرعية..

ثم يبين الله تعالى لنبيه أن من استأذنوه فله أن يأذن لمن شاء منهم ويستغفر لهم الله، ثم يرتفع الأدب أكثر: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾، فمقام الرسول ليس مقام رجلٍ عادي في النداء والمخاطبة والتعامل، ثم يحذر من التسلل والالتواء والمخالفة عن أمره، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فكثير من الفتن يبدأ من الاستخفاف بالأمر النبوي، ثم تُختم السورة كلها بردِّ الخلق والأمر والعلم والمصير إلى الله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهو المالك الذي له أن يفرض ويأمر ويهدي ويُحذر، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، فلا تخفى عليه نيات الطائعين ولا التفافات المنافقين، ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾، فكل هذا النور، وكل هذه الأحكام، وكل هذه الآداب، ليست ترتيباً اجتماعياً فحسب، بل طريق لقاءٍ مع الله تعالى، ثم تُقفل السورة على الحقيقة التي كانت تسري في كل آياتها من أولها إلى آخرها: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛

١. عليم بالأعراض حين تُصان وحين تُنتهك،
٢. عليم بالقلوب حين تستنير وحين تظلم،
٣. عليم بالبيوت حين تُرفع على الطهارة وحين تُخربها الفوضى،
٤. عليم بالطاعة الصادقة والطاعة الكاذبة،

وبذلك يتبين أن سورة النور ليست سورة أحكام متناثرة، بل سورة بناءٍ كامل لمجتمع يريد الله له أن يعيش في الضوء:

- ضوء العقيدة،
- وضوء العفة،
- وضوء الأدب،
- وضوء البيوت،
- وضوء الطاعة،
- وضوء الوحي،

حتى لا يكون في الأمة نور المصابيح وحده، بل نور الهداية التي إذا جعلها الله في القلوب أشرقت بها الحياة كلها.

حين يبني الله مجتمعاً من نور... قراءة في رسالة سورة النور

ليست سورة النور في القرآن سورةَ أحكامٍ متناثرة، ولا مجموعةَ توجيهاتٍ أخلاقيةٍ متفرقة، بل هي بناءٌ ربانيٌّ متكامل لمجتمعٍ يريد الله له أن يعيش في الضوء، لا في الضوء الحسي وحده الذي تراه الأبصار، بل في نور الهداية الذي إذا وضعه الله في القلوب استقامت به الحياة كلها، لأن الأُمم قد تمتلك نور الحضارة، ونور المعرفة، ونور العمران، وقد تمتلئ مدنها بالأضواء والأنظمة والقوانين، لكن إذا خلت القلوب من نور الله عاشت تلك الأُمَّة في ظلامٍ

أخلاقيٍّ وروحيٍّ عميق مهما كثرت الأضواء من حولها، ولهذا جاءت هذه السورة العظيمة لتضع أمام الأُمَّة مشروعاً كاملاً للحياة اسمه: **الحياة في النور**، نورٌ يبدأ من **العقيدة** التي تعرّف القلب بربه، ويمتد إلى **الأخلاق** التي تضبط الشهوات، ويصل إلى **البيوت** التي تُصان بالآداب، ويتجلى في **الطاعة** التي تضبط حركة المجتمع، ثم يبلغ ذروته حين يرتبط القلب بمصدر النور كله، وهو **الوحي** الذي أنزله الله هدايةً لعباده.

ولهذا جاءت في قلب هذه السورة آيةٌ عظيمة ليست مجرد جملة بل مفتاحُ لفهم السورة كلها، حين قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والمعنى الذي قرره أهل التفسير أن الله سبحانه هو منوِّر السماوات والأرض، أي بنوره قامت المخلوقات، وبنوره تهتدي القلوب، وبهداه تستقيم الحياة، فليس المقصود أن الله نورٌ بمعنى الضوء الحسي الذي تراه الأبصار، بل المقصود أنه سبحانه صاحب النور وهاديه، ومنه نور الهداية الذي ينير القلوب ويهديها إلى الحق، ولهذا فإن فهم هذه الآية يفتح الباب لفهم رسالة السورة كلها، لأن سورة النور في حقيقتها مشروعٌ لبناء مجتمعٍ يعيش في نور الله...

← لا في ظلمات الشَّهوات،

← ولا في ظلمات الفوضى الأخلاقية،

← ولا في ظلمات الألسنة المنفلتة،

← ولا في ظلمات البيوت التي فقدت آدابها،

← بل مجتمعٌ يُضاء داخله قبل خارجه.

ولهذا يبدأ البناء من الأساس الأول الذي لا يقوم نور المجتمع بدونه، وهو **نور العقيدة**، لأن المجتمع الذي لا يعرف ربه لا يمكن أن يعيش في نورٍ حقيقي مهما كثرت فيه القوانين والتنظيمات، فالقانون قد يضبط الظاهر، لكن نور الإيمان هو الذي يضبط القلب في السِّر والعَلن، ولهذا تربط السورة القلوب مباشرةً بالله

سبحانه، لأن النور الحقيقي ليس فكرةً فلسفية، ولا قيمةً أخلاقية مجردة، بل هدايةٌ يضعها الله في قلب من يشاء من عباده، ولهذا قال تعالى في الآية نفسها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي أن الهداية التي تضيء القلوب إنما تأتي من الله وحده، فهو الذي يفتح القلوب للحق ويهديها إليه، ولهذا فإن أول خطوة في بناء مجتمع النور هي أن يعرف الناس ربهم، وأن يدركوا أن الطريق إلى النور لا يبدأ من القوانين البشرية وحدها، بل من الإيمان الذي يجعل القلب حيّاً بنور الله سبحانه وتعالى.

ثم بعد تثبيت هذا الأساس تنتقل السورة إلى الخطر الأكبر الذي يطفئ **نور المجتمعات** من الداخل، وهو ظلام الفاحشة حين تنتشر وتصبح أمراً مألوفاً بين الناس، فالأُمم قد تنهار أخلاقياً قبل أن تنهار سياسياً أو اقتصادياً، ولهذا جاءت سورة النور بأحكامٍ حاسمة تحمي المجتمع من الفوضى الأخلاقية التي تطفئ نور القلوب، فقال الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾، ثم حذّر من مجرد حُب انتشار الفاحشة بين المؤمنين فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وكأنَّ الرسالة واضحة في بناء المجتمع النقي: إن الأُمَّة التي تريد أن تعيش في النور لا تسمح للفاحشة أن تتحول إلى أمرٍ عادي، لأن الشَّهوة إذا انفلتت أطفأت نور القلوب وأدخلت المجتمع في ظلامٍ طويل، ولهذا كان حفظ العفة جزءاً من حفظ النور في الأُمَّة.

لكن الظلام لا يدخل المجتمع من باب الشَّهوة فقط، بل قد يدخل من **باب الكلمة** التي تخرج من اللسان بلا ضابط ولا مسؤولية، ولهذا جاءت قصة الإفك في قلب السُّورة لتعلّم الأُمَّة أدب اللسان، لأن الكلمة حين تنفلت قد تهدم البيوت وتجرح القلوب وتشيع الظُّنون بين الناس، فقال الله تعالى في توبيخ الذين نقلوا الحديث بلا تثبت: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم

بِهِ عِلْمٌ﴾، فالمجتمع الذي يريد أن يعيش في النور لا يطلق لسانه في أعراض الناس، ولا يجعل الإشاعات غذاءً يومياً للعقول، لأن الكلمة إذا خرجت بلا تقوى أطفأت نور القلوب، ولهذا يبدأ نور المجتمع حين يتعلم الناس أن الكلمة أمانة، وأن اللسان مسؤولية أمام الله تعالى.

ثم تنتقل السورة إلى بناءٍ آخر قد يبدو صغيراً في ظاهره لكنه عظيم في أثره، وهو **أدب البيوت**، لأن المجتمعات المضيئة لا تبدأ من الشوارع بل من البيوت، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾، فالبيت في الإسلام ليس مجرد مكان للسَّكن، بل مساحة سكينة يجب أن تُصان بالاستئذان والاحترام والآداب، لأن البيوت إذا فقدت أدبها فقد المجتمع جزءاً كبيراً من نوره.

ثم تؤكد السورة أن هذا النور لا يكتمل إلَّا حين يخضع المجتمع كله **لأمر الله ورسوله**، لأن الطاعة هي الطريق الذي يحفظ هذا البناء من الانهيار، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فالمجتمع الذي يعيش في نور الله ليس مجتمعاً ينتقي من الدين ما يُعجبه ويترك ما يشاء، بل مجتمعٌ يعلم أن الطريق إلى النور يبدأ من كلمةٍ واحدة تختصر معنى العبودية كلها: سمعنا وأطعنا.

ثم تعود السورة مرةً أخرى إلى مصدر النور كله، إلى الآية العظيمة التي هي قلب السورة وروحها، حين قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، فهذا المثل العظيم يصور **نور الهداية** حين يستقر في القلب، فالقلب كالمشكاة، والوحي كمصباحٍ فيها، فإذا اجتمع نور الفطرة التي خلق الله الناس عليها مع نور الوحي الذي أنزله الله هدايةً لعباده

أصبح القلب مضيئاً يرى الحق واضحاً كما يرى الإنسان الطريق في الضوء، ولهذا ختم الله المثل بقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، أي أن الهداية في النهاية ليست مجرد معرفة عقلية، بل توفيقٌ من الله تعالى ونورٌ يقذفه في قلب من صدق في طلبه.

وهنا نفهم الرسالة الكبرى لسورة النور:

←أن الله تعالى لا يريد للأُمَّة أن تعيش في ضوء المصابيح فقط، بل في نور الهداية..

←لا يريد مجتمعاً مضاء الشوارع مظلم القلوب، بل مجتمعاً أضاء الله داخله قبل خارجه..

←مجتمعاً يبدأ فيه النور من العقيدة،

←ثم يحميه بالعفة،

←ثم يصونه بأدب اللسان،

←ثم يحرسه بأدب البيوت،

←ثم يثبّته بالطاعة،

←ثم يغذّيه بنور الوحي،

هناك فقط يصبح المجتمع كله كالمشكاة التي يضيء فيها مصباح الهداية، وهناك تتحقق كلمة الله في القلوب قبل أن تتحقق في النصوص: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فإذا وضع الله هذا النور في قلب إنسانٍ واحد تغيّرت حياته، وإذا وضعه في قلوب أُمَّةٍ كاملة أشرقت بها الدنيا كلها.

سورة الفرقان:

يفتتح هذا المقطع من سورة الفرقان بإعلانٍ يليق بجلال المنزل وعظمة المنزل به، فيقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾، فلا يبدأ الحديث هنا عن كتابٍ يُتلى فحسب، بل عن فرقانٍ يفصل بين الحق

والباطل، ويكشف الحدود التي تلتبس على القلوب إذا غاب عنها نور الوحي، ثم لا يذكر النبي ﷺ هنا باسمه، بل بوصف العبودية: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾، ليبقى أعظم شرفٍ للرسول أنه عبدٌ لله، وليفهم الناس أن هذا الكتاب لا ينزل على من خرج عن مقام العبودية، بل على من تحقق بها أكمل التحقيق، ثم تتسع دائرة الرسالة من حدود قومٍ بعينهم إلى العالمين جميعاً: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾، لأن هذا الفرقان ليس خطاباً محلياً عابراً، بل نذارةٌ للبشرية كلها.

ثم تمضي الآية التالية في تقرير أصول الجلال التي تليق بمن نزّل هذا الفرقان، فتقول: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فكيف يُنازع من له الملك كله؟ ثم تنفي عنه ما نسبه إليه أهل الضّلال: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾، لأن الولد لا يكون إلّا عن حاجةٍ أو نقصٍ أو مماثلة، والله سبحانه منزه عن ذلك كله، ثم تنفي الشركة في الملك: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، لأن الملك إذا ثبت له على الكمال انتفى معه كل شريك، ثم تختم هذه الأصول ببيان الخلق والتقدير: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾، فلا خلق بلا حكمة، ولا وجود بلا ميزان، ولا شيء في هذا الكون متروك للعبث أو الفوضى.. وكأنَّ الآيتين معاً تؤسسان من أول الأمر هذه الحقيقة: أن الفرقان لا يمكن أن يكون إلّا من ربٍّ هذا شأنه في الملك والتوحيد والخلق والتقدير.

ثم تنزل السورة من عظمة الحق إلى انحراف الخلق عنه، فتقول: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾، لكن القرآن لا يكتفي بذكر هذا الانحراف، بل يُعرّيه تعريةً عقليةً كاملة، فيقول: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، فكيف يكون المخلوق إلهاً؟ ثم يزيد بطلانهم وضوحاً: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾، فمن عجز عن نفسه كان عن غيره أعجز، ثم يختم أركان العجز كلها: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾، فلا بدء ولا إنهاء ولا بعث، فلا يبقى بعد ذلك شيء من مقومات الإلهية أصلاً.. وكأن السورة تقول: بعد أن عرفت من نزّل الفرقان،

فانظر في المقابل إلى من عُبد من دونه، لتدرك أن أصل الضَّلال ليس في غموض الحق، بل في انقلاب الموازين داخل القلب... ثم تنتقل الآيات إلى موقف الكافرين من الوحي نفسه، لا لأنهم ناقشوه بعلمٍ وتجرد، بل لأنهم أرادوا إسقاطه بأي تهمةٍ يمكن أن تُتداول، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾، فكأنَّهم لم يجدوا في القرآن خللاً ذاتيّاً، فلجؤوا إلى اتهام مصدره البشري، ثم جاء الحكم عليهم: ﴿فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾، ظُلماً لأنهم وضعوا الكلام في غير موضعه، وزوراً لأنهم قلبوا الحقائق، ثم زادوا فقالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾، وكأنهم يريدون تفسير الوحي كله على أنه حكايات بشرية منقولة، لا تنزيل رباني.. فجاء الرد عليهم من الجهة التي لا يستطيعون دفعها: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فالذي يعلم السِّر لا يخفى عليه اختلاق البشر، ولا تزييف المدعين، ثم العجيب أن الرد لا يختم بصفة البطش، بل بباب مفتوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾، وكأنَّ حتى هؤلاء المكذبين لم يُغلق عليهم باب الرجوع بعدُ، فمع علم الله بسرهم وعلانيتهم ما زالت الرَّحمة تعرض عليهم العودة.

ثم ينتقل اعتراضهم من مضمون الرسالة إلى شخص الرسول ﷺ، فقالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، وكأنهم جعلوا بشرية الرسول شُبهةً مع أن سُنن الله في رسله كلها جرت على البشرية، ثم أخذوا يقترحون على الوحي شروطاً من عند أنفسهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾، ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، فهم لا يناقشون صدق الرسالة، بل يريدون للرسول صورةً توافق الأوهام التي في أذهانهم، ثم ينتهون إلى أبشع التهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾.. هنا يأتي الاستنكار الإلهي من تهافت شبههم: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾، فهذه ليست شُبهات متماسكة، بل أمثال متضاربة تدل

على الحيرة لا على الحجة؛ مرةً يقولون شاعر، ومرة ساحر، ومرة مسحور، ومرة مفترٍ، وهذا الاضطراب نفسه دليل ضَلالهم.. ثم يُبيّن الله تعالى أن حرمان رسوله من الكنوز والقصور ليس عن عجز، بل عن حكمة، فيقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً﴾، فربُّك قادر على ما هو أعظم مما اقترحوه، لكنه لم يجعل معيار الرسالة زُخرف الدنيا.

ثم تكشف السورة الجذر الأعمق وراء هذه الاعتراضات كلها، فتقول: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾، وكأنها تقول: لو آمنوا بالآخرة حقّاً ما وقفت مشكلتهم عند أكل الرسول للطعام أو مشيه في الأسواق أو عدم امتلاكه كنزاً، إنما أصل الداء أنهم لا يريدون التصديق بالحساب، ولذلك كان الجواب المناسب: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾.

ثم لا تذكر النار هنا على جهة العموم البعيد، بل تقربها حتى تكاد تُرى، فتقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾، حتى كأن النار في هذا التصوير ليست موضعاً جامداً، بل مخلوقاً يغتاظ على من عصى الله، ثم إذا ألقوا فيها لم يُلقوا في سعة، بل ﴿مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ﴾، جمع عليهم ضيق المكان مع تقييد الحال، وهناك لا يجدون إلا الدعاء بالهلاك: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾، لكن الجواب يأتي أشد إيلاماً: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾، لأن الهلاك الذي يتمنونه لا ينهي عذابهم، بل تتعدد وجوه الحسرة عليهم.

ثم تنقل السورة القلب من هذا المشهد المُرعب إلى المقارنة التي ينبغي أن تحكم العقل منذ البداية: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾، فليست القضية في النهاية: ماذا أحبُّ الآن؟ بل: أي المصيرين خير؟ ثم تبين أن الجنة ليست طيفاً غامضاً، بل ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيراً﴾، جزاءً على العمل، ومصيراً ينتهي إليه السَّفر، ثم تفصل شيئاً من تمام النعيم: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ

خَالِدِينَ﴾، ثم ترفع هذا كله إلى مقام الوعد الإلهي الثابت: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَّسْؤُولاً﴾، أي وعداً تترقبه القلوب المؤمنة وتسأله، لا على جهة الإلزام لله تعالى، بل على جهة اليقين بصدق وعده وكرمه.

ثم تفتح السورة مشهداً آخر من مشاهد القيامة، لا يتعلق هذه المرة مباشرةً بعذاب الجحيم، بل بانهيار كل معاذير الشرك من أصلها، فتقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، ثم يأتي السؤال الذي يقطع عليهم أوهام التعلق بمعبوداتهم: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾، فيتبرأ المعبودون من دون الله تبرؤاً صريحاً: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، فهم أنفسهم يعترفون أن الولاية والعبادة لا تكون إلا لله، ثم يبينون سبب ضلال هؤلاء: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾، فالمتاع إذا لم يُضبط بالذكر صار حجاباً، والامتداد مع الغفلة يورث الخراب.. ثم يأتي الحكم على العابدين بعد سقوط حجتهم: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾، أي كذبتكم معبوداتكم نفسها في دعوى أنها أمرتكم أو رضيت منكم، ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً﴾، لا دفعاً للعذاب ولا جلباً للنَّصر، ثم يُعمّم القاعدة: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾.

ثم تعود السورة فترد على شُبهة بشرية الرسل ردّاً قاطعاً عامّاً لا يخص النبي ﷺ وحده، فتقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾، فكأنها تقول: إن كنتم تستنكرون هذا على محمّد ﷺ فقد استنكرتم سُنة الله في جميع رسله، فالرسول بشرٌ مبلغ، لا مخلوقٌ خارج عن مقتضيات البشرية.

ثم تكشف الآية سِرّاً تربويّاً عظيماً في هذه السُّنة نفسها: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾:

← فالغني فتنة للفقير،

← والفقير فتنة للغني،

← والرسول فتنة للمكذبين،

← والمكذبون فتنة للرسول وأتباعه،

← والضعيف فتنة للقوي،

← والمحروم فتنة للمُرفَّه،

والقضية ليست: لماذا وُجدت الفتنة؟ بل: كيف يكون الموقف منها؟ ولهذا جاء السؤال الذي ينفذ إلى القلب: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾، وكأنَّ هذا المقطع كله:

١. بعد أن عرض الحق والباطل،

٢. والنبوة وشبهات المكذبين،

٣. والسعير وجنة الخلد،

٤. والشرك وبراءة المعبودات،

يردّ الأمر في النهاية إلى هذا الامتحان الجامع:

- هل تصبر على الحق حين يثقل؟
- هل تصبر على الوحي حين يخالف هوى الناس؟
- هل تصبر على بشرية الرسول فلا تطلب منه زخرفاً بل تتبع ما جاء به؟
- هل تصبر على الفتنة فلا تبيع الفرقان لأجل ضغط الواقع أو سُخرية الخلق؟

ثم تختم الآية، ويختم معها هذا المقطع كلَّه، بطُمأنينةٍ عظيمة تُسكِّن قلب من اختار الصَّبر: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾، فهو:

١. بصير بمن كذّب وكيف كذّب،

٢. وبصير بمن صبر وكيف صبر،

٣. وبصير بمن اغتر بزينة الدنيا فأنكر السَّاعة،

٤. وبصير بمن تمسك بالفرقان ولو سار في أرضٍ تعج بالاعتراضات،

وبذلك يتبين أن هذا المقطع ليس مجرد عرضٍ لشُبهات قديمة، بل بناءٌ عقديٌّ وتربويٌّ يعيد ترتيب القلب كله:

- يعرّفه بمنزلة الفرقان،
- وبجلال منزله،
- وبسقوط كل إلهٍ سواه،
- وبضحالة كل شُبهةٍ تُثار في وجه الوحي،
- وبفظاعة مصير من كذب بالساعة،
- وبنعيم من اتقى،
- وبانكشاف الشِّرك يوم الحشر،
- ثم يتركه أخيراً أمام سؤال الصبر؛

لأن من عرف الفُرقان حقّاً، ثم عرف أن الطريق إليه محفوف بالفتن، لم يبق له بعد البيان إلَّا أن يثبت، وهو يعلم أن ربه بصير به لا يضيعه.

المدخل إلى نور القرآن: قال تعالى: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ ولم يقل: على نبيّه؟

ليست هذه الآية الكريمة مجرد افتتاحٍ لسورة الفرقان، ولا عبارةَ ثناءٍ عابرةٍ على رسول الله ﷺ، بل هي مفتاحٌ عظيم لفهم طبيعة هذا الكتاب كلّه، لأن القرآن حين يختار ألفاظه لا يختارها اعتباطاً، بل يضع في كل كلمةٍ رسالةً عقديةً وتربويةً عميقة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، فلم يذكر النبي ﷺ باسمه، ولم يقل: على مُحَمَّد، ولم يقل: على نبيّه، مع أن اسمه قد ذُكر في القرآن في مواضع أخرى، بل اختار وصفاً واحداً يتكرر في أعظم المقامات التي ذُكر فيها النبي ﷺ، وهو وصف العبودية، وكأنَّ القرآن يريد أن يُعلّم الأُمَّة كلها

أن أعظم شرفٍ للنبي ﷺ لم يكن اسمه، ولا نسبه، ولا مكانته بين الناس، بل كان مقامه عند الله سبحانه وتعالى حين تحقّق بالعبودية الكاملة له سبحانه.

ولهذا نجد أن هذا الوصف يتكرر في أعظم لحظات الرسالة النبوية، ففي أعظم معجزةٍ حسية وقعت للنبي ﷺ وهي الإسراء قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾، فلم يقل بنبيّه ولا برسوله، بل قال: بعبده، وفي أعظم لحظةٍ من لحظات الوحي والاتصال بالسماء قال سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، وفي مقام إنزال القرآن الذي هو أعظم ما أُعطيه النبي ﷺ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، وكأنَّ القرآن الكريم يريد أن يُرسّخ في القلوب قاعدةً عظيمة لا ينبغي أن تغيب عن ذهن المؤمن: كلما ارتفع مقام الإنسان عند الله ازداد تحقيقه للعبودية له، لأن القرب من الله لا يُبنى على الاستغناء عنه، بل على الافتقار إليه.. فليس الإنسان حين يخضع لله وينقاد لأمره ينقص قدره أو يفقد كرامته، بل على العكس تماماً، فإن قدره عند الله يعلو، وتسمو منزلته، لأن العبودية لله ليست ذلّاً يُهين الإنسان، بل شرفٌ يرفعه، إذ بها يتحرر من عبودية الهوى والناس والدنيا، ويقف في مقام العبد الذي لا يخضع إلّا لربه.

وليس حين يقول لله تعالى: أنا عبدك يفقد كرامته، بل يبلغ أعلى درجات الكرامة، لأن العبودية لله هي غاية الشرف الإنساني، ولهذا كان أعظم شرفٍ للنبي ﷺ أن يكون عبداً لله تعالى قبل أن يكون رسولاً.

لكن هذه الحقيقة ليست مجرد وصفٍ للنبي ﷺ في سيرته، بل هي درسٌ عظيم للأُمَّة كلها في طريق فهم القرآن نفسه، لأن كثيراً من الناس يتعاملون مع القرآن وكأنه كتاب معلوماتٍ أو كتاب ثقافةٍ أو كتاب بلاغةٍ ولغة، ويظنون أن الطريق إلى فهمه يمر فقط عبر الذكاء العقلي أو المعرفة اللغوية أو الاطلاع العلمي، بينما الحقيقة التي تكشفها هذه الآية أن القرآن في جوهره كتاب هداية

قبل أن يكون كتاب معرفة، وأن الهداية ليست باباً يفتح لكل عقلٍ فقط، بل هي نورٌ يضعه الله تعالى في القلب الذي صدق في طلبه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾، فالهداية بالقرآن مرتبطةٌ باتباع رضوان الله، أي بطريق العبودية قبل أي شيءٍ آخر.

ولهذا فإن القرآن ليس مجرد كلماتٍ تُفهم بالعقل، بل نورٌ يهدي الله به من يشاء من عباده، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾، فالقرآن نور، لكن هذا النور لا يدخل كل قلبٍ بالضَّرورة، لأنه نورٌ يهدي الله به من صدق في طلبه وأقبل عليه بقلب العبد، ولهذا فإن من أعظم الأخطاء في التعامل مع القرآن أن يظن الإنسان أن الطريق إلى أسراره يبدأ من الكتب والشروح والتحليلات فقط، نعم، العلم بالتفسير واللغة وأقوال العلماء أمرٌ عظيم ومهم، لكنه ليس الباب الأول، لأن الباب الأول الذي يُفتح به نور القرآن هو باب العبودية لله.

فالقلب الذي لم يعرف معنى العبودية لن يرى في القرآن إلا نصوصاً ومعاني لغوية وأحكاماً فقهية، أما القلب الذي خضع لله ووقف بين يديه عبداً صادقاً فإنه يجد في القرآن نوراً يهديه ويغيّر حياته كلها، لأن القرآن ليس كتاب تحليلٍ ذهنيٍّ فقط، بل كتاب تربيةٍ للقلب قبل العقل، ولهذا فإن القلب الذي يدخل إلى القرآن وهو يبحث عن الهداية يسأل نفسه دائماً: ماذا يريد الله مني في هذه الآية؟ وكيف ينبغي أن أغيّر حياتي بعد أن سمعتها؟ أما القلب الذي يقرأ القرآن بعين الناقد أو المحلل فقط فإنه قد يرى جمال البلاغة وروعة البيان، لكنه قد يخرج من الآيات كما دخل دون أن يتغير فيه شيء.

ولهذا فإن أعظم خطرٍ في التعامل مع القرآن أن يتحول إلى نصٍ يُقرأ بلا عبودية، أن يقرأه الإنسان بعقله فقط دون أن يخضع له بقلبه، وأن يحلّل آياته ويشرح بلاغته ويستخرج معانيه، لكنه لا يسمح له أن يغيّر حياته أو يبدّل

طريقه، وهنا يظهر الفرق بين من يتعامل مع القرآن ككتابٍ معرفي وبين من يتعامل معه كفرقان... فالفرقان هو الذي يفرّق بين الحق والباطل في القلب قبل أن يفرّق بينهما في الفكر، ولهذا بدأت سورة الفرقان بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَـزَّلَ الْفُرْقَـانَ﴾، أي الكتـاب الـذي يفـرّق بـين النـور والظـلام، وبـين الهـدى والضلال، وبين طريق الله وطريق النفس والهوى، لكن هذا الفرقان لا يعمل أثره الحقيقي في القلب إلّا إذا دخل القلب من باب العبودية أولاً، ولهذا لم يقل الله: أنزل الفرقان على نبيّه، بل قال: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾.

وكأنَّ الرسالة القُرآنية واضحة لكل من يريد أن يفهم هذا الكتاب حقّاً:

- إن كنت تريد أن تعرف أسرار القرآن فابدأ أولاً بتحقيق العبودية لله،
- وإن كنت تريد أن ترى أنواره فاخضع له قبل أن تُحلّله،
- وإن كنت تريد أن يهديك فكن عبداً لله كما كان رسول الله ﷺ عبداً له،

لأن القرآن في النهاية ليس كتاباً يُفهم بالعقول فقط، بل كتابٌ يهدي الله به القلوب التي جاءت إليه بصدق العبودية.

وهنا نفهم سرّ هذه الكلمة العظيمة التي وصف الله بها نبيّه ﷺ في هذه الآية: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾، فهي ليست مجرد وصفٍ للنبي ﷺ، بل هي إشارةٌ إلى الباب الذي يُفتح منه نور القرآن لكل من أراد أن يهتدي به، باب العبودية الصادقة لله سبحانه وتعالى.

الخيط المحكم بين السور الثلاث

الخيط القرآني المحكم الذي يشدُّ سورَ المؤمنون ثم النور ثم مطلع الفرقان ليس خيطَ موضوعاتٍ متجاورة فحسب، بل خيطُ بناء الإنسان على الحق، ثم بناء المجتمع على الطَّهارة، ثم تثبيت هذا البناء كلِّه بالفرقان الذي يفضح الباطل ويكشف حقيقته؛ فكأنَّ الجزء الثامن عشر لا ينتقل بك من سورةٍ إلى سورة

على سبيل التنقل المجرد، بل يأخذك في مسارٍ قرآنيٍّ شديد الإحكام:

← يبدأ بتشييد باطن المؤمن،

← ثم يحرس ظاهر المجتمع،

← ثم يرفع الجميع إلى ميزان الوحي الذي يفرّق بين النور والظلمة، وبين الحقيقة والافتراء، وبين الرسالة وشُبهات المكذبين.

فسورة المؤمنون تضع الأساس الأول: من هو الإنسان الذي يستحق أن يحمل هذا الدين أصلاً؟ ولهذا افتتحت الطريق بإعلان النتيجة قبل تفصيل الصفات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، ثم بنت هذا الفلاح من داخله: خشوعٌ في الصلاة، وإعراضٌ عن اللَّغو، وطهارةٌ في المال، وعفةٌ في الفرج، ورعايةٌ للأمانات، ومحافظةٌ على الصَّلوات؛ فالسورة هنا لا تبني مجتمعاً من الخارج أولاً، بل تبني إنساناً مراقباً لله من الداخل، ثم لا تترك هذا الإنسان ينسى حقيقته، فترده إلى أصل خلقه، وإلى ضعفه الأول، وإلى أطوار تكوينه، ثم إلى موته وبعثه، ثم تفتح عينيه على آيات السَّماء والماء والأنعام، حتى لا يعيش في الدنيا بسطحية الغافل، ثم تسوق أمامه تاريخ الرسالات وتكذيب الأُمم لتقول له: إن الطريق الذي تمشيه ليس جديداً، وإن سُنن الله في الإيمان والتكذيب والهداية والهلاك ماضية، ثم تكشف له أن كثرة المال والولد ليست علامة نجاة، وأن أهل الخشية والوجل هم السابقون حقّاً، ثم تفضح الغمرة التي تعيشها القلوب المعرضة، وتقرر القاعدة الكلية: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، ثم تنتهي إلى المصير الأخير، إلى البرزخ، والنفخ في الصور، وثقل الموازين وخفتها، حتى تبلغ السؤال الذي يلخص السورة كلها ويصير مفتاح الجزء بأكمله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.. فهذه السورة الأولى تُخرج الإنسان من العبث إلى الغاية، ومن الغفلة إلى المراقبة، ومن دعوى الإيمان إلى صفاته الحقيقية، ومن النظر إلى الدنيا بوصفها مقام إقامة إلى النظر

إليها بوصفها معبراً وطريقا إلى الله تعالى... ثم إذا تأسس هذا الإنسان من الداخل جاءت **سورة النور** لتقول له: إن الإيمان الذي سكن قلبك لا بد أن يصنع بيئةً طاهرةً حولك، وإن الفلاح الباطني الذي بنته سورة المؤمنون لا يكتمل حتى يتحول إلى نظام حياة يحفظ الأعراض، ويصون البيوت، ويؤدب الأبصار، وينظف الألسنة، ويضبط العلاقات، ويجعل المجتمع نفسه وعاءً صالحاً للنور.

ولهذا جاءت سورة النور بلهجة الفرض والبيان: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾، فكأنها تبني على سؤال **المؤمنون**: إذا كنتم لم تُخلقوا عبثاً، فاعلموا أن حياتكم الاجتماعية كذلك لا تُترك عبثاً.. فإذا كانت سورة **المؤمنون** قد حفظت الفرج في أصل الصفة الإيمانية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، فإن سورة **النور** تفصل هذا الحفظ في قوانين المجتمع وحدوده وآدابه؛ فتشرع الحد في الزّنا، وتمنع القذف، وتضع ميزان الشَّهادة، وتعالج اللِّعان، ثم تأتي حادثة الإفك لتكشف أن فساد المجتمعات لا يكون بالفعل الفاحش فقط، بل كذلك بالكلمة الفاجرة، وبالشائعة، وبحُب إشاعة الفاحشة، وبالتلقي بالألسنة قبل التثبت.

← ثم تنتقل من طهارة الأعراض إلى طهارة البيوت،

← ومن طهارة البيوت إلى طهارة النظر،

← ومن طهارة النظر إلى طهارة اللباس والزينة،

← ومن ذلك إلى فتح أبواب النكاح والعفاف،

← ثم إلى النهي عن استغلال الضعيف وإكراه الإماء على البغاء،

← ثم ترتفع بالسورة كلها إلى مركزها الأعظم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾،

فكأنَّ كل الأحكام السابقة لم تكن جفافاً تشريعيّاً، بل كانت إعداداً لمجتمع يستطيع أن يحمل النور؛ لأن القلوب الملوثة، والألسنة المنفلتة، والبيوت المكشوفة، والأبصار السَّائبة، لا تكون أوعيةً للنور.

ثم تصف بيوت الذكر، ورجالها الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع، وتقابلهم بأعمال الكفار التي هي سراب أو ظلمات، ثم تعود فتكشف التناقض الداخلي عند من يقولون آمنّا ثم يعرضون عن حكم الله ورسوله، لتقرر أن النور الحقيقي ليس مشاعر، بل خضوع: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ثم تختم بآداب الاستئذان داخل البيوت، وآداب الجماعة مع الرسول ﷺ، والتحذير من مخالفة أمره.

فصار واضحاً أن **سورة النور** هي الترجمة الاجتماعية والعملية والتشريعية لما تأسس في **المؤمنون** من قبل؛ فهناك بُني القلب، وهنا بُنيت البيئة التي يعيش فيها ذلك القلب.

ثم إذا قام الإنسان من الداخل، وقام المجتمع من حوله على الطهارة والحدود والنور، جاء مطلع **سورة الفرقان** ليعطي هذا البناء كله ميزانه المعرفي والعقدي النهائي؛ أي: من أين جاءت هذه المعايير أصلاً؟ ومن الذي يملك أن يفرضها؟ وما الذي يجعلها حقّاً لا مجرد ذوقٍ اجتماعي أو تراثٍ بشري؟ فجاء الافتتاح: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، وكأنَّ السورة الثالثة تقول: بعد أن رأيتم صفات المؤمنين، وبعد أن رأيتم نظام الطهارة في المجتمع، فاعلموا أن أصل هذا كله هو الفرقان؛ الوحي الفاصل الذي يفرّق بين الحق والباطل، وبين النور والظلمة، وبين العبودية الصادقة والهوى المتزيي بلباس العقل أو الرأي.

ثم تؤسس السورة هذا الفرقان بتوحيد الله في الملك والخلق والتقدير، ثم تفضح بطلان الآلهة التي لا تخلق شيئاً وهي تُخلق، ثم تكشف أن اعتراضات الكفار على الوحي والرسول ليست ناتجة عن نقص بينات، بل عن خلل في أصل التلقي؛ تارةً يقولون إفك، وتارة أساطير، وتارةً يطلبون من الرسول أن يكون على صورةٍ من زخرف الدنيا توافق أهواءهم، ثم تكشف أن الجذر الأعمق وراء هذا كله هو: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾، أي أن من لم يستقر في قلبه يقين الآخرة سيظل يعترض على الوحي من كل زاوية.

ثم تضع السورة مقابلةً كبرى بين السَّعير وجنة الخلد، وبين معاذير المشركين يوم الحشر وبين تبرؤ معبوداتهم منهم، ثم تختم هذا المقطع بقاعدة تمثل امتداداً بالغ القوة لما سبق في المؤمنون والنور: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾؛ فكأنَّ بعد بناء القلب، وبناء المجتمع، وإقامة الفرقان، يبقى الامتحان:

← هل تصبرون على هذا الحق حين يُستهزأ به؟

← هل تصبرون على أوامر النور حين تثقل على الأهواء؟

← هل تصبرون على الفرقان حين يفرز الناس ويفضح الباطل ويجعل أهل العبث في ضيق؟

وعليه، فهذه **السور الثلاث** ليست وحدات منفصلة، بل هي مسارٌ واحد متصاعد:

- **المؤمنون تبني الإنسان الذي لا يعيش عبثاً،**
- **والنور تبني المجتمع الذي لا يعيش فوضى،**
- **والفرقان يثبت المرجع الذي لا يختلط فيه الحق بالباطل.**

أو قل:

- الأولى تبني الضمير،
- والثانية تبني الطهارة العامة،
- والثالثة تبني المعيار.

أو قل:

- الأولى تُخرجك من الغفلة إلى الفلاح،
- والثانية تُخرج حياتك من الانفلات إلى النور،
- والثالثة تُخرج بصيرتك من التلبيس إلى الفرقان.

أو قُل:

- الأولى تقول لك: انظر في نفسك، كيف تعبد، وكيف تخشع، وكيف تحفظ، وكيف ستبعث.
- والثانية تقول لك: انظر في مجتمعك، كيف يصان عرضه، وكيف تُحفظ بيوته، وكيف تُضبط شهواته، وكيف يسري فيه النور.
- والثالثة تقول لك: انظر في المصدر الذي يحكم نفسك ومجتمعك، إنه الفرقان المنزل من رب الملك كله، فلا تغتر بشبهات المكذبين، ولا بزخرف مطالبهم، ولا بطلبهم ديناً يناسب أهواءهم.

ومن أدق ما يظهر هذا الخيط أن سورة المؤمنون ختمت بهدم فكرة العبث: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾، فجاءت سورة النور لتقول عملياً: إذن لا يمكن أن تُترك العلاقات، والبيوت، والأعراض، والأنظار، والطاعات، والآداب عبثاً، بل تُفرض فرضاً وتُبيَّن بياناً، ثم جاءت سورة الفرقان لتقول: وهذا كله ليس اجتهاداً بشريّاً متقلباً، بل هو فرقانٌ منزل من الله الذي له ملك السماوات والأرض.. فانتقل الخطاب من نفي العبث عن الخلق إلى نفي العبث عن المجتمع إلى نفي العبث عن مصدر الهداية نفسه.. وكذلك في خط آخر:

- في المؤمنون وجدت سؤال المصير والبعث والميزان،
- وفي النور وجدت صناعة المجتمع الذي يصلح للنجاة يوم القيامة،
- وفي الفرقان وجدت كشف جذور تكذيب الآخرة التي تفسد على الإنسان كل هذا البناء.

وفي خط ثالث:

- في المؤمنون وُصف المؤمنون بأنهم يحفظون فروجهم،
- وفي النور فُصلت هندسة الطهارة التي تحفظ هذا المعنى جماعيّاً،

- وفي الفرقان ظهر الوحي نفسه باسم الفرقان ليفصل بين من يقبل هذا النور ومن يرده بدعوى الحرية أو السُّخرية أو طلب الخوارق.

ولهذا فالعنوان الأعمق الذي يجمع السور الثلاث يمكن أن يكون: من الفلاح إلى النور إلى الفرقان؛ أو: بناء القلب، وصيانة المجتمع، وتثبيت المعيار؛ أو على نسقٍ وجداني تأسيسي يليق بالجزء :لأنك لم تُخلق عبثاً... فلا يجوز أن تعيش بلا طهارة، ولا أن تمشي بلا فرقان.

فهذا هو الخيط القرآني المحكم في الجزء الثامن عشر: ليس مجرد أحكامٍ هنا، وقصصٍ هناك، وردودٍ على الكفار في موضع ثالث، بل رحلة واحدة يصنعها الوحي في الإنسان: يوقظه أولاً، ثم يطهره، ثم يضيء له الطريق، حتى لا يبقى في حياته شيءٌ متروك للهوى؛ لا قلبه، ولا بيته، ولا مجتمعه، ولا مصدر الحق الذي يتلقاه.

الخريطة البنيوية للجزء الثامن عشر

١) الفلاح يبدأ من الداخل لا من الصورة: ليس أول ما يطلبه القرآن منك في هذا الجزء كثرةَ الحركة، بل صدقَ الباطن؛ فالفلاح افتتحه الله بقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم كشف أن طريقه يبدأ بخشوع الصلاة، ونظافة الوقت من اللَّغو، وطهارة المال، وعفة الجسد، وحفظ الأمانة، والثبات على الصلوات.

٢) الإيمان الحقّ له علامات عملية لا دعوى مجردة: المؤمن في هذا الجزء ليس من قال آمنت فقط، بل من ظهر إيمانه في عبادته، وماله، ولسانه، وشهوته، ووفائه، ولذلك ختمت صفاتهم بالوراثة الحقيقية: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾.

٣) تذكُّر أصل الخلقة يكسر الكِبر ويوقظ المسؤولية: حين يردك القرآن إلى أطوار الخلق من طينٍ إلى نطفةٍ إلى علقةٍ إلى مضغةٍ إلى عظامٍ ثم لحمٍ ثم إنسانٍ

سويٍّ، فهو لا يذكر معلومةً كونية فحسب، بل يهدم غرورك ويُذكّرك أن من أنشأك أول مرة قادرٌ على بعثك ومحاسبتك.

٤) بين الخلق والموت والبعث لا توجد حياة عبثية: هذا الجزء يقطع سكرة الغفلة سريعاً: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾، فالحياة ليست مساحة مفتوحة للهوى، بل مرحلة امتحان بين مبدأ معلوم ومصير محتوم.

٥) الكون كله يُربّي القلب على معنى التقدير لا الفوضى: السماء، والماء النازل بقدر، والجنات، والزيتون، والأنعام، والفلك؛ كل ذلك يُعلّمك أن العالم ليس سائبا، وأنَّ من دبّر هذا كله بحكمة لا يترك الإنسان بلا رسالة ولا حساب.

٦) رسالة الرسل واحدة مهما اختلفت الأزمنة: من نوحٍ إلى من بعده، ومن موسى وهارون إلى عيسى وأُمّه عليهم السَّلام، يتكرر النداء نفسه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾؛ فالاختلاف الحقيقي ليس بين الرسالات، بل بين من يخضع للحق ومن يستكبر عنه.

٧) شُبهة المكذبين قديمة... والجواب القُرآني ثابت: اعتراضهم المتكرر على الرسل كان واحداً: هذا بشر مثلنا، يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب؛ وكأنهم يريدون حقّاً بلا تكليف، ورسولاً بلا بشرية، وديناً لا يجرح كبرياءهم.

٨) الترف إذا لم يُضبط بالإيمان يصير حجاباً عن الآخرة: القرآن يربط بين تكذيب لقاء الآخرة وبين الإتراف في الدنيا، لأن النفس إذا شبعت من الدنيا بلا محاسبة قد ترى كل دعوة إلى الآخرة تهديداً لمتعتها لا نجاةً لها.

٩) تاريخ الأُمم ليس للتسلية بل لتحذير الأحياء: قوله تعالى عن المكذبين ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يعني أنَّ أمماً كانت تمشي على الأرض بقوةٍ

وجبروتٍ انتهت إلى خبرٍ يُروى؛ فكل من ظن أن قوته تحميه من سُنن الله فهو لم يفهم التاريخ القرآني.

١٠) وحدة الأُمَّة أصل... والتحزُّب المنفلت انحراف: بعد تقرير أن الرسالات كلها من مشكاة واحدة يقول الله ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، ثم يكشف الجرح: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾؛ فالتفرق ليس بطولة فكرية، بل كثيراً ما يكون ثمرة هوى وفرح كل حزب بما عنده.

١١) اتساع الرزق ليس دليل رضاً بالضَّرورة: من أخطر أوهام القلوب أن ترى المال والبنين علامة قربٍ من الله بإطلاق، بينما القرآن يهدم هذا الميزان السَّطحي بقوله ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ثم يقطع الوهم: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

١٢) الخوف من الله تعالى لا يناقض العمل... بل يُطهّره: المؤمنون في هذا الجزء يعملون ويعطون ويجتهدون، لكن قلوبهم وجلة؛ ليس لأنهم يسيئون الظَّنَّ بالله، بل لأنهم يعرفون قدره ويعرفون أن الرجوع إليه حق، فلا يغترون بأعمالهم.

١٣) الحق لا يتبع الأهواء... بل الأهواء هي التي يجب أن تنكسر له: القاعدة العظمى في الجزء كله جاءت صريحة: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾؛ فكل مشروع يُراد فيه ليّ الدين حتى يوافق الشَّهوة هو مشروع فساد لا إصلاح.

١٤) الإعراض عن الوحي ليس مشكلة فهم فقط... بل كراهية انقياد: قال تعالى ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾؛ فكثير من الناس لا يرفضون الحق لأنه غير واضح، بل لأنه يطلب منهم تغييراً لا يريدونه.

١٥) الشدائد لا تنفع من أغلق قلبه عن التضرع: كم من إنسان تصيبه الضَّراء

فلا تلينه، ويذوق بعض العذاب فلا يرده، لأن قلبه تعوّد الطغيان حتى صار البلاء نفسه لا يفتح له باب الرجوع.

١٦) السَّمع والبصر والفؤاد نعمٌ امتحانية لا أدوات استهلاك: حين يُذكرك الله بأنه أنشأ لك السَّمع والأبصار والأفئدة، فهو يُذكرك أن هذه المنافذ لم تُعط لك لتغرق بها في الدنيا، بل لتعرفه وتشكره وتهتدي بهداه.

١٧) الاعتراف بربوبية الله دون الاستجابة له تناقض مهلك: المشركون كانوا يقرون أن الأرض لله، وأن رب السماوات السَّبع هو الله، وأن ملكوت كل شيء بيده، لكن هذا الإقرار لم ينفعهم لما لم يتحول إلى تذكر وتقوى وخضوع.

١٨) التوحيد ليس قضية نظرية بل أساس انتظام الوجود كله: قوله تعالى ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ليس مجرد ردٍّ كلامي، بل بيان أن تعدد الآلهة لو وقع لفسد الخلق واضطرب الملك؛ فالتوحيد هو قانون الحق في الكون قبل أن يكون شعار العقيدة على اللسان.

١٩) الدَّفع بالتي هي أحسن عبادة قوة لا ضعف: في خضم التكذيب يأمر الله نبيه ﷺ بقوله ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، أي واجه الشر بأعلى ما يليق بالمؤمن من ضبط النفس، وحسن الخلق، وثبات الحق، لا بانحدارٍ إلى مستوى الخصومة المنفلتة.

٢٠) الاستعاذة من الشياطين ضرورة سير لا هامش تربوي: هذا الجزء يُعلّمك أن المعركة ليست فقط مع الناس أو مع الشَّهوات الظاهرة، بل مع همزات الشياطين وحضورهم؛ ومن أهمل هذا الباب خسر كثيراً من صفائه وهو لا يشعر.

٢١) الموت يكشف الحقيقة... لكنه لا يمنح فرصةً جديدة: حين يقول المحتضر ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً﴾ يكون قد رأى ما لم يعد ينفع معه

النَّدم؛ فالرجوع المطلوب الآن هو رجوع الأحياء قبل أن يقال لهم ﴿كَلَّا﴾.

٢٢) يوم القيامة يُسقط كل الأسانيد الوهمية: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ﴾؛ هناك لا ينفعك اسم، ولا عائلة، ولا مكانة، ولا جمهور، بل الذي يبقى هو وزن العمل وصدق العبودية.

٢٣) الفلاح الحقيقي يُقاس بالميزان لا بالمشهد الأرضي: افتُتح الجزء بالفلاح وخُتم في المؤمنون بالمفلحين أيضاً، لكن الميزان هناك صار أوضح: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ فلا تغتر بمظاهر نجاحٍ لا وزن لها عند الله سبحانه وتعالى.

٢٤) السُّخرية من أهل الإيمان قد تكون سبب الهلاك لا مجرد ذنب عابر: المكذبون لم يكتفوا برفض الحق، بل اتخذوا المؤمنين سُخريةً حتى أنساهم ذلك ذكر الله؛ فالاستهزاء بأهل الطاعة ليس طرفاً اجتماعياً، بل علامة قسوةٍ قد تُغلق بها أبواب الهداية.

٢٥) الدنيا كلها قصيرة مهما طالت في عين الغافلين: حين يُسأل أهل الخسران عن مدة لبثهم في الأرض يقولون: يوماً أو بعض يوم؛ وهكذا يكشف القرآن هشاشة الدنيا حين تُقاس على مشهد الخلود.

٢٦) المفتاح الجامع للجزء كله: نفي العبث عن الوجود: الآية الجامعة في المؤمنون ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ هي العمود الفقري للجزء كله؛ فبها يُفهم الفلاح، والبعث، والحدود، والآداب، والنور، والفرقان، والحساب.

٢٧) الطُّهر الاجتماعي ليس تشدداً... بل رحمة تحفظ الناس: سورة النور بدأت بلهجة الفرض والبيان، لتقول إن حماية المجتمع من الفاحشة ليست قسوة، بل رحمة بعيدة المدى؛ لأن المجتمعات لا تنهار فجأة، بل حين تُكسر حدود العفة ويُطبع الناس مع الانفلات.

٢٨) الأعراض في الإسلام مصونة ببينات لا بأهواء: القذف لا يُبنى على

الظنون ولا على الإشاعات ولا على "يبدو لي"، ولذلك شُرطت الشهادة الكاملة، وجاء الحد شديداً فيمن يرمي المحصنات بلا بينة؛ لأن الكلمة قد تجرح ما لا يداويه العُمر.

٢٩) حتى في أعقد القضايا الأُسرية تبقى الشريعة عادلة دقيقة: آيات اللِّعان تبيّن أن الإسلام لا يدفن المشكلات الأُسرية تحت الصَّمت، ولا يطلق الاتهام بلا ضابط، بل يفتح مساراً شرعياً يحفظ الحقوق ويغلق أبواب الفوضى والانتقام.

٣٠) الشائعة ليست خبراً خفيفاً... بل امتحان إيمان: في حادثة الإفك علّم الله المؤمنين أن أول واجب عند سماع التهمة هو حسن الظَّن، وأن الفم ليس مكاناً لتمرير كل ما يسمعه، وأن ما يراه الناس هيناً قد يكون عند الله عظيماً.

٣١) ليس كل من لم ينشر الفاحشة بريئاً منها قلباً: الوعيد لم يأت فقط لمن صنع الإفك، بل حتى لمن أحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا؛ لأن مرض القلب قد يبدأ بتلذذ السَّماع، أو بتتبع الفضائح، أو بالفرح بسقوط الناس.

٣٢) التزكية فضلٌ من الله وليست إنجازاً ذاتيّاً خالصاً: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾؛ فالعبد يجاهد، نعم، لكن طهارة القلب في النهاية منحةٌ من الله لمن صدق في طلبها.

٣٣) العفو أحياناً هو الامتحان الأعلى بعد الجرح: لمَّا أمر الله أولي الفضل ألا يقطعوا إحسانهم، ثم قال ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾، كان يرفع النفوس من عدل المقابلة إلى مقام الإحسان؛ ومن عرف حاجته إلى مغفرة الله هان عليه أن يعفو.

٣٤) البيت في الإسلام حرمٌ لا ممرٌّ مباح: آيات الاستئذان تُعلِّم أن البيوت

ليست فضاءات مفتوحة لكل داخل، وأن الأدب مع الأبواب جزء من الطهارة، وأن الرجوع إذا قيل لك ارجع ليس إهانةً بل زكاة نفس.

٣٥) العين أول أبواب الطهارة أو أول أبواب السقوط: غض البصر في سورة النور ليس وصيةً جانبية، بل بوابة حفظ الفرج، وصيانة القلب، وسلامة المجتمع؛ ولذلك خوطب به المؤمنون والمؤمنات معاً.

٣٦) الستر الشرعي ليس حبساً للمرأة بل حماية لمعنى الكرامة: تفصيل الزينة، والخمار، والمحارم، والنهي عن إظهار الخفي بالإشارة أو الحركة، كله يدل على أن الإسلام لا يتعامل مع الجسد بوصفه سلعةً للمشهد، بل أمانةً تُصان.

٣٧) التوبة خطابٌ جماعي لا فردي فقط: بعد أحكام العفة قال الله ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، ليُذكرك أن المجتمع الطاهر لا يقوم على اتهام الآخرين وحدهم، بل على رجوع الجميع إلى الله تعالى.

٣٨) فتح باب النكاح جزء من مقاومة الفتنة: الشَّريعة لا تكثر من النواهي ثم تترك الناس بلا منافذ حلال؛ لذلك أمرت بإنكاح الأيامى، ووعدت بالإغناء من الفضل، وأمرت من لم يجد بالعفاف حتى يفتح الله له.

الأيامى تشمل:

- المرأة التي لم تتزوج أصلاً.
- المرأة التي ترمّلت (مات زوجها)
- المرأة التي طلقت.
- وكذلك الرجل غير المتزوج.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾

أي: زوِّجوا من لا زوج له من الرجال والنساء.

الخلاصة: الأيامى هم العُزَّاب ومن لا زوج له، رجالاً ونساءً.

٣٩) استغلال الضُّعفاء جنسياً أو مالياً من أبشع صور الظلم: النهي عن إكراه الفتيات على البغاء يكشف أن الإسلام لا يحارب الفاحشة بوصفها شهوة فقط، بل يحارب كذلك البنية الظالمة التي تتاجر بأجساد الضعفاء لمكاسب الدنيا.

٤٠) كل أحكام النور تمهيد للمعنى الأكبر: أن الهداية نور: حين تبلغ السورة قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تفهم أن الطهارة كلها كانت إعداداً لاستقبال النور؛ فالقلب الملوث، والبيت الفوضوي، والعين المنفلتة، واللسان الفاجر، **لا تكون أوعيةً للهداية.**

٤١) النور لا يدخل القلوب المزدحمة بالغفلة: وصف بيوت الذكر، والرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع، يدل على أن النور لا يسكن قلباً جعل الدنيا أصلاً والدين هامشاً؛ بل يسكن قلباً عرف الأولويات وخاف يوم القيامة.

٤٢) العمل بلا إيمان قد يلمع في الدنيا ثم ينكشف سراباً: في مقابل النور وصف الله أعمال الكفار بالسَّراب، ثم بالظلمات المتراكبة؛ فليست كل حركةٍ مثمرة في ظاهر الأرض نافعةً عند الله إذا فقدت نور الإيمان والنِّيَّة الصحيحة.

٤٣) الكون كله في حال تسبيح... فكيف يعيش الإنسان شارداً؟: تسبيح من في السماوات والأرض والطير، وتقليب الليل والنهار، ونزول المطر، وخلق الدواب؛ كلها تقول لقلب المؤمن: أنت تعيش في عالمٍ كله يسبح، فلا يليق بك أن تكون النشاز الوحيد.

٤٤) المعيار الحقيقي للإيمان عند التحاكم هو: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: من يدّعي الإيمان ثم يعرض إذا دُعي إلى حكم الله ورسوله، أو يقبل فقط حين يكون الحق له، فهذا لم يفهم بعد معنى الانقياد؛ لأن الإيمان يظهر عند التنازع لا عند الراحة.

٤٥) الطاعة ليست حماسة كلامية ولا أيماناً مغلظة: في مواجهة الأيمان الكثيرة قال الله ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾؛ فالدين لا يحتاج حرارة اللسان بقدر ما يحتاج استقامة الجوارح وثبات السلوك.

٤٦) الاستخلاف والتمكين ثمرة عبودية لا شعار قوة: وعد الله بالاستخلاف والأمن مرتبط بقوله ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾؛ فحين يتحول التمكين إلى غاية مستقلة عن التوحيد يفسد المقصود وتضيع البركة.

٤٧) رحمة الشريعة تظهر أيضاً في أدق تفاصيل البيت:

- الاستئذان في العورات الثلاث،
- وتعليم الأطفال بعد البلوغ،
- وأحكام القواعد من النساء،
- ورفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض،
- وآداب الأكل والسَّلام؛

كل ذلك يدل على أن الدين ينظم التفاصيل الصغيرة لأنها تصنع صفاء الحياة كلها.

٤٨) تعظيم الرسول ﷺ جزء من تعظيم الوحي والطريق: خاتمة النور تؤكد أن دعاء الرسول ليس كدعاء بعضنا بعضاً، وأن مخالفة أمره ليست هفوةً إدارية، بل باب فتنة أو عذاب؛ لأن من استخف بالهدي النبوي خسر باب النور العملي كله.

٤٩) الفرقان هو الاسم الذي يكشف وظيفة الوحي في هذا الجزء: بعد الفلاح والنور يأتي اسم الكتاب هنا: ﴿الْفُرْقَانَ﴾؛ أي الوحي الذي يُفرّق بين الحق والباطل، وبين عبودية الله وعبودية الهوى، وبين النور الذي يهدي والظلمة التي تلبّس على الناس.

٥٠) عظمة الرَّب هي الأصل الذي يُبنى عليه كل حكم وكل هدى: مطلع الفرقان يرد كل شيء إلى من له ملك السماوات والأرض، الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك، وخلق كل شيء فقدره تقديراً؛ فمن كان هذا شأنه فهو وحده الذي يملك أن يشرع، ويأمر، ويهدي، ويحاسب.

٥١) كل معبودٍ من دون الله ساقطٌ من جهة العقل قبل النقل: لا يخلق شيئاً، وهو نفسه مخلوق، ولا يملك لنفسه ضَرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؛ فالشرك في هذا الجزء لا يُدان فقط لأنه محرم، بل لأنه باطلٌ متهافت من أساسه.

٥٢) أهل الباطل يُبدّلون التُّهم لكنهم لا يملكون حجة: مرةً يقولون إفك، ومرة أساطير، ومرة مسحور، ومرة يعترضون على بشرية الرسول؛ وهذا الاضطراب نفسه دليل أنهم لم يردوا الحق لأنه غير واضح، بل لأنهم لا يريدون التسليم له.

٥٣) بشرية الرسول ﷺ ليست شُبهة... بل سنة الرسالات: أكله الطعام، ومشيه في الأسواق، ليس نقصاً في الرسالة، بل دليل أنها رسالة تُبلّغ للبشر على يد بشر، ليبقى الاقتداء ممكناً، وتبقى الحجة قائمة على الناس.

٥٤) الاعتراضات على الوحي كثيراً ما تخفي وراءها إنكار الآخرة: قال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾؛ فالجذر العميق لكثير من التمرد ليس عدم الاقتناع ببعض التفاصيل، بل رفض الوقوف بين يدي الله أصلاً.

٥٥) من لا يختار الفُرقان اليوم سيُواجه السَّعير غداً: صور النار في مطلع الفرقان ليست لزرع الرُّعب المجرد، بل لهز القلب الذي يهوّن التكذيب، ثم تأتي المقابلة: أذلك خير أم جنة الخلد؟ ليبقى السؤال مصيرياً لا جدلياً.

٥٦) المعبودات الباطلة ستتبرأ من عابديها يوم الحشر: هناك تسقط آخر الأوهام؛ فلا وليّ من دون الله، ولا ناصر، ولا تحويل للعذاب، ولا صرف له؛

لأن من عاش على الباطل سيكتشف يومها أن ما تعلق به لم يكن يملك له شيئاً أصلاً.

٥٧) الناس بعضهم لبعض فتنة... والنجاة بالصبر والبصيرة: خاتمة هذا المقطع من الفرقان ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ تلخّص مسار الجزء كله؛

- فالمؤمن يفتن بالدنيا،
- وبالشهوات،
- وبالشبهات،
- وبسُخرية الناس،
- وبثقل التكاليف،

ولا يثبت إلا إذا أمسك بالفلاح، والنور، والفرقان معاً.

٥٨) الخيط الجامع للجزء كله: من الفلاح إلى النور إلى الفرقان: سورة المؤمنون تبني الإنسان الذي لا يعيش عبثاً، وسورة النور تبني المجتمع الذي لا يعيش فوضى، ومطلع الفرقان يثبت المعيار الذي لا يختلط فيه الحق بالباطل؛ فالقلب يُبنى أولاً، ثم الحياة تُطهَّر، ثم الطريق يُضاء.

الرسالة الكبرى للجزء الثامن عشر: لأنك لم تُخلق عبثاً فلا يجوز أن تعيش بلا طهارة ولا أن تمشي بلا وحي: هذا الجزء كله يريد أن ينقلك من غفلة "أنا أعيش" إلى يقين "أنا أُبتلى"، ومن فوضى "أفعل ما أشاء" إلى نور "أقف عند حدود الله"، ومن التباس "كل طريقٍ محتمل" إلى فرقان "هذا حق وهذا باطل".

الخلاصة الوجدانية الجامعة

إن صلحت صلاتك، وطَهُر لسانك، وانضبطت شهوتك، وخشع قلبك، وعرفت أن الدنيا معبر، وصنت بيتك، وغضضت بصرك، ووزنت الأخبار،

وخضعت لحكم الله ورسوله، واستمسكت بالفرقان عند الفتن... فقد دخلت في الروح التي يريد هذا الجزء أن يصوغ بها الإنسان؛ روح عبدٍ يعرف لماذا خُلق، وكيف يعيش، وإلى أين يمضي.

المحور الإيماني المركزي للجزء الثامن عشر

يدور حول إقامة الإنسان والمجتمع على نور العبودية لله تحت هداية الوحي الذي يفرّق بين الحق والباطل؛ فالجزء يبدأ بتثبيت حقيقة أن الفلاح ليس كلمةً تقال ولا انتماءً يُدَّعى، بل حقيقة إيمانية تتجسد في قلبٍ خاشع وجوارح منضبطة، كما قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، ثم تتسع الدائرة لتشمل حياة المؤمن كلها؛

١) لسانه الذي يُعرض عن اللَّغو،

٢) وماله الذي يُطهر بالزكاة،

٣) وشهوته التي تضبط بالعفة،

٤) وأمانته التي تُصان بالعهد،

لأن الإيمان في القرآن ليس شعوراً داخلياً منفصلاً عن السلوك، بل بناء متكامل يربط العبادة بالأخلاق والنِّيَّة بالعمل والمصير بالاختيار.

ثم يردّ القرآن هذا الإنسان إلى أصله وضَعفِه وتقدير الله تعالى له في الخلق، ليوقظه من الغفلة ويضعه أمام الحقيقة الكبرى: أنه مخلوقٌ مربوب، وأن حياته مرحلة بين خلقٍ وموتٍ وبعث، كما قال سبحانه ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾، فيتضح أن الوجود ليس عبثاً ولا حركةً بلا غاية، بل امتحانٌ يجري في كونٍ منظم بآيات الخلق والرزق والتدبير، ثم تؤكد قصص الرسل وسُنن الأُمم أن الصراع بين التوحيد والتكذيب قديم، وأن التكذيب غالباً ما يتولد من الكبر والترف والغفلة عن الآخرة، حتى يواجه الإنسان السؤال الذي يلخص حقيقة الحياة كلها: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً

وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾... ومن هذا الأساس الإيماني ينتقل الجزء إلى بناء المجتمع المؤمن الذي يحمل هذا الإيمان في واقعه، فتأتي سورة النور لتقرر أن الطهارة ليست فضيلة فردية فقط بل نظام حياة يحفظ الأعراض والبيوت والأنظار والكلمات، وأن المجتمع الذي يريد نور الله لا بد أن يصون نفسه من الفاحشة الظاهرة والباطنة ومن إشاعة السُّوء بين الناس، ثم ترفع السورة هذا كله إلى مصدره الأعلى حين تقول ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فالنور الذي يزكي القلوب ويهدي السُّلوك ويقيم العدل ليس منبعثاً من العادات أو الأهواء بل من هداية الله التي تقود إلى الطاعة الصادقة ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وبها يتحقق وعد الاستخلاف والأمن لمن عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً.

ثم يجيء مطلع سورة الفرقان ليكشف الميزان الذي يحفظ هذا البناء كله، وهو الوحي المنزل الذي يفرّق بين الحق والباطل، كما قال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، فيثبت توحيد الله وربوبيته، ويكشف بطلان الشرك وشبهات المكذبين، ويبين أن سبب الضَّلال الأعمق هو الإعراض عن الآخرة واتباع الهوى، بينما الحق ثابت لا يتغير بمطالب الناس ولا برغباتهم ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، ولذلك يختم هذا المسار بتذكير المؤمن أن طريق الحق محفوف بالفتن والاختبار، وأن الثبات عليه هو علامة الصدق ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

وهكذا يتضح أن المحور الإيماني الجامع للجزء كله هو إخراج الإنسان من الغفلة إلى العبودية الواعية، وبناء حياته الفردية والاجتماعية على الطهارة والطاعة، ثم تثبيت هذا البناء بنور الوحي الذي يميز الحق من الباطل ويهدي إلى الصراط المستقيم حتى يلقى العبد ربَّه غير عابث بحياته ولا معرض عن هدايته.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها الجزء الثامن عشر

❖ الانحراف العقدي

١) الشرك بالله واتخاذ آلهةٍ من دونه: أخطر انحراف يفضحه الجزء هو عبادة غير الله مع الاعتراف بربوبيته؛ إذ لا يخلق المعبودون شيئاً وهم مخلوقون، قال تعالى ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

٢) إنكار البعث والآخرة: الانحراف العقدي العميق الذي يقود إلى التمرد على الوحي هو تكذيب القيامة؛ لأن من لا يؤمن بالرجوع إلى الله لا يرى لحياته ميزاناً، قال تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

٣) التشكيك في الوحي واتهامه بالافتراء: يظهر في اتهام القرآن بأنه إفك أو أساطير أو من تعليم البشر، وهو طعن في مصدر الهداية الإلهية، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾.

٤) الاعتراض على بشرية الرسل: منحرف عقدياً من يرفض الرسالة لأن الرسول بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؛ فهذه سُنة الرسالات وليست نقصاً، قال تعالى ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾.

٥) اتباع الهوى بدل الخضوع للحق: الانحراف العقدي يظهر حين يريد الإنسان أن يتبع الدين هواه لا أن يتبع هو الدين، ولذلك قرر القرآن القاعدة ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

٦) نسبة الولد أو الشريك لله: وهو انحراف في أصل التوحيد يناقض كمال الربوبية والإلهية، ولذلك نفاه القرآن بوضوح ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

❖ الانحراف الأخلاقي

١) إطلاق الشهوة وعدم حفظ الفروج يبدأ الفساد الأخلاقي: حين تُرفع الحدود عن الشَّهوة ويُستهان بالعِفة، لذلك وصف المؤمنين بقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾.

٢) الزِّنا والاستخفاف بحُرمة العِرض: الجزء يحذر من تحويل الفاحشة إلى أمر مألوف في المجتمع، فجاء الحكم الصَّارم حمايةً للطَّهارة، قال تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

٣) القذف والاتهام بلا بينة: الكلمة الجارحة قد تدمر حياة إنسان وتشيع الفساد؛ لذلك شدد القرآن العقوبة، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾.

٤) إشاعة الفاحشة بين المؤمنين: حتى مجرد حب انتشار الفاحشة انحراف خطير؛ لأنه يفسد القلوب ويهدم الحياء، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٥) اتباع خطوات الشيطان في الشَّهوات والسُّلوك: الشيطان لا يقود إلى الفساد دفعة واحدة بل عبر خطوات متدرجة، لذلك جاء التحذير ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

❖ الانحراف الاجتماعي

١) تفكك الأُمَّة إلى أحزاب متنازعة: حين يتحول الدين إلى رايات متفرقة يفرح كل حزب بما لديه ويضيع الأصل الجامع، قال تعالى ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً﴾.

٢) الاستهانة بحرمة البيوت والخصوصية: المجتمع الذي لا يحفظ حرمة البيوت يفقد الطمأنينة والأمان؛..

لذلك جاء الأمر بالاستئذان، قال تعالى ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾.

٣) ترك آداب العفة في النظر والاختلاط: العين بوابة الفتنة الكبرى، فإذا أُطلقت بلا ضبط تتابعت بعدها بقية الانحرافات، قال تعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾.

٤) نشر الشائعات دون تحقق: الجزء يفضح خطورة تداول الأخبار بلا علم كما وقع في حادثة الإفك، قال تعالى ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾.

٥) مخالفة حكم الله ورسوله عند النزاع: المجتمع المؤمن يقوم على التحاكم للوحي لا للأهواء، لذلك قال تعالى ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

❖ الانحراف النفسي

١) الغُرور بالدنيا والاغترار بالمال والبنين: قد يظن الإنسان أن كثرة الرزق دليل رضى الله، بينما يبين القرآن أن هذا قد يكون ابتلاءً، قال تعالى ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾.

٢) القسوة القلبية عند نزول البلاء: بعض القلوب لا تلين حتى مع الشدائد، فيبقى صاحبها في طغيانه، قال تعالى ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

٣) الغفلة عن الغاية من الحياة: الانحراف النَّفسي العميق هو العيش بلا شعور بالمسؤولية، لذلك جاء السؤال الحاسم ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾.

٤) الاستهزاء بالمؤمنين وأهل الطاعة: السُّخرية من الصَّالحين قد تُميت القلب وتقطع طريق الهداية، قال تعالى ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً﴾.

٥) تأجيل التوبة حتى حضور الموت: من أخطر خداع النفس أن تؤجل الرجوع إلى الله حتى يفاجئها الموت، قال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾.

الملامح الشخصية التي يصنعها الجزء ١٨

الجزء الثامن عشر يصنع نموذجاً إيمانياً متكاملاً للإنسان المؤمن؛ ليس مجرد فردٍ صالح في عبادته الخاصة، بل إنسانٌ متوازن في قلبه وعقله وسلوكه وعلاقاته، يعيش تحت نور الوحي ويقيس حياته كلها بميزان الآخرة.

١) أول ملامح هذه الشخصية العبودية الواعية لله؛ فهي شخصية تبدأ من الخشوع في الصِّلة بالله قبل كل شيء، لأن القلب الذي يخشع في الصلاة يتربى على مراقبة الله في كل شأن، ولذلك افتتح القرآن صورة هذا الإنسان بقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، فالفلاح هنا ليس إنجازاً دنيوياً بل حالة قلبٍ امتلأ بتعظيم الله فانعكس ذلك على الجوارح.

٢) ثم تتشكل شخصية المؤمن في هذا الجزء بصفة النقاء الداخلي وضبط النفس؛ فهو يُعرض عن اللَّغو لأن وقته أثمن من أن يضيع في الكلام الفارغ، ويُطهر ماله بالزكاة، ويصون شهوته بالعِفة، ويحفظ الأمانة والعهد، فتصير حياته منضبطة بقيم واضحة لا تقودها الرَّغبات المتقلبة، ولذلك وصفهم الله بقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، وقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

٣) ومن ملامح هذه الشخصية أيضاً اليقظة الوجودية ومعرفة الغاية من الحياة؛ فالمؤمن الذي يصنعه هذا الجزء لا يعيش في الدنيا غافلاً عن مصيره، بل يستحضر أصل خلقه وضعفه ومآله، فيدرك أن حياته مرحلة بين خلقٍ وموتٍ وبعث، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾، ولذلك لا يتعامل مع الدنيا على أنها الغاية بل على أنها طريق إلى لقاء الله تعالى.

٤) ويتشكل في هذه الشخصية كذلك التوازن بين العمل والخوف من الله؛ فهو يسارع في الخيرات ويجتهد في الطاعات لكنه لا يغتر بعمله، لأن قلبه يعلم أنه راجع إلى الله، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾، فهذه الشخصية تجمع بين الاجتهاد والتواضع، وبين الطاعة والخشية.

٥) ومن ملامحها أيضاً الاستقامة الأخلاقية والطَّهارة الاجتماعية؛ فهي شخصية تحرس المجتمع من الفوضى الأخلاقية، فتحفظ الأعراض، وتغض الأبصار، وتصون البيوت، وتزن الكلمات قبل نشرها، لأن المؤمن يدرك أن الطهارة ليست شأناً فردياً فقط بل مسؤولية جماعية، ولذلك جاء النداء الإيماني في سورة النور ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، ثم قال بعدها ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾.

٦) كما يظهر في هذه الشخصية الانقياد الصادق للوحي والعدل في التحاكم؛ فهي لا تختار من الدين ما يوافق رغبتها وتترك ما يخالفها، بل تقف عند حكم الله ورسوله تسليماً وثقة، ولذلك وصف القرآن المؤمنين بقوله ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فهذه الطاعة ليست قهراً بل ثقةً بأن حكم الله هو الحق.

٧) ومن ملامح هذه الشخصية كذلك البصيرة في مواجهة الشبهات والانحرافات العقدية؛ فهي تعرف ربها حق المعرفة، وتوقن بتوحيده وكمال ملكه، فلا تغتر بزخرف الشرك ولا بتشكيك المكذبين، لأنها تعيش تحت هداية الفرقان الذي يميز بين الحق والباطل، كما قال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، فالوحي في حياتها معيارٌ يحكم الأفكار والأفعال.

٨) ومن الصفات التي يصنعها هذا الجزء أيضاً الصبر والثبات في الفتن؛ فالمؤمن يدرك أن طريق الحق لن يخلو من اختبار، وأن الناس قد يكونون فتنةً

لبعضهم، لذلك يتعامل مع الابتلاء بالصبر والثبات والاعتماد على الله، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾، فالصبر هنا ليس مجرد احتمال للأذى بل ثبات على الحق رغم الضغوط.

٩) ثم تكتمل ملامح هذه الشخصية بصفة التواضع والرجوع الدائم إلى الله؛ فهي شخصية تستعيذ بالله من وساوس الشيطان، وتطلب المغفرة والرحمة، وتعلم أن النَّجاة ليست بجهد الإنسان وحده بل بفضل الله، ولذلك يختم المؤمن دعاءه بما ختمت به السورة ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وهكذا يرسم الجزء الثامن عشر صورة إنسانٍ يعيش بين خشوع القلب، وطهارة السلوك، وبصيرة العقل، وتسليم الوحي، واستحضار الآخرة؛ إنسانٍ يعرف لماذا خُلق، ويعرف كيف يعيش، ويعرف إلى أين يمضي، فلا تغره الدنيا ولا تضله الشُّبهات، لأنه يسير في حياته على نور الإيمان والفرقان حتى يلقى الله تعالى وهو من أهل الفلاح.

أمراض القلوب التي يعالجها الجزء الثامن عشر

❖ أولاً: أمراض العلاقة بالله (الخلل العقدي)

١) مرض الشِّرك بالله والتعلق بغيره: من أخطر أمراض القلب أن يتوجه بالعبادة أو التعظيم أو الرجاء إلى غير الله، فيخلط بين الخالق والمخلوق، ولذلك فضح القرآن هذا الانحراف بقوله ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، ليعيد القلب إلى التوحيد الخالص الذي لا يقوم الإيمان بدونه.

٢) مرض إنكار الآخرة والغفلة عن المصير: القلب إذا غاب عنه اليقين بالبعث والحساب انفتح أمامه باب العبث والتمرد، ولذلك يذكّر الجزء الإنسان بحقيقة المصير ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

﴿تُبْعَثُونَ﴾، ليعيد للروح شعورها بالمسؤولية أمام الله.

٣) مرض الشَّك في الوحي والطعن في الرسالة: حين يتعامل القلب مع الوحي بريبةٍ أو اتهامٍ أو تشكيك فإنه يفقد مصدر الهداية كله، ولذلك حكى القرآن قول المكذبين ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ ثم بيّن أن الحق منزل من العليم الخبير الذي يعلم السِّر في السماوات والأرض.

٤) مرض تقديم الهوى على الحق: إذا صار الهوى معيار الحكم بدل الوحي اختلت الموازين في القلب والعقل، ولذلك قرر القرآن قاعدةً كاشفة لهذا المرض ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، ليعيد القلب إلى الخضوع للحق لا إخضاع الحق لرغباته.

❖ ثانياً: أمراض النِّيَّة والعبودية

١) مرض الغفلة عن معنى العبودية: القلب الغافل قد يؤدي الأعمال دون أن يعيش معنى الوقوف بين يدي الله، ولذلك يبدأ الجزء بإحياء روح العبادة في الصلاة ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، لأن الخشوع يعيد القلب للمثول بين يدي الله ويُطهره من التشتت.

٢) مرض الانشغال باللَّغو وضياع العمر: القلب الذي يعتاد اللَّغو والكلام الفارغ يبتعد تدريجياً عن الذكر والوعي، ولذلك وصف المؤمنين بأنهم ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، ليُعاد توجيه القلب إلى ما ينفع في الدنيا والآخرة.

٣) مرض الغُرور بالأعمال: قد يعمل الإنسان الصَّالحات ثم يغتر بها وينسى أنه مقبل على حساب الله، فجاء وصف المؤمنين بأنهم يعملون ويخافون في الوقت نفسه ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

٤) مرض الشعور بالاستغناء عن الله: حين يظن الإنسان أن طهارته أو صلاحه من نفسه لا من فضل الله يقع في خفاء الكبر، ولذلك يُذكّر القرآن بأن التزكية منحة ربانية ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾.

❖ ثالثاً: أمراض الموقف الأخلاقي

١) مرض إطلاق الشَّهوة وضعف العفة: من أمراض القلب أن تسيطر عليه الشَّهوة حتى تتجاوز حدود الله، ولذلك وصف القرآن المؤمنين بأنهم يحفظون فروجهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ليُعيد للقلب سيطرته على الغريزة بدل خضوعه لها.

٢) مرض القذف والاعتداء على الأعراض: القلب المريض قد يتلذذ باتهام الناس ونشر الشُّبهات حولهم، ولذلك شدد القرآن في حماية العرض ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ لأنَّ الكلمة الجائرة قد تهدم حياة إنسان.

٣) مرض إشاعة الفاحشة في المجتمع: ليس الفساد الأخلاقي فقط في الفعل بل في نشره وتزيينه، ولذلك حذر القرآن من هذا المرض القلبي بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٤) مرض اتباع خطوات الشيطان: الشيطان لا يدفع الإنسان إلى الانحراف دفعة واحدة بل يقوده بخطوات صغيرة، لذلك جاء التحذير الشامل ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ليبقى القلب يقظاً لكل بداية انحراف.

❖ رابعاً: أمراض الثبات أمام الابتلاء

١) مرض الغُرور بالدنيا والاغترار بالنِّعمة: القلب قد يفسر النِّعمة على أنها علامة رضى دائم من الله فيغفل عن الابتلاء، لذلك يكشف القرآن هذا الوهم ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾.

٢) مرض القسوة عند نزول البلاء: بعض القلوب لا تلين حتى حين يصيبها العذاب أو الشِّدة، ولذلك وصف القرآن هذا الانغلاق بقوله ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

٣) مرض السُّخرية من المؤمنين عند الفتن: القلب المنحرف قد يستهزئ بأهل الطاعة ويحتقرهم، لكن هذا المرض قد يكون سبب الهلاك، كما قال تعالى ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾.

٤) مرض تأجيل التوبة والتسويف: من أخطر أمراض القلب أن يؤجل الرجوع إلى الله حتى يفاجئه الموت، فيقول متحسراً ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً﴾ ولكن بعد فوات الأوان.

٥) مرض الضعف أمام الفتن والابتلاءات: القلب الذي لا يثبت عند الفتنة يفقد اتجاهه سريعاً، ولذلك يذكّر القرآن أن الحياة نفسها ميدان اختبار ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

وهكذا يعالج الجزء الثامن عشر أمراض القلب من جذورها؛ فيصحح العقيدة أولاً، ثم يطهّر النِّيَّة والعبودية، ثم يضبط الأخلاق والسلوك، ثم يقوي القلب على الثبات أمام الفتن، حتى يخرج الإنسان بقلبٍ حيٍّ يعرف ربَّه، ويستقيم على أمره، ويسير في الحياة بنور الوحي حتى يلقى الله من أهل الفلاح.

اختبار ذاتي عميق: أسئلة مواجهة لا معلومات للجزء الثامن عشر

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

١) هل أقرأ افتتاح المؤمنون ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وكأنها تصفني فعلاً، أم أن بيني وبين صفاتهم مسافةً كبيرة ما زلت أهرب من الاعتراف بها؟ وهل خُشوعي في الصلاة حقيقةٌ تُرى في قلبي، أم مجرد صورة عبادةٍ اعتدتها جوارحي بينما قلبي ساهٍ بعيد؟.

٢) هل أنا ممن ﴿هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ حقّاً، أم أن عمري يتسرب في كلامٍ فارغ، ومتابعاتٍ لا تزيدني قُرباً من الله، وانشغالاتٍ تستهلك قلبي بلا ثمرة؟ وهل عندي شجاعة أن أسمّي "اللّغو" في حياتي باسمه الصريح بدل أن أزيّنه بعنوان الراحة أو الترفيه أو متابعة الواقع؟.

٣) هل علاقتي بالمال علاقة عبدٍ يزكّي ويؤدي الحق، أم علاقة قلبٍ يتثاقل عند البذل ويحب أن يأخذ أكثر مما يعطي؟ وهل الزكاة والإنفاق عندي عبادةُ شُكر، أم خصمٌ مؤلم أشعر أنني أخسره من دنياي؟.

٤) هل أنا ممن يحفظون فروجهم حقّاً، لا بالفعل فقط بل بالنظر، والخيال، والرسائل، والخلوات، ومواطن الفتنة؟ وهل أتعامل مع أوامر العفة في هذا الجزء على أنها حراسةٌ من الله لكرامتي، أم أراها قيوداً ثقيلة على شهواتي؟.

٥) هل أنا راعٍ للأمانات والعهود فعلاً، أم أنني أبرع في تبرير التقصير، والتأخر، ونسيان الوعود، والتساهل في حقوق الناس؟ وهل يثق الناس بكلمتي لأنهم رأوا فيها صدقاً وثباتاً، أم لأنهم لم يختبروني بعد في مواضع المصالح والضغوط؟

٦) هل أعيش حقيقة أنني مخلوقٌ من ضعف، وسأموت ثم أُبعث، أم أن هذه المعاني عندي معلومات محفوظة لا تغيّر طريقة عيشي للدنيا؟ وهل آية ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ هزّت تصوري للحياة، أم مررت عليها وأنا ما زلت أعيش على هامش الغاية؟.

٧) هل أنا من أهل الطهارة التي تريدها سورة النور، فأحفظ لساني من القذف، وقلبي من التلذذ بالشائعات، وبيتي من الفوضى، وبصري من الانفلات؟ أم أنني أظن نفسي بعيداً عن الفاحشة، بينما أشارك في صناعتها بالنظر، أو النشر، أو التهوين، أو حب إشاعتها بين الناس؟.

٨) هل قولي عند التحاكم إلى شرع الله هو حقّاً ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، أم أنني أطيع حيث يوافق الحكم رغبتي، وأتردد حيث يجرح هواي؟ وهل إيماني بالوحي إيمانُ انقياد، أم إعجابٌ انتقائي بما لا يكلّفني كثيراً؟.

٩) هل أنا ممن هداهم الله لنوره، أم أن في قلبي ظلماتٍ متراكبة تمنعني من رؤية الحق واضحاً كما هو؟ وهل علاقتي بالقرآن علاقة فرقانٍ يفضح باطلي ويقودني، أم علاقة تلاوةٍ لا تصل إلى مراكز قراري واختياراتي؟.

١٠) هل أنا صابرٌ على الفتنة كما ختم مطلع الفرقان ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾، أم أنني أريد ديناً بلا ضغط، وحقّاً بلا كلفة، واستقامةً بلا صبر؟ وهل إذا امتحنني الله بالناس، أو الشَّهوة، أو التأخير، أو الأذى، ثبتُّ على الحق أم بدأت أساوم عليه بهدوء؟.

❖ أين انكشف قلبي؟

١) انكشف قلبي عند الصلاة: هل أقف بين يدي الله بقلبٍ خاشع، أم انكشف اضطرابي حين عجزت عن دقائق حضورٍ صادق رغم كثرة الركعات؟ فربما فضحتني الصلاة أكثر مما زيّنتني، لأنها كشفت أين يذهب قلبي حين أقول إنني مع الله.

٢) انكشف قلبي عند اللَّغو: فيما أملأ به فراغي، وفيما أعود إليه حين أتعب، وفيما لا أستطيع تركه رغم علمي أنه لا ينفعني... فالإنسان لا يفتضح فقط فيما يفعله علناً، بل فيما يرتاح إليه سِرّاً حين لا يراقبه أحد من الناس.

٣) انكشف قلبي عند الشَّهوة: لا عند الفعل الكبير فقط، بل عند الاسترسال الصغير الذي أسمح به لنظري، أو لهاتفي، أو لخيالي، أو لفضولي.. فهناك يظهر هل أنا أطلب الطَّهارة حقّاً، أم فقط أحاول أن لا أُفضح.

٤) انكشف قلبي عند المال: في مقدار فرحي بالأخذ، وفي مقدار ترددي عند العطاء، وفي خوفي من الفقر حين أسمع ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾... فهنا يُعرف: هل ثقتي بالله حية، أم أن لساني يردد ما لا يطمئن إليه قلبي تماماً؟.

٥) انكشف قلبي عند أخبار الناس وسقطاتهم: هل أتألم لإشاعة الفاحشة، أم أجد في داخلي فضولاً خفيّاً يدفعني للتتبع والسَّماع والنشر والتعليق؟ فهنا ينكشف طهر القلب من داخله، لأن بعض النفوس لا تصنع الإفك لكنها تتغذى عليه.

٦) انكشف قلبي عند أحكام الله التي تخالف مزاج العصر أو هوى النفس: هل أبحث عن التسليم، أم عن مخارج تخفف وقع الأمر على نفسي ولو أضعفت تعظيمي للوحي؟ فالفرق بين عبدٍ ومسالمٍ ثقافيٍّ يظهر حين يكون النصّ واضحاً لكن النفس لا ترتاح له فوراً.

٧) انكشف قلبي عند النظر إلى أهل الطاعة: هل أوقرهم وأتواضع لهم وأستفيد منهم، أم في داخلي شيء من السُّخرية أو الاستعلاء أو الاستثقال؟ فآيات السُّخرية من المؤمنين تكشف أن الاستهزاء بالصَّالحين ليس خللاً لسانياً فقط، بل مرضُ قلبٍ ابتعد عن الله تعالى.

٨) انكشف قلبي عند الحديث عن الموت والبرزخ والميزان: هل تتحرك نفسي إلى التوبة، أم أؤجل التغيير لأن هذه المعاني لم تدخل بعدُ إلى عمق شعوري؟ فهناك فرق بين من يعلم أن الموت حق، ومن يعيش كأنَّ له وقتاً طويلاً مضمُوناً.

٩) انكشف قلبي عند الفتنة بالناس: حين آذاني أحد، أو ظلمني أحد، أو خالفني أحد، هل دفعت بالتي هي أحسن، أم سقطت بسرعة إلى مستوى رد الفعل الغاضب؟ فهنا يظهر مقدار تهذيب الوحي لنفسي، لا مقدار معرفتي النظرية فقط.

١٠) انكشف قلبي عند سؤال الغاية: هل أنا حقّاً أعيش لمرضاة الله، أم أن هدفي العملي اليومي ما زال محصوراً في الراحة، أو القبول، أو الإنجاز، أو النجاة الدنيوية؟ فالآية ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ لا تفضح الملحدين وحدهم، بل تفضح كل حياةٍ مؤمنة في العنوان لكنها مبعثرة في المقصد.

❖ أي آية أربكتني؟

١) هل أربكتني آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنني شعرت أن الفلاح الذي أتوهمه في نفسي لم يُختبر بعد بميزان القرآن الحقيقي؟ وهل أقلقني أن الصفات التي بعدها ليست شعارات، بل معايير دقيقة قد لا أملكها كما أحب أن أظن؟

٢) هل أربكتني آية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ لأن معظم ما يستهلك يومي يمكن أن يدخل في باب اللَّغو لو كنت صريحاً مع نفسي؟ وهل وجدتني أبحث عن تعريفات مريحة للغو حتى لا أضطر إلى حذف كثيرٍ مما اعتدت عليه؟.

٣) هل أربكتني آيات العفة في المؤمنون والنور لأنني أريد الطُّهر نظريّاً، لكنني لا أريد أن أدفع كلفته العملية في النظر، واللباس، والعلاقات، والاستئذان، والانضباط؟ فبعض الآيات تربكنا لا لأنها غامضة، بل لأنها واضحة أكثر مما نحب.

٤) هل أربكتني آية الإفك ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ لأنها كشفت أن ما أعدّه "مجرد كلام" أو "إعادة إرسال" أو "تعليقاً عابراً" قد يكون

عظيماً عند الله؟ وهل أدركت أن خطورة الكلمة لا تتحدد بسهولة خروجها من لساني، بل بوزنها في ميزان الله تعالى؟.

٥) هل أربكتني آية ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنني اكتشفت أنني أطلب مغفرة الله بصدق، لكنني أتعسر كثيراً في مغفرة الناس حين يسيئون إليّ؟ فهنا ينكشف مقدار الصدق في وعيي لفقر نفسي إلى الرَّحمة.

٦) هل أربكتني آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنني شعرت أن في حياتي ظلماتٍ كثيرة ما زلت أساكنها، ثم أطلب أن يملأ الله قلبي نوراً من غير تخليةٍ ولا صدق طلب؟ فالنور لا يربك القلب إلَّا إذا أدرك كم في داخله من العتمة المؤجلة، المعنى: أن نور الحق حين يدخل القلب يكشف للإنسان عيوبه وغفلته التي لم يكن يشعر بها من قبل، فيضطرب قلبه لأنه يرى ظلمته بوضوح.

٧) هل أربكتني آية ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ... أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ لأنني وجدت في نفسي جدلاً واعتراضاً داخلياً قبل الطاعة كلما خالف الأمر هواي؟ وهل أخافتني هذه الآية لأنها قد تكشف أن انقيادي للوحي ليس مطلقاً كما أحب أن أتصور؟.

٨) هل أربكتني آية ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ لأنني رأيت كم مرة حاولت أن أقرأ الدين من زاوية ما أريده أنا، لا من زاوية ما أراده الله؟ وهل اكتشفت أنني في بعض الملفات لا أبحث عن الحق بقدر ما أبحث عن تبرير موقفي؟.

٩) هل أربكتني آية ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ لأنني لا أحب هذا النوع من القراءة للواقع، وأريد أن يكون الناس حولي موافقين، منصفين، سهلين دائماً؟ لكن الآية تكشف أن الامتحان بالناس جزء من الطريق، لا ظرفٌ استثنائي يجب أن يختفي حتى أستقيم.

١٠) هل أربكتني آية ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ لأنها ضربت في المركز الذي أهرب منه أكثر: سؤال لماذا أعيش؟ وهل خفت من هذه الآية لأنها لا تدع لي مساحةً للحياد بين غايةٍ واضحة وعيشٍ مُشتت؟.

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) هل ما زلت أؤجل إصلاح صلاتي من الداخل، فأكتفي بأدائها وأتسامح طويلاً مع غياب الخشوع، وكأن حضور القلب أمر ثانوي يمكن تأجيله؟ مع أن الجزء افتتح الفلاح من هنا لا من غيره.

٢) هل أؤجل قطع اللَّغو من حياتي، سواء كان في الهاتف، أو المجالس، أو المتابعة، أو التعليقات، أو الكلام الذي لا يورثني قرباً من الله؟ وأتعذر بأن الوقت لم يحن بعد، مع أن عمري نفسه هو الذي يضيع كل يوم.

٣) هل أؤجل ضبط بصري وحماية منافذ الفتنة، وأتصرف كأنَّ الاسترسال الصغير لا أثر له، مع أن القرآن بنى الطهارة من هذه التفاصيل الدقيقة؟ فالسقوط الكبير كثيراً ما يبدأ بتهاونٍ أحببنا أن نسميه بسيطاً.

٤) هل أؤجل توبةً صريحة من ذنبٍ أعتدته، لأنني أطمئن نفسي بأنني سأتغير لاحقاً، أو حين تتحسن ظروفي، أو حين يصفو مزاجي؟ مع أن آيات الموت والبرزخ في هذا الجزء تسحق هذا الوهم من جذوره.

٥) هل أؤجل ردّ المظالم، أو إصلاح أمانة، أو الوفاء بعهد، أو الاعتذار لمن أخطأت في حقه، لأنني لا أريد المواجهة الآن؟ وهنا ينبغي أن أسأل نفسي: ماذا لو سبقني الأجل قبل أن أفتح هذا الملف؟.

٦) هل أؤجل التوقف عن الخوض في أخبار الناس، أو تتبع الشائعات، أو الكلام الذي لا بينة عليه، لأنني أراه أمراً اجتماعياً شائعاً لا جريمةً روحية؟ مع أن سورة النور جعلت الكلمة نفسها ميداناً من ميادين النجاة أو الهلاك.

٧) هل أؤجل تعظيم النصوص التي تخالف هواي، فأُبقي بينها وبين قلبي مسافةً من التحفظ أو التردد أو التحايل الهادئ؟ وهذا التأجيل أخطر مما أظن، لأنه لا يؤخر سلوكاً فقط، بل يؤخر خضوعاً.

٨) هل أؤجل العفو عمّن أساء إليّ، مع أنني أتلو ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وأرجوها لنفسي كل يوم؟ فربما كنت أطلب لنفسي من الله ما لا أريد أن أبذل مثله للخلق.

٩) هل أؤجل بناء بيتي على النور فعلاً، لا على مجرد الشكل الديني، فأترك الفوضى في الشاشات، والكلمات، ونظام الدخول، وآداب الخصوصية، وتربية الأبناء على الاستئذان وغض البصر؟ مع أن سورة النور لا تبني فرداً فقط، بل تبني بيتاً يُؤهَّل للنور.

١٠) هل أؤجل حسم غايتي في الحياة، فأعيش بين مشاريع كثيرة، وهموم كثيرة، وأدوار كثيرة، لكن دون جواب حقيقي على سؤال: لماذا أنا هنا؟ وهذا أخطر تأجيل في الجزء كله؛ لأن من أخّر جواب الغاية عاش ولو تحرك كثيراً قريباً من العبث الذي نفاه الله عن خلقه.

خطة التغيير كطريقٍ قصيرٍ لكنه صريح مستلهمة من الجزء الثامن عشر

١) ابدأ بتصحيح علاقتك بالله قبل كل شيء: فالإصلاح الحقيقي لا يبدأ من المظاهر بل من القلب الذي يقف بين يدي الله؛ اجعل الصلاة لحظة صدقٍ يومية مع ربك، واستحضر أنك داخل في خطاب ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، فاجعل الخشوع هدفاً عملياً لا فكرةً جميلة.

٢) أوقف النزيف الخفي لعُمرك: انظر بصدق إلى أبواب اللَّغو التي تستنزف وقتك وقلبك؛ احذف ما لا يزيدك قرباً من الله أو نفعاً للناس، وتدرّب يومياً

على أن تكون من الذين وصفهم القرآن ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.

٣) اضبط منافذ القلب قبل أن تحاول إصلاح النتائج: النظر، والسَّمع، والكلمة، والرسائل الصغيرة هي مداخل الفتنة الكبرى؛ لذلك ابدأ من الأصل، ودرّب نفسك على الامتثال لقوله تعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، لأن القلب الذي يحرس منافذه يسهل عليه حفظ بقية جوارحه.

٤) طهّر نيتك في العمل قبل أن تُكثر منه: ليس المهم كثرة الأعمال بقدر ما هو صدق القلب فيها؛ راقب نفسك دائماً عند الطاعة حتى لا تتحول العبادة إلى عادة، وتذكّر وصف المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، فالقلب الحيّ يجمع بين العمل والخوف من التقصير.

٥) اجعل العفة مشروع حياة لا ردّة فعل مؤقتة: العفة ليست امتناعاً عابراً بل نظاماً كاملاً يحمي قلبك ونظرك وعلاقاتك؛ لذلك تعامل مع الشَّهوة بوعي لا بإنكار، واعلم أن حفظ الفرج في القرآن ليس خُلقاً ثانوياً بل علامة فلاح ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾.

٦) أغلق باب الشائعات والكلام على الناس: اجعل لسانك مكاناً للحق لا للظُّنون؛ فإذا سمعت خبراً عن أحد فاسأل نفسك أولاً: هل عندي علم؟ وهل في كلامي نفع؟ لأن القرآن حذر من هذا الانزلاق حين قال ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

٧) درّب قلبك على العفو بدل الانتقام: القلب المؤمن لا يطلب المغفرة لنفسه ثم يغلقها عن الناس؛ لذلك اجعل التسامح عبادة تتقرب بها إلى الله، واستحضر قوله تعالى ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ كلما ضاق صدرك من أحد.

٨) اجعل بيتك بيئة نور لا مجرد مكان سكن: اضبط فيه آداب الدخول والنظر والكلام والخصوصية، وعلِّم أهلك وأبناءك هذه المعاني بهدوء وثبات، لأن

الله وصف البيوت التي يذكر فيها اسمه بأنها مواضع نورٍ وذكر ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

٩) اخضع للوحي عندما يخالف رغبتك: الاختبار الحقيقي للإيمان ليس حين توافق الأحكام هواك بل حين تخالفه؛ فإذا وجدت في نفسك مقاومةً لنصٍ واضح فاعلم أن طريق الإصلاح هو التسليم، كما وصف الله المؤمنين بقوله ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

١٠) ذكّر نفسك دائماً بالغاية من الحياة: لا تسمح للدنيا أن تحوّل أيامك إلى حركةٍ بلا اتجاه؛ ارجع دائماً إلى السؤال الذي يوقظ القلب ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾، واجعل كل قرار في حياتك أقرب إلى جوابٍ صادق عن هذا السؤال.

١١) ثبّت قلبك أمام الفتن بالصبر والبصيرة: الناس، والشّهوات، والضغوط الاجتماعية ستبقى جزءاً من الطريق؛ فلا تنتظر طريقاً بلا اختبار، بل تعلّم أن تمشي فيه بثبات مستحضراً قول الله ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

١٢) اختم طريقك دائماً بالرجوع إلى الله: مهما تقدمت في الإصلاح فابقَ محتاجاً إلى رحمة الله، وأكثر من دعاء القلب الصادق الذي ختمت به سورة المؤمنون ﴿رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، لأن أعظم طريقٍ للتغيير يبدأ بالصدق مع الله تعالى وينتهي بالاعتماد عليه.

خاتمة وجدانية مزلزلة

ليس هذا الجزءُ مجردَ انتقالٍ بين سورٍ ثلاث، ولا تنقُّلاً بين أحكامٍ وقصصٍ ومشاهدَ متفرقة... بل هو هزّةٌ كبرى تعيد ترتيبَ الإنسان من داخله، وتقول له بوضوحٍ لا يحتمل التخفيف: إن الفلاحَ ليس كلمةً تُقال، ولا الانتسابَ إلى الإيمان دعوى تُرفع، ولا النورَ زينةً خارجية، ولا الفرقانَ ثقافةً ذهنية... بل

الفلاحُ خشوعٌ يسكُن الصلاة، وعفّةٌ تحرس الجوارح، وأمانةٌ تحفظ العهود، وخشيةٌ تُقلق القلبَ وهو يعمل، ونورٌ يسكبه الله في الداخل، ثم فرقانٌ يميز به العبد بين طريق الرّحمن وطريق الهوى.

هذا الجزء يبدأ من هناك... من السؤال الذي يجب أن يُوجَع له القلب: هل أنا حقّاً من هؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؟ أم أنني أستعذب الاسمَ وأهرب من أوصافه؟ هل في صلاتي خضوعُ عبدٍ وقف بين يدي ربّه، أم مجرّدُ حركاتٍ يؤديها الجسدُ وقلبُه سائحٌ في ألف وادٍ؟ هل أنا مُعرِضٌ عن اللغو حقّاً، أم أن عمري يُستنزف في فضول الكلام، وضجيج المتابعات، وتوافه الجدل، ثم أطلب بعد ذلك حياةَ القلب؟ هل أحفظُ حدودَ الله في سمعي وبصري ولساني وفرجي، أم أريد الفلاحَ مع التسيّب، والنورَ مع التلوث، والسَّكينةَ مع المعصية؟ إن أوائل سورة المؤمنون لم تُفتتح لتُعجبك صفاتُ الصَّالحين، بل لتفتّش بها نفسك قبل أن يجيءَ يومُ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ثم يأخذك الجزءُ من غرور الصورة إلى أصل الحقيقة... يُذكّرك من أين جئت، وكيف خُلقت، وإلى أين تمضي، حتى لا تُسكرَك الدنيا ولا يخدعك وهجُ اللحظة؛ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾... وكأنَّ القرآن ينتزعك من وهم الاستقرار في الأرض ليقول لك: أنت لم تُخلق لتلهو، ولم تُمنح السَّمع والبصر والفؤاد لتعيش غافلاً، ولم تُرزق لتأمن مكر الله، ولم تُمهل لتؤجل التوبة بلا نهاية؛ فكم من إنسانٍ امتلأت يداه، وهو في ميزان الله مفلس، وكم من قلبٍ عاش بين النِّعم، وهو بعيدٌ عن باب المنعِم، وكم من عبدٍ رأى آيات الله تتلى عليه ثم نكص على عقبيه لأنه لم يُرد حقّاً أن يتدبر القول.

ثم تأتي سورة النور لا لتزيّن المجتمع بآدابٍ خارجيةٍ فحسب، بل لتقول لك

إن الطهارة في الإسلام مشروعُ أُمَّةٍ كامل:

١) طهارةُ لسانٍ لا يخوض في الأعراض،

٢) وطهارةُ عينٍ لا تسترسل في الحرام،

٣) وطهارةُ بيتٍ لا يُقتحم بلا إذن،

٤) وطهارةُ علاقةٍ لا تقوم على الفجور،

٥) وطهارةُ قلبٍ لا يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا،

٦) وطهارةُ روحٍ تفهم أن التزكية ليست صناعةَ النفس وحدها بل فضلُ الله عليها؛ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾...

وهنا يرتجف القلب الصادق؛ لأنه يدرك أن النجاة ليست في الثقة بالنفس، بل في الافتقار إلى الله، وأن الإنسان قد يسقط بخطوةٍ من خطوات الشيطان ظنها صغيرة، ثم لا يشعر إلَّا وقد ابتعد كثيراً عن النور.

وفي قلب هذا الجزء تشرق الآية التي لا يقرؤها أحدٌ بصدق إلَّا شعر أن القضية كلَّها قضيةُ نورٍ أو فقدان نور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... فإذا انطفأ نورُ الله في القلب فلن تغنيه ثقافةٌ، ولا ذكاءٌ، ولا شُهرةٌ، ولا كثرةُ حركةٍ، ولا ضجيجُ إنجاز؛ لأن من لم يجعلِ الله له نوراً فما له من نور... وإذا دخل نورُ الله إلى القلب تغيّرت المقاييس كلُّها؛

١) صار الاستئذان عبادة،

٢) وغضُّ البصر عبادة،

٣) والعفاف عبادة،

٤) والحياء عبادة،

٥) وحراسةُ البيوت عبادة،

٦) والتسليم لحكم الله عبادة،

٧) وصار المؤمن لا يختار من الدين ما يوافق هواه ثم يترك ما يثقله، بل يقول من أعماقه ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ لأنه عرف أن الإيمان ليس أن تأتي إلى الشَّرع إذا وافقك، بل أن تنقاد له لأنه من ربك.

ثم يجيء مطلع الفرقان ليضع السَّيفَ الفاصل بين الحق والباطل، بين الوحي وأساطير الأولين، بين العبودية لله والافتتان بالمخلوق، بين من عرف قدرَ الرسول ﷺ ومن اعترض على بشريته لأنه لم يفهم معنى الرسالة... وكأنَّ هذه الآيات تقول لكل قلبٍ مضطرب: لا تُفتن بطعن المبطلين، ولا تغترَّ بكثرة الاعتراضات، فهذه سُنةُ الرُّسل، وهذه طبيعةُ الطريق، وهذا هو الامتحان القديم المتجدد؛ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾... نعم، القضية في آخر الأمر ليست: هل ستُواجَه بالاعتراض أو الأذى أو السُّخرية؟ بل:

- هل ستصبر وأنت متمسكٌ بالحق؟
- هل ستثبت حين يطعنون في الوحي؟
- هل ستبقى وفيّاً للنور حين يزخرف الناسُ الظلمات؟
- هل ستختار ميزانَ الله ولو خالف هوى نفسك وهوى من حولك؟

وهكذا يخرج بك الجزء الثامن عشر من وهم التدين السَّهل إلى حقيقة الإيمان الثقيلة الجميلة... يُعلّمك أن المؤمن ليس من يرفع شعارَ النجاة، بل من يبني نفسَه على الخشوع والعفة والأمانة والتقوى، وأن المجتمع المؤمن لا يُحفظ بالخطب وحدها بل بحراسة الألسنة والأبصار والبيوت والقلوب، وأن النور لا يُنال بالادعاء بل بالصدق مع الله، وأن الفرقان لا يسكن عقلاً ملوّثاً بالهوى، وأن أخطر ما يُهلِك الإنسان أن يسمع الحق ثم يكرهه، أو يعرف الطريق ثم يناكب عنه، أو يرى آيات الله ثم يؤجّل الرجوع، حتى إذا حضرته ساعة الموت قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾... لكن تلك الكلمة تُقال بعد فوات الأوان؛..

فلا تفتح باب الرجوع، ولا تعيد عمراً مضى، ولا تنقذ صاحبها من الحساب.

فيا من قرأت هذا الجزء... لا تخرج منه كما دخلت..

- لا تقف عند جمال البيان وتُفوّت عليك صدمةَ الرسالة،
- لا تكتفِ بالإعجاب بالنور وأنت لا تزال تحب العتمة في بعض زوايا قلبك،
- لا تمدح صفات المؤمنين ثم تؤخر التخلّق بها،
- لا تتكلم عن الطهارة وأنت تتساهل في منافذ الفتنة،
- لا تتغنى بالفرقان وأنت تعطي هواك حقَّ التحكيم...

ارجع إلى الله الآن، وخذ من أول المؤمنون معيارك، ومن سورة النور تطهيرك، ومن الفرقان ميزانك، وقل من أعماق الانكسار والرجاء: يا رب، لا تحرمني فلاح المؤمنين، ولا تطفئ في قلبي نورك، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا تجعلني ممن تُتلى عليهم آياتك ثم هم عنها معرضون، واغفر وارحم فأنت خير الراحمين.

روح الرسالة التربوية والعقدية والموجهة لكل مسلم من الجزء ١٨

١) الفلاحُ في ميزانِ الله ليس لقباً يُمنَح، بل بناءٌ إيمانيٌّ يبدأ من الداخل؛ من خشوعٍ يسكب الهيبةَ في الصلاة، ومن قلبٍ يفهم أن قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ليس ثناءً مجانيّاً، بل معياراً ثقيلاً يسألُ كلَّ واحدٍ منّا: هل فيك صفاتُهم حقّاً أم أنك تحبُّ الاسمَ أكثرَ من الطريق.

٢) أوّلُ إصلاحِ الإنسان ليس في مظهره بل في صلاته؛ لأن قوله تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ يُعلّمك أن الصلاةَ ليست حركاتٍ محفوظة، بل مقامُ وقوفٍ بين يدي الله، فإذا صلحت صلتُك في الصلاة بدأ قلبُك يتغيّر، وإذا بقيت الصلاةُ جسداً بلا روح بقي الخللُ في أعماقك مهما حسَّنتَ صورتك أمام الناس.

٣) من علاماتِ صدقِ الإيمان أن يترفّع القلبُ عن اللَّغو؛ لأن قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ يُربّي المؤمن على أن العمرَ أغلى من أن يُهدر في كلِّ ما لا ينفع، وأن كثرةَ الكلام والجدل والفضول ليست خفةً عابرة، بل استنزافٌ للقلب يسرق منه هيبتَه ونورَه وتركيزَه على معالي الأمور.

٤) الطهارةُ في الإسلام ليست حصراً في البدن، بل هي طهارةُ عينٍ ولسانٍ وفرجٍ وخاطرٍ وبيت؛ فالجزء كله يُعلّمك أن العفافَ ليس قيداً على الإنسان بل حمايةٌ له، وأن حفظَ الفروج، وغضَّ الأبصار، والاستئذان، وحراسةَ الخصوصيات، ليست تفاصيلَ اجتماعية، بل سياجٌ ربانيٌّ يصون القلوب قبل الأجساد.

٥) الأمانةُ ليست فقط أموالاً وودائع، بل أمانةُ كلمةٍ، وأمانةُ سرٍّ، وأمانةُ علاقةٍ، وأمانةُ تكليفٍ، وأمانةُ عهدٍ مع الله ومع الناس؛ ولذلك جاء الوصفُ القرآنيُّ دقيقاً في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ ليكشف أن المؤمنَ لا يعيش بفوضى أخلاقية، بل يشعر أن كلَّ ما بين يديه مسؤوليةٌ سيسألُه الله عنها.

٦) المحافظةُ على الصلاة غيرُ إقامةِ الصلاة فقط؛ فقولُه تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يُعلّمك أن القضيةَ ليست أن تصلّي أحياناً، بل أن تحرس الصلاةَ من التضييع والتأخير والتفريط وذهاب الخشوع، لأن الصلاةَ في حياة المؤمن ليست هامشاً بل عمودَ ترتيبِ يومه وروحه ومصيره.

٧) هذا الجزء يُسقط عن الإنسان وَهمَ التعاظم؛ إذ يردُّه إلى أصله الضعيف ومسيره المحتوم، فيُذكّره بأنه خُلِق من نطفة، ثم يموت، ثم يُبعث؛ فالمعنى العقدي هنا أن من عرف أصلَه ونهايتَه استحيا أن يتكبّر، واستحيا أن يعصي، واستحيا أن يعيش في الأرض وكأنه خُلِق للبقاء لا للامتحان.

٨) تذكيرُ الإنسان بخَلْقه ليس معلومةً بيولوجية، بل صدمةٌ تربوية؛ لأن قوله

تعالى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ثم ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يربط بين النعمة والمآل، حتى لا ينسى العبدُ أن الذي أبدع خلقَه قادرٌ على بعثه ومحاسبته، وأن الغفلة عن الآخرة ليست نقصَ معلومات، بل فسادَ استجابة.

٩) النظرُ في الماء والزرع والأنعام ليس ترفاً تأمليّاً، بل مدرسةُ توحيدٍ وشكر؛ فالجزء يربّيك على أن ترى في النِّعم أثرَ الربوبية، لا مجرد اعتيادٍ يومي، وأن تدرك أن الذي أنزل الماء بقدرٍ، وأنبت الثمر، وسخَّر الأنعام، قادرٌ أن يذهب بذلك كلِّه، فلا تغترَّ بالاستمرار ولا تنسَ المنعِم عند كثرة المنح.

١٠) قصةُ نوحٍ وما بعدها من قصص الرُّسل تُعلّمك أن معركةَ الدعوة واحدةٌ في كل زمان؛ أهلُ الباطل يحتقرون الرُّسلَ لبشريتهم، ويسخرون من الحق لأنه لا يوافق أهواءهم، ويطعنون في الدعاة بدل أن يراجعوا أنفسهم؛ وفي هذا تسليةٌ لكل ثابتٍ على الحق، وتحذيرٌ من أن تكون اعتراضاتُ الناس عندك أعظمَ من أمر الله تعالى.

١١) من أخطر أمراض القلوب أن تردَّ الحقَّ لا لأنه غير واضح، بل لأنه يهدد كبرياءك أو شهواتك أو مصالحك؛ وهذا هو المعنى الذي يتكرر في الجزء حين كذّبت الأُممُ رسلَها، لا لخفاء الرسالة، بل لأنهم لم يريدوا الانقياد لها، فكثيرٌ من الناس لا تنقصهم الأدلةُ بقدر ما ينقصهم الصدقُ مع الله.

١٢) المالُ والبنون ليسا دليلَ رضاً من الله؛ بل قد يكونان استدراجاً وامتحاناً؛ ولذلك يهزّك هذا الجزء بقوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، ليُعلّمك ألّا تقيس الكرامةَ الإلهية بكثرة ما في اليد، بل بما في القلب من هداية واستقامة وقرب.

١٣) المؤمنُ الحق لا يعمل وهو مغرور، بل يعمل وقلبُه خائف؛ وهذه من أعمق رسائل الجزء في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

رَاجِعُونَ﴾؛ أي إن العبد الصادق يجمع بين الاجتهاد والخوف، بين العمل وعدم الاتكال عليه، بين الطاعة والافتقار، فلا يعبد الله بعجبه، بل بانكساره.

١٤) التزكيةُ ليست مشروعَ الإنسان وحده، بل فضلُ الله عليه؛ ولهذا تأتي سورة النور لتكسر كلَّ غرورٍ خفي بقول الله تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، فالمعنى أن النجاة لا تكون بالاعتماد على النفس، بل بسؤال الله الهدايةَ والتطهيرَ والثباتَ إلى آخر الطريق.

١٥) حادثةُ الإفك في سورة النور ليست قصةَ عرضٍ بُرِّئ فقط، بل منهجٌ كامل في طهارة اللسان والمجتمع؛ فهي تُعلّمك أن الإشاعةَ ليست أمراً هيّناً، وأن الكلامَ في الأعراض بلا بيّنة جريمةٌ عند الله، وأن المؤمنَ الصادق لا يروّج ما يسمع، بل يقف عند حدود الشرع والعدل، ويقول عند الشُّبهة: هذا بهتانٌ عظيم.

١٦) من التربيةِ الإيمانية أن تحسن الظنَّ بالمؤمنين حتى يقوم الدليلُ على خلاف ذلك؛ لأن قوله تعالى ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً﴾ يُعلّمك أن المجتمع المؤمن لا يأكل أبناءَه بالظُّنون، ولا يتلذذ بتداول الفضائح، بل يحمي حرماتِ الناس كما يحب أن تُحمى حرمته.

١٧) حبُّ انتشارِ الفاحشة ليس فقط فعلَها، بل أيضاً التلذذُ بإشاعتها وترويجها ومتابعة أخبارها؛ ولذلك فإن قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يكشف مرضاً معاصراً خطيراً، وهو أن يتحول القلبُ إلى مروّجٍ للقذارة وهو يظن أنه مجرد ناقلٍ أو معلّقٍ أو متابع.

١٨) غضُّ البصر في هذا الجزء ليس أدباً إضافيّاً، بل مفتاحُ طهارةِ القلب؛ لأن العينَ بابٌ واسعٌ إلى الفتنة، وما لا يُغضّ عنه الطرفُ قد يستقرُّ في الخيال، ثم في الشَّهوة، ثم في السُّلوك؛ ومن هنا كان الأمرُ للرجال والنساء معاً،

لتبقى التزكيةُ شاملةً لا انتقائية، عادلةً لا موجَّهةً إلى طرفٍ دون آخر.

١٩) سورة النور تُعلّمك أن المجتمعَ النظيف لا يُبنى بالعواطف وحدها، بل بمنظومةِ آدابٍ وتشريعاتٍ وحدود؛ فالاستئذان، وغضُّ البصر، وحفظُ العورات، وتنظيمُ الدخول على البيوت، وتعليمُ الأطفال أدبَ الخصوصية، كلُّها تقول لك إن الإسلام يريد طهارةً تُعاش، لا شعاراتٍ تُرفع.

٢٠) آيةُ النور تُعيد تعريفَ الهداية كلِّها؛ فقولُه تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ليس مجرد مشهدٍ بلاغيّ مهيب، بل قاعدةٌ عقديةٌ عظيمة: أن النورَ الحقيقي من الله، وبالله، وإلى الله، وأن القلب إذا حُرم نورَ الوحي بقي يتخبّط ولو امتلأ ذكاءً وثقافةً وتجربةً؛ فليس كلُّ من عرف كثيراً اهتدى، ولكن من أشرق في قلبه نورُ الله أبصر الحقَّ وسلكه.

٢١) وصفُ أهل النور بقوله تعالى ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يُعلّمك أن الانشغال بالدنيا ليس حراماً في ذاته، لكن الخطرَ أن تسرقك الدنيا من الله، وأن يصبح الرزقُ حاجزاً عن الذكر، والعملُ حاجزاً عن الصلاة، والحركةُ حجاباً عن الآخرة؛ فالمؤمن ليس من ترك الدنيا بالكلية، بل من وضعها في يدِه لا في قلبِه.

٢٢) من أخطر علاماتِ المرض القلبي أن يكون الإنسانُ مذعناً إذا وافق الحكمُ مصلحتَه، معرضاً إذا خالف هواه؛ وسورة النور كشفت هذا بوضوح، لتقول لكل مسلم: ميزانُ صدقك ليس في كلامك عن الطاعة، بل في موقفك حين يأتيك حكمُ الله على خلاف ما تشتهي، فهناك ينكشف هل أنت عبدٌ لله أم عبدٌ لهواك.

٢٣) الوعدُ بالاستخلاف والتمكين والأمن في قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليس وعداً مجانيّاً لكل من انتسب، بل ثمرةُ إيمانٍ صحيح وعبوديةٍ خالصة؛ فالنَّصرُ في ميزان القرآن لا يُعطى لأُمَّةٍ رفعت

الشعارات وضيّعت الشروط، بل لأُمَّةٍ حقّقت ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾.

٢٤) سورة الفرقان تفتتح الميزانَ الفاصل بين الحق والباطل من أصلِه؛ فتُربّي القلبَ على تعظيم الوحي، وتعظيم الرسول ﷺ، وتعظيم الفرقان الذي أنزله الله هدايةً وإنذاراً، وتكشف أن أكثر اعتراضات المكذبين لم تكن طلباً للحق، بل تهرّباً من مقتضياته، وطعناً في الرسالة لأنهم لا يريدون التسليم للمرسِل.

٢٥) من الرسائل العظيمة في الفرقان أن بشريةَ الرسل ليست مطعناً، بل من تمام الحكمة؛ فمن يعترض بأن الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لم يفهم سنّة الله في الابتلاء، لأن القدوةَ لا تكون مَلَكاً خارج التجربة الإنسانية، بل بشراً يعبد الله في واقع الحياة، ليبقى الطريقُ ممكناً ومطلوباً ومُلزِماً.

٢٦) قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ من أكثر آيات الجزء كشفاً للواقع؛ فبعضُ ما تتألم منه في الناس هو جزءٌ من امتحانك أنت، لا مجرد خطأٍ فيهم فقط؛ قد يُبتلى الإنسانُ بالمؤذي، أو بالجاهل، أو بالمستفز، أو بالمعترض، أو حتى بالمحبوب، ليرى الله: هل يصبر؟ هل يثبت؟ هل يبقى على الحق حين تتعقد الظروف؟.

٢٧) هذا الجزء كلُّه يردُّ المسلم إلى مركز العبودية؛ من أول المؤمنون إلى نور النور إلى فرقان الفرقان، والرسالةُ الجامعة فيه أن الإيمان ليس مشاعرَ معلقة، ولا ثقافةً ذهنية، ولا انتقائيةً دينية، بل خضوعٌ كاملٌ لله في السِّر والعَلن، في الجوارح والضمير، في البيت والمجتمع، في العفة والقول، في التلقي والانقياد، في الصبر على الحق والثبات عليه.

والخلاصةُ التي ينبغي أن تخرج بها من هذا الجزء أن الله لا يريد منك إعجاباً بالآيات فقط، بل يريد تحوّلاً حقيقيّاً فيك؛ يريد صلاةً أخشع، ولساناً أطهر، ونظراً أحفظ، وبيتاً أنقى، وقلباً أوجل، وتلقياً أصدق، وتسليماً أعمق، وصبراً

أثبت، حتى تصبح ممن إذا سمعوا كلامَ الله لم يمرّوا عليه مرورَ المتفرج، بل تلقّوه تلقّي من عرف أن مصيره كلَّه متعلقٌ بهذا النور وهذا الفرقان وهذا الطريق.

الترابط الموضوعي بين الجزأين ١٧ – ١٨

❖ الترابط الموضوعي بين الجزأين

١) الجزء السابع عشر يفتتح المشهد بإنذارٍ كونيٍّ عظيم يهزُّ الغافل من أصلِه؛ يبدأ من اقتراب الحساب، ويفضح لهو القلوب، ويكشف كيف يواجه الناسُ الوحيَ بالسُّخرية والجدال والاستعجال، ثم يعرض مسيرة الأنبياء بوصفها موكباً واحداً في الدعوة إلى التوحيد والصبر والثبات، ثم تأتي سورة الحج لتُنزل هذه الحقائق على أرض الابتلاء والعبادة والتعظيم والتضحية والجهاد والاعتصام بالله، فكأنَّ الجزء السابع عشر يبني أصلَ الرسالة، ويأتي الجزء الثامن عشر ليبني صورةَ المؤمن الذي استجاب لهذه الرسالة في نفسه وبيته ومجتمعه وسلوكه.

٢) الجزء السابع عشر يركّز على سؤال البداية: ما حقيقة هذا الوجود؟ وما معنى الحساب؟ ولماذا أُرسلت الرسل؟ ولماذا يتكرر الصراع بين الحق والباطل؟ ثم يأتي الجزء الثامن عشر ليجيب عن سؤال النتيجة: إذا آمنتَ حقّاً، فكيف تظهر آثار الإيمان في الصلاة والعفة والأمانة واللسان والبصر والبيت والموقف من الوحي والطاعة والفتنة والنور؟ فكأن الأول يضع الأصول الكبرى، والثاني يكشف ثمرة هذه الأصول حين تتحول إلى حياة.

٣) في الجزء السابع عشر يتكرر عرض نماذج الأنبياء: إبراهيم، ولوط، ونوح، وأيوب، ويونس، وزكريا، ومريم عليهم السَّلام، ليُعلّمك أن طريق الله قائم على التوحيد والصبر والالتجاء والدعاء والخشوع، ثم يجيء الجزء الثامن عشر ليلتقط هذه المعاني لا بوصفها حكاياتٍ ماضية، بل بوصفها أوصافاً لازمة للمؤمنين؛ فيبدأ مباشرةً بقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وكأنَّ كل ما سبق من

مواكب الأنبياء يريد في النهاية أن يُنبت هذا النموذج الرَّباني في الأمة.

٤) الجزء السابع عشر يعرض الابتلاء في صورته الواسعة: ابتلاء الغفلة، وابتلاء الشُّبهات، وابتلاء السُّخرية، وابتلاء العذاب المؤجل، وابتلاء الفتن في الدين، وابتلاء الصبر على الحق، وابتلاء التمكين، ثم الجزء الثامن عشر يكمّل الصورة بعرض الابتلاء في أدقّ دوائر الحياة: ابتلاء الشهوة، وابتلاء الكلمة، وابتلاء الاتهام، وابتلاء الخصوصية، وابتلاء البصر، وابتلاء الطاعة الصادقة، وابتلاء الثبات على النور وسط الظلمات.

٥) في الجزء السابع عشر يظهر البيت الحرام وشعائر الحج وتعظيم الحرمات والشعائر بوصفها مدرسةً عمليةً للتجرد والتوحيد، ثم في الجزء الثامن عشر تنتقل التربية من المشهد الشعائري العام إلى بناء البيت المسلم ذاته: بيتٌ له استئذان، وله حدود، وله طهارة، وله أدب، وله عفة، وله نور، وكأنَّ من لم يتعلم حُرمةَ بيت الله لن يحسن صيانةَ بيوت الناس ولا بيت نفسه.

٦) الجزء السابع عشر يختم بنداءٍ عملي شديد الوضوح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ ثم ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾، ثم يجيء الجزء الثامن عشر كأنه شرحٌ تفصيليٌّ لهذا النداء؛ فيبيّن كيف تكون الصلاة، وكيف تكون الزكاة، وكيف تكون الطهارة، وكيف يكون حفظ الفروج، وكيف يكون اجتناب اللغو، وكيف تكون طاعة الرسول، وكيف يُترجم الجهاد الداخلي إلى انضباطٍ أخلاقي وسلوكي واجتماعي.

٧) الجزء السابع عشر يبرز التوحيد في ميدان المواجهة الكبرى مع الوثنية والشك والباطل، أما الجزء الثامن عشر فيبرز التوحيد في ميدان التزكية والتطبيق؛ فلا يكفي أن ترفض الصنم الخارجي، بل يجب أن تُطهِّر باطنك من أهواء النفس، ولسانك من البهتان، وعينك من الخيانة، وبيتك من الفوضى، وموقفك من الوحي من الانتقائية، ولذلك كان الانتقال بين الجزأين انتقالاً من هدم الباطل إلى بناء النور.

❖ الترابط العقدي بين الجزأين

١) الجزء السابع عشر يُرسّخ أصل الأصول: أن الله واحد لا شريك له، وأن الرسل جميعاً جاؤوا بهذه الحقيقة الواحدة، كما في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، ثم يأتي الجزء الثامن عشر ليبني على هذا الأصل، فيكشف أن التوحيد ليس قضيةً ذهنيةً مجردة، بل هو التزامٌ كامل بحكم الله، وانقيادٌ لوحيه، وبراءةٌ من الشرك الظاهر والخفي، حتى يصل إلى قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

٢) الجزء السابع عشر يكثر فيه تقرير البعث والحساب والساعة، ويفتح القلب على مشاهد الزلزلة والفزع والموازين والرجوع إلى الله، ثم الجزء الثامن عشر لا يترك هذا الأصل في دائرة التخويف المجرد، بل يجعله محرّكاً عمليّاً للسلوك؛ فالمؤمنون في أوله يحرسون صلاتهم وعفتهم وأماناتهم لأنهم يعلمون أنهم وارثو الفردوس، ثم في خواتيم المؤمنون تُعاد مشاهد الموت والبرزخ والنفخ في الصور والموازين، ليُفهمك أن العقيدة بالآخرة ليست معلوماتٍ تُحفظ، بل حياةٌ تُبنى على أساس الرجوع إلى الله.

٣) في الجزء السابع عشر يتكرر عرض قدرة الله في الخلق والتدبير والإحياء والإماتة وتسخير الكون، ويُستدل بذلك على وحدانيته وحقه في العبادة، ثم الجزء الثامن عشر يواصل هذا النسق بذكر خلق الإنسان، وإنزال الماء، وتسخير الأنعام، وتقليب الليل والنهار، وخلق الدواب، ليبقى البناء العقدي متماسكاً: الرَّبُّ الذي خلق ورزق ودبّر هو وحده الذي يُطاع ويُحب ويُخاف ويُرجى ويُتلقى عنه الهدى.

٤) الجزء السابع عشر يفضح اضطراب عقائد الكافرين وشبهاتهم في الرسل والوحي والبعث، ويقرر أن أكثر جدالهم صادر عن مرض القلب لا عن طلب الحق، ثم الجزء الثامن عشر يكشف صورةً أخرى من الانحراف

العقدي، وهي أن المشكلة ليست دائماً في إنكار الربوبية، بل في فساد الاستجابة لمقتضى التوحيد؛ ولذلك يُسأل المشركون في المؤمنون عن الأرض ومن فيها ورب السماوات السَّبع وملكوت كل شيء، فيقرّون بأن ذلك لله، ثم يُقال لهم ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ و﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، فكأنَّ الجزء يقرر أن معرفة الله ربّاً لا تنفع من دون عبادته وحده والخضوع له.

٥) في الجزء السابع عشر يظهر معنى العبودية الكاملة في الملائكة والأنبياء والمؤمنين المخبتين، وفي الجزء الثامن عشر تتجلى هذه العبودية في صورة المجتمع المؤمن الذي يقول عند الاحتكام للوحي ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ وهنا يظهر الترابط العقدي العميق: فالإيمان الحق ليس مجرد تصديق، بل استسلام، وليس مجرد انبهار بالنَّص، بل تحاكم إليه، وليس مجرد إعلان ولاء لله، بل قبولٌ لحكمه ولو خالف الهوى.

٦) الجزء السابع عشر يبرز أن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأنه ينصر من ينصره، وأن النصر مرتبط بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم الجزء الثامن عشر يشرح مضمون هذا النصر العقدي والعملي؛ فالاستخلاف والأمن في سورة النور ليسا وعدين مطلقين لكل من انتسب، بل هما مشروطان بتمام العبودية كما في قوله تعالى ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾، فيكتمل بذلك البناء بين الوعد في السابع عشر وشرطه في الثامن عشر.

٧) في الجزء السابع عشر يختم النداء بالاعتصام بالله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾، ثم يأتي الجزء الثامن عشر ليبيّن كيف يكون هذا الاعتصام عمليّاً: بالاستعاذة من همزات الشياطين، وبدفع السَّيئة بالحسنى، وبالتوبة، وبطلب المغفرة والرحمة، وبالتعلق بنور الله، فكأنَّ الاعتصام الذي أُمرنا به هناك يفسَّر هنا على هيئة سلوكٍ تعبديٍّ يوميٍّ دائم.

❖ الترابط البياني بين الجزأين

١) الجزء السابع عشر يغلب عليه البيان الذي يهزّ الغافل هزّاً؛ افتتاحه في الأنبياء بـ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، وافتتاح الحج بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، يحمل نبرة إنذارٍ كونيّ صادم، ثم ينتقل الجزء الثامن عشر إلى بيانٍ يبدأ بتحديد معالم الفلاح في أدق صورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ فكأنَّ الإيقاظ العنيف في السابع عشر يُسلّمك في الثامن عشر إلى خريطة النجاة العملية.

٢) في الجزء السابع عشر تتكرر المشاهد الكونية الكبرى: السماء، والأرض، والليل، والنهار، والبعث، والزلزلة، والكون كلّه في قبضة الله، ثم في الجزء الثامن عشر يظل هذا النفس الكوني حاضراً، لكنّه ينزل إلى تفاصيل الإنسان والمجتمع؛ من خلق الجنين إلى الماء النازل بقدر، إلى الأنعام، إلى البيوت، إلى الأبصار، إلى العلاقات، إلى المجالس، إلى الطاعة الاجتماعية، فكأنَّ البيان القرآني ينتقل من الأفق الواسع إلى الداخل الإنساني دون أن ينقطع خيط العظمة.

٣) الجزء السابع عشر يكثر فيه عرض القصص على هيئة لقطاتٍ متتابعة سريعة، كأنك أمام موكبٍ من الأنبياء والابتلاءات والانتصارات، وهذا التتابع يولد إحساس الرسالة الواحدة عبر الزمن، ثم يأتي الجزء الثامن عشر ليحوّل هذا التتابع القصصي إلى أوصاف ومعايير وقوانين وسُنن؛ فلا يعود المقصود أن تتأثر بالقصة فقط، بل أن تفهم ما الذي ينبغي أن يصير إليه قلبك وسلوكك بعد سماعها.

٤) من جمال الترابط البياني أن الجزء السابع عشر يركّز كثيراً على مفردات الحق والباطل والبلاغ والوحي والآيات والإنذار، ثم الجزء الثامن عشر يلتقط هذه المفردات نفسها لكن في مسارات جديدة: فمرةً على صورة ﴿قَدْ كَانَتْ

آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾، ومرةً على صورة ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾، ومرةً على صورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾؛ وكأنَّ الوحي الذي أُنذر به الناس في السابع عشر صار في الثامن عشر فرقاناً وتشريعاً ونوراً وتزكيةً ومحاسبة.

٥) في الجزء السابع عشر تتكرر نبرة المواجهة مع الشُّبهات: السُّخرية من الرُّسل، الاعتراض على بشرية الأنبياء، المجادلة بغير علم، الاستعجال بالعذاب، التكذيب بالبعث، ثم في الجزء الثامن عشر تعود هذه النبرة البيانية نفسها ولكن بصورة أدق وأعمق؛ حيث يُكشف أن المشكلة الكبرى ليست نقص الأدلة، بل كراهية الحق، كما في قوله تعالى ﴿بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾، ثم يُترجم ذلك في سورة النور إلى الإعراض عن حكم الله إذا لم يوافق المصلحة.

٦) الجزء السابع عشر يستعمل كثيراً أسلوب الاستفهام التقريعي الذي يوقظ العقل والقلب، مثل ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ و﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، ثم يستمر هذا النسق في الجزء الثامن عشر بأسئلةٍ أشد التصاقاً بالنفس والسلوك: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ و﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ و﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، فهناك انتقال من مساءلة الكون والتاريخ إلى مساءلة القلب ذاته.

٧) من الترابط البياني البديع أن الجزء السابع عشر ينتهي بنداءٍ جامعٍ للأُمَّة وهويتها وشهادتها على الناس، بينما الجزء الثامن عشر يبدأ بوصف المؤمنين ثم يبني من سورة النور معالم المجتمع المؤمن؛ فكأنَّ نهاية السابع عشر تعلن التكليف، وبداية الثامن عشر تبين صفات الحاملين لهذا التكليف، ثم وسطه يشرح نظامهم الأخلاقي والاجتماعي، ومطلعه في الفرقان يعيدهم إلى مصدر الميزان كله.

❖ الترابط الوجداني بين الجزأين

١) الجزء السابع عشر يوقظ القلب بالخوف المزلزل؛ خوف الحساب، وخوف الزلزلة، وخوف الموازين، وخوف المكذّبين حين يفاجئهم الوعد الحق، ثم الجزء الثامن عشر لا يترك القلب في دائرة الخوف وحدها، بل ينقله إلى خوفٍ بنّاءٍ منتجٍ للتزكية؛ خوفٍ يظهر في خشوع الصلاة، وفي وجَل العاملين، وفي خوف أهل النور من يومٍ تتقلب فيه القلوب والأبصار، فكأن الخوف في السابع عشر يفتح العين، والخوف في الثامن عشر يبني النفس.

٢) في الجزء السابع عشر يكثر مشهد الضعف البشري أمام الفتن والتكذيب والابتلاء والانتظار، لكنّه يقترن دوماً برحمة الله واستجابته لعباده؛ استجابةٍ لنوح، وأيوب، ويونس، وزكريا، ونجاةٍ لإبراهيم ولوط ومريم، ثم في الجزء الثامن عشر يبقى هذا الخيط الوجداني حاضراً ولكن في صورةٍ أشد قرباً من حياة المسلم اليومية؛ فالتوبة مفتوحة، والرحمة حاضرة، والاستعاذة مشروعة، والدعاء مطلوب، وقوله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ يأتي كأنّه الخاتمة الشعورية الطبيعية لكل ما مرّ.

٣) الجزء السابع عشر يجعل القلب يعيش رهبة الاصطفاء والتكليف والجهاد والاعتصام، ثم الجزء الثامن عشر يجعله يعيش امتحان الصدق في التفاصيل؛ فلا يعود السؤال فقط: هل تخاف الساعة؟ بل: هل تغضّ بصرك؟ هل تحفظ لسانك؟ هل تتأدب في البيوت؟ هل تحسن الظَّن؟ هل تقول عند حكم الله: سمعنا وأطعنا؟ وهنا تنتقل الوجدانية من رهبة المشهد الكوني إلى رجفة المحاسبة اليومية.

٤) في الجزء السابع عشر يتأثر القلب بمشاهد الأنبياء وهم في الكرب ثم في النجاة، فيتعلّم أن طريق الله محفوفٌ بالابتلاء ولكن العاقبة للصابرين، ثم يجيء الجزء الثامن عشر ليخاطب القلب الذي يريد أن يثبت وسط فتن

المجتمع والشَّهوة والاتهام والظُّلمات، فيقول له ضمناً: النجاة هنا أيضاً بالصبر، ولذلك ختم مشهد الفائزين في المؤمنون بقوله تعالى ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، وكأنَّ صبر الأنبياء في السابع عشر صار مدرسةَ صبرٍ للمؤمنين في الثامن عشر.

٥) الجزء السابع عشر يملأ القلب بعظمة الله في الكون والتاريخ والوحي والمصير، ثم الجزء الثامن عشر يملؤه بعظمة الله في الهداية والتزكية والنور والتشريع؛ فهناك تعظيمٌ لله من جهة القدرة والقهر والتدبير، وهنا تعظيمٌ له من جهة الحكم والنور والرحمة والهداية، وبهذا يكتمل في القلب معنى الرب العظيم الذي يُخاف ويُحب ويُطاع ويُرجى.

٦) وجدانيّاً، الجزء السابع عشر يزعزع الغفلة، والجزء الثامن عشر يفضح التلوّن؛ فالأول يقول لك: انتبه، الحساب قريب، والفتنة قائمة، والبعث حق، والحق ظاهر، والرسل مضوا على هذا الطريق، والثاني يقول لك: بعد أن انتبهت، هل تغيّرت حقّاً؟ هل صار فيك نور؟ هل تطهّرت سريرتك؟ هل بُني بيتك على الأدب والطُّهر؟ هل سلّمت للوحي إذا خالف هواك؟ فالأول إيقاظٌ من السُّبات، والثاني امتحانٌ لصدق اليقظة.

٧) والنتيجة الوجدانية الجامعة أن الجزأين معاً يصنعان رحلةً قلبيةً متكاملة؛ الجزء السابع عشر يقتلع القلب من الغفلة والتساهل والاستهانة بالساعة، ويضعه أمام عظمة الله وسُنن الابتلاء وموكب العبودية، ثم يأتي الجزء الثامن عشر فيأخذ هذا القلب المستيقظ إلى ورشة التهذيب العميق؛ يُعلّمه كيف يصير مؤمناً حقّاً، وكيف يحيا بالنور، وكيف يحفظ حدود الله، وكيف يثبت على الفرقان، حتى لا تكون استجابته للقرآن انفعالاً عابراً، بل تحوّلاً حقيقيّاً ممتدّاً من أعماق السَّريرة إلى تفاصيل الحياة كلها.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾... حين لا يملك المؤمن أمام سورة النور إلا أن يقول: سمعنا وأطعنا

- **سورة النور ليست للنقاش... بل للامتثال: تأملات في قوله تعالى ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾**
- **من أول السورة سقط الجدل: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾**
- **حين يتدخل الهوى في آيات النور... من الذي تكلّم: الله أم أذواق الناس؟**
- **﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾: الكلمة التي تهدم كل تحايلٍ على أحكام سورة النور**

ليست سورة النور سورةً تُقرأ لبركة التلاوة فقط، ولا سورةً تُعجبك بلاغتها ثم تخرج منها كما دخلت، ولا سورةً تُؤخذ منها المعاني العامة وتُترك تفاصيلها بحجة أن الزمان تغيّر، بل هي من السور التي عرّفت نفسها بنفسها تعريفاً حاسماً لا يترك للقلب المؤمن مساحةً للتماهي مع الهوى، إذ قال الله تعالى في مطلعها: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾، وكأن الله ﷻ يقول لك من أول آية: انتبه، أنت الآن لا تدخل حديقة تأملاتٍ اختيارية، بل تدخل ميدان تكليف، لا تقرأ كلاماً يُستأنس به، بل أوامر تُحمَل، لا تسمع ما يوافق ذوقك فحسب، بل ما يجب أن تخضع له ولو خالف عادتك وبيئتك وميلك وتفسيرك المريح لنفسك، فهذه ليست سورةً أنزلناها فقط، بل سورةٌ أنزلناها وفرضناها.

وكلمة ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وحدها تكفي لنسف كثيرٍ من العبث المعاصر في التعامل مع أحكام سورة النور، لأن الأزمة عند كثيرٍ من الناس اليوم ليست أنهم لم يسمعوا الآيات، بل أنهم سمعوها ثم حاولوا تفريغها من إلزامها، فصار بعضهم يتعامل مع أحكام العفة والستر والخمار وغض البصر والاستئذان وآداب البيوت وحدود القذف وتعظيم الأعراض على أنها مساحة اجتهادٍ مفتوحة للتماهي مع الضغط الاجتماعي، أو موضوعات قابلة للتخفيف كلما اشتد سلطان الموضة

أو الثقافة أو الخوف من كلام الناس، مع أن السورة نفسها منعت هذا المسلك من أول كلمة، لأن الذي قال: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ لم يترك للمؤمن الحق في أن يقول: أعجبني هذا الحكم ولم يعجبني ذاك، أو أفهم هذه الآية فهماً يريح واقعي، أو أقبل من السورة نورها الوجداني وأرفض سلطانها التشريعي، فالمؤمن لا يقف أمام ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ إلا موقفاً واحداً: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

فإذا كانت السورة قد بدأت بفرضها، ثم ذكرت بعد ذلك حدّ الزنا، وحدّ القذف، وأحكام اللعان، وخطورة تلقّي الإفك بالألسنة، وحرمة إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان، والأمر بالعفو والصفح، والاستئذان قبل دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وضرب الخُمُر على الجيوب، ومنع إبداء الزينة إلا في حدود ما أذن الله به، والحث على النكاح، والأمر بالاستعفاف، والنهي عن إكراه الإماء على البغاء، ثم تدرجت إلى آداب الخصوصية في البيوت، وأحكام الأطفال إذا بلغوا الحلم، وأدب الاستئذان في الأوقات الخاصة، وتعظيم أمر الرسول ﷺ وعدم مخالفته... فإذا كانت السورة قد جمعت كل هذا تحت سقف كلمةٍ واحدة هي ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، فبأي وجهٍ يُقال بعد ذلك: هذه الأحكام شكلية، أو هذه التفاصيل ليست مقصودة، أو اللباس ليس هو القضية، أو الاستئذان من الآداب القديمة، أو أحكام البلوغ والحياء والخصوصية لا تناسب هذا العصر، أو المقصود العفة القلبية فقط دون انضباط الصورة الظاهرة؟ أليس الذي يعلم خفايا النفوس هو الذي فرض أيضاً هيئة السلوك؟ أليس الذي يعلم دقائق الفتنة هو الذي شرع حدود الوقاية قبل حدود الانفجار؟ أليس الذي قال ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو نفسه الذي قال ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ﴾ و﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ و﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾ و﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾؟ فكيف يريد بعض الناس نور السورة دون فرضها، وجمالها دون سلطانها، وبركتها دون انقيادها؟

إن من أخطر ما وقع فيه كثير من المسلمين اليوم أنهم لم يعودوا يرفضون الحكم رفضاً صريحاً في الغالب، بل صاروا يتحايلون عليه تحايلاً ناعماً، وهذه مرحلة أخطر؛ لأن صاحب الرفض الصريح يُعرَف موضعه، أما المتحايل فيُلبس على نفسه وعلى غيره، فيقول: نحن لا نرفض الشرع ولكن نفهمه بطريقةٍ أخرى، أو لسنا ضد الحجاب ولكن المقصود حجاب القلب، أو لسنا ضد الاستئذان ولكن المقصود الذوق العام، أو لسنا ضد حدود الكلام في الأعراض ولكن الناس اليوم تنقل الأخبار بسرعة ولا بد من التفاعل، أو لسنا ضد أحكام البلوغ والخصوصية لكن البيوت تغيّرت، وهكذا تتحول ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ في الوعي المريض إلى مادة تأويلٍ لا نهاية لها حتى لا يبقى من الفرض إلا اسمه، ولا من النور إلا عنوانه.

وسورة النور في حقيقتها نزلت لتقول للمؤمن:

١) لا تطلب النور وأنت تكسر المصباح بيدك،

٢) لا تطلب الطهارة وأنت تفتح للفتنة أبواب النظر والكلام والدخول والتهاون بالأعراض،

٣) لا تطلب مجتمعاً نقيّاً وأنت تحتقر التفاصيل التي شرعها الله لحمايته،

لأن الله لا يشرع الأحكام عبثاً، ولا يفرض الآداب ترفاً، ولا يبني السور التشريعية لتُعلّق في الذاكرة دون أن تُغرس في الواقع؛ فكل حكمٍ في هذه السورة هو لبنةٌ في بناء النور، وكل تجاوزٍ له هو ثقبٌ في جدار الحماية، وكل تحايلٍ عليه هو اعتراضٌ خفي على حكمة الله، وإن تسمّى بلغة التطوير أو التيسير أو القراءة المعاصرة.

ولهذا فإن أعظم ما ينبغي أن يستقر في القلب عند قراءة سورة النور ليس فقط أن أحكامها جميلة، بل أن أحكامها مُلزِمة، وليس فقط أن آدابها راقية، بل أن آدابها مفروضة، وليس فقط أن فيها نوراً، بل أن هذا النور لا يُعطى لمن

ينتقي من الشريعة ما يوافق هواه، بل لمن يدخل إلى السورة بعقل العبد لا بعين المتحكّم، وبروح الامتثال لا بروح التفاوض، وبقلب يقول قبل أن يسمع التفاصيل: ما دام الله قد قال ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ فقد انتهى الجدل، وبقي السَّمع والطاعة.

فيا من تريد أن يغيّرك القرآن، لا تقف عند جمال سورة النور، بل قف عند هيبتها، ولا تقف عند نورها فقط، بل عند فرضها، ولا تسأل أولاً: ما الذي يناسبني منها؟ بل اسأل: ما الذي فرضه الله عليّ فيها؟ لأن نقطة التحول الحقيقية في حياة المؤمن ليست حين يقول: فهمت الحكم، بل حين يقول: خضعت له، وليست حين يُعجب بالآية، بل حين يُسلِّم لها، وليست حين يكثر الحديث عن النور، بل حين يترك التحايل على ما فرضه الله في سورة النور.

فإذا أردت خلاصة هذه السورة في كلمةٍ واحدة فخذها من فمها هي: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، وإذا أردت الموقف الصحيح منها فخذه من قلب المؤمن الصادق: سمعنا وأطعنا.

الجزء التاسع عشر: بين فرقانِ الوحي وفتنةِ الهوى... من يهجرُ النورَ اليومَ يعضُّ يدَيْه غداً

المدخل التأسيسي للجزء التاسع عشر

سورة الفرقان

في هذا المقطع من سورة الفرقان ينتقل القرآن بالقلب في رحلةٍ كاملة تكشف بداية الضَّلال ثم نهايته، وتُري الإنسان كيف يتكوّن الانحراف في الداخل قبل أن يظهر في الخارج، وكيف ينتهي الأمر بصاحبه إلى النَّدم حين لا ينفع النَّدم، ثم تفتح في المقابل صورة الإنسان الذي استجاب لله فصار من عباد الرَّحمن؛ فكأنَّ السورة تضع أمامك طريقين كاملين متقابلين:

← طريق العناد الذي يبدأ بكلمةٍ ويختم بعذاب،

← وطريق العبودية الذي يبدأ بخضوعٍ ويختم بجنّةٍ وسلام.

تبدأ الرحلة بكشف الجذر الحقيقي للإنكار؛ فالقضية ليست نقص دليلٍ ولا غياب حجة، بل قلبٌ لا يرجو لقاء الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾، فهي مطالب ظاهرها البحث عن اليقين، وباطنها الكِبْر الذي كشفه القرآن بقوله: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾؛ فالمشكلة في القلب قبل أن تكون في الدليل.

لكن هذا الذي يطلب رؤية الملائكة لن يؤمن إن رآهم؛ لأن رؤيتهم الحقيقية ليست يوم الاقتراح بل يوم الحساب، وحينها لا تكون بشارةً بل رهبةً، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، ويُحاولون دفع العذاب بقولٍ لا يملك لهم نفعاً: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً﴾، ثم ينكشف ميزان الأعمال الحقيقي حين يقف الإنسان بين يدي الله، فكل ما ظنّه عملاً نافعاً إذا كان بلا إيمانٍ ولا إخلاص صار كالغبار الذي تذروه الرياح، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا

عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾... وفي المقابل يظهر الفرق بين مصيرين لا يلتقيان؛ فبينما يعيش أهل الجنة في طمأنينة الاستقرار: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾، ينكشف مشهد القيامة بكل هيبته حين تتصدع السَّماء ويكثر نزول الملائكة: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً﴾، ويظهر الحُكم الذي لا يشاركه فيه أحد: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾، وهو يومٌ يثقل على الكافرين لأنهم يواجهون الحقيقة التي أنكروها: ﴿وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾.

وهنا يكشف القرآن أحد أخطر أسباب الضَّلال في الدنيا: صُحبة السُّوء التي تغيّر مصير الإنسان، فيرى الظالم يوم القيامة عاقبة اختياره فيندم ندماً يُمزّق قلبه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ويقول مُتحسّراً: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾، فقد أضله صاحبه عن الذكر بعد أن جاءه، ثم تنكشف حقيقة الشيطان الذي يُزين الطريق ثم يترك صاحبه وحده عند الهلاك: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً﴾.

وفي قلب هذا المشهد تأتي الشكوى التي تهز ضمير كل مسلم؛ شكوى الرسول ﷺ من قومٍ كان القرآن بين أيديهم ولكنهم تركوه في حياتهم، فقال: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾، ومع ذلك يُطمئن الله نبيه بأن هذا الطريق ليس جديداً؛ فكل رسول واجه عداء المجرمين، لكن الهداية والنصر بيد الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾.

ثم يُعالج القرآن شُبهةً أخرى من شُبهاتهم؛ إذ تعجبوا من نزول القرآن مفرقاً، فبيّن الله أن الحكمة من ذلك تثبيت قلب النبي وتربية الأُمَّة على التَّدرُّج: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، وكلما جاءوا بحجةٍ أو شُبهة جاءهم القرآن بالحق الذي يفسرها ويكشفها: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ **أي بياناً أوضح وأدقّ يكشف الحقيقة ويفسّر الأمر تفسيراً**

صحيحاً لا يترك فيه لبساً.. ومن هذا المعنى اللُّغوي جاء اسم علم تفسير القرآن.

ثم يفتح القرآن صفحة التاريخ ليُذكّر بأن مصير المكذبين واحد مهما اختلفت أسماؤهم؛ فهؤلاء الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم هم أبعد الناس عن الطريق: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾، وقد مضى قبلهم أقوامٌ كذّبوا فهلكوا، كما في قصة موسى عليه السَّلام مع فرعون، وقوم نوح الذين أغرقوا، وأمم عاد وثمود وأصحاب الرَّس وقرون كثيرة بين ذلك، وكلهم أُقيمت عليهم الحجة وضُربت لهم الأمثال ثم دُمّروا لما أصروا على التكذيب: ﴿وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾.

ومع وضوح العبرة يمرُّ المكذبون بآثار الهلاك دون أن يتفكروا؛ فقد رأوا القرية التي أُمطرت مطر السَّوء، لكنهم لم يتعظوا لأن المشكلة ليست في قلة الأدلة بل في غياب الإيمان بالآخرة: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾، ولهذا لم يقف استهزاؤهم عند الآيات بل تجاوز إلى السُّخرية من الرسول نفسه: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾، وظنوا أن صبرهم على شركهم فضيلة، بينما سيعلمون عند رؤية العذاب من هو الأضل سبيلاً.

ثم يكشف القرآن أصل الضَّلال كله في كلمةٍ واحدة تهز القلب: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾؛ فحين يصبح الهوى هو الحاكم على الإنسان لا تنفعه الحجة ولا يسمع الموعظة، حتى يصبح حاله كحال الأنعام بل أضل منها لأن الحيوان لا يملك عقل التكليف: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

ومن هنا ينقل القرآن القلب من مشهد الضَّلال إلى مشهد الآيات الكونية التي تدل على الله تعالى في كل لحظة من الحياة؛ فالظل الممدود، وتعاقب الليل والنهار، والنَّوم الذي يقطع عناء الجسد، والنهار الذي يعيد الحياة للحركة، والرياح التي تبشر بالمطر، والماء الطَّهور الذي يحيي الأرض ويسقي الخلق، كلها

آيات تشير إلى رحمة الخالق وتدبيره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾، ومع هذا البيان المتكرر يبقى كثير من الناس على كفرهم: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾.

ومع ذلك لم يجعل الله مهمة البلاغ موزعة على رسل كثيرين في كل قرية، بل جعل خاتم الرسل يبلغ الناس جميعاً، وأمره أن يجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً، أي بالحجة والبيان: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾.

ثم يفتح القرآن صفحات أخرى من دلائل القدرة؛ فيجمع بين البحرين المختلفين ويجعل بينهما حاجزاً، ويخلق الإنسان من الماء ثم يجعله مرتبطاً بروابط النسب والمصاهرة، ومع هذا يعبد الناس ما لا ينفعهم ولا يضرهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾.

وسط هذا الضجيج يبيّن الله تعالى حقيقة مهمة الرسول ﷺ؛ فليس عليه إلا البلاغ والإنذار، ولا يطلب منهم أجراً، وإنما يدعوهم إلى طريق الله، ويأمره بالتوكل على الحي الذي لا يموت، العالم بذنوب عباده: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾.

ثم تعود السورة إلى تعظيم الله الخالق الرَّحْمَن الذي استوى على عرشه، ومع ذلك حين يُدعى هؤلاء للسجود له يسألون باستخفاف: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ فيزدادون نفوراً، بينما الكون كله يشهد بعظمته؛ فالشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار، كلها آيات لمن أراد أن يتذكر أو يشكر: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾.

وبعد هذا العرض الطويل لطريق الضَّلال تفتح السورة مشهداً آخر هو صورة الإنسان الذي استجاب لله فصار من عباد الرَّحْمَن؛ ليس هذا المقطع من سورة الفرقان مجرد صفاتٍ أخلاقية متفرقة، ولا لوحة وعظية جميلة تُقرأ للتأثر فحسب، بل هو رسمٌ قرآنيٌّ متكامل لشخصية الإنسان الذي اكتمل ميزان العبودية في

قلبه، حتى صار ظاهر حياته وباطنها منضبطين بنور واحد؛ نور العبودية لله تعالى، ولهذا بدأ الوصف من أبسط ما يراه الناس في الإنسان: طريقه في الأرض، قبل أن ينتقل إلى أعماق قلبه وصلته بربه، لأن العبودية الحقيقية لا تظهر أولاً في الكلمات بل في السُّلوك الذي يراه الناس كل يوم.

فأول ما يكشفه القرآن من ملامح هؤلاء أنهم لا يسيرون في الأرض بروح الاستعلاء ولا بنَفَس الكِبر، بل يمشون بطمأنينة المتواضع الذي يعرف قدر نفسه أمام خالقه، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾، ليس هَوْناً بمعنى الضعف أو الذُّل، بل هدوءُ من استقر في قلبه تعظيم الله فلم يعد يحتاج إلى تعظيم نفسه أمام الناس، ولهذا إذا واجههم الجهل أو الاستفزاز لم ينحدروا إلى مستوى الخصومة التي تستهلك القلب، بل يحفظون لأنفسهم سمتهم الهادئ ويغادرون الجدال العقيم بسلام، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾، فهم لا يبنون شخصيتهم على ردّ كل كلمةٍ بكلمة، ولا على إثبات الذات في كل خصومة، لأن القلب الذي امتلأ بنور الله لا يُضيّع وقته في معارك النفس الصغيرة.

ثم ينتقل القرآن من صورة الإنسان في النهار بين الناس إلى صورته في الليل حين يخلو بربه، ليكشف أن سر هذا السلوك الهادئ في الحياة ليس مهارةً اجتماعية ولا تدريباً أخلاقياً، بل هو ثمرة علاقة عميقة بالله تُبنى في الظلام حين ينام الناس، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾، فهؤلاء لا يكتفون بصلاح الظاهر، بل يقيمون في الليل صلةً طويلة بربهم، يسجدون ويقومون، لأن القلب لا يثبت في النهار إلَّا إذا تزوّد في الليل.

ومع أن قيامهم طويل، وعبادتهم ظاهرة، إلَّا أن قلوبهم لا تغترُّ بأعمالهم، بل يعيشون خوفاً صادقاً من عذاب الله، فيجمعون بين العمل والخشية، فيقولون متضرعين: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾، أي ملازماً

شديداً لا يفارق صاحبه، ثم يصف القرآن حقيقة هذا المصير الذي يخافونه: ﴿إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾، فيتضح أن قلوبهم مُعلّقة بالنجاة من الآخرة أكثر من تعلقها بمديح الدنيا.

ثم يظهر أثر هذا التوازن الإيماني في تعاملهم مع المال؛ فلا يسرفون إسراف الغافلين الذين تُديرهم الشَّهوات، ولا يقترون تقتير البُخلاء الذين يخافون الفقر أكثر مما يرجون ثواب الله، بل يعيشون ميزان الاعتدال الذي يعبّر عنه القرآن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾، فالدنيا في أيديهم لا في قلوبهم.

ثم يكشف القرآن أن هذا البناء الأخلاقي لا يقوم على حسن السلوك وحده، بل على أساسٍ عقدي عظيم هو توحيد الله، ولذلك يذكر أعظم ما يحفظ القلب من الانحراف: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾، ثم يذكر أعظم الجرائم التي تهدم الحياة الإنسانية: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ليبين أن عبودية الرَّحمن ليست مجرد شعورٍ روحي، بل التزامٌ عملي يحفظ حق الله وحق الإنسان وحق المجتمع.

ثم يذكّر القرآن بعاقبة هذه الجرائم ليبيّن خطورتها: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾، لكن باب الرَّحمة يبقى مفتوحاً لمن رجع صادقاً، فيقول سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، ليعلم العبد أن طريق العودة إلى الله لا يُغلق ما دام القلب حياً بالتوبة والعمل الصَّالح، ولهذا يؤكد القرآن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾، أي رجوعاً صادقاً يقبله الله تعالى ويباركه.

ثم ينتقل البناء القُرآني إلى ملامح أخلاقية أخرى تكمل الصورة؛ فهم قوم لا يقفون في صف الزور ولا يشاركون في الباطل، لأن الكلمة عندهم مسؤولية، قال

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾، وإذا مرّوا بمجالس اللغو التي تضيع العمر بلا فائدة لم يندمجوا فيها ولم يلوثوا قلوبهم بها، بل تجاوزوها بكرامة النفس: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾.

وإذا سمعوا آيات الله لم يتعاملوا معها تعاملاً سطحياً كمن يسمع كلاماً لا يعنيه، بل استقبلوها بقلوبٍ حيةٍ تعقل وتفهم، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾، أي لم يتلقوها بلا فهمٍ ولا تدبر، بل جعلوا الوحي حياً في قلوبهم وعقولهم.

ثم يكشف القرآن أن صلاح هؤلاء لا يقف عند حدود أنفسهم، بل يمتد إلى بيوتهم وأجيالهم، فيدعون الله أن يجعل أسرهم سبب سكينةٍ لا مصدر فتنة، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾، ولا يكتفون بصلاحهم الشخصي بل يطمحون أن يكونوا قدوة في الخير، فيضيفون: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾، أي نماذج يُقتدى بها في الطاعة والاستقامة.

وعند هذه النقطة يكشف القرآن عاقبة هذا الطريق الطويل من التواضع والعبادة والخوف والعدل والتوبة والصدق، فيقول: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾، أي ينالون منازل الجنة العالية بسبب صبرهم على الطاعة وصبرهم عن المعصية وصبرهم على الابتلاء، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً﴾، ثم يقرر استقرار هذا المصير الكريم بقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾.

لكن القرآن لا يترك القارئ بعد هذا الوصف دون أن يُذكّره بحقيقة العلاقة بين العبد وربه، فيختم هذا السياق بكلمةٍ عظيمة تعيد ترتيب الميزان كله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: ما تكون لكم قيمة عند الله لولا دعاؤكم وعبادتكم له، أي أن قيمة الإنسان الحقيقية عند الله ليست في ماله ولا جاهه ولا قوته، بل في توجهه الصادق إلى الله بالدعاء والعبادة، فمن أعرض عن هذا الطريق فقد اختار طريق التكذيب والعناد، ولذلك قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾، أي أن عاقبة هذا التكذيب ستلازم صاحبه يوم الحساب.. وهكذا يتضح أن هذه الآيات ليست مجرد صفاتٍ متفرقة، بل خريطة كاملة لشخصية المؤمن الذي توازن قلبه بين التواضع والعبادة والخوف والعدل والصدق والتوبة والوعي بالوحي، حتى صار بحق من عباد الرَّحمن الذين بنوا حياتهم كلها على عبودية الله تعالى.

وهكذا تضع هذه الآيات القلب أمام طريقين واضحين:

← طريق الهوى الذي يبدأ بالاستكبار وينتهي بالندم،

← وطريق العبودية الذي يبدأ بالتواضع وينتهي بالغُرفة والسَّلام،

وبين الطريقين يقف القرآن هادياً ونذيراً لمن أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً.

سورة الشعراء

في سورة الشعراء لا يضعك القرآن أمام قصصٍ متفرقةٍ لمجرد التذكير بتاريخ المكذبين، بل يُدخلك في سُنّةٍ واحدةٍ تتكرر في الأرض كلما نزل الحق على الخلق:

١. وحيٌ واضح،
٢. ورسولٌ أمين،
٣. وقلبٌ متعب من إعراض الناس،
٤. وآياتٌ قائمة،
٥. واستكبارٌ يعمي،
٦. ثم نصرٌ يجيء في وقته،
٧. وعذابٌ ينزل حين تُغلق القلوب أبواب الرجوع؛

ولذلك افتتحت السورة بالإشارة إلى وضوح هذا الكتاب: ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، ثم سلَّت قلب النبي ﷺ وكشفت أن حرصه على إيمان الناس لا يُغيّر سُنن الله تعالى فيمن أعرض، فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ

نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، فالهداية ليست قهراً يُنزَّل من السماء فيخضع له الناس بلا اختيار، ولو شاء الله لفعل: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾، لكن الله أراد لعباده إيماناً يقوم على الاستجابة للذكر، لا على انكسار الأجساد تحت الإلجاء، ولهذا كان كلما جاءهم تذكيرٌ من الرَّحمن قابلوه بالإعراض، ثم سيأتيهم خبر ما كانوا به يستهزئون، مع أن الأرض من حولهم مملوءة بآيات القُدرة والإحياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، ثم يتكرر الميزان الذي سيجري في السورة كلّها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، عزيزٌ لا يُغالب، رحيمٌ لا يعجل قبل إقامة الحجة.

ثم تبدأ السورة بأعظم نموذجٍ في مواجهة الطغيان، لتُعلِّمك أن الرسالة لا تُحمَل بقوة النفس وحدها، بل بمعيّة الله؛ فموسى عليه السَّلام يُدعى إلى القوم الظالمين، إلى فرعون الذي تجاوز الحد، فيكشف بين يدي ربّه ما في نفسه من خوفٍ وضيقٍ وذكرى قديمة: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، فيأتيه الجواب الذي يردّ القلب إلى الثبات: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾؛ فكأنَّ السورة من أولها تقرر أن الداعية قد يدخل الميدان وفي نفسه رهبةٌ بشرية، لكن الذي يثبته حقّاً هو وعد الله لا صفاء الظروف.

ثم تمضي المواجهة بين الحق والطغيان في أنقى صورها؛ فرعون لا يناقش الرسالة طلباً للهدى، بل يتهرب إلى الامتنان القديم، وإلى الجريمة الماضية، وإلى السُّخرية، وإلى التهديد، وموسى عليه السَّلام لا يتشتت في هذه المناورات، بل يردّ القضية إلى أصلها: من رب العالمين؟ فيجيبه بتوحيد الرُّبوبية الذي لا يستطيع العقل السَّليم دفعه: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، ثم ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، ثم ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛

فكأنَّ السورة تعلمك أن معركة التوحيد ليست معركة ألفاظٍ مجردة، بل إرجاع الخلق كلهم إلى ربهم الحق، وأن الطغيان إذا عجز عن الحجة لجأ إلى التهمة: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، ثم إلى البطش: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

وحين ظهرت الآيات لم يخضع فرعون للحق، بل حوّل المعجزة إلى معركة رأيٍ عام، واستدعى أهل الباطل ليُلبسوا على الناس، فجُمعت السحرة، وجُمعت الجماهير، وصارت القضية عند الناس: من الغالب؟ لا: من الصادق؟ وهنا يريك القرآن كيف يفضح الله الباطل من داخله؛ فالسَّحرة الذين جاؤوا يطلبون الأجر والقُرب من فرعون، لما رأوا الحق سجدوا لله بلا تردد، وانتقلوا في لحظةٍ واحدةٍ من خدمة السلطان إلى العبودية لرب العالمين: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، وحين هددهم فرعون بالتقطيع والتصليب لم تهتز الحقيقة في قلوبهم: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ فالسورة هنا لا تحكي انقلاب موقفٍ فحسب، بل تكشف أن من عرف الحق حقّاً صغرت في عينه قسوة الدنيا كلها.

ثم ينتقل المشهد إلى لحظة المطاردة، حين يسير موسى بالمؤمنين بوحي الله، ويخرج فرعون بكل قوته وجمعه، فإذا البحر أمامهم والعدو وراءهم، فتظهر البشرية الخائفة في قول أصحاب موسى عليه السَّلام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، ويظهر اليقين الذي يصنعه التوكل في قول موسى عليه السَّلام: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فينشق البحر بأمر الله، ويُنجى أهل الإيمان، ويُغرق المتكبرون؛ لتبقى القاعدة نفسها تتكرر: النجاة ليست لكثرة العدد، والهلاك لا يمنعه اتساع الملك، لأن الذي يدبر النهاية هو العزيز الرَّحيم.

وبعد نموذج موسى عليه السَّلام الذي يواجه سلطان الجبروت، تأتي مدرسة إبراهيم عليه السَّلام لتواجه سلطان التقليد؛ فالقضية هنا ليست عصاً وبحراً، بل

سؤالٌ يهدم أصل الوثنية من جذوره: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، ثم سؤالٌ يكشف خواء المعبودات: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾، فإذا لم يجد القوم جواباً رجعوا إلى الحجة التي يلجأ إليها كل قلبٍ لا يريد أن يفكر: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ وهنا يعلن إبراهيم عليه السَّلام براءته من كل ما سوى الله، لا بعبارةٍ نظرية، بل بتقريرٍ حيٍّ لعلاقته بربه في كل أحواله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ فكأن التوحيد في السورة ليس قضية جدلٍ فحسب، بل قضية اعتمادٍ كامل، وافتقارٍ كامل، ورجاءٍ كامل، واستسلامٍ كامل لله تعالى.

ثم يرتفع دعاء إبراهيم عليه السَّلام من مقام الحجة إلى مقام الطلب؛ يطلب حكماً، ولحوقاً بالصَّالحين، ولسان صدق، وجنة النعيم، والمغفرة لأبيه، والسَّلامة من خزي يوم البعث، حتى يصل إلى الحقيقة التي تختصر ميزان النجاة كله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ فهنا تبلغ السورة قلبها الداخلي: ليس المقصود من القصص أن تحفظ أسماء الهالكين والناجين، بل أن تسأل عن قلبك أنت: هل هو سليمٌ من الشرك، ومن الكبر، ومن العناد، ومن الركون إلى غير الله؟ ثم تكشف لك مآل الطريقين؛ الجنة تُزلف للمتقين، والجحيم تُبرز للغاوين، والآلهة المدعاة لا تنصر عابديها، والضَّالون يعترفون متأخرين: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم يكتشفون في النار أن شبكات الباطل التي كانت تسندهم في الدنيا لا تملك لهم شيئاً: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

ومن هنا تسوق السورة سلسلة الرسالات بعد إبراهيم عليه السَّلام، لا لتكرار الشكل، بل لتأكيد أن المرض واحد وإن اختلفت صوره، وأن جواب الرسل واحد وإن اختلفت أقوامهم؛ فقوم نوح واجهوا الحق باحتقار أتباعه، كأنَّ قيمة

الدعوة تُوزن عندهم بمكانة من تبعها لا بصدقها، فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، فكان جواب نوح عليه السَّلام أن الحساب على الله، وأن الرسول لا يطرد المؤمنين إرضاءً للمتكبرين، وأن وظيفته البلاغ لا صناعة طبقية جديدة، فلما أصروا على التكذيب جاء الفتح بينه وبينهم، ونجّى الله المؤمنين، وأغرق الباقين.

ثم تأتي عاد لتكشف صورةً أخرى من صور الفساد؛ قوةٌ عمرانية، وبناءٌ في المرتفعات على وجه العبث، ومنشآتٌ توهم أهلها بالخلود، وبطشٌ جبار حين تقع اليد على الخلق؛ فكأنَّ المرض هنا هو طغيان القوة حين تنسى المنعم، ولهذا ذكّرهم هود عليه السَّلام بما أمدهم الله به من أنعامٍ وبنين وجناتٍ وعيون، لكنهم أغلقوا قلوبهم بعبارةٍ مختصرةٍ مخيفة: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾، أي إن الوعظ لم يعد يدخل أصلاً إلى نفوسٍ تشبعت بالغرور، فجاءهم الهلاك حين كذبوا.

ثم تأتي ثمود بصورة الأمن المخدوع؛ جناتٌ وعيون، وزروعٌ ونخل، وبيوتٌ منحوتة في الجبال بمهارة، حتى كأنهم رسخوا لأنفسهم مقاماً لا يتزعزع، لكن النبي صالحاً عليه السَّلام يردهم إلى أصل المسألة: لا تغتروا بالاستقرار الظاهر، ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يُصلحون، وحين طلبوا الآية جاءتهم الناقة ابتلاءً وحدّاً فاصلاً بين الطاعة والعدوان، فلما عقروها لم ينفعهم النَّدم بعد وقوع الجريمة، لأن النَّدم الذي لا يسبقه انكسار طاعةٍ ورجوعٌ صادق لا يدفع العذاب إذا جاء أجله.

ثم تأتي قصة لوط عليه السَّلام لتكشف أن الانحراف الخُلقي ليس أمراً معزولاً عن أصل العقيدة، بل هو صورة من صور العدوان على الفطرة وعلى أمر الله؛ فقوم لوط لم يكتفوا بارتكاب الفاحشة، بل جعلوا المنكر هو العادة، وجعلوا دعوة النبي إلى الطُّهر سبباً لتهديده بالإخراج، فقال لوط عليه السَّلام بوضوحٍ لا

لبس فيه: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾، ثم لجأ إلى ربه ليُنجيه وأهله مما يعملون، فكانت النجاة لأهل الإيمان، وبقيت من بقيت في صف الغابرين، ونزل مطر السوء على قومٍ جاوزوا حدود الله جهاراً.

ثم تأتي رسالة شعيب عليه السَّلام لتكشف أن الفساد الاقتصادي والأخلاقي من صميم التكذيب بالرسالات، فالتطفيف، وبخس الناس أشياءهم، والعبث في الأرض فساداً، ليست مخالفاتٍ هامشية، بل علامات على قلبٍ لم يتق الله، ولذلك بدأ شعيب بما بدأ به إخوانه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ثم أمرهم بإيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، ونهاهم عن الإفساد، لكنهم ردوا عليه بالتهمة القديمة نفسها: السِّحر، والبشرية، والكذب، ثم طالبوا بسقوط العذاب تحدياً واستهزاءً، حتى أخذهم عذاب يوم الظُّلة؛ فدلّ ذلك على أن المجتمعات لا تهلك فقط حين تنكر الله نظريّاً، بل تهلك أيضاً حين تبني حياتها على الظلم والفساد وأكل الحقوق مع الإصرار على التكذيب.

وبعد أن تمضي السورة بهذه المواكب من الرُّسل والأقوام، تعود لتقول إن هذا القرآن ليس كلام بشر، ولا أثرَ موهبةٍ، ولا صناعةَ ثقافةٍ، ولا صدى شيطان، بل هو ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فمصدره هو الذي يُحدّد مقامه، وإذا ثبت أن الذي أنزله هو ربُّ العالمين، سقطت من الأصل كل محاولات تنزيله إلى مستوى الظنون البشرية، ثم يزداد هذا المعنى بياناً حين يذكر طريق نزوله ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، فالقضية ليست مجرد ألفاظ وصلت إلى اللسان، بل وحيٌ أمين نزل على قلبٍ اصطفاه الله لحمل هذا الثقل، ليقوم بالإنذار لا بالتزيين، وبالبلاغ لا بالمجاراة، ثم جاء هذا التنزيل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، فلا غموض في أصل الحجة، ولا التباس في مادة البيان، وإنما الوضوح قائم، واللغة ظاهرة، والحجة مستقيمة، ثم ليس هذا الوحي بدعاً منفصلاً عن خطّ الرسالات، بل ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾، أي إن أصوله الكبرى، ودلالته

على صدق الرسالة، واتصاله بهدي السماء، أمرٌ تعرفه بقايا الكتب السابقة، ولذلك جاء الاحتجاج على المكذبين من زاوية يعرفون ثقلها ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، فالمشكلة لم تكن في انعدام الشواهد، بل في امتناع القلوب عن الخضوع لما قامت عليه الشواهد.

ثم يكشف السياق أن العائق الحقيقي ليس نقص البيان، لأن الله يقول ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، أي إن القضية أعمق من اللغة الظاهرة التي يحتجون بها، لأن القلب إذا اختار الإعراض صار يتعلّل بكل شيء، ولو زالت حجة اليوم استحدث حجة الغد، ولهذا جاء البيان المخيف ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾، وليس المعنى أن الله أدخل في قلوبهم هدىً انتفعوا به، بل مرّ هذا القرآن عليهم، وقامت حجته في داخلهم، ولامس مواضع الإدراك في نفوسهم، ثم لم يثمر إيماناً بسبب إجرامهم وإصرارهم، فصار وجود الحجة في القلب لا طريقاً للهداية بل باباً للمزيد من التبعة، حتى استقر الحال ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وهنا يبلغ العمى مداه، لأنهم لا يطلبون اليقين الذي يقود إلى الإيمان، بل يؤخرون الاستجابة حتى تنقلب المشاهدة إلى لحظة لا تنفع معها رجعة، ولذلك يأتيهم العذاب ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وعندها فقط ينطقون بما لا جدوى له ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾، كأنهم يطلبون مهلةً بعد انقضاء زمن المهلة، ثم يُوبَّخ هذا الاستعجال القديم الذي كان يحمل لون الاستهزاء والغرور ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، لأن من استهان بالوعيد قبل حلوله لن يجد في لحظة نزوله باباً للفرار.

ومن هنا ينتقل المقطع إلى كسر وهمٍ آخر يفتن الغافلين، وهو وهم الامتداد الزمني والتمتع الطويل، فكأنَّ السِّنين إذا تراكمت على الإنسان أو على الأمم صارت في نظرهم دليلاً على الأمان، فجاء السؤال القاطع ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾، فالمتاع

إذا لم يتحول إلى شكر وطاعة وانكسار بين يدي الله، لم يكن إلَّا تأخيراً للحساب لا إلغاءً له، ولم يكن إلَّا ستاراً رقيقاً سرعان ما يتمزق عند أول صدمة من صدمات الحق، ثم يقرّر السياق قاعدة العدل الإلهي ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، ليثبت أن العذاب لا ينزل اعتباطاً، ولا تنقطع أُمَّة عن الحياة بغير حجة، بل يسبق ذلك إنذار، وتقوم قبله ذكرى، ويُفتح قبله باب الرجوع، فإذا جاء الأخذ بعد ذلك كان عدلاً محضاً، لأن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً، ولكن الناس هم الذين يختارون الوقوف في الجهة المقابلة للحق حتى يأتيهم ما كانوا به يستهزئون.

ثم يعود السياق ليُطهّر أصل التلقي مرة أخرى من كل شبهةٍ أُلصقت بالوحي، فيقول ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، فلا نسبة بين هذا القرآن وبين عالم الشياطين لا من جهة الحقيقة ولا من جهة الإمكان، لأنه وحيٌ محفوظ، وهم معزولون عن هذا السَّمع، عاجزون عنه، غير أهلٍ له، وبذلك تُقطع آخر منافذ التلبيس التي كانت تُراد لإسقاط هيبة القرآن من القلوب، فإذا ثبت أن القرآن تنزيل رب العالمين، وأنه ليس من الشياطين، وأن الحجة به قد قامت، جاء التحذير الذي يردّ الأصل كله إلى توحيد الله ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾، لأن من عرف مصدر الوحي، ثم صرف العبادة لغير الله، فقد هدم بيده مقتضى ما عرف، فلا ينفعه علمٌ لا يقوده إلى توحيدٍ خالص.

ثم تبدأ الرسالة في التحرك من الدائرة الأوسع إلى موضعها الأقرب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، ليبيّن أن البلاغ لا يبدأ من الأماكن البعيدة التي تقلّ فيها الكُلفة، بل يبدأ من الموضع الذي تكون فيه المواجهة أشد، والامتحان أدق، والروابط أرسخ، ثم لا يحمل هذا الإنذار قسوةً متكبرة ولا غلظةً منفّرة، بل يوازن معه خُلق الرَّحمة والتواضع ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾،

فالداعية ليس صاحب تعالٍ على أهل الإيمان، بل صاحب قلبٍ لينٍ لهم، يخفض لهم جناحه لا ضعفاً عن الحق، ولكن رحمةً بمن استجاب له، ثم إذا أصرّ من أصرّ على العصيان بعد البيان، جاءت المفاصلة الواضحة بلا اضطراب ولا ميوعة ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، لأن الرحمة لا تعني التنازل عن حدود الحق، واللين لا يعني الرضا بالباطل، فتبقى الدعوة رحيمةً بأهل الإيمان، واضحةً في البراءة من طريق العصيان.

وفي وسط هذا الثقل كله يأتي مورد التثبيت الذي لا يقوم الداعية إلا به ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، فليست القضية أن يعتمد على قوته أو فصاحته أو عدد المستجيبين له، بل أن يُسند قلبه إلى ربٍّ عزيزٍ لا يُغلب، رحيمٍ لا يخذل أولياءه، ثم يزداد هذا التثبيت قرباً وطمأنينةً حين يقال له ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾، فكأنَّ أعظم ما يثبّت صاحب الرسالة أنه ليس متروكاً في ساحة التكليف، بل هو مرئيٌّ بعين العناية الإلهية في قيامه، وفي عبادته، وفي تنقله بين المؤمنين السَّاجدين، ثم يُختم هذا المعنى بقوله ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ليسمع قولك، ويعلم حالك، ويعلم ما تلقاه، وما تخفيه الصدور في طريق البلاغ والصبر.

وبعد أن نُزِّه القرآن عن الشياطين، ونُزِّه الرسول عن أوصاف المبطلين، جاء كشف الجهة التي تتنزل عليها الشياطين حقّاً ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾، فالسياق هنا لا يكتفي بنفي الباطل عن النبي ﷺ، بل يضع الباطل في موضعه الصحيح: موطنه الكذب، والإفك، والإثم، والتقاط ما يُلقى ثم بناؤه على الزور، فهناك تنتمي الشياطين، وهناك ينسجم أثرها، لا مع الوحي الحق ولا مع القلب الأمين، ثم يختم المقطع بحديثٍ عن الشعراء ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، وليس المقصود ذمَّ كل

شعرٍ بإطلاقه، وإنما ذمُّ النَّمط الذي ينفلت من الحق، ويتقلب مع الأهواء، ويتوسع في القول بلا ميزان، ويصنع بالكلمات ما لا يصدقه العمل، فجاء الاستثناء العادل الذي يحفظ لأهل الإيمان موضعهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾، فليست المشكلة في البيان نفسه، ولا في جمال العبارة، بل في الجهة التي يخدمها القول، وفي الصِّلة بين الكلام والعمل، وفي حضور ذكر الله تعالى، وفي كون الانتصار انتصاراً للحق بعد ظلمٍ لا فخراً باطلاً ولا تيهاً بالكلمات، ثم يُترك الظالمون في نهاية المطاف أمام المصير الذي ينتظرهم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، ليُغلق المقطع على حقيقةٍ جامعة: أن الوحي حق، وأن الحجة قائمة، وأن التمويه وإن طال، والتمتع وإن امتد، والباطل وإن تزيّن، لا يغيّر من نهاية الطريق شيئاً؛ فالمآل الأخير ليس لما يلمع في أعين الناس، بل لما ثبت عند الله تعالى صدقاً وهدًى واستقامة.

سورة النمل:

آيات هذا الجزء من سورة النمل تفتح السورة من موضع الحسم لا من موضع التمهيد الطويل، فتعرّفك من أول الطريق أن ما بين يديك ليس مجرد آيات تُقرأ، بل ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، كتابٌ واضح في مصدره، واضح في هدايته، واضح في حجته، لا يزيده الإعراض إلَّا ظهوراً، ولا ينقصه تكذيب المكذبين شيئاً من كمال بيانه، ثم لا يجعل هذا البيان هدىً عاماً ينتفع به كل من مرّ عليه مرور العين، بل يخصُّه بمن فتح قلبه لأسباب الهداية، فهو ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم يكشف لك من هم المؤمنون الذين يتهيأون لالتقاط هذا النور: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، فكأنَّ القرآن من أول السورة يقرر أن الهداية لا تسكن قلباً منفصلاً عن العبادة، ولا قلباً مشغولاً بالدنيا عن الآخرة، لأن إقامة الصلاة تزكي الصِّلة، وإيتاء الزكاة

يطهّر التعلّق، واليقين بالآخرة يضبط الاتجاه كله، فإذا اجتمعت هذه الأركان صار القلب مهيأً لأن يرى في القرآن هدىً وبشرى، لا ألفاظاً تمرّ ثم تنطفئ.

ثم على الضفة الأخرى يكشف السياق سرّ العمى لا سرّ النقص في الدليل، فالمشكلة ليست في قلة الآيات، بل في انحراف البصيرة حين تُقطع عن الآخرة، لذلك قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، فهم لا يمشون في الدنيا على بصيرة مستقيمة، بل في عَمَهٍ مضطرب، لأن العمل إذا تزيّن في عين صاحبه وهو منقطع عن الحساب، صار الانحراف عنده صورةً من صور الرضا عن النفس، ثم ينتهي هذا التزيين إلى نتيجته التي لا تخطئ ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾، فكأنَّ السورة تقيم من أولها الميزان كله على الآخرة: من أيقن اهتدى، ومن كذّب عَمِه، ومن عمِه خسر، ثم تعود بعد ذلك إلى تثبيت أصل الرسالة في قلب النبي ﷺ ليبقى كل ما سيأتي بعدها مبنياً على هذا اليقين الكبير ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، فليس هذا القرآن كلاماً وصل صدفة، ولا مادةً تشكلت من التجربة البشرية، بل تلقٍّ من لدن حكيمٍ يضع الأشياء مواضعها، عليمٍ لا يغيب عنه شيء من أحوال من يخاطبهم بهذا الكتاب.

ومن هذا الأصل تنتقل السورة إلى مشهد موسى عليه السَّلام في لحظةٍ تبدو في ظاهرها لحظةَ حاجةٍ بشريةٍ عادية، ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، فخرج يطلب خبراً أو قبساً، فإذا به يدخل على خبر السماء كله، وكأن الطريق إلى التكليف العظيم قد يفتحه الله من موضع لم يكن العبد يتوقعه، فلما جاءها ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم جاء النداء الذي يخلع القلب من كل تعلقٍ بغير الله ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فالتعريف هنا ليس تعريفاً مجرداً، بل تعريفٌ يجمع بين سلطان العزة وكمال

الحكمة، ليعلم موسى عليه السَّلام أن الذي يكلّمه هو ربٌّ لا يُغالب، وأن كل ما سيأمره به جارٍ على الحكمة لا على العبث.

ثم تأتي الآية المزلزلة في العصا ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾، فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ ﴿وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، فيُسمِعك القرآن صدق البشرية في قلب الرسول، فلا يصوّر المرسلين بصورةٍ متكلفةٍ منزوعٍ منها أثر المفاجأة، ثم يطمئنه ربُّه ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾، ثم يفتح باب الرجاء في قلب كل من يسمع ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فكأنَّ السياق لا يربط الرسالة بالعزة وحدها، بل بالعفو كذلك، ولا يربط القرب من الله بالعصمة من الزَّلل البشري ابتداءً في كل من دونه، بل بباب التبديل والتوبة والرجوع، ثم تتتابع الآيات ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾، فتتحدد الجهة التي ستُواجه هذا البيان: قومٌ فسقوا أولاً، ثم كذبوا بعد ذلك، فلما جاءتهم الآيات مبصرةً قالوا ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهنا يكشف القرآن جذر الأزمة في جملةٍ بالغة النفاذ ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾، فالمشكلة ليست في غياب اليقين الباطني، بل في استكبارٍ يمنع صاحبه أن يخضع لما استيقن به، ولذلك جاء التعقيب ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، لأن من عرف الحق ثم دفعه ظلماً وعُلُوّاً لا تكون نهايته إلَّا على قدر إفساده.

ثم تأخذك السورة إلى نموذجٍ آخر من نماذج التلقي لنعمة الله، لا على وجه الجحود والاستكبار، بل على وجه الحمد والاعتراف، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾، فالعطاء هنا بدأ بالعلم قبل المُلك، وكأنَّ السورة تريد أن تُفهمك أن أصل الفضل ما استقر في العقل والقلب من هدى الله، ثم كان أول ما نطق به داود وسليمان عليهما السَّلام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فلم ينظرَا إلى الفضل على أنه استحقاق ذاتي، بل على أنه

نعمةٌ تستوجب الحمد، ثم يرث سليمان داود عليه السَّلام، ويعلن أمام الناس ما آتاه الله ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، فلا يتحدث عن النِّعمة بلسان المنتشي بنفسه، بل بلسان الشَّاهد على فضل الله، ثم ترى مظهر السلطان الهائل ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، ولكن هذا السلطان لا يفسد قلب النبي الملك، بل إذا وصل إلى وادي النَّمل وسمع قول النَّملة ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، لم يقابل هذا المشهد بغرور القوة، وإنما ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾ ثم فزع إلى الدعاء ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾، فكلما اتسع الـمُلك عند العبد الصالح ازداد شعوره بالحاجة إلى الشُّكر والعمل الصالح والرحمة، لا إلى مزيدٍ من التعالي.

ثم يريك السياق أن الإحكام لا ينفصل عن المسؤولية، ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾، ففي قلب هذا الملك العظيم عينٌ ترقب الغائب وتزن الحضور وتتابع النظام، فلما فقد الهدهد قال ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، ثم أعلن الموقف الذي يحفظ للسلطان هيبته ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، لكن الهدهد جاء بالخبر الذي سيفتح باباً جديداً من أبواب الهداية ﴿أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، وفي هذا درسٌ خفيٌّ في أن الملك الكبير قد يفتح الله على يديه خبراً بواسطة مخلوقٍ صغير، وأن الإحاطة البشرية لا تستغرق كل شيء، ثم يجيء وصف سبأ وملكتهم ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، لكن هذا الكمال الظاهر في أسباب الـمُلك لم يمنع الانحراف العقدي ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾، فيعود المعنى الذي افتتحت به السورة: التزيين إذا فصل

الإنسان عن الله أعمى القلب، ولو صاحبه نظامٌ وملكٌ وعمران، ثم يرفع الهدهد القضية إلى أصلها الأعظم ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، فكأن العرش العظيم الذي يبهر البشر لا يساوي شيئاً إذا غاب عن القلوب ربُّ العرش العظيم.

ثم تمضي القصة في ميزان الحكمة لا التسرع، فيقول سليمان ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فلا يبني قراره على مجرد الخبر حتى يتثبت، ثم يرسل الكتاب الذي جمع الهيبة والوضوح ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، فليس المقصود مجرد الخضوع لملكٍ أرضي، بل الدخول في الإسلام لله، ثم تقف ملكة سبأ أمام الموقف بعقلٍ يقرأ الواقع، فتجمع الملأ وتستفتيهم ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، فيجيبها أهل القوة ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، لكنها تدرك بطبع السياسة ما تفعله الحروب إذا دخلت القرى ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، فتختبر الأمر بالهدية، فلما جاء سليمان قال كلمته التي تكشف الفارق بين من تحكمه الدنيا ومن تحكمه الرسالة ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، فلا تُشترى الدعوة، ولا تُطوى الحقيقة بالمال، ثم يردّهم بما يليق بمقام النبوة والملك ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، لأن الحق إذا قامت حجته ولم تنفع معه المساومات، بقي له وجه الحسم.

ثم يدخل السياق إلى مشهد العرش ليكشف مرة أخرى أن الفضل مهما بلغ يجب أن يعود في نفس العبد إلى الله، فيسأل سليمان ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾، فيعرض العفريت قدرته، ثم يقول الذي عنده علم من الكتاب ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، فلما رآه مستقراً عنده لم يقل سليمان هذه ثمرة سلطاني،

ولا هذه ثمرة عبقريتي، بل قال ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، فحتى القدرة الخارقة لا تُغلق باب المحاسبة، بل تفتحه، لأن النعمة في ميزان النبوة امتحانٌ للشُّكر لا موضعٌ للغفلة، ثم يقرر الأصل العظيم ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، ثم يهيئ لها العرش منكراً ليرى اهتداءها، فلما جاءت وقيل ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ قالت ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، ثم جاء الاعتراف ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، ويكشف القرآن أن العائق الأكبر لم يكن نقص الذكاء، بل عبادة ما سوى الله ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، ثم تبلغ القصة ذروتها في الصَّرح، فلما حسبته لُجةً وكشفت عن ساقيها قيل لها ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، وعندها انكسرت الحجب الأخيرة وقالت الكلمة التي هي غاية الرحلة كلها ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فالمشهد كله منذ خبر الهدهد حتى الصرح لم يكن استعراض قوة، بل تهيئةً لنقل قلبٍ من زخرف الملك إلى حقيقة الإسلام.

ثم لا تدعك السورة تستريح طويلاً عند مشهد الهداية حتى تعود فتريك الوجه الآخر من التاريخ، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، فالمبدأ واحد، لكن الاستجابات تختلف، فإذا بهم ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، لأن الحق إذا جاء لم يضمن اجتماع الناس عليه، بل يفرز المواقف ويميز الصفوف، ثم يدعوهم صالح عليه السَّلام إلى قلب المعادلة ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فهم يطلبون العذاب بدل الرحمة، ويستدعون النقمة بدل المغفرة، ثم يكشفون منطق النفوس المنحرفة ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾تشاءمنا بك وبمن معك، وظننّا أن ما أصابنا من سوء فهو بسببكم، فيردّ عليهم ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ ليس شؤمكم بسببنا، بل ما يصيبكم من خير أو شر هو بقدر الله ونتيجة أعمالكم، وإنما أنتم قوم يختبركم الله تعالى، فالمشكلة ليست في صالح عليه السَّلام ومن معه، بل في ابتلاء

القلوب التي قلبت النذارة إلى شؤم، ثم تتكشف صورة الإفساد في ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، لا يقفون عند الكُفر، بل ينتقلون إلى التآمر، ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾، حتى إذا عجزوا عن مواجهة الحق علناً لجؤوا إلى المكر ليلاً، ثم كذبوا قبل وقوع الجريمة وبعدها، لكن الله تعالى لا يُغالَب ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فتكون الخاتمة على قدر الجريمة ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ثم تبقى بيوتهم الخاوية آيةً بصرية على أن الظلم لا يثبت بنياناً ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾، وفي المقابل لا يضيع أهل التقوى في الزلزلة العامة ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، ليبقى الفرق ظاهراً بين من تشكلت حياته على التقوى ومن تشكلت على الإفساد.

ثم تختم هذه المقاطع بفتح جرحٍ آخر من جروح الانحراف البشري مع لوط عليه السَّلام، ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، فالمعصية هنا ليست زلةً تختبئ في الظلام، بل فاحشةٌ تُرتكب مع الإبصار، ثم يصرّح القرآن بفساد الشَّهوة حين تنفصل عن الفطرة ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فكأنَّ السورة من أولها إلى هنا تعيد عليك المعنى نفسه بأشكال متعددة: القرآن هدى، لكن المنتفع به من أقام صلته بالله ووجّه قلبه إلى الآخرة، أما من زُيّن له عمله فإنه يضل ولو كان يرى، ويجحد ولو استيقنت نفسه، ويملك ولو عبد غير الله، ويمكر ولو قامت عليه الحجة، ويشتهي ولو خالف الفطرة، ثم لا يفصل بين هذه الصور كلها إلَّا خيط واحد واضح: خيط العبودية لله، فمن استسلم له نجا واهتدى، ومن استكبر أو تزيّن له باطله أو ركن إلى ملكه أو شَهوته أو مكره، مضى في الطريق نفسه إلى حيث تنتهي كل طرق العمى والخسران.

لماذا سُمّيت سورة النمل بهذا الاسم؟ حين تصبح نملةٌ مُعلِّمةً للبشر

ليس في القرآن شيءٌ يأتي اعتباطاً، ولا اختيار اسمٍ لسورةٍ من سوره يقع بلا حكمة، لأن هذا الكتاب كلام الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، ولهذا حين تُسمّى سورةٌ كاملة باسم مخلوقٍ صغيرٍ كالنملة، فإن المقصود ليس مجرد حكايةٍ لطيفةٍ في قصة سليمان عليه السَّلام، بل لفتُ قلب الإنسان إلى معنى عظيم قد يغفل عنه وهو ينظر إلى نفسه وإلى العالم من حوله.

فالقرآن يخبرنا أن نملةً رأت جيش سليمان عليه السَّلام مقبلاً، فقالت لقومها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فتأمّل هذا المشهد الذي يمرُّ عليه كثير من الناس سريعاً، بينما يخفي في داخله درساً تربوياً عظيماً: مخلوقٌ صغيرٌ جدّاً لا يُرى إلا إذا انحنى الإنسان ليراه، ومع ذلك جعل الله له إدراكاً ونظاماً ومسؤوليةً تجاه جماعته، بل وجعل في كلامه عدلاً وإنصافاً، فهي لم تتهم سليمان عليه السَّلام بالظلم، ولم تقل إنهم سيحطمونكم عمداً، بل قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فجمعت بين الحرص على قومها وبين العدل في الحكم على غيرها.

وهنا تظهر الحكمة العميقة من تسمية السورة بهذا الاسم؛ فالله لا يريد أن يلفت نظرنا إلى النملة لذاتها، بل يريد أن يوقظ فينا حقيقةً يغفل عنها الإنسان كثيراً: أن ميزان الكرامة عند الله ليس بالحجم ولا بالـمُلك ولا بالقوة، بل بمعرفة الله وطاعته والقيام بما كُلِّف به العبد... فهذه النملة الصغيرة تقوم بوظيفتها في هذا الكون كما أمرها الله، وتحمل مسؤوليتها تجاه جماعتها، بينما قد يعيش الإنسان عمراً طويلاً وهو غافل عن مهمته الكبرى التي خُلق من أجلها.

ومن هنا يصبح المشهد أعظم مما يظنه القارئ لأول مرة؛ فالله يضع أمام الإنسان مقارنةً خفية: نملةٌ صغيرة أدركت مسؤوليتها فسعت لحماية قومها، ونبيٌّ ملكٌ عظيم كسليمان عليه السَّلام يقف متبسماً من قولها ثم يشكر الله قائلاً:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، فيلتقي في هذا المشهد مخلوقان بينهما مسافة هائلة في الحجم والقوة، لكنهما يلتقيان في شيءٍ واحد: **العبودية لله**.

وهذا هو الدرس الذي يريد القرآن أن يزرعه في قلب القارئ؛ أن الكون كله قائمٌ على الطاعة، وأن كل مخلوقٍ يؤدي مهمته التي خلقه الله لها، وأن الإنسان — مع ما أُعطي من عقلٍ وحريةٍ واختيار — ليس مكرّماً لأنه الأقوى، بل لأنه أُعطي فرصة أن يعرف الله ويعبده عن اختيار، فإذا غفل عن هذه الحقيقة صار أضعف من مخلوقٍ صغيرٍ يؤدي وظيفته في هذا الكون بإتقان.

ولذلك لم تُسمَّ السورة باسم سليمان عليه السَّلام رغم عظمة ملكه، ولا باسم الهدهد رغم ما في قصته من عجائب، بل سُمِّيت باسم النَّملة؛ وكأنَّ القرآن يريد أن يقول للإنسان: لا تحتقر ما تراه صغيراً في خلق الله، فقد يكون فيه من الحكمة والنظام والقيام بالمسؤولية ما يُذكّرك بوظيفتك التي خُلقت لها.

فحين يقرأ القلب هذه السورة بهذا الفهم، يدرك أن رسالة الاسم ليست في قصة النَّملة نفسها، بل في السؤال الذي تتركه في ضمير الإنسان: إذا كانت نملةٌ صغيرة قد عرفت دورها في هذا الكون فقامت به، فهل عرفتَ أنت — أيها الإنسان — لماذا خُلقت؟ وهل تؤدي مهمتك في عبودية الله كما ينبغي، أم أنَّك تعيش في هذا العالم الكبير بلا رسالةٍ ولا وعيٍ بحقيقتك الكبرى التي قال الله عنها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

الصديق الذي يُغيّر مصيرك... لحظة النَّدم التي لا تُعاد

ليست كل التحولات الكبرى في حياة الإنسان تبدأ بقراراتٍ صاخبة تُتخذ في لحظةٍ حاسمة، بل كثيرٌ من الانعطافات التي تغيّر المصير تبدأ بهدوءٍ شديد؛ تبدأ بصديقٍ يجلس إلى جوارك، أو كلمةٍ تتكرر في أذنك، أو طريقٍ تمشيه لأن من تحبّه يمشيه، حتى يتحول ما كان يوماً اختياراً بسيطاً إلى مسارٍ كامل للحياة، وهنا يكشف القرآن أحد أخطر القوانين التي تؤثر في هداية الإنسان أو ضلاله: أن الصُّحبة ليست مجرد علاقة اجتماعية عابرة، بل قوةٌ خفية تؤثر في القلب والعقل والاتجاه، وقد تكون سبباً في نجاة الإنسان أو سبباً في هلاكه إذا لم ينتبه لها.

ولهذا لم يعرض القرآن صُحبة السُّوء على أنها مشكلة أخلاقية صغيرة يمكن تجاوزها، بل كشف أثرها في مشهدٍ مهيب من مشاهد يوم القيامة، يومٍ تنكشف فيه الحقائق التي كانت مستترة في الدنيا، يومٍ لا يعود فيه للإنسان فرصة تعديل اختيارٍ واحد، ولا إمكانية الرجوع خطوةً إلى الوراء، يوم يقف فيه الإنسان أمام نتائج قراراته كلها، فيرى أن بعض الاختيارات التي ظنها عادية في حياته كانت في الحقيقة أبواباً إلى الضَّلال أو إلى النجاة.

وفي ذلك المشهد يرسم القرآن صورةً شديدة التأثير للنَّدم الذي يصيب الإنسان حين يكتشف عاقبة طريقه، فيقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾؛ أي يندم ندماً شديداً يظهر أثره حتى في جسده من شدة الحسرة على ما فاته من الخير وما اقترفه من الضَّلال، فيدرك حينها أن الطريق كان واضحاً في الدنيا لكنه لم يسلكه، فيقول متحسراً: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾؛ أي يا ليتني سلكت طريق الهداية الذي جاء به الرسول ﷺ، واتبعته بصدقٍ في اعتقادي وعملي وحياتي.

ثم تتجدد الحسرة في قلبه حين يتذكر أحد الأسباب التي أثرت في انحرافه فيقول: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾؛ ولم يذكر القرآن اسماً معيناً، لأن القضية لا تتعلق بشخصٍ محدد في التاريخ، بل بنمطٍ يتكرر في كل زمان، فكل صديقٍ يصرف الإنسان عن طاعة الله تعالى، أو يزين له المعصية، أو يهون عليه ترك الحق، أو يُضعف في قلبه تعظيم أمر الله تعالى، يدخل في هذا المعنى الذي حذّر منه القرآن.

ويبين صاحب الحسرة سبب هذا النّدم العظيم بقوله: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾؛ أي أن الذكر – وهو الوحي الذي أنزله الله هدايةً للناس – قد بلغه وعرفه، لكن تأثير الصُّحبة السَّيئة والبيئة المنحرفة جعله يبتعد عن هذا النور بعد أن عرفه، فكان ذلك سبباً في ضياعه.

ثم يختم القرآن هذا المشهد بكشف حقيقة الشيطان الذي يزين للإنسان طريق الضَّلال، فيقول تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً﴾؛ أي أنه يوسوس ويزين الباطل ويغري بالمعصية، ثم يتبرأ من الإنسان عند وقوع العاقبة، فلا ينفعه ولا يدفع عنه شيئاً من عذاب الله، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

ومن هنا يتبين أن قضية الصُّحبة ليست مسألةً عابرة في حياة الإنسان، بل هي من أعظم العوامل التي تؤثر في ثبات القلب أو انحرافه؛ لأن الإنسان يتأثر بمن حوله في أفكاره وأخلاقه وسلوكه دون أن يشعر أحياناً، ولذلك جاءت النصوص الشرعية الكثيرة تحث على اختيار الصُّحبة الصَّالحة التي تعين على طاعة الله وتذكُّر بالآخرة وتثبت الإنسان على الحق.

وإذا كان هذا المشهد القرآني يصور حسرة الإنسان يوم القيامة، فإن المقصود منه في الدنيا أن يتفكر الإنسان في حاله قبل أن يصل إلى تلك اللحظة التي لا يمكن فيها تغيير شيء؛ فيسأل نفسه بصدق:

- من هم الأشخاص الذين يؤثرون في قلبي اليوم؟
- ومن هم الذين يقربونني من الله ويذكرونني بطاعته؟
- ومن هم الذين يبعدونني عن ذلك دون أن أشعر؟

فإن أعظم نعمة قد يمنُّ الله بها على العبد بعد الهداية هي الصُّحبة الصَّالحة التي تثبته على طريق الحق، وأخطر ما قد يبتلى به بعد معرفته للهدى هو الصُّحبة التي تضعف إيمانه وتبعده عن الذكر شيئاً فشيئاً حتى يكتشف متأخراً أن الطريق الذي سلكه لم يكن طريق النجاة.

الشكوى التي يجب أن تُخيف كل قلب حين يشتكي الرسول من أُمَّتِه

ليست هذه الآية مجرد جملةٍ عابرة في سياق سورة الفرقان، وليست وصفاً تاريخياً لحال قومٍ مضوا، بل هي مشهدٌ ثقيل يضع القلب أمام سؤالٍ لا يمكن الهروب منه؛ لأن المتكلم هنا ليس إنساناً عادياً، بل رسول الله ﷺ نفسه، يقف يوم القيامة بين يدي ربه ليقول كلمةً تهز ضمير كل مسلم: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾.

تأمّل المشهد جيداً... الرسول ﷺ الذي جاء بالقرآن، وتعب في تبليغه، وبكى وهو يقرأه، وقام الليل به حتى تورمت قدماه، وجاهد ليخرِجَ الناس من الظلمات إلى النور، يقف يوم القيامة شاكياً، لا من أعداءٍ حاربوه، ولا من أُممٍ بعيدة لم تعرفه، بل من قومٍ كان القرآن بين أيديهم، يسمعونه ويقرؤونه ويعرفون أنه كلام الله تعالى، ثم مع ذلك تركوه في حياتهم.

إن الشكوى هنا ليست لأن الناس لم يملكوا المصاحف، بل لأنهم لم يجعلوا القرآن حياً في قلوبهم وسلوكهم، فالهجر الذي يتحدث عنه القرآن ليس هجر الورق فقط، بل هجر المعنى، وهجر الهداية، وهجر أن يكون هذا الكتاب هو

المرجع الذي تُوزن به الحياة كلها.

- قد يفتح الإنسان المصحف لكنه لا يفتح قلبه له،
- وقد يسمع الآية لكنه لا يسمح لها أن تغيّر قراره،
- وقد يحفظ السورة لكنه لا يعيش معناها،
- وقد يتلو القرآن بصوتٍ جميل بينما حياته تسير في طريقٍ آخر لا علاقة له بما يقرأ،

وهنا يقع أخطر أنواع الهجر: أن يبقى القرآن حاضراً في الظاهر غائباً في التوجيه.

إن القرآن لم يُنزَّل ليكون كتاب تلاوةٍ فقط، مع أن التلاوة عبادة عظيمة، ولم يُنزَّل ليكون زينةً في البيوت أو أصواتاً تُسمع في المواسم، بل نزل ليكون النور الذي يقود القلب، والميزان الذي تُوزن به القرارات، والهداية التي تعيد ترتيب حياة الإنسان كلها.

ولهذا كان الصَّحابة رضوان الله عليهم يتعاملون مع القرآن بطريقة مختلفة تماماً عن تعامل كثير من الناس اليوم؛ كانوا يرونه خطاباً مباشراً من الله تعالى، يسمعون الأمر فيه فيسألون أنفسهم: هل نمتثل؟ ويرون النهي فيه فيسألون أنفسهم: هل نترك؟ ويقرؤون الوعد فيتحرك الرجاء في قلوبهم، ويقرؤون الوعيد فيرتجف الخوف في صدورهم، حتى كان القرآن يُغيّر حياتهم آيةً بعد آية.

أما حين يتحول القرآن إلى كتابٍ نقرأه دون أن نحاسِب أنفسنا به، أو إلى صوتٍ جميل دون أن نُخضع له قلوبنا، أو إلى عادةٍ رمضانية تنتهي بانتهاء الموسم، فإن الخطر هنا ليس في قلة التلاوة فقط، بل في أن يصبح القرآن قريباً من الألسنة بعيداً عن الحياة.

ومن هنا تأتي قسوة هذه الآية؛ لأنها لا تتكلم عن قومٍ لم يعرفوا القرآن أصلاً، بل عن قومٍ عرفوه ثم لم يجعلوه قائداً لحياتهم، ولهذا عبّر القرآن بكلمةٍ موجعة:

﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾، وكأنَّ الهجر هنا لم يكن حادثةً عابرة بل موقفاً اختاروه حين جعلوا القرآن شيئاً على الهامش بدل أن يكون في المركز.

إن أخطر ما في هذه الآية أنها تجعل كل مسلم يقف مع نفسه وقفة صدق؛ لأن السؤال ليس: هل عندي مصحف؟ ولا: هل أستطيع القراءة؟ بل السؤال الحقيقي: أين موقع القرآن في حياتي؟

- هل هو الذي يصنع قراراتي؟
- هل هو الذي يوجّه أخلاقي؟
- هل هو الذي يضبط علاقتي بالناس والدنيا والآخرة؟ أم أنه حاضر في وقت التلاوة فقط ثم يغيب عندما تبدأ الحياة الحقيقية؟.

فالخوف الحقيقي...

- ليس أن يقلّ حفظنا للقرآن، بل أن يقلّ حضور القرآن في قلوبنا،
- وليس أن لا تُسمع الآيات في المساجد، بل أن لا تُرى آثارها في السلوك،
- وليس أن لا نقرأ القرآن، بل أن نقرأه ثم نمضي في حياتنا وكأنَّ شيئاً لم يُقَل لنا.

ولهذا ينبغي أن تُقرأ هذه الآية لا كاتهامٍ للآخرين، بل كمرآةٍ لأنفسنا؛ لأن أخطر الهجر هو الهجر الذي لا يشعر به صاحبه، حين يظن أنه قريب من القرآن لأنه يقرأه، بينما القرآن في الحقيقة لم يصبح بعدُ قائداً لحياته.

وما أشدّ حسرة الإنسان لو وقف يوم القيامة فسمع هذه الشكوى تُقال وهو داخل في معناها، لذلك فإنَّ أعظم نجاةٍ من هذه الآية ليست في كثرة القراءة وحدها، بل في أن يعود القرآن إلى مكانه الطبيعي في القلب:

كتاب هداية، وكتاب تربية، وكتاب تغيير، وكتاب حياة.

حين يصبح الهوى إلهاً... أخطر عبودية لا يشعر بها صاحبها

يكشف القرآن الكريم أصل كثيرٍ من الضَّلال في كلمةٍ واحدة تهز القلب وتُعرّي حقيقة خفية في النفس البشرية، حين يقول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾؛ فالقضية هنا ليست مجرد معصيةٍ يقع فيها الإنسان ثم يتوب، ولا خطأٍ يضعف أمامه أحياناً، بل حالة أخطر بكثير: أن يتحول الهوى إلى المرجع الذي يحكم حياة الإنسان، فيصبح ما يريده القلب هو المعيار الذي يحدد ما يقبله الإنسان وما يرفضه، وما يصدقه وما ينكره، وما يفعله وما يتركه، فإذا وافق الحق هواه قبله، وإذا خالفه ردَّه أو تجاهله أو التمس له التأويلات.

إن عبادة الهوى لا تعني أن الإنسان يسجد لشَهوة أو يصرح بأنه يعبد رغباته، بل معناها أن تصبح رغبات النفس هي الحاكم الحقيقي في حياته، حتى لو كان يتكلم بلسان الدين أو يرفع شعارات الحق؛ لأن الإله في الحقيقة هو ما يطيعه الإنسان طاعةً مطلقة ويجعل حكمه مقدَّماً على حكم الله.

ولهذا نرى صوراً كثيرة في حياتنا تُجسد هذا المعنى دون أن يشعر أصحابها بخطره؛ فمن الناس من يعرف حكم الله في أمرٍ من الأمور، لكنه يرفضه في قلبه لأنه لا يوافق رغبته، فيبدأ بالبحث عن أي قولٍ يبرر له ما يريد، لا طلباً للحق بل هروباً من التزامه، فيصبح السؤال عنده: كيف أطيع الله؟ بل يصبح السؤال: كيف أجد قولاً يوافق ما أحب؟.

ومن الناس من يتعامل مع الدين بانتقائية واضحة؛ فيأخذ من الأحكام ما يناسبه ويترك ما يشق عليه، فيحب من النصوص ما يوافق طبعه ويضيق بما يخالف هواه، فيقبل ما يتفق مع مصالحه ويجادل فيما يعارض رغباته، وكأن الدين عنده مجموعة خيارات يختار منها ما يشاء، لا منهجاً كاملاً يسلم له الإنسان قلبه وعقله وحياته.

ومن صور اتخاذ الهوى إلهاً أن يصبح رضا الناس أهم من رضا الله، فيعرف

الإنسان الحق لكنه يتركه خوفاً من كلام الناس أو خسارة مكانته بينهم، فيغيّر موقفه أو يخفف التزامه أو يسكت عن الحق حتى لا يُلام، فيصبح المعيار في قراراته: ماذا سيقول الناس؟ لا: ماذا يرضي الله تعالى؟..

ومن أخطر الصور كذلك أن يصبح الشعور الشخصي هو الحكم على النصوص الشرعية؛ فإذا سمع الإنسان حكماً شرعياً قال: أنا لا أقتنع بهذا، أو هذا لا يناسب العصر، أو هذا لا ينسجم مع ما أراه صحيحاً، فيجعل عقله أو إحساسه فوق الوحي، وكأنَّ ميزان الحق أصبح ما يستحسنه الإنسان لا ما أنزله الله تعالى.

وقد يظهر هذا الهوى في صورةٍ أخرى حين يبرر الإنسان لنفسه المعصية باستمرار، فيعرف أن ما يفعله خطأ لكنه لا يريد أن يتركه، فيحاول تخفيف الأمر على نفسه بكلماتٍ مثل: كل الناس يفعلون ذلك، أو الله غفور رحيم، أو الظروف صعبة، حتى يعتاد القلب هذا التبرير ويضعف فيه تعظيم أمر الله شيئاً فشيئاً.

ولهذا يُبيّن القرآن أن من يصل إلى هذه المرحلة قد لا ينتفع بالحجة مهما كانت واضحة؛ لأن المشكلة لم تعد في قلة الأدلة بل في سيطرة الهوى على القلب، فإذا سيطر الهوى صار الإنسان يسمع الحق ولا يتبعه، ويرى الدليل ولا يستجيب له، ولهذا قال الله بعد ذلك مباشرة: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾؛ لأن الحيوان – أجلَّكُم الله – لا يملك عقل التكليف الذي يميز به بين الحق والباطل، أما الإنسان فقد أُعطي العقل والوحي ثم تركهما واتبع هواه.

إن أخطر ما في عبادة الهوى أن صاحبها قد لا يشعر بها؛ لأنه يظن أنه حرٌّ في اختياراته، بينما الحقيقة أن قلبه أصبح أسيراً لرغباته، ولهذا كانت النجاة الحقيقية في أن يُربّي الإنسان نفسه على تقديم أمر الله على ما تشتهيه النفس،

وأن يسأل نفسه دائماً عند كل قرار: هل أفعل هذا لأنه يرضي الله، أم لأنه يرضي هواي؟.

فالقلب الذي يعتاد مخالفة هواه لأجل الله يزداد قوةً وحرية، أما القلب الذي يعتاد طاعة هواه فإنه يفقد حريته شيئاً فشيئاً حتى يصبح أسيراً لما يريد، ولو خالف ذلك ما يعلم أنه الحق.

حين يُقاس الحقُّ بمن يتبعه... لا بصدق ما يقول

ليست قصة قوم نوح في القرآن مجرد مشهدٍ من مشاهد الصراع القديم بين نبيٍّ وقومه، بل هي كشفٌ لطريقةٍ بشريةٍ تتكرر في كل زمان حين تختلّ الموازين في القلوب.. فقوم نوح لم يواجهوا الدعوة بحجّةٍ علمية، ولم يناقشوا مضمون الرسالة التي جاء بها نبيهم، بل لجؤوا إلى ميزانٍ آخر تماماً: ميزان المكانة الاجتماعية.. قالوا مستنكرين: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾؛ فكأنَّ الحق عندهم لا يُوزن بصدق حجته، بل بمن تبعه، وكأنَّ الفكرة في نظرهم لا تُقاس بقيمتها، بل بطبقة من يحملها.

وهنا يكشف القرآن مرضاً عميقاً في النفس البشرية: أن الكبر لا يمنع الإنسان أحياناً من فهم الحق، بل يمنعه من قبوله إذا جاءه من طريقٍ لا يوافق غروره.. فالحق إذا حمله المستضعفون في نظر المتكبرين صار عندهم أقل قيمة، لا لأنه ضعيف في ذاته، بل لأن كبرياءهم يرفض أن يقفوا في الصف نفسه مع من يزدرونهم.

ولهذا جاء جواب نوح عليه السَّلام جواباً يردّ الميزان إلى موضعه الصحيح؛ لم يناقش تقسيمهم الطبقي، ولم يعتذر عن أتباعه، ولم يحاول أن يطرد المؤمنين ليكسب احترام المتكبرين، بل قال لهم في وضوح: إن حساب هؤلاء على الله،

وإن الرسول ليس مهمته أن يصنع طبقةً اجتماعيةً جديدة، ولا أن يفرز الناس بحسب جاههم، بل أن يبلغ الحق، ومن استجاب له فله كرامته عند الله، مهما كان موقعه في أعين الناس.

وفي هذا الجواب درسٌ يتكرر مع كل زمان؛ لأن كثيراً من الناس لا يزالون يقعون في الفخ نفسه:

- يزنون الفكرة بمن يحملها،
- ويقيسون الدعوة بمن يتبعها،
- ويبحثون عن الحق في مجالس الأقوياء لا في صفوف الصادقين.

فإذا رأوا أن أتباع فكرةٍ ما ليسوا من أصحاب النفوذ أو الشُّهرة أو المكانة، ظنوا أن الفكرة نفسها أقل قيمة، وكأنَّ ميزان الحق قد أصبح تابعاً لميزان الهيبة الاجتماعية.

وهذا من أعظم الاختلال في فهم الرسالة؛ لأن تاريخ الحق في الأرض غالباً ما يبدأ ضعيفاً في أعين الناس، تحمله قلوبٌ صادقة لا وجوهٌ مشهورة، ويقف في صفه من لا يملكون إلا يقينهم، بينما يقف في صف الباطل أحياناً من يملكون النفوذ والجاه والصوت الأعلى.

ولهذا لم يطرد نوح المؤمنين ليرضي المتكبرين، لأن الدعوة التي تُبنى على إقصاء الصادقين لإرضاء أصحاب المكانة ليست دعوةً إلى الله، بل محاولة لإعادة تشكيل المجتمع على ميزان الغرور نفسه الذي جاءت الرسالة لهدمه.

فالرسل لم يأتوا ليؤسسوا طبقيةً جديدة، بل ليعيدوا تعريف الكرامة على أساس الإيمان والتقوى لا على أساس الجاه والمال.

وفي واقعنا المعاصر يتكرر هذا المرض بصورٍ متعددة؛

١. فكم من فكرةٍ يُرفض سماعها لأن من يتكلم بها ليس مشهوراً،
٢. وكم من حقٍ يُستهان به لأن حامليه ليسوا من أصحاب الصوت العالي،

٣. وكم من دعوةٍ صادقةٍ تُحارب لأن أتباعها لا يملكون نفوذاً اجتماعياً أو إعلامياً.

وكأنَّ الإنسان لا يزال يكرر السؤال القديم نفسه :كيف نتبع هذا، ومن حوله هؤلاء؟..

لكن القُرآن يعيد ترتيب الميزان مرةً بعد مرة: أن الحق لا يرتفع بمن يتبعه، بل بمنزلة ما جاء به عند الله، وأن التاريخ مليء بأقوامٍ احتقروا أتباع الحق في البداية ثم اكتشفوا متأخرين أن الذين ازدرَوهم كانوا هم النجاة الوحيدة حين جاء الفصل بين الفريقين.

ولهذا فإن أخطر ما يمكن أن يقع فيه الإنسان ليس أن يجهل الحق، بل أن يرفضه لأن من حمله في نظره لا يليق بالمقام الذي وضعه في ذهنه للحق.. وحين يصل القلب إلى هذه المرحلة، فإنه يكون قد وقع في المرض نفسه الذي وقع فيه قوم نوح، حين جعلوا كرامة الفكرة تابعة لكرامة أتباعها، لا لصدقها في ميزان الله سبحانه وتعالى.

حين تُغري القوةُ أصحابَها بالخلود... يفتح التاريخ باب التحذير

ليست قصة عاد في القرآن الكريم حكايةً عن أُمَّةٍ بادت ثم طُويت صفحتها في كتب التاريخ، بل هي مرآةٌ يضعها القرآن أمام كل زمنٍ يتكرر فيه المرض نفسه، لأن القرآن لا يروي الأخبار ليُمتع السَّامعين، بل ليكشف السُّنن التي تتكرر حين تتكرر أسبابها.. فقوم عاد لم يهلكوا لأنهم امتلكوا القوة، ولا لأنهم بنوا وشيدوا، ولا لأنهم عرفوا العمران والقدرة، فالقوة في ذاتها نِعمة، والعمران في أصله فضل، لكن الخطر يبدأ حين تتحول النِّعمة إلى غفلة، والقوة إلى غرور، والعمران إلى وهم خلود، فينسى الإنسان المُنعم ويظن أن ما في يده قد صار

دليلاً على أنه فوق الحساب... لقد رسم القرآن الكريم صورة هذا المرض بدقةٍ حين قال عنهم إنهم يبنون في كل مرتفعٍ آيةً عبثاً، ويتخذون المصانع لعلهم يخلدون، ثم إذا بطشوا بطشوا جبارين؛ فكأنَّ المشهد يتكرر عبر الأزمنة: عمرانٌ شاهق، وقوةٌ ظاهرة، وقدرةٌ على البطش، ثم إحساسٌ داخلي بأن هذه القوة تمنح صاحبها حصانةً من السُّقوط، أو أن ما بيده من سُلطانٍ يكفي ليجعل صوته أعلى من صوت الحق، وأمره نافذاً فوق ميزان العدل.

وهنا يأتي التذكير القرآني العميق: أن المشكلة ليست في البناء، بل في القلب الذي بنى ثم نسي؛ ليست في القوة، بل في النفس التي ظنت أن القوة ملكٌ لها لا عاريةٌ من الله تعالى؛ ليست في القدرة على البطش، بل في الغفلة عن أن هناك قوةً فوق كل قوة، وأن التاريخ مليءٌ بأُممٍ ظنت أنها بلغت الذروة ثم اكتشفت متأخرةً أن الذروة التي وصلت إليها كانت بداية السقوط.

ولهذا كان رد قوم عاد على نبيهم كلمةً قصيرة لكنها تكشف عمق الانحراف: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾؛ إنها لحظة موت الحسّ الداخلي، حين يصل الإنسان إلى درجةٍ لا يعود فيها الوعظ يهز قلبه، ولا التذكير يوقظه، ولا التاريخ يردعه، فيُصبح الحق عنده مجرد صوتٍ بعيدٍ لا يملك أن يخترق جدار الغُرور الذي أحاط نفسه به.

وفي هذه اللحظة بالذات يبدأ العدّ التنازلي الذي لا يشعر به أهل القوة وهم في أوجها؛ لأن السُّنن الإلهية لا تقيس الأمور بميزان اللحظة، بل بميزان الحق والباطل، وبميزان العدل والطغيان، وبميزان شُكر النِّعمة أو كفرانها.

- فحين تتحول القوة إلى وسيلةٍ للبطش،
- وحين يتحول العمران إلى لافتةٍ للتكبر،
- وحين يتحول الثراء إلى شعورٍ بالاستغناء عن الله،

فإن التاريخ يبدأ بكتابة الفصل الأخير من القصة وإن ظَنَّ أهلها أنهم في

بداية المجد... ولهذا فإن قراءة هذه الآيات اليوم ليست دعوةً إلى تسمية أحد، ولا إلى الإشارة إلى بلدٍ بعينه، بل هي دعوةٌ إلى فهم السُّنة التي لا تتغير: أن الطغيان حين ينسى المنعم يقترب من نهايته ولو بدا في عيون الناس في أوج قوته، وأن الحضارات التي تبني أبراجها على أرض الغُرور لا تدرك أنها تبني معها شواهد سقوطها.

فالقرآن حين يُذكّرنا بقصة عاد لا يريد منا أن ننشغل بالرِّيح التي أهلكتهم فقط، بل أن نتأمل الطريق الذي قادهم إلى تلك الريح:

١. طريق الغرور بالقوة،
٢. والاعتياد على البطش،
٣. وإغلاق القلب أمام الوعظ،

حتى صارت كلمة الحق عندهم لا وزن لها، وكأنَّ التاريخ كله يصرخ في أذن كل عصر:

← إن القوة التي تنسى ربها لا تحمي صاحبها،
← وإن الحضارة التي تنسى العدل لا تبقى،
← وإن الأمم حين تصل إلى لحظة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ تكون قد اقتربت من اللحظة التي يتدخل فيها قدر الله تعالى ليعيد ميزان الأرض إلى موضعه.

حين يُخدَع الإنسان بالأمن الظَّاهر ويظن أن الاستقرار ضمانٌ من السقوط

ليست قصة ثمود في القرآن مجرد وصفٍ لقومٍ عاشوا في أرضٍ خصبة ثم انتهوا، بل هي كشفٌ لنوعٍ آخر من الأمراض التي قد تصيب الأُمم حين يطول عليها زمن النِّعمة حتى تتحول النِّعمة في نظرها إلى شيءٍ طبيعي لا يحتاج إلى

شكر، بل ربما إلى شعورٍ خفيٍ بالاستحقاق.. فقد عاش قوم ثمود في مشهدٍ يوحي بالرُّسوخ: جناتٌ وعيون، وزروعٌ ونخلٌ باسقات، وبيوتٌ ينحتونها في الجبال بمهارةٍ تدل على علمٍ وقدرةٍ واستقرار، حتى بدا لهم أن ما حولهم قد صار ضماناً دائماً لبقائهم، وأن هذه القوة العمرانية قادرة على أن تحميهم من تقلبات الزمان.

لكن القرآن يضع يده على الخلل الحقيقي في هذا المشهد؛ فالمشكلة لم تكن في النِّعمة، بل في الغفلة التي صاحبتها... فحين يطول الاستقرار قد تنام الحراسة الداخلية في القلب، وحين تتكرر النِّعمة قد يضعف الشعور بأن وراءها مُنعِماً يستحق الشكر والطاعة.. وهنا يأتي صوت النبي صالح عليه السَّلام ليعيد الميزان إلى موضعه الصحيح: لا تغتروا بالاستقرار الظاهر، ولا تجعلوا النعمة ستاراً يحجبكم عن الحقيقة، فإن أعظم ما يهدد النِّعمة ليس نقصها، بل فساد القلوب التي تعيش في ظلها.

ولهذا كان تحذيره مُركزاً على نقطة دقيقة: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ لأن الفساد لا يبدأ دائماً بالانهيار الظاهر، بل يبدأ حين يُصبح القرار في يد من لا يرى في الأرض إلَّا ميداناً لمصالحه، فيفسد باسم البناء، ويعبث باسم القوة، وتُتَّبع أوامره لأن الناس ألفوا الاستقرار الذي يحيط بهم وظنوا أن دوام النِّعمة دليل صحة الطريق.

ثم جاءت الناقة آيةً واختباراً فاصلاً، ليس لأنها مجرد معجزة تُرى، بل لأنها وضعت القوم أمام سؤالٍ أخلاقي واضح: هل سيقفون عند الحد الذي وضعه الله، أم سيغلبهم شعور التَّمرد الذي نشأ في قلوبهم؟ وكانت لحظة عقر الناقة لحظةً كاشفةً للحقيقة؛ فقد أظهرت أن القلوب التي طال عليها الاعتياد على النِّعمة دون شكر قد تصبح قادرة على تجاوز الحدود وهي لا تشعر بثقل ما تفعل.

وعندها لم يعد النَّدم المتأخر قادراً على تغيير المسار؛ لأن النَّدم الذي يأتي بعد أن يستقر العدوان ويتحول إلى فعلٍ جماعي لا يكون دائماً توبةً صادقة، بل قد يكون مجرد خوفٍ من العاقبة بعد أن وقع ما وقع.. ولهذا يعلّمنا القرآن أن التوبة التي تنقذ الإنسان ليست تلك التي تأتي بعد أن تُغلق الأبواب، بل تلك التي تسبق لحظة التَّمرد وتعيد القلب إلى موضعه قبل أن يتجاوز الحد.

وفي واقع الإنسان المعاصر تتكرر هذه الصورة بطرقٍ مختلفة؛ فكم من مجتمعاتٍ تعيش في استقرارٍ مادي ظاهر، وفي وفرةٍ من الموارد والعمران، حتى يظن الناس أن هذا الاستقرار كافٍ ليجعلهم في مأمنٍ دائم، وأن ما حولهم من قوةٍ وبناءٍ كفيلٌ بأن يحميهم من السقوط.

لكن القرآن يذكّر بأن الخطر الحقيقي لا يبدأ حين تنهار الأبنية، بل حين يفسد الميزان الداخلي الذي يحفظ العدل ويمنع الإسراف ويُبقي الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى.

فالأُمم لا تسقط فقط بسبب الفقر أو الضعف، بل قد تسقط وهي في قمة الاستقرار إذا تحولت النِّعمة إلى غرور، وتحول الاستقرار إلى غفلة، وتحول اتباع المسرفين إلى أمرٍ طبيعي لا يُسأل عنه.

وحين يصل المجتمع إلى هذه المرحلة، يصبح التاريخ أقرب إلى إعادة الدرس القديم الذي حفظه القرآن في قصة ثمود:

← أنَّ الأمن الظاهر لا يحمي أُمَّةً فقدت يقظتها الأخلاقية،

← وأنَّ النِّعمة التي لا تُحرس بالشُّكر والعدل قد تتحول –دون أن يشعر أهلها– إلى بداية الامتحان الذي يكشف حقيقة ما في القلوب.

حين يتحول الانحراف الأخلاقي إلى نظامٍ اجتماعي... يبدأ العَدّ التنازلي للفطرة

ليست قصة لوط عليه السَّلام في القرآن مجرد حديثٍ عن فاحشةٍ وقعت في قومٍ ثم انتهت، بل هي كشفٌ لحقيقةٍ أعمق: أن الانحراف الخُلقي حين يُترك حتى يتحول إلى عادةٍ اجتماعية، لا يبقى مجرد خطأٍ فردي، بل يصبح علامةً على خللٍ في البنية الداخلية للمجتمع نفسه، لأن الفطرة التي وضعها الله في الإنسان لا تختلّ في جانبٍ واحدٍ ثم تبقى بقية الجوانب سليمة؛ فإذا جُرحت الفطرة في بابٍ كبيرٍ من أبوابها انعكس ذلك على ميزان الحق كله.

فقوم لوط لم يكن خطؤهم مجرد وقوعٍ في فاحشةٍ سريةٍ يخجل صاحبها منها، بل كان الانحراف عندهم قد تحوّل إلى نظامٍ اجتماعيٍ مُعلن، يُمارس جهاراً، ويُدافع عنه، ويُنظر إليه كجزءٍ طبيعي من الحياة.

وهنا ينتقل الفساد من كونه معصيةً فرديةً إلى كونه تمرداً على الفطرة نفسها، لأن الفطرة التي خلق الله الناس عليها جعلت العلاقة الإنسانية قائمةً على ميزانٍ يحفظ بقاء الحياة واستقرارها، فإذا انقلب هذا الميزان صار المجتمع نفسه يعيش حالة صراعٍ مع أصل تكوينه.

ولهذا لم يقف الأمر عند حد ارتكاب الفاحشة، بل تطور إلى مرحلةٍ أخطر: مرحلة تطبيع المنكر حتى يصبح المعروف غريباً.. فحين دعاهم لوط عليه السَّلام إلى الطُّهر وإلى العودة إلى ما فطر الله الناس عليه، لم يروا في دعوته نصحاً، بل رأوا فيها تهديداً لواقعهم، فقالوا بجرأةٍ تكشف انقلاب الموازين: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون.. وهنا تبلغ القصة ذروة المفارقة المؤلمة: أن يصبح الطُّهر نفسه سبباً للاتهام، وأن يتحول من يدعو إلى العفة إلى غريبٍ في مجتمعٍ ألف الانحراف.

وعند هذه النقطة يقف النبي موقف الوضوح الذي لا يساوم فيه على

الفطرة، فيقول: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾؛ أي إن القضية ليست اختلافاً في الذوق أو في العادات، بل موقفٌ أخلاقيٌ واضح بين ما فطر الله عليه الإنسان وبين ما تجاوز حدوده.. فالرسل لم يُبعثوا ليجاملوا المجتمعات في انحرافاتها إذا صارت شائعة، بل ليعيدوا التذكير بأن الحق لا يتغير لأن الناس اعتادوا غيره.

ولهذا لجأ لوط عليه السَّلام إلى ربه حين رأى أن القلوب قد أغلقت أبوابها أمام النِّداء، لأن اللحظة التي يُرفض فيها الإصلاح ويُحارب الداعي إليه هي اللحظة التي يقترب فيها المجتمع من حدٍّ لا ينفع معه إلا حكم الله الفاصل.

فجاءت النجاة لأهل الإيمان الذين لم يرضوا بالانحراف، وبقيت من بقيت في صف الغابرين، ونزل مطر السَّوء على قومٍ تجاوزوا حدود الله جهاراً بعد أن حوّلوا الفاحشة من خطيئةٍ يُستحيا منها إلى واقعٍ يُدافع عنه.

وفي واقع الإنسان المعاصر يتكرر هذا الدرس بطرقٍ مختلفة؛ فليس الخطر في وجود الانحرافات الفردية وحدها، فهذه تقع في كل زمان، لكن الخطر الحقيقي حين يتحول الانحراف إلى ثقافةٍ تُبرَّر، أو سلوكٍ يُفرض احترامه، أو واقعٍ يُطلب من الناس أن يقبلوه دون أن يعترضوا... فعندها لا يعود الصراع مجرد نقاشٍ أخلاقي، بل يصبح صراعاً بين الفطرة التي خلق الله الناس عليها وبين محاولات إعادة تشكيل هذه الفطرة وفق أهواء البشر.

والقرآن حين يذكر قصة لوط لا يفعل ذلك ليحكي عن ماضٍ بعيد، بل ليذكر كل مجتمع بأن الفطرة ليست تفصيلاً يمكن تغييره بلا عواقب، وأن المجتمعات التي تُطفئ صوت الفطرة وتُحارب من يدعو إليها قد تظن أنها انتصرت في لحظةٍ ما، لكنها في الحقيقة تكون قد دخلت في صراعٍ مع السُّنن التي أقام الله عليها الحياة نفسها.

حين يكتمل مُلك الأرض... ويغيب ربُّ العرش من القلوب

تكشف قصة ملكة سبأ في القرآن حقيقةً دقيقة كثيراً ما تغيب عن نظر البشر: أن كمال الأسباب الظاهرة في الدنيا لا يعني بالضرورة سلامة الطريق في ميزان الحق.. فقد وصف الهدهد ملكاً عظيماً، ونظاماً مستقراً، وملكةً أوتيت من كل شيءٍ ولها عرشٌ عظيم، حتى بدا المشهد وكأنه نموذجٌ للقوة السياسية والتنظيم والحضارة، لكن هذا الكمال الظاهر لم يمنع انحراف الأصل العقدي؛ إذ قال الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وهنا يضع القرآن يده على حقيقةٍ عميقة: أن التزيين هو أخطر ما يواجه الإنسان، لأن الخطأ حين يتزين لا يعود في نظر صاحبه خطأً، بل يتحول إلى نظامٍ يُدافع عنه، بل قد يُظن أنه قمة الحكمة والرُّقي.. فليس كل مجتمعٍ منظمٍ مهتدياً، وليس كل حضارةٍ متقدمةٍ قد وضعت قلبها في موضع العبودية لله؛ فقد يجتمع العمران والنظام والقوة السياسية، بينما يظل الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله مختلاً.

ولهذا لم ينشغل الهدهد بوصف الملك ولا بإعجابه، بل رفع القضية مباشرةً إلى أصلها الأعظم: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.. فكأن الهدهد يعيد ترتيب الميزان الذي يختل في أعين البشر؛ فمهما بدا العرش الأرضي عظيماً في نظر الناس، فإن قيمته الحقيقية تُقاس بمدى خضوع أصحابه لرَّب العرش العظيم.

وفي هذا المشهد رسالةٌ تتجاوز زمن القصة إلى كل عصرٍ يفتن فيه الإنسان بظاهر القوة والنظام والنجاح الدنيوي.. فكم من مجتمعاتٍ تبهر العيون بما فيها من عمرانٍ وتقنيةٍ وتنظيمٍ وإدارة، حتى يظن بعض الناس أن هذا الكمال الظاهر

دليلٌ على اكتمال الطريق، بينما يغيب السؤال الأهم: أين موقع العبودية لله في هذا البناء كله؟ وأين موقع السجود لله وحده في قلوب الذين يديرون هذا النظام؟..

إن القرآن هنا لا ينكر قيمة النظام ولا العمران، لكنه يضعهما في موضعهما الصحيح: وسائل لا غايات، وأسباب لا مصادر للهداية.

فإذا انفصلت هذه الأسباب عن أصل العبودية لله، فإنها قد تتحول إلى ستارٍ يزين الانحراف بدلاً من أن يهدي إلى الحق... فالشيطان لا يزين الفوضى فقط، بل قد يزين أيضاً نظاماً متقناً إذا كان هذا النظام قائماً على غفلة القلب عن الله.

ولهذا كان السؤال الذي طرحه الهدهد في جوهره سؤالاً عقدياً قبل أن يكون سياسياً أو حضارياً: لماذا يسجدون للشمس التي هي مخلوقة، ويتركون السجود لمن يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم السِّر والعلن؟ إنه سؤال يعيد الإنسان إلى أصل التوحيد الذي به تستقيم كل الأشياء؛ لأن الحضارة مهما بلغت من الاتقان تبقى ناقصةً إذا فقدت هذا الأصل.

وكأنَّ القرآن يريد أن يذكر كل عصرٍ بميزانٍ لا يتغير: أن العروش التي تبهر الأبصار لا تساوي شيئاً إذا غاب عن القلوب ربُّ العرش العظيم، وأن أعظم ما يمكن أن يختل في حياة الإنسان ليس نقص القوة ولا ضعف النظام، بل أن يكتمل بناء الأرض بينما يفرغ القلب من السجود لله وحده.

الخيط القرآني المحكم الذي يربط بين السور الثلاثة (الفرقان – الشعراء – النمل)

إذا نظرت إلى سور الفرقان والشعراء والنمل في الجزء التاسع عشر نظرةً واحدة متصلة، لا كفصول منفصلة، ستجد أن القرآن يبني فيها خيطاً قرآنياً محكماً يبدأ بالحديث عن القرآن نفسه، ثم يعرض سُنّة الصراع بين الوحي

والإنسان عبر تاريخ الأنبياء، ثم يختم بكشف الميزان الذي يميز من اهتدى بالوحي ومن أعرض عنه؛ فكأنَّ هذه السور الثلاث ليست موضوعات متجاورة، بل رحلة تربوية واحدة تنتقل بالقلب من تعريفه بالوحي، إلى رؤية أثره في التاريخ، ثم إلى رؤية أثره في النفس البشرية.

تبدأ سورة الفرقان بإعلان حقيقة هذا الكتاب الذي نزل على عبد الله مُحَمَّد ﷺ ليكون فرقاناً بين الحق والباطل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، فالسورة تضع الأساس العقدي: هذا القرآن هو الميزان الذي يفرّق بين الهداية والضَّلال، ولذلك تكشف كيف يعترض المكذبون، وكيف يطلبون الآيات على هواهم، وكيف تنتهي هذه المواقف إلى الحسرة يوم القيامة حين يقول الظالم: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾، وتبلغ السورة ذروتها حين يشكو الرسول ﷺ من هجر القرآن: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾، ثم تختم الطريق بصورة الإنسان الذي استجاب لهذا الفرقان فصار من عباد الرَّحمن الذين غيّر القرآن حياتهم وأخلاقهم.

ثم تأتي سورة الشعراء لتأخذ هذا الفرقان الذي عُرِّف في السورة السابقة وتعرضه في ميدان التاريخ البشري؛ فبدل أن تكتفي بالحديث النظري عن الوحي، تمرّ بك السورة على سلسلة طويلة من الأنبياء: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، عليهم السَّلام وكل قصة تكرر الحقيقة نفسها: رسولٌ يأتي بآياتٍ واضحة، وقومٌ يكذبون، ثم تكون العاقبة للهداية أو للهلاك، ويتكرر في السورة كأنه لازمةٌ ثابتة قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، فكأنَّ سورة الشعراء تقول: هذا الفرقان الذي نزل الآن ليس حدثاً جديداً في التاريخ، بل هو امتدادٌ لرسالاتٍ متتابعة واجهت المشكلة البشرية نفسها عبر القرون.

ثم تأتي سورة النمل لتنتقل خطوة أخرى في بناء المعنى؛ فهي لا تكتفي بعرض

صراع الأنبياء مع أقوامهم، بل تكشف كيف يعمل الوحي في الواقع حين يُستجاب له؛ فتُريك نماذج مختلفة من الهداية:

١. موسى عليه السَّلام حين يتلقى الوحي،

٢. وسليمان عليه السَّلام حين يتحول الملك والعلم عنده إلى عبودية وشكر.

٣. والهدهد الذي يدرك خلل العقيدة في أُمَّةٍ بعيدة،

٤. وملكة سبأ التي تنتقل من حضارةٍ عظيمة لكنها منحرفة إلى التوحيد حين يظهر لها الحق فتقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾..

وفي المقابل تُريك السورة كيف يقود العناد أقواماً آخرين إلى الهلاك كما حدث مع ثمود وقوم لوط.

وعند جمع هذه السور الثلاث يظهر البناء القرآني واضحاً:

← سورة الفرقان تعرّفك بالكتاب الذي يفرّق بين الحق والباطل،

← وسورة الشعراء تريك كيف واجه هذا الحق الناس عبر تاريخ الأنبياء،

← وسورة النمل تكشف كيف يستجيب له من فتح قلبه له، وكيف يهلك من أعرض عنه.

ولهذا فإن الخيط القرآني الذي يجمع هذه السور الثلاث هو بيان سُنّة الوحي مع الإنسان:

١. الوحي ينزل بالحق،

٢. والإنسان يختبر موقفه منه،

٣. فمن اتبعه صار من عباد الرحمن أو من أهل الشكر والهداية،

٤. ومن أعرض عنه سار في الطريق الذي سلكته الأمم المكذبة قبلَه،

حتى تنتهي القصة بالعاقبة التي تتكرر في القرآن كله: نجاة المؤمنين وهلاك المكذبين، وبقاء القرآن فرقاناً يهدي من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً.

الخريطة البنيوية للجزء التاسع عشر:

كيف ينجو القلب حين يُعرَض عليه الحق، ولماذا يهلك أكثر الناس مع وضوح الطريق؟.

١) هذا الجزء كلُّه مبنيٌّ على حقيقةٍ واحدةٍ كبرى: أن المشكلة ليست في غموض الحق، بل في موقف القلب منه؛ فالوحي واضح، والآيات قائمة، لكن من لا يريد الله يطلب الاعتراض لا الهداية، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾.

٢) بداية الانحراف ليست شُبهةً علمية، بل كِبرٌ داخليٌّ مستور؛ فكم من إنسانٍ يبدو أنه يسأل عن الدليل، وهو في الحقيقة يرفض الخضوع، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾.

٣) من يطلب الآيات على وجه التحدّي لا على وجه الاهتداء، قد يرى ما طلب ولكن بعد فوات الأوان؛ فالملائكة التي اقترحوها استهزاءً سيرونها يوماً لا بشرى فيه للمجرمين، لا يوم هدايةٍ ورحمة.

٤) أعظم صدمةٍ في هذا الجزء أن العمل بلا إيمانٍ صحيح، ولا قصدٍ لله، قد يبدو كثيراً في الدنيا ثم يتبدد في الآخرة كله، ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾؛ فلا قيمة للعمل إذا فسدت الجهة التي يُرفع إليها.

٥) الجزء يربط القلب دائماً بالآخرة؛ لأن من انقطع نظره عن يوم الحساب اختلّ ميزانه كله، ولهذا يتكرر مشهد النَّدم، والحشر، والجنة، والجحيم، والملك الحق للرَّحمن، حتى لا يعيش الإنسان أسير اللحظة العاجلة.

٦) من أخطر ما يكشفه هذا الجزء أن كثيراً من النَّدم سببه رفقةٌ فاسدةٌ أو خليلٌ أضلّ صاحبه عن الذكر؛ فليست كل خسارة تبدأ بفكرة، بل قد تبدأ

بصاحبٍ أدخلك طريقاً ثم تبرأ منك يوم الهلاك.

٧) شكوى الرسول ﷺ: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ ليست عن قومٍ أنكروا وجود القرآن فقط، بل عن قومٍ كان القرآن بينهم ثم لم يجعلوه قائداً لحياتهم؛ وهنا موضع الخوف على كل من أبقى المصحف مفتوحاً وأبقى قلبه مغلقاً.

٨) تسلية النبي ﷺ في هذا الجزء ليست تسليةً عاطفيةً مجردة، بل تسليةٌ سننية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ فمقاومة الحق ليست طارئة، بل هي سُنّة تتكرر، فلا يضطرب قلب الداعية إذا رأى العداوة.

٩) نزول القرآن مفرّقاً لم يكن نقصاً، بل رحمةً وتثبيتاً وتربيةً ومرافقةً للوحي في الطريق، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ فكأنَّ الله تعالى يُعلِّمنا أن القلوب لا تُبنى دفعةً واحدة، بل على جرعات هدى.

١٠) كل شُبهةٍ يثيرها أهل الباطل لا تخرج عن كونها محاولةً للفرار من الحق، ولذلك جاء الوعد: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾؛ فالحق لا يخاف من السؤال، لكن القلب المريض هو الذي يهرب من الجواب.

١١) استدعاء قصص موسى ونوح وعاد وثمود وأصحاب الرَّس وسواهم في سورة الفرقان ليس حشداً تاريخيّاً، بل تأكيدٌ أن الطريق الذي يسلكه المكذبون اليوم قد سلكه قبلهم من انتهوا إلى الهلاك، فلا جديد في سُنن الله.

١٢) الاستهزاء بالرسول ﷺ ليس دليل قوة، بل علامة عمى؛ لأن من لا يرجو نشوراً يسهل عليه أن يضحك من الهدى، لكنه سيعلم حين يرى العذاب من الأضل سبيلاً.

١٣) من أوجع آيات الجزء قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾؛ لأن أخطر الأصنام ليست دائماً حجراً يُعبد، بل قد تكون رغبةً تُطاع، وشهوةً تُقدَّم، ونفساً تُتَّبع.

١٤) إذا صار الهوى إلهاً، تعطلت الحواس عن مهمتها الحقيقية؛ فيسمع الإنسان ولا ينتفع، ويعقل ولا يهتدي، ولهذا شبّههم الله بالأنعام بل هم أضل، لأن الحيوان لا يملك نور التكليف الذي ضيّعه هؤلاء.

١٥) بعد كشف عمى القلوب، يفتح الجزء عينيك على كتاب الكون؛ مدّ الظل، وسكون الليل، والنوم، والنهار، والرياح، والمطر، والبحرين، وخلق الإنسان من الماء... حتى يقول لك: الأدلة حولك من كل جهة، فكيف بقي القلب غافلاً؟.

١٦) الجهاد الكبير في هذا الجزء ليس بالسَّيف أولاً، بل بالقرآن: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾؛ أي بالحجة والبيان والتثبيت وكشف الزيف، فالمعركة الأولى معركة وعيٍ وبصيرةٍ واتباع.

١٧) وظيفة الرسول ﷺ مضبوطة في هذا الجزء غاية الضبط: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾؛ فليس عليه حمل الناس قسراً إلى الإيمان، بل البلاغ الواضح، والسبيل مفتوح لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً.

١٨) الأمر بالتوكل على ﴿الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ يرد القلب إلى الأصل؛ لأن من اشتغل بردود الناس، ونسي أن ربه حيٌّ لا يموت، تعب من الطريق قبل أن يبلغ فيه.

١٩) ثم يبلغ الجزء قمته التربوية في رسم شخصية ﴿عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾؛ وكأنَّ القرآن بعد أن عرض صور الانحراف كلّها يقول لك: هذا هو النموذج الذي يصنعه الوحي حين يسكن القلب.

٢٠) أول سمةٍ في عباد الرَّحمن أنهم يمشون على الأرض هوناً؛ لأن من عرف الله

حقّاً سقط عنه ثقل الادعاء، ولم يعد يحتاج أن يتعالى ليشعر بوجوده.

٢١) ردّهم على الجاهلين بقولهم: ﴿سَلَاماً﴾ لا يعني مداهنة الباطل، بل يعني علوَّ النفس عن سفه الخصومة، واختيار أسلوبٍ يليق بمن ربّى قلبه القرآن.

٢٢) ليلهم ليس فراغاً ولا لهواً، بل مقام قربٍ وعبودية: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾؛ فالذي لا يُبنى في الليل غالباً ينهار عند أول اختبارٍ في النهار.

٢٣) خوفهم من جهنم مع صلاحهم يُعلِّمك أن القلب الحي لا يغترّ بعمله، بل كلما ازداد قرباً ازداد افتقاراً وخوفاً من سوء الخاتمة.

٢٤) اعتدالهم في الإنفاق يُعلّم أن الشريعة لا تصنع شخصياتٍ منفلتة ولا ممسكة، بل شخصياتٍ موزونة: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾؛ فالقوام من علامات النضج الإيماني.

٢٥) اجتناب الشرك، والقتل، والزنا، ثم فتح باب التوبة بعدها، يرسخ في القلب أصلين عظيمين: أن الذنب عظيم، وأن رحمة الله أعظم لمن صدق في الرجوع.

٢٦) قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ من أعظم آيات الرجاء المنضبط؛ فهي لا تفتح باب التهاون، بل تفتح باب الإصلاح الجذري لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

٢٧) من صفات عباد الرَّحمن أنهم لا يشهدون الزور، وإذا مرّوا باللَّغو مرّوا كراماً؛ أي أن طهارة المؤمن لا تكون فقط في الكبائر، بل كذلك في نوع حضوره في المجالس والمواقف والكلمات.

٢٨) التفاعل الصحيح مع آيات الله ليس سماعاً شكليّاً، بل انفتاح قلبٍ وبصيرة؛ ولهذا قال: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾، فكأنَّ القرآن يرفض التدين الميت الذي يسمع ولا يتحرك.

٢٩) دعاؤهم لأزواجهم وذرياتهم، وطلبهم الإمامة للمتقين، يدل على أن الصلاح في هذا الجزء ليس فرديّاً أنانيّاً، بل صلاحٌ يريد أن يمتدّ أثره إلى البيت والأمة والقدوة.

٣٠) ختام الفرقان بقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ يرد الإنسان إلى حقيقته؛ فالقيمة ليست في الصورة ولا الكثرة ولا الضجيج، بل في عبوديتك وإقبالك على ربك.

٣١) ثم تأتي سورة الشعراء لتقول: هذا الذي رأيته في الفرقان ليس حالةً منفردة، بل هو سُنّة الرسالات كلها؛ كتابٌ مبين، ورسولٌ يتألم لإعراض قومه، وقلوبٌ تطلب آيةً قاهرة لا استجابةً صادقة.

٣٢) قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ يواسي قلب النبي ﷺ ويواسي كل داعيةٍ مخلص؛ فلا تجعل عدم استجابة الناس سبباً لذبح نفسك حزناً، فإن القلوب بيد الله لا بيدك.

٣٣) في قصة موسى عليه السّلام يظهر أن الخوف البشري لا ينافي الرسالة؛ فقد قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ و﴿يَضِيقُ صَدْرِي﴾، لكن الله لم يرده لأنه خاف، بل ثبّته لأنه صدق في اللجوء إليه.

٣٤) فرعون نموذجٌ مكتمل لمن يرفض الحق لا لنقص البرهان، بل لحب العُلو؛ ينتقل من التشويش إلى السُّخرية إلى التهديد إلى صناعة معركةٍ إعلامية مع السَّحرة، لأن الطغيان حين يعجز عن الحجة يستدعي المسرح.

٣٥) لحظة سجود السَّحرة من أعظم مشاهد هذا الجزء؛ أناسٌ دخلوا يريدون الأجر والقرب من الطاغية، فلما لامس الحق قلوبهم انقلبوا فوراً إلى رب العالمين، ليثبت القرآن أن الهداية قد تفتح في لحظة صدقٍ واحدة.

٣٦) قولهم: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يُعلِّم أن اليقين بالآخرة يصغّر التهديدات كلها؛ فحين يستقر المصير في القلب تهون أوجاع الطريق.

٣٧) عند البحر يبلغ التوكل ذروته: الناس يرون الأسباب مغلقة، وموسى يقول: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ وهذه الآية مدرسة كاملة في الثبات حين تنعدم المخارج في أعين البشر.

٣٨) قصة إبراهيم عليه السَّلام في الشعراء تنقل المعركة من طغيان السُّلطان إلى طغيان التقليد؛ فالقوم لا يملكون حجةً إلا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءنَا﴾، وكأنَّ السورة تقول: كثير من الضَّلال لا يقوم على قناعة، بل على وراثةٍ غير ممحصة.

٣٩) تعريف إبراهيم عليه السَّلام لربه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ يرسم التوحيد كعلاقة حياة كاملة؛ خَلق، وهداية، ورزق، وشفاء، وموت، وبعث، ومغفرة.

٤٠) آية ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ هي قلب الجزء التاسع عشر كله؛ لأن السور الثلاث تعود في جوهرها إلى سؤالٍ واحد: هل قلبك سليم للحق، أم ملوث بالكبر والهوى والتزيين؟.

٤١) تكرار قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب في الشعراء ليس تكراراً جامداً، بل ترسيخٌ لسنّة واحدة: رسولٌ أمين، دعوةٌ واضحة، قومٌ يكذبون، عذابٌ يقع، ونجاةٌ لأهل الإيمان.

٤٢) قوم نوح يكشفون مرض الاستعلاء الاجتماعي حين قالوا: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾؛ وكأنهم يقيسون الحق بأقدار أتباعه لا بحقيقته، وهذه فتنة تتكرر في كل زمان.

٤٣) وعاد تكشف فتنة القوة والبناء والبطش؛ حين تتحول النِّعم إلى أدوات عبثٍ وتجبر، يغيب شكر المنعم، ويصبح العمران نفسه شاهداً على الانهيار القادم.

٤٤) وثمود تكشف فتنة الأمن الكاذب؛ جناتٌ وعيون وبيوتٌ في الجبال، حتى يظن القوم أن استقرارهم حصّنهم من أمر الله، فيأتيهم الهلاك من حيث لم يغن عنهم ما بنوا.

٤٥) وقوم لوط يكشفون أن الفاحشة ليست فقط انحراف شهوة، بل إعلان تمردٍ على الفطرة وحدود الله، ولذلك كان ردهم على النصيحة تهديداً بالإخراج، لأن المعصية إذا استحكمت تحولت إلى عداءٍ للناصحين.

٤٦) وأصحاب الأيكة يُذكّرونك أن الظلم الاقتصادي وبخس الناس أشياءهم من صميم الفساد الديني؛ فالدين ليس طقوساً منفصلة عن العدل في السوق والمعاملة.

٤٧) ثم تعود الشعراء لتثبت مصدر القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، نزل به الرُّوح الأمين على قلب النبي ﷺ؛ لتُسقط كل دعوى أنه شعر أو كهانة أو صناعة بشرية.

٤٨) نفي تنزّل الشياطين بهذا القرآن يطهر مصدر الوحي في قلب المؤمن، ثم يأتي التفريق بين كلام الشعراء الهائمين في كل وادٍ، وبين الكلمة المؤمنة التي تنصر الحق؛ ليُعلِّمك أن البلاغة إن لم تُربط بالحق صارت تيهاً.

٤٩) في خاتمة الشعراء يتربى حامل الدعوة على القرب من الله في خلوته: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾؛ فالثبات في البلاغ يبدأ من مراقبة الله لا من مراقبة الجمهور.

٥٠) ثم تأتي سورة النمل لتريك صورةً أخرى من الحق: لا مجرد صراعٍ بين الرُّسل والمكذبين، بل كيف يعمل القرآن هدىً وبشرى فيمن آمن بالآخرة، وكيف يعمى عنه من زُيّنت له أعماله.

٥١) افتتاح النمل يربط الهداية بالعمل واليقين: صلاة، وزكاة، ويقينٌ بالآخرة؛ فلا هدى بلا عبودية، ولا بشارة بلا استقامة، ولا استقامة بلا يقين.

٥٢) في قصة موسى عليه السَّلام بالنَّمل يبرز معنى الأمان عند الله، ومعنى المغفرة بعد الزَّلل، ومعنى أن الآيات قد تكون ﴿مُبْصِرَةً﴾ ثم يقال عنها: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأن العمى ليس في العين بل في القلب المستكبر.

٥٣) قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ من أخطر قوانين الجزء؛ فقد يعرف الإنسان الحق يقيناً ثم يرفضه لأن قبوله سيكسر كبرياءه أو يهدد مكاسبه.

٥٤) قصة داود وسليمان عليهما السَّلام تكشف أن الفضل الحقيقي لا يورث صاحبه انتفاخاً، بل حمداً وشكراً؛ فالعلم والملك إذا لم يزدْ العبد عبوديةً، صار ما عنده فتنةً عليه لا نعمةً له.

٥٥) تبسّم سليمان من قول النَّملة ثم دعاؤه بالشُّكر يُربّي القلب على أن القوة الحقيقية لا تلغي الرَّحمة، وأن الإحساس بنعمة الله ينبغي أن يسبق الانبهار بما في اليد من سلطان.

٥٦) مشهد الهدهد يُعلّم أن جنديّاً صغيراً قد يحمل قضية توحيدٍ كبيرة؛ وأن قيمة المرء ليست بحجمه الظاهر، بل بما يحمله من بصيرةٍ وصدق خبر.

٥٧) حين وصف الهدهد قوم سبأ قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ فيعود المعنى المركزي للجزء مرةً أخرى: أخطر المصائب أن ترى الباطل مزيناً، فتدافع عنه وأنت تحسب نفسك على شيء.

٥٨) رسالة سليمان عليه السَّلام إلى بلقيس نموذج في وضوح الدعوة وعزّتها؛ كتابٌ كريم، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، ثم كلمة الحق مباشرة: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؛ لا التواء، ولا استجداء، ولا بيعٌ للحق.

٥٩) بلقيس تمثل نموذج القلب الذي لم يولد على التوحيد لكنه لم يغلق على نفسه باب المراجعة؛ تنظر، وتفكر، وتختبر، ثم لما بان لها الحق قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، فالهداية قد تأتي بعد تاريخٍ طويل إذا بقي في القلب إنصاف.

٦٠) قول سليمان عند حضور العرش: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ يُعلِّم أن أعظم ما يربك الصَّالحين ليس الفقر فقط، بل الغنى والتمكين والقدرة؛ لأن البلاء قد يأتي في صورة نعمة.

٦١) انتقال بلقيس من العرش العظيم إلى السجود لله رب العرش العظيم يلخّص رسالة النمل: أن الحضارة والملك والعقل السياسي لا تنفع إذا بقيت العقيدة منحرفة، وأن العظمة الحقيقية في الإسلام لله لا في التمكين المجرد.

٦٢) ثمود في النمل تكشف طبقةً أخرى من الفساد: الاستعجال بالعقوبة، والتشاؤم بأهل الحق، ووجود شبكات إفسادٍ منظّمة تمكر لقتل النبي وأهله؛ فيكشف الله أن فوق كل مكرٍ مكره العادل.

٦٣) قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يورث المؤمن سكينةً عجيبة؛ لأن خصوم الحق قد يحسنون التخطيط، لكنهم لا يملكون التصرف خارج سلطان الله.

٦٤) النجاة في النمل تُربط بالتقوى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾؛ فالإيمان الحق ليس ادعاءً، بل إيمانٌ يصنع وقايةً عملية من المعصية والهوى والفساد.

٦٥) وخبر لوط في النمل يعيد تأكيد أن الانحراف الفاحش ليس تحضراً ولا حرية، بل جهلٌ مركب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ لأنه جهلٌ بالله، وبالفطرة، وبالعاقبة.

- إذا جمعت هذا الجزء كله وجدت أن خريطته البنيوية تقوم على أربع دوائرٍ متداخلة: حقٌّ واضح، وقلبٌ يُمتحن، وموقفٌ يَفرز، وعاقبةٌ تَثبت؛ فالقرآن ينزل واضحاً، ثم تُختبر به القلوب، ثم يظهر الموقف: استجابة أو جحود، ثم تأتي العاقبة: هداية أو هلاك.

- ووجدت أيضاً أن أخطر أمراض هذا الجزء ليست الجهل البسيط، بل الكِبر، والهوى، والتزيين، والتقليد، والغرور بالقوة، والاغترار بالنِّعمة، وصُحبة السُّوء، وهجر القرآن، وفساد القلب وهو يظن أنه يحسن صنعاً.

- ووجدت أن أعظم معالم النجاة فيه هي: تعظيم الوحي، واليقين بالآخرة، والتوكل على الله، والجهاد بالقرآن، وسلامة القلب، وشُكر النِّعمة، والتوبة الصادقة، وصُحبة الحق، والعبودية في الليل والنهار، والعدل في السلوك، والتواضع في المشي، والصدق عند الفتنة.
- والخلاصة التي تمسك هذا الجزء كلَّه أن الله لم يترك الناس بلا نور، بل أنزل الفرقان، وأرسل الرسل، وكرر الآيات، وصرف الأمثال، وأقام الحجج في الأنفس والآفاق؛ فمن هلك بعد ذلك فإنما يهلك لأنه لم يُرِد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، ومن نجا فإنما نجا لأنه خضع للحق حين جاءه، وسأل الله أن يجعله من عباده الصالحين.

فالجزء التاسع عشر ليس مجرد عرضٍ لقصصٍ ومشاهد، بل هو مرآةٌ شديدة الصدق تسأل كل قارئ:

١) هل أنت من الذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً، أم من الذين استيقنتها أنفسهم ظلماً وعُلوّاً؟.
٢) وهل القرآن في حياتك فرقانٌ يُغيّرك، أم كتابٌ مهجورٌ تشهد له بلسانك وتخالفه بجوارحك؟.
٣) وهل قلبك سليمٌ لله، أم ما زال فيه منازعُ للهوى، ومداخلُ للكبر، وبقايا من تعظيم غير الله؟.

فإذا خرج القارئ من هذا الجزء وقد ازداد تعظيماً للقرآن، وخوفاً من هجره، وحذراً من الهوى، وبصيرةً بسُنن الله، ورغبةً في أن يكون من عباد الرَّحمن، فقد أخذ من هذا الجزء روحه حقّاً، لا ألفاظه فقط.

المحور الإيماني المركزي للجزء التاسع عشر

يدور حول امتحان القلب حين يُعرَض عليه الوحي الواضح؛ فالقرآن في هذا الجزء لا يعالج غموض الطريق، بل يعالج موقف الإنسان من الطريق بعد أن أصبح ظاهراً بيّناً، لأن المشكلة في الغالب ليست نقص الدليل بل فساد الاستقبال، ولهذا يبدأ المشهد بكشف جذور الاعتراض في النفس حين يطلب المكذبون آياتٍ تعجيزية لا هداية فيها فيقولون ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فيكشف القرآن أن وراء هذا الطلب قلباً متعالياً لا طالب حقٍّ فيقول ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾، ثم يربط هذا الموقف بنهايته الحتمية يوم ينكشف الغطاء ويظهر الحق الذي أنكروه ولكن بعد فوات زمن الاختيار، ويومها يتبين أن العمل الذي لم يُبنَ على الإيمان الصحيح قد يذهب كله سدىً كما قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ وأن النَّدم الحقيقي ليس على قلة الدليل بل على سوء الموقف من الرسول والذكر حتى يقول الظالم متحسراً ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ ويُكشف أن أصل الانحراف قد يكون خليلاً مُضلاً أو هوىً متبوعاً حتى يبلغ الأمر أن يشكو الرسول ﷺ إلى ربه هجر قومه للوحي فيقول ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾، ثم يقرر القرآن أن هذا الصراع ليس طارئاً بل هو سنة قديمة مع كل رسول ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ليُفهَم أن العبرة ليست بوجود المعارضة بل بموقف القلب أمام الحق، ولذلك يعرض الجزء نماذج متتابعة من تاريخ الرسالات في الشعراء لتُرى هذه السنة وهي تتكرر: رسول يدعو إلى توحيد الله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وقوم يكذبون بدافع الكِبر أو التقليد أو

الشهوة حتى تنتهي القصة دائماً بانكشاف الحقيقة وظهور العاقبة، وفي مقابل هذه النماذج التي رفضت الوحي يعرض القرآن قلوباً انفتحت له فاهتدت في لحظة صدق كما وقع للسَّحرة حين سجدوا فوراً قائلين ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليقرر أن الهداية ليست قضية طول بحث بل صفاء قلب حين يواجه الحق، ثم ينتقل في النمل ليكشف صورة أخرى من الامتحان حين يجتمع الوحي مع العلم والملك والقدرة كما في قصة سليمان عليه السَّلام، فيُظهر أن الهداية الحقيقية لا تقف عند معرفة الحق بل تمتد إلى شُكر النِّعمة والخضوع لله حتى يقول العبد عند تمام القوة ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، وفي المقابل يبين كيف يعمى القلب عن الآيات رغم وضوحها حين يستقر فيه الظلم والعُلُو كما قال تعالى عن المكذبين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾، فتتجمع مشاهد الجزء كلها حول حقيقة واحدة:

١. أن الوحي جاء بالبيان الكافي،
٢. وأن الله تعالى أقام الحجة في الكتاب وفي التاريخ وفي الآفاق،
٣. وأن الفاصل الحقيقي بين النجاة والهلاك هو سلامة القلب من الكبر والهوى،

ولذلك ينتهي هذا البناء كله إلى تصوير النموذج الذي استجاب للفرقان فصار من عباد الرَّحمن الذين تغيرت حياتهم بالوحي ظاهراً وباطناً، وبذلك يتضح أن محور الجزء التاسع عشر كله هو أن الهداية ليست في كثرة الآيات بل في قلبٍ يتواضع للحق حين يسمعه، وأن الضَّلال يبدأ يوم يُقدِّم الإنسان هواه على وحي ربه.

حين يُفاجأ الإنسان يوم القيامة بأنَّ ما ظنَّه نوراً كان هباءً منثوراً

هناك آية في القرآن تهزُّ القلب هزّاً عجيباً؛ لأنها لا تتحدث عن أناسٍ لم يعملوا شيئاً، بل عن أناسٍ عملوا، تعبوا، اجتهدوا، وربما ظنوا أنهم يقتربون من النجاة... ثم يقع المشهد الصادم يوم القيامة حين يقول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾، والهَبَاء المنثور هو ذلك الغبار الدقيق الذي تراه معلقاً في شعاع الشمس، لا يمكن جمعه ولا الانتفاع به، فكأنَّ هذه الأعمال الكثيرة التي تعب أصحابها فيها تتحول في لحظة الحساب إلى شيءٍ لا وزن له ولا أثر.

والأصل في هذه الآية أنها في الكُفَّار الذين عملوا أعمالاً في ظاهرها حسنة: إحساناً إلى الناس، أو صدقات، أو أعمال خيرٍ دنيوي... لكنهم لم يؤمنوا بالله، ولم يأتوا بالأساس الذي يُبنى عليه القبول، وهو الإيمان والتوحيد؛ ولذلك قال الله في موضع آخر: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾، فكل عملٍ لا يقوم على الإيمان بالله لا يكون له وزنٌ عند الله يوم القيامة مهما أعجب الناس في الدنيا.

لكن الخوف الحقيقي الذي كان يقلق قلوب الصَّالحين ليس هذا فقط؛ بل أنهم فهموا أن المسلم أيضاً قد يضيع عمله إن لم يحفظ شروط القبول، لأن العمل عند الله لا يُقبل إلا بشرطين عظيمين:

١. أن يكون خالصاً لله لا يُراد به رياءٌ ولا سمعة،

٢. وأن يكون صواباً على هدي رسول الله ﷺ؛

فإذا فُقد الإخلاص صار العمل رياءً يذهب ثوابه، وإذا فُقد الاتباع صار العمل بدعةً لا يُرفع إلى الله سبحانه وتعالى.

ولهذا كان السَّلف يخافون من ضياع الأعمال أكثر من خوفهم من قِلّتها؛ لأن العمل قد يبدو كبيراً في أعين الناس، لكنه عند الله لا يقوم على إخلاصٍ

صادقٍ أو متابعةٍ صحيحة، فيكون كالغبار المتطاير الذي لا يبقى منه شيء.

والطريق الذي يحفظ عمل الإنسان من أن يتحول يوم القيامة إلى هباءٍ منثور طريقٌ واضح رسمه القرآن:

١. أن يُصلح العبد توحيده قبل عمله،

٢. وأن يُصلح نيته في كل عمل،

٣. وأن يحرص أن يكون عمله موافقاً لسُنَّة النبي ﷺ،

٤. وأن يسأل الله دائماً القبول؛

لأن العمل الصالح لا ينجي صاحبه بكثرته، بل بقبوله عند الله تعالى.

ولهذا كان أهل الإيمان بعد كل طاعةٍ عظيمة يخافون ألَّا تُقبل منهم، ويقولون كما حكى القرآن عنهم: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، لأن أعظم الخسارة ليست أن يعمل الإنسان قليلاً... بل أن يعمل كثيراً ثم يكتشف يوم القيامة أن ما ظنَّه نوراً في دنياه قد صار هباءً منثوراً.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها الجزء التاسع عشر

❖ أولاً: انحرافات عقدية

١) الاستكبار عن الوحي وطلب الآيات تعنتاً لا طلباً للهداية: حين يطلب القلب الدليل لا ليؤمن بل ليؤجل الإيمان أو ليعاند، يتحول السؤال إلى حجاب عن الحق كما قالوا ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فبيّن الله تعالى أن أصل الاعتراض كِبر القلب لا نقص البرهان.

٢) هجر القرآن مع وجوده بين الناس: من أخطر الانحرافات أن يبقى القرآن متلُوّاً بالألسنة لكنه مهجور في الفهم والعمل والتدبر حتى يشكو الرسول ﷺ ذلك إلى ربه بقوله ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾.

٣) اتخاذ الهوى إلهاً يُقدَّم على الوحي: حين يصبح معيار الحق هو رغبة النفس لا أمر الله ينقلب الإنسان إلى عبدٍ لشهوته كما وصف القرآن ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ فيفسد ميزان الهداية كله.

٤) الاعتقاد بأن العمل ينفع دون توحيد صحيح: الجزء يبيّن أن الأعمال إذا لم تُبنَ على الإيمان والإخلاص قد تذهب يوم القيامة بلا قيمة مهما كثرت، كما قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾.

٥) جحود الحق مع العلم به بسبب الكبر: ليس كل كفر سببه الجهل بل قد يكون صاحبه موقناً بالحق في داخله لكنه يرفضه تكبراً أو خوفاً على مصالحه كما قال تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾.

❖ ثانياً: انحرافات أخلاقية

١) الاستهزاء بالحق وأهله: السُّخرية من الدين أو من الدعاة ليست علامة قوة بل علامة عمى القلب، فقد كان المكذبون إذا رأوا الرسول ﷺ قالوا استهزاءً ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾.

٢) الفواحش وانحراف الفطرة: يبرز الجزء انحراف قوم لوط حين قلبوا الفطرة التي خلق الله الناس عليها، فصاروا يأتون الفاحشة وهم يعلمون قُبحها كما قال تعالى ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

٣) القتل والاعتداء على النفس التي حرّم الله: من أخطر الجرائم الأخلاقية التي تهدم المجتمع الاعتداء على النفس بغير حق، ولذلك جاء التحذير الواضح ضمن صفات عباد الرَّحمن ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

٤) الزور واللَّغو وإفساد اللسان: فساد اللسان منبع كثير من الشُّرور، ولذلك وصف القرآن المؤمنين بأنهم ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ وأنهم إذا مرّوا بالباطل واللَّغو مرّوا عنه بكرامةٍ وعفة نفس.

٥) بخس الناس حقوقهم والغش في المعاملات: فساد الأخلاق لا يقتصر على الشَّهوات بل يشمل الظلم في الحقوق والتجارة كما حذر شُعيب قومه بقوله ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾.

❖ ثالثاً: انحرافات اجتماعية

١) احتقار المؤمنين بسبب مكانتهم الاجتماعية: من سنن الانحراف أن تقيس المجتمعات الحق بمكانة أتباعه لا بحقيقته كما قال قوم نوح مستهزئين ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.

٢) انتشار الفساد المنظم في المجتمع: يظهر هذا في قصة ثمود حين وُجد في المدينة ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فالمجتمعات قد تسقط حين يقودها أهل الإفساد لا أهل الإصلاح.

٣) الظلم الاقتصادي وبخس حقوق الناس: الانحراف الاجتماعي يظهر حين تتحول التجارة والمعاملات إلى ظلمٍ واستغلال للناس وهو ما واجهه شعيب حين دعا قومه إلى العدل والإنصاف في الميزان.

٤) اتباع العادات الموروثة دون نظر إلى الحق: التقليد الأعمى من أكبر أسباب الانحراف الاجتماعي حين يرفض الناس مراجعة معتقداتهم بحجة أنهم وجدوا آباءهم عليها كما قالوا ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

٥) تحويل القوة والسلطة إلى وسيلة إفساد: حين تتحول القوة السياسية أو العسكرية إلى بطش واستعلاء على الناس كما فعلت الأمم الطاغية يصبح العمران الظاهري مقدمةً للانهيار.

❖ رابعاً: انحرافات نفسية

١) الكِبر الداخلي الذي يمنع القلب من الخضوع للحق: الكبر مرض خفي يجعل الإنسان يرى الحق ثم يرفضه لأنه لا يريد أن يخضع له، ولذلك وصف الله حال المكذبين بقوله ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾.

٢) الغرور بالقوة أو المال أو الحضارة: تُظهر قصص الأمم أن الشعور بالأمان بسبب النِّعم قد يخدع الإنسان فيظن أنه بعيد عن الحساب كما حدث للأمم التي اغترت بمدنيتها وقوتها.

٣) التزيين النفسي للباطل حتى يظنه صاحبه حقاً: من أخطر الأمراض أن يرى الإنسان الخطأ جميلاً بسبب تأثير الشيطان أو الهوى كما قال تعالى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

٤) التعلق بصُحبة السُّوء التي تُضل القلب: الإنسان قد يضل لا بسبب فكرة فقط بل بسبب صديقٍ يقوده بعيداً عن الذكر حتى يندم يوم القيامة قائلاً ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾.

٥) الغفلة عن الآخرة والانشغال بالدنيا: إذا غاب يقين الآخرة ضعفت الرقابة الداخلية في النفس وسهل عليها الانحراف، ولذلك يربط القرآن الهداية دائماً باليقين بالآخرة والعمل لها.

وخلاصة التحذير في هذا الجزء كله: أن أعظم خطر على الإنسان ليس قلة الأدلة بل فساد القلب؛ فإذا دخل الكبر والهوى والتزيين والغفلة صار الحق واضحاً ومع ذلك يُترك، أما القلب المتواضع الباحث عن الله فإنه يهتدي ولو كان الدليل بسيطاً، لأن الهداية في حقيقتها نور يقذفه الله في قلبٍ صادقٍ يريد الحق.

الملامح الشخصية التي يصنعها الجزء التاسع عشر

الجزء التاسع عشر من القرآن لا يكتفي بعرض القصص والمجادلات، بل يعمل في أعماق النفس ليصنع نموذجاً إنسانياً متكاملاً يتشكل بالوحي ويثبت في وجه الفتنة، فتظهر ملامح الشخصية المؤمنة فيه ملامح واضحة متماسكة تنبع كلها من تعظيم الوحي والخضوع لله وحده..

١) ومن أول هذه الملامح شخصية تعيش تحت سلطان القرآن لا تحت سلطان الهوى؛ فهي تعلم أن الهداية ليست في كثرة الجدل بل في صدق التلقي، ولذلك تحذر أن تكون ممن قال فيهم الرسول ﷺ شاكياً ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾، فتجعل القرآن ميزان الفهم والعمل، وتدرك أن أعظم انحراف أن يتخذ الإنسان هواه إلهاً كما قال تعالى ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾، فتتحرر بذلك من عبودية الشَّهوة والرأي والضغط الاجتماعي.

٢) ثم يصنع هذا الجزء شخصية يقظة القلب تخاف الآخرة وتستحضرها في كل موقف؛ فهي لا تغتر بزينة الدنيا ولا تخدعها كثرة الأعمال إذا لم تكن خالصة لله، لأنها تعلم أن العمل بلا إيمان ولا إخلاص قد يتحول يوم القيامة إلى لا شيء كما قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾، ولذلك تبقى عيناها معلقتين بالدَّار الآخرة وبمشهد الحساب حين يندم الظالم ويقول ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾، فينشأ في القلب خوفٌ يزكي العمل ورجاءٌ يفتح باب التوبة.

٣) ويغرس الجزء أيضاً شخصية متواضعة لله بعيدة عن الكبر والاستعلاء؛ لأن القرآن يكشف أن أصل الضَّلال غالباً هو الكبر الداخلي الذي يمنع القلب من الخضوع للحق كما قال تعالى ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾، ولذلك يكون المؤمن في هذا الجزء عبداً لله لا متعالياً على خلقه، يمشي على الأرض بهدوء النفس وسكينة القلب كما وصف الله عباده الصالحين بقوله ﴿وَعِبَادُ

الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾، فلا يتضخم بالنعمة ولا يتجبر بالقوة بل يرد كل فضل إلى الله.

٤) كما يصنع القرآن هنا شخصية ثابتة أمام الفتنة والتهديد؛ تتعلم من مواقف الأنبياء أن الطريق إلى الله قد تحفه العداوة والمكابرة، لكن الثبات لا يكون بالصوت العالي بل باليقين الهادئ كما قال موسى عليه السَّلام حين ضاقت الأسباب ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فتفهم أن التوكل ليس ترك العمل بل ثقة القلب بالله في أشد اللحظات ضيقاً.

٥) ومن ملامح هذه الشخصية كذلك القلب السليم الذي ينقي علاقته بالله من الشرك والرياء والفساد؛ لأن الجزء يكرر أن النجاة يوم القيامة ليست بكثرة المال أو الجاه بل بسلامة القلب كما قال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، فينشأ المؤمن حريصاً على طهارة باطنه كما يحرص على صلاح ظاهره، فيجتنب الشرك والظلم والفواحش ويعلم أن باب التوبة مفتوح دائماً كما قال تعالى ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾.

٦) ويصوغ الجزء أيضاً شخصية شاكرة واعية للنِّعم لا تنخدع بالقوة أو الملك أو العلم؛ كما يظهر في موقف سليمان عليه السَّلام حين رأى مظاهر التمكين فقال ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، فتتعلم هذه الشخصية أن النِّعمة اختبار وليست ضماناً، وأن الشُّكر الحقيقي هو استعمال العطاء في طاعة الله تعالى.

٧) وفي الجانب الاجتماعي يصنع القرآن إنساناً كريم السُّلوك رفيع الخلق؛ لا ينجرف مع اللغو والباطل ولا يشارك في الزُّور، بل يمر على الفساد بكرامة نفس كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾، ويعامل الناس بالعدل والرحمة ويزن الأمور بميزان التقوى لا بميزان الهوى أو المصلحة.

٨) كما يغرس هذا الجزء روح العبودية العميقة في الليل والنهار؛ فالقلب الذي يتغذى بالقيام والسجود لا تزعزعه الفتن سريعاً، ولهذا وصف الله عباده بقوله ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾، فيكون الليل لحظة تجديد الإيمان والتجرد لله، والنهار ميدان العمل والصبر.

٩) وفي النهاية يرسم الجزء التاسع عشر صورة إنسانٍ قرآنيٍّ متكامل:

- قلبه موصول بالوحي،
- وعقله واعٍ بسُنن الله في التاريخ،
- ونفسه متواضعة لله،
- وأخلاقه مستقيمة مع الناس،
- ويقينه بالآخرة حاضر في قراراته كلها،

فهو عبدٌ لله في سرّه وعلنه، يعيش بالقرآن ويجاهد به ويزن حياته كلها بميزانه، حتى يكون من الذين أرادوا أن يتخذوا إلى ربهم سبيلاً.

أمراض القلوب التي يعالجها الجزء التاسع عشر

❖ أولاً: أمراض العلاقة بالله (الخلل العقدي)

١) الاستكبار عن قبول الوحي: أخطر خلل عقدي يعالجه الجزء هو الكبر الذي يمنع القلب من الخضوع لله؛ فالمشكلة ليست غياب الدليل بل رفض الخضوع له كما قال تعالى ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾، فيُذكِّر القرآن أن الهداية تبدأ بتواضع القلب لا بذكاء العقل.

٢) عبودية الهوى بدل عبودية الله: حين تتحول رغبات النفس إلى معيار للحق يصبح الإنسان عبداً لشهوته لا لربه، ولذلك حذّر القرآن بقوة من هذا المرض فقال ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾، لأن هذا الانحراف يفسد أصل التوحيد في القلب.

٣) جحود الحق مع العلم به: بعض القلوب ترى الدليل وتوقن به لكنها ترفضه خوفاً على مصالحها أو مكانتها، ولهذا وصف القرآن هذا الانحراف بقوله ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾، فالقضية ليست نقص معرفة بل فساد إرادة.

٤) الغفلة عن الآخرة وضعف اليقين بها: القلب إذا ضعف يقينه بالبعث والحساب انفتح أمامه باب الانحراف كله، ولذلك يربط القرآن الهداية بالإيمان بالآخرة كما في قوله ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

❖ ثانياً: أمراض النّيَّة والعبودية

١) هجر القرآن في حياة المسلم: من أخطر أمراض النِّيَّة أن يكون القرآن موجوداً في حياة الإنسان لكنه لا يقود تفكيره وسلوكه، حتى يشكو النَّبي ﷺ ذلك بقوله ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾.

٢) الاغترار بالعمل دون إخلاص لله: قد يكثر العمل الظاهر لكن القلب لا يقصد به وجه الله، فيتحول يوم القيامة إلى لا شيء كما قال تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾.

٣) نسيان شكر النعم والاغترار بها: النعمة قد تتحول إلى فتنة إذا لم تُربط بالشُّكر لله، ولذلك يعالج القرآن هذا المرض بتربية القلب على الاعتراف بالفضل كما قال سليمان عليه السَّلام ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

٤) ضعف الافتقار إلى الله في الدعاء والعبودية: الجزء يُذكِّر الإنسان بأن قيمته الحقيقية ليست في قوته بل في عبوديته لله كما قال تعالى ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾، فالدعاء علامة حياة القلب وصدق العبودية.

❖ ثالثاً: أمراض الموقف الأخلاقي

١) السُّخرية من الحق وأهله: الاستهزاء بالدين أو بالدعاة علامة مرض في القلب لأن صاحبه يرى الحق لكن يختار أن يواجهه بالاستهزاء كما قال المكذبون ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾.

٢) الفواحش وانحراف الفطرة: الجزء يفضح مرض القلب الذي يستسلم للشَّهوة حتى ينقلب على الفطرة التي خلقه الله عليها كما قال لوط عليه السَّلام لقومه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

٣) الظلم وبخس حقوق الناس: من فساد الأخلاق أن يظلم الإنسان الناس في معاملاته ومكاسبه كما حذّر شعيب عليه السَّلام قومه بقوله ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾.

٤) فساد اللسان وانتشار الزور واللغو: القلب إذا فسد انعكس ذلك على كلامه، ولذلك وصف الله المؤمنين بأنهم ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ وأنهم إذا مروا باللَّغو مروا عنه بكرامة وعفة.

❖ رابعاً: أمراض الثبات أمام الابتلاء

١) الخوف الذي يضعف الثقة بالله: الإنسان قد يتردد في طريق الحق بسبب الخوف من الناس أو من المستقبل، فجاءت قصة موسى عليه السَّلام لتُربي القلب على الثقة بالله كما قال ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

٢) الانهيار أمام ضغط المجتمع أو السُّلطة: بعض القلوب تعرف الحق لكنها تتراجع خوفاً من تهديد الأقوياء، بينما يُربّي القرآن المؤمن على الثبات كما فعل السَّحرة حين قالوا بعد إيمانهم ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

٣) الاغترار بالقوة والحضارة والأمن الدنيوي: الأُمم قد تنهار حين تظن أن قوتها أو عمرانها يحميها من حساب الله كما حدث مع عاد وثمود الذين اغتروا بما عندهم حتى جاءهم العذاب.

٤) الاستسلام لليأس حين يكثر الإعراض عن الحق: يعالج القرآن هذا المرض بتذكير الداعية بأن مقاومة الحق سُنَّةٌ قديمة كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾، فالثبات يكون بالصبر واليقين لا بانتظار القبول السريع.

وخلاصة ما يعالجه الجزء التاسع عشر في القلوب أنه:

- يطهر علاقة الإنسان بربه من الكبر والهوى،
- ويصحح نياته في العبادة والعمل،
- ويهذب أخلاقه في التعامل مع الناس،
- ويثبت قلبه أمام الفتن والابتلاءات،

حتى يصبح قلباً سليماً يقبل الحق إذا جاءه ويخضع لله وحده ويعيش بالوحي لا بالهوى.

اختبار ذاتي عميق: أسئلة مواجهة لا معلومات للجزء التاسع عشر

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

١) هل أتعامل مع القرآن على أنه مصدر التغيير الحقيقي في حياتي، أم أُبقيه في دائرة التلاوة فقط بينما القرار الفعلي بيد الهوى والعادة والناس؟ فإن كنت أسمع شكوى الرسول ﷺ ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ ثم لا أخاف أن أكون داخلها، فأنا من المخاطَبين جداً.

٢) هل أطلب من الدين ما يوافق نفسي فقط، فإذا خالف راحتي أو صورتي عن نفسي بدأت أبحث عن مخارج واعتراضات وأسئلة هروب؟ فإن كان قلبي

لا يريد الانقياد إلا بعد أن تأتيه الأمور كما يشتهي، ففيَّ شَبَهٌ من الذين قالوا ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾.

٣) هل أعيش يقين الآخرة حقّاً، أم أنَّ الدنيا ما تزال هي الحقيقة الأكبر في وجداني واختياراتي وخوفي وفرحي؟ فالجزء كله يهزّ هذا الموضع؛ لأن من ضعف يقينه بالبعث سهل عليه أن يبيع الحق بثمن عاجل، وأن ينسى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

٤) هل فيَّ شيء من عبادة الهوى وأنا أسمّي ذلك "شخصيتي" أو "قناعتي" أو "ظروفي"؟ فإن كنت أقدّم رغبتي على أمر الله كلما تعارضا، فهذه مواجهة صريحة مع قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾.

٥) هل أتواضع للحق إذا ظهر، أم أن كبريائي الداخلي يمنعني من الاعتراف والتراجع والرجوع؟ فالجزء لا يصور الضَّلال على أنه نقص معلومات فقط، بل يكشف أنه قد يكون ﴿ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾، وقد يرى الإنسان الحق ثم يرفضه لأنه لا يريد أن ينكسر له.

٦) هل أعيش مع الله تعالى بروح الشُّكر والافتقار، أم أتعامل مع ما عندي من نعم ونجاحات كأنَّها استحقاق ذاتي؟ فإن لم يكن في قلبي مناجاة سليمان عليه السَّلام ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فأنا بحاجة شديدة إلى هذا الجزء.

❖ أين انكشف قلبي؟

١) انكشف قلبي في موقفه من الوحي: هل أُسلِّم حين أفهم أن هذا حكم الله، أم يبدأ داخلي بالاعتراض الصامت والبحث عن تأجيل التنفيذ؟ فهنا يظهر صدق العبودية من زيفها، ويظهر هل أنا أطلب الحق أم أطلب ما يوافقني فقط.

٢) انكشف قلبي في نوع الصُّحبة التي تُؤثِّر في قراراتي؛ هل هناك "فلان" يجرّني بعيداً عن الذكر، أو يهوّن المعصية، أو يثقل الطاعة على نفسي؟ لأن الحسرة الكبرى في الجزء خرجت من هذا الباب: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾.

٣) انكشف قلبي في تعاملي مع الذنب؛ هل إذا وقعت فيه أسرعت إلى التوبة الصادقة، أم أؤجل وأُسوّف وأعتاد حتى يبرد قلبي؟ فالجزء فتح باب الرجاء بقوة في قوله ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾، والسؤال: هل أنا من أهل الباب أم من أهل التأجيل؟.

٤) انكشف قلبي في نظرتي إلى الناس؛ هل أزدري بعضهم لفقرهم أو ضعفهم أو بساطتهم أو قلّة صورتهم الاجتماعية؟ فقوم نوح لم يمنعهم من الإيمان ضعف الدليل، بل احتقارهم لمن تبعه، وهذا مرض قد يختبئ في النفوس المتدينة أيضاً.

٥) انكشف قلبي في علاقتي بالنِّعم؛ هل النِّعمة تقودني إلى الشُّكر والخضوع، أم إلى الغفلة والشعور الخفي بالأفضلية؟ فليس كل اختبار يأتي في صورة مصيبة؛ بعض القلوب تسقط حين تُفتح لها الأبواب لا حين تُغلق.

٦) انكشف قلبي في موقفي من الفتن والضغوط؛ هل إذا خفت على سمعتي أو مصلحتي أو راحتي تراجعت عن بعض ما أعلمه حقّاً؟ فهنا يتبين الفرق بين من يقول ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وبين من ينهار عند أول حصار نفسي.

❖ أي آية أربكتني؟

١) هل أربكتني آية ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ لأنني أخشى أن يكون في حياتي جهد كثير لكن بلا روح إيمانٍ وإخلاص؟ وهل

أقلقتني لأنها تسألني بصدق: ما الذي يبقى من عملي لو جُرّد من نظر الناس وثنائهم؟.

٢) هل أربكتني آية ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ لأنني رأيت فيها نفسي في بعض الاختيارات التي أبررها باسم الظروف؟ فالآية لا تتحدث عن صنمٍ بعيد، بل عن لحظة داخلية يتقدّم فيها الهوى على الأمر.

٣) هل أربكتني آية ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾؟ ربما أربكتني من جهة الرجاء: هل أصدق فعلاً أن باب التبديل مفتوح؟ وربما أربكتني من جهة الصدق: هل توبتي أنا توبة حقيقية أم مجرد توقف مؤقت؟.

٤) هل أربكتني آية ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ لأنني شعرت أن القضية أعمق من ظاهر الأعمال، وأن أصل النجاة في باطنٍ لم يصفُ بعد؟ فهذه الآية تهزّ كل من اعتاد أن يطمئن إلى صورته الظاهرة دون أن يفتش قلبه.

٥) هل أربكتني آية ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ لأنني أدركت أن الإنسان قد يعرف ثم لا ينقاد؟ وهنا يكون السؤال المؤلم: في أي موضع من حياتي أنا مقتنع بالحُكم الشرعي، لكنني أؤخره لأن نفسي لا تريد أن تنكسر؟.

٦) هل أربكتني آية ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ بما فيها من صفات؛ لأنني رأيت الفجوة كبيرة بين المثال القرآني وبين واقعي اليومي في الكلام والإنفاق والليل والبيت والخلق؟ فبعض الآيات لا تُربكنا لأنها غامضة، بل لأنها واضحة جداً إلى حدٍّ يكشف تقصيرنا بلا ستار.

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

١) هل أؤجل جعل القرآن قائداً فعلياً ليومي وقراراتي، مع أنني أعلم أن تأجيل هذه النقلة هو عين الخطر الذي يحذر منه الجزء؟ فالمشكلة ليست في أن أقرأ أكثر فقط، بل في أن أتوقف عن هجر التلقي والعمل والتدبر والمحاسبة.

٢) هل أؤجل قطع علاقة أو صُحبة أو مساحة تواصل تضعف إيماني وتجرّني إلى الغفلة أو الذنب؟ مع أن الجزء يصرخ في وجهي بأن بعض النَّدم الأبدي بدأ من خليلٍ لم أُحسن اختياره.

٣) هل أؤجل توبة واضحة من ذنب أعرفه بالاسم، وأعود إليه كل مرة بعد وعود متكررة؟ مع أن الله تعالى فتح الباب، لكن تأجيل الدخول إليه قد يحول بين القلب وبين الصدق حتى يعتاد الظلمة.

٤) هل أؤجل إصلاح لساني من زورٍ أو غيبةٍ أو لَغوٍ أو سُخريةٍ أو فضول كلام؟ مع أن صفات عباد الرَّحمن لم تجعل طهارة اللسان أمراً ثانوياً، بل علامة على رقيّ النَّفس وكرمها.

٥) هل أؤجل ترتيب علاقتي بليل العبادة، فأبقى محروماً من السُّجود والقيام والمناجاة بحجة التعب والانشغال؟ مع أن القلوب لا تثبت عادةً في النهار إذا كانت خاوية في الليل، والجزء يربط رفعة العبد بهذه الخلوات.

٦) هل أؤجل كسر كبريائي في موضع أعرف أن الحق فيه ليس معي، لكن نفسي ترفض الاعتذار أو الرجوع أو الاعتراف؟ وهنا تكون المواجهة الأصعب، لأن بعض القلوب لا يهلكها الجهل بل يهلكها أنها عرفت ثم أصرّت.

هذا الاختبار لا يطلب منك إجابات جميلة، بل يطلب منك موضع الصدق؛ لأن الجزء التاسع عشر كله لا يسأل: هل رأيت الحق؟ بل يسأل: ماذا فعل قلبك حين رآه؟.

خطة التغيير: طريق قصير لكنه صريح على ضوء الجزء التاسع عشر

١) أعد ترتيب علاقتك بالقرآن فوراً: لا تجعل القرآن حضوراً صوتياً في يومك فقط، بل اجعله ميزان الفهم والقرار والتقويم؛ لأن أخطر التحذير في هذا الجزء هو أن يعيش الناس بجوار الوحي دون أن يقود حياتهم، حتى يشكو النبي ﷺ قائلاً ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾، فالتغيير يبدأ من إلغاء الهجر العملي لا من زيادة التلاوة وحدها.

٢) اكسر سلطان الهوى قبل أن يحكم حياتك: راقب المواضع التي تتقدم فيها رغبتك على حكم الله تعالى، لأن الطريق إلى الضَّلال يبدأ حين يصبح الهوى مرجعاً خفياً للقرارات، وقد فضح القرآن هذا المرض بقوله ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾، فالتغيير الحقيقي يبدأ من إعلان الولاء لله فوق كل رغبة.

٣) طهِّر قلبك من الكِبر الداخلي: تدرّب على قبول الحق ولو جاء على يد من هو دونك، وعلى الاعتراف بالخطأ دون تردد؛ لأن كثيراً من الناس رأوا الحق لكنهم رفضوه بسبب الكِبر كما وصف القرآن ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾، فالتواضع لله تعالى أول أبواب الهداية.

٤) عِش الآخرة كأنها قريبة لا فكرة بعيدة: ذكِّر قلبك كل يوم أن الطريق ينتهي بيوم لا يبقى فيه إلَّا الإيمان الصادق، لأن الدنيا قد تخدعك بكثرة العمل أو بالنجاح الظاهر ثم تكتشف الحقيقة يوم الحساب حين يتبدد العمل الفارغ كما قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾.

٥) غيّر بيئة قلبك قبل أن تغيّر برنامجك: اختر الصُّحبة التي تُقربك من الله تعالى وتذكِّرك بالحق، وابتعد عن كل علاقة تُضعف يقينك أو تُهوّن المعصية؛ لأن كثيراً من الانحراف يبدأ من تأثير إنسان قريب حتى يصرخ صاحبه يوم القيامة ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾.

٦) أغلق باب الذنب بتوبة صريحة لا مؤجلة: لا تكتفِ بالشعور بالنَّدم بل اتخذ قراراً عملياً بقطع الذنب وأسبابه؛ فالقرآن لا يترك العبد في اليأس بل يفتح له باب الرجوع بقوة في قوله ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾، لكن التوبة الصادقة لا تعيش مع التسويف.

٧) اجعل الشُّكر منهجاً في التعامل مع النعم: إذا فتح الله عليك في مال أو علم أو نجاح فذكِّر نفسك أن النِّعمة امتحان لا تكريماً نهائياً، وقل بقلب حاضر كما قال سليمان عليه السَّلام ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، فالشُّكر يحفظ النِّعمة والغرور يُفسدها.

٨) ابنِ قلبك في الليل قبل أن تواجه النهار: خصص وقتاً ثابتاً للقيام والدعاء والخلوة مع الله تعالى، لأن القلب الذي يقف بين يدي الله تعالى في الظلام يسهل عليه الثبات في الفتن والضغوط، ولذلك وصف القرآن الصَّالحين بقوله ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾.

٩) تعلم الثبات حين تضيق الأسباب: إذا واجهتك لحظة خوف أو انسداد طريق فتذكر مدرسة موسى عليه السَّلام حين وقف أمام البحر مطمئن القلب وقال ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فالثبات ليس غياب الخوف بل حضور الثقة بالله سبحانه وتعالى.

١٠) اجعل هدفك سلامة القلب لا مجرد كثرة العمل: راقب نيتك وصدقك وخضوعك لله في كل عمل، لأن الخاتمة الحقيقية في هذا الجزء ليست بكثرة الأعمال بل بسلامة القلب كما قال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، فالقلب السَّليم هو أعظم مشروع إصلاح في حياة الإنسان.

خاتمة وجدانية مزلزلة للجزء ١٩

الجزء التاسع عشر ليس مجموعة قصصٍ متفرقة ولا مشاهد تاريخية تُروى للاتعاظ المجرد، بل هو مرآةٌ كاشفة تُوضع أمام القلب ليعرف موقعه الحقيقي في معركة الهداية؛ فهنا ترى كيف يبدأ الانحراف صغيراً في الداخل:

١. كبرياء خفيٌّ يرفض الخضوع،
٢. أو هوى يتسلل ليصير حَكَماً في الدين،
٣. أو صُحبةٌ تقود القلب بعيداً عن الذكر،
٤. ثم يكبر هذا كله حتى يقف الإنسان يوم القيامة وهو يعضّ على يديه حسرةً ويقول ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾، ويصرخ بندمٍ لا ينفع ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾.

وفي المقابل يكشف هذا الجزء طريق النجاة بوضوحٍ لا لبس فيه:

١. طريق يبدأ بالصدق مع القرآن،
٢. وينمو بالتواضع للحق،
٣. ويثبت بالتوكل على الله،
٤. ويكتمل بسلامة القلب؛

ولذلك تتكرر فيه صور الأنبياء وهم يقفون أمام التكذيب والسُّخرية والتهديد، لكن قلوبهم ثابتة لأنهم يعرفون أن الحق لا يُقاس بكثرة أتباعه ولا بضجيج معارضيه، بل بصدق صلته بالله، حتى يقول موسى عليه السَّلام في اللحظة التي يظنها الناس نهاية الطريق ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

ثم يضعك القرآن أمام الحقيقة التي لا ينجو منها أحد: أن قيمة الإنسان عند الله ليست بما جمع ولا بما ظهر للناس من أعماله، بل بما حمله قلبه من إخلاصٍ وإيمان؛

← فكم من عملٍ ظن صاحبه أنه عظيم فإذا به يوم القيامة يتبدد كما قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾،

← وكم من قلبٍ خفيٍّ عاش لله فصار عند الله أعظم من كل ضجيج الدنيا.

ولهذا يختم الجزء برسم الصورة التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان إذا أراد النجاة حقاً؛

١. صورة عبدٍ يمشي على الأرض بقلبٍ متواضعٍ لله، لا يتعالى على الخلق ولا ينساق مع الجاهلين،

٢. يعيش نهاره بالعدل والكرامة،

٣. ويقضي ليله بين السجود والقيام،

٤. قلبه خائفٌ من النار راجٍ رحمة الله،

٥. ولسانه نظيف من الزُّور واللَّغو،

٦. وحياته كلها متجهة إلى الله، كما وصفهم القرآن بقوله ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾.

وهنا تنكشف الرسالة العميقة لهذا الجزء: أن الصراع الحقيقي في حياة الإنسان ليس بينه وبين الناس، بل بين قلبٍ يريد أن يخضع لله، ونفسٍ تريد أن تتبع هواها؛

← فإذا انتصر القلب صار العبد من أهل الهداية ولو عاش في عالمٍ مليء بالفتن،

← وإذا انتصر الهوى ضَلَّ صاحبه ولو سمع القرآن كل يوم.

فاختر لنفسك الطريق قبل أن يأتي اليوم الذي تُكشف فيه الحقائق بلا ستار، يوم يظهر الملك الحق لله وحده، ويقف الإنسان بين يديه لا يحمل إلَّا قلبه، فإن كان قلباً سليماً نجا، وإن كان مثقلاً بالكبر والهوى خسر، كما قال تعالى ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وقال سبحانه ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

روح الرسالة التربوية والعقدية في الجزء التاسع عشر

١) الهداية ليست نقص دليل بل خلل قلب: القرآن يبين أن كثيراً من الناس لم يضلوا لأن الحق غاب عنهم، بل لأن قلوبهم لم تُرِد الانقياد له؛ لذلك طلبوا آيات تعجيزية لا طلب هداية كما قالوا ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾، فالتغيير الحقيقي يبدأ من تواضع القلب للحق لا من كثرة الأدلة.

٢) أخطر ما يفسد الإنسان هو الكِبر الداخلي: الاستكبار يمنع صاحبه من الاعتراف بالحق حتى لو رآه واضحاً؛ ولهذا كشف القرآن جذور الضَّلال بقوله ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾، فالكبر ليس مجرد شعور بل حاجز يمنع القلب من الهداية.

٣) العمل بلا إيمان صادق قد يضيع كله: ليس كل عملٍ ينفع صاحبه عند الله؛ لأن الميزان ليس ظاهر الجهد بل صدق الإيمان والإخلاص، ولهذا قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾، فالقلب قبل العمل هو أساس النجاة.

٤) صحبة الإنسان قد تصنع مصيره: الجزء يحذر من أثر الرِّفقة في تشكيل الطريق، لأن الانحراف قد يبدأ من خليلٍ يُهوّن المعصية ويُبعد عن الذكر حتى يندم صاحبه يوم القيامة قائلاً ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾.

٥) هجر القرآن بداية الانحراف الكبير: حين يفقد القرآن موقعه القيادي في حياة المسلم يتحول الدين إلى عادة شكلية، ولذلك جاءت الشَّكوى المؤلمة ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾، فإحياء القلب يبدأ بإعادة القرآن إلى مركز القيادة والحياة.

٦) معركة الحق مع الباطل سُنَّةٌ قديمة لا حادثة جديدة: تكذيب الرُّسل والسُّخرية منهم ليس أمراً طارئاً بل طريق سار فيه الأنبياء جميعاً، ولهذا قال الله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾، فالمؤمن لا يطلب طريقاً بلا معارضة بل قلباً ثابتاً.

٧) القوة الحقيقية ليست في الملك بل في الشُّكر: يعرض القرآن نموذج سليمان عليه السَّلام الذي جمع الله له العِلم والملك، ومع ذلك ردّ النِّعمة إلى الله تعالى قائلاً ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، فالقيمة ليست في ما نملك بل في كيفية تعاملنا معه.

٨) أخطر الضَّلال أن يرى الإنسان الحق ثم يرفضه: القُرآن يصف حالة من عرف الدليل ثم أنكره بسبب الظلم والعلو فقال ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾، وهذه المرحلة أخطر من الجهل لأنها ضَلال مع علم.

٩) الإنسان قد يَضلُّ إذا جعل هواه مرجعاً للحق: حين يصبح الهوى معيار القرار يتحول الإنسان إلى عبدٍ لرغبته لا لربه، ولذلك جاء التحذير الصريح ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾، فسلامة القلب تبدأ بتحريره من سُلطان النفس والهوى.

١٠) النجاة ليست بكثرة المعرفة بل بسلامة القلب: قد يسمع الإنسان الآيات ولا ينتفع بها إذا كان قلبه مغلقاً، ولهذا قال تعالى ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾، لأن السَّمع الحقيقي هو سمع القلب لا الأُذن.

١١) النعم والآيات الكونية دعوة دائمة إلى معرفة الله: يمر الجزء بمشاهد الليل والنهار والمطر والخلق ليُذكّر الإنسان أن الكون كله يشير إلى خالقه، وأن هذه الآيات ليست مجرد ظواهر طبيعية بل رسائل هداية.

١٢) النموذج الذي يريد القرآن أن يصنعه هو عبد الرحمن: يرسم الجزء ١٩ ملامح الإنسان الذي تَغيّر قلبه بالوحي؛ عبد يمشي على الأرض بتواضع، ويبيت لله ساجداً، ويطهر لسانه من الزُّور، ويضبط إنفاقه وعدله، كما وصفهم الله بقوله ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾.

الرسالة الكبرى للجزء: صلاح القلب هو طريق النجاة: فالإنسان قد يملك العلم أو العمل أو القوة، لكن الميزان الحقيقي يوم القيامة هو قلبه الذي وقف

بين يدي الله تعالى؛ فمن سلَّم قلبه لله نجا، ومن استكبر أو اتبع هواه خسر، لأن الملك يومها لله تعالى وحده كما قال تعالى ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

الترابط بين الجزأين ١٨ – ١٩

❖ الترابط الموضوعي بين الجزأين ١٨ و١٩

١) الجزء الثامن عشر يبني الإنسان من الداخل، والجزء التاسع عشر يختبر هذا البناء حين يدخل ميدان الصراع مع الحق والباطل.. فالجزء ١٨ يبدأ بإعلان الفلاح وصفات المؤمنين في سورة المؤمنون، ثم ينتقل إلى سورة النور لصناعة الطهارة الفردية والاجتماعية، ثم يفتتح الفرقان ببيان حقيقة الوحي واعتراض المكذبين؛ فإذا جاء الجزء ١٩ أكمل هذا المسار نفسه، لكنه لم يعد يكتفي ببناء المؤمن، بل يضعه أمام نماذج الرفض والعناد وهجر القرآن واتباع الهوى، ثم أمام نماذج الثبات والهداية والاستجابة.

٢) الجزء ١٨ يضع قواعد الصَّلاح، والجزء ١٩ يبين لماذا يفسد الناس مع وضوح هذه القواعد: ففي الجزء ١٨ ترى معالم الفلاح واضحة في الخشوع، والعفة، والأمانة، وغضِّ البصر، والاستئذان، ونظافة المجتمع، وتعظيم أمر الله ورسوله، ثم يأتي الجزء ١٩ ليكشف أن الذي يمنع أكثر الناس من سلوك هذا الطريق ليس غموضه، بل الكِبر، والهوى، وفساد القلب، وسوء الصُّحبة، والتكذيب بالآخرة

٣) الجزء ١٨ يهتم بحراسة النور في النفس والبيت والمجتمع، والجزء ١٩ يهتم بكشف أسباب الانطفاء والعمى: فسورة النور في الجزء ١٨ تبني بيئة الطهارة، وتحمي الأعراض، وتغلق أبواب الفاحشة، وتفتح حديث النور الرَّباني ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم يأتي الجزء ١٩ ليقول لك: هذا النور لا ينتفع به إلَّا من أراد الحق، أما من زُيِّن له باطله أو استكبر في نفسه أو اتخذ إلهه هواه فإنه يعمى عنه ولو كان بين يديه.

٤) الجزء ١٨ ينتقل من فلاح المؤمنين إلى تشريعات النور إلى أصل الفرقان، والجزء ١٩ يأخذ هذا الفرقان ويمشي به في التاريخ والواقع والنفس: فخاتمة الجزء ١٨ مع مطلع الفرقان تؤسس لمعنى الوحي المنزل من عند الله، ثم يأتي الجزء ١٩ ليُريك أثر هذا الفرقان في الأمم: من هجره هلك، ومن استجاب له نجا، ومن حاكم هواه إليه ضَلَّ، ومن خضع له صار من عباد الرَّحمن.

٥) الجزء ١٨ يضعك أمام المجتمع المسلم كما ينبغي أن يكون، والجزء ١٩ يضعك أمام العالم حين يرفض هذا النور: ففي الجزء ١٨ ترى مجتمعاً منضبطاً بالطهارة، والستر، والاستئذان، وغض الأبصار، وطاعة الرسول ﷺ، وفي الجزء ١٩ ترى الوجه المقابل: الاستهزاء بالرُّسل، الجحود مع اليقين، تقديس الهوى، الفساد المنظم، التكذيب المتكرر، ثم العاقبة التي لا تتخلف.

❖ الترابط العقدي بين الجزأين ١٨ و١٩

١) الجزآن معاً يدوران حول توحيد الله وتعظيم سلطانه ووحيه، لكن الجزء ١٨ يؤسس والجزء ١٩ يكشف آثار القبول أو الرفض: فالجزء ١٨ يكرر أن الله هو الملك الحق، وأن الخلق لم يُوجدوا عبثاً، وأن الرجوع إليه حتمي، وأن دعاء غيره باطل، ثم يأتي الجزء ١٩ ليكشف أن أكثر صور الضَّلال تنشأ حين يُرفض هذا الأصل توحيداً واستسلاماً، فيظهر الشِّرك، والغُلُوُّ، وهجر القرآن، والسُّجود لغير الله، وعبادة الهوى.

٢) الجزء ١٨ يرسخ اليقين بالبعث والحساب، والجزء ١٩ يبين أثر هذا اليقين أو غيابه في مصير الإنسان: ففي المؤمنون ترى الموت والبعث، والبرزخ، والموازين، وخسارة من خفت موازينه، وفي النور ترى أن الإيمان بالله واليوم الآخر هو الذي يضبط الطهارة والأحكام؛ ثم في الجزء ١٩ يظهر أن الذين

لا يرجون لقاء الله هم أصل الاعتراض، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة زُيّنت لهم أعمالهم، وأن ضعف الصِّلة بالآخرة يفسر الاستكبار، والتكذيب، والاغترار بالدنيا.

٣) الجزء ١٨ يقرر أن الهداية في اتباع أمر الله ورسوله، والجزء ١٩ يقرر أن الانحراف يبدأ يوم يُقدَّم الهوى على الوحي: ففي النور جاء الميزان الحاسم ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ثم في الجزء ١٩ يأتي الكشف المُرعب ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾، فكأنَّ الجزءين معاً يبنيان مقابلة عقدية شديدة الوضوح:

← الإيمان الحق هو سمع وطاعة،

← والضَّلال الحق هو تأليه الهوى.

٤) الجزء ١٨ يؤكد أن الوحي نور وبيان وفرض، والجزء ١٩ يؤكد أن هذا الوحي نفسه هو الحق الثابت في مواجهة كل شبهة: ففي النور: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، وفي الفرقان والشعراء والنمل في الجزء ١٩: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ و﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ و﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فالترابط العقدي هنا شديد الإحكام: الوحي بيّنٌ في ذاته، ومن لم يهتد به فالعِلة في قلبه لا في الدليل.

٥) الجزء ١٨ يقرر أن الفلاح الحقيقي في عبودية الله، والجزء ١٩ يحدد جوهر هذه العبودية: سلامة القلب من الكِبر والشِّرك والهوى: ففي أول المؤمنون ترى صفات الفالحين، وفي ختام الشعراء ترى قلب إبراهيم عليه السَّلام معلقاً بيوم الدين حتى قال ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، فكأنَّ الجزء ١٨ يرسم صفات الجوارح المؤمنة، والجزء ١٩ يعيدك إلى أصلها الباطن: القلب السَّليم.

❖ الترابط البياني بين الجزأين ١٨ و١٩

١) الجزء ١٨ يغلب عليه أسلوب البناء التفصيلي والتشريع والفرز الداخلي، والجزء ١٩ يغلب عليه أسلوب العرض الحركي والمشاهد المتتابعة والمقابلات الحادة: ففي المؤمنون والنور ترى بناءً متدرجاً لصفات المؤمن وأحكام المجتمع وأدب البيوت والطهارة والأعراض، ثم في الجزء ١٩ ينتقل الأسلوب إلى مشاهد القيامة، والحوار، والحسرة، والقصص المتتابع، وتكرار السُّنن، وكأنَّ البيان انتقل من "كيف تبني نفسك" إلى "كيف ترى مصير المواقف في التاريخ".

٢) خاتمة الجزء ١٨ ومطلع الجزء ١٩ بينهما جسر بياني ظاهر اسمه: الفرقان: فالجزء ١٨ يختم بمطلع سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، فيضع الكلمة المفتاحية، ثم يأتي الجزء ١٩ ليشرح فعلياً وظيفة هذا الفرقان: كيف يُفرّق بين الهدى والهوى، وبين عباد الرَّحمن وأهل الاستكبار، وبين من استجاب للوحي ومن قال ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أو طلب الآيات تعنتاً.

٣) الجزء ١٨ يستعمل صور النور والستر والطهارة، والجزء ١٩ يستعمل صور الانكشاف والمواجهة والعاقبة: في النور ترى: البيوت، والاستئذان، وغض البصر، ونور الله تعالى، والقلوب التي تتلقى الهداية، وفي الجزء ١٩ ترى: تشقق السماء، ونزول الملائكة، وعضُّ الظالم على يديه، وحشر الناس على وجوههم، وغرق الأمم، وتشقق البحر، وبرزت الجحيم، وكأنَّ البيان انتقل من نور البناء إلى مشاهد الحساب والفرز.

٤) في الجزء ١٨ تكثر صيغ التقنين والتوجيه المباشر، وفي الجزء ١٩ تكثر صيغ الاعتراض والرد والحوار والكشف: ففي النور: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و﴿وَأَنكِحُوا﴾ و﴿لِيَسْتَأْذِنكُم﴾، بينما

في الجزء ١٩ تتكاثر الحوارات: حوار المكذبين مع الرُّسل، وحوار موسى عليه السَّلام مع فرعون، وإبراهيم عليه السَّلام مع قومه، وبلقيس مع الملأ، وصالح عليه السَّلام مع قومه؛ ليكون البيان أكثر حركةً وصداماً وامتحاناً.

٥) الجزء ١٩ يبني على الإيقاع البياني الذي بدأ في الجزء ١٨ لكنه ينقله من الوصف إلى السُّنن المتكررة: فالجزء ١٨ يقول لك ما هو الفلاح، وما هو النور، وما هو المجتمع المؤمن، ثم يأتي الجزء ١٩ بتكرارات مقصودة مثل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وكأنَّ البيان يريد أن يغرس في النفس قانوناً لا حكاية عابرة: أكثر الناس لا يؤمنون، لكن الله عزيزٌ رحيم، والحق لا يتغير بتكرار الرَّفض.

❖ الترابط الوجداني بين الجزأين ١٨ و١٩

١) الجزء ١٨ يُربّي في القلب شوق الفلاح ونظافة الباطن والظاهر، والجزء ١٩ يربّي فيه الخوف من ضياع هذا الفلاح بالهوى أو الهجر أو الكبر: فأنت في الجزء ١٨ تتعلق بصفات المؤمنين، وتنجذب إلى نور الطاعة، وتتعلم أن المجتمع الطاهر ممكن ومطلوب، ثم يأتي الجزء ١٩ ليَهُزّ هذا الوجدان بسؤال مخيف:

← ماذا لو عرفت الطريق ثم أعرضت عنه؟.

← ماذا لو سمعت القرآن ثم هجرته؟.

← ماذا لو دخل الهوى من شقوق النفس فأفسد كل شيء؟.

٢) الجزء ١٨ يبعث وجدان الطمأنينة بنور الله ووضوح أحكامه، والجزء ١٩ يبعث وجدان الصدمة حين ترى العناد البشري أمام هذا النور: ففي الجزء ١٨ تشعر أن الوحي يعتني بأدق تفاصيل حياة المؤمن من البيت إلى البصر إلى اللسان إلى الطاعة، ثم في الجزء ١٩ ترى كيف يقابل هذا الوحي نفسه

بالاستهزاء والتَّعنُّت والإنكار، فتشعر وجداناً بثقل المعصية لا لأنها مخالفة مجردة، بل لأنها رفض لنورٍ بُذل لك بوضوح ورحمة.

٣) الجزء ١٨ يوقظ الحياء الإيماني، والجزء ١٩ يوقظ الخوف الوجودي من سوء المصير: فسورة النور توقظ الحياء، والستر، والغيرة على الطهارة، والانتباه للكلمة والنظرة والخطوة، ثم الجزء ١٩ ينقل القلب إلى يوم الحسرة والنَّدم، وإلى مشاهد ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ و﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾، فيجتمع في القلب حياء الطاعة وخوف العاقبة.

٤) الجزء ١٨ يُربِّي وجدان الانتماء للمؤمنين وللبيئة الطاهرة، والجزء ١٩ يُربِّي وجدان الغربة والثبات إذا فسد المحيط: في الجزء ١٨ تشعر أنك داخل بيت الإيمان: بيوت مرفوعة، رجال لا تلهيهم تجارة، مؤمنون يقولون سمعنا وأطعنا، وفي الجزء ١٩ تُؤخذ إلى عالم الرُّسل مع الأقوام المكذبة، فتتعلم كيف يثبت المؤمن ولو صار غريباً، وكيف يكون الحق حقاً ولو استهزأ به الناس.

٥) الجزء ١٨ يُعلّمك أن الطاعة نور، والجزء ١٩ يُعلّمك أن الصبر على هذا النور هو ثمن النجاة: ففي الجزء ١٨ تُحب الطاعة لأنها زكاة ونور وفلاح، وفي الجزء ١٩ ترى عباد الرَّحمن وقد وصلوا إلى الغرفة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، وترى السَّحرة يقولون ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وترى موسى عليه السَّلام يقول ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فينتقل الوجدان من حُبِّ الطَّاعة إلى الاستعداد لتحمل تبعاتها.

٦) الجزء ١٨ يفتح القلب على نور الله، والجزء ١٩ يختبر: هل تريد هذا النور فعلاً أم تريد ما يوافق نفسك؟ وهذا هو أعمق ترابط وجداني بينهما؛ فالجزء ١٨ يجعلك ترى الجمال الإيماني، والجزء ١٩ يواجهك بامتحان الإرادة: هل ستسجد للرَّحمن إذا قيل لك اسجدوا؟ هل ستقول سمعنا وأطعنا، أم ستقول كما قال المكذبون:

﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾، أو كما قالوا عن الحق: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؟

خلاصة جامعة

١) الجزء الثامن عشر يصنع القابلية للهداية، والجزء التاسع عشر يختبر صدق هذه القابلية حين يشتدّ الامتحان.. فالجزء ١٨ يُعلّمك كيف يكون المؤمن في نفسه وبيته ومجتمعه، ويُعرّفك بنور الله الذي يزكي القلب، ثم يأتي الجزء ١٩ ليقول لك: هذا النور لا يكفي أن تُعجب به، بل لا بد أن تصبر عليه، وتخضع له، وتقاتل هواك من أجله، وإلَّا تحوّل الوضوح نفسه إلى حجة عليك لا لك.

٢) ومن هنا فالعلاقة بين الجزأين ليست علاقة انتقالٍ في ترتيب المصحف فقط، بل علاقة تربية متكاملة:

- من بناء الفلاح والنور والطاعة،
- إلى كشف الامتحان والتمييز والعاقبة..

فمن خرج من الجزء ١٨ معجباً بجمال الإيمان، ثم دخل الجزء ١٩ مستعداً لدفع ثمنه، فقد أمسك بالخيط الحقيقي بينهما.

الجزء العشرون: ليس الإيمان كلمة... بل طريقٌ من الفتنة حتى التمكين

المدخل التأسيسي للجزء العشرون

سورة النَّمل:

يبدأ المشهد هنا من صدمةٍ أخلاقية تكشف كيف يمكن أن تنقلب الموازين في قلب الإنسان حين ينفصل عن هداية الله؛ فقوم لوط لم يردّوا على نداء الفطرة بالحجة ولا على دعوة النبي بالحوار، بل كان جوابهم أن يُقصوا الطَّاهرين لأن الطَّهارة نفسها صارت تُحرج انحرافهم، فقالوا ساخرين: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وهنا يكشف القرآن سُنّةً متكررة في التاريخ: حين يفسد المجتمع كثيراً لا يرى في الصلاح قدوةً بل تهديداً، فيتحول الصالح في نظر الفاسدين إلى مشكلة يجب التخلص منها، لكن ميزان الله تعالى لا يتغير؛ فحين يبلغ الانحراف مداه يأتي الفصل الإلهي الذي يميز بين الطاهرين والمفسدين، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾، فلا تنفع القربى حين يغيب الإيمان، ولا يحمي الانتماء حين يختار القلب طريق الفساد.

ومن هذا المشهد ينتقل القرآن انتقالاً بديعاً من قصة الهلاك إلى تأسيس ميزان التوحيد، فيأمر النبي أن يرفع الحمد لله الذي يصطفي عباده ويهديهم، ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾، ثم يضع السؤال الذي يهدم كل أوهام الشرك: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وكأنَّ القرآن يقول للقلب: **إن أردت أن تفهم لماذا يضل الناس ولماذا يهلكون فارجع إلى أصل القضية كلها، قضية الألوهية والتوحيد.**

ولهذا يبدأ القرآن سلسلة من الأسئلة التي لا تطلب جواباً لفظياً بقدر ما

توقظ الفطرة لتجيب بنفسها؛ من الذي خلق هذا الكون العظيم وأدار نظامه الدقيق؟ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾، فالجمال الذي يراه الإنسان في الأرض ليس من صنعه بل من تدبير خالقه، ثم ينتقل السؤال إلى استقرار الحياة نفسها على هذه الأرض: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾، ثم إلى اللحظة التي ينكسر فيها الإنسان حين تضيق به الدنيا فلا يجد ملجأً إلا ربه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، ثم إلى هداية الإنسان في أسفاره ومخاطره حين تضيع الطرق وتشتد الظلمات: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، ثم إلى سرّ الوجود نفسه من بدايته إلى نهايته: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، ومع كل سؤال يتكرر التحدي الذي يهدم الشرك من أساسه: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، وكأن القرآن يفتح للإنسان أبواب الكون كلها ثم يقول له في هدوء: إن كان هناك إله غير الله فهاتوا برهانكم.

وحين يثبت التوحيد يضع القرآن حداً لوهمٍ آخر طالما ضلّت به الأمم، وهو ادعاء علم الغيب، فيقرر الحقيقة التي لا تتغير: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، فالمستقبل الذي يجادل فيه المكذبون ويشككون في البعث ليس مجالاً لتخمين البشر، ولذلك يكشف القرآن حالهم: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾، فهم يسخرون من الوعد بالبعث ويقولون: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾، ويردّدون دعوى الأمم السابقة: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

لكن القرآن لا يكتفي بالجدال النظري، بل يوجّههم إلى كتاب التاريخ المفتوح أمام أعينهم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾،

فالأرض مليئة بآثار أممٍ ظنت أن قوتها تمنعها من الحساب، ثم صارت قصصها عبرةً لمن يعقل، ومع ذلك لا يترك القرآن قلب النبي في ضيق من مكرهم فيقول له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، لأن وعد الله آتٍ ولو استعجله الناس ساخرين: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، فيأتي الرد الهادئ الواثق: ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾، قُلْ لعلَّ بعضَ العذاب الذي تستعجلونه قد اقترب منكم وأصبح خلفكم قريباً من الوقوع.

ثم يكشف القرآن جانباً آخر من عدل الله ورحمته معاً؛ فمع أن أكثر الناس لا يشكرون إلَّا أن ربهم ذو فضل عليهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وهو سبحانه يعلم سرائرهم قبل علانيتهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، فلا يغيب عنه شيء في هذا الكون الواسع: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

ومن هنا يعود القرآن إلى رسالته الأساسية؛ فهو ليس مجرد رواية للتاريخ بل كتاب هداية يحسم النزاع ويكشف الحق، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم يُطمئن قلب الداعية بأن الحكم في النهاية لله وحده: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، ولهذا يكون الموقف الطبيعي لمن عرف الحق هو التوكل عليه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾.

لكن القرآن يذكّر بحقيقة مؤلمة في طريق الدعوة، وهي أن القلوب إذا أغلقت أبوابها لا ينفع معها البيان، ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾، فالهداية ليست مجرد سماعٍ للألفاظ بل استعداد في القلب لقبول الحق، ولذلك لا ينتفع بالآيات إلا من آمن بها.

ثم يفتح القرآن نافذة على مشهدٍ من مشاهد الساعة حين تنتهي مرحلة الاختيار ويبدأ ظهور الآيات الكبرى، ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، ثم ينتقل إلى يوم الحشر حين يجتمع المكذبون ليواجهوا السؤال الذي هربوا منه في الدنيا: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فيصمتون لأن الحقيقة ظهرت ولا مجال للجدال.

وفي مقابل هذا المصير يُذكّر القرآن بآيات الله التي تحيط بالإنسان في كل يوم؛ فالليل للسُّكون والنهار للحركة، ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾، ثم ينتقل إلى المشهد الأعظم يوم ينفخ في الصُّور فتفزع الخلائق، ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ﴾، حتى الجبال التي يظنها الناس ثابتة تمر يومئذٍ مرَّ السحاب في مشهدٍ يكشف قدرة الله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وعند ذلك يتمايز الناس بحسب أعمالهم؛ فمن جاء بالحسنة وجد فضل الله وأمنه يوم الفزع، ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾، ومن جاء بالسَّيئة واجه عدل الله: ﴿وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وفي ختام هذا البناء يعلن النبي حقيقة رسالته في كلماتٍ واضحة تجمع التوحيد والعبودية والبلاغ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضَلَّ فليس على الرسول إلا البلاغ، ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

ثم يختم القرآن هذا المقطع بخاتمة تذكّر بأن آيات الله لا تزال تتكشف للناس

في الكون وفي التاريخ وفي المصائر حتى يعرفوا الحق، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، فالله تعالى ليس بغافلٍ عن أعمال عباده، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وبذلك تعود الرحلة إلى أصلها الأول: توحيد الله، وتصحيح ميزان الإنسان، وتذكيره بأن الكون كله آياتٌ تشير إلى ربٍ واحدٍ له الخلق والأمر وإليه المصير.

سورة القصص

تبدأ سورة القصص هنا لا بوصفِ حدثٍ عابرٍ من الماضي، بل بكشفِ سُنّةٍ ربانيةٍ تتكرر كلما علا الباطل وتجبر؛ فالمشهد الأول ليس مجرد فرعون طاغية، بل نموذجٌ متكرر لكل قوةٍ إذا انفصلت عن الله واستندت إلى وهم السيطرة، فتعالت في الأرض، ومزقت الناس شيعاً، واستضعفت من شاءت، وسفكت الدماء لتحمي عرشها، حتى بدا للمشهد الأرضي أن الباطل قد أحكم قبضته، ولكن القرآن من أول لحظة لا يترك القلب أسير هذا المنظر، بل يفتحه على الإرادة العليا التي لا يقف في وجهها جبار: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، فكأنَّ السورة تضع منذ بدايتها الميزان الصحيح: ما يراه الناس هيمنةً نهائية ليس إلا مرحلةً في طريقٍ قدّر الله له خاتمةً أخرى، وما يراه المستضعفون انسداداً قد يكون في علم الله أول التمكين.

ثم تمضي السورة لتُعلّم القلب كيف يعمل قدر الله في أكثر اللحظات التي تبدو للإنسان تناقضاً مع ظاهر النجاة؛ فأمُّ موسى لا تُؤمر فقط أن تصبر، بل أن تفعل ما تهتز له الفطرة من شدته: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، وكأن السورة تريد أن ترسخ من أول الطريق أن النجاة ليست دائماً فيما ترتاح له النفس، وأن الأخذ بأمر الله قد يأتي أحياناً في صورةٍ تبدو في ظاهر الحسّ إلقاءً في الخطر، بينما هي في الحقيقة عبورٌ إلى الحفظ، ولهذا قرن الله الأمر بما يسكّن القلب: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فالوعد

هنا لا يزيل الألم البشري من أصله، لكنه يربط القلب بحقيقةٍ أعلى من ارتجاف اللحظة.

ثم ترى كيف يعمل القدر في قلب بيت الطاغية نفسه؛ فالذي قتل أبناء الناس خوفاً على ملكه يلتقط بيده من سيكون هلاك ملكه على يديه، ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾، وهنا يتعلم القلب أن تدبير البشر مهما بدا محكماً يظل داخل تدبير الله لا خارجه، وأن أعتى الخطط قد تتحول دون شعور أصحابها إلى تنفيذٍ لمشيئة الله التي لا يملكون دفعها، ثم تزداد الرحمة ظهوراً حين يربط الله على قلب الأم، ويمنع الرضيع من المراضع، ثم يرده إلى صدر أمه ليتم الوعد: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، فكأنَّ السورة تقول: ليس المقصود مجرد رد الطفل إلى أُمِّه، بل تعليم القلوب كلها أنَّ وعد الله لا يضيع في أشد مواضع الاضطراب.

ثم تنقلك الآيات من طور الحفظ إلى طور التربية؛ فموسى عليه السَّلام الذي حفظه الله في طفولته لا يتركه بلا إعداد، بل يبلغه أشده ويؤتيه حُكماً وعلماً، ثم يقع منه ما يقع من البشر حين تتداخل الحميّة مع العجلة، فيقضي على الرجل بوكزة، وهنا تتجلى عظمة المنهج القرآني في عرض سيرة الأنبياء؛ فهو لا يعرضهم في صورةٍ موهومةٍ منفصلة عن حقيقة البشرية، بل يُعلِّمك أن الكمال ليس في ألا يقع العبد في خطأ، وإنما في سرعة رجوعه وصدقه في التوبة واستقامته بعد العثرة، ولذلك لم يبرر موسى عليه السَّلام لنفسه، بل قال مباشرة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، ثم ربط المغفرة بعهدٍ عملي: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، فكأنَّ التوبة في السورة ليست دمعةً عابرة، بل وعيٌ جديد ومسارٌ جديد.

ثم يدخل موسى عليه السَّلام مرحلة الخوف والمطاردة والخروج من الوطن، فيخرج ﴿خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾، لكن السورة لا تترك هذه الحال معلقةً في الفراغ، بل

تربطها بالدعاء والهداية، ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ثم ﴿عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾، وكأنها تربي القلب على أن الطريق حين يضيع في الأرض لا يضيع على من يتجه إلى الله، وأن الإنسان قد يخرج من مألوفه مطارداً، لكنه إذا صحّ توجهه كان خروجه بداية بناءٍ جديد لا مجرد هروب.

حين يضيق الأفق بالإنسان، ويجد نفسه فجأة خارج الأرض التي نشأ فيها، بلا مأوى ولا سند ولا خطة واضحة لما سيأتي بعد ذلك، يبدأ القلب بالبحث عن أول خيط من الهداية يمسك به طريقه في هذه الدنيا. هكذا خرج موسى عليه السَّلام من مصر مطارداً بعد حادثة لم يكن يقصد بها القتل، فوجد نفسه في صحراء واسعة لا يعرف فيها أحداً ولا يعرفه فيها أحد، طريقٌ طويل لا دليل فيه إلا رجاء القلب في هداية الله، ولهذا كان أول ما نطق به لسانه حين اتجه نحو أرض مدين ليس دعاءً بطلب رزق ولا أمان، بل دعاء الهداية قبل كل شيء، لأن من هداه الله إلى الطريق الصحيح فقد أُعطي مفتاح النجاة قبل أن تأتي بقية الأبواب، فقال وهو يسير في أرضٍ مجهولة لا يعرف نهاياتها ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، وكأنَّ القلب هنا يعلن قاعدةً كبرى في حياة المؤمن: أن الطريق حين يضيع على العبد فإن أول ما ينبغي أن يسأل الله هو الهداية، لأن الرزق والأمان والفرج كلها تأتي بعد أن يعرف الإنسان أين يمضي.

ويمضي موسى عليه السَّلام في رحلته حتى يصل إلى مورد الماء في مدين، وهناك يبدأ مشهد الحياة البشرية المعتادة: أناس كثيرون يسقون أنعامهم، حركة يومية يعرفها أهل تلك البلاد، لكنه في وسط هذا المشهد يرى شيئاً يلفت النظر؛ امرأتين تقفان بعيداً عن الزحام تمنعان غنمهما من الاقتراب من الماء، لا تدفعان، ولا تزاحمان، ولا تتقدمان مع الناس، فيسأل موسى عليه السَّلام سؤالاً مباشراً يحمل روح النجدة الفطرية: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، فيأتي الجواب كاشفاً عن وضع اجتماعي بسيط لكنه عميق الدلالة: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، فهما لا تزاحمان الرجال حياءً، ولا يستطيع أبوهما أن يقوم بالمهمة لأنه شيخ كبير، فكان عليهما أن تنتظرا حتى يفرغ الناس.

وهنا يظهر خلق الأنبياء الذي لا ينتظر المقابل ولا يطلب التعريف بنفسه؛ موسى عليه السَّلام غريب في هذه البلاد، متعب من السفر، بلا مال ولا مأوى، ومع ذلك لم يقف يحلل الموقف طويلاً، بل بادر إلى الفعل فوراً، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾، كلمة قصيرة في القرآن لكنها تحمل فعلاً كاملاً من الشَّهامة والنجدة، ثم بعد أن انتهى من مساعدتهما لم يقف ينتظر شكراً، ولم يحاول أن يفتح حديثاً، بل رجع إلى ظلٍ قريب وجلس هناك وحده، وكأنَّ العمل الصالح عند المؤمن ليس استثماراً اجتماعياً بل عبادة صامتة بينه وبين ربه، ولذلك لم يلتفت إلى الناس بعد ذلك بل التفت إلى الله مباشرة وقال في خضوع صادق يختصر حال الإنسان كله أمام ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، فهو لا يحدد نوع الخير، ولا يشترط صورة معينة للعطاء، بل يعلن فقره المطلق لكل ما ينزله الله تعالى عليه.

وهنا يبدأ الفرج الذي لا يتوقعه الإنسان حين يعمل الخير خالصاً لله؛ فالقرآن يرسم المشهد التالي بدقة تربوية لافتة، إذ تأتي إحدى المرأتين نحوه ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، وهذه العبارة القصيرة تصف خلقاً كاملاً في حركة واحدة: مشية تحفظ الحياء ولا تسقط الوقار، ثم تنقل إليه دعوة أبيها بطريقة واضحة خالية من الإطالة: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وكأنَّ القرآن يربط هنا بين العمل الصالح وبين الأرزاق التي يفتحها الله للعبد من حيث لا يحتسب.

ويمضي موسى عليه السَّلام مع هذه الدعوة إلى بيت الرجل الصالح، وهناك يقصُّ عليه ما جرى معه من بداية الحادثة إلى خروجه من مصر، فيطمئنه الرجل بكلمة تختصر مرحلة كاملة من الخوف والقلق: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فيتحول الغريب المطارد فجأة إلى إنسان وجد مأوى وكلمة أمان في

أرض لم يعرفها من قبل... وفي داخل هذا البيت الهادئ تنطق إحدى البنتين بكلمة ستبقى قاعدة خالدة في اختيار الرجال للأعمال والمسؤوليات، كلمة لا تتحدث عن النسب ولا الشكل ولا الشُّهرة، بل عن معيارين يجمعان جوهر الكفاءة والأخلاق معاً: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، فالقوة بلا أمانة قد تتحول إلى ظلم، والأمانة بلا قوة قد تعجز عن حمل المسؤولية، أما اجتماع القوة والأمانة فهو الميزان الذي يستقيم به العمل في الأرض.

وهكذا تتكامل هذه الآيات كرحلة واحدة تبدأ بخطوة إنسان خرج من أرضه لا يملك إلا رجاء الهداية ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، ثم تنتقل إلى مشهد الرحمة بالناس في لحظة حاجة ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾، ثم إلى صدق الفقر بين يدي الله ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ثم إلى الفرج الذي يفتحه الله بعد العمل الصالح، ثم إلى الميزان الذي تُبنى عليه العلاقات والأعمال في الحياة ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، وكأنَّ القرآن يريد أن يقول إن الطريق الذي يبدأ بطلب الهداية، ويمضي بخدمة الناس، ويُتوَّج بالافتقار إلى الله، هو الطريق الذي يقود في النهاية إلى الاستقرار والطمأنينة وفتح الأبواب التي لم يكن العبد يتوقعها.

حين تستقر حياة الإنسان بعد خوفٍ واضطراب، يظن أن رحلته قد هدأت وأن قدر الله تعالى قد وصل به إلى محطة السُّكون، لكن تدبير الله للعباد أعمق من ذلك؛ فالله تعالى لا يقود أولياءه إلى الاستقرار ليبقى بهم هناك، بل ليُهيِّئهم لما هو أعظم... وهكذا ينتقل القرآن في قصة موسى عليه السَّلام من مشهد الغريب الذي وجد مأوى في مدين إلى مشهد رجلٍ أصبح جزءاً من بيتٍ صالحٍ كريم، إذ قال له ذلك الرجل الصالح بوضوحٍ وصدقٍ في عرضٍ يجمع بين المروءة والعدل: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ

حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، عرضٌ لا يقوم على الغموض ولا على المساومة الخفية، بل على الوضوح والرحمة معاً؛ عملٌ معلوم، وأجلٌ محدد، وخيارٌ مفتوح بين الثمان والعشر، ثم وعدٌ أخلاقي يسبق العقد كله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾، وكأنَّ القرآن هنا يضع ميزاناً من أنقى موازين المعاملة في الحياة: الوضوح في الاتفاق، والرحمة في الشروط، والصدق في النِّيَّة.

فيقبل موسى عليه السَّلام هذا العرض بطمأنينة الرجل الذي وجد في هذا البيت صدقاً وعدلاً، فيقول في جوابٍ مختصرٍ حاسم: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، فيتحول الاتفاق بينهما إلى عهدٍ محفوظٍ بالله، لا إلى مجرد كلامٍ بين بشر، لأن استشعار نظر الله تعالى في العقود يجعلها أماناتٍ لا مجال فيها للمخادعة أو التلاعب.

وتمضي السَّنوات التي قضاها موسى عليه السَّلام في مدين، سنوات العمل والهدوء وبناء الحياة، حتى إذا اكتملت المدة التي التزم بها القرآن يختصر هذه المرحلة الطويلة بكلمات قليلة لكنها عميقة الدلالة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾، وكأنَّ تلك السنوات كانت إعداداً هادئاً لرجلٍ سيخرج بعدها إلى قدرٍ أكبر بكثير من حياة الراعي والأسرة، إذ يسير موسى بأهله في ليلةٍ باردة فيرى ناراً من جانب الطور فيقول لأهله مطمئناً: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، ظنَّ أنها نار مسافرٍ أو موقدٍ في طريقٍ مظلم، لكنه لم يكن يعلم أن تلك النار ليست ناراً عادية، بل بداية اللقاء الأعظم في حياته.

فحين وصل إليها تبدّل المشهد كله، إذ جاءه النداء الذي يفتح صفحة جديدة في تاريخ الرسالة: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، لحظةٌ ينتقل فيها

الإنسان من حياة البشر العادية إلى مقام التكليف الإلهي، حيث يخاطبه رب العالمين مباشرة ويبدأ بإظهار البرهان الذي سيحمله إلى الناس، فيؤمر أن يلقي عصاه، ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾، فإذا بها تتحول أمام عينيه إلى حركةٍ حيةٍ سريعة ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، فالفطرة البشرية تبقى بشرية حتى في قلب النبي، فيأتيه النداء يُسكّن خوفه: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾.

ثم يُعطى آيةً أخرى تُظهر قدرة الله أمام فرعون وقومه: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾، فتجتمع له آيتان واضحتان ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾، وهنا يتضح أن تلك الرحلة الطويلة منذ خروجه من مصر لم تكن هروباً عابراً، بل إعداداً إلهياً ليعود مرة أخرى إلى نفس الأرض التي خرج منها، لكن هذه المرة رسولاً يحمل رسالة الله سبحانه وتعالى.

ومع ذلك فإن موسى عليه السَّلام لا يتكلم بثقة المتكبرين، بل بصدق الإنسان الذي يعرف ماضيه ويستحضر ضعفه، فيقول لربه بصراحة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، ثم يطلب عوناً بشرياً يقوّي مهمته: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، فيأتي الجواب الإلهي الذي يبدد هذا القلق ويمنح الرسالة سندها الكامل: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

وهكذا تتكامل هذه الآيات كمرحلة جديدة من الرحلة التي بدأها موسى عليه السَّلام قبل سنوات طويلة: من بيتٍ صالحٍ أقامه على الصدق والعمل، إلى طريقٍ مظلمٍ يبحث فيه عن نارٍ للتدفئة، إلى نداءٍ سماوي يكلّفه بمواجهة أعظم طاغية في زمانه، وكأنَّ القرآن يكشف من خلال هذا التدرج أن حياة المؤمن قد

تبدو أحياناً سلسلة من الأحداث العادية، لكن الله تعالى ينسج من تلك الأحداث إعداداً طويلاً لقدرٍ أعظم لا يراه الإنسان إلا حين يأتي أوانه.

حين يخرج الحق إلى الناس واضحاً جليّاً، لا يبقى السؤال الحقيقي: هل الدليل موجود أم لا، بل يتحول السؤال إلى شيء آخر أعمق في قلب الإنسان: هل القلب مستعد أن يخضع للحق إذا ظهر؟ فحين جاء موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه بعد ذلك اللقاء العظيم عند الطور، لم يأتهم برأيٍ بشري ولا بفكرةٍ فلسفية ولا بدعوةٍ غامضة، بل جاءهم بآياتٍ واضحة تحمل برهانها في ذاتها، ولهذا عبّر القرآن عنها بقوله ﴿فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾، أي دلائل ظاهرة لا لبس فيها، لكن المشكلة لم تكن في وضوح الآيات، بل في قلوبٍ قررت مسبقاً أن ترفض، ولذلك لم يبحثوا عن فهم الرسالة بل لجؤوا إلى الاتهام السريع الذي تلجأ إليه النفوس حين تضيق بالحقيقة فقالوا ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾، ثم أضافوا حجةً أُخرى يكررها التاريخ كلما واجهت الأمم دعوة الإصلاح: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، وكأنَّ الحق يُقاس عندهم لا ببرهانه بل بعادة الآباء.

وهنا يظهر الفرق العميق بين موقف المتكبر الذي يقيس الأمور بسلطان العادة، وبين موقف النبي الذي يرد الأمر إلى علم الله وحكمه، فلم يدخل موسى عليه السَّلام في جدلٍ طويل مع عنادهم، بل رد القضية كلها إلى الميزان الأعلى فقال ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، فكأن الرسالة هنا تقول إن الحقيقة لا تحتاج إلى ضجيج المدافعين عنها، بل يكفي أن توضع في ميزان الله الذي يعلم من جاء بالهدى ومن اختار طريق الظلم.

لكن فرعون لم يكن مجرد إنسانٍ يرفض دعوةً دينية، بل كان طاغيةً يرى في هذه الدعوة تهديداً لسلطانه، ولذلك لم يكتف بالإنكار بل انتقل إلى خطابٍ

سياسي يستعرض فيه سلطته أمام الناس فقال متعالياً ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، كلمة تكشف جوهر الطغيان حين يتحول الحاكم من مدبّرٍ لشؤون الناس إلى مدّعٍ للسلطة المطلقة على عقولهم وعبادتهم، ثم يمضي في سخريةٍ ظاهرها الاستهزاء وباطنها محاولة تثبيت سلطانه فيقول ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فيصوّر نفسه كأنه يبحث عن الحقيقة بينما هو في الواقع يسخر منها أمام قومه.

ويكشف القرآن خلف هذا المشهد العلني حقيقةً أعمق في باطن القلوب فيقول ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، فالمشكلة لم تكن مجرد خطأ فكري بل استكباراً متجذراً في النفوس، استكباراً جعلهم يظنون أن قوتهم وسلطانهم يمنحهم حصانة من الحساب، ولهذا قال تعالى ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾، وهذا الظَّنُّ هو أصل كل طغيان في الأرض؛ أن يعيش الإنسان وكأن لا يوم يقف فيه بين يدي الله تعالى.

لكن القرآن لا يترك هذا المشهد عند حدود الطغيان الظاهر، بل ينتقل مباشرة إلى النهاية التي تنتظر كل ظلم مهما طال أمده، فيقول بكلمات قليلة تهدم جبروت السِّنين كلها ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾، فلا حصونهم ولا جيوشهم ولا صروحهم التي أرادوا بها هذا التحدي استطاعت أن تمنع حكم الله تعالى حين جاء، ثم يلتفت القرآن إلى القارئ وكأنه يدعوه إلى التأمل في هذا المصير فيقول ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، لأن التاريخ في القرآن ليس حكايةً للتسلية بل مرآةً يرى فيها الإنسان مصير الطريق الذي يسلكه.

ثم يكشف القرآن بعد ذلك أثر هذا الطغيان الذي لم يقف عند حدود الدنيا، بل امتد أثره في مصير الآخرة أيضاً، فيقول ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، أي قادةً في طريق الضَّلال، يتبعهم الناس في الدنيا كما يتبعونهم في

المصير يوم القيامة، ولهذا قال ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، فلا جند هناك ولا سلطان، ثم يبين أن لعنة هذا الطريق لم تقتصر على الآخرة بل لاحقتهم حتى في ذاكرة التاريخ فقال ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾، لأن ذكر الظالمين يبقى عبر العصور مقروناً بالذَّم، ثم يكون ختام المصير في الآخرة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

وبعد أن يطوي القرآن صفحة هذا الطغيان وما انتهى إليه، يفتح صفحةً أخرى من الرحمة الإلهية التي لا تترك البشرية بلا نور بعد كل مرحلة من مراحل الهلاك، فيقول ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾، وكأنَّ الرسالات تأتي دائماً بعد أن ترى البشرية نتائج الظلم والطغيان، لتكون هدايةً واضحة للناس، ولهذا وصف القرآن هذا الكتاب بأنه ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، بصائر تفتح العيون على الحقائق، وهدى يرشد الطريق، ورحمة تمتد لمن أراد أن يتذكر ويتعظ، ولذلك ختمت الآية بالغاية التي لأجلها تنزل الكتب وتقام الحجة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، لأن المشكلة في النهاية ليست في غياب الدليل، بل في قلبٍ يختار أن يتذكر حين يرى الحق.

حين يقرأ الإنسان قصص القرآن قد يظن لأول وهلة أنها حكايات عن أممٍ مضت، لكن القرآن لا يروي التاريخ لمجرد التذكير بالماضي، بل ليكشف أن ما يرويه هو علمٌ من عند الله لا سبيل للبشر إلى معرفته إلا بالوحي.. ولهذا ينتقل الخطاب فجأة من الحديث عن موسى وفرعون إلى خطابٍ مباشر للنبي ﷺ يضع هذا المعنى في قلب القصة كلها، فيقول الله له ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، فلم يكن حاضراً تلك اللحظات التي كلّم الله تعالى فيها موسى عليه السَّلام عند الطور، ولم يكن من الذين شهدوا تلك الوقائع، ثم يؤكد المعنى مرة أخرى ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، أي لم تعش بينهم حتى تعرف تفاصيل حياتهم، ولم

تتعلم منهم هذه الأخبار، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾، فهذه المعرفة ليست رواية بشرية بل وحيٌ من الله تعالى، ولذلك يختم هذا التذكير بقوله ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فالرسالة ليست مجرد علمٍ يُنقل، بل رحمةٌ تُرسل إلى قلوبٍ تحتاج إلى من يوقظها.

لكن القرآن يكشف أيضاً أن المشكلة في كثير من الأحيان ليست في غياب الإنذار، بل في الإنسان نفسه حين يختار أن يؤجل الاستجابة حتى يقع عليه البلاء، ولذلك يقول ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فكأنَّ الله تعالى يقطع الحجة قبل وقوعها؛ أرسل الرسالة قبل أن يأتي العذاب، حتى لا يقول أحد يوم البلاء إن الطريق لم يكن واضحاً.

ومع ذلك فإن النفس التي لا تريد الحق لا تتوقف عند عذرٍ واحد، فإذا جاءها البرهان طلبت برهاناً آخر، ولهذا لما جاءهم الحق قالوا ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾، يطلبون معجزاتٍ مثل التي ظهرت في زمن موسى عليه السَّلام، مع أنهم في الوقت نفسه كفروا بما أوتي موسى من قبل فقالوا ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي يتعاونان في التأثير، ثم ختموا موقفهم بكلمة تكشف حقيقة القضية كلها ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾، فالمشكلة ليست في نوع الدليل بل في رفض المبدأ نفسه.

ولهذا يأتي التحدي القرآني واضحاً ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، فإن لم يستطيعوا — ولن يستطيعوا — فالحقيقة تنكشف بلا جدل، ولذلك يقول ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، لأن الهوى حين يصبح قائداً للإنسان لا يعود يبحث عن الهداية بل عن مبرراتٍ تبرر له رفضها، ولهذا يقرر القرآن القاعدة الحاسمة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ومع ذلك فإن الوحي لا يترك الناس أمام كلمة واحدة، بل يكرر البيان ويصل القول بعضه ببعض حتى تقوم الحجة من كل جانب، ولهذا قال ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فالوحي يتتابع والآيات تتكرر لعل القلب يستيقظ... ومن العجيب أن الذين عرفوا الكتب السابقة حق المعرفة كانوا أول من أدرك صدق هذا القرآن، ولذلك قال تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾، لأن المعرفة الصادقة تقود صاحبها إلى الحق أينما ظهر، ولهذا إذا سمعوا القرآن قالوا بوضوح ﴿آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾، وهؤلاء يصفهم القرآن بصفاتٍ تكشف حقيقة الإيمان في حياتهم ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ لأنهم صبروا على الحق قبل ظهوره وبعده، ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ فلا يقابلون الجهل بالجهل، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيرون في المال وسيلة للخير لا غاية في ذاته، وإذا سمعوا الكلام الباطل أعرضوا عنه وقالوا ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

ومع كل هذا البيان يبقى أمر الهداية في النهاية بيد الله وحده، ولذلك يقال للنبي ﷺ الذي كان يحب هداية قومه حباً صادقاً ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، فالرسول يبلغ ويبين، أما فتح القلوب فهو بيد الله سبحانه وتعالى.

ثم يكشف القرآن أحد أعذار الناس حين يخافون من اتباع الحق، فيقولون ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾، يخافون أن يضيع أمنهم أو مصالحهم إن التزموا بالحق، فيرد القرآن بتذكيرهم بالنِّعم التي يعيشون فيها ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِّن لَّدُنَّا﴾، لكن أكثرهم لا ينظر إلى النِّعمة بل إلى الخوف الذي يتخيله.

ويُذكّرهم القرآن بأن التاريخ مليء بأممٍ غرّتها النِّعمة حتى بغت وطغت، ثم

انتهت إلى الخراب فقال ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي أفسدها الترف والغفلة، فصارت بيوتها بعد ذلك عبرةً للناظرين ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾، لأن الملك الحقيقي في النهاية لله وحده.

ثم يقرر القرآن قاعدة العدل الإلهي في مصير الأمم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ فلا عذاب قبل البيان، ولا هلاك قبل إقامة الحجة، ولهذا قال ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

وبعد كل هذا البيان يعيد القرآن ترتيب ميزان الحياة كله بكلمة جامعة ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾، متاعٌ مؤقت مهما بدا عظيماً، أما ما عند الله فهو الحقيقة الباقية ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، فهل يعقل الإنسان هذا الفرق؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثم يرسم القرآن مشهد المفاضلة الحقيقية: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي وعد الآخرة، ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ثم ينتهي به الأمر يوم القيامة إلى الحساب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

ويمضي القرآن إلى مشهد القيامة حين ينادى المشركون ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فيتبرأ قادة الضلال من أتباعهم ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾، ثم يُطلب منهم أن يدعوا شركاءهم فلا يجدون جواباً ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾، فتتكشف الحقيقة متأخرة بعد أن ضاع زمن الاختيار.

ثم يطرح السؤال الذي يختصر حياة الإنسان كلها ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾، وحينها يعجز الناس عن الجواب ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، إلا أن باب الرَّحمة يبقى مفتوحاً لمن عاد قبل ذلك اليوم ﴿فَأَمَّا مَن

تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾... ثم يختم القرآن هذا المقطع بتقرير أصل التوحيد كله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾، فالله هو الخالق المختار، يعلم ما تخفي الصدور وما تعلن، ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ثم يذكّر الإنسان بآيات الكون القريبة منه في الليل والنهار، وأن هذا النظام الدقيق رحمة من الله ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وفي ختام السورة يجيء مثال قارون ليكشف أن المال قد يكون امتحاناً كفرعون في السلطان، فقد أعطي من الكنوز ما تثقل مفاتحه العصبة من الرجال، ومع ذلك قال متكبراً ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، فنسي فضل الله، فكان مصيره أن خسف الله به وبداره الأرض، حتى قال الذين كانوا يتمنون مكانه بالأمس ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾.

وهكذا تختم السورة بميزانٍ جامع: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثم يوجّه الخطاب للنبي ﷺ تثبيتاً لقلبه ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، ويُختم الطريق كله بكلمة التوحيد التي تختصر رحلة الإنسان في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

لماذا سُمّيت سورة القصص بهذا الاسم؟ حين يتحوّل التاريخ إلى مرآةٍ للقلب

ليس اختيار أسماء السور في القرآن أمراً عارضاً، ولا تسميةً لغويةً مجردة، بل هي جزءٌ من الرسالة التربوية التي يريد الله أن يوقظ بها قلب القارئ، لأن القرآن لا يروي القصص للتسلية ولا للتاريخ، وإنما يرويها ليعيد بناء وعي الإنسان بالله وبالسُّنن التي تحكم هذا الكون.. ولهذا سُمِّيت هذه السورة باسم القصص لا لأن

فيها قصة موسى عليه السَّلام فقط، بل لأن السورة كلها قائمة على كشف سُنّةٍ عظيمة من سُنن الله في الحياة: أن الله هو الذي يقصّ عليك الحقيقة كما هي، لا كما يُزيّنها الظالمون أو يكتبها المنتصرون في كتب التاريخ.

تأمّل افتتاح السورة جيداً، فالله يقول لنبيّه ﷺ: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فالقصة هنا ليست روايةً بشريةً يداخلها الظَّنّ أو التهويل، بل هي قصٌّ إلهيٌّ بالحق، يكشف ما وراء الأحداث، ويُظهر كيف يعمل قدر الله في قلب التاريخ حتى حين يبدو الظلم منتصراً والضعف مهزوماً.

ومن هنا يظهر سرّ الاسم؛ فالسورة لا تعرض قصةً واحدة فقط، بل تعرض سلسلةً من المشاهد التي تبدو متفرقة لكنها في الحقيقة خيوطٌ لقصةٍ واحدة يُدبّرها الله تعالى بقدرته:

١. طفلٌ يُلقى في اليم خوفاً من بطش فرعون، فإذا به يُربّى في قصر الطاغية نفسه؛

٢. وأمٌّ يعتصر قلبها من الخوف فيُطمئنها الله بوعدٍ عجيب ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾؛

٣. ورجلٌ يخرج من مصر خائفاً يترقب، فإذا به يعود إليها رسولاً يحمل رسالة الله؛

٤. ثم يُختم المشهد بقصة قارون الذي ظنّ أن المال يصنع المجد، فإذا بالأرض تبتلعه في لحظة.

وكأنَّ السورة كلها تقول للإنسان: إن ما تراه من أحداث الدنيا ليس فوضى، بل هو قصةٌ يُجريها الله بحكمته، والإنسان لا يفهمها حقاً إلَّا إذا نظر إليها بعين الإيمان... فالظالم قد يبدو قوياً في لحظةٍ من التاريخ، لكن القصة لم تنته بعد، والضعيف قد يبدو مهزوماً، لكن الله تعالى يكتب له فصولاً أخرى لم تُفتح صفحاتها بعد.

ولهذا جاءت تسمية السورة بالقصص لتُعلّم القلب كيف يقرأ الحياة نفسها؛

فالمؤمن لا يرى الأحداث مقطوعةً عن قدر الله تعالى، بل يراها فصولاً من قصةٍ أكبر يكتبها الله تعالى بحكمته، ولذلك لا يغترّ بقوة الظالم حين يعلُو، ولا ييأس حين يرى الحق محاصراً، لأنه يعلم أن نهاية القصة ليست بيد البشر، بل بيد الله الذي قال في ختام السورة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾.

وهنا يصل القارئ إلى الرسالة التي يريدها القرآن من هذا الاسم؛

١. أن الإنسان ليس مجرد شاهدٍ على أحداث الدنيا، بل هو جزءٌ من قصتها،
٢. وأن السؤال الحقيقي الذي تتركه السورة في قلبه ليس: ماذا حدث لموسى عليه السَّلام أو لفرعون أو لقارون؟

بل السؤال الأعمق: في أي موضعٍ من هذه القصة تقف أنت؟

- مع طريق الاستكبار الذي انتهى بفرعون إلى الغرق،
- أم مع طريق الطغيان بالمال الذي انتهى بقارون إلى الخسف،
- أم مع طريق العبودية والصبر الذي انتهى بموسى عليه السَّلام إلى النصر والتمكين.

وهكذا يتحول اسم السورة من مجرد عنوانٍ لقصةٍ تاريخية إلى مرآةٍ يضعها القرآن أمام قلب الإنسان، ليكتشف أنه يعيش الآن فصلاً من القصة نفسها، وأن نهايتها تُكتب كل يوم باختياراته، حتى يلقى الله سبحانه وتعالى.

سورة العنكبوت

تفتتح سورة العنكبوت الطريق من أوله بلا تزيين ولا وعودٍ رخوة، كأنها تمسك قلب المؤمن منذ اللحظة الأولى لتخبره أن الإيمان ليس كلمةً تُقال ثم يُترك صاحبها لراحةٍ طويلة، ولا دعوى تُرفع ثم تُعفى من الامتحان، بل هو عهدٌ يدخل به العبد في ساحة التمحيص ليظهر صدقه من دعواه، ولهذا جاء الاستفهام الذي يوقظ ولا يجامل ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، ثم لا يترك القرآن هذا المعنى معلقاً في الهواء، بل يربطه بسنةٍ ماضيةٍ لا تتبدل ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فطريق الإيمان من قديمه إلى جديده طريق اختبار، لا ليعلم الله شيئاً لم يكن يعلمه سبحانه، فهو العليم بكل شيء، ولكن ليظهر الصادق من الكاذب ظهوراً تقوم به الحجة وتنكشف به النفوس ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

ثم تلتفت الآيات إلى الجهة الأخرى من المشهد، إلى الذين يظنون أن إساءتهم، أو مكرهم، أو فرارهم من الحق، يمكن أن يجعلهم يفلتون من سلطان الله، فترد عليهم رداً قاطعاً ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وكأنَّ السورة منذ مطلعها تضع الجميع أمام حقيقةٍ واحدة: المؤمن لن يُترك بلا امتحان، والمسيء لن يُترك بلا حساب، وكل أحدٍ ماضٍ إلى الموعد الذي لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ولهذا جاء تثبيت القلب الراجي ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾، فمن كان صادقاً في طلب الله فليعلم أن موعد اللقاء آتٍ لا محالة، وأن الطريق مهما طال فإن نهايته ليست ضياعاً، لأن الله ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع أنين المجاهدين، ويعلم ما يخفونه من تعب الصبر ومشقة الثبات.

ومن هنا يجيء التصحيح العظيم لمعنى المجاهدة نفسها ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾، فالله غنيٌّ عن العالمين، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية

العاصين، ولكن المجاهد إنما ينقذ نفسه، ويحفظ قلبه، ويصون آخرته، ثم يفتح الله بعد ذلك باب الرجاء لمن صدق في الإيمان والعمل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فليس الطريق طريق امتحانٍ مجرد، بل هو أيضاً طريق رحمةٍ وتكفيرٍ وفضلٍ وجزاءٍ أحسن من العمل نفسه.

ثم تنتقل السورة إلى صورةٍ من أشد صور الفتنة التصاقاً بالقلب: فتنة الوالدين، لأن الإنسان قد يهون عليه أذى البعيد، لكنه يضعف حين يأتي الضغط من موضع البرّ والرحم والحنان، ولهذا جاءت الوصية أولاً مثبتةً أصل الإحسان ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾، حتى لا يظن أحد أن الثبات على التوحيد يلغي حق الوالدين، ثم وضعت الحد الفاصل الذي لا يجوز تجاوزه ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، فالإحسان باقٍ، لكن الطاعة تسقط إذا صادمت حق الله، لأن المرجع في النهاية إليه وحده ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم يعود الوعد مرة أخرى ليثبت أن من صبر على هذا النوع من الامتحان ليس وحيداً ولا ضائعاً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

وبعد ذلك تكشف السورة عن وجهٍ آخر من وجوه النفوس حين تدخل الفتنة: هناك من يقول بلسانه ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، لكن هذا الإيمان لا يثبت إذا مسّه الأذى، فإذا أوذي في الله لم ينظر إلى أذى الناس على حقيقته المؤقتة، بل ضخم أثره حتى جعله في نفسه بمنزلة عذاب الله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، فينهار أمام ضغط البشر لأنه لم يعظم في قلبه مقام الله كما ينبغي، ثم إذا جاء نصر الله عاد يطلب موضعاً بين أهل الحق ويقول ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، فيفضح القرآن هذا التلون بقوله ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾، فالقضية ليست كلماتٍ عابرة، بل حقائق مستقرة في الصدور، ولهذا

يتكرر الميزان مرة أخرى ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

ثم تفضح الآيات خديعةً متكررة في كل زمان، وهي أن أهل الباطل لا يكتفون بضلالهم، بل يدعون غيرهم إلى السير معهم، ويمنّوهم بوعدٍ كاذب أن تبعات هذا الطريق لن تكون عليهم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾، فيرد القرآن هذه الدعوى من أصلها ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فلا أحد يحمل عن أحد وزره بهذا المعنى الذي يهوّن به أهل الباطل المعصية، نعم سيحملون أوزارهم وأوزاراً بسبب إضلالهم غيرهم ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، لكن ذلك لا يخفف عن الأتباع شيئاً، بل يزيد القادة المضلين إثماً فوق إثمهم، ولهذا ختمت الآيات بالوعيد ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

ثم لا تترك السورة هذا المعنى في دائرة التقرير المجرد، بل تسوق له نموذجاً تاريخياً يهز القلب هزّاً، نموذج نبيٍّ لبث في قومه زمناً طويلاً لا يُقاس بأعمار المصلحين المعتادة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾، تسعمائة وخمسون عاماً من الدعوة والصبر والمجاهدة والثبات، لا يتراجع فيها عن البلاغ، ولا يترك ميدانه لأن الاستجابة بطيئة، وكأن السورة تقول من أولها إن الذي يدخل طريق الإيمان ينبغي أن يوطّن نفسه لا على الفتنة فقط، بل على طول الطريق أيضاً، ثم كانت النهاية حين أصر القوم على الظلم ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فثبت أن سُنن الله لا تتخلف: صبرُ الصادقين محفوظ، وظلمُ المعاندين مردودٌ عليهم، والنجاة ليست لمن قال، بل لمن ثبت وصدق وصبر حتى النهاية.

بعد أن عرضت السورة صورة الصبر الطويل في دعوة نوح عليه السَّلام، وما انتهى إليه أمر القوم حين أصروا على الظلم، يجيء ختام ذلك المشهد ليكشف أن النجاة ليست بكثرة العدد ولا بقوة الأرض، بل بالثبات على الحق حين

يغمر الباطل الآفاق، فيقول الله تعالى ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، فالسفينة لم تكن مجرد وسيلة نجاة في لحظة تاريخية، بل علامة باقية تذكّر البشر أن الله تعالى حين يأذن بالنجاة يفتح لها أبواباً لا يتوقعها الناس، وأن القلة المؤمنة قد تنجو ولو غرق عالمٌ كامل من حولها، لأن المعيار في ميزان الله تعالى ليس الكثرة بل الصدق.

ومن هذا المشهد تنتقل السورة إلى نموذجٍ آخر من نماذج الدعوة، نموذج إبراهيم عليه السَّلام، لتكشف أن الطريق واحد وإن اختلفت الأزمنة، فالدعوة تبدأ دائماً من أصلها الأعظم: توحيد الله، ولذلك قال لقومه ببساطة الدعوة ووضوحها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، دعوة لا تقوم على تعقيدٍ فكري ولا جدلٍ فلسفي، بل على إعادة الإنسان إلى أصل العلاقة بينه وبين ربه، لأن الخير الحقيقي للإنسان ليس في كثرة ما يملك، بل في صحة الوجهة التي يسير إليها.

ثم يكشف إبراهيم عليه السَّلام لقومه حقيقة ما هم عليه من الضَّلال، فيبين أن تلك الآلهة التي يتوجهون إليها ليست إلَّا أوثاناً صنعوها بأيديهم، بل صنعوا معها قصةً كاملة من الوهم حتى بدت لهم حقيقة، فقال ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾، فهم لم يكتفوا بعبادة الحجر، بل نسجوا حوله روايةً من الأكاذيب تمنحه في خيالهم قدرةً لا يملكها، ولهذا يرد إبراهيم عليه السَّلام الميزان إلى أصله فيقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾، فالقضية ليست مجرد خطأٍ فكري، بل انحراف في مصدر التعلق والرجاء، لأن الرزق الذي يقوم عليه بقاء الإنسان لا يملكه إلا الله تعالى، ولهذا يوجّههم إلى الطريق الصحيح ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فالعبادة والشُّكر وطلب الرزق كلها ينبغي أن تعود إلى المصدر الواحد الذي تنتهي إليه حياة الإنسان.

ومع ذلك فإن إبراهيم عليه السَّلام يبين أن موقف الناس من الدعوة لا يغيّر حقيقتها، فإن كذبوا اليوم فليس هذا أول تكذيب في تاريخ الرسالات، ولهذا قال ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾، لأن الرُّسل جميعاً واجهوا الموقف نفسه، لكن ذلك لا يغير طبيعة مهمتهم، فالرسول ليس مسؤولاً عن قلوب الناس بل عن تبليغ الرسالة بوضوح ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

ثم يفتح القرآن أمام العقل باباً آخر للتفكر، لا في النصوص فقط بل في الكون كله، فيقول ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، لأن من تأمل بداية الخلق علم أن الإعادة أيسر في ميزان القدرة الإلهية، ولهذا يقرر الحقيقة التي يهرب منها المنكرون ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، ثم يوجّه الإنسان إلى أن ينظر بعينه في الأرض لا بعقله المجرد فقط ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، فآثار البداية الأولى مبثوثة في الكون كله، ومن فهم البداية أدرك أن النهاية ليست إلَّا مرحلة أخرى من القدرة نفسها ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن هنا ينتقل القرآن إلى الميزان الذي يحكم مصير الإنسان بعد هذه النشأة الأخرى، فالأمر كله بيد الله ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾، ثم يضع الحقيقة التي لا مفر منها ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾، أي أن رحلة الحياة كلها تنتهي بالرجوع إليه، فلا مهرب في الأرض ولا في السماء، ولهذا قال ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، فليس في الكون كله مكان يخرج عن سلطان الله، ولا يملك الإنسان من دونه ولياً يحميه أو نصيراً ينقذه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

ثم يكشف القرآن عن أخطر نتيجة يصل إليها من يختار طريق الكفر بآيات الله وبلقاءه، وهي أن القلب إذا أصر على هذا الطريق يبتعد عن الرجاء نفسه،

فيقول ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾، لأن اليأس من الرَّحمة ليس قراراً عشوائياً بل نتيجة مسارٍ طويل من الإعراض، ثم يكون المصير الذي حذَّر منه الأنبياء جميعاً ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهكذا تتكامل هذه الآيات في رسم صورة الطريق الذي تسير فيه البشرية منذ فجر التاريخ:

١. نجاةٌ لأهل الصدق كما في سفينة نوح عليه السَّلام،
٢. ودعوةٌ صريحة إلى التوحيد كما في كلمة إبراهيم عليه السَّلام،
٣. وتنبيهٌ للعقل أن ينظر في خلق الله تعالى ليعرف قدرته على البعث،
٤. وتذكيرٌ دائم أن الإنسان مهما سار في الأرض فإن رجوعه في النهاية إلى الله تعالى الذي بيده الرحمة والعذاب، والذي لا يخرج أحد من خلقه عن حكمه ولا عن قدرته.

وحين تواجه الدعوة الصادقة مجتمعاً استقر على الباطل طويلاً، فإن الحوار الهادئ لا يبقى طويلاً في ميزان أولئك الذين يخافون على عاداتهم ومصالحهم، لأن الحق حين يقترب من قلب النظام الفاسد يتحول في نظر أهله إلى خطر يجب التخلص منه لا إلى حقيقة ينبغي النظر فيها.

ولهذا لم يكن جواب قوم إبراهيم عليه السَّلام على وضوح حجته ولا على صفاء دعوته نقاشاً ولا تفكيراً، بل كان رداً يكشف ضيق الباطل حين يواجه نور الحقيقة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، فكأنهم لم يجدوا سبيلاً لإبطال الكلمة إلَّا بإسكات صاحبها، لأن الحجة إذا عجزت عن الرد تتحول إلى قوةٍ تحاول أن تزيل صاحب الحق من الوجود.

ولكن قدرة البشر مهما اجتمعت تقف عاجزة أمام إرادة الله سبحانه وتعالى، ولذلك يختصر القرآن نهاية المشهد بكلمة تهدم ذلك التهديد كله ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾، فتتحول النار التي أرادوا بها إنهاء دعوته إلى آيةٍ باقية على أن الحماية

الحقيقية ليست في قوة الإنسان بل في حفظ الله تعالى، ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، لأن القلب المؤمن هو الذي يرى في هذه الوقائع إشارات القدرة الإلهية لا مجرد أحداث عابرة.

ثم يكشف إبراهيم عليه السَّلام لقومه حقيقةً أعمق من مجرد عبادة الأصنام، فيُبين أن تلك الأوثان لم تكن في واقعهم مجرد حجارة، بل كانت رابطة اجتماعية تجمعهم في الحياة الدنيا، فقال ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي إنهم تمسكوا بها لأنها أصبحت رمزاً لوحدة المجتمع وتقاليده، لا لأنها تملك حقاً أو نفعاً، لكن هذه المودة المبنية على الباطل لا يمكن أن تصمد أمام حقيقة الآخرة، ولهذا ينقلب المشهد هناك انقلاباً كاملاً ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾، فالعلاقات التي قامت على الضَّلال تتفكك حين تنكشف الحقيقة، ويبقى المصير الذي جمعهم عليه باطلهم ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

ومع ذلك فإنَّ دعوة الحق لا تكون بلا أثر، فحتى في أكثر البيئات قسوةً يفتح الله تعالى قلباً أو قلوباً تستجيب، ولهذا يقول القرآن ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾، فكان لوط عليه السَّلام أول من استجاب لدعوة إبراهيم عليه السَّلام، ثم يعلن إبراهيم عليه السَّلام بعد ذلك قراره الذي يتكرر في تاريخ الأنبياء حين تضيق الأرض بالدعوة في موضعها الأول ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، فالهجرة في ميزان الإيمان ليست فراراً من الناس بل انتقالاً إلى حيث يستطيع الإنسان أن يقيم عبوديته لله تعالى، ولهذا ختمت الكلمة بالثقة في تدبير الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم يكشف القرآن أن التضحية في سبيل الله لا تضيع، بل تتحول إلى بركة تمتد عبر الأجيال، فيقول ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ثم يُبيّن أن أثر إبراهيم لم يقف عند ذريته المباشرة، بل امتد في تاريخ الرسالات كلها ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ

﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، فكأنَّ الهجرة التي بدت في ظاهرها خروجاً من أرضٍ وقوم تحولت في ميزان الله تعالى إلى أصلٍ لسلسلة طويلة من النُّبوَّة والوحي، ولهذا قال ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾، ومع ذلك لم يكن هذا نهاية الجزاء ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ثم تنتقل السورة إلى لوط عليه السَّلام الذي خرج مع إبراهيم عليه السَّلام في طريق الهجرة، لكنه واجه في قومه صورة أخرى من صور الانحراف، ليست عبادة الأصنام هذه المرة بل فساد الفطرة نفسها، ولهذا قال لقومه بوضوحٍ لا يحتمل التأويل ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، فالفاحشة التي وقعوا فيها لم تكن مجرد معصية فردية بل انحرافاً اجتماعياً غير مسبوق في تاريخ البشر، ثم يصف القرآن أبعاد هذا الفساد الذي لم يقف عند حدود الفعل نفسه بل امتد إلى سلوك المجتمع كله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾، فصار الفساد علنياً في المجالس، وعدواناً في الطرق، وانحرافاً في الفطرة.

ومع ذلك فإنَّ ردهم على دعوة الإصلاح لم يكن توبةً ولا مراجعة، بل تحدياً واستكباراً، فقالوا ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وكأنهم بلغوا من الغفلة حدّاً جعلهم يطلبون العذاب بدل أن يخافوه، وهنا لم يبق في يد لوط عليه السَّلام بعد البلاغ إلا أن يلجأ إلى ربه الذي بيده نصر الحق وكف الباطل، فقال في دعاءٍ صادقٍ يكشف عجز البشر أمام فساد المجتمعات حين يستفحل ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾، فيتحول هذا الدعاء إلى بداية الفصل الأخير في قصة قومٍ تجاوزوا حدود الفطرة حتى صار بقاؤهم على حالهم فساداً في الأرض.

بعد أن دعا لوط عليه السَّلام ربَّه أن ينصره على القوم المفسدين، تبدأ مرحلةٌ أخرى من سُنن الله في الأرض؛ مرحلة الفصل بين الإمهال والانتهاء.

فيأتي مشهد الملائكة حين قصدوا إبراهيم عليه السَّلام بالبشارة، لا ليحملوا إليه خبر الفرج وحده، بل ليكشفوا له كذلك ما سيجري في القرى التي تجاوزت حدود الفساد، فيقول القرآن ﴿وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾، فيلتقي في هذا المشهد خبر الرَّحمة وخبر العدل؛ بشرى لإبراهيم عليه السَّلام، وإنذار بنهاية قومٍ أصروا على الظُّلم حتى صار بقاؤهم على حالهم فساداً في الأرض.

لكن قلب إبراهيم عليه السَّلام الذي تعلّم الرحمة بالناس لا ينسى من في تلك القرية من أهل الإيمان، فيقول مباشرة ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾، وكأنَّ قلب النبي لا ينظر إلى الأرض على أنها جماعة واحدة من الهالكين، بل يتذكر دائماً موضع الصالحين فيها، فيُجيبه الملائكة بما يكشف أن علم الله أوسع من خوف البشر ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾، ثم يُطمئنونه إلى أن النجاة مكتوبة لمن استحقها ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾، غير أن رابطة البيت لا تنفع إذا انقطع القلب عن الحق، ولهذا قالوا ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

ثم ينتقل المشهد إلى بيت لوط عليه السَّلام نفسه حين وصلت الملائكة إليه في صورة ضيوف، فيكشف القرآن عن لحظة القلق الإنساني التي يعيشها النبي حين يُرى ضيوفاً في بيئةٍ فاسدة لا تعرف حرمة الضيف ولا كرامة الإنسان، فيقول ﴿وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾، لأن قلبه يعلم طبيعة قومه وما قد يقدمون عليه، لكن الملائكة يبددون هذا الخوف بكلمة الطمأنينة ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾، ثم يكشفون له حقيقة مهمتهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، فالهلاك الذي سيقع ليس انتقاماً عشوائياً بل عدلٌ بعد إقامة الحجة، ولهذا يقولون ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، لأن الفسق حين يتحول إلى نظامٍ عام في المجتمع يصبح بقاء ذلك المجتمع على حاله خطراً على الفطرة التي خلق

الله تعالى الناس عليها... ثم يذكر القرآن أن آثار تلك القرى لم تختف من الأرض، بل بقي منها ما يشهد على ما جرى فيها ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، لأن التاريخ في القرآن ليس خبراً يُروى بل علامة تُقرأ، ومن كان له عقلٌ ينظر في هذه الآثار ليعرف كيف تنتهي الأمم حين يغلب الفساد على حياتها.

ومن قصة لوط عليه السَّلام ينتقل القرآن إلى أُمَّة أخرى واجهت دعوة نبيها، فيقول ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾، فتعود الدعوة مرة أخرى إلى أصلها الذي لا يتغير عبر الرسالات كلها ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، لأن العبادة وحدها لا تكفي إذا لم يرتبط القلب برجاء الحساب والرجوع إلى الله، ولهذا جمع شعيب عليه السَّلام بين الأمرين ثم حذَرهم من الفساد الذي كان منتشراً بينهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، لكن القلوب التي أغلقت أبوابها أمام الحق لا ترى في الدعوة إلا إزعاجاً، ولهذا قال القرآن في اختصارٍ يكشف نهاية الطريق ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، فكان المصير الذي يتكرر حين تبلغ الأمم هذا الحد من الإصرار ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

ثم يُوسع القرآن المشهد ليُذكّر بأممٍ أخرى سبق ذكرها في مواضع مختلفة، لكنها حاضرة في ذاكرة الأرض نفسها ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ﴾، فلا يحتاج الإنسان إلى أخبارٍ بعيدة ليعرف قصتهم، لأن آثارهم ما زالت شاهدة في الأرض ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾، فقد مرَّ الناس بديارهم ورأوا ما بقي منها، ومع ذلك فإن الهلاك لم يكن نتيجة جهلٍ بالحقيقة، بل نتيجة انخداعٍ بزينة الباطل، ولهذا قال ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، مع أنهم لم يكونوا جهلةً بالدلائل بل كانوا قادرين على فهمها ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾، لكن الاستبصار إذا لم يتبعه خضوع للحق يبقى علماً بلا أثر، فتكون النتيجة أن يرى الإنسان الطريق ثم يختار أن يسلك غيره.

بعد أن عرضت السورة صور الأمم التي واجهت دعوة الأنبياء ثم انتهت إلى مصيرها المحتوم، تعود الآيات لتجمع نماذج الطُّغيان في صورةٍ واحدة، كأنها تقول إن طرق الباطل وإن اختلفت أشكالها فإن نهايتها واحدة.. فيذكر القرآن قارون الذي اغتر بماله، وفرعون الذي تجبّر بسلطانه، وهامان الذي كان عوناً للطغيان وسنداً له، فيقول ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾، ثم يبين أن الحجة لم تكن غائبة عنهم، بل جاءهم موسى عليه السَّلام بالدلائل الواضحة التي لا لبس فيها ﴿وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾، لكن المشكلة لم تكن في نقص البرهان، بل في الكبر الذي يمنع صاحبه من الانقياد للحق، ولهذا قال ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، ومع هذا الاستكبار ظنوا أن سلطانهم يمنحهم قدرة على الإفلات من حساب الله، فجاء الرد الحاسم ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾، فلا قوة في الأرض تسبق قدرة الله تعالى ولا تفلت من حكمه.

ثم يبين القرآن أن العقاب الإلهي لا يأتي على صورة واحدة، بل يأخذ كل قومٍ بما يناسب حالهم وما يستحقونه بذنوبهم، فيقول ﴿فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾، ثم يعدد صور ذلك الأخذ ليكشف تنوع سُنن الله في الأمم ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾، ومنهم من هلك بصيحةٍ أهلكتهم في لحظة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾، ومنهم من خسف الله به الأرض ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾، ومنهم من انتهى في الماء غرقاً ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، ومع هذا التنوع في صور الهلاك يقرر القرآن قاعدة العدل التي لا يختل بها ميزان الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فالهلاك لم يكن ظلماً من الله، بل نتيجة طريقٍ اختاره الناس لأنفسهم.

ثم تنتقل السورة إلى مثلٍ بليغ يختصر حقيقة الاعتماد على غير الله، فتقول ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾، فالإنسان حين يظن أن قوته في تلك الروابط الواهية التي يصنعها بعيداً عن الله،

يشبه العنكبوت التي تنسج بيتاً يبدو في ظاهره متماسكاً لكنه في حقيقته أوهن البيوت، ولهذا قال القرآن ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، فكل اعتمادٍ على غير الله تعالى مهما بدا قوياً في أعين الناس يبقى هشّاً أمام الحقيقة.

ثم يقرر القرآن أن الله يعلم حقيقة تلك المعبودات التي يدعونها من دونه، ويعلم ضعفها وعجزها، فيقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾، فهو يعلم حقيقة ما يعبدون وإن توهموا فيه قوة أو تأثيراً، ثم يختتم المعنى ببيان صفتي العزة والحكمة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فالعزة تمنع أن يكون له شريك، والحكمة تقتضي أن يكون الكون قائماً على نظام الحق لا على أوهام البشر.

ثم يلفت القرآن النظر إلى طبيعة هذه الأمثال التي يضربها في كتابه، فيقول ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾، فهي ليست مجرد صور بل مفاتيح للفهم، لكن إدراك حقيقتها يحتاج إلى عقلٍ يتأمل ويتدبر، ولهذا قال ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾، لأن العلم الذي يقود إلى الفهم هو العلم الذي يربط بين المثال والمعنى.

ثم يعيد القرآن توجيه النظر إلى أصل الوجود كله، فيقول ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، فالكون كله قائم على الحق لا على العبث، وكل ما فيه يدل على حكمة الخالق وقدرته، ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، لأن القلب المؤمن هو الذي يرى في هذا الخلق دليلاً يقوده إلى معرفة الله.

ومن هذا المشهد الكوني الواسع الذي يفتح القلب على عظمة الخالق وتفاهة كل قوةٍ تُدَّعى دونه، تعود السورة فجأة إلى مركز الطريق كله، فتوجّه الخطاب إلى النبي ﷺ ومن بعده إلى كل من يحمل هذا القرآن رسالةً وهداية، فتقول: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وكأنها تقول: بعد أن رأيت سُنن الله في

الكون، وبعد أن أدركت هشاشة ما يعتمد عليه الناس من دون الله، فارجع إلى الأصل الذي يُقيم القلب ويضبط الحياة ...**ارجع إلى الوحي**.

فالتلاوة هنا ليست مجرد حركة لسانٍ يمرّ على الحروف، بل هي صلةٌ دائمة بالوحي، صلةٌ تُعيد ترتيب الفكر، وتُصحّح ميزان القلب، وتوجّه خطوات الإنسان في طريقه في الدنيا، حتى لا يبني حياته على أوهامٍ تشبه خيوط العنكبوت، بل على نورٍ نازلٍ من السماء.

فحين يتلو المؤمن كتاب الله تعالى على هذا المعنى، لا يكون قد قرأ كلماتٍ فحسب، بل يكون قد فتح قلبه ليُقاد بالوحي، وليجعل القرآن مرجعاً لوعيه ونظرته للحياة، وميزاناً يزن به أفكاره وخياراته ومواقفه، لأن التلاوة التي أرادها القرآن ليست صوتاً يُسمَع، بل **حياةً تُبنى على هدي الله**.

ثم يأتي الأمر الذي يحفظ القلب من الانحراف وسط فتن الدنيا وتقلباتها، فيقول الله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، وكأنَّ السورة بعد أن أرشدت إلى صلة الوحي أرادت أن تثبّت صلة العبد بربه في قلب يومه وحياته، لأن الصلاة في حقيقتها ليست عبادةً منفصلة عن حركة الإنسان في الدنيا، بل هي صلةٌ متجددة بالله تعالى تعيد ترتيب القلب كلما كادت الدنيا أن تشتته.

فالإنسان يخرج إلى الحياة بما فيها من شهواتٍ ومُغرياتٍ وصراعات، ثم يعود فيقف بين يدي الله تعالى في لحظاتٍ منتظمة، يخلع فيها عن قلبه ضجيج الدنيا ويضعه بين يدي ربّه، ولهذا لم يكتف القرآن بالأمر بالصَّلاة، بل كشف أثرها الحقيقي فقال ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، لأن القلب الذي يقف بين يدي الله بصدقٍ وخضوع، ويقرأ كلامه، ويستحضر عظمته، لا يسهل عليه بعد ذلك أن ينطلق في طُرق الفساد وكأنه لم يقف قبل قليل بين يدي رب العالمين.

ثم يفتح القرآن باب المعنى الأعمق في هذه العبادة حين يقول ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ

أَكْبَرُ﴾، فجوهر الصَّلاة وروحها هو امتلاء القلب بذكر الله، لأن الذكر إذا استقر في القلب صار نوراً يُضيّق مساحة الغفلة، وكلما ضاقت الغفلة ضعفت قدرة الشَّهوة والهوى على قيادة الإنسان.

فالصلاة في ظاهرها حركاتٌ وأقوال، لكنها في حقيقتها مدرسة ذكرٍ مستمرة تعيد القلب إلى الله خمس مرات في اليوم حتى لا يبتعد كثيراً عن طريقه.

ثم يختم القرآن هذا المعنى بتذكيرٍ يحيط الحياة كلها برقابة الله، فيقول ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، ليبقى المؤمن واعياً أن صلاته وعبادته وأعماله في السِّر والعلن كلها تجري تحت علم الله الذي لا يخفى عليه شيء، فليست الصَّلاة لحظاتٍ منفصلة يعيشها الإنسان في المسجد ثم يخرج بعدها إلى حياةٍ أخرى، بل هي نقطة نورٍ تتكرر في اليوم لتُذكّر القلب دائماً أنه يعيش في عالمٍ يراه الله تعالى ويعلم خفاياه.

ولذلك فالصَّلاة التي تحقق معناها الحقيقي لا تنتهي عند التسليم، بل تمتد آثارها في السلوك والاختيارات والمواقف، حتى تصبح حياة المؤمن كلها دائرةً في فلك تلك الصِّلة التي تربطه بربّه.

حين يتحوّل العِلم إلى كِبر... يبدأ طريق الخَسف

في الجزء العشرين من القرآن يقف القارئ أمام مشهدٍ عجيب من مشاهد التربية القرآنية؛ إذ يمرّ اسم قارون مرتين في سورتين متتاليتين، في سورة القصص حيث تُروى قصته مفصلةً، ثم في سورة العنكبوت حيث يُذكر اسمه في جملةٍ واحدة ضمن مصير الطغاة.

وهذه ليست مصادفة في ترتيب القرآن، بل لمسةٌ بيانية دقيقة؛ فالقصة تُعرض أولاً لتكشف الجذر النفسي للانحراف، ثم يُعاد ذكر صاحبها بعدها مباشرة

ليُختصر المصير في كلمة واحدة: **الهلاك**... وكأنَّ القرآن يريد للقارئ أن يرى البداية والنهاية متجاورتين، ليفهم أن الطريق الذي يبدأ بالكِبر على نعمة الله ينتهي غالباً تحت أنقاضها.

يبدأ المشهد في سورة القصص برجلٍ من قوم موسى عليه السَّلام، ليس غريباً عن الوحي ولا بعيداً عن بيئة الإيمان، بل نشأ بين قومٍ يعرفون الله، لكن قلبه انحرف حين أغرته النعمة: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾.. إنها صورة الثروة حين تبلغ حدّاً يعجز الرجال الأقوياء عن حمل مفاتيح خزائنها، ومع ذلك لم يكن الخطر في المال نفسه، بل في القلب الذي نسي المنعِم... ولذلك جاءه صوت العقل والنُّصح من قومه قبل أن يقع: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، أي لا تبطر ولا تتكبر، ثم وضعوا له ميزاناً عظيماً للحياة كلها: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾، فليست المشكلة في الدنيا، بل في أن تتحول إلى غايةٍ بدل أن تكون وسيلة.

لكن القلب الذي امتلأ بالإعجاب بنفسه لم يعد يسمع نصيحة، فجاءت الكلمة التي تختصر مأساة الإنسان حين ينسب النعمة إلى نفسه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾... كلمة قصيرة، لكنها تكشف جذر الطُّغيان كله؛ فهنا لا ينكر وجود الله صراحة، لكنه يمحو أثره من القصة، ويضع نفسه في موضع الفاعل الأول، وكأنَّ النِّعمة وُلدت من ذكائه وخبرته وعبقريته.

وهنا يبدأ الانهيار الحقيقي، لأن الإنسان حين ينسب الفضل إلى نفسه ينفصل قلبه عن المنبع الذي جاءت منه النِّعمة أصلاً.

ثم يخرج قارون على قومه في زينته، فيتحول إلى مشهد إغراء اجتماعي: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾، فتتأثر القلوب التي لم ترَ إلَّا ظاهر الدنيا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾... لكن صوت العلم الحقيقي يعلو في اللحظة

نفسها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾... إنه الفرق بين من يرى بريق النِّعمة، ومن يرى مصير القلب مع النِّعمة.

ثم تأتي النهاية التي تهزّ الإنسان هزّاً: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾. لم تُسلب منه أمواله تدريجياً، ولم يُفلس ببطء، بل انهارت القصة كلها دفعةً واحدة، لأن النِّعمة التي تُنسي صاحبها ربَّه قد تتحول في لحظةٍ إلى شاهدٍ على سقوطه.

وهنا تأتي اللمسة البيانية العجيبة في الجزء نفسه؛ فبعد أن رأى القارئ القصة مفصلة في سورة القصص، يمرّ بعدها مباشرة في سورة العنكبوت على آيةٍ تختصر المشهد كله في كلمات قليلة: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾... فالقارئ الذي عرف القصة قبل قليل يفهم الآن الرسالة المختصرة: أن أسماء الطغاة مهما اختلفت، فإن الجذر واحد... **الاستكبار**.

ثم يضيف القرآن صورة النهاية الجامعة لهؤلاء جميعاً: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾.. وكأنَّ القصة المفصلة في سورة القصص كانت مثالاً حيّاً على هذه القاعدة القرآنية: أن مصير المتكبرين لا يتغير، وإن اختلفت أشكال قوتهم.

وهنا يلمس القارئ الدرس الذي يريد القرآن أن يرسخه في القلب: ليس الخطر في المال، ولا في العلم، ولا في النجاح، بل في القلب الذي ينسى المُنعم حين تكثر النِّعم... فالإنسان قد يتعب، ويجتهد، ويخطط، ويعمل، لكن لحظة واحدة من الغفلة قد تجعله يقول في داخله – أو بلسانه – ما قاله قارون: هذا بجهدي، وهذا بعلمي، وهذا بذكائي... وعندها يبدأ القلب بالابتعاد عن الله تعالى خطوةً خطوة، حتى يصبح النجاح نفسه حجاباً بين العبد وربِّه.

إن القرآن لا يذكر قصة قارون ليحكي تاريخ رجلٍ غنيٍّ هلك، بل ليضع أمام

كل إنسان مرآةً يرى فيها نفسه.. فكم من إنسانٍ يتبختر بعلمه، أو يتفاخر بخبرته، أو يتحدث عن إنجازاته وكأنها خُلقت من ذاته، وينسى أن الله هو الذي أعطاه العقل والقدرة والفرصة والرزق... ولو شاء لسلبه ذلك كله في لحظة.

ولذلك كان أعظم ما يحفظ النِّعمة ليس الذكاء، ولا الحذر، ولا التخطيط، بل الاعتراف الدائم بفضل الله تعالى.. فالقلب الذي يردد في كل نعمة: **هذا من فضل ربي** يبقى قريباً من مصدر النِّعمة، أما القلب الذي يردد: **هذا بعلمي وجهدي** فقد بدأ يسير في الطريق الذي انتهى بصاحبه يوماً تحت التراب.

وهكذا يضع القرآن الكريم القصة ثم يعيد الاسم بعدها مباشرة، ليقول للقارئ بصوتٍ هادئ لكنه حاسم: إن الطريق الذي يبدأ **بالإعجاب بالنفس**... قد ينتهي **بالخَسف**... وإن النِّعمة التي لا تُربَط بالله... قد تتحول من زينةٍ في الأرض إلى شاهدٍ على سقوط صاحبها.

لماذا اختار القرآن بيت العنكبوت بالذات؟... وأين الوهن الحقيقي؟

حين يضرب القرآن مثلاً لا يختاره اعتباطاً، بل يختار صورةً تحمل في داخلها طبقاتٍ من المعنى، ظاهراً يراه كل إنسان، وباطناً يزداد وضوحه كلما تعمّق التأمل.

ولهذا جاء المثل في سورة العنكبوت هكذا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾... **والسؤال الذي يطرحه المتأمل: لماذا اختار القرآن بيت العنكبوت بالذات؟.**

أول ما يراه الإنسان في بيت العنكبوت أنه شبكة دقيقة متشابكة تبدو للناظر متماسكة، لكنها في الحقيقة لا تحمي صاحبها من ريحٍ ولا من مطر، ولا

من حرٍّ ولا من برد.. فالعنكبوت نسجت بيتاً، لكنه ليس بيتاً بالمعنى الحقيقي؛ ليس فيه جدارٌ يحمي، ولا سقفٌ يقي، ولا حصنٌ يمنع.. إنه مجرد خيوط رقيقة قد تقطعها حركة يدٍ عابرة.

وهنا تبدأ دلالة المثل: فالإنسان حين يعتمد على غير الله تعالى يظن أنه بنى لنفسه حصناً؛ قد يعتمد على المال، أو على المنصب، أو على النفوذ، أو على العلاقات، أو على الشُّهرة، أو حتى على ذكائه وقدرته... وكل ذلك يبدو في الظاهر شبكةً من القوة تحيط به.. لكنه حين تأتي لحظة الحقيقة يكتشف أن هذه الشبكة لا تملك أن تحميه من قدر الله تعالى، ولا أن تدفع عنه ضعف الإنسان، ولا أن تمنع عنه الخوف والقلق والفناء.

لكن الوهن في هذا المثل أعمق من مجرد ضعف الخيوط... فبيت العنكبوت ليس واهياً في مادته فقط، بل واهيٌ في بنيته الاجتماعية أيضاً... ففي كثير من أنواع العناكب يكون البيت مكان صراع لا سكن؛ فالأنثى قد تقتل الذكر بعد التزاوج، وصغار العناكب قد يفترس بعضهم بعضاً.. فبيت العنكبوت ليس موطن رحمةٍ أو أمان، بل موطن توترٍ وافتراس.. وكأنَّ القرآن يُلمّح إلى أن الروابط التي تُبنى بعيداً عن الله لا يقتصر ضعفها على الخارج، بل قد تتحول في داخلها إلى صراعٍ خفيّ وانهيارٍ بطيء.

وهنا تتجلى دقة المثل القرآني: فالبيت الحقيقي في حياة الإنسان ليس مجرد مكانٍ أو شبكة علاقات، بل مصدر أمانٍ وثبات... فإذا لم يكن هذا الأمان مستنداً إلى الله تعالى، فإن كل ما يبنيه الإنسان حول نفسه يصبح مثل خيوط العنكبوت: كثيرةٌ، متشابكةٌ، لكنها لا تملك أن تحمي صاحبها ساعة الحاجة.

ولذلك لم يقل القرآن إن بيت العنكبوت ضعيف فحسب، بل قال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾، أي أنه أشدّ البيوت ضعفاً، لأنه بيتٌ في الاسم لا في الحقيقة.

ومن هنا نفهم الرسالة العميقة في الآية: ليس المقصود مجرد وصف بيتٍ في عالم الحشرات، بل كشف حقيقةٍ في عالم القلوب؛ أن الإنسان إذا بنى حياته على غير الله تعالى فقد يظن أنه محاطٌ بشبكةٍ من القوة، بينما هو في الحقيقة يعيش داخل أوهن بيت... ولهذا يختم الله المثل بكلمة تهزّ القلب: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾... أي لو كانوا يدركون حقيقة ما يعتمدون عليه، لعلموا أن القوة الحقيقية ليست في المال ولا في النفوذ ولا في البشر، بل في الصِّلة بالله وحده.

فكل قوةٍ لا تتصل بالله تعالى تبقى خيطاً رقيقاً قد ينقطع في لحظة، أما القلب الذي يستند إلى الله سبحانه وتعالى فقد لا يملك شيئاً في ظاهر الدنيا، لكنه يعيش في أقوى حصنٍ في الوجود.

ومن هنا يظهر سرّ تسمية السورة كلِّها بسورة العنكبوت، مع أن ذكر العنكبوت لم يرد فيها إلَّا في هذا الموضع القصير، لأن هذا المثل ليس مجرد صورة عابرة في سياق السورة، بل هو المفتاح الذي يفسّر موضوعها كله.

فسورة العنكبوت منذ بدايتها تتحدث عن الابتلاء الذي يميّز الإيمان الحقيقي من الإيمان الهش؛ تبدأ بقول الله تعالى ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، ثم تمضي السورة في عرض نماذج من تاريخ الأنبياء مع أقوامهم، لتبين أن طريق الإيمان لا يخلو من امتحان، وأن القلوب التي تبني ثباتها على الله تصمد أمام العواصف، أما القلوب التي تعتمد على غيره فإنها تنهار عند أول اختبار.

ولهذا جاء مثل العنكبوت في وسط السورة كأنه الصورة المختصرة لمعنى السورة كلها؛ فالإيمان الذي لا يقوم على الاعتماد الصادق على الله يشبه بيت العنكبوت: قد يبدو موجوداً، وقد تبدو خيوطه متشابكة، لكنه لا يصمد حين تهبّ رياح الابتلاء.

أما القلب الذي بنى حياته على الله، فإنه وإن بدا ضعيفاً في ظاهر الدنيا، فإنه يعيش في حصنٍ لا تهدمه العواصف.

فكأن السورة تقول للقارئ: إن الحياة ستكشف حقيقة ما تبني عليه قلبك؛ فإن كان اعتمادك على الله ثبتَّ، وإن كان اعتمادك على غيره اكتشفت يوم الامتحان أنك كنت تعيش داخل بيتٍ يشبه بيت العنكبوت.

ومن هنا لم يكن اختيار هذا الاسم للسورة مجرد تسمية، بل إشارة تربوية عميقة تلخّص رسالتها كلها: أن كل بناءٍ في الحياة لا يقوم على الله... هو في الحقيقة أوهن من بيت العنكبوت.

الخيط القرآني المحكم الذي يربط بين النمل والقصص والعنكبوت

هذه السور الثلاث تبني في القلب يقيناً واحداً متدرجاً، خلاصته: أن الحق لا يُعرف بظهور أهله في اللحظة، ولا يُقاس بضعفهم الظاهر، ولا يُبطله استعلاء الباطل، لأن الله تعالى يُدبر يدير المعركة كلَّها من فوق سبع سماوات، فيمتحن القلوب، ويكشف الزيف، ويُمهل، ثم يُظهر سنته في النجاة والهلاك، حتى ينتهي الأمر إلى حقيقةٍ واحدة: لا ملجأ إلا إليه، ولا ثبات إلا به، ولا عاقبة إلا لأهل التوحيد والصدق.

فسورة النمل تبدأ من كشف انقلاب الموازين حين يصير الطُّهر نفسه تهمة: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، ثم تنقلك من هذا الانحراف الأخلاقي إلى أصل الداء كلِّه، وهو فساد التوحيد، فتتتابع أسئلة الكون والرزق والهداية والخلق والبعث: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، وكأنها تؤسس القاعدة الكبرى: من لم يعرف الله حقّاً اختلَّ ميزانه في كل شيء؛ في الأخلاق، وفي النظر إلى الحياة، وفي الموقف من الوحي، وفي فهم المصير، ثم تختم السورة بمشاهد القيامة والحساب والتمييز بين من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة، لتقول للقلب: هذا الكون ليس سُدى، وهذا الجدل ليس بلا خاتمة، وهذه الحياة ليست ميدان عبث، بل كلها مُتجهة إلى يومٍ

ينكشف فيه الحق كاملاً.

ثم تأتي سورة القصص لتأخذ هذا الأصل العقدي من مستوى التقرير إلى مستوى الحركة التاريخية؛ فإذا كانت سورة النمل قد قررت أن الله وحده هو الخالق المدبر الهادي وأن البعث حق، فإن سورة القصص تريك كيف يعمل هذا التدبير الإلهي داخل التاريخ نفسه، في قلب الصراع، وفي أحلك لحظات الاستضعاف، وفي داخل بيت الطاغية ذاته؛ فرعون يعلُو في الأرض، والناس يرون سطوته، لكن السورة من أولها تفتح لك المشهد من السماء: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾، فكأنها تقول: ذلك الذي تقرر في سورة النمل من ربوبية الله المطلقة سيظهر هنا في إدارة الوقائع، لا في الألفاظ فقط؛ طفلٌ يُلقى في اليم فيكون حفظه هناك، وطاغيةٌ يلتقط بيده سبب هلاكه، وأمٌّ مكلومة يردّ الله إليها ولدها، وموسى عليه السَّلام يمر بمراحل الخوف، والخطأ، والتوبة، والغُربة، والعمل، ثم الاصطفاء، ليظهر لك أن طريق الحق لا يسير في خط مستقيم مريح، بل في تربيةٍ إلهيةٍ عميقةٍ طويلة، وأن التمكين ليس هبةً مفاجئة، بل ثمرة إعداد، وأن الطغيان مهما انتفخ فإن عاقبته الغرق، ثم تأتي قصة قارون لتكشف أن فتنة المال ليست أخف من فتنة السُّلطان، وأن العُلُو لا يكون بالعرش فقط، بل قد يكون بالكنز والزينة والاغترار بالنفس، ثم تجمع السورة الخلاصة كلها في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾، فكأنَّ القصص تقول: بعد أن عرفت في سورة النمل من هو الله سبحانه وتعالى، تَعلَّم هنا كيف تجري سُننه في الأرض، وكيف يُمتحَن الناس بالسلطان والرزق، وكيف تكون العاقبة للمتجردين من إرادة العلو.

ثم تأتي سورة العنكبوت لتأخذك خطوةً أعمق إلى داخل القلب نفسه؛ فإذا كانت النمل قد أصلحت ميزان العقيدة، والقصص قد كشفت سُنن الله في التاريخ، فإن العنكبوت تكشف سُنَّته في تمحيص النفوس، فتضع منذ أول آية

القانون الذي يفسر كل ما مضى ويهيئ لكل ما يأتي: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، فكأنها تقول: ذلك التوحيد الذي قررته النمل، وذلك التدبير الذي رأيته في القصص، لا ينتفع به صاحبه حتى يدخل ميدان الامتحان؛ فلا يكفي أن تعلم أن الله هو المدبر، بل لا بد أن يثبت ذلك في قلبك:

← عند الأذى،

← وعند ضغط الأهل،

← وعند إغراء الجماعة،

← وعند بطء الطريق،

← وعند طول الصبر،

ولهذا عرضت العنكبوت نماذج متتابعة لنوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وعاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، لتقول: الفتنة سُنة، والثبات هو البرهان، والنجاة لا تكون بكثرة العدد ولا بقوة الأسباب، بل بالاعتصام بالله، ثم تلخص أوهام الناس كلها في الصورة التي سميت بها السورة: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾، أي إن كل اعتمادٍ على غير الله، وكل ركونٍ إلى قوةٍ أو جماعةٍ أو مالٍ أو عادةٍ أو علاقةٍ تُخالف الحق، فهو في حقيقته أوهن مما يظنه الناس حِصناً.

وعليه، فالتسلسل بين السور الثلاث ليس تجاوراً موضوعياً فقط، بل بناءٌ قرآنيٌّ بالغ الإحكام:

١. سورة النمل تقول لك: اعرف ربك، وانظر كيف يشهد الكون كلُّه لوحدانيته، وكيف ينتهي الأمر إلى الحساب.

٢. ثم سورة القصص تقول لك: انظر كيف يحكم هذا الرَّب العظيم التاريخ، وكيف يدير الصراع بين الاستضعاف والاستعلاء، وكيف لا يضيع وعده ولو بدا الواقع كله ضده.

٣. ثم سورة العنكبوت تقول لك: بعد أن عرفت هذا ورأيت هذا، فاعلم أن المطلوب منك ليس الإعجاب بالحق من بعيد، بل الثبات عليه حين تُفتن، لأن بيت الاعتماد على غير الله أوهى من أن يحميك.

فيمكن تلخيص هذا الخيط المحكم في عبارة واحدة جامعة:

← سورة النمل تبني اليقين بالله.

← وسورة القصص تبني اليقين بسُنَنِه.

← وسورة العنكبوت تبني اليقين بالطريق إليه تحت الفتنة.

أو بعبارةٍ أشد تركيزاً: من توحيد الرَّب في النمل، إلى تدبير أقداره حلّ وعلا في القصص، إلى تمحيص الصدق في العنكبوت.

ولو أردنا أن نصوغه بصياغة وجدانية تأسيسية مكثفة، لقلنا: هذه السور الثلاث تمسك بيد القلب من أول المعرفة إلى آخر الثبات؛

١. تعلّمه أولاً أن لا إله إلا الله حقّاً،

٢. ثم تريه كيف تتحرك هذه الحقيقة في التاريخ مهما علا فرعون أو فتن قارون،

٣. ثم تدخله ميدان الامتحان ليظهر هل صار هذا العلم إيماناً حيّاً أم بقي كلماتٍ لا تصبر عند الألم؛

٤. حتى ينتهي القلب إلى يقينٍ صافٍ: الحق قد يُحارَب لكنه لا ينهزم، وأهله قد يُستضعفون لكنهم لا يضيعون، والطريق قد يمتلئ فتنةً لكنه لا يخرج عن عناية الله تعالى، ومن احتمى بغيره كان كبيت العنكبوت، ومن احتمى به وحده فالعاقبة له.

لماذا يوجد الابتلاء أصلاً؟... سؤال القلب حين يثقل الطريق

حين يقرأ الإنسان قول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ قد يقف قلبه أمام سؤالٍ صريحٍ يهمس به كثير من الناس في داخلهم:

١. لماذا خُلِقنا أصلاً ثم نُبتلى؟

٢. ولماذا يكون الطريق إلى الله مليئاً بالتعب والاختبارات؟

٣. أليس الإيمان كلمةً يقولها الإنسان بقلبه ويكفي؟

٤. ولماذا تتكرر في الحياة تلك اللحظات التي يشعر فيها الإنسان أن قلبه أثقل من أن يحتمل ما يجري حوله؟

وهذا السؤال في حقيقته ليس اعتراضاً على الله تعالى بقدر ما هو صرخة قلبٍ متعبٍ يحاول أن يفهم سرّ الطريق الذي يسير فيه.

فالإنسان بطبيعته يحب الطمأنينة والراحة والاستقرار، لكنه خُلِق في عالمٍ ليس دار استقرار، بل دار عبورٍ واختبار، ولهذا فإن السؤال الحقيقي ليس: لماذا يوجد الابتلاء؟ بل السؤال الأعمق: ماذا يريد الله تعالى أن يصنع بالإنسان من خلال هذه الابتلاءات؟

إن الإنسان حين يُولد لا يأتي إلى الدنيا مكتمل القلب ولا كامل الوعي، بل يأتي بقلبٍ قابلٍ أن يتشكل، وأن يضعف، وأن يقسو، وأن يتطهّر.

والابتلاء ليس عقوبةً على وجود الإنسان في هذا العالم، بل هو الطريق الذي يُعاد فيه تشكيل القلب حتى يعرف ربّه معرفةً حقيقية.

فكثيرٌ من المعاني العظيمة لا يمكن أن يتعلمها الإنسان وهو في دائرة الراحة الدائمة؛

- معنى الصبر،
- ومعنى التوكل،

- ومعنى الصدق مع الله،
- ومعنى أن يكتشف الإنسان ضعفه الحقيقي أمام خالقه.

ولذلك فإن لحظات الابتلاء في حياة المؤمن ليست مجرد لحظات ألم، بل لحظات كشف... ففيها يرى الإنسان نفسه على حقيقتها؛

١. يرى مقدار تعلقه بالدنيا،
٢. ويرى مقدار صدقه في دعواه أنه يؤمن بالله ويثق به،
٣. ويرى كم كان يعتمد على الأسباب والأشخاص قبل أن تُسحب منه بعض تلك الأسباب ليكتشف أن قلبه كان يحتاج أن يتعلم معنى الاعتماد على الله تعالى وحده.

لكن القرآن لا يطلب من الإنسان أن يحب الألم نفسه، ولا أن يتظاهر بالقوة حين يتعب قلبه، بل يُعلّمه أن يفهم معنى الطريق الذي يسير فيه.

فالابتلاء في ميزان القرآن ليس علامة على أن الله تخلى عن عبده، بل كثيراً ما يكون علامة على أن الله تعالى يريد أن يرفعه إلى درجةٍ لا يصل إليها إلَّا من خلال الصبر والتزكية.. ولهذا كان أشد الناس ابتلاءً هم الأنبياء، لا لأن الله أراد لهم التعب، بل لأن الطريق الذي يحمل رسالة الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يُبنى على قلبٍ لم يصقله الابتلاء.

وحين يدرك القلب هذا المعنى يتغير السؤال كله؛ فلا يعود يسأل: لماذا أتعب؟ بل يبدأ يسأل سؤالاً آخر: ماذا يريد الله أن يعلمني من هذا الابتلاء؟ لأن كثيراً من الابتلاءات ليست نهاية الطريق، بل بدايات التحول الحقيقي في حياة الإنسان.

- كم من إنسانٍ لم يعرف الله تعالى بصدقٍ إلَّا بعد ألمٍ مرّ به،
- وكم من قلبٍ لم يكتشف قيمة الدعاء إلا حين ضاقت به الأسباب،

- وكم من إنسانٍ كان يظن نفسه قوياً حتى كشف له الابتلاء ضعفه فاقترب من الله سبحانه وتعالى لأول مرة بصدق.

ولهذا فإن الآية لا تريد أن تُثقل قلب المؤمن، بل تريد أن تصحح فهمه للطريق... فالإيمان في القرآن ليس كلمةً تُقال ثم تستمر الحياة بعدها كما كانت، بل هو بداية رحلةٍ يتغير فيها القلب شيئاً فشيئاً حتى يصبح أقرب إلى الله وأصدق معه... والابتلاء في هذه الرحلة ليس علامة فشل، بل علامة أن القلب ما زال يُصنع ويُربّى ويُطهَّر.

فإذا وقف الإنسان يوماً متعباً من الطريق، فليس المطلوب منه أن يخفي تعبه، بل أن يتذكر الحقيقة الكبرى التي يغفل عنها كثير من الناس: أن الله لا يبتلي عباده ليكسرهم، بل ليُعيد تشكيل قلوبهم حتى تصبح قادرةً على حمل الإيمان بصدق.. وأن الحياة التي تخلو من الابتلاء قد تكون أهدأ ظاهراً، لكنها كثيراً ما تُبقي القلب كما هو، دون أن توقظه إلى حقيقته الكبرى.

ولهذا تبقى هذه الآية كأنها تقول للقلب المتعب بلطفٍ عميق: إن الطريق الذي تسير فيه ليس طريق كلماتٍ تُقال، بل طريق قلوبٍ تتغير، وإن الفتنة التي تمرُّ بك ليست نهاية رحلتك مع الله، بل قد تكون الباب الذي تدخل منه إلى معرفةٍ أعمق به، وإلى إيمانٍ لم يكن ليولد في قلبك لولا أن مررت بهذا الطريق.

الخريطة البنيوية العظيمة للجزء العشرين

١) انقلاب الموازين أولُ السقوط: حين تبلغ الفطرة هذا الحدّ من الانتكاس يصير الطُّهرُ تهمة، ويُطرَد أهلُه لأن وجودهم يفضح العفن المستور، كما في قولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وهنا يبدأ الخراب الحقيقي: حين يُستثقَل النقاء ويُستراح إلى الفساد.

٢) سُنَّةُ الله لا تُبقي الطاهر والمفسد في منزلةٍ واحدة: نجّى الله لوطاً وأهله، وأهلك المجرمين، ليعلّم القلب أن التمييز واقعٌ لا محالة، وأن عاقبة

الاصطفاف الباطني تظهر يوماً في المصير الظاهر، فلا تنفع القربى بلا إيمان، ولا ينجو من رضي بالفساد وإن عاش بين الصالحين.

٣) من مشهد الهلاك إلى أصل القضية: من هو الإله الحق؟: بعد قصة لوط لا يتركك القرآن عند العبرة الأخلاقية فقط، بل يردّك إلى الجذر الأعمق: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، لأن فساد السلوك في آخره راجعٌ إلى فساد التوحيد في أوله.

٤) التوحيد ليس فكرةً ذهنية بل قراءةٌ صحيحةٌ للكون كلِّه: خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء، وإنبات الحدائق، وجعل الأرض قراراً، والأنهار، والرواسي، والحواجز بين البحار، كلها ليست مناظر مبهرة فقط، بل أدلة متتابعة تقول للقلب: المدبّر واحد، فلا تفرّق ما جمعه الكون من الشهادة لله سبحانه.

٥) أشدّ مواضع التوحيد وضوحاً: ساعةُ الاضطرار: حين ينكسر الإنسان وتسقط الأسباب من يده، لا يتجه قلبه في الحقيقة إلا إلى من يعلم أنه يجيب ويكشف السُّوء، ولهذا كانت ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ من أعظم ما يهزّ القلب؛ لأنها تكشف توحيد الفطرة حين تتعرى من الزخارف، أي حين تزول عن القلب الغفلة والتزيّن الكاذب، فلا يبقى فيه إلَّا صدق الافتقار إلى الله تعالى وحده.

٦) الهداية في الطريق الحسي تذكيرٌ بالحاجة إلى الهداية في الطريق المعنوي: من يهدي في ظلمات البر والبحر هو وحده القادر أن يهدي في ظلمات الفتن والشُّبهات والشَّهوات، فكما لا يُستغنى عنه في السَّفر الظاهر لا يُستغنى عنه أبداً في سفر القلب إلى الآخرة.

٧) الذي يبدأ الخلق هو وحده الذي يعيده ويرزق أهله: لذلك كان إنكار البعث خللاً في أصل النظر، لأن من أوجد أول مرة لا يعجز عن الإعادة،

ومن رزقك من السماء والأرض لن يعجز عن أن يبعثك ويحاسبك ويجازيك.

٨) الغيب بابٌ مغلقٌ على الخلق كلِّهم ومفتوحٌ لله وحده: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وفي هذا تطهيرٌ للقلب من التَّعلُّق بالأوهام والدجَل والتخرصات، وردٌّ له إلى مقام العبودية والتسليم، **التخرّصات** تعني: الادعاءات والظُّنون التي تُقال بلا علمٍ ولا دليل، كالتكهنات وادّعاء معرفة الغيب.

٩) الشَّك في الآخرة ليس نقصَ معلومات فقط بل عمى قلب: فالقرآن لا يصفهم بأنهم جاهلون وحسب، بل يقول: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾، أي أن المشكلة ليست غياب البرهان، بل وجود هوىً يكره أن يرى الحقيقة.

١٠) التاريخ المفتوح على الأرض كتابُ عواقب لا كتابُ آثار فقط: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ليس دعوةً للنظر السياحي، بل للنظر الذي يوقظ الخوف والبصيرة: كيف انتهى المجرمون؟ وكيف سقطت الأمم التي ظنت أن قوتها تمنعها من حساب الله؟

١١) المكر لا يستحق أن يسرق قلب الداعية من التوكل: لذلك قال له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، لأن انشغال القلب بمكرهم فوق ما ينبغي يضعف استحضار تدبير الله تعالى فوقهم.

١٢) تأخير العقوبة ليس غفلةً من الله تعالى بل فضلٌ وحلم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، فهو يمهل، ويستر، ويرسل، وينذر، ويفتح أبواب التوبة، لكن أكثر الناس لا يقرؤون الإمهال قراءة شُكر، بل قراءة غفلة.

١٣) سرائر الخلق محفوظة عند الله قبل علانياتهم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وهذه الآية تهز القلب من الداخل: فلا نفاق يضيع عن علمه، ولا ألم يخفى عنه، ولا نية تنفلت من كتابه المبين.

١٤) القرآن لا يعرض القصص للتسلية بل للفصل والهداية: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ...﴾ ثم ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالقصة القُرآنية ليست ترفاً ذهنياً، بل ميزاناً يكشف الحق ويهدي القلب إن أقبل عليه بصدق.

١٥) إذا ثبت الحق فالوظيفة بعده التوكل لا الاضطراب: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، فاليقين بالحق ينبغي أن يلد في القلب سكينةً وثباتاً، لا قلقاً دائماً يستهلك الروح.

١٦) ليست كل أذنٍ تسمع، ولا كل عينٍ تبصر: فالقرآن يصف من أُغلق قلبه بأنه كالميت والأصم والأعمى، ليُعلِّمك أن أزمة الهداية أعمق من مجرد وصول الكلمات؛ إنها استعدادٌ باطنيّ لقبول الحق.

١٧) إذا انتهت مهلة الاختيار ظهرت الآيات التي لا تنفع بعدها تذكرة: خروج الدابة، والحشر، والسؤال، والصمت المطبق على المكذبين، كلُّ ذلك يقول للقلب: لا تؤخر اليقين إلى وقت لا ينفع فيه النَّدم.

١٨) الليل والنهار من رحمات الله اليومية التي لا ينتبه لها الغافلون: السكون في الليل، والإبصار في النهار، ليستا عادتين كونيتين فقط، بل نعماً متجددة تستحق شكراً حياً، ومن لم يرَ آيات الله تعالى في المألوف فسيعسر عليه أن يراها في المدهش.

١٩) يوم القيامة يتزلزل ما كان يبدو ثابتاً: حتى الجبال التي تُرى جامدة تمرُّ مرَّ السَّحاب، ليُعلِّم الإنسان أن ثبات الدنيا نفسه مؤقت، وأن الركون إلى ما فيها كأنه باقٍ خطأٌ في أصل التصور.

٢٠) النجاة هناك ليست بالأماني بل بما جئتَ به: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ و﴿مَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾، فالمشهد ليس مشهد دعاوى، بل حصاد ما حمله القلب والجوارح عبر العُمُر.

٢١) رسالة النبي ﷺ تتلخص في العبودية والبلاغ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ ثم ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾، فكأنَّ الجزء يضع أمامك الطريق كله: عبوديةٌ صادقة، وارتباطٌ بالوحي، وبلاغٌ للحق بلا ادعاء تحكم في مصائر القلوب.

٢٢) فرعون صورةُ العُلوِّ حين يتحول السلطان إلى إفسادٍ منظم: في القصص لا يُعرض فرعون فقط كملك ظالم، بل كنموذجٍ يبني بقاءه على التفريق، والاستضعاف، والقتل، وإشاعة الخوف، وهكذا يفعل كل باطل إذا تمكّن من أدواته، أي إذا امتلك وسائل القوة والنفوذ التي تُمكّنه من فرض باطله وإفساده على الناس.

٢٣) حين يشتدّ الاستضعاف ويظنّ الناس أن القهر هو نهاية القصة: يذكّر القرآن بأن تدبير الله يجري فوق ما تراه العيون؛ قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾، فالوعد بالتمكين ليس قانوناً آلياً ولا وعداً لكل حال، بل هو قدرٌ يجري بحكمة الله وفي الوقت الذي يشاء، حين تتحقق أسبابه التي أرادها الله.. فالعين قد ترى واقع القهر، أما الوحي فيُعلِّم القلب أن الله يُدبّر الأمور بحكمةٍ قد تخفى على الناس، وأن الموازين الحقيقية بيد الله لا بيد الواقع.

٢٤) أمُّ موسى تتعلم أن الثقة بالله قد تمرّ من بوابةٍ تهز الفطرة: أن تُلقي ولدها في اليم بأمر الله ليس مشهداً عادياً، بل درساً عظيماً: أحياناً يكون أعظم أسباب الحفظ أن تسلّم لله فيما لا يطمئن إليه الحسّ أول وهلة.

٢٥) تدبير الله يعمل أحياناً من داخل بيت العدو نفسه: الذي التقط موسى عليه السَّلام ليتخذه ولداً هو نفسه البيت الذي سيخرج منه عدواً وحزناً، وفي هذا تعليمٌ للقلب أن أسباب النجاة قد تُصنع في أكثر الأماكن التي يظنها الناس خطراً.

٢٦) ربط القلب نعمة عظيمة لا تقل أهمية عن زوال المشكلة نفسها؛ قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾، فالله تعالى أحياناً لا يغيّر الواقع فوراً، لكنه يثبّت قلب العبد حتى يقدر على الصبر والاحتمال؛ لأن الإنسان قبل أن يأتيه الفرج يحتاج إلى قلبٍ ثابت، فلو انهار القلب قبل الفرج فلن يحتمل الطريق حتى يصل إليه.

٢٧) وعد الله قد يتأخر في عين الإنسان لكنه لا يضيع: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ... وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، فالمقصود ليس فقط ردّ الطفل، بل بناء يقينٍ في القلب أن الله إذا وعد فلا يخذل، وإن تأخرت كيفية الوعد عن توقعاتنا.

٢٨) العبد المحسن لا يُترك بلا إعداد: موسى عليه السَّلام بلغ أشده وآتاه الله حكماً وعلماً، ليقول الجزء إن التمكين الرسالي لا يُبنى على الحماسة وحدها، بل على تربيةٍ وعلمٍ ونضجٍ وإحسان.

٢٩) العثرة لا تُسقط الصادق إذا أسرع إلى ربه: في خطأ موسى عليه السَّلام ثم توبته درسٌ بالغ: الصالح لا يبرر ذنبه ولا يتجمل فوقه، بل يقرّ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، ومن هنا تبدأ استقامته الجديدة.

٣٠) ثمرة المغفرة الصادقة أن يتبدل المسار لا أن يهدأ الضمير فقط: لذلك قال بعد المغفرة: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، فالتوبة الحقّة تنشئ موقفاً جديداً من الباطل لا مجرد حزن عابر على الماضي.

٣١) الخوف إذا صحبه دعاءٌ وهدايةٌ صار معبراً لا قبراً: خرج موسى عليه السَّلام خائفاً يترقب، لكنه قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي﴾ ثم ﴿عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي﴾، فالمؤمن لا يُمدَح لأنه لا يخاف، بل لأنه يحمل خوفه إلى الله لا إلى اليأس، أي أن الخوف شعور طبيعي، لكن المؤمن يواجهه باللُّجوء إلى الله والثقة به، لا بالاستسلام لليأس والقنوط.

٣٢) النجدة الحقيقية تكشف معدن الإنسان ولو كان غريباً طريداً: في مدين لم تمنع الغربة موسى عليه السَّلام من أن يسقي للمرأتين، فالقلب الكريم يظهر في ضعفه كما يظهر في قوته، بل ربما كان أصدق في الضعف.

٣٣) الافتقار بعد الإحسان أكمل من طلب المكافأة بعد الإحسان: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، فبعد أن قدّم معروفه لم يمدّ عينه إلى الناس، بل رفع فقره إلى الله تعالى.

٣٤) ميزان الأهلية في القرآن: قوةٌ تحفظ العمل، وأمانةٌ تحفظ القلب: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، وهذه من أعظم موازين الحياة؛ لأن القوة بلا أمانة مفسدة، والأمانة بلا قدرة تعجز عن حمل الأمانة.

٣٥) سنوات الخفاء قد تكون جزءاً من صناعة الرسالة: مقام موسى عليه السَّلام في مدين، والزواج، والعمل، ثم المسير بالأهل، كلها ليست فراغاً بين مرحلتين، بل إعداداً هادئاً لعبدٍ سيحمل بعد ذلك أعباء مواجهة الطغيان.

٣٦) الاصطفاء يبدأ بتعريف العبد بربه قبل تكليفه بحمل الرسالة؛ قال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فقبل مواجهة الناس يُثبِّت الله قلب عبده بمعرفته وتعظيمه، لأن من امتلأ قلبه بمعرفة الله يثبت أمام الطغيان، أما من ضعف يقينه بربه فلن يقوى على الثبات في ميادين الدعوة والابتلاء.

٣٧) الأنبياء يعرفون ضعفهم البشري لكنهم لا يهربون من أمر الله: ذكرُ موسى عليه السَّلام ماضيه، وخوفه، وحاجته إلى أخيه، فلم يخرجه ذلك من مقام الطاعة، بل زاده صدقاً واعتماداً على معونة الله تعالى.

٣٨) وعد الله عند التكليف أعظم من رهبة المكلَّف من الطريق: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، فحين يكلف الله عبداً لا يرسله وحده بلا مدد، بل يفتح له من أسباب التثبيت بقدر ما يعينه على حمل الرسالة.

٣٩) أصل طغيان فرعون عقدي قبل أن يكون سياسياً: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، فكل استبدادٍ في الأرض جذره النهائي نوعُ تألهٍ أو منازعةٍ لله في حق من حقوقه.

٤٠) علوُّ الباطل لا يغير مصيره بل يعجّل عبرته: استكبر فرعون وجنوده وظنوا أنهم لا يرجعون، ثم كانت النهاية في اليم، ليبقى الدرس واضحاً: من نسي المرجع إلى الله أهلكه وهمُ القوة قبل أن يهلكه الماء.

٤١) بعد سقوط الجبابرة يبقى الوحي هو البصائر والهدى والرحمة: فليس المقصود من إهلاك الأمم مجرد إخلاء الساحة، بل فتح الطريق لنور الكتاب الذي يبصر الناس إن أرادوا أن يتذكروا.

٤٢) الاعتراضات المتكررة على الوحي ليست دائماً طلباً للهداية بل أحياناً تهربٌ منها: طلبوا كتاباً آخر، ثم كفروا بما أوتي موسى، ثم جاء الحكم الكاشف: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، وهذه قاعدة عظيمة في فهم كثير من الخصومات.

٤٣) أهل الكتاب الذين عرفوا الحق كانت علامتهم الخضوع له لا الاستكبار عليه: آمنوا به وقالوا: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾، ثم ظهر أثر هذا الإيمان في الصبر، ودفع السَّيئة بالحسنة، والإنفاق، والإعراض عن اللَّغو.

٤٤) الهداية بيد الله مهما اشتد حب الداعية وهمُّه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وهي آية تُحرر القلب من الاحتراق بالعجز عن تغيير من يحب، وترده إلى مقام البلاغ والدعاء والتسليم، أي أن الداعية قد يحب إنساناً ويتمنى هدايته بشدة، لكنه لا يملك أن يضع الهداية في قلبه؛ فالهداية بيد الله وحده، وعلى الداعية أن يقوم بالبلاغ والنصح ثم يسلّم الأمر لله.

٤٥) الخوف على الرزق أو الأمن من أكثر الأعذار التي تصد الناس عن الهدى: لكن القرآن يردّ هذا الوهم بأن الأمن والرزق منحةٌ من الله لا تحرسها المخالفة، بل يهددها الكفر ويضيعها البطر.

٤٦) الدنيا مهما عظمت في عين صاحبها فهي متاعٌ وزينة، لا معيارُ فلاحٍ نهائي: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾، ومن هنا يبدأ تحرر القلب من الانبهار بما يملكه الناس.

٤٧) في الآخرة يسقط الوهم الكبير: الشركاء، والتابعون، والمضلون، والمتبوعون يُنادَون فلا يستجيب لهم أحد، ويتبرأ بعضهم من بعض، ثم يبقى السؤال الصاعق: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾، وهو سؤال العمر كلّه في جملة واحدة.

٤٨) باب الفلاح لا يُغلق ما دام في العمر توبةٌ وإيمانٌ وعمل: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾، فبعد كل مشاهد الهلاك والوعيد يبقى باب الله مفتوحاً لمن أراد الرجوع حقاً.

٤٩) اختيار الله فوق اختيار الناس، وعلمه فوق أوهامهم، وحكمه فوق أحكامهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ﴾، فمن رسخ هذا في قلبه سكن من صراع التنافس على ما لم يكتبه الله له، وانشغل بما يرضيه سبحانه.

٥٠) الليل والنهار نفسُهما مدرسة شكرٍ وتوحيد: لو جعلهما الله سرمديين لاختنق العيش، فتعاقبهما رحمة، وملاحظتهما عبادة، وشكرهما وعيٌ بأن أبسط ما اعتاده الإنسان هو في الحقيقة عطية ربانية لا تملكها يدٌ سواه.

٥١) يكشف القرآن في قصة قارون خطورة أن يتحول المال من نعمةٍ تُذكِّر العبد بربه إلى سببٍ للغفلة والغرور؛ إذ قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾، فظنّ أن ما عنده من مال هو ثمرة قدرته وحده، ونسي أن النِّعم عطيةٌ من الله، فإذا نُسب الفضل إلى النفس بدل المُنعم بدأ طريق الطغيان.

٥٢) منهج أهل الإيمان مع الدنيا ليس رفضها ولا الذوبان فيها: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، فالتوازن الحق أن تستخدم الدنيا في طاعة الله لا أن تستخدمك هي في إبعادك عنه.

٥٣) العين التي تريد الحياة الدنيا تنبهر بالزينة، والعين التي أوتيت العلم ترى ما وراءها: هنا ينقسم الناس عند بريق المال: فريقٌ يتمنى المظهر، وفريقٌ يزن الأمور بثواب الله تعالى، ولا يلقّى هذا الميزان إلّا الصابرون.

٥٤) الخسف بقارون درسٌ في هشاشة ما يُغترّ به من مالٍ وجاه: فما أغنت عنه كنوزه، ولا نصرته فئته، وانقلب الإعجاب به إلى عبرةٍ ترد الناس إلى حقيقة أن الرزق بيد الله تعالى، وأن الكافرين لا يفلحون.

٥٥) الخلاصة التربوية الجامعة في القصص: الآخرة لا تُنال بقلبٍ يريد العُلُو ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾، فالمشكلة الأعمق ليست في الوسائل فقط، بل في إرادة الاستعلاء الكامنة في القلب.

٥٦) ختام القصص يردّ القلب إلى أصل الطريق: القرآن رحمة، والدعوة إليه عهد، والتوحيد هو النهاية التي يفنى عندها كل شيء سواه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، فمن استقر هذا في قلبه هان عليه ما يفوته، وخاف مما يفسد صلته بالباقي سبحانه.

٥٧) العنكبوت تفتتح الجزء بالقانون الذي يفسر كل ما سبق: الإيمان لا يُترك بلا فتنة ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا﴾، فكأنَّ كل ما مرّ من قصص الاستضعاف والطغيان والنجاة والهلاك يُضغط هنا في قاعدة واحدة: الصدق لا يثبت إلّا بعد الامتحان.

٥٨) الفتنة ليست عقوبةً دائماً؛ قد تكون أداة كشف وتمييز وتمحيص: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، فالمحنة قد لا تكون علامة رفض، بل ميداناً يظهر فيه معدن القلب الذي كان مستوراً في أوقات السَّعة.

٥٩) السيئات لا تُفلت أصحابها من قبضة الله تعالى ولو ظنوا أنهم يسبقون ولهذا جاء بعدها مباشرة: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾، حتى لا يظن المؤمن أن تأخر الأخذ يعني غياب العدل،أي لا يظنّ المؤمن أن تأخّر عقوبة الظالمين يعني أنهم أفلتوا من حساب الله؛ فالله يمهلهم لكنه لا يفلتهم.

٦٠) من كان يرجو لقاء الله صبر على الطريق لأن النهاية عنده أوضح من ألم المرحلة: فالرجاء الحق في الله تعالى يخفف وحشة الفتنة، ويجعل العبد يقرأ التعب بوصفه عبوراً لا مقاماً دائماً.

٦١) المجاهدة كلها راجعةٌ إلى نفع العبد نفسه: الله تعالى غني عن العالمين، لكن العبد هو الذي يتهذب، ويتطهر، ويثبت، ويترقى حين يجاهد نفسه وهواه وشهوته وخوفه.

٦٢) حتى أقرب الناس قد يكونون موضع ابتلاء في أصل التوحيد: مع الوصية بالوالدين حسناً يأتي الحد الفاصل: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك، ليبقى القلب رحيماً ثابتاً، باراً غير متنازل عن حق الله تعالى.

٦٣) من الناس من لا يسقط عند إنكار الحق بل عند ثمن الثبات عليه: يجعل فتنة الناس كعذاب الله، وهذا يكشف أن المشكلة ليست في الإيمان المعلن، بل في هشاشة التعظيم في القلب حين يواجه الأذى.

٦٤) المضلون يكذبون حين يعدون أتباعهم بحمل خطاياهم: لأن كل نفس مسؤولة عن اختيارها، ثم فوق ذلك يحمل المُضلون أوزار إفسادهم، فيجتمع عليهم ذنب الانحراف وذنب الإضلال.

٦٥) طول زمن الدعوة لا يعني فشلها، كما أن قلة المستجيبين لا تبطل حقيقتها: نوح عليه السَّلام لبث فيهم عمراً طويلاً، ثم كانت النجاة لأهل السَّفينة والهلاك للظالمين، فالعبرة ليست بسرعة الثمرة بل بصدق الطريق.

٦٦) دعوة إبراهيم عليه السَّلام تلخص جوهر الرسالات: العبادة، والتقوى، وتصحيح مصدر الرزق، وردّ القلب إلى الله: ومن هنا يعلم المؤمن أن ضعف توحيد الرزق من أعظم ما يُزلزل الثبات على الحق.

٦٧) إذا عجز أهل الباطل عن مواجهة الحق بالحجة لجؤوا إلى القهر والإيذاء: كما فعل قوم إبراهيم حين قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، لكن نجاة إبراهيم عليه السَّلام تذكّر بأن الأمر كله بيد الله، وأن النار وغيرها من الأسباب لا تضر ولا تنفع إلَّا بإذن الله، فهو سبحانه الذي قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

٦٨) الروابط التي تُبنى على غير الله تنقلب يوم القيامة إلى تباغضٍ وتلاعن: فليست كل مودةٍ نجاة، وليست كل جماعةٍ أماناً، بل قد تكون بعض الجماعات الدنيوية وقود خذلانٍ آخروي.

٦٩) الهجرة إلى الله ليست انتقال مكان فقط بل انحياز قلبٍ ودين: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، وهذه من أعظم معاني الطريق في هذا الجزء كله: الانفصال عن الباطل بالبدن إن لزم، وبالقلب دائماً.

٧٠) فساد قوم لوط ليس شهوةً منفردة بل منظومةُ انحرافٍ شامل: فاحشة، وقطع سبيل، ومنكرٌ معلن، ثم تحدٍّ للعذاب؛ وهذه صورة المجتمع إذا تواطأ على قلب الفطرة ثم استكبر على النصيحة.

٧١) دعاء لوط عليه السَّلام: ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ يعلّم أن المؤمن لا يركن إلى نفسه حين يستحكم الفساد: بل يرفع أمره إلى الله حين يعجز عن تغيير ما طغى وتمرد.

٧٢) شعيب عليه السَّلام يجمع بين العبادة ورجاء الآخرة وترك الإفساد في الأرض: فالدين في القرآن لا يفصل بين حق الله وحق الناس، بل يربط بين التوحيد والاستقامة العملية في العمران والمعاملة.

٧٣) المساكن الباقية بعد الهالكين ليست آثاراً صامتة، بل رسائل ناطقة عاد، وثمود، ومدين، وغيرهم، كلهم يصرخون بمعنى واحد: من استكبر على آيات الله فلن تعجزه قوتُه عن عقوبته.

٧٤) الجامع بين صور الهلاك المختلفة أن الذنب واحد في الجذر: الاستكبار عن الحق، حاصب، وصيحة، وخسف، وغرق، ووراءها كلها قاعدة واحدة: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٧٥) بيت العنكبوت هو الصورة الجامعة لكل اعتمادٍ على غير الله: يبدو بيتاً، لكنه لا يحمي، ويبدو مأوى، لكنه أوهى البيوت، وهكذا كل قلبٍ احتمى بمالٍ أو سلطانٍ أو جماعةٍ أو هوى أو شَهوةٍ أو شخصٍ بدل الله تعالى.

٧٦) لا يدرك عمق هذه الأمثال إلا من أوتي علماً يعقل به حقائق الأشياء لا ظواهرها فقط: فكم من حصنٍ في الظاهر وهو في الميزان الرَّباني أوهى من خيط عنكبوت.

٧٧) خاتمة هذا المقطع من العنكبوت تعطي علاج الطريق كلِّه: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، فالثبات أمام الفتنة، والتحرر من بريق الباطل، وكسر وهن بيت العنكبوت، لا يكون إلا بوحيٍ يُتلى وصلاةٍ حقيقيةٍ وذكرٍ يُعظم الله تعالى في القلب.

الخيط البنيوي الجامع للجزء كله:

هذا الجزء ليس قصصاً متجاورة، بل بناءٌ واحد يبدأ بكشف فساد الموازين، ثم يردّك إلى التوحيد، ثم يريك سُنن الله في التاريخ، ثم يفضح فتنة السُّلطان والمال، ثم يقرر أن الإيمان لا يثبت إلا بالفتنة، حتى ينتهي بك إلى يقينٍ واحد:

من اعتصم بالله نجا، ومن ركن إلى غيره سقط، ومن أراد الآخرة بقلبٍ لا يطلب العُلُو والفساد كانت العاقبة له بإذن الله.

من فساد السلوك... إلى أصل الخلل في القلب

بعد أن يعرض القرآن مشهد الهلاك الذي انتهت إليه قصة قوم لوط، قد يظن القارئ لأول وهلة أن العبرة تقف عند حدود الانحراف الأخلاقي الذي وقعوا فيه، وكأن القضية مجرد تحذيرٍ من سلوكٍ فاسدٍ أو شهوةٍ منحرفة.

لكن القرآن لا يترك القلب عند هذا المستوى من الفهم، بل يأخذك خطوةً أعمق، خطوةً تعيدك إلى أصل المسألة كلها، إلى الجذر الذي تنبت منه كل الانحرافات في حياة الإنسان.

ولهذا يأتي السؤال القرآني بعد تلك المشاهد الثقيلة سؤالاً يهزّ ميزان القلب: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

إنه سؤالٌ يبدو بسيطاً في ظاهره، لكنه في حقيقته يعيد ترتيب كل شيء في داخل الإنسان؛ لأنه يذكّره أن المشكلة الكبرى في حياة البشر ليست في السلوكيات التي تظهر في النهاية، بل في الخلل الذي يبدأ في أعماق القلب حين يختل **ميزان التوحيد**.

فحين تضعف مراقبة الله في قلب الإنسان، ويبهت معنى العبودية، ويصبح الله تعالى في حياته فكرةً بعيدة بدل أن يكون المرجع الأعلى الذي يُوزن به كل شيء، تبدأ الانحرافات الصغيرة بالظهور شيئاً فشيئاً، ثم تتكاثر حتى تتحول في النهاية إلى فسادٍ ظاهر يراه الناس.

وهنا يكشف القرآن حقيقةً عميقة يغفل عنها كثير من الناس: أن فساد السلوك في آخره ليس إلا ثمرةً لفسادٍ أقدم في الداخل؛ لأن القلب إذا لم يمتلئ

بعظمة الله تعالى امتلأ بغيره، وإذا لم يكن الله هو المعيار الذي تُضبط به الشهوات والرغبات، فإن الإنسان سيبحث دائماً عن معيارٍ آخر يبرّر به ما يريد.

ولهذا لم يكتف القرآن بعرض قصة قوم لوط بوصفها حادثةً أخلاقيةً في التاريخ، بل أعادها إلى أصلها الحقيقي: إلى السؤال الأكبر الذي يحدّد مصير الإنسان كله، سؤال التوحيد نفسه.. فكل طريقٍ يبتعد فيه الإنسان عن الله يبدأ في لحظةٍ ما حين يضع في قلبه شيئاً آخر مكان الله، سواء كان هوىً أو شهوةً أو عادةً أو ضغط مجتمع.

ومن هنا نفهم لماذا يعيد القرآن دائماً ربط السلوك بالعقيدة؛

- لأن إصلاح الظاهر لا يكتمل إلا بإصلاح الأصل،
- وإصلاح الأصل يبدأ حين يعود القلب ليجيب بصدق عن هذا السؤال الذي طرحه القرآن: من هو الإله الذي يُقدَّم أمره في حياتك حقّاً؟ أهو الله الذي خلقك ويعلم سرّك وعلانيتك، أم تلك الأشياء التي يزيّنها الهوى حتى تبدو للنفس كأنها أحقُّ بالطاعة؟.

وحين يستقر هذا المعنى في القلب، يدرك الإنسان أن التوحيد ليس مجرد قضيةٍ عقديةٍ تُحفظ في الذهن، بل هو الميزان الذي يحفظ حياة الإنسان كلها من الانحراف؛ لأنه كلما قوي حضور الله ومراقبته في القلب ضعفت سلطة الشَّهوة، وكلما امتلأ القلب بعظمة الله انكسرت فيه الدوافع التي تقود إلى الفساد.

ولهذا يعود القرآن بالقارئ من مشهد الهلاك إلى أصل القضية كلها، ليقول له بلطفٍ حازم: إن الطريق إلى إصلاح السلوك لا يبدأ من مطاردة الأخطاء الظاهرة فقط، بل يبدأ من المكان الذي تتولد فيه تلك الأخطاء أصلاً... من القلب الذي إن صحَّ **توحيده** صلحت حياته كلها.

ليس الزُّهد أن تترك الدنيا... ولا الحكمة أن تغرق فيها

تمرُّ في القرآن آيةٌ عظيمةٌ كثيراً ما تُتلى، لكن قليلاً ما يُفهم ميزانها بدقّة، وهي قول الله تعالى في خطاب قارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

هذه الآية ليست جملةً عابرةً في قصةٍ تاريخية، بل هي قاعدةٌ عظيمةٌ في فهم علاقة المؤمن بالدنيا كلها، لأنها ترسم الميزان الذي يضيع عند كثيرٍ من الناس بين طرفين متناقضين: طرفٍ يظن أن الطريق إلى الله يمرّ عبر ترك الدنيا كلها وكأنها شرٌّ يجب الهروب منه، وطرفٍ آخر يظن أن النجاح الحقيقي هو الذوبان في الدنيا حتى تصبح هي محور الحياة وغايتها.

لكن القرآن لا يعلّم الإنسان هذا ولا ذاك؛ لأن الإسلام لم يأت ليحوّل الإنسان إلى كائنٍ هاربٍ من الحياة، ولا ليجعله عبداً لشهواتها.. بل جاء ليعيد ترتيب العلاقة بين الإنسان والدنيا ترتيباً صحيحاً.

ولهذا جاءت الآية بترتيبٍ مقصودٍ عجيب: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ ثم قال بعدها مباشرةً ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾. فالأصل الذي ينبغي أن يتجه إليه قلب الإنسان هو الآخرة، أما الدنيا فليست غاية الطريق بل وسيلته.

لكن المشكلة أن كثيراً من الناس يقرأون الشطر الثاني من الآية وحده، فيجعلون قول الله ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ذريعةً لتبرير الانغماس في الدنيا وكأنها المقصد الأكبر، بينما يغيب عنهم أن الآية بدأت قبل ذلك بتحديد الاتجاه الحقيقي للقلب: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾.

فالقرآن لا يقول للإنسان: اترك الدنيا، ولا يقول له: اجعلها غايتك، بل يقول له: اجعلها طريقك إلى الله.

فكل ما آتاك الله من مالٍ أو علمٍ أو قوةٍ أو وقتٍ أو مكانةٍ ليس ملكاً مطلقاً

لك، بل أمانةٌ في يدك لتستخدمها في طريقٍ يقودك إلى الدار الآخرة.. وهنا يتضح الميزان الذي يغيب عن كثيرٍ من الناس؛ فالمؤمن لا يرفض الدنيا رفضاً يجعلها عائقاً عن عمارة الأرض، ولا يذوب فيها ذوباناً يجعله ينسى الآخرة، بل يتعامل معها كوسيلةٍ مؤقتة، يأخذ منها ما يعينه على طاعة الله، ويترك منها ما يبعد قلبه عنه.

ولهذا فالتوازن الحقيقي ليس أن تعطي الدنيا والآخرة نصفين متساويين من قلبك، بل أن تجعل الآخرة هي الاتجاه، والدنيا هي الوسيلة التي تسير بها نحو ذلك الاتجاه.

فإذا تحولت الدنيا إلى غايةٍ في القلب صار الإنسان عبداً لها ولو كان يملك الكثير منها، وإذا بقيت في يده وسيلةً لطاعة الله بقي حُرّاً منها ولو عاش في وسطها.

ومن هنا نفهم لماذا جاءت هذه الآية في قصة قارون تحديداً؛ لأن قارون كان يملك الدنيا لكنه جعلها مركز حياته، فخسف الله به وبداره الأرض ليكشف للناس أن المشكلة لم تكن في المال نفسه، بل في القلب الذي جعل المال إلهاً خفياً يقود حياته.

ولهذا فإن السؤال الذي تتركه هذه الآية في قلب القارئ ليس: كم تملك من الدنيا؟ بل السؤال الأعمق: من الذي يملك قلبك حقّاً؟ أأنت تستخدم الدنيا لتقترب من الله سبحانه وتعالى، أم أن الدنيا هي التي تستخدمك لتبتعد عنه؟ لأن الفرق بين الطريقين ليس في مقدار ما يملكه الإنسان من الدنيا، بل في الموضع الذي وضعت فيه الدنيا داخل قلبه.

حين تحترق القلوب على من نحب... إلى أين ينتهي دورنا؟

تمرُّ في القرآن آيةٌ لو فهمها القلب بعمقٍ لخفَّ عنه ثقلٌ كبير يحمله كثير من الناس في صدورهم، وهي قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

هذه الآية ليست خطاباً عابراً في قصةٍ تاريخية، بل رسالةٌ عميقة لكل قلبٍ عرف معنى الحب الحقيقي؛ لكل أبٍ يرى ابنه يبتعد عن طريق الله، ولكل أمٍّ ترى ابنتها تنحرف عن الهداية، ولكل زوجٍ أو زوجةٍ أو صديقٍ يحترق قلبه خوفاً على من يحب أن يضيع بعيداً عن الله تعالى.

فالإنسان حين يحب بصدقٍ يتمنى الخير لمن يحب، وأعظم الخير الذي يتمناه له أن يهديه الله، ولهذا يبذل النصيحة، ويكرر التذكير، ويبحث عن الكلمات التي قد توقظ قلبه، ويعيش في داخله أملٌ خفي أن تأتي لحظةٌ يتغير فيها كل شيء.. لكن أحياناً تمر الأيام والسَّنوات ولا يحدث ما كان يرجوه القلب، فيبدأ الألم يتسلل إلى داخله، ويشعر وكأنه مسؤول عن هداية من يحب، وكأن تقصيره هو السَّبب في بقائهم بعيدين عن الله تعالى.

وهنا تأتي هذه الآية لتعيد ترتيب ميزان المسؤولية في قلب المؤمن. فالله تعالى يخاطب نبيه ﷺ – وهو أحرص الناس على هداية الخلق – فيقول له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

تأمّل الخطاب جيداً؛ فالقائل هو الله سبحانه وتعالى، والمخاطَب هو رسول الله ﷺ، والحديث عن عمّه الذي كان يحبه حباً شديداً ويتمنى له الهداية.. ومع ذلك يبيّن الله أن الهداية ليست بيد البشر مهما صدق حبهم، ومهما أخلصوا نصحهم، لأن الهداية الحقيقية ليست مجرد كلمةٍ يسمعها الإنسان، بل نورٌ يخلقه الله في القلب.

ولهذا ختمت الآية بالحقيقة الكبرى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

وهذه الحقيقة لا تعني أن يترك الإنسان الدعوة أو النصيحة أو الدعاء، بل تعني أن يعرف حدود دوره في هذا الطريق؛ فوظيفتك أن تُبلّغ، وأن تنصح، وأن تدعو، وأن تكون قدوةً حسنة، أما فتح القلوب فليس بيدك، بل بيد الله وحده.

وحين يفهم القلب هذا المعنى يتحول الألم الذي كان يثقله إلى رجاءٍ هادئ؛ لأنه يدرك أن الله أرحم بمن يحب منهم، وأن القلوب ليست في يد البشر بل في يد خالقها يقلبها كيف يشاء.

ولهذا فإن أعظم ما يفعله المؤمن حين يرى من يحب بعيداً عن الله ليس أن ينهار قلبه يأساً، ولا أن يحمل نفسه فوق طاقتها، بل أن يستمر في النصيحة برفق، وأن يفتح باب الدعاء في جوف الليل، وأن يسأل الله بصدقٍ أن يفتح ذلك القلب الذي عجزت الكلمات عن فتحه.

فكم من قلبٍ ظل بعيداً سنواتٍ طويلة، ثم فتحه الله في لحظةٍ لم يتوقعها أحد، وكم من إنسانٍ ظنّ الناس أن الهداية بعيدة عنه، فإذا بنور الإيمان يشرق في قلبه فجأةً حين أراد الله له ذلك.

ولهذا تبقى هذه الآية كأنها رسالة رحمةٍ لكل قلبٍ متعب: ليس مطلوباً منك أن تغيّر القلوب، بل أن تبقى باباً للخير ما استطعت، وأن تسلّم ما عجزت عنه إلى الله سبحانه وتعالى الذي بيده الهداية كلها.

فإن كان قلبك يحترق على من تحب، فاجعل ذلك الاحتراق دعاءً لا يأساً، ورجاءً لا قلقاً؛ لأن الذي قال ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هو نفسه الذي بيده أن يهدي القلوب حين يشاء، وأن يخرجها من ظلمات الضَّلال إلى نور الهداية في لحظةٍ لا يملكها أحدٌ سواه.

المحور الإيماني المركزي في الجزء العشرين هو:

أنَّ القلب لا يثبت على الحقِّ إلا إذا امتلأ يقيناً بأنَّ الله وحده هو المدبِّر، وأنَّ العاقبة ليست لمن يملك أسباب القوّة ظاهراً، بل لمن صدق مع الله تحت الفتنة، فلم يركن إلى غيره، ولم يغترّ بالباطل، ولم يبع دينه خوفاً أو طمعاً؛ فهذا الجزء يبدأ بكشف فساد الموازين حين يُعادَى أهل الطهارة، ثم يردّك فوراً إلى أصل النجاة كلِّه: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، ويملأ القلب بأدلة الربوبية والتدبير والإجابة والهداية والرزق والبعث، حتى لا يبقى فيه تعلّقٌ حقيقيٌّ بغير الله، ثم ينقلك إلى ميدان التاريخ في قصة موسى عليه السَّلام ليُريك أنَّ وعد الله يعمل حتى في قلب الاستضعاف، وأنَّ الطغيان مهما علا فمصيره إلى سقوط، وأنَّ الحفظ والتمكين والتربية والاصطفاء كلها بيد الله وحده، ثم يفضح فتنة المال في قارون كما فضح فتنة السلطان في فرعون، ليُعلّمك أنَّ الذي يقطع العبد عن الله ليس نوعاً واحداً من الفتنة، بل قد يكون خوفاً، وقد يكون جاهاً، وقد يكون زينةً، وقد يكون استعلاءً في الأرض، ثم تأتي العنكبوت فتكشف القانون الجامع الذي يفسر ما سبق كلَّه: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، فالإيمان ليس دعوى ساكنة، بل صدقٌ يُمتحن، وتوحيدٌ يُختبر، وثباتٌ يظهر عند الأذى، ولهذا ينتهي الجزء كلُّه إلى يقينٍ جامعٍ يُربّي القلب ويهذّبه:

- لا نجاة إلا بالاعتصام بالله،
- ولا بصيرة إلا بالوحي،
- ولا ثبات إلا بالصَّلاة وذكر الله،
- وكل ما يُتَّخذ من دون الله مأمناً أو سنداً أو ملجأً فهو في حقيقته أوهى من أن يحفظ صاحبه،

أمّا من أقبل على الله صادقاً، ولم يُرِدْ علوّاً في الأرض ولا فساداً، وثبت على الحق وإن طال الطريق، فالعاقبة له في الدنيا والآخرة بإذن الله تعالى.

أخطر الانحرافات التي يحذّر منها الجزء العشرون

❖ أولاً: انحراف عقدي

١) الشرك الخفي والظاهر بالله: حين يتعلّق القلب بغير الله في الخلق أو التدبير أو الإجابة، فيأتي القرآن بسلسلةٍ من الأسئلة تهزّ الفطرة: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؛ ليُعيد الميزان إلى التوحيد الخالص وأنّ المدبّر والرازق والمجيب واحد لا شريك له.

٢) الاعتماد على الأسباب ونسيان المسبِّب: كما قال قارون مغترّاً بماله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾؛ فيفضح القرآن هذا الوهم العقدي الذي يجعل الإنسان ينسب النِّعمة إلى نفسه وينسى أن الفضل كلّه من الله.

٣) إنكار البعث أو الشكّ فيه: حين يقول المكذّبون: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾؛ فيكشف القرآن أن الشَّك في الآخرة يفسد ميزان الحياة كلّه ويجعل الإنسان يعيش حياته بلا محاسبة.

٤) الظن بأن الهداية بيد البشر لا بيد الله: فيأتي التصحيح الحاسم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾؛ ليُعيد القلوب إلى أن الهداية فضلٌ إلهي لا يُملكه نبيّ ولا عالم.

❖ ثانياً: انحراف أخلاقي

١) تطبيع الفاحشة ومحاربة الطهارة: كما قال قوم لوط ساخرين: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ حين تتحوّل الفضيلة إلى تهمة، ويُطرد أهل العفاف لأنهم يُذكّرون المجتمع بذنوبه.

٢) البغي والفساد بسبب المال: في قصة قارون الذي استعلى بماله فذكّره القرآن بميزان الأخلاق: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأن المال إذا انفصل عن التقوى يتحوّل إلى أداة طُغيان.

٣) الاستكبار ورفض الحق بعد ظهوره: كما فعل فرعون حين كذّب بآيات موسى رغم وضوحها، فصار نموذجاً للإنسان الذي يرى الحق ثم يرفضه تكبّراً.

٤) اتباع الهوى بدل الوحي: حين يرفض الناس الحق لأنّه يخالف رغباتهم، فيقرر القرآن القاعدة الخطيرة: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾.

❖ ثالثاً: انحراف اجتماعي

١) الطغيان السياسي واستعباد الناس: كما فعل فرعون حين جعل المجتمع طبقاتٍ متناحرة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾؛ فيُحذّر القرآن من كل نظامٍ يقوم على الظلم والتفريق.

٢) الاستضعاف الاجتماعي والقتل والاضطهاد: حين يصل الظلم إلى ذبح الأبناء واستحياء النساء، فيكشف القرآن بشاعة الاستبداد حين يُفقد الإنسان كرامته.

٣) الخوف الجماعي من اتباع الحق: كما قال أهل مكة: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾؛ فيفضح القرآن وهم التضحية بالدين خوفاً على المصالح الدنيوية.

٤) الانبهار بزينة الدنيا وأصحاب النفوذ: كما قال الناس عند رؤية قارون: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾؛ فيُعلّم القرآن أن الثراء ليس دليل كرامة، وأن الميزان الحقيقي هو **التقوى**.

❖ رابعاً: انحراف نفسي

١) الانهزام الداخلي أمام الفتنة: حين يظن الإنسان أن الإيمان مجرد كلمة، فيصدمه القرآن بقانون الطريق: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

٢) الخوف من الناس أكثر من الخوف من الله: كما وصف القرآن بعض النفوس: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾؛ فيفضّل سلامته الاجتماعية على صدقه مع الله تعالى.

٣) الاغترار بزينة الحياة الدنيا: كما وقع لمن تمنّوا مكان قارون قبل أن يروا مصيره، فبيّن القرآن سرعة انقلاب هذا الوهم حين ينكشف الحق.

٤) الاتكال على غير الله طلباً للأمان: فيكشف القرآن هشاشة هذا الاعتماد بالمثل الصاعق: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾؛ لأن كل مأمنٍ بعيد عن الله هو في حقيقته أوهن من بيت العنكبوت.

الملامح الشخصية التي يصنعها الجزء العشرون

ليست ملامح سطحية تتعلّق ببعض السلوكيات الظاهرة فحسب، بل هو يبني إنساناً موحِّداً ثابتاً بصيراً بسنن الله في الحياة؛ إنساناً يعرف ربَّه حق المعرفة، فلا يخاف الطغيان مهما علا، ولا يغترّ بزينة الدنيا مهما لمع بريقها، ولا ينهار إذا طال طريق الابتلاء، لأنه يرى بعين القرآن ما لا يراه الناس بعين الواقع.

- أول ما يصنعه هذا الجزء هو شخصية التوحيد العميق؛ قلبٌ تعلّم أن يسأل السؤال الذي يهزّ كل الأوهام: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، فيدرك أن الخلق والرزق والهداية والإجابة والتدبير كلها بيد الله وحده، وأن الإنسان مهما ظنّ أنه يملك من الأسباب شيئاً فإن الحقيقة الكبرى ثابتة لا تتغير: الله وحده هو الملجأ والمستعان، وهو الذي ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾،

فإذا استقر هذا المعنى في القلب صار الإنسان حُرّاً من التعلّق بغير الله تعالى.

- ثم يصنع هذا الجزء شخصية الثبات تحت الفتنة؛ لأن الإيمان في القرآن ليس كلمة تُقال، بل طريقٌ يُمتحن، ولهذا يضع القرآن القانون الذي يفسّر تاريخ الدعوة كله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، فيتربّى القلب على أن الابتلاء ليس علامة الخذلان، بل طريق التمحيص، وأن الصادقين يظهر صدقهم حين تضيق الطرق وتكثر الضغوط.
- ويصنع أيضاً شخصية الواثق بوعد الله تعالى مهما بدت الموازين مقلوبة؛ ففرعون يملك الملك والجيش والسُّلطان، لكن وعد الله يعمل في الخفاء حتى يخرج موسى عليه السَّلام من قلب بيت الطاغية نفسه، ويعلن القرآن سُنّة العاقبة التي لا تتخلف: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾، فيتعلم المؤمن أن ضعف الحاضر لا يعني ضياع المستقبل إذا كان القلب مع الله سبحانه وتعالى.
- كما يصنع شخصية متحررة من فتنة المال وزينة الدنيا؛ لأن قصة قارون تكشف أن المال قد يخدع العيون لكنه لا يُغيّر الحقيقة، وأن من ظنّ أن النِّعمة جاءت بذكائه وقوته سيكتشف عاجلاً أو آجلاً هشاشة هذا الوهم حين يقول متكبراً: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، فيأتي الرد الإلهي بالفعل لا بالقول حين يخسف الله تعالى به الأرض، فيتربّى القلب على أن الكرامة ليست فيما يملك الإنسان بل فيما يكون عليه قلبه عند الله سبحانه.
- ويصنع هذا الجزء كذلك شخصية بصيرة لا تنخدع بالمظاهر؛ لأن القرآن يُعلِّمك أن كثيراً من الناس يظنون أن القوة في السلطان أو المال أو العدد، بينما الحقيقة أن كل اعتمادٍ على غير الله هشٌّ ضعيف، ولذلك يضرب القرآن المثل الذي يكشف هشاشة كل سندٍ غير إلهي: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ

الْعَنكَبُوتِ﴾، فيتعلم القلب أن القوة الحقيقية ليست في الشبكات التي يبنيها الناس حول أنفسهم، بل في الصِّلة الصادقة بالله سبحانه وتعالى.

- وأخيراً يصنع هذا الجزء شخصية متواضعة لا تريد عُلُوّاً في الأرض؛ لأن النهاية التي يضعها القرآن كخلاصة لكل هذه القصص والفتن ليست نصراً سياسياً أو تفوقاً دنيوياً، بل معياراً قلبياً عميقاً يحدد من يستحق العاقبة عند الله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فيخرج القارئ من هذا الجزء وهو يعلم أن أعظم انتصارٍ في حياة الإنسان ليس أن يعلو في الأرض، بل أن يبقى قلبه خاشعاً لله، ثابتاً على الحق، منتظراً العاقبة التي وعد الله تعالى بها عباده المتقين.

أمراض القلوب التي يعالجها الجزء العشرون

❖ أولاً: أمراض العلاقة بالله (الخلل العقدي)

١) داء الشرك الخفي والاعتماد على غير الله: يعالج القرآن في هذا الجزء القلب الذي يتعلّق بالأسباب أو بالناس أو بالقوة الظاهرة، فيردّه إلى توحيدٍ خالصٍ يهزّ كل تعلّقٍ بغير الله عبر سلسلة الأسئلة الإلهية: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، ثم يذكّر القلب بأن الملجأ الحقيقي عند الشدائد هو الله وحده الذي ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، فيُشفى القلب من وهم التعلّق بالمخلوقين.

٢) داء الغرور بالنِّعمة ونسبة الفضل إلى النفس: حين يمرض القلب فيظن أن ما عنده من مال أو علم أو مكانة جاء بجهده وحده كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، فيعالجه القرآن بتذكير الإنسان بسُنّة الله تعالى في الأمم وأن القوة والمال لا يحميان صاحبهما إذا فسد القلب.

٣) داء الشَّك في الآخرة وإنكار الحساب: القلب الذي يعيش للدنيا فقط يفسد ميزانه حين يشك في البعث كما قال المكذبون: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً

وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾، فيعيد القرآن بناء اليقين بأن الرجوع إلى الله تعالى حقيقة لا مفر منها وأن الحياة ليست نهاية الطريق.

❖ ثانياً: أمراض النِّيَّة والعبودية

١) داء إرادة العُلُوِّ في الأرض: يعالج القرآن القلب الذي يطلب الرفعة والهيمنة والظهور، فيضع ميزان النجاة الحقيقي: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾، فيتعلم القلب أن العبودية الحقة لا تجتمع مع حُب الاستعلاء.

٢) داء التعلُّق بزينة الدنيا: حين ينبهر القلب بالمظاهر كما انبهر الناس بزينة قارون فقالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾، يعالج القرآن هذا المرض بتذكير القلب أن ما عند الله خير وأبقى وأن الزينة قد تخدع العين لكنها لا تُغيّر ميزان الحق.

٣) داء اتباع الهوى بدل الوحي: حين يرفض القلب الحق لأنه يخالف رغباته، يضع القرآن قاعدةً كاشفةً للمرض: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾، فيعيد القلب إلى عبوديةٍ تقوم على التسليم لله تعالى لا على رغبات النفس.

❖ ثالثاً: أمراض الموقف الأخلاقي

١) داء الاستكبار عن الحق: كما ظهر في موقف فرعون وقومه حين واجهوا الحق بالعناد رغم وضوح الآيات، فيكشف القرآن أن الكِبر يمنع القلب من رؤية الحقيقة ولو كانت بين يديه.

٢) داء تزيين الفاحشة ومحاربة الطهارة: كما فعل قوم لوط حين قالوا ساخرين من أهل العفاف: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾،

فيفضح القرآن انقلاب الموازين حين يصبح الطُّهر تهمةً والفساد عادة.

٣) داء البغي والفساد في الأرض: كما وقع قارون في البطر والاستعلاء رغم نصيحة قومه: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾، فيعالج القرآن هذا المرض بتذكير الإنسان بأن القوة والمال إذا لم يُضبطا بالتقوى تحوّلا إلى فسادٍ يُهلك صاحبه.

❖ رابعاً: أمراض الثبات أمام الابتلاء

١) داء الوهم بأن الإيمان بلا امتحان: يعالج القرآن هذا المرض بكشف القانون الإيماني الكبير: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، فيتعلّم القلب أن الفتنة ليست علامة الضياع بل طريق التمحيص.

٢) داء الخوف من الناس أكثر من الخوف من الله: حين يضعف القلب أمام ضغط المجتمع كما وصف القرآن: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، فيُربّي القرآن المؤمن على أن ميزان الخوف يجب أن يكون لله وحده.

٣) داء البحث عن الأمان في غير الله: حين يتعلّق الإنسان بحماياتٍ بشرية أو علاقاتٍ دنيوية يظن أنها تحفظه، فيكشف القرآن هشاشة هذا الوهم بالمثل العظيم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾، ليُعلّم القلب أن الأمان الحقيقي ليس في قوة البشر بل في الاعتصام بالله وحده.

اختبار ذاتي عميق: أسئلة مواجهة لا معلومات للجزء العشرين

❖ هل أنا من المخاطَبين في هذا الجزء؟

- هل أقول بلساني إن الله هو المدبّر والرازق والهادي، لكن قلبي عند الشدائد يضطرب بالأسباب أكثر مما يطمئن بوعد الله، مع أن الجزء يردّد في أعماقي: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟ وهل ألجأ إلى الله حقّاً إذا ضاقت بي الدنيا، أم لا أذكره إلَّا بعد أن أستنفد كل أبواب الخلق ثم أرجع إليه رجوع المضطر المكره لا رجوع العبد الموقن؟.
- هل في قلبي شيء من خوف الناس يعادل أو يقارب خوفي من الله، فأؤخر طاعة، أو ألين في حق، أو أتنازل عن مبدأ، لأنني أخشى أذى البشر أو كلامهم أو خسارة مكانتي عندهم؟ وهل أنا داخل في معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ من حيث لا أشعر؟
- هل أتعجب من كثرة الابتلاءات في طريقي إلى الله وكأنني كنت أظن أن الإيمان الصادق يُعفى من الامتحان، مع أن الجزء افتتح قانون الطريق بقوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؟ وهل ما زلت إلى الآن أفسّر الفتنة على أنها علامة رفض، لا على أنها أحياناً ميدان تمحيص ورفع وكشف لصدق القلب؟
- هل أنبهر بالمال أو النفوذ أو الزينة أو الشُّهرة، ثم أُخفي هذا الانبهار تحت أسماء مُهذبة، بينما قلبي في الحقيقة ما زال يرى قارون نموذجاً للنجاح لا نموذجاً للفتنة؟ وهل إذا رأيت صاحب دنيا تمنيت مكانه قبل أن أسأل نفسي: ماذا فعلت الدنيا بقلبه، وماذا سيفعل الحساب بمصيره؟
- هل أطلب في داخلي نوعاً من العُلُوِّ في الأرض ولو في صورة دينية أو تربوية أو اجتماعية مهذبة، فأحب أن أُذكر، أو أُقدَّم، أو يُرجع إليّ، أو أشعر بتفوقٍ خفي على الناس؟ وهل أنا حقّاً من أهل قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا

﴿يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾، أم أنني فقط لا أملك أدوات العُلوّ بعد؟

- هل أقرأ قصص الطُّغاة والهالكين باعتبارها أخباراً من الماضي، أم أقرأها باعتبارها تحذيراً مباشراً لي من كل بذرة كبر، أو بغي، أو استعلاء، أو غفلة عن المرجع إلى الله؟ وهل حين أمرّ على قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أشعر أن القرآن يكلمني أنا قبل أن يكلمني عنهم؟

❖ أين انكشف قلبي؟

- انكشف قلبي عند سؤال الاضطرار: إلى من يفرّ باطني أولاً حين تضيق بي الأمور، أإلى الله مباشرةً أم إلى الناس والضمانات والاتصالات والاحتمالات؟ فإن كان اضطراري لا يوقظ فيّ معنى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فهناك خلل لم يُشفَ بعد في توحيدي العملي.
- انكشف قلبي عند آيات قارون؛ هل تضايقت من نهايته لأن في داخلي تعاطفاً خفياً مع منطق الافتتان بالدنيا، أم خشعت وقلت: نعم، هذا جزاء قلبٍ نسي المُنعم واغتر بالعطاء؟ فانكشاف القلب هنا ليس في اللسان الذي يندد بقارون، بل في النفس التي ما زالت تتمنى زينته وتحب صورته في الواقع.
- انكشف قلبي عند آية الفتنة؛ هل وجدتُّ في نفسي اعتراضاً مكتوماً على كثرة الاختبار، كأنني أقول بباطني: لِمَ كل هذا؟ أما يكفي أنني آمنت؟ فإن كان الأمر كذلك فقد انكشف أنني أريد ثواب الإيمان بلا مؤنة الصدق، وراحة الطريق بلا امتحان الطريق.
- انكشف قلبي عند قصة أم موسى؛ هل أُسلِّم لأمر الله إذا جاء على غير ما ترتاح إليه حواسي، أم لا أطمئن إلا لما يوافق تحليلي وتدبيري؟ فالقلوب

تتعرى هنا: بين قلبٍ يثق أن وعد الله حق، وقلبٍ يريد من الله أن يُسَيِّر له القدر على الصورة التي اختارها هو.

- انكشف قلبي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؛ هل أنا مُسلِّمٌ حقّاً بأن الهداية بيد الله تعالى، أم ما زلت أعيش توتر التحكم في الناس، وأحترق لأن النتائج لم تجرِ كما أريد؟ فهنا يظهر هل أنا عبدٌ مبلّغ متوكل، أم نفسٌ تريد أن تملك ما لم يجعل الله لها سبيلاً إلى امتلاكه.
- انكشف قلبي عند مثل العنكبوت؛
  1. ما البيت الذي أختبئ فيه غير الله حين أخاف،
  2. وما الركن الذي أظنه سيحميني إن اضطربت الدنيا،
  3. وما التعلق الذي أعود إليه كلما ضعفت؟

فقد يكون بيتي الواهي مالاً، أو مكانة، أو شخصاً، أو جمهوراً، أو قدرةً ذاتية، أو صورةً صنعتها لنفسي وأتوهم أنها تُنجيني.

❖ أي آية أربكتني؟

- هل أربكتني آية: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لأنها أسقطت عني وهماً قديماً كنت أعلل به نفسي، وهو أن صدق النِّيَّة يكفي وحده دون ثباتٍ عند الامتحان؟ وهل أقلقني معناها لأنني أدركت أن كثيراً مما أسميه إيماناً لم يدخل بعدُ ميدان الاختبار الحقيقي؟
- هل أربكتني آية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ لأنني اكتشفت أن اضطراري لم يكن نقيّاً، وأن دعائي نفسه ما زال مخلوطاً بالاعتماد على غير الله؟ وهل أحزنني ذلك لأنني رأيت الفرق بين معرفة الآية وبين العيش في معناها عند الانكسار؟

- هل أربكتني آية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾ لأنها دخلت إلى المناطق التي أخفيها حتى عن نفسي من حُبِّ الظُّهور والتقدّم والانتصار للنفس؟ وهل شعرت أن هذه الآية لا تتكلم فقط عن الطُّغاة الكبار، بل عن أدقّ شهوات التعالي التي قد تتسلل إلى أعمال الخير نفسها؟
- هل أربكتني آية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لأنها واجهتني بعجزي وحدودي، وقطعت عن قلبي لذة التعلق المرضي بالنتائج؟ وهل وجدت نفسي أحتاج إلى تربية جديدة على الرضا بدور العبودية، لا على شهوة التأثير المطلق؟
- هل أربكتني آية: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ لأنها هزّت كل ما أتعامل معه في الدنيا كأنه ثابت وباقٍ ويستحق أن أعلّق عليه قلبي؟ وهل شعرت وأنا أقرؤها أن كثيراً من همومي ومخاوفي وتعلقاتي مبني أصلاً على نسيان هذه الحقيقة العظمى؟
- هل أربكتني آية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ لأنني رأيت فيها صورة حياتي حين أبحث عن الأمان في أوهامٍ لا تحفظني؟ وهل هزّتني لأنني عرفت أن بعض ما أسميه ترتيباً للمستقبل أو حمايةً للنفس هو في الحقيقة بيت عنكبوت نفسيّ أتعلق به بدل الاعتصام بالله تعالى؟

❖ ما السلوك الذي أؤجّل تغييره؟

- هل ما زلت أؤجل التوبة من تعلّقٍ قلبي بغير الله، مع أن الجزء كلّه يهتف في وجهي أن النجاة لا تكون إلا بتوحيدٍ خالص واعتمادٍ صادق على الله وحده؟ فأي تأجيل بعد هذا وأنا أقرأ كل هذه النداءات: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟
- هل أؤجل قطع الأسباب التي تغذي في قلبي حُب الدنيا والانبهار بالزينة والمقارنة بالناس، ثم أتعجب بعد ذلك من ضعف الزهد واضطراب الرضا؟ فما لم أواجه مواضع الفتنة في نفسي بصدق، سأبقى كل مرة أقف موقف الذين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ وإن لم أقلها بلساني.
- هل أؤجل حسم موقفي من بعض البيوت الواهية التي ألوذ بها إذا خفت، كالإفراط في طلب رضا الناس، أو الاستناد النفسي إلى المديح، أو التعلق المرضي بصورةٍ عند الخلق؟ وإلى متى أؤخر الخروج من بيت العنكبوت وأنا أعلم أنه لا يحمي عند الفزع ولا عند السقوط؟
- هل أؤجل مجاهدة نفسي على الثبات عند الأذى الصغير، ثم أتمنى لنفسي ثباتاً كبيراً عند الفتن العظيمة؟ فالذي لا يُربّي قلبه اليوم على احتمال الكلمة، والنقد، والتأخر، والخذلان، كيف سيصبر غداً إذا ابتُلِي في دينه ابتلاءً أكبر؟
- هل أؤجل التخلص من إرادة العُلُوِّ الخفية، فأفرح بالتقدم على الناس، أو أتألم إذا لم أُذكر، أو أستثقل أن أكون في الصف المتأخر مع أن الله يعلم مواضع الصدق في القلوب؟ فإن كنت أفعل ذلك، فأنا أؤجل أخطر معركة في نفسي، لأن الآخرة ليست لمن لا يمارس العُلُوِّ فقط، بل لمن لا يريده أصلاً.
- هل أؤجل ورد القرآن والصلاة الحية والذكر الذي يعصم القلب، ثم أبحث عن ثباتٍ بلا زاد، وبصيرةٍ بلا نور، وحمايةٍ بلا صلة بالله؟ مع أن خاتمة الجزء

دلّتني بوضوح على العلاج العملي: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، فماذا أنتظر بعد أن عرفت الدواء؟

خطة التغيير... طريقٌ قصيرٌ لكنه صريح (من هداية الجزء العشرين)

١) صحِّح نقطة البداية: التوحيد قبل كل شيء: ابدأ بتطهير قلبك من كل تعلّقٍ خفي بغير الله؛ فلا تجعل قوتك ولا علاقاتك ولا مالك ملجأك الأول، بل درّب قلبك أن يهرب إلى الله فوراً عند الضيق، وأن يعيش معنى السؤال الذي يهزّ الأوهام كلّها: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، لأن القلب إذا استقام توحيده استقام طريقه كله.

٢) افهم قانون الطريق: الإيمان يُمتحن لا يُعفى من الامتحان: لا تُفسِّر الابتلاء على أنه علامة رفض، بل اعتبره ميدان كشفٍ لصدق القلب، فهذه سُنّة الطريق التي أعلنها القرآن بوضوح: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، ومن فهم هذا القانون عاش الابتلاء بثباتٍ بدل الحيرة والاعتراض.

٣) اخرج من وهم القوة الدنيوية: لا تنخدع بزينة المال أو النفوذ أو الشُّهرة؛ فهذه المظاهر قد تخدع العيون لكنها لا تغيّر الحقيقة، وقد كشف القرآن هذا الوهم في قصة قارون حين اغترّ بماله، فتعلم أن الكرامة ليست فيما تملك بل فيما يكون عليه قلبك عند الله.

٤) اقطع التعلّق بالأسباب دون قطع العمل بها: اعمل بالأسباب بقوة، لكن لا تجعل قلبك معلقاً بها، فالأسباب وسائل لا مصادر، ومهما كثرت لا تنفع بلا توفيق الله؛ ولهذا يُربّي القرآن القلب أن يلجأ إلى الله قبل كل شيء، فهو الذي ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

٥) حارب إرادة العُلُوِّ في قلبك قبل أن تحارب الفساد في الواقع: لا يكفي أن ترفض الظلم الظاهر؛ بل راقب رغبتك الخفية في التفوق والظهور والتقدم

على الناس، لأن النجاة الحقيقية ليست في مجرد ترك الفساد بل في ترك إرادته أصلاً، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾.

٦) تعلّم الثبات حين يتأخر النصر: لا تقِس الحق بنتائجه السريعة، فقد يمضي زمن طويل قبل أن تظهر العاقبة، لكن وعد الله يعمل بصمت كما عمل في قصة موسى منذ طفولته حتى غرق فرعون، فالثبات في زمن الغموض هو علامة الصدق.

٧) اكشف بيوت العنكبوت في حياتك: اسأل نفسك بصدق: ما الشيء الذي أظنه سيحميني إن اضطربت حياتي؟ مال؟ منصب؟ علاقات؟ سمعة؟ ثم تذكّر أن كل ملجأٍ بعيد عن الله ضعيف مهما بدا قوياً، لأن القرآن وصفه بقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾.

٨) اربط قلبك بالآخرة لتستقيم موازينك في الدنيا: لا تجعل الدنيا معيار النجاح أو الفشل؛ فكم من إنسانٍ بدا منتصراً وهو في الحقيقة خاسر، وكم من إنسانٍ بدا ضعيفاً وهو في ميزان الله تعالى قريب من الفوز، لأن النهاية الحقيقية ليست هنا بل عند الله.

٩) اجعل القرآن والصلاة مركز إعادة بناء قلبك: التغيير لا يستمر بالقرارات العابرة بل بالعبودية اليومية، ولهذا يختم الجزء طريق الإصلاح بأمرين واضحين: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، لأن القلب الذي يعيش مع القرآن ويقيم الصَّلاة حقّاً لا يبقى كما كان.

خاتمة وجدانية مزلزلة

يمضي هذا الجزء في القلب كرحلة كشفٍ عميقة؛ يبدأ بكشف انقلاب الموازين حين تُحارَب الطَّهارة ويُطرد أهلها لأنهم يُذكِّرون الناس بفطرتهم، ثم لا يتركك عند مشهد الفساد بل يردّك مباشرةً إلى أصل القضية كلها: من هو الإله

الذي بيده الخلق والرزق والتدبير والهداية؟ فتتتابع الأسئلة التي تفتح أبواب الكون أمام القلب حتى لا يبقى له ملجأٌ إلا الاعتراف بأن المدبّر واحد، وأن كل تعلّقٍ بغيره وهمٌ يتلاشى عند الحقيقة، فيرتجف القلب وهو يسمع النداء المتكرر الذي يهدم كل شركٍ خفي: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، وكأنَّ القرآن يوقظك من غفلةٍ طويلة ليقول لك: إن المشكلة لم تكن يوماً في قلة الأدلة بل في قلوبٍ لم تُرِد أن ترى.

ثم يأخذك القرآن إلى مشهد التاريخ ليكشف لك أن هذا التوحيد ليس فكرةً نظرية بل حقيقةٌ تحكم مصائر الأمم؛ فرعون يملك السلطان والجيش والرَّهبة، لكن الله تعالى يدبّر الأمر من حيث لا يحتسب أحد، طفلٌ يُلقى في اليم فيصير رسولاً يهدم عرش الطغيان، وطاغيةٌ يجمع أسباب القوة كلها ثم ينتهي إلى الماء الذي كان يظنه خادماً لسلطانه، فتتعلم أن التدبير الحقيقي لا يُرى دائماً في اللحظة، وأن وعد الله يعمل بصمتٍ تحت سطح الأحداث حتى تأتي لحظة العاقبة التي لا يستطيع أحد دفعها.

ثم يفضح القرآن وهم القوة حين يغترّ الإنسان بزينة الدنيا كما اغترّ قارون، فيظن أن ما بيده جاء من علمه وقدرته، فتأتي الحقيقة فجأةً لتسحب الأرض من تحت قدميه، وتترك الناس الذين انبهروا بزينة الأمس يقفون مذهولين أمام درسٍ لا يُنسى: أن ما يرفع الإنسان في أعين الناس قد يكون سبب سقوطه عند الله، وأن ما يبدو قوةً قد يكون في الحقيقة بداية الانهيار.

لكن الرحلة لا تقف عند سقوط الطغيان ولا عند انكشاف فتنة المال، بل تنتقل إلى عمق القلب نفسه لتضع القانون الذي يفسّر كل شيء: أن الإيمان لا يثبت في القلب إلَّا بعد الامتحان، وأن الطريق إلى الله ليس طريقاً مُعبّداً بالراحة بل طريقٌ تظهر فيه حقيقة النفوس حين تضيق الدروب، ولهذا يأتي السؤال الذي يهزّ القلوب من الداخل: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، فيدرك الإنسان أن الابتلاء ليس علامة ضياع بل ميدان صدق، وأن

القلب الذي لا يثبت عند الفتنة لم يعرف بعد معنى الإيمان الذي يغيّر المصير.

وفي ختام هذه الرحلة يضرب القرآن المثل الذي يكشف حقيقة الدنيا كلها في صورة واحدة مزلزلة؛ كل من احتمى بغير الله، وكل من ظن أن له سنداً بعيداً عن ربه، وكل من جعل قوته أو ماله أو علاقاته حصناً له، إنما بنى حياته على بيتٍ أوهن من خيطٍ رقيق، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾، فيقف القلب بعد هذه الصورة صامتاً أمام الحقيقة العارية: أن الأمان الوحيد هو في الله سبحانه وتعالى، وأن كل ما سواه قابلٌ للانهيار.

وهكذا ينتهي الجزء وقد أعاد ترتيب العالم في قلبك؛ فلا تغترّ بقوةٍ عابرة، ولا تيأس من ضعفٍ حاضر، ولا تنخدع بزينةٍ لامعة، ولا تفرّ من امتحانٍ يكشف صدقك، بل تعلّم أن تنظر إلى الحياة بعينٍ أوسع من اللحظة، وأن تثبت على الحق ولو طال الطريق، لأن النهاية ليست بيد البشر، والعاقبة ليست لمن يملك اليوم، بل لمن صدق مع الله تعالى حتى النهاية.

روح الرسالة التربوية والعقدية في الجزء العشرين خلاصة مركَّزة تهزّ القلب

١) التوحيد ليس فكرةً في العقل بل ملجأٌ عند الشدّة: الجزء يعيد بناء قلبك على هذا الأصل: أن الله تعالى ليس فقط خالق الكون بل الملجأ الحقيقي للإنسان، فإذا ضاقت الأسباب وتكسّرت الحيل انكشف التوحيد الحقيقي في القلب وهو يصرخ نحو ربه الذي ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾؛ فالإيمان الصادق يظهر حين ينهار كل شيء ويبقى التعلّق بالله وحده.

٢) الإيمان طريق امتحان لا طريق إعفاء من الألم: لا يريد القرآن منك إيماناً مريحاً يطلب الطمأنينة بلا اختبار، بل يعلن قانون الطريق منذ البداية: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ فالقلب الذي يريد الله حقّاً يجب أن يقبل أن يمرّ عبر ميدان الفتنة ليظهر صدقه.

٣) التاريخ ليس قصصاً بل سنناً تتكرر: قصة موسى عليه السَّلام مع فرعون ليست حكاية قديمة، بل كشفٌ لسنّة الله في الحياة: الطغيان قد يعلو زمناً لكن تدبير الله يعمل في الخفاء حتى تأتي لحظة سقوطه، ولهذا يتعلم المؤمن أن لا يقيس الحق بميزان القوة الظاهرة بل بميزان وعد الله تعالى.

٤) الدنيا قد تخدع العيون لكنها لا تغيّر الحقيقة: قصة قارون تفضح وهماً خطيراً في النفس البشرية: أن المال دليل كرامة أو علامة نجاح، فيتعلم القلب أن الزينة قد تُبهر الناس لحظة لكنها لا تمنع سقوط صاحبها إذا انفصل قلبه عن الله سبحانه وتعالى.

٥) الإنسان قد يهلك بسبب وهم القوة: فرعون لم يهلك لأنه ضعيف بل لأنه ظن أنه قوي، وقارون لم يسقط لأنه فقير بل لأنه ظن أن المال حصنه، فيكشف القرآن أن أخطر ما يصيب القلب ليس الفقر بل الغرور.

٦) الهداية ليست بيد البشر مهما أحبّوا: الجزء يُحرّر قلب المؤمن من وهم التحكم في قلوب الناس، فيعلن الحقيقة التي تعيد ترتيب مشاعر الداعية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾؛ فدور العبد البلاغ والصدق، أما فتح القلوب فهو بيد الله تعالى وحده.

٧) الفتنة تكشف حقيقة القلوب لا مجرد الكلمات: كثير من الناس يقولون آمنا، لكن عند أول ضغطٍ اجتماعي أو أذى في الطريق يتراجع القلب، فيكشف القرآن هذه الحالة بدقة حين يقول: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾؛ فهنا يظهر الفرق بين إيمان اللسان وإيمان القلب.

٨) الأمان في غير الله وهمٌ هشّ مهما بدا قوياً: كل من بنى قلبه على المال أو النفوذ أو العلاقات أو الصورة الاجتماعية يعيش في بيتٍ قد يسقط في أي لحظة، ولهذا يكشف القرآن الحقيقة في صورةٍ صادمة: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾؛..

لأن القوة الحقيقية ليست فيما يحيط بك بل في اتصالك بالله سبحانه وتعالى.

٩) التواضع الداخلي شرط النجاة في النهاية: خلاصة الطريق كله ليست في الانتصار الظاهر بل في سلامة القلب من إرادة العُلُو، ولذلك يضع القرآن ميزان العاقبة بوضوح: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾؛ فمن سلم قلبه من الاستعلاء رُفع عند الله تعالى ولو لم يره الناس.

١٠) القرآن والصلاة هما طريق تثبيت القلب: بعد كل هذه الرحلة من كشف الفتن والسُّنن يُوجّهك القرآن إلى الطريق العملي الذي يحفظ القلب من الانحراف: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾؛ لأن القلب الذي يعيش مع القرآن ويقيم الصلاة لا يبقى أسير الفتنة مهما كثرت حوله.

الترابط بين الجزأين التاسع عشر والعشرون

❖ الترابط الموضوعي بين الجزأين

١) الجزء التاسع عشر يكشف أزمة الإنسان مع الوحي، والجزء العشرون يكشف امتحانه بعد أن يبلغه الوحي: ففي الجزء التاسع عشر يبرز الإعراض عن القرآن، والاستهزاء بالرَّسول، واتهام الوحي، وهجر الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾، ثم يأتي الجزء العشرون ليقول: بعد أن بلغك الحق، ماذا ستفعل حين تُفتن به أو عليه؟ وهل ستثبت أم تنكسر؟ كما في قوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

٢) الجزء التاسع عشر يعرض نماذج التكذيب المتكررة، والجزء العشرون يعرض سُنن العاقبة بعد هذا التكذيب: ففي الشعراء تتكرر الدورة نفسها: رسول، ودعوة، وتكذيب، وعناد، ثم نجاة المؤمنين وهلاك المكذبين، ثم يأتي الجزء

العشرون ليوسِّع هذا المعنى لا بوصفه تاريخاً فقط، بل بوصفه قانوناً حيّاً في الواقع: الطغيان إلى زوال، والاستضعاف قد يكون أول التمكين، والفتنة ليست فوضى بل سنّة.

٣) الجزء التاسع عشر يبني صورة "عباد الرحمن" بوصفهم النموذج المطلوب، والجزء العشرون يبني الطريق الذي يصنع هذا النموذج تحت الضغط ففي الفرقان ترى الملامح النهائية لشخصية المؤمن: التواضع، والقيام، والخوف من النار، والاقتصاد، والطهارة، والصدق، ثم في الجزء العشرين ترى كيف تُصنع هذه الشخصية عملياً عبر الفتنة، والخوف، والاستضعاف، ومقاومة فتنة المال، ومواجهة السلطان، والصبر على الأذى.

٤) الجزء التاسع عشر يركّز على موقف الناس من الحق حين يسمعونه، والجزء العشرون يركّز على موقفهم منه حين يكلّفهم ويختبرهم: في التاسع عشر ترى من يسخر، ويستكبر، ويؤجل، ويتبع الهوى، ويعترض على تنزيل القرآن، وفي العشرين ترى من يخاف على مصالحه إن اتبع الهدى، أو يفتتن بالأذى، أو يتراجع أمام ضغط الناس، أو ينهار أمام بريق قارون، وكأنَّ الثاني تفصيلٌ عملي لما كشفه الأول من أمراض الاستجابة.

٥) الجزء التاسع عشر ينتهي ببدايات النمل التي تفتح باب اليقين والهدى، والجزء العشرون يُكمل هذا الباب حتى يصير مشروعاً كاملاً للثبات: فخاتمة التاسع عشر لا تترك القلب في أجواء التكذيب فقط، بل تبدأ مع النمل بقول الله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم يأتي الجزء العشرون ليبسط معاني هذا الهدى في التوحيد، والآخرة، والتاريخ، والتمكين، والابتلاء، والعاقبة.

❖ الترابط العقدي بين الجزأين

١) الجزء التاسع عشر يؤسس أن أصل الانحراف هو فساد العلاقة بالوحي والآخرة، والجزء العشرون يؤسس أن أصل الثبات هو كمال التوحيد واليقين بالآخرة: ففي التاسع عشر ترى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، وترى هجر القرآن واتباع الهوى، ثم في العشرين يأتي الجواب العقدي الأعظم في سلسلة التوحيد: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، ثم تقرير الغيب، والبعث، والحشر، والحساب، حتى يُعاد بناء القلب على يقينٍ يعالج ما انكشف في الجزء السابق.

٢) الجزء التاسع عشر يفضح "اتخاذ الهوى إلهاً"، والجزء العشرون يفضح "اتخاذ غير الله ملجأً وسنداً ومأمناً": فالفرقان قالت: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾، ثم جاء العشرون ليكشف صور هذا التأله العملي في التعلق بالأسباب، والخوف من الخلق، والاغترار بالمال، والاعتماد على القوة، حتى ختم ذلك بالمثل الصاعق: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾.

٣) الجزء التاسع عشر يقرر أن الله هو العزيز الرحيم في تكرار مقصود، والجزء العشرون يريك كيف يعمل هذان الاسمان في الواقع: في الشعراء يتكرر بعد كل مشهد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، ثم يأتي العشرون فيريك عزته في إهلاك فرعون وقارون والمكذبين، ورحمته في نجاة موسى، وربط قلب أمه، وإنجاء لوط، وفتح باب التوبة، وتثبيت المؤمنين.

٤) الجزء التاسع عشر يقرر أن القرآن تنزيل رب العالمين، والجزء العشرون يبين ماذا يفعل هذا التنزيل فيمن آمن به حقاً: ففي الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وفي النمل والقصص والعنكبوت ترى أن هذا التنزيل يهدي، ويكشف، ويثبت، ويصحح الموازين، ويعيد تفسير التاريخ، ويصنع الإنسان القادر على احتمال الفتنة.

٥) الجزء التاسع عشر يعالج خلل التصور، والجزء العشرون يعالج خلل الاعتماد:
في التاسع عشر يُكشَف ضلال من لا يرجون لقاء الله، ومن يهجرون القرآن، ومن يسوّون غير الله بالله، ومن يعبدون ما لا ينفع ولا يضر، ثم في العشرين ينتقل البناء العقدي إلى مستوى أعمق: ليس المطلوب فقط أن تعرف الحق، بل أن تعتمد عليه وحده، وأن تفرّ إليه عند الاضطرار، وأن لا ترى في غيره مأمناً أو ناصراً.

❖ الترابط البياني بين الجزأين

١) كلا الجزأين يبني المعنى بالتكرار المقصود، لكن التاسع عشر يكرره بصيغة التحذير من التكذيب، والعشرون يكرره بصيغة ترسيخ اليقين في الشعراء يتكرر مشهد الرسل مع أممهم، ويتكرر قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ و﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ليترسخ قانون التكذيب والعاقبة، ثم في العشرين يتكرر سؤال التوحيد: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، ويتكرر عرض سنن النجاة والهلاك، ليترسخ قانون الاعتصام بالله والثبات له.

٢) الجزء التاسع عشر يغلب عليه الإيقاع الجدلي والمشهدي، والجزء العشرون يغلب عليه الإيقاع البنائي المتدرج فالفرقان والشعراء تمتلئان بالاعتراضات والردود والمجادلات والمواقف المتكررة بين الرسل وأقوامهم، أما العشرون فيأخذ القارئ من سؤال التوحيد، إلى مشهد القصص، إلى بناء الفتنة في العنكبوت، وكأنه ينتقل من كشف المرض إلى بناء العلاج.

٣) في التاسع عشر تتكرر نهايات المشاهد بالعبرة، وفي العشرين تتكرر بدايات المشاهد بالقواعد ففي الشعراء كثيراً ما يختم السياق بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، أما

العشرون فيبدأ من الأصول الكبرى: من هو الإله الحق؟ ما سنّة التمكين؟ ما قانون الفتنة؟ ما حقيقة الدنيا؟ ثم يبني عليها المشاهد.

٤) الجزء التاسع عشر يكثر فيه رسمُ النهايات المروعة للمكذبين، والجزء العشرون يكثر فيه رسمُ المفارقات التي تقلب الموازين في التاسع عشر ترى الغرق، والتدمير، والرجفة، والظلة، والجحيم، وعضّ اليدين، وفي العشرين ترى الطفل الذي يُلقى في اليم فيُحفظ، والعرش العظيم الذي لا يغني عن صاحبته حتى تُسلم، وقارون الذي خرج في زينته ثم خُسف به، وبيت العنكبوت الذي يبدو بيتاً وليس ببيت.

٥) الجزء التاسع عشر يقدّم النماذج في صورة أممٍ ورسالات، والجزء العشرون يقدّمها في صورة قوانين نفسية وتاريخية فالتاسع عشر يقول لك: هذا وقع لنوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب، وإبراهيم، وموسى، أما العشرون فيقول لك: انتبه، هذه ليست حوادث منتهية؛ هذا هو قانون التوحيد، وقانون الافتتان، وقانون الاستعلاء، وقانون العاقبة.

❖ الترابط الوجداني بين الجزأين

١) الجزء التاسع عشر يوقظ القلب بالخوف من الهجر والتكذيب والخسران، والجزء العشرون يثبّت القلب باليقين والتوكل والصبر: ففي التاسع عشر ترتجف النفس من شكوى الرسول: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾، ومن مشهد من يعض على يديه، ومن قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ثم يأتي العشرون ليأخذ هذا القلب المرتجف ويقول له: الطريق موجود، والرب واحد، والحق ظاهر، والفتنة مفهومة، والعاقبة للمتقين.

٢) الجزء التاسع عشر يورث في القلب رهبةً من سوء المصير، والجزء العشرون يورث فيه سكينةً من عرف سنن الله: ففي التاسع عشر تشعر أن الإنسان قد يضيع بسبب خليل سوء، أو هوى، أو هجر قرآن، أو كبر، أو تكذيب، ثم في العشرين تتبدل الرهبة إلى بصيرةٍ مطمئنة: إذا عرفت ربك، ولم تغتر بالدنيا، وصبرت على الفتنة، فلن يضيعك الله.

٣) الجزء التاسع عشر يضع القلب أمام السؤال: هل أنا مع القرآن أم ضده؟ والجزء العشرون يضعه أمام السؤال: هل أنا ثابت مع القرآن إذا كلفني الثبات ثمناً؟ فالأول يهزك من جهة الموقف من الوحي، والثاني يهزك من جهة الصدق في حمله، وكأن الوجدان في التاسع عشر يستيقظ، وفي العشرين يُختبر.

٤) الجزء التاسع عشر يفضح وحشة القلب إذا انفصل عن الله، والجزء العشرون يعرّفه الملجأ الوحيد إذا عاد إليه: ففي التاسع عشر ترى قلوباً تتبع الهوى، وتهرب من الرَّحمن، وتتكئ على أصنام وشفعاء وخلان، ثم في العشرين تسمع النداء الذي يلمّ شتات القلب: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، فتشعر أن القرآن لم يكتفِ بفضح ضياعك، بل دلَّك على باب النجاة.

٥) الجزء التاسع عشر ينتهي بك إلى نموذج "عباد الرحمن"، والجزء العشرون يسألك بصرامة: هل تستطيع أن تكون منهم إذا دخلت الفتنة فعلاً؟ فالأول يجعلك تحب الصورة، والثاني يمتحن محبتك لها؛ لأنه يكشف أن التواضع، والصدق، والطهارة، والزهد، والعبودية، لا تُعرف حقيقتها إلا إذا وُضعت أمام المال، والخوف، والسلطان، وطول الطريق.

٦) وجدان الجزء التاسع عشر مشدود إلى الحسرة على من ضلّ، ووجدان الجزء العشرين مشدود إلى الرجاء فيمن صدق وثبت: فبين ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ في التاسع عشر، وبين ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ

اسْتُضْعِفُوا﴾ و﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ و﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ في العشرين، ينتقل القلب من الارتعاش من الخسارة إلى التماسك برجاء الوعد.

وفي خاتمة الجزء الثاني أقول

ربَّ سائلٍ يسأل: لماذا تتكرر المعاني نفسها في هذا الجزء؟ أليست الانحرافات، وملامح الشخصية، وأمراض القلوب تدور حول الأفكار ذاتها؟

الجواب:

هذا التكرار في الظاهر ليس تكرارًا في الحقيقة، بل هو نظرٌ إلى المعنى الواحد من زوايا مختلفة؛ لأن القرآن نفسه يُربّي القلب بهذه الطريقة.. فالمعنى العقدي قد يُعرض مرةً بوصفه انحرافًا ينبغي الحذر منه، ثم يُعرض مرةً أخرى بوصفه مرضًا في القلب يحتاج إلى علاج، ثم يظهر مرةً ثالثة في صورة صفةٍ إيجابية يبنيها القرآن في شخصية المؤمن.

فالحديث عن التوحيد مثلًا قد يأتي أولًا في باب الانحراف العقدي حين يتعلق القلب بغير الله، ثم يعود في باب أمراض القلوب بوصفه داء الاعتماد على الأسباب ونسيان المسبّب، ثم يظهر في باب الملامح الشخصية بوصفه قلبًا موحّدًا لا يتعلّق إلا بالله.

وهكذا يفعل القرآن؛ فهو لا يكتفي بعرض الحقيقة مرةً واحدة، بل يطوف حولها في صورٍ متعددة حتى تستقر في القلب من كل الجهات: تحذيرًا من الضلال، وتشخيصًا للمرض، وبناءً للصفة المقابلة.

ولهذا فالقارئ لا يمرّ هنا على تكرارٍ لفظي، بل على تدرّجٍ تربوي؛ يرى فيه الفكرة نفسها وهي تنتقل من كونها خطأً يجب اجتنابه، إلى مرضٍ يجب علاجه، إلى خلقٍ إيماني ينبغي أن يُبنى في النفس.

فالقرآن لا يغيّر الإنسان بمعلومةٍ تُقال مرة، بل بمعنى يُعاد النظر إليه من وجوهٍ شتّى حتى يستقر في القلب استقرارًا يغيّر الحياة.

تم الجزء الثاني بحمد الله تعالى وفضله ومنِّه وكرمه

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المحتويات